



الأدب العربي في تاريخه

في

العصر العباسي

الجزء الثاني

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

مدرس الأدب ب تخصص المادة من الجامعة الأزهرية

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحاً لغوياً بلاغياً]

طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بصيرة

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

مكتبة يوسف الألكترونية
لنشر وترويج الكتب pdf
يوسف الرميض

جميع حقوق الطبع والنقل محفوظة

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالمعجزة الكبرى لهداية
الناس إلى أقوم سبيل .

وبعد : فإني أستعين الله ؛ وأستهديه فيما أنا بسببه من الإمام بتاريخ الأدب
العربي ؛ في عهد الدولة العباسية لطلاب السنة الثالثة من كلية اللغة العربية ؛ من
كليات الأزهر الشريف ؛ وإني أرجوه تعالى أن ينفع بهذا العمل الذي لم أرد به
إلا وجهه الكريم . اللهم فأعني واهدني وأحسن تدبيرى . إنك على كل شيء قدير
محمود مصطفى

٣٠ جادى الأولى سنة ١٣٥٢

٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٣



الطبعة الثانية

وفي هذه الطبعة وشينا الكتاب بشروح وافية لنصوصه من نثر وشعر ، وزدنا من
الموضوعات والتراجم ما رأينا فى التوسع به فائدة لقارئ الكتاب ، إذ لم يكن هنما فيه
أن نجعله مثل « مذكرات » المدارس التى يدمج فيها القول فيفوت على طالب الثقافة
العامة الانتفاع بها ، وإنما نعول فى كل حال على توفيق الله وهدايته .

محمود مصطفى

٥ من صفر سنة ١٣٥٦ هـ

١٦ من إبريل سنة ١٩٣٧ م

العصر العباسي

هو أزهى عصور اللغة العربية . بلغت فيه ذروة الكمال رصانة واتساعا وجمعا لما تفرق من محاسن اللغات . فقد صارت فيه لغة الدين والعلم والأدب . وترجمت إليها علوم الدنيا من الطب ، والنجوم ، والكيمياء ، والحيل ، (وهو ما يسمى الآن علم الميكانيكا) ، والفلسفة ، والمنطق ، والسياسة ، وتدير المنزل ، حتى أصبحت العلوم في ذلك العصر تتجاوز ثلثمائة في الشرع واللغة . والتاريخ والأدب . والشعر وغيرها . وما زال هذا العصر هو المثل الأعلى الذي يؤمل اليوم كل محب لغة أن يدور بها الفلك دورته . فتعود إلى ما كان لها فيه من سلطان ومكانة سامية ، وتكون لغة الأدب والعلم والفلسفة لا يعيها مصطلح ، ولا يتكأدها معنى .

قيام الدولة العباسية

كان من شأن الدولة الأموية أنها حكمت الناس بالسيف المسلول ، والمال المبدول ، فكان سيفها مصلتاً على أعدائها ، ومالها مكيلاً لأنصارها ، واستمرت في حكمها زهاء قرن لم تغمد السيف يوماً ؛ فكان من أعدائها آل الذين يرون أنفسهم ويزاهم الناس أحق بهذا الأمر . وقد جهروا بالعداوة فلم ينفعهم الجهر ، ومزقتهم سيوف الدولة شر ممزق وكان أولاد عمهم العباسيون لا ينازعون العلويين ولا يرون مزاحمتهم على الخلافة كما لم يكن العباس ينازع علياً ولا يرى نفسه أحق بالأمر منه . ولكن قد حدث ما جعل الأمر ينتقل إلى العباسيين بعد أن سالت فيه دماء العلويين دهرًا طويلاً . ذلك أن علي بن عبد الله بن عباس كان يقيم بقرية الحميمة

بالشَّراة^(١) ، (وهي صقع بالشام على طريق المدينة من دمشق) أقامه بها عبد الملك بن مروان ، فنزل عليه أبو هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب وهو الذي تنصره الشيعة المسماة بالكيسانية . فحين دنت وفاة أبي هاشم أدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي وأولاده وأوصى أوليائه به فصارت الكيسانية إلى جانب علي بن عبد الله بن عباس . وقد أعدَّ العباسيون للأمر عدته ، فعمدوا إلى التستر حتى لا يصيبهم ما أصاب العلويين من القتل والتشريد .

انتقل الأمر بعد علي بن عبد الله إلى محمد ابنه ، وكان داهية ، فرأى أن انتقل الملك من بيت إلى بيت يحتاج إلى تدبير وحزم ؛ فأقام الدعاة ، وجعل عليهم النقباء وأوصاهم بالتكتم ، وجعل مقرَّ الدعوة بلاد خراسان ، وكان من قوله لدعائه حين وجههم إلى الأنصار : أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده ؛ وأما البصرة وسوادها فعمانية تدين بالكف ، وتقول كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل ؛ وأما الجزيرة فحرورية^(٢) مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان . عداوة راسخة ، وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغَل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف مُنكَرة ، وبعد فإنِّي أتفائل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

وقد ساعد على زوال دولة بني أمية ما يضر لها الموالى من حقد لكثرة ما واثت عليهم من تحقير ، وابتزاز للأموال ومخالفة للعهود المعقودة لهم من أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين . فلم يسووهم بالمسلمين وإن أسلموا ، ومنعوا زواج المسلم

(١) الشراة : واد بين كيبك ونعمان .

(٢) حرورية : خوارج . سمو بذلك لأنهم أول ما خرجوا على علي رضي الله عنه اتخذوا حرورا مقاما لهم . وهي قرية قرب الكوفة .

منهم بالعربية ، وطلقوا عليه زوجه وجلدوه ، فقد روى الأغاني أن رجلا من الموالى خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة ووالها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بينه وبين زوجه ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال ابن بشير :

وَفِي الْمَائَتَيْنِ الْمَوَلَى نَكَالٌ وَفِي سَلْبِ الْخَوَاجِبِ وَالْخُدُودِ

وكان الحجاج يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربى ، وكان العربى إذا أقبل من السوق ومعه شئ فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وإذا أراد أحد أن يتزوج مولاة خطبها إلى مولاها دون أبيها أو جدّها .

هذا إلى أن الفرس كانوا يطعمون فى استعادة ملكهم ، فلم يستطيعوا ذلك لأنفسهم لقام الإسلام من نفوس القوم ، فحاولوه على يد غيرهم ممن لا تنكر مطالبته بالخلافة ، فكان ذلك على يد العباسيين .

وإن العصبية التى كانت تفت فى عضد الأمويين طول أيام دولتهم ، وهى التى كانت بين اليمنية والنزارية ، وبين بعض هذين الحزبين وبعض هى التى قضت على دولتهم أخيراً . فإن أبا مسلم الخراسانى نصير دولة بنى العباس لم يسهل عليه التغلب على عرب خراسان إلا حين استخدم الحيلة ، واستعان بالشقاق القائم بين قبائلهم هناك . فقد كان الوالى نصر بن سيار مضرّياً يسيطر على المضريين ، وكان إلى جانبه شيّبان ابن سلمة الحرورى يسيطر على أغلب ربيعة ، ومعهم جُدَيْع بن شَيْبِيب الكِرْمَانِى له طاعة اليمانية .

فما زال أبو مسلم يؤرّث العداوة بين هؤلاء حتى وقموا جميعاً فى يده وطلب منه كلُّ النصرة على قرنه ، فجمعهم فى مجلس ، وجعل الرأى لأصحابه ، وكان قد أوعز إليهم أن يختاروا وفد ربيعة واليمن لأن الملك فى مضر ، وهم يريدون إذلالهم ، فاستعان ببعض على بعض ، ثم قضت سياسته القضاء عليهم جميعاً .

سياسة الدولة العباسية

قامت هذه الدولة على أسس : هـا تعظيم أمر الدين والاعتزاز بالموالى ؛ فأما الدين فإنه أول ما تقموا من الأمويين ، وهاجوا به الناس عليهم ، ولدين المكان الأول من نفوس الناس ، خصوصا هؤلاء الشذج الأطهار الذين لا يطعمون فى ولاية ولا يؤملون جاها عند أحد ، وهم عامة الشعوب وسواها .

وقد رأينا أن خطب بنى العباس فى أول خلافتهم امتلأت بالنيل من بنى أمية لإهالهم أمر الدين ، واستهاتهم بشأنه ، كما رأينا أن أبا مسلم الخراسانى حين حضرته صلاة عيد الفطر عام ١٢٩ هـ بيلدة إسفيدنجة من مرو أمر سليمان بن كثير أن يصلى بالقوم قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبدءون بالخطبة ثم بالأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة الجمعة ، وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعاً ، وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربعاً وفى الثانية ثلاثاً .

ومن رغبتهم فى أن يكون الدين هو مظهر دولتهم كثر من خطبائهم الأولين الاقتباس لآيات القرآن كما جعلوه شارة الدولة ، فكتبوه على أعلام جيوشهم ، وملابس جنودهم ؛ وفى سكتهم وجميع ما يصدر عنهم ، كما عظموا شعائر الله وبيته المحرم ، فكان لا يخلو عام من حج خليفة أو ولي عهد ، وساقوا إلى الكعبة وقبر الرسول الكسى من ثمين الحرير ، وعملوا على راحة الحاج بما حفروا من آبار وجروا إلى مكة من ماء العيون . وقد ذكر التاريخ أن المهدي ركب إلى الحج فى كثير من عظماء دولته وأبدى من الأبهة ما لم يسبق له مثيل ، حتى لقد أقام لأهل الحرمين المآذب التى أفرغ الوسع فى تميمها ، وسقاهم الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام ، وفرق فيهم المال ، وكسا الكعبة ، وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ، وأنشأ روافد المسجد الحرام ، وجلب لها الرخام من البحر ، وبلغ ما أنفقه على ذلك وعلى القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع^(١)

(١) المصانع : جمع مصنعة أو مصنع وهو الحوض يتخذ ليتجمع فيه ماء المطر .

في كل منهل منها ، نحواً من ستة آلاف ألف دينار . وهكذا كان يفعل غيره فقد كان الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً . وقد لبس بنو العباس السواد نعيّاً على بنى أمية لقتلهم آل البيت واعتدائهم على حرّات الله .

وأما الاعتزاز بالموالى ، فذلك لأنّ الأمويين كانوا قد أفسدوا قلوب العرب فليست تصلح لغيرهم ، على أن أهواء أولئك العرب كانت قد تشعبت فلم يصيروا قوّة يعتدّ بها . ولكن أهل خراسان كما وصفهم محمد بن عليّ كانت لهم صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل . . . الخ ما وصفهم به من الجلد والقوّة ، وقد أحسن العباسيون مثوبة الفرس ، فكانت منهم جبهة الجيش والولاية في الأمصار والعمال في الدواوين ، وكان منهم الوزراء بل منهم أول من تسمى بالسلطان ، وهو جعفر بن يحيى البرمكي في زمن الرشيد . ويصحّ أن نقول : إن الفرس داخلوا العرب مداخلة شديدة في عظيم الأمور وحقيقتها ، حتى كان منهم الوزير وساقى الماء بالجرّة .

اعتمد العباسيون على الفرس ذلك الاعتماد ، وأقصوا العرب عن مراكزهم حتى لقد حاربوهم واضطروهم إلى العودة إلى جزيّرتهم لئلا يفسدوا عليهم أمرهم ، وإنك لترى هذه الروح متمثلة في قول إبراهيم بن محمد صاحب الأمر في الدعوة في وصاته لأبى مسلم الخراساني :

« وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » ، ثم في قول المنصور في وصاته لابنه المهدي : « وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدّتك إن نزلت بك . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن سيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده » ، ثم في قول المأمون وقد تعرض له رجل بالشام مراراً وقال : يا أمير المؤمنين ، انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : « أكثرت علىّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قبساً عن ظهور خيولها إلا وأنا

أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد، وأما الذين فوالله ما أحببتها ولا أحبنتى قط ،
وأما قضاة فسادتها تنتظر السفينى حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على
ربها منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عنى فعل الله بك » .

ولما فسد أمر الفرس و بطروا نعمتهم ، ودلوا بمكاتهم تغيرت عليهم قلوب الخلفاء
فنكب الرشيد أعوانه منهم وهم البرامكة ، ثم رأى المعتصم أن يستعين بالأتراك فإن
فيهم من الشجاعة وقوة الأجسام ما يقاوم به الفرس والعرب جميعاً ، فاستكثر منهم
حتى كان عنده منهم سبعون ألفاً ، فصاروا يؤذون الناس بطرق بغداد ، ويدوسون
شيوعهم وأطفالهم بسنابك خيلهم ، فاضطر أن يسكنهم « سُرَّ مَنْ رَأَى » فصارت
قاعدة الدولة من سنة ٢٢١ هـ إلى أيام المعتد حين عاد إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ .
ولكن الأتراك أيضاً استبدوا بالخلفاء استبداداً شديداً ، فصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ،
ومما يحكى من استبدادهم أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضره المنجمين وقالوا لهم :
انظروا كم يعيش الخليفة ، وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان في الجالسين ظريف : فقال
لهم : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ، وكم
يملك ؟ قال : يعيش ما أراد الأتراك . فكان قوله فكاهة تنطق بالحق ، وتمثل الواقع .
وصارت الدولة للأتراك بعد أن كانت للفرس ثم صارت للفرس على يد البويهيين ،
ثم للأتراك على يد السلاجقيين ، وما زالت هذه العناصر تفت في عضد الدولة ، وتقرع
صفاتها حتى قضت عليها

نتائج مداخلة العرب للموالى

ولقد كان لهذه المداخلة التي جرت بين العرب وتلك العناصر خصوصاً الفرس ،
أثرها الفعال في صيرورة الأمة العربية ، ولغتها إلى ما كانت عليه في هذا العصر ، وقد
ظهرت آثار هذه المداخلة ، وتلك المداخلة في الأجسام والعقول ، والعادات وسائر
شئون الاجتماع .

أما أثرها في البنى والأجسام ، فقد كان بالمصاهرة والتزواج ، وقد أقبل عليه العرب ، وأكثروا منه في هذا العصر لزوال النُّعْرة التي كانت تملكهم قديماً ، فتسروا وتزوجوا من الأعجميات لما كان هن من جمال وافر ، ولما رأى الناس من نجابة نسلهن . فقد ذكروا أن أهل المدينة كانوا زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على ابن الحسين ، ومحمد بن القاسم ، وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة علماً وورعاً . كذلك رغب الناس في التسرى لخفة مئنته ، حتى قالوا : الأمة تشتري بالعين وترد بالعييب ، وقالوا : عجبت لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر ؟ .

كثر التسرى في هذا العصر . وفي هذه الكثرة يقول الشاعر :

إن أولاد السَّرارى كثرت يارب فينا
ربُّ أدخلني بلاداً لا أرى فيها هَجِينا

وكثر أيضاً أن يتزوج غير العربي من العربية بعد أن عرفت ما كان من شأنه في العهد الأموي . وليس أدل على مقدار ما كان من هذا التسرى من أن تنظر إلى خلفاء بني العباس منذ الهادي إلى آخرهم فإنك تراهم جميعاً أبناء سرارى ما عدا الأمين ، فقد كانت أمه عربية هاشمية وهي زُبَيْدة بنت جعفر بن المنصور ، فموسى الهادي وهارون الرشيد ابنا الخيزران ، وهي أم ولد من خَرْشَنَة من بلاد الروم ، والمأمون تسمى أمه مَرَّاجِل ، وأم المعتصم تسمى مَارِد ؛ والواثق أمه رومية تسمى قَرَّاطِيس ، والمتوكل أمه خَوَّازِمِيَّة تسمى شُجَاع ، وهكذا .

وقد كتب محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب إلى المنصور في كتاب لاحاه فيه يقول : « ولا أعرفت في الإماء ولا حضنتي أمهات الأولاد » ، فكان من رد المنصور عليه : « وأما ما ذكرت أنه لم تعرق فيك الإماء فقد فخرت على بني هاشم طراً . أولهم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علي بن الحسين الذي لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مولود مثله » .

ولقد بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين ، وجوارى المتوكل أربعة آلاف ، وشأن غير الخلفاء من كبار رجال الدولة وأغنيائها شأن الخلفاء في ذلك .

وليس ينكر ما للاختلاط بين الأمم بالتزاوج والتوالد ، من أثر في فراهة الأجسام وقوتها ، والحديث يقول : « اغتربوا لا تضؤوا »^(١) ، ويقول الشاعر :

أُنْذِرُ مَنْ كَانَ بَعِيدَ الْهَمِّ تَرْوِيحَ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ
* فَلَيْسَ يَنْجُو مِنْ ضَوْئِ وَسْمِهِ *

لذلك رأينا في العصر العباسي من المهجناء من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال الأصمعي : ما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعمية ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السراى لأنهم يجمعون عن العرب ودهاء العجم .

أما أثر هذا الاختلاط في العقول فهو أثر ظاهر ليس أقل منه في الأجسام فإن هذه الأمم التي عاشرها العرب لها مدنيات سابقة ، ومزايا خصها الله بها ، فقد ذكرنا أن السند معروفة بالصيرفة ، وتركيب العقاقير ؛ والصين تذكر بالصناعة : من الخمر والنحت ، والتصوير والنسج والصباغة ؛ واليونان عرفوا بالحكمة وقوة الفكر ؛ والفرس عرفوا بالسياسة والتدبير ؛ والهند اشتهرت بالحساب والتنجيم والطب . ولا شك أن هذه المزايا تمثلت في النسل الناتج بين العرب وهؤلاء الأقوام ، كما انتقلت بالعاشرة والتلقين ، فحصل للعربي وراثته في قواه العقلية لم تكن له ، وفهم بالمدارس والمناقشة ما لم يكن قبل يتعقله . وكان من أثر استيلاء العرب على بلاد هذه المدنيات أن استولوا على كتب علومهم وحكمتهم ؛ فأقبلوا عليها يترجمونها ويدرسونها ، فنشأ فيهم جيل جديد يمتاز بصفات موروثه ، وعلوم مكتسبة لم تكن له لولا هذه العاشرة والمداخلة .

أما ما كان من شأن العادات والأخلاق ، فذلك أيضاً لازمة لا تنفك ، ونتيجة لا تتخلف لهذا الاشتباك الذي تم في هذا العصر ، فالإنسان قد ركب فيه حب التقليد .

(١) في النهاية لابن الأثير « ولا تضؤوا » بالواو .

فلما رأى العربى ما يأتية هؤلاء العشاء من عاداتهم فى طعامهم وشرابهم ، وأعيادهم ومواسمهم . انتقل إليه كل ذلك بالعدوى وليس شىء أعدى من الأخلاق والعادات ، لذلك رأينا العربى وقد طرح أنقته الجاهلية وعصبية الأموية ، فأقبل على عادات جيرانه يأتيا مثلهم ، ويكون فى الاستمساك بها كأحدهم . فهذا عيد النيروز قد صار العرب فى عهد العباسيين يحتفلون به كما يحتفلون بعيد الفطر أو الأضحى ، ويتهادون فيه ويتزاورون ، ويلبسون الجديد ، ويخرجون إلى الرياض كما يفعل أصحابه القدماء . كذلك نراهم قد قلدوهم فى ملابسهم فاتخذوا القلائس والأقبية ، وضروب الملابس الفارسية ، ولم يقتصروا فى اتخاذ ألوان طعامهم ، وأنواع أشربتهم والغناء على طريقتهم ، وبما رأوا فى أيديهم من أدوات موسيقاهم .

ولا ننس أن لهذه المدنية القديمة عيوباً كان العرب ناجين منها قبل هذه الخلطة فوقعوا فى أمرها ، وجرها عليهم نزولهم إلى هذا المعتزك الذى كانوا يتحامونه سابقاً . ومن تلك العيوب ما استأزمه المال الكثير المتداول بينهم من ترف بالغوا فيه حتى كانت موائدهم تحشد فيها ألوان الأطعمة حشداً . فتبلغ على مائدة الرشيد ثلاثين لوناً ، وينفق عليها فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، وحين بنى بريدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها فى الإسلام . وجعل الهبات فيها غير محصورة ، فكان يهب أوانى الذهب مملوءة فضة ، وأوانى الفضة مملوءة ذهباً ، وقد فعل المأمون أكثر من ذلك حين بنى ببوران بنت الحسن بن سهل سنة ٢١٠ هـ ، فإنه أعطاها فى مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد الشموع من العنبر فى كل واحدة مائة من . وليس أقل من هذا ما فعله الحسن بن سهل فإنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقايع بأسماء ضياع وجوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ، ثم يمضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيتسلم ما فيها .

كذلك فشا فى القوم إلى جانب هذه المذمة ما يتبعها غالباً من حرص على المادة . وما يدعو إلى ذلك من غش وخداع ورشوة لمن بيده سبب إلى منفعة . فالعامل يرشو

من يستطيع مساعدته في الولاية لعمل من أعمال الدولة ، والوزير يأخذ من كل هؤلاء ، ويقتنى المال الكثير والضياع العامة والجواهر الثمينة ، والخليفة ربما سقطت همته إلى استصفاء مال الوزير ليشبع نهمته من هذه الثروة الطائلة ، ولقد بلغ أن صار استصفاء أموال الوزراء وسيلة لسد النفقات التي يكون بيت المال قد عجز عنها ، وذلك للاعتقاد السائد بل للحقيقة الواضحة ، وهي أن هذه الأموال جمعت من غير حلها وأن بيت المال أولى بها .

أما الاستهتار بالشهوات وإشباع الرغبة من الموبقات ، فقد كان سببه أن العرب أدركوا هذه الأمم وهي على أبواب الفناء فلم تكن المدنية قد تركت لهم طريقاً ينفذون منه إلى شهوة إلا عبدته لهم ، وقد ساعد الشعر العربي على رواج المفاسد بين الناس حتى لقد ضج أهل البصرة من إغراء بشار للفتيان والفتيات بشعره وتحريضه لهم على الفجور وهو الذي جعل للفتيات يومين في الأسبوع يتلقين فيهما ما يكون قد أحدثه من من شعر يصلح للغناء . وفيه مافيه من دعارة ، ولقد أصاخ المهدي لشكوى الناس فأندر بشاراً إن تغزل ، ولكنه كان يحتمل على ذلك ، فيقول مثلاً :

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه جاريةٍ فديتهُ
بعثتُ إلى تسوؤني بُردَ الشبابِ وقد طويتهُ
والله ربَّ محمدٍ ما إن غدرتُ ولا نويتهُ
أمسكتُ عنه ورُبما عرَضَ البلاء وما ابتغيتهُ
إن الخليفةَ قد أبى وإذا أبى شيئًا أبينهُ
ونَهَانِي الملكُ الهما م عَنِ النساءِ فما عصيتهُ
بل قد وفيتُ ولم أضع عهدًا ولا وَايًا وأيتهُ^(١)
ويشوقي بيت الحبيب إذا غدوتُ وأين بيتهُ؟

(١) الوأى : الوعد .

حال الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته

ومن هذه المفاصد قديماً ما أخذه الله على آل لوط فأهلكهم بسببه فإن العرب لم يكونوا يعرفون هذه النقيصة ، ولا ورد لها ذكر في كلامهم ، ولا عرفت بين عاداتهم في جاهلية ولا إسلام ، حتى عاشروا الفرس وهي فيهم متأصلة ، فهان عليهم أمرها ، وتورطوا فيها ، وجهر شاعر من الشعراء بالرضا عنها ، وهو أبو نواس ، فصارت سنة في الشعراء كما كانت عملاً من مخازي الفساق ، وأصبحنا لا نكاد نرى غزلاً إلا في المذكر ، وتلك وصمة للأدب العربي والخلق العربي قد سجل علينا في الكتب عارها .

ومن قول شيخ هذه الوصمة أبي نواس :

أَمَا وَاللَّهِ لَا أَشْرًا حَلَفْتُ بِهِ وَلَا بَطَرًا^(١)
 لَوْ أَنَّ مَرْقَشًا حَيٌّ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ ذَكَرًا^(٢)
 كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَفَنَ مِنْ أَرْزَارِهِ قَرًا
 وَمَرَّ بِهِ بِدِيَوَانِ الْخَرَجِ مُضْمَخًا عَطَرًا^(٣)
 يَوْجُهُ سَابِرِي لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قَطَرًا^(٤)
 وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ لَهُ مِنْ عَنَبٍ طُرًا^(٥)
 يَبِينُ خَالَطَ التَّفْتِيهِ رُفَى أَجْفَانِهَا حَوَرًا
 يَرِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرًا

(١) الأشر : المرح . البطر : قلة احتمال النعمة ، والطفيان بها ، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة .

(٢) المرقش : شاعران كان كلاهما عاشقا وقد ذكروا سبب تلقيب الأول وهو قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم

ولم يذكروا سببا لتلقيب الثاني ولعله لما كان أخا الأول سرى إليه لقبه وكلا الشاعرين جاهلي .

(٣) الضمخ : لطنخ الجسد بالطيب .

(٤) وجه سابري ، رقيق ، من قولهم : ثوب سابري ، يريدون رقيقا جدا .

(٥) الطرة : مقدم شعر الرأس .

لَا يَقْنَنَّ أَنْ حُبَّ الْمَرْءِ دِيْلَفِي سَهْلُهُ وَعَرَا^(١)
خُصُوصًا أَنْ بَعْضَهُمْ إِذَا أَحْبَبْتَهُ اتَّهَرَا

أقسام العصر العباسي

سنة ١٣٢ - سنة ٦٥٦ هـ

طالت مدة هذا العصر حتى زادت على خمسة قرون ، وقد جرت فيها الأحداث العظيمة حتى صار العصر عصوراً يختلف ما بينها وتباين أحوالها ، واللغة في كل ذلك تتقلب بها الأحوال لأنها هي النتيجة المحتومة ، والأثر الذي لا يتخلف لما يمر بالأمة من أطوار أو يعترىها من انقلاب .

وإذا قلنا : إن العصر العباسي بدأ في عام ١٣٢ من الهجرة فليس معنى ذلك أن نتائج الانتقال من حكم بني أمية ظهرت بين يوم وليلة ، فإن ذلك لا يكون ، لأن المؤثرات التي تعترى الأمم لا بد لها من زمن تبذر فيه بذورها ، ثم تستوى على سوقها وتجنح ثمرتها . فكثير مما جرى في العصر العباسي كانت له مقدمات في أواخر العصر الأموي . فهذه العلوم التي أدركت ثمرتها ، وتلك المذاهب الدينية والفلسفية التي ذاعت وشاعت ، بل هذه الحضارة التي رأيتها في العصر العباسي تتناول جميع مظاهره ، كل هذه الأمور كانت لها مقدمات في العصر الأموي ظهرت فيه ضعيفة وانية ، ثم صارت قوية ناشطة . ؛ فالخمر مثلاً قد شربت في العصر الأموي واستهتر بها شرابها ووصفوها في شعرهم . ولكن هذا كان إذ ذاك بدعة منكورة ، وشنعة ما يقدم عليها إلا مثل الوليد بن يزيد وندمانه . أما في العصر العباسي فقد تكاثرت عشاقها فخرى وصفها على كل لسان وقالوه في غير حشمة ولا وقار ، وافتنوا في معانيها ، والتزموا الحديث عنها في شعرهم ،

(١) المراد : جمع أرد . وهو الذي طر (نبت) شاربه ولم تخرج له لحية بعد . الوعر (بالفتح) فالسكون . أو بفتح فكسر : ضد السهل . وفتحت العين للشعر .

حتى كان في موضع النسيب من شعر السابقين لا يفعل ذلك واحد أو اثنان ، ولكنه ديدن الشعراء جميعا . والعلم الذى زخرت بحوره فى العصر العباسى كانت جداوله قد بدأت تتكوّن أيام العصر الأموى ، فالنحو وضعه أبو الأسود ، وزاد فيه تلاميذه ؛ ثم اشتغل به أهل البصرة والكوفة فى العصر الأموى ، ثم اشتدت حركته ووضع أهم كتبه فى العصر العباسى . والترجمة ليست فكرة ناشئة ابتدأها وابتدعها المنصور ، ونماها الرشيد ثم أشعل جذوتها المأمون ، بل إن العصر الأموى على سذاجته كان له نصيب من العلوم المترجمة فكُنَّاش أَهْرُونَ فى الطب ترجمة مَاسَرَجَوِيَّة من السريانية إلى العربية زمن مروان بن الحكم ، ونشره للناس عمر بن عبد العزيز . وخالد بن يزيد الملقب بحكيم بنى مروان ترجمت له كتب فى الكيمياء وأقبل عليها يدرسها ويحقق مسائلها . والعصور لابد تتداخل ويسرى على سابقتها بعض أحكام لاحقها ، ولكن التمييز الظاهر بين عصرين لا يكون إلا بعد انتهاء زمن المداخلة بينهما . وإذا اعتبرنا الحوادث العظمى التى جرت فى العصر العباسى أمكننا أن نجعله ثلاث مدد :

١ — فالدّة الأولى من قيام الدولة إلى استيلاء بنى بُؤْيَه على بغداد : أى من سنة ١٣٢ إلى سنة ٣٣٤ هـ وهى قرنان من الزمان لم يدر الفلك بمثلها ، فقد زهت اللغة وزادت ثروتها من الألفاظ بما شملته من العلوم . يشد أزرها خلفاء وأمرأ لا يدخرون وسعا ولا مالا فى سبيل إحيائها لأنها لغة الدين الذى قامت عليه دولتهم ولسان الحق الذى تنطق به حججهم ، فأعطوا الشعراء بسخاء لم يمهّد فى تاريخ الملوك حتى وهبوا على كل بيت ألف دينار ، وأنفقوا على نقل العلوم ما لم يعرف مثله فى همم الملوك والأمرأ حتى كان البرامكة يعطون أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً . قتمّ لغة فى هذا العصر ما لم يجتمع لها مثله فى زمن ما ، إذ نشأت أغلب العلوم الإسلامية ، ونقلت العلوم الدخيلة ، وازدهت أيامه بالأئمة المجتهدين والأعلام المحدثين . ومشهورى الرواة ، وجِلّة العلماء ، ونابغى الشعراء ، ونحوال الكتاب ؛ ولعلّ أهم مظاهر هذا العصر أن الدرجة

التي وصلت إليها اللغة فيه نظماً ونثراً لم يحز فضيلتها عصر سابق ، ولا طمع في مساهمتها لاحق

وكان تمام الكمال في هذا العصر إلى أوّل خلافة المتوكل ، ثم بدا من شأن الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم (كما ذكرنا) استبداد بالخلفاء وسيطرة على شئون الدولة لم يبق معها ما كان للخلفاء من جلال وهيبة شاملة ، وإتفاق في سبيل العلم والأدب . لأنهم شغلوا بأنفسهم بين حذر من الأتراك ، واستسلام إلى الملاحى ، وعكوف على الشهوات ، وخضوع لحكم النساء اللاتي صرن يشاركن في سياسة الدولة لحاجتهن إلى المال . وأكثر ما كان استبدادهن بأمور الدولة أيام المقتدر المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

٣ - والمدة الثانية من استيلاء بني بويه - وهم من الفرس - على بغداد ، إلى انتزاع السلاجقة (وهم من الأتراك) للحكم من أيديهم ، وذلك من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ . وجد آل بويه الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه . ولقبه أبو شجاع ، وكان له ثلاثة أولاد ، وهم : علي ، ولقب عماد الدولة وحسن ، ولقب ركن الدولة . وأحمد ، ولقب معز الدولة ؛ وقد انتظم هؤلاء الأولاد في سلك الجندية ، ثم مازال الحال يرتقى بهم حتى تولى عماد الدولة خراسان على مال يدفعه للخليفة ، وتملك أخوه ركن الدولة خوارزم ، ومعز الدولة شيراز ، ثم دخل الثلاثة بغداد في أيام المستنفي سنة ٣٣٤ هـ ، فرحب بهم ، وخلع عليهم ، ولقبهم بالألقاب السابقة ، فاستبد بنو بويه بالدولة ، وعزلوا الخلفاء وولاهم ، ورفعوا منار الشيعة ، وأحيوا معاملها ، ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو أوّل من خوطب بهذا اللقب في الإسلام .

وفي مدة بني بويه ، وهي قرن ونيف نصّبت العلوم على اختلاف أنواعها ، وظهرت فيها الكتب الوافية خصوصاً في اللغة وعلومها والتاريخ والأدب والطب والفلسفة . وإذا كان العصر الأوّل عصر ازدهار البلاغة ، وورق الشعر والكتابة

الأدبية ، فإن هذا العصر هو العصر الذهبي للعلوم والتأليف . وقد عاصرت الدولة البويهية دول أخرى فارسية مشتقة من الدولة العباسية استقل بها ولايتها لما شعروا بضعف الخلفاء . ومنها الدولة السامانية^(١) بتركيستان حكمت من سنة ٢٦١ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ ، والدولة الزيارية^(٢) بطبرستان حكمت من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٣٤ هـ . كذلك عاصرها غيرها من الدول التركية كالإخشيدية بمصر من سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٥٨ هـ والغزنوية^(٣) بأفغانستان والهند من سنة ٢٩٢ هـ إلى سنة ٣٨٠ هـ ، ودول عربية كالفاطمية بمصر من سنة ٣٥٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ والحمدانية بالشام من سنة ٣١٧ هـ إلى سنة ٣٩٤ هـ .

وقد تنافست هذه الدول في إكرام العلماء ، وترغيبهم في التأليف خدمة للدين ، وإعزازاً لشأنه ، فكانوا يؤلفون الكتب برسم هؤلاء الأمراء . كذلك كثرت المكاتب التي تحوى مئات الألوف من الكتب ، ومنها ما كان عاماً لطلاب العلم ، كمكتبة العزيز الفاطمي التي كانت تحوى ألف ألف كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات ، ومكتبة الحاكم بأمر الله التي كانت تسمى دار الحكمة أو دار العلم ، وقس على ذلك مكتبة سابور بن أردشِير وزير بهاء الدولة بن بويه في بغداد جعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها مخطوط بخطوط الأئمة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم وقد احترقت فيما احترق من محال الكرخ^(٤) ببغداد عند دخول أول ملوك السلاجقة طغرل بك إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وفيما وراء النهر ببخارى كان لنوح بن منصور سلطانها مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علومه منها .

٣ — والمدة الثالثة كان ابتداؤها من استيلاء السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ

(١) نسبة إلى جدم سامان . (٢) نسبة إلى مؤسسها «رداويخ بن زيار» .

(٣) نسبة إلى مدينة غزنة التي نشأ منها مؤسس الدولة .

(٤) الكرخ من بغداد : سوق الباعة جعله المنصور خارج أسوارها حتى لا يتسرب جواسيس

الأعداء إلى المدينة باسم البيع والشراء (ياقوت) .

إلى دخول المُغل وثلثم لعرش الدولة العباسية من العراق سنة ٦٥٦ هـ . ولهذه الدولة شأن غير الدول التي تفرعت من الدول العباسية . فإن ملوك هذه الدول كانوا فرساً أو تركاً نشئوا في حجر الدولة ثم تولوا جزءاً منها فاستقلوا به . أما هذه الدولة فقد ظهرت فجأة ببلاد تُركِستان ، فاكتمست الإمارات الصغيرة حتى وصلت إلى بغداد ، فاستولت عليها .

وجدها وهو سَلْجُوق أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تُركِستان ، وعظم شأنه بين جنوده ، وأطاعوه أعظم طاعة ، ثم علم باختلال أحوال الدولة العباسية ، فقطع فيها ، ولكنه رأى أنه لا يبلغ مراده منها إلا بالإسلام فأسلم هو وقيّته ، ثم أقبل يغزو ويفتح حتى دانت له البلاد من أفغانستان إلى بحر الروم . ودخل مُنْقَرِط بك بغداد أيام القائم بأمر الله فرحب به ، وتقدّم إلى الخطباء أن يخطبوا له بمجامع بغداد . ومن مزايا هذا العهد انتعاش السنة بعد أن تضعفت على يد الدولة البويهية بالعراق وفارس ، والدولة الفاطمية بمصر . وكلتا الدولتين شيعية تتعصب لآل عليّ . كذلك من مزاياه انتشار المدارس في العالم الإسلامي ، وأشهر مدارس هذا العصر المدرسة النظامية ببغداد أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلاجوق ، وجعل التعليم فيها بالجمان ، وفرض لطلابها الأرزاق ، وكان لها شأن كبير في العالم الإسلامي . فقد كان من أسانذتها : أبو اسحاق الشيرازي ، والإمام أبو نصر الصّبّاغ ، وحمزة الإسلام الغزالي ، والسّهَرَوَرْدِيّ الشاعر ، وكمال الدين الأنباري ، وأبو زكريا التّبريزي . ومن نابهي طلابها عماد الدين الاصفهاني ، وكمال الدين الأنباري الذي صار أستاذاً بها .

وقد اقتدى بالوزير نظام الملك غيره من الأمراء ، فأنشئوا المدارس المجانية في أنحاء المملكة الإسلامية واشتهر نور الدين زَنْكِي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ببناء المدارس في دِمَشْق وحَلَب وَمَمَاة وْبَلْبَك وَمَنْبِج ، ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ بنى المدارس في مصر والإسكندرية ، وجاء في رحلة ابن جُبَيْر ، وقد طاف بلاد الإسلام الشرقية في القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق ، وثلاثين في بغداد .

كذلك يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة التي تحوى حقائق كثيرة محدوفة الأسانيد ، وذلك لأنهم رأوا الفتن التي مرّت بالمسلمين تقضى على الكتب وتذهب بمجهود العلماء ، فعمدوا إلى التلخيص والجمع ليكون الكتاب الواحد حاوياً لعشرات من الكتب ، وقد أحسنوا تبويب ذلك وترتيبه ليسهل الانتفاع به ، ومن أهم ما بين أيدينا من هذه الكتب معجم البلدان لياقوت الحموى ، وهو معجم كبير بأسماء البلاد ويعدّ خزانة علم وأدب لأنه إذا ذكر بلداً أورد تاريخه ومن اشتهر من رجاله ، وقد طبع هذا الكتاب جميعه بمصر فى أربعة أجزاء ومجلدين للفهارس ، وله كذلك معجم الأدباء ، وهو أكبر وأوسع من معجم البلدان ترجم فيه للنحويين والكتاب والنسائين والشعراء والأخباريين والمؤرخين ، ولكن الكتاب لم يعثر على جميع أجزائه ، وقد طبع بمصر ما ظهر منها وهو ستة ، وكذلك من كتب هذا العصر الجامعة شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد . فقد أخرجه صاحبه فى عشرين مجلداً ، وطبع بمصر فى أربعة مجلدات كبيرة تقع فى نحو ألفى صفحة ، وفيه فوائد تاريخية ودينية كثيرة ، وأظهر ما فيه تاريخ الخوارج ، فإنه لم يجتمع فى كتاب ما اجتمع منه فى هذا الكتاب ، ومنها كتاب الأنساب للسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وهو ليس فى الأنساب بمعنى تسلسل الآباء ، وإنما المراد به الانتساب إلى بلد أو قبيلة أو أب أو صناعة أو تجارة كما تقول الرازى نسبة إلى الرى ، والبراز نسبة إلى صناعة البرّ وهكذا ، وطريقة السمعانى أن رتب كتابه على حروف المعجم ، فإذا عرض للكلمة ضبطها ، ثم عرف المنسوب إليه بأن يذكر تاريخه بلداً أو قبيلة ، وترجم للمنسوب ، وربما اشترك فى اللقب الواحد أربعة فأكثر فيترجمهم ، وقد تبلغ تراجمه كلها أربعة آلاف .

هذه هى مدد هذا العصر كان تكوينها بأسباب قوية أثرت فى الأمة العربية تأثيراً ظاهراً حتى انقلعت اللغة والعلوم تبعاً لذلك ، وكان من آثار ذلك هذا الذى ذكرناه مجملاً ، وسنعود إلى تفصيله فى الأبواب التالية .

تأثير اللغة الفارسية في اللغة العربية

إنما نخصّ اللغة الفارسية بالتأثير في اللغة العربية وآدابها ، لأنّ الفرس هم تلك الأمة العظيمة القدر ، الراسخة القدم في العلم ، القديمة المدنية ، الواسعة الرقعة ، وقد نزل العرب بلادهم منذ الفتح ، فكان حتماً من الحتم أن يتشرب العرب علومهم ويستشعروا عاداتهم ، وأن تظهر آثار ذلك في لغتهم التي شاء الله أن تقهر لغة الفرس ، لأنها لسان الحاكم ذى السلطان ، كما أنها لغة الدين الذي لا يقبل أهله فيه هوادة ، ولا يرضون بغمط . أما الترك فهم وإن حكموا العرب حيناً ، واستولوا على رقعة مملكتهم الشرقية منذ قيام الدولة السلجوقية ، لم يكونوا مستطيعين أن يحدثوا مثل ما أحدثه الفرس في نفس العربي ولغته . ذلك بأنهم قوم طارئون من جهات سحيقة احتلوا البلاد ، وحكموا أهلها بالسيف ، فلم تكن لهم تلك الكثرة التي يظهر فيها أثر المخالطة ، ثم هم أميون لا عهد لهم بالعلم ، ولا سابقة لهم فيه . نعم قد أحدثوا من الأثر ما ناسب قلتهم ، أحدثوا هذه الألفاظ التي رأيناها تظهر في آخر أيام الدولة ، مثل سنجقدار ، ومعناها : حامل الراية خلف السلطان ، وسنجق معناها بالتركية : رمح ودار معناها ممسك ، ومثل دوادار بمعنى : متولى أمر الأحكام وتنفيذها ، ومهندار : أى متولى الضيافة لمن يرد على السلطان من رسل وغيرهم ، وسرّدار : أى رئيس الجيش ، وفارسيتها : إسْفَهَسَالار .

على أن الذى جعل التركية لا تخلف أثراً عظيماً أنها لم تأت إلا بعد أن استوفت العربية ما تحتاج إليه من مصطلح في العلم ، ومستعمل في الأدوات فلم يكن ثمة محل لألفاظ تلك اللغة .

يضاف إلى ذلك تأثير في لغة التخاطب جر إليه اختلاطهم بالناس ، فسرت بعض

ألفاظهم إلى الألسنة ، ولكن هذا التأثير لا يعدّ شيئاً مذكوراً إلى جانب ما أحدثته الفارسية .

كان الفرس أهل فصاحة في لغتهم يعنون فيها باللفظ المونق ، والوقع الحسن ، فعندهم ازدواج وسجع ، وعندهم جناس وأنواع كثيرة من البديع ، وهم يحكون نوعى الكلام من طويل ضافى الذيل ، وقصير متناهى القصير ، ولهم غرام بالتوقيع كان يقوم به الكتاب أمام رؤسائهم والوزراء فى حضرة ملوكهم ، وكانت فى لغة العرب كل هذه الخصائص ولكنهم لم ياتفتوا إليها لأنها من الزينة ، وقد كانوا إلى حين مداخلتهم للفرس جفاة سدّجا لم تصقلهم المدنية ، ولم ترهف ألسنتهم وأذواقهم مناظرها ومحاسنها ، ولكنهم حين عاشروا الفرس رقت طباعهم ، فبدؤوا يتجهون اتجاهمهم ، وحذق العربية من الفرس كثيرون ، فلم يحجموا عن نقل محاسن لغتهم ، وأنيق أساليبها إلى العربية التى طرءوا عليها ، ورأوا فى حذقها رزقا واسعا ، وسموا كبيرا يدينهم من مجالس الملوك ، ويفخرهم بالغنى الواسع ، ذلك هو كرسى الوزارة الذى كان وقفا على كلّ بارع من الكتاب .

كذلك تعلم كثير من العرب لغة الفرس التماسا للذة ، واستمتاعا بقراءة آثار هؤلاء القوم والاطلاع على تاريخهم ومقدار عقولهم . فكان لأسلوب اللغة الجديدة عدوى صارت إلى لغتهم الأولى . فكنت ترى فارسيا حذق العربية ، وعربيا أجاد الفارسية ، وكلاهما يزيد فى العربية لغة الدولة والدين والخطاب والتأليف كل ما يراه من محاسن الفارسية .

وقد بلغ أن قوما حذقوا اللغتين حذقا تاما ، وكان لهم فى الأدب العربى آثار جليلة ، كابن المقفع ، والفضل بن سهل ، وسهل بن هرون ، وموسى بن سيار ، وبديع الزمان الهمداني ، والفخر الرازى ؛ ويحكى الجاحظ أن ابن سيار هذا كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته فى العربية كفاء فصاحته فى الفارسية ، وكان يجلس مجلسه للوعظ والقصص ، فيقرأ الآية من القرآن ويفسرهما للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية ،

فما يعرف الناس بأى لسان هو أبين . كذلك كان بديع الزمان تلقى عليه الأبيات
الفارسية فيترجمها للوقت والساعة إلى أبيات عربية ، وكذلك كان الفخر الرازى
واعظاً بليغاً يعظ بالعربية والفارسية .

وإذا أضفنا إلى تعلم الفارسية بالنشأة مرة ، وبالرغبة أخرى ، ما كان من بذل
الخلفاء فى سبيل الترجمة ونقل العلوم ، علمنا كيف كانت العربية تستفيد من كتابة
هذه العلوم بها . وأدركنا مقدار الثروة الحاصلة من توفيق الترجمة بين المعانى العلمية
العويصة والألفاظ العربية التى لا عهد لها بالخضوع لمثل هذه المعانى .

كذلك كان من نتائج هذه الترجمة وضع المصطلحات لمسائل هذه العلوم والأسماء
لما يرض فيها من آلة أو نبات أو حيوان أو كوكب ، وقد دل العرب فى علمهم هذا على
أنهم كانوا جديرين حقاً بهذه المدنية ، فإنهم لم يقفوا جامدين ، ولم يقبلوا كل ما جاءهم
من اللغات الأخرى على حاله ، ولكنهم عرفوا أن فى الجمود حرماناً من الفائدة ، وفى
الإياحة المطابقة جناية على اللغة . فما كان فى لغتهم له لفظ آثروه فى الغالب على اللفظ
الأجنبى ، ومالم يجدوه فى لغتهم أخذوه فهدبوا حواشيه وأخضعوه فى الغالب لأوزان
لغتهم ، وغيروا من حروفه ما لا يستطيعون النطق به ، فيخرج اللفظ بعد ذلك سائغاً
سهلاً ، وتستفيد اللغة غنى بهذا الجديد عليها ، وذلك العمل هو الذى يسمى التعريب
أو الإعراب .

التعريب

كانوا يعرضون للباء الفارسية ، وهى بين الباء والقاء ، فيجعلونها باء أو فاء
عربية فيغيرون بنجه إلى فَنَزَج^(١) ، وفى برند برند أو فرند . وكذلك الجيم
الفارسية ، وهى بين الجيم والكاف كانوا يجعلونها جيماً أو كافاً أو قافاً ، فيقولون فى
کرداب ، وهو وسط البحر جرداباً ، وفى لسكام لجاماً ، وكهرمان صيروه إلى قهرمان^(٢) ،
وکردان إلى كرد . وربما أبدلوا الحرف ، وهو فى لغتهم كما فعلوا بالشين يبدلونها سيناً

(١) الفنزج : الرقص . قال فى شفاء الغليل : هو لعب للمجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويرقصون .

(٢) القهرمان : من يصير إليه أمر البيت وتدييره .

مثل : دَسَتْ^(١) في دشت ، وإسماعيل في إثمًاويل ، ويجعلون مكان الحرف الأخير الذي لا يثبت في كلامهم جيمًا كما قالوا في كوسه كَوْسَجًا^(٢) ، ونموده نموذجًا ، وبنفسه بَنَفَسَجًا وهم في الغالب يلحقون الأعمى بوزن عربي كما ألحقوا درهماً بِهَجْرَع^(٣) ، وبهَرَجًا بجعفر ودينارًا بديماس^(٤) ، وإسحاق بإعصار ، ويعقوب بيزْبُوع ، وجَوْرَبًا بكوكب ، وقد لا يلحقون كهراسان ، وليس في كلامهم فُعَالَانُ وكَاهِلِيلِج^(٥) ، وليس في كلامهم إِفْعِيلَال وقد ذكروا أن مما يعرف به العرب اجتماع الجيم والقاف ، كمنجنيق وجَلَنَبَلَق (أصوت الباب) ، واجتماع الصاد والجيم ، وكَصَنْجَة^(٦) وَصَوَّلَان ، وكذلك وجود نون بعدها راء مثل تَرْجِس ، ونَوْرَج^(٧) ؛ وكذلك الدال بعدها زاي كَهَنْدَز .

وقد عرّب العرب ما احتاجوا إليه مما ليس في لغتهم من ألفاظ الأطعمة ، وأسماء الأدوات والنبات والأدوية ، والحقّ أنهم لم يقفوا عند الأخذ من الفارسية بل أخذوا من غيرها كاليونانية ، وإن كان مأخذه من الفارسية أكثر .

فما أخذوه من الفارسية أسماء الأطعمة ، ومنها : الطَّبَاهِجَة^(٨) لطعام من بيض وبصل ولحم وأصلها تباهاه ، والسَّكْبَاج لمرق يعمل من اللحم والخل أصله سكبا وسكّ بمعنى خلّ وبا بمعنى طعام ، والنَّيْمِرِشْتُ للبيض الذي يشوى بعض الشيء ، ونيم معناها نصف ورشت معناها مشوى ، والسَّنْبُوسَج لرفاق تقلى ، (وأهل مصر يقولون

(١) الدست : صدر البيت .

(٢) الكوسج : ناقص الشعر ، وقيل ناقص الأسنان ، والأول هو المعنى المعروف للكلمة .

(٣) الهجرع : الأحمق ، والطويل المشوق ، والكلب السلوقي الخفيف .

(٤) الديماس : السكن والسرب والحمام .

(٥) الاهليلج (وتكسر اللام الثانية) : ثمر منه أسود وأصفر .

(٦) الصنج : شيء يتخذ من الصفر يضرب بعضه ببعض ، وآلة بأوتار يضرب بها .

(٧) النورج : سكة الحراث (آلة الحرث) .

(٨) الطباهجة : اللحم المشرح . (كما في القاموس) ، وفي شفاء الغليل هو السكبب (كما في

كتاب تاج الأسماء) .

عنها سنْبوسك) ، والفالوذق^(١) لما نسميه « بالوذه » ، واللوز ينَج والجوز ينَج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز . والزَمَاوَرْد^(٢) وهو الرُقَاق الملفوف باللحم ، والكَامَخ وجمعه كَوَامِخ ، وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويخفف ، وكذلك أسماء الأشربة ، ومنها : السَّكَنْجَبِين ، وهو شراب ينفع في تسكين العطش مركب من سَك ، وهو خلّ وأنجيين بمعنى عسل ، والدُّوْشَاب وهو نبيذ التمر ، والأقسما وهو نقيع الزبيب ، والجَلَّاب لماء الورد ، وأصله كلاب ورد ، والمُسْطَار حجر حلوة .

ومن أسماء النباتات والأزهار : الدارصيني ، ومعناه شجر الصين ، والسذاب لبقل ، والخَرْشَف لنوع من الخَسّ البري ، والثُّوت ، وأصله توث ، أو توذ ، والكَرْوِيَا ، والخُولَنْجَان ، والآزْرِيُون لنور أصفر ، معرب أذركون : أى لون النَّار ، والفرس كانت تتفعل به وتجعله خلف آذانها تيمناً . وأصل ذلك أن أَرْدَشِير بن بَابَك كان يطلّ من قصر ، فراه في حديثه فأعجبه فنزل لجنيه ، فسقط القصر فتيمن ، والجُلَنَار وهو زهر الرمان ، والبُسْتَان ، وهو مغرس الزهر أصله بوستان ، وبو : معناها رائحة ، وستان : معناها موضع .

ومن أسماء الحيوان : السَّمُور^(٣) ، والسَّنَجَاب ، والقَاقُم ، والفَنَك^(٤) ، والخُشْنَشَار لطير الماء .

ومن مصطلحات العلوم والصناعات : الأسْطُرْلَاب^(٥) وهو اسم يجمع الآلات التي

(١) فالوذ أو فالوذق معربه بالوذه . قال يعقوب ولا تقل فالوذج (قاله الجوهري) .

(٢) الزماورد (بفتح الزاى) الرقاق الملفوف باللحم (كذا في حواشى الكشف) وفي الفاموس المحيط : هو طعام من اللحم والبيض .

(٣) السمور (كتور) : دابة يتخذ من جلدها فراء مثمرة (غالبية الثمن) .

(٤) الفنك : دابة فروتها أطيب الفراء وأشرفها وأعدلها .

(٥) الاسطرلاب : آلة تقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (كذا في شرح اللزوميات) . وفي الفاموس المحيط : اللاب رجل سطر أسطرا وبني عليها حسابا فليل أسطرلاب ثم مزجا ونزعت الإضافة فليل الأسطرلاب معرفة .

يعرف بها الوقت ، فإن كانت مائية ، فهي الطَّرْجِهارة ، وإن كانت رملية ، فهي البنَّكام ، والزَّبَّيج لخيطة البناء ، والمهندز ، والدَّرِّيَاب ، وهوماء الذهب ، والزَّبَّيق ، وهو مركب كيميائي معروف ، والإكسير ، ويسمى الحجر المُكَّرَّم ، والمَغْنَطِيس^(١) ، والزَّرْنِيخ^(٢) .

ومنها البربط للعود ، ومعناه صدر البط لأنه يشبهه وبر بمعنى صدر . والبرم والزير ، وهما من أوتار العود . ومنها غير ذلك كالليارسطان ، ومعناه موضع المرضى لأن يमार معناه مريض واستان موضع ، والشَّفُتْجَة بمعنى الوثيقة « كميالة » ، وأصلها أن يكون لرجل متاع عند رجل أمين ، فيحفظه عنده ويسافر ، فيأخذ من آخر عوض ذلك ، ويعطيه ورقة به ليتسلمه من الأمين ، ومثلها صكَّ معرب جكَّ ، والدَّهْلِيز وهو ما بين الباب والدار ، والدَّهْقَان : معرب ده خان أى رئيس القرية ، والدَّسْكَرة القرية ، أو محل الحجر ، والسَّنَوَّر الدرع ، والدَّرْفَس العلم الكبير والعسكر وأصله لشكر ، والتخت لما توضع فيه الثياب ، والطَّيْلَسَان لما يلبس فوق الكتف ، والمَوْزَج للخف ، والدَّوَرَق لمكيال الشراب^(٣) .

ومن غير الفارسية ، أخذوا من اليونانية إيساغوجي بمعنى المدخل ، وسموا به مقدمات المنطق ، وهى الكليات الخمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض العام . والسفسطة وأصلها : سوفسطيقا ، بمعنى التحكم ، وعرفت السفسطة بأنها قياس مركب من وهيمات الغرض منها تغليط الخصم ؛ والفلسفة وهى علم حقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح ، وأصلها من صوفيا بمعنى الحكمة ، ومنها فيلسوف ، ومعناها محب الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ؛ والموسيقا : بمعنى تأليف الألحان ؛

(١) لغات المغنطيس ، هى : بفتح الميم أو كسرهما وسكون الفين وفتح النون أو كسرهما وسكون الياء أو كسر الميم مع زيادة ألف بعد النون . وهو حجر يجذب الحديد .

(٢) الزرنيخ : حجر منه أبيض وأحمر وأصفر .

(٣) كما فى شفاء الغليل قلا عن المعجم . والذى فى القاموس المحيط : الدورق الجرة ذات العروة .

والقانون لآلة اخترعها أبو نصر الفارابي ؛ والماليخوليا لضرب من الجنون ، وهو أن يحدث للمرء أفكار رديئة ، ويغلبه الخوف والحزن ، وربما خلط في كلامه ، والدوسنطاريا ، بمعنى إسهال الدم ؛ والسَّتمُونيا : وهو لبن شجر ينفع من الصفراء وما تولد منها ، كالْحَكَّة ، والجذام ؛ والنقرس وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، والقُولَنْج : وهو مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثقل والريح ؛ والكيمياء : بمعنى الخدق ، والقيطون المنزل الشتوى .

وهذا المعرب لا يدخل تحت حصر ، وقد ألف فيه أبو منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ كتابه المسمى : « المعرب » ، وكذلك للخفاجي من أدباء القرن الحادى عشر المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ كتابه المسمى : « شفاء الغليل ، فيما فى كلام العرب من الدخيل » .

ولم يكن العرب محتاجين إلى كل الذى عربوه ، فقد تكون عندهم الكلمة العربية الفصيحة ، ولكنه للتوسع فى الاستعمال ؛ ولأثر التعصب عند القرس ، وحجهم لرواج لغتهم رأينا كثيراً من الألفاظ قد عرب ، وعربيه فصيح مستعمل لا غبار عليه ، ومن ذلك التامورة للبريق ، والثَّوَّة للشُّكْرُجَّة ، والناطس للجاسوس ، والسلمور للألماس ، والباطل للبهرج ، والخفارة للبذرة ، والفحا للتابل^(١) ، والامام للتر أو الزيج ، وهو خيط البناء ، والصقر للشاهين ، وجوهر السيف لفرنده ، والمخدع للقيطون ، والعنق للسكرد ، والصفيف أو الشواء للطباهج ، والشمع للوم ، وغير ذلك .

معانى اللغة وأغراضها

لم يقف تأثير الفارسية فى العربية عند الأسلوب واللفظ ، بل تعداها إلى المعنى والغرض ، ذلك بأن للأمة الفارسية قبل أن تخالط العرب علماً تشعبت أصوله وديناً تعددت الآراء فيه ، ومذاهب فلسفية نشأت عن كل ذلك ، وخيالاً شعرياً استفادوه من طبيعة بلادهم ، وما زخرفت به من أنواع الأشجار والرياحين وعامة الغروس ، وما جعل الله فيها من سهول فيحاء ، وجبال شماء ، وأنهار متدفقة ،

(١) التابل (كصاحب وهاجر) : أزار الطعام .

أوليس من هذه البلاد ثلاثة بقاع من أربع ، هي متنزهات الدنيا ، وهي : صُغد^(١) سَمَرْقَنْد ، وشِعْب بَوَّان ، ونهر الأَبْلَة . أما الرابعة فهي غُوطَة دمشق .

والصغد : نهر تحف به قصور وبساتين ترى مشتبكة العمائر بمقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها ، والشعب بقعة في نواحي كورة سابور مقدارها فرسخان قد احتفتها الأشجار بظلالها ، وجاست الأنهار خلالها ، وفيه يقول المتنبي :

مَغَانِي الشَّعْبِ طِيباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وأما نهر الأبله ، فهو من أعمال البصرة ، وطوله أربعة فراسخ ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد وضع على خط مستقيم ، وكأن أشجاره غرست في يوم واحد .

كان كل ما سبق من علم ودين وخيال يملأ أدمغة الفرس ، ويجول بخواطرم ، فلما تكلموا بالعربية ، (واللغة أداة التعبير ووسيلة الإبانة) حكوا كل هذه المغاني في شعر امتلأت به دواوين الشعراء منهم ، وحكمة ومثل لها نتيجة تجربتهم في أجيالهم السابقة ، وما خلفه لهم تاريخهم الخافل . كذلك تجلت آثارهم في كتب مؤلفة أو مترجمة أخرجوها للناس ، ففاضت العربية بعلم غزير ، وخيال واسع ، ومعان جديدة ، وصار الفارسي يحكي قديمه ، والعربي يتعلم ما لا عهد له به ، حتى أتت العربية على كل ما كان للفرسية من فضل وفائدة ووسعت كل ذلك لما فيها من ميزة القبول ومرونة الصوغ والاشتقاق .

وأظهر ما يتجلى في الأدب العربي في هذا العصر أشياء :

١ - اتساع الخيال ، وإبداع التصوير ، كقول ابن الرومي^(٢) في أحذب :

قَصَرْتُ أَخَادِعُهُ وَغَاصَ قَذَالُهُ فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنَّ يَهُشَّعَا^(٣)

(١) هي في القاموس المحيط بالسين

(٢) في معاهد التنصيص أن البيت لعبد الله بن النطاح .

(٣) الأخادع : جمع أخدع وهو عرق في المحجمتين (مؤخر الرأس) .

وَكَاثِمًا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

وقول أبي إسحاق إبراهيم بن موسى :

غَزَتْنِي بِجَيْشٍ مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا
فَلَمَّا التَّقَى الْجِيْشَانِ أَقْبَلَ طَرْفُهَا
وَلَمَّا تَجَارَحْنَا بِأَسْوَافِ لِحْظِنَا
وَنَادَيْتُ مِنْ وَقَعِ الْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا
فَصِرْتُ صَرِيحًا لِلْهَوَى وَسَطَ عَسْكَرٍ
فَعَبَّيْ لَهَا طَرْفِي لِيَذْفَعَ عَن قَلْبِي
يُرِيدُ اغْتِصَابَ الْقَلْبِ قَسْرًا عَلَى الْحَرْبِ
جَعَلْتُ فُؤَادِي فِي يَدَيْهَا عَلَى الْعُضْبِ
عَلَى كَيْدِي يَا صَاحِرَ مَالِي وَلِلْحُبِّ
قَتِيلَ عُيُونِ الْغَانِيَاتِ بِلَا ذَنْبِ

ومنه قول ابن الرومي في وصف المغنيات يحملن آلات الغناء :

وَقِيَانٌ كَأَنَّهَا أُمِّيَّاتٌ
مُطْفِلَاتٌ وَمَا تَحْمِلْنَ جَنِينًا
مُلْقِمَاتٌ أَطْفَالَهُنَّ ثُدِيًّا
مُفْعِمَاتٌ كَأَنَّهَا حَافِلَاتٌ
كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَّى
أُمُّهُ دَهْرَهَا تُتَرَجِّمُ عَنْهُ
عَاطِفَاتٌ عَلَى بَنِيهَا حَوَائِي
مُرْضِعَاتٌ وَلَسَنَ ذَاتِ لِبَانٍ
نَاهِدَاتٌ كَأَحْسَنِ الرُّمَّانِ
وَهِيَ صِفْرٌ مِنْ دِرَّةِ الْأَلْبَانِ
بَيْنَ عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانٍ^(١)
وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْجُمَانِ

ومنه قول صفي الدين الحلي في الخمر ومزاجها :

شَهْرُنَا عَلَيْنَا بِالْمِزَاجِ صَوَارِمًا
شُعَاعُ غَدَا طَرْفُ الْمَسْرَةِ شَاخِصًا
شَهْدُنَا زَوَاجِ الرَّاحِ بِالمَاءِ فَالنَّدَى
إِذَا أُعْمِلَتْ مَا لِلْجِرَاحِ بِهَا أُرْشُ^(٢)
إِلَيْهِ وَأَخْذَاقُ الْهُمُومِ بِهَا عَمَشُ
عَلَيْهَا نِتَارُ الرِّيَاضِ لَهَا فَرَشُ

ومن الخيال البديع قول القاضي الفاضل في مملوكه :

(١) العود : آلة من المعازف . المزهر : العود يضرب به (لعله يريد عصا صغيرة يضرب بها الطبل)

الكران : الصنج .

(٢) الأرش : دية العضو .

— ٣٠ —

تَرَاءَى وَمِرَاةُ السَّمَاءِ صَقِيلَةٌ فَأَثَرٌ فِيهَا وَجْهُهُ صُورَةُ الْبَدْرِ
وقال بعضهم فتغلغل في الخيال وأغرب فيه ما شاء (١) :

رَأَتْ قَرَارَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرَتْنِي لِيَالِي وَصَلَهَا بِالرَّقَاقِصِ
كَلَانًا نَاطِرٌ قَرَارًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأَتْ بَعَيْنِي

٣ — المبالغة الشديدة ، والتهويل الزائد ، وهذا شيء من طباع الفرس ولوازم تفكيرهم ،
وقد ظهر ذلك في عصرنا هذا في الشعر والكتابة والألقاب فأما في الشعر ، فمن ذلك
قول منصور النيرى في الرشيد :

خَلِيفَةُ اللَّهِ إِنْ الْجُودَ أَوْدِيَتْهُ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِنْتِي أَلْمَاسٍ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّوْنِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ خَلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ مَخَالِيهُ أَوْضَاقُ أَمْرٍ ذَكَرْتَاهُ فَيَتَسَمِعُ (٢)

وقول محمد بن وهيب في المعتصم :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضَّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
فَالشَّمْسُ تُحْكِيهِ فِي الْإِشْرَاقِ طَالِعَةً إِذَا تَقَطَّعَ عَنْ إِدْرَاكِهَا النَّظَرُ
وَالْبَدْرُ يُحْكِيهِ فِي الظَّالِمَاءِ مُنْبَلِجًا إِذَا اسْتَنَارَتْ لِيَالِيهِ بِهِ الْغُرُ

إلى أن يقول :

فَأَخْلَقَ جِسْمَهُ لَهُ رَأْسٌ يُدَبِّرُهُ وَأَنْتَ جَارِ حَتَاهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
وقد تنتهي المبالغة إلى الكفر أو قريب منه ، كقول أبي نؤاس في الرشيد :

(١) وفي هذا المعنى قول الشاعر :

وقد نظرت بدر الدجى ورأيتها فكان كلالنا ناظرًا وحده بدرا

وقول المتنبي :

واستقبلت قر السماء بوجهها فأرتني القمرن في وقت معا

(٢) الخيال : جمع نخيلة ، وهي ما يتخيل في المرء من خير.

وَأَخَفَتَ أَهْلَ الشَّرِّ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ التُّطْفُ الْآتِي لَمْ تُحْلَقِ

وأمثلة ذلك في الشعر والنثر كثيرة سنستوفينا في الكلام على كل منها خاصة .

أما التهويل في الألقاب فهو شيء لم يكن العرب يعرفونه بهذه المثابة قبل هذا العصر ، فإننا لم نر أحداً من الخلفاء ألصق به لقب حادث عند توليته الخلافة ، ولا رأينا ذلك فيمن خدمهم من الوزراء أو القواد أو غيرهم ، بل إن أحدهم إنما كان يخاطب باسمه أو كنيته ، أو لقبه القديم الذي عرف به منذ حادثه ، أو جعل عليه لداع غير ارتقائه إلى الخلافة وتقليده الوزارة . وأول عهدهم بالتلقب في هذه الدولة تلقب أبي العباس أول خلفائهم لنفسه بالسفاح في قوله : أنا الثائر المنيع ، والسفاح المبيح^(١) . ثم تسميتهم من يعين الخليفة ، ويساعده في سياسة الدولة وزيراً ، وكان أول من لقب بذلك أبوسامة الخلال وزير أبي العباس السفاح ، ثم لقب جعفر البرمكي في أيام الرشيد بالسلطان ، ثم لقب طاهر بن الحسين ذا اليمينين وصاحب جبل الدين لما انتصر على الأمين ، ولقب الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين رئاسة السيف والقلم . ولقب صاعد بن خالد وزير المعتمد ذا الوزارتين ، ثم قيل رئيس الرؤساء لعلي بن الحسين وزير القائم ، وعميد الله لمحمد بن محمد وزير المقتدى .

ولما وافق الدولة البويهية جعلت ألقاب ملوكها بالإضافة إلى الدولة ، فقيل لعلي ابن أبي شجاع عماد الدولة ، ولأخيه الحسن ركن الدولة ولأخيها أحمد معز الدولة .

ثم لقب بالإضافة إلى الدين ، فأول ما كان من ذلك سنة ٣٧٦ هـ حين ولي الوزارة أبو شجاع محمد بن الحسين ، ولقب ظهير الدين ، ثم قيل بعده عز الدين ، وعُضد الدين ومؤيد الدين .

ثم زادت الضراعة في الناس والخطبة من الرؤساء حتى صار الناس إذا خاطبهم نزهوا ألقابهم أن يوجه إليها القول ، فخطبوا الجنب والحضرة ، فيقولون للخليفة : إلى

(١) المنيع : أي الذي أجعل الناس ينوحون على قتالهم . المبيح : أي للدماء .

الحضرة المقدسة ، أو الشدة النبوية ، وللوزراء : (إلى الحضرة الوزيرية) ، وأول من سنّ ذلك أبو الحسن عليّ بن حاجب النعمان الكاتب ، ثم شاعت هذه الطريقة . وقد استمرت هذه الألقاب توضع على الخلفاء والوزراء حين كانت الدولة في أضعف حالاتها . وقد قال ابن شرف لما رأى مثل ذلك في ملوك الأندلس :

مِمَّا يَزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَلْقَابُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحَ صُورَةِ الْأَسَدِ

٣ — الإكثار من الحكمة والمثل والبراهين الفلسفية ، وتناول المعاني الدقيقة التي تدلّ على حصافة وطول دراسة ، والأولان ظاهران في شعر صالح بن عبد القدوس ، وأبي وأبي تمام ، والمتنبي ؛ وأبي العلاء ، والأخيران في عام شعر الشعراء . وذلك لأن دراسة الفلسفة والعلوم العقلية كانت أذهان الناطقين بالعربية هذا التكوين المنظم الذي لا يرتاح إلا إلى الاستدلال والاحتجاج كما أنه لا يتكأده معنى ولا يفوته غرض .

فمن الحكمة قول بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمٍ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أُخْتَهَا وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَامٍ^(١)
وَحَلَّ الْهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلَا تُكُنْ نَمُوْمًا فَإِنَّ الْحُرَّ لَيْسَ بِنَائِمٍ

وقول صالح بن عبد القدوس :

لَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَالشَّيْخُ لَا يَنْزُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارِيَ فِي تَرَى رَمْسِهِ
إِذَا أُرْعَوَى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضَّنَى عَادَ إِلَى سُقْمِهِ^(٢)

(١) الغل : القيد . القائم : مقبض السيف .

(٢) ارعوى : نزع عن جهله . الضنى : المرض الخامر الذي كلما ظن البرء منه عاد المريض فانتكس

وإنَّ مَنْ أَدْبَتَهُ فِي الصَّبَا
كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي عَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاصِرًا
بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُسِّهِ
وقول المتنبي :

وَالْهَمُّ يُخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً
ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ
لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى
وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ نَجِدَ
وَمِنْ الْبَلِيَّةِ عَذْلٌ مَنْ لَا يَرْعَوِي
وَالذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الدَّلِيلِ مَوَدَّةً
وَمِنْ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ
وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الْعُلَامِ وَيُهْرِمُ^(١)
وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ^(٢)
ذَا عَفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
عَنْ جَهْلِهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ
وَأَوْدُ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ الْأَرْقَمَ^(٣)
وَمِنْ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ^(٤)

وقوله :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا
مُضِرٌّ كَوَضَعَ السَّيْفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَّدَا

- (١) اخترمته المنية أهلكته . الناصية : مقدم الرأس . والمعنى أن الهم يقتل الجسيم من توالى النحافة عليه
(٢) أى لا يسلم للشرى شرفه من أذى أعدائه حتى يقتلهم فيما من شرهم أو يخيف غيرهم .
(٢) الأرقم : ضرب من الحيات فيه سواد وياض ، أى أن الأرقم على ما يعرف عنه من التعرض لأذى من لا يؤذيه خير وأسلم عاقبة من هذا المتودد للناس وهو يضمهم لهم السوء .
(٤) ففهم ابن جنى هكذا : إن عداوة الساقط تدل على مباينة طبعه فتفزع ، وصداقه تدل على مناسبتة فتضر ، وكذلك نقل الواحدى هذا المعنى ، وإنما المعنى من قول صالح بن عبد القدوس :
عدوك ذو العقل خير من الصصديق لك الوامق الجاهل
أى عدو عاقل خير من صديق جاهل .

وقوله :

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْمًا ذَاتُ خِذِرٍ تَمْنَتِ الْمَوْتَ بَعْلًا
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍّ فَا مَلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الشَّيْبُ مَلًّا
آلَةُ الْعَيْشِ صَحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّىا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى
وقول أبي العلاء المعرّي :

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا يَبْنِي آدَمَ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلَ بِالْأَمَى بَاءُ (١)
تَتَأَنَّ عَمْرُو إِذْ تَتَأَنَّ خَالِدٌ بَعْدَوَى فَمَا أَعْدَتْنِي الثَّوْبَاءُ
وَزَهَّدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَعِلْمِي أَنَّ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ (٢)
وَكَيْفَ تَلَا فِي الذِّمِّ فَاتَ بَعْدَ مَا تَلَفَعَ نِيرَانَ الْحَرِيقِ أَبَاءُ (٣)
إِذَا نَزَلَ الْقَدَارُ لَمْ يَكُ لِلْقَطَا نُهُوضٌ وَلَا لِلْمُخْدَرَاتِ إِبَاءُ (٤)

وقوله :

لَعَلَّ أَنْاسًا فِي الْحَارِيبِ خَوْفُوا بَايَ كَنَاسٍ فِي الْمَشَارِبِ أَطْرُبُوا
إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُتَمِيمُهَا فَتَارِكُهَا عَمَدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ
فَلَا يُمَسِّ فَخَارًا مِنَ الْفَخْرِ عَائِدٌ إِلَى غُنْصُرِ الْفَخَارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ (٥)

وقوله :

الَّذِينَ إِنْصَافُكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَأَيُّ دِينٍ لَا بِي الْحَقُّ إِنْ وَجَبَا

(١) اللام : الشخص - الباء : النكاح ، وأصله باه .

(٢) الهباء : القليلو القول من الناس ، والغبار .

(٣) تلافى الشيء : تداركه . تلفع الشيء : اشتمل عليه . الأباء : القصب . الواحدة أباءة . والمعنى أن العمر إذا استشرى والأمر إذا عظم تعذر تلافيه .

(٤) المخدر : أجمة الأسد . والحادر والمخدر : الأسد .

(٥) المعنى لا يحسن الإنسان وأصله من الطين أن يفتخر بنفسه .

وَالْمَرْءُ يُعِيهِ قَوْذُ النَّفْسِ مُصْحَبَةً لِلْخَيْرِ وَهُوَ يَقُودُ الْجَحْفَلَ اللَّحْبَاءَ^(١)

وقوله :

يَا رَبِّ أَخْرِجْنِي إِلَى دَارِ الرِّضَا عَجَلًا فَهَذَا عَالَمٌ مَنكُوسٌ
ظَلُّوا كَدَاثِرَةً تَحَوَّلَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضِهَا فَجَمِيعُهَا مَعَكُوسٌ

وقوله :

إِذَا أُلِفَ الشَّيْءُ اسْتَهَانَ بِهِ الْفَتَى فَلَمْ يَرَهُ بُؤْسَى تَعَدُّ وَلَا نِعْمَى
كَانِفَاقِهِ مِنْ عُمْرِهِ وَمَسَاغِهِ مِنَ الرِّيقِ عَذْبًا لَا يُحْسِثُ لَهُ طَعْمًا^(٢)
وَمَا أُرْتَابَ فِي لُقْيَا الرَّدَى وَكَأَنَّهُ حَدِيثٌ أَتَى مِنْ كَاذِبٍ يَبْطُلُ الزَّعْمُ^(٣)

ومن الاستدلال والبرهنة قول أبي تمام :

لَا تُنْكَرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ^(٤)
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

وقوله :

لَا تُنْكَرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِ^(٥)

وقوله :

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرْجَى حِينَ تَحْتَجِبُ

وقول ابن الرومي :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يَقْدِرْ فِيهِ بُعْدُ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ^(٦)

(١) يقال أخصبته المني إذا جعلته يصعبه .

(٢) مساغ : سوغ . وساغ الشراب : سهل دخوله في الحلق .

(٣) أبطل الرجل : أتى بالباطل ، فعني يبطل الزعم يأتي بزعم باطل .

(٤) مثل شرود : شائع في البلاد .

(٥) العطل (بالتعريك) : التجرد من الحلي . يقال رجل حرب أي عدو وإن لم يكن محاربا ، وهو

المذكر والمؤنث والواحد والجمع بلفظ واحد لأن أصله مصدر . (٦) الرشاء : حبل البئر

وقال الطُّغْرَائِيُّ :

عِدَايَ كُلُّهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هُمْ بِحَشَا عَنْ زَلَّتِي فَأَجْتَنَّبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَأُكْتَسَبَتْ الْمَعَالِيَا

ومن المعاني الدقيقة قول إسحق بن إبراهيم اللوصلي :

أَخَافُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ مِنْ طُولِ وَصْلِهَا فَأَهْجُرُهَا الشَّهْرَيْنِ خَوْفًا مِنَ الْهَجْرِ
وَمَا كَانَ هِجْرَانِي لَهَا عَنْ مَلَامَةٍ وَلَكِنِّي أَكَلْتُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ (١)
أَفَكَّرُ فِي قَلْبِي بِأَيِّ عُقُوبَةٍ أُعَاقِبُهُ فِيكُمْ لِتَرْضَوْا مَا أَدْرِي (٢)
سِوَى هِجْرِكُمْ وَالْهَجْرُ فِيهِ دَمَارُهُ فَعَاقِبْتُهُ فِيكُمْ مِنَ الْهَجْرِ بِالْهَجْرِ
فَكُنْتُ كَمَنْ خَافَ النَّدَى أَنْ يُبْلَهُ فَعَاذَ مِنَ الْمِيْرَابِ وَالْقَطْرِ بِالْبَحْرِ

وقول خالد الكاتب :

أَعَانَ طَرَفِي عَلَى جِسْمِي وَأَحْشَانِي بِنَظَرَةٍ وَقَفَتْ جِسْمِي عَلَى دَائِي (٣)
وَكُنْتُ غِرًّا بِمَا يَجْنِي عَلَى بَدَنِي لَا عَلِمَ لِي أَنْ بَعْضُ بَعْضٍ أَدَوَانِي (٤)



هذه محاسن ما أفادت العربية من الفارسية . وقد كان إلى جانبها مساوئ جرّها على العربية الإسراف في الإخلاد إلى صديقتها ، وطول الاستنامة لها والركون إليها :

(١) يريد عاقبة الصبر على الفراق ، وهي اللقاء كما قال الشاعر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

(٢) التفكير في عقاب قلبه لأنه هو الذي أوحى إليه فكرة الهجران لإدامة الوصل .

(٣) يقول ان طرفه (عينه) هو الذى ساعد المرض على التمسك من جسمه بتلك النظرة التى جعلت جسمه موقوفا على الداء لا يزياله .

(٤) يقول وكنت جاهلا بما يجنيه ويحمله نظرى على بدنى من المضار ولم أكن أعلم أن عضوا من أعضائى يكون داء فى سبب لى المتاعب .

وتلك المساوىء هي الضعف الذى دخل على الأسلوب العربى ؛ فإنه بعد أن كان جزلاً رصيناً قبل هذه الدولة وفي أوائلها ، دخله الفتور لضعف الملكات ببعد العربى عن المعهد الذى كان يتلقى فيه اللغة بالسماع ، ويحذقها بالنشأة بين أهلها ، ولكثرة من طرأ على اللغة من غير أهلها ، وليسوا جميعاً بمثابة واحدة من حسن الأخذ ، وتمام الملكة ، ولأن الناطق بلغتين يحنى بأحدهما على الأخرى ، ويزيد فى واحدة ما ينقص من أختها ، ثم ان الأمور التى ولع بها القوم ، وقلدوا فيها الفارسية ، وهى العناية بالسجع ، والحسن البديعى ، والجناس والطباق ونحوهما ، حسن موقعها فى أقلام الكتاب الأوائل ، ثم ما زالوا يبالغون فيها ، ويدعمون التزامها مع ما صاحب ذلك من ضعف الآلة ، ونقصان الملكة ، حتى أصبح السجع يجتلب اجتلاباً ، وإن أخل بالمعنى ، وأضر بموقع الكلمة ، وجنى على الصواب ؛ كما كانت المحسنات البديعية تغض من محاسن الكلام . وتجنى عليه بالتعقيد والعسر ، وصارت يزين بها القول ، وإن لم يستكمل شروط البلاغة من الإفصاح ؛ والمطابقة لمقتضى الحال ، فكانت كالحلى على الميت ، وكالدسم فى جوف الممعد .

وهناك جناية أخرى على لغة التخاطب صيرتها إلى عامية مرذولة ما زالت تتباعد من الفصحى حتى صارت لغة مستقلة .

وكان من جراء هذا الضعف فى الأساليب ؛ والنقص فى الملكات ، والمهاجمة من العامية ، أن منع العلماء الاستشهاد بكلام أهل هذا العصر لصيرورة الشك إلى ملكاتهم ، وحلول الوهن على ألسنتهم ، وبعض من يرى الاحتجاج برجال هذا العصر لا يتعدى بشاراً من الشعراء ، أما غير الشعراء فلا سبيل إلى الاحتجاج بقوله من هؤلاء بته .

لغة التخاطب

جاءت الدولة العباسية ، والعرب قد فتحوا معظم المملكة الإسلامية ، فلم يكن عمل العباسيين في الغالب إلا المحافظة على الثغور ، والاستعادة لما يكون الأعداء قد غلبوا عليه من الأطراف التي تلى بلادهم ، فكانت هذه البلاد في حكم العرب منذ قديم : ولكن مذهب الأمويين في الحكم كان يقضى بالترفع عن الأعاجم ، والتصون عن الابتذال معهم ، فنشأ عن ذلك استمسك في اغتهم لم ينته بها إلى المسخ الذي صارت إليه في عهد الدولة العباسية ، كما أن شدة الأمويين على الموالى كانت تجعلهم يتقربون إليهم بمحذق اغتهم ، وكان العرب لا يزالون فريي عهد بجاهليتهم ، وتمام ملكاتهم فضمن ذلك للغة العربية هذا التماسك في ألسنة المتخاطبين ، أما في العصر العباسي فقد صارت لغة التخاطب مصيرا منكرا هو باسم المسخ أحق .

ذلك بأن اللغة تتأثر بالخاطلة ، وعلى قدرها يكون شيوع الفساد أو ضيق دائرته . نعم قد حصل اختلاط في العصر الأموي ، وجرى على لغة التخاطب فساد ، ولكن الأمويين استطاعوا أن يحصروا خطره بما كان لهم من وسائل لم ينوا في اتخاذها . كوضع النحو ، وتربية أبناء الخلفاء ومن في طبقتهم بالبادية ، والزراية بمن يقع منه اللحن ، وإقصائه عن مجالس الخاصة . كالذي ذكروا أن عبد الملك كان يجلس مجالس عامة إلى قبائل العرب ، فكان يستسقط من يلحن فأفاد كل ذلك في نهضة هذا التيار ، حتى انتهى الأمر أن كان عدد اللحنين محصورا ، وكانت العامية التي شنوا عليها العارة هي اللحن مع سلامة التركيب وفصاحة المفردات .

أما في العصر العباسي ، فقد كانت المداخلة التي ذكرنا وصفها تقضى على كل مجهود يبذل في سبيل حماية الألسنة ؛ فإن الخلفاء وإن لم يرسلوا أولادهم إلى البادية كما فعل الأمويون قد ألزمهم المربيين من أفاضل الراوة ، وأشياخ العربية ، فقد كان

الشرق القطامي يؤدب المهدي ، والأخضر النحوي ثم الكسائي يؤدبان الأمين واليزيدي
يؤدب المأمون ، والفراء أدب ولدى المأمون ، والمفضل الضبي أدب الواثق ،
ويعتوب بن السكيت أدب المعتز ، وثلث والمبرد تخرج عليهما ابن المعتز ، ولكن لم
يكن لفضل هؤلاء المؤدبين أثره المرجو ، لأن نشأة هؤلاء الأمراء بين الأمهات
والخواضن والخدم ، وكلهم من الأعاجم جعل العامية تطفئ على ألسنتهم : حتى حكم
المعتصم على نفسه بأنه خليفة أمي ، وذلك حين ورد كتاب من بعض العمال ، فقرأه
عليه وزيره أحمد بن عمار ، (ولم تكن فيه كفاية كتابية) ، فإذا في الكتاب ذكر
للكلأ ، فقال المعتصم للوزير : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لأدري ؛ فقال المعتصم خليفة
أمي ووزير عامي ، ثم قال : انظروا من الباب من الكتاب ؟ فوجدوا محمد بن عبد الملك
الزيات ، فأدخل عليه ، فسأله عن الكلأ ، فقال : هو العشب عامة ، فإن كان رطباً
فهو الخلا ، وإذا يبس فهو الحشيش^(١) ، فعرف المعتصم فضله واستوزره .

وقد ضعفت الملكات في العصر العباسي حتى رأينا الخلفاء والعلماء متورطين في اللحن
والخطأ ، فقد ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فذمر الأعرابي أذنيه ،
ثم لحن مرة أخرى ، فقال : (أف لهذا) ، ثم لحن ثالثة ، فقال الأعرابي : أشهد لقد وليت
هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل سعيد بن سلم على الرشيد فلكته هيئته ، فلما تكلم
الرشيد لحن فحف في عين سعيد ، وكان المأمون يقول : أتتكلم مع الناس كلهم على
سجيتي إلا مع ابن المهيم فإني أنحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الإعراب .

وكان أبو عبيدة عمرو بن المثنى الذي أحاط بعلم العرب وأخبارهم وأنسابهم ، وهو
الذي روى جميع أيامهم التي يتناقلها المؤرخون إلى اليوم ، كان على سعة علمه باللغة ، إذا
أنشد بيتاً لم يقم إعرابه .

وذلك يدلنا على أن اللحن قد صار لازمة العربي من سكان الحضر . هذا إن

(١) وفي رواية الفخرى « وأول النبات يسمى بقلا ، فإذا نما قليلاً فهو الكلأ ، فإذا يبس وجف
فهو الحشيش » .

كان من الخاصة والمتأدين . لذلك رأينا كثيرين من النحويين بالغوا في التعجير والتشديق والتشبه بالأعراب ؛ وغالبوا الطبع والتزموا الإعراب ، واتمسوا بذلك الشهرة بين الناس ؛ فاتخذهم الناس هزأة وضحكة لخروجهم عن مألوف هذا الزمن ، وهو العامية التي لاتصون فيها ولا تخرج . ومن هؤلاء : عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وهو القائل ليوسف بن عمر بن هبيرة لما ضربه في ثياب كان قد استودعها : **إِنْ كَانَتْ إِلَّا أَثِيَابًا فِي أَسْفِيفَاطٍ قَبَضَهَا عَشَارُوكَ** ^(١) . ومنهم أيضاً أبو علقمة النحوى الذى مرّ ببعض طرق البصرة ، فهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم يعصون إمامه ، ويؤذنون فى أذنه ، فأفلت من أيديهم ، وقال : **مَالِكُمْ تَكَا كَأْتَمَّ عَلَى كَتَكَا كَتَكُم عَلَى ذَى جِنَّة** ، افرقعوا . وهو الذى هاج به الدم ، فأتى بحجام ، فقال له : **« أَشْدُدْ قَصَبَ الْمَلَاذِمِ »** ^(٢) ، وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ ، وَأَسْرِعِ الْوَضْعَ ، وَعَجِّلِ النَّزْعَ ، وَلِيَكُنْ شَرْطُكَ وَخَزَا ، وَمَصْلُكَ نَهْزَا ، وَلَا تُكْرِهَنَّ أَبِيئَا ، وَلَا تَرُدَنَّ أَتِيئَا » ، فوضع الحجام محاجه فى جَوْتَه وانصرف .

وقد كثر هؤلاء حتى ألف فيهم أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ هـ كتاباً جمع فيه أخبار المتعجرين ونواديرهم .

وكذلك لم يأل خلفاء العباسيين خصوصاً الأولين منهم فى مدافعة العامية ، وضعف الملكات لأنهم يعلمون أن اللغة هى لغة الدين الذى تقوم عليه دولتهم ، وتعظم به سطوتهم ، فتقرزوا كل التقرّز من فشو اللحن فى الألسنة ، ودافعوا ذلك بمنصرة العربية ، والإحسان إلى علمائها ، واحتشائهم على ضبطها ، وإغراء الرواة بجمعها ، وبذلوا فى سبيل ذلك مالهم وعنايتهم حتى كانت المناظرات تقام بمجالسهم ، ومجالس وزراءهم تنشيطاً

(١) أثياب : جمع ثوب أصله أثواب ثم صغر . وكذلك أسيفاط : جمع سفيط (بالتحريك) وهو الجوالق (٢) الملازم : جمع ملازم (كمنبر) وهما خشبتان تشد أوساطهما بمحيدة . أرهف : رقق . ظبات : جمع ظبة وهى حد السيف أو نحوه . المشارط : جمع مشرط (كمنبر) وهو المبضع .

للعلم وإثارة للهمم فيه . ولقد بلغ من عناية الرشيد بالفصاحة والسلامة من الخطأ أن حاول تصحيح اللغة في أفواه الملاحين بدجلة لأنه كان إذا أطل عليهم من قصره سمعهم يغنون فيعجبه غناؤهم ويؤله لحنهم . فقال يوما : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس فوجه إليه الرشيد يأمره بعمل الشعر ، ولم يأمر بإطلاقه ، فغاضه ذلك ، وعمل شعرا في الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكى وينتحب إذا مرّت الموعظة بإذنه . فكان إذا سمع الملاحين يتغنون بما صنعه أبو العتاهية لهم يبكى . وهذا هو الشعر :

خَانِكَ الطَّرْفُ الطُّمُوحُ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُوحُ
لِدَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ دُؤُوبٌ وَزُورُوحُ
هَلْ لِمَطْلُوبٍ بِذَنْبٍ تَوْبَةٌ مِنْهُ نَصُوحُ
كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ
أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنَا الْخَطَايَا لَا تَقُوحُ
سَيِّصِيرُ الْمَرْءَ يَوْمًا جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يُلُوحُ
كُلُّنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ
لِبَنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا غَبُوقٌ وَصَبُوحُ^(١)
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مُسْكِينٍ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَمَوْتِنَ وَإِنْ عُمِّرْتَ مَا عُمِّرَ نُوحُ

ودخل عليه الفراء يوما ، فتكلم بكلام لحن فيه . فقال له : أتلهن يا فراء ؟ قال

(١) الغبوق : شراب العشى . والصبح : شراب الصبح . والمعنى أن بنى الدنيا منغمسون في نعيمها لاهون به غير مفكرين في عاقبتها .

يا أمير المؤمنين : إن طباع أهل الخضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحن ، فقبل الرشيد قوله . وسمع المأمون بعض ولده يلحن ، فقال : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفلّ حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه . أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته .

وعلى هذا جرى أعوان الخلفاء من وزراء وغيرهم يعظمون أمر الخطأ ، ويشددون في المؤاخذة به . وقد أنف العلماء في إصلاح العامية كما فعل ثعلب في فصيحه ، وكما فعل ابن خالويه النحوي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ في كتابه ليس في كلام العرب ، وكما فعل الصفدي في تصحيح التصحيف ، وتحريف التحريف ، ومع ذلك لم يستطيعوا بهذه الوسائل كلها ردّ هذا الغرب حتى طمّ سيل العامية ، وشمل الناس كلهم ، وما زالت العامية تحيا وتمتو حتى تميزت من العربية ، بل ظهرت لها سطوة إذ قيلت بها المواليا والموشحات ، وبقية ما جدّ في العربية من أوزان ، وكثر قول الناس لهذه الأنواع ، وإنشادهم إياها في مجتمعات العامة ، حتى كان للعامية أدب كما كان للفصحى أدب .

ولقد كان من محاربة القوم للعامية أنهم أبوا تدوينها ، وبسط القول فيها ، ونقل ما ظهر منها في مختلف عصورها ، وذلك لخوفهم أن يكون في ذلك التدوين حياة لها ، فعملوا على إماتتها بإهملها ، والزراية عليها ، وأفلتت منهم تلك الأمثلة من الأوزان التي ذكرناها ، ولكننا نتساءل : هل كان من الخير للتاريخ أن يدوّن العلماء هذه اللغة ؟ لنستطيع منها درس الأخلاق الشائعة في هذه العصور على حقيقتها ، فإن العامة هم جمهور الشعوب ، وأخلاقهم وتصوّراتهم هي التي ينبغي أن يكون بها الحكم عليها لا ما يبدو من هذه الفئة الضئيلة فئة المتعلمين الذين يغلب عليهم الخداع ، وكتمان الحقيقة عن الناقد ، على أن فيما ورد من الأنواع المتقدمة بعض الدلالة على شيء من هذا ؛ وعلى مقدار ما دخل على الفصحى من تغيير ، وهاك بعض هذه المرويات :

يقال إن جارية للبرامكة ، وهي أول من نطق بالمواليا كانت تقول في رثائهم :

يا دار أين الملوك أين الفرس أين الذين رعوها بالقنا والتُّرس
 قالت تراهم رَمَعُ تحت الأراضى الدُّرس سكوتٌ بعد الفصاحةِ ألسنتهم خُرس
 ومن المواليا أيضاً قول بعضهم فى الوعظ :
 يا عبد إِبكى على فعل المعاصى ونُوحْ هُم فِينْ جُدُودِكَ أَبُوكْ آدَمْ وَبَعْدُهُ نُوحْ
 دنيا غُرُورَةٌ تَحِيى لَكَ فى صِفَةِ مَرَكِبْ ترمى حُجُولُها على شَطْطِ البَحارِ وَتَرْوُحْ
 وفى دار الكتب الملكية أوراق عثر عليها من كتابة العامة فى العصر العباسى فيها عقود
 زواج ، ومشارطات ومبايعات ، وقد حاولت قراءتها ، فاستعصت علىّ لنصول خطها ؛
 وجريه على قاعدة قديمة ؛ وكان يحسن بدار الكتب أن تضع إلى جانب كل أثر من
 هذه صورته بالخط الذى نألفه .

اختلاف العامية فى الأقاليم

لم تكن العامية لهجة واحدة فى جميع أقاليم الدولة الإسلامية ، فهى فى مصر غيرها
 فى الشام ؛ وفى الشام غيرها فى العراق ، وهكذا ؛ كذلك لم يكن قربها من العربية ؛
 أو بُعدها عنها بمثابة واحدة ، فهى فى أوائل عهد الدولة قريبة من الفصحى بعض
 القرب ؛ وفى أواخر العصر مباينة لها كل المباينة ، وسبب ذلك : أن العامية إنما
 تتكوّن من اللغتين أو اللغات التى اختلط أهلها ، فالعامية فى العراق تكثّر فيها الألفاظ
 الفارسية ؛ وأساليب التعبير فيها ؛ وهى فى الشام تخالطها الرومية ، وفى مصر تعتدى عليها
 القبطية ؛ وهكذا فى كل صُقع تجدد للعرب الذين خالطوا أهل لغة تجتمع فيها خصائص
 اللغتين ، وكلما زاد الاختلاط زادت مداخلة اللغتين ، فلا تزال العامية تبعد من أصلها
 حتى تصير أصلاً فى نفسها تنقطع صاته بالعربية فى الظاهر تمام الانقطاع ؛ ولا بدّ من
 مراعاة نسبة الشعبين المتعاشرين ، فإذا قلّ الأجنبي وكثر العربى كان بعد العامية دون
 بعدها إذا طغى الأجنبيّ على العربى . لذلك نرى اللغة العامية فى العراق ومصر والشام

حيث يغلب العنصر العربي كان قوامها الألفاظ العربية محرفة مصحفة مضافاً إليها كثير من الألفاظ في لغة الأمة الخالطة متبعاً فيها أسلوب تلك اللغة في نفيها وإثباتها واستفهامها وتعجبها ، وغير ذلك من طرق الأداء .

وكانت البلاد كلها نأت شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وقلّ العنصر العربي بها سادت الأعجمية فيها كما في السُّند ، وخراسان ، والدَّيْلَم والسَّكَرْج : وبلاد النُّوبَة ، وجنوب بلاد البَرْبَر ؛ فقد كانت لغة التخاطب فيها بين أهلها هي اللغة الوطنية لأن العرب كانوا في هذه النواحي قليلين ، وربما لم يكن بها منهم إلا الحامية والوالى ورجاله ؛ فلغة هؤلاء فيما بينهم هي الفصحى إن لم يكن اعتدى على لسانهم اختلاط سابق ، أو هي لغة الإقليم الذى حضروا منه .

ذكروا أن الرشيد كان إذا خرج إلى خراسان وما وراءها ليتعرف أحوال الناس اصطحب معه الترجمة حيث لا يعرف اللسان العربى .

وباستيلاء بنى بويه على شرق المملكة الإسلامية تقلص ظلّ العرب من هناك ، ونزحوا إلى العراق . فسادت الأعجمية بتلك النواحي لغلبة أهلها ومن بقى من العرب بها اندمجوا في أهلها ، ونسوا لغتهم ، وقد جرى هذا الحال سريعاً حتى تغير وجه البلاد بما أبداه ملوك الفرس والترك من النشاط في إحياء لغتهم ، ولولا أنها كانت قد ماتت بطول إهمالها أيام سطوة العرب لأعادوا إليها حياتها ، فقد حاولوا ذلك بنظم الأشعار فيها كما حدث من نظم الشاهنامه التى بدأها الدقيقى شاعر منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية ، ثم أتمها الفردوسى بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوى . وقد مرّ المتنبي ببلاد فارس في طريقه إلى عضد الدولة فراعته ما سمعه من عجمة أهلها ، وذكر ذلك في قوله :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَبِيبًا فِي الْمَغَانِي مَمْنَزِلَةَ الرَّبِّيعِ مِنْ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْفِكْرِ وَالْيَدِ وَاللَّسَانِ

وفي البلاد التى بقيت فيها العربية تضاءلت الفصحى ، وطفئت عليها العامية طغياناً

كبيراً حتى لم يبق خاصى أو عامى إلا وقد ارتضخ^(١) لسانه لُكنة ، وتعدى خطر العامية من التخاطب إلى الكتابة ؛ فظهر فى كتب العلم ، وفى رسائل الكتاب أثرها ولم تعد تفيدهم كتب النحو المستوعبة لجميع مسائله ، ولا كتب البلاغة التى كشفت عن أسرار اللغة أتمّ كشف ؛ ذلك بأن اللغة سليقة توهب ، قبل أن تكون علماً يدرس . وباستيلاء المغل ، (وهم لا دين لهم) على بلاد المسلمين ذهبَت العربية من بلاد المشرق ، ولم يبق لها أثر ولا عين ، حتى إن كتب العلم كانت تكتب بالأعجمية . أما مصر والشام فلم يبق فيها من العربية إلا ذمء لمكان الدين داعياً إلى الاستمسك بالعربية وعلومها ، وهكذا نزلت العربية من الأوج إلى الخضيس :

تغيرت البلادُ ومنَ عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

أما فى البادية فإن الفصحى دامت طويلاً ، وكانت مستمدّة الرواة ؛ وعلماء اللغة وجمع النحويين فى أحكام علمهم ، فمن أهل البادية : استمدّ سيبويه والكسائى ، عوّل الأصمعى فى غريب اللغة ، حتى إنه قضى بين العرب سنين طويلة ، يقيد وأشعارهم . وعنهم أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره .

وإنما كان يأخذ هؤلاء العلماء عن عرب سمعت لغتهم ، وهم الذين يسكنون أواسط بلادهم ، ولا يدانون الأعاجم ، فأخذوا أكثر ما أخذوا عن قيس وقيم وأسد ، واتكلوا عليهم فى الغريب والاعراب والتصريف ، ثم من هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض طى . ولم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر من القبط ، ولا من قضاة وغسان وإباد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ، ولا من تغلب والنمر لأنهم كانوا بجزيرة قور أو أقور بين دجلة والفرات مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند

(١) يقال هو يرتضخ لسانه لُكنة أعجمية إذا نشأ مع العجم ثم صار إلى العرب فهو ينزع إلى العجم بألفاظ ولو اجتهد والمراد أن لسانه تخالطه العجمة .

والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم ، وقد اختلطوا بغيرهم من الأمم التي فسدت ألسنتهم .

وما زال أهل البادية ينجح إلى أواخر القرن الرابع الهجري . فقد حكى ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ عنهم كثيراً . ولكن لسانهم كان قد بدا يضطرب ، فكان يأخذ من بعض ويطرح لغة بعض .

كان العلماء يختبرون الأعراب الطارئين عليهم بالخضر ، فإذا رأوهم فهموا اللحن وعلل الأعراب بهرجوهم . فقد ذكروا أن أباعمر بن العلاء استضعف فصاحة أبي خيرة الأعرابي ، فسأله يوماً : كيف تقول ؟ حفرت الإران ، فقال : حفرت إرانا ، فقال له أبو عمرو : الآن لان جلدك . ذلك لأن الإرة الحفرة ، وتجمع على إرين ، فيقال : حفرت إرين .

وروى عن الأصمعي أنه قال : ارتبت بفصاحة أعرابي ، فأردت أن أمتحنه ، فصنعت بيتاً وألقيته عليه ، وهو :

كم رأينا من مسحب مسحوت صاد لحم النسور والعقبان
فأفكر فيه ، ثم قال : ردّ على المسحوب ، ولم يطاوعه لسانه بقول مسحب ، فعلم أبو عمرو أنه لم يلن جلده .

وقال ابن جني : سألت الشجري ، وهو أعرابي من عقيل ، ومعه ابن عم له يقال له غصن : كيف تحقران حمراء ، فقالا حميراء ، وواليت من ذلك أحرف ، وهما يجيبان بالصواب حتى قلت علباء ، فقال غصن : علباء وتبعه الشجري ، فلما همّ بفتح الباء تراجع كالمذعور وقال علببي .

قال وسأته يوماً : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين . قلت : فعثمانا ؟ قال : عثمانون . قلت : فهلا . قلت عثمانين . قال : فأى شيء عثمانين ؟ أرايت إنسانا يتكلم بغير لغته .

ونقل عن أبي حاتم السجستاني قال : قرأ على أعرابي بالحرم (طبيهم وحسن مآب)

فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوطو طو ، فقال : طى طى طى . ونبا طبعه أن ينطق بغير لحن قومه وإن كان غيره أفصح .

وقد قال إسماعيل بن حماد الجوهري في خطبة الصباح : (قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة بعد تحصيلها بالعراق رواية ، وإتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العرباء من ديارهم بالبادية ، وقد توفي الجوهري سنة ٣٩٣ هـ) .

ومن ذلك الحين بدأت لغة البادية تقسد بالسبب الذي فسد به لسان الحضرة ، وهو مداخلة أهلها للأعاجم بالفتن الحادثة ، كفتنة القرامطة^(١) ، وصاحب الزنج^(٢) ، فإن أصحاب هذه الفتن سبق أن جاسوا خلال البادية وخالطوا أهلها ، كذلك كان اختلاط الحاج بالعرب ، وانقطاع حاجة العلماء إلى الرواية عنهم ، واستعجام الدولة ، وغلبة العامية ؛ من أسباب الوهن الذي صار إليه أهل البادية . ولم يثبت أن بقي محافظاً على سلامة لسانه من أهل البادية إلا أهل عكاد ، وهما جبالان فوق مدينة الزرائب ، فقد ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ أنهم باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناسكة أو غيرها ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ، ولا يخرجون منه . وبعد الحموي ذكر الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، في قاموسه المحيط في مادة (ع ك د) ، وكسحاب (عكاد) جبل قرب زبيد أهله باقية « كذا » على اللغة الفصيحة ، وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدي المتوفى ١٢٠٥ هـ قوله

(١) القرامطة : ظهر في آخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة كان يظهر الورع ويدعو إلى إمام من أهل البيت فكثير الناس حوله واتفق أن مرض فضمه إليه رجل من أهل القرية يسمى « كرميته » ومعناها بالفارسية أهر العين وكان الرجل كذلك . وما زال يستغل هذا الداعي ويأخذ من كل من انضم إليه ديناراً يقول انه للإمام حتى عظم أمره وكان من أتباعه من هم بالعراق والبحرين والشام وقد هددوا الكوفة وسلبوا الحاج وقضوا عليهم في بعض السنين .

(٢) صاحب الزنج : هو رجل ادعى نسبة من العباس . ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم ثم انتقل إلى البحرين وأحلّه أهلها محل النبي وجبوا له الخراج ثم تحول بقومه إلى البادية ثم قصد بغداد وجعل يدعو سرا ثم خطرت له فكرة خبيثة وهي أن يستعين بالعبيد وهم عدد كثير ومنهم الحرية فتركوا ضياع أسبادهم وانضموا إليه فعظم أمره .

(إلى الآن) ، ثم قال : ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم .
ويمكن الحكم بأن أهل الجنوب من بلاد العرب - وإن فسد لسانهم كما فسد
لسان أهل الشمال - كانوا أقرب إلى الفصاحة ، وأتقى عامية من أهل الشمال لأن الخلط
فيهم أقل .

ويمحسن أن ننقل هنا ملخصاً لما ورد في كتاب البشارى المعروف بأحسن التقاسيم
في معرفة الأقاليم ، فقد وصف فيه السنة أقاليم الدولة أيام استيلاء العباسيين عليها ،
فقال : عن جزيرة العرب : إن لسان أهلها العربية الفصحى إلا بصحارٍ ، فإن نداءهم
وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن ، وجدة ، فرس إلا أن اللسان عربى ، وبلاد
العراق لغتها عربية ، والذين نزلوا بها من العرب أكثر ممن نزلوا بأى إقليم آخر ، وكذلك
قال عن الشام ؛ أما مصر فقد ذكر أن الفاتحين أقاموا بالمدن الكبرى ، وكان أكثر
الفلاحين بالقرى أقباطاً ، وفى أواخر العصر الأموى انتقل إليها كثير من قبائل العرب
نقل منهم هشام بن عبد الملك كثيراً من قيس ، وأقامهم بالحوف الشرقى (مديرية
الشرقية والدقهلية الآن) ، فتغلب على الناس الإسلام واللسان العربى .

وببلاد المغرب لم يكثر بها العنصر العربى ، فكان اللسان البربرى هو الغالب ،
أما إقليم المشرق وهو خراسان وما وراء النهر وكذلك ما بعد شمالاً كالديلم ، أو جنوباً
كفارس وبلاد النوبة ، فلم يتغلب اللسان العربى على أهلها : وإن كان الإسلام
قد شملهم .

ألفاظ من العامى والمولد

ونستطيع أن ننقل إليك بعض ألفاظ من العامية وردت فى ثنايا الكتب التى
حاربت العامية ، وأعادت الحرف والمصحف إلى أصله ، وبينت الأصل فيما نقل عن
معناه . ودلت على خطأ القياس والصوغ فيما صيغ خطأ ، فمن ذلك اشترت الدابة ،

وأصله اجترت ، وجواز محرف زواج ، وحرار بمعنى بائع الحرير ، ورد الباب بمعنى أغلقه ،
والطار بمعنى الدف ، وفشار بمعنى الهذيان ، وزبون بمعنى حريف ، والزهرهة بمعنى
التحسين ، وأصله من قول الفرس زه زه ، والزغرة أو الزغلطة ، وهى التصويت باللسان
بغير حروف ، وعربيتها زغردة ، والمسطول لآكل الخدر ، والست لمعنى السيدة ،
وسمكة فى موضع سكنين بمعنى مدينة ، وشوش بمعنى خلط وهوش ، وهى محرقة عن
الأخيرة ، وشحات ، وصوابه شحاذ من شحذ السيف ، إذا صقله شبه به الملح ،
وفسقية بمعنى فوارة ، وفلّ نوع من النور لم يذكره أهل اللغة ، وسماء ابن البيطار
الناروق وشاية ثوب قصير ، ومنجد وعريه نجاد ، ووصول بمعنى بطاقة تعطى لرب
الدين ، وكأنها مصدر وصل ، والمعنى أن الورقة دالة على وصول المال إلى من أخذت
عليه ، والدخان والقهوة ، والصواب التخفيف فى الأول والتشديد فى الثانى .

ومن فعل المولدين زيادة ياء فى خطاب المؤنثة بعد تأنها ، فيقولون : إنتى ضربتيه ،
وقيل هى لغة لربيعة ، ولكنها رديئة ، وكذلك زيادة الباء قبل حرف المضارعة
مثل : ييا كل ويشرب .

ومن المولد ولكنه يترفع بمض الترفع عن العامية . باس بمعنى قبل . قال الشاعر
وقد تطف :

وقال لما بست راحاته من ذا ققلت المعدم البائس
وقولهم شخصه بمعنى عين شخصه ، وجرسه بمعنى شهر به ، والمাহية والكمية والكيفية
والمنصب ، والجون ، والقصف ؛ وقولهم : مرقوق ، ومملوك ، الأول بمعنى رقيق ، والثانى
مخصوص بالرقيق غير الحبشى أو الزنجى .

الخطابة

قد عرفت شأن الخطابة في عهد الدولة الأموية ، وأنه قد انحطّ بقعود الخلفاء عنها ، وعدم احتفالهم بموقفها ، ولكن ينبغي أن تعلم أن ذلك ليس مرجعه إلى نقص الملكة ، وجبسة اللسان ، وكلال الخاطر ، فإن ذلك لا يصحّ في الذهن عن عرب خلص أحاطوا أنفسهم بأسباب الكمال ، وربّوا بها عن مصير أصحاب المكاسب وأهل الأسواق ، وإن كان عبد الملك بن مروان قد قال شيبي ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن ، فما ذلك إلا لأنه كان يطلب الكمال ، أو يرجو النزاهة المطلقة ، وما كان يشكو تعة أو إرتاجاً ، أو استعصاء معنى ، أو شرود فكر ، وإنما كان يتألم وهو العربيّ الصميم ، والبدويّ في شملته أن يندّ عن حرصه سقطة ، أو تشوب بلاغته لحنه . وما خطب الوليد جالساً إلا لانصراف عرض له عن هذا المظهر بعد أن رأى من مظاهر الأبهة ، ومجالس العظمة ما هو فوق ذاك .

لذلك أظنّ العصر دولة بني العباس ، وملكة البيان لا تزال موفورة ، وأسالات الألسنة لم يصبها الوهن ، خصوصاً في الخاصة الذين لا يتدنون إلى منازل السوق ، ولا ينحطون إلى مخالطتهم ، والعربية لم تكن اضطربت بها الألسنة إلا في الأسواق ، وأفواه أصحاب المهن ممن يشغله طلب العيش عن نظر في أدب ، أو استماع لرواية ، أو معاشرة لنابه ، أو نشأة عربية خالصة ، وكان أمثال أولئك كثيرين في بيوت بني العباس ، وبني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وعظماء القواد من العرب ، ونابغي الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار ، والشعراء والكتاب ؛ أما البادية فقد كانت معدن الفصاحة ومجئى البيان ، ينزل على ألسنة أهلها سحر البلاغة ، ويؤاتيهم سلطانها ، وهم (غير مدافعين) خير من أسلافهم في الجاهلية لما استفادوا من تهذيب الإسلام ، ولما ألانت من ألسنتهم عنوبة القرآن ، وقد كثر من أهل البدو الوفود على

الخلفاء في استمناع أوشكاية ، فأنت ترى أن أداة الخطابة وملاكمها ، وهو القدرة على تصريف القول والاستطاعة لملك الأسماع والقلوب قد استحوز عليهما رجال هذه الدولة وأعوانهم في أول أمرها ، فلا غرو إذا صارت الخطابة في مبدأ هذا العصر في عليين من الفصاحة ، ولا غرو إذا رأيناها تكون في الخلفاء وذوى قرباهم ، وفي أنصارهم من القواد والولاء ، وفي منافسيهم من آل علي ، وفي أعدائهم من الخوارج . ولا غرو إذا امتلأ صدر هذا العصر بالخطب ، وكانت الثروة بها ، والعدد فيها فوق ما عرف للعصر الجاهلي والأموي مجتمعين ، وإن كان لقرب العهد والعناية بالتدوين أثر في هذه الكثرة ، أما بلاغتها وقوة تأثيرها ، وجزالة لفظها ، فسترى من الأمثلة التي نوردها عليك أنها ليست دون ما عُدَّ على الأصابع من خطب العهد الأموي ، وأن معين العصرين واحد ، وأن مرجع البيانين إلى سليقة سليمة ، وطبع مطاوع .

وقد عظمت دواعيها في أوائل هذا العصر وكثرت أسبابها ، فاطرد أتيها وتتابع وابلها ، إذ الدولة في أول عهدها تحتاج إلى تأييد وتثبيت ، وتتطلب تنفيذاً من الحكومة السابقة ، ونعياً عليها ، وشنّاً للغارة على مساوئها ، وإثارة لدفين شناعاتها ، فإذا أدمت النظر في خطب الخلفاء وولاتهم ، رأيت تمثيلاً مؤلماً وتصويراً منكرًا ، لاجتراء بنى أمية على حرمة الدين ، واستهانتهم بحرية الناس باتخاذهم عبيداً ، وقد خلقهم الله أحراراً ، ورأيت بكاء على حال الشعوب التي حكمها الأمويون ، وإشفافاً على ما كانوا فيه ، ثم رأيت فتحةً لأبواب الأمل في أن يعوض هؤلاء البائسون من شقائهم نعيًا ، ومن ظلمهم عدلاً ، ومن الاستهانة بهم اعتداداً وإكرامًا ، وسمعت أن أهل البلاد صاروا إلى من قلقت مضاجعهم من أجلهم ، وأوذيت نفوسهم لما لحقهم ، وأنهم ما ثاروا إلا إشفافاً عليهم ، ولا طلبوا الخلافة إلا ليردوا الحقوق إلى أصحابها ، وأنهم ما خرجوا ليحرقوا نهراً . ولا يلقنوا جوهرًا ، وإنما أخرجهم الغضب للظلم ، والرثاء المنكوبين .

يردّد هذه المعاني الخلفاء وعماهم ، حتى يطمئن القوم إلى عدالتهم ، ولا يتعلق قلب بمن دالت دولتهم ، فيكون ذلك ثباتاً للدولة ، وتوطيداً لدعائمها .

كذلك تسمع ردًا على المنافسين ، وإدحاضاً لحججهم ، وتسفيهاً لرأيهم ، ثم تسمع تهديداً ووعيداً للخارجين على الدولة الناقضين لبيعتها المعتدين على سلطانها ، كما تسمع في هذه الخطب شكراً للأعوان ، واعترافاً بجميل ما أتوا واستعداداً لمكافأتهم ، وأنهم الإخوان الذين لا تنحل مودتهم ، ولا تنسى مكاتبتهم ، وذلك ليطمئن أنصار الدولة ، ومن ساعدوها بالسيف وأعانوها على الملك ، وليعرفوا أنهم غير مبحجود حقهم ، ولا منسى فضلهم ، وفي ذلك أمن لا تتقاض أمرهم والشعب منهم . يكسو كل هذه الخطب تواضع لله وذلل لوجهه ، والتماس لرضاه ، وعمل على طاعته ، وحمد لنعمته ، وتحذير من سطوته ، وتأميل لجنته ، وذلك ليكون لعامة الشعب اطمئنان إلى هؤلاء الورعين المتقين لربهم بعد أولئك الفجرة المستهترين بدينهم وشعبهم .

ومن أجل المحافظة على أن يكون شعار الدولة الدين والعمل لإعزازه حرص الخلفاء من هذه الدولة أن يؤموا الناس في الصلوات الجامعة كالجمعة والعيد ، فكانوا يخرجون في أبهتهم ، وعليهم بردة النبي ، ويخطبون فيهم بين هيبة وخشوع ، فيترك ذلك المنظر في النفوس آثاراً جمة جماعها الحب لهؤلاء الخلفاء والثقة بدينهم ، والهيبة لسلطانهم ، وقد وصف البحترى خروج المتوكل للصلاة يوم القطر ، فأبدع في التصوير ما شاء له طبعه العربي السليم :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم	وبسنة الله الرضية تُفطر
فأنعم بيوم الفطر عينا إنه	يوم أغر من الزمان مُشهر
أظهرت عز الملك فيه بجفيل	لحب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال سير فيه وقد غدت	عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى	والبيض تلمع والأسنة ترهر ^(١)
والأرض خاشعة تميد بثقلها	والجو مُتسكر الجوانب أعب
والشمس مائة توقد في الضحى	طورا ويطفئها العجاج الأكد

(١) زهر (كنع) : السراج والقمر والوجه زهوراً : تلاًأ .

حَتَّى طَلَعْتَ بِضَوْءِ وَجْهِكَ فَأَنْجَلْتَ تِلْكَ الذُّجَى وَأَنْجَابَ ذَاكَ الْعِثْرِ
وَأَفْتَنَ فِيكَ النَّاظِرُونَ فَأَصْبَحَ يُومًا إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ
يَجِدُونَ رُؤْيَاكَ الَّتِي فَازُوا بِهَا مِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ الَّتِي لَا تُكْفَرُ
ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبَى فَهَلَّلُوا لَمَّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ وَكَبَّرُوا^(١)
حَتَّى انْتَهَيْتَ إِلَى الْمُصَلَّى لَا بَسًا نُورَ الْهَدَى يَبْدُو عَلَيْكَ وَيَظْهَرُ
وَمَشَيْتَ مِشْيَةً خَاشِعَةً مُتَوَاضِعَةً اللَّهُ لَا يُزْهَى وَلَا يَتَكَبَّرُ^(٢)
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَاكَ تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
أُبْدَتْ مِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ بِحِكْمَةٍ تُنَبِّئُ عَنِ الْحَقِّ الْمُنِيرِ وَتُخَيِّرُ
وَوَقَفْتَ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ مُذَكَّرًا بِاللَّهِ تُنْذِرُ تَارَةً وَتُبَشِّرُ
وَمَوَاعِظٍ شَفَتِ الصُّدُورَ مِنَ الَّذِي يَعْتَادُهَا وَشِفَاؤُهَا مُتَعَدِّرُ
حَتَّى لَقَدْ عَلِمَ الْجَهْلُ وَأَخْلَصَتْ نَفْسُ الْمُرُوءَى وَاهْتَدَى الْمُتَحَيِّرُ^(٣)
صَلُّوا وَرَاءَكَ آخِذِينَ بِعِصْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَبِدِمَّةٍ لَا تُخْفَرُ^(٤)

وقد شاع في هذا العصر القص والوعظ والتذكير بالآخرة والتخويف من عقابها ،
وذلك لما دعت إليه ضرورة الاجتماع من إفراط في مطاوعة النفس وإطراح للأوامر
الدين ، وارتكاب للموبقات ، فاحتاج الاجتماع إلى تذكير بالدين ، وإرشاد لسبله ،
وحث على التمسك بأهدابه ، وقد كثر الوعظ والوعاظ ، وامتلأت المساجد بهم ،

(١) هائل : قال لا إله إلا الله .

(٢) زهى (بالبناء للمفعول) : تكبر وتاه ونفر . وقد استعمل الفعل قليلا (كدما) منبأ للمعلوم .
(٣) الروى : صاحب الروية والفكر ، وفي هذا البيت تقسيم حسن استوفى أقسام الناس بأزاء ما يحوم
فيه الشبهة فهم إما جاهل يحتاج إلى علم وإما مفكر يحتاج إلى برهان يتم به يقينه ، فتخلص نفسه
في اعتقاده ، وإما متحير ليس بجاهل مطلق ولا مروءة تام الروية ، فهو بالإرشاد يستقيم
على الطريقة .

(٤) خفر العهد (كضرب وقعد) خفارة : حفظه ، وكقعد فقط خفورا : نقضه .

واحتاج إليهم الخلفاء في قصورهم ، فبكوا من أقوالهم . وأخبار هذا الوعظ مستفيضة في كتب الأدب حتى لقد أفرد لها الجاحظ كتاباً في كتابه : البيان والتبيين سماه : (كتاب الزهد) ، وأبواباً أخرى للنسك وأقوالهم .

ولاشك أن الوعظ من مواقف الخطابة له كل مظاهرها من الارتجال والمشافهة ، وقوة التأثير والحرص على سلامة التعبير ، فهو نوع طغى على كل أنواع الخطابة ، واستمر بعد زوال كثير منها .

قال الجاحظ : ومن القصص موسى بن سيار الأسواري (وقد مرّ بك في المذكرة شيء عنه عند الكلام على من حدّق اللغتين العربية والفارسية) وأبو عليّ الأسواري . وقد ذكر الجاحظ أنه ربما كان يفسر الآية من القرآن في عدة أسابيع ، وكان يقص في فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . قال : وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتجّ به . ثم قصّ بعده أبو العباس الضرير ولم يذكر في القصص مثله ، وصالح المرّي ، ويكنى أبا بشر ، كان صحيح الكلام رقيق المجلس ، وقد قال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه قال (هذا ليس قاصاً هذا نذير) .



ثم قلت السواعي إلى الخطابة فضعف شأنها بعد المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، وذلك لأن الدولة كانت قد توطدت دعائمها ، فاستغنت عن الترهيب والترغيب . وبطلت الخطابة في الجيش ، « وأكثرت ما تكون فيهم » لأن الجند صاروا أعاجم لا يفقهون العربية ، ولا يتأثرون ببلاغتها . على أن نظام الجيش وحسن ضبطه انتفت معه الحاجة إلى الإثارة والتوبيخ ، وصار العمل للحيلة والمكيدة بعد أن كان شتّى الغارات أكثر عمل الماضين ، وإذا عرفت ما صارت إليه الأمة تحت حكم البويهيين ثم السلاجقيين : من قهر ، وذللّ وحكم بالسيف ، وقتل للحرية ، علمت أن الخطابة فقدت أهم آلائها وهي حرية القول ، كذلك صار في الكتابة ، وقد

تنوّعت أساليبها وتعدّدت أغراضها غنى عن الخطابة ، فإن الدواوين كان يصدر منها الإنذارُ للمعصاة ، والإرهابُ للمتمردين ، والشكرُ للأعوان ، والتأميلُ للمسلمين ، كما كانت تصدر منها المنشورات في تبليغ بفتح أو حثّ على قتال ، فلم يبق موضع للسان إلا ناب فيه القلم وأحسن البلاء ، وقد ذكر الثعالبي أن بلكا الديلمي عصى ركن الدولة ابن بويه فكتب إليه ابن العميد كتابا « سنذكره في نماذج الكتابة » فعاد إلى الطاعة وقال : والله لقد كتب إلى كتابا ناب عن الكتائب في استصلاحى وعزّك أديمى وردى إلى طاعة صاحبي .

بطلت كل هذه الدواعى للخطابة ، وبطل معها أعظم معين عليها وهو قوة البيان حين صارت اللغة إلى الضعف فاجتمع على الخطابة كل أسباب الموت فأتت ؛ وكان قد بقي لها مظهرها الديني ؛ وهو خروج الخلفاء للصلوات الجامعة ، فرأى الحكام المستبدون بالدولة أن هذا المظهر يشد أزر الخليفة ؛ ويذكر الناس به ، وفي ذلك إضعاف لهم واعتداء على سيّطرتهم ، فمنعوا الخلفاء من الخروج إلى هذه الصلوات ، ووكّلوا ذلك إلى غيرهم من أدياء العلماء ، وكان آخر خليفة خطب على منبر هو الراضى المتوفى سنة ٣٢٩ هـ كما كان آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة جالس العلماء ، وآخر خليفة كان نظام ملكه وبيته على نظام الخلفاء السابقين .

ولئن كانت الخطابة قد ماتت على منابر المساجد ووسّط الجوع الحاشدة . وعلى السنة الخلفاء والقوّاد والولاة ، لقد حيّيت في مجالس المناظرة والجدل على أسنة علماء المتكلمين والفقهاء ، وبقي لهذا الموقف خطره من اهتمام به وحرص على بلاغة القول فيه إلى آخر أيام البويهيين .

أما الخطابة وقد قصرت على مواقفها الدينية فقد وُكّلت إلى العلماء يقومون بها في المساجد الجامعة في بغداد ودمشق وحلب والقاهرة ؛ وصارت إلى من دونهم في غيرها . وكان الخطيب من هؤلاء الأجلاء يخطب لا مُبتدّهاً للقول ، ولا مستأنفا له بل يلقيه بعد أن حبره وأعمل فيه رويته ، وإن كان يأنف أن يلقيه من ورقة فقد جمع

أطرافه وأعد عباراته . ثم صاروا إلى العجز عن ذلك والاضطرار إلى النظر في الورقة ولكنها بعد من إنشائهم وما جرت به أقلامهم ، ثم صاروا إلى الضعف وسقوط الهمة فلم يأتقوا أن يخطبوا بكلام غيرهم المهيأ لهذه الأيام من السنة فصار الناس يسمعون في رجب وشعبان ورمضان وأيام الحج خطباً معينة تناسب هذه الأزمنة . ولما فات الخطباء التأثير بقوة البلاغة عمدوا إلى التهويل ، والتجئوا إلى الأحاديث الموضوعة في فضائل الأيام وثواب الأعمال ، وجزاء العصيان .

وقد شاع في خطب الجمعة والعيد ذلك السجع الذي شمل كل قول بعد المدة الأولى من عصور هذه الدولة حتى لقد روى عن بعض رجال المالكية أنه يرى اشتراط كون خطبة الجمعة مسجوعة . ولا أدري من أين جاءه هذا ! وخطب رسول الله وجميع الخلفاء بريئة من السجع إلا ما جاء عفواً ، ولعل شيوع السجع في أيامه جعله يرى هذا الرأي .

وفي أواخر عهد الدولة نشأ للخطابة رواجٌ وجَدَّتْ لها مواقف فانتعشت فيها على قدر ما يسمح به الزمن ، وتُساعدُ عليه المقدرة وذلك أن إغارة الصليبيين على مصر والشام دعت إلى جمع الجيوش لمقاومتهم ، وإلى التحريض على لقائهم ، والحذر من فتنهم ، والعمل على رد كيدهم للدين ، فكثرت الخطباء ، ورددوا هذه المعاني ، ولكن لغة هذه الخطابة تمثل فيها جهدُ البُقل ، لمصير الأدب واللغة إلى الوهن والاضمحلال .

خطباء العصر العباسي

من خطباء هذا العصر خلفاؤه كأبي العباس السَّفَّاح والمنصور ، والمهدي والرشيدي والأمين والمأمون وآل بيتهم ، ومنهم داود بن علي وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ، ثم أخو داود بن علي وهو سليمان وابنه جعفر وبنوه

سليمان وداود وأيوب ، وقد قال الجاحظ في شأن خطباء بني العباس^(١) : « وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي السكال والجلالة وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ؛ وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجلون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك » .

ومن خطباء بني هاشم من العلويين عبد الله بن الحسن بن حسن بن علي وأبناءؤه محمد الملقب بالنفس الزكية وإبراهيم ، وقد خرجا على المنصور وأخوهما موسى . ابن عبد الله ، ثم جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين ، والعباس بن الحسين ابن عبد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب .

ومن خطباء الطالبين : عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ؛ ومن الخطباء من غير بيت الخلافة : جعفر البرمكي ، والفضل بن سهل ، والجسن أخوه ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، وسهل بن هارون (خازن بيت الحكمة للمأمون) ، وبشار الشاعر وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبنة ، ومحمد الأحول بن خافان خطيب بني تميم . قال الجاحظ : لقد رأيته وسمعت كلامه .

ومن خطباء المساجد بعد العهد الأول : الخطيب أبو يحيى بن نبأنة الحذاقي^(٢) خطيب سيف الدولة بحلب وهو صاحب ديوان الخطب المشهور المطبوع ببغروت ، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ ، والخطيب البغدادي صاحب كتاب (تاريخ بغداد) توفي سنة ٤٦٣ هـ ، وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤ هـ ، وخطيب جامع القسطنطينية إبراهيم بن منصور المعروف بالعراقي المتوفى سنة ٦١٣ هـ ، وخطيب الري ، وهو والد الفخر الرازي المتوفى سنة ٥١٢ هـ .

(١) البيان والتبيين ج ١ باب أسماء الخطباء والبلغاء ... الخ ،

(٢) كان خطيب حلب اجتمع فيها مع المتنبي في خدمة سيف الدولة ، وهو من أهل ميفارقين . ومن هنا جاءت نسبته (الفارقي) ، والحذاقي نسبة إلى حذافة ، وهي بطن من قضاة . ونبأنة بضم النون كما ضبطه ابن خلكان ، ومات أبو يحيى هذا سنة ٣٧٤ هـ ببلدته ميفارقين . ودفن بها ، وهي بلدة من ديار بكر .

نماذج من خطب الخلفاء والولاة

« ١ »

صعد أبو العباس السفاح منبر الكوفة يوم الجمعة حين بويع له بالخلافة في أعلاه وصعد داود بن عليّ فقام دونه . ثم خطب أبو العباس فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرّمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا فأيدّه بنا . وجعلنا أهله وكهفه وحِصْنَه والقوَّام به والذّابين عنه والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخَصَّنا بِرَحِمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرائته وأنشأنا من آبائه وأنبئنا من شجرته ، واشتقنا من نَبْعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزا عليه ما عَنَتْنَا^(١) ، حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يُتلى عليهم ، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من مُحْكَم آياته : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، وقال تعالى : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وقال : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، وقال : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » ، وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^(٢) » ،

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ، وعنته كأعنته : شدد عليه وألزمه ما يكره .

(٢) كان خمس الغنمية على أيام رسول الله يقسم خمسة أقسام : قسم لله ورسوله ، وقسم لذوي القربى ، وثلاثة لليتامى والمساكين وأبناء السبيل . فلما مات رسول الله أسقط أبو بكر وعمر وعثمان سهمي رسول الله وذوي القربى ، وقسموا على ثلاثة فقط ، وانفقوا على جعل سهم رسول الله في السلاح والكرام . وعن ابن عباس : أن عمر عرض على ذوي القربى أن يزوج من سهمهم =

فأعلمهم جلّ ثناءه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النية والغنيمة نصيبنا تكريماً لنا وفضلاً علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت الشاميّة الضلال أن غيرنا أحقّ بالرياسة والخلافة مِنّا ، فشأهت^(١) وجوههم ، ولمّ أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة^(٢) ، وتمم بنا النقيصة ، وجمع الفرق حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبرّ والمواساة في دُنْيائهم ، وإخواناً على سُرر متقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلك مِنّةً ومنحةً لحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه وقام إليه بالأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، حووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خفاصاً^(٣) منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها^(٤) وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه^(٥) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليؤمن بنا على الدين استضعفوا في

— أجمعهم ، ويقضى عن غريمهم ، فأبوا إلا أن يسلمه إليهم فلم يفعل ، وجرى على عمله سلفه ، وإن كان رأيّه أن هؤلاء يستحقون سهمهم . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث سهمي رسول الله وذوى قرباه إلى بنى هاشم . وأبو حنيفة يرى أن سهم رسول الله يصرف فيما صرفه الخلفاء الراشدون . والشافعي يرى أن سهم رسول الله يصرف في مصالح المسلمين ، وسهم ذوى القربى يعطى لبني هاشم وعبد المطلب .

- (١) شاه يشوه شوها وشوهة : قبح .
- (٢) يقال رفع فلان من خسيصة فلان: إذا فعل به فعلاً يكون فيه رفعة .
- (٣) خصمه (كنصر) الجوع ، وخص (مثلاً) بطنه . والرجل خصان بالتحريك ، والمرأة خصانة بضم فسكون ، والرجال خفاص ، والنساء خمائص .
- (٤) الابتزاز كالْبَزْ : أخذ الشيء بجفاء وقهر .
- (٥) الأسف : أشدّ الحزن والغضب . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن موت الفجاءة فقال : راحة للمؤمن وأخذة لأسف للكافر : أى غضب .

الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو ألا يأتكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . ي أهل الكوفة أتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنيكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير^(١) .

« ٢ »

وكان موعوگا ، فاشتد عليه الوعك^(٢) ، فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقب المنبر ، فخطب فقال :

الحمد لله شكراً شكراً . الذي أهلك عدونا . وأصار إلينا ميثرائنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس : الآن أقشعت^(٣) حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مظلها ، وبزغ القمر من مبرغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى النزعة^(٤) ، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة ، والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثير لجيناً ولا عقياناً^(٥) ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبني

(١) المبير : المهلك . وفي رواية المنيع ، أى الذى يجعل الناس ينوحون على قتلاهم .

(٢) الوعك : أذى الحمى ، وألم من شدة النصب .

(٣) قشعت الريح السحاب : فرقته فانقشع ونقشع وأقشع . الحندس : الليل المظلم أو الظلمة ، وتحندس الليل : أظلم .

(٤) صار الأمر إلى النزعة : أى قام بالأمر أهله كما يقال أيضاً عاد السهم إلى النزعة . والنزعة : جمع نازع وهو الرامى . ويقال عاد الأمر على النزعة أى عادت عاقبة الظلم على الظالم .

(٥) اللجين الفضة . العقيان الذهب الخالص . قيل هو مما ينبت نباتاً وليس مما يحصل من الصخر والمراد من نباته أنه يوجد كتلا غير مختلط بالصخر ، قال الشاعر :

كل قوم صيغة من فضة وبنو العباس عقيان الذهب

قصرًا ، وإنما أخرجننا الأثفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عَمْنَا ، وما كَرَّثْنَا^(١) من أموركم ، وبَهَظْهَا^(٢) من شئونكم ، ولقد كانت أموركم تُرْمِضُنَا^(٣) ونحن على فُرْشِنَا ، ويشدّ علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخُرْفُهُمْ بِكُمْ ، واستدلالهم لكم ، واستتارهم بِفَيْئِكُمْ وصدقاتكم ومغائركم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمة الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تَبَّأَ تَبَّأَ لبني حرب ابن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ؛ فركبوا الآثام ، وظالموا الأنام ، واتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسرُّبَلُ الأوزار ، وتَجَلُّبَبَ الآصار ، ومَرَّ حوا^(٤) في أعنة المعاصي ، ورَكَّضُوا في ميادين الغي جهلا باستدراج الله ، وأَمَّنَّا لمكر الله . فَأَتَاهُمْ بِأَسْ^(٥) الله بَيَاتًا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث^(٦) ، ومزَّقُوا كلَّ مُمَزَّقٍ . فَبَعْدًا للقوم الظالمين ، وأَدَالْنَا^(٧) الله من مروان ، وقد عَرَّه بالله الغرور . ما أُرْسِلَ لعدو الله في عِنايه حتى عَثَرَ في فَضْلِ خِطَامِهِ^(٨) ، فظنَّ عدو الله أن لن تقدِّر عليه ، فنأدى حِرْزَهُ ، وجمع مَكَايِدَهُ ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه

(١) كَرَّثَهُ الهم (كنصر وضرب) : اشتد عليه كأكرَّثَهُ .

(٢) بهَظَّهُ الأمر (كنع) : ثقل عليه .

(٣) أَرْمَضَهُ الأمر : أوجعه ، والرمض (بالتحريك) : شدة وقع الشمس .

(٤) مَرَّح (كفروح) : بطرو نشط واحتال وتبخر .

(٥) البأس : العذاب .

(٦) الحديث : الخبر قليله وكثيره ، وجمعه على أحاديث شاذ كقطع وأقاطيع . قال الفراء : أرى أن جمع الأحدثوة أحاديث ثم جعلوه جمعا لحديث .

(٧) الدولة — (بالضم) : انقلاب الزمان ، والجمع دول مثله ، ودالت عليهم ولهم : ضد . وأدال الله لنا عليهم ومنهم : جعل الفوز لنا عليهم .

(٨) الحطام (ككتاب) : كل ماوضع في أنف البعير ليقْتَادَهُ .

وشماله مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبَاسِهِ وَنِقْمَتِهِ مَا أَمَاتَ بَاطِلُهُ ، وَحَقَّ ضَلَالُهُ ، وَجَعَلَ دَائِرَةَ السُّوءِ بِهِ ، وَأَحْيَا شَرَفَنَا وَعِزَّنَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا وَإِزْنَنَا . أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَصَرَهُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ، إِنَّمَا عَادَ إِلَى الْمَنْبَرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَخْلُطَ بِكَلَامِ الْجُمُعَةِ غَيْرِهِ ، وَأَدْعُو اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَافِيَةِ ، فَقَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِمُرْوَانَ عَدُوَّ الرَّحْمَنِ ، وَخَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ . الْمُتَّبِعِ لِلسَّفَلَةِ^(١) الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِإِدَالِ الدِّينِ ، وَاتِّهَاكِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ : الشَّابَّ الْمَكْتَهَلَ الْمُتَمَهَّلَ ، الْمُقْتَدِيَ بِسَلَفِهِ الْأَبْرَارِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ أَصْلَحُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ فُسَادِهَا بِمَا لَمْ يَهْدَى وَمَنَاهَجَ التَّقْوَى . (فَعَجَّ النَّاسُ لَهُ بِالْدَّعَاءِ) .

ثم قال : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَازَلْنَا مَظْلُومِينَ مَقْهُورِينَ عَلَى حَقَّنَا حَتَّى أَتَانَا اللَّهُ لَنَا شَيْعَتُنَا أَهْلَ خُرَاسَانَ فَأَحْيَا بِهِمْ حَقَّنَا ، وَأَفْلَحَ بِهِمْ^(٢) حُجَّتُنَا ، وَأَظْهَرَ بِهِمْ دَوْلَتَنَا ، وَأَرَأَيْتُمْ أَنَّهُمْ مَالَسْتُمْ تَنْتَظِرُونَ . وَإِلَيْهِ تَتَشَوَّقُونَ ، فَأَظْهَرَ فِيكُمْ الْخَلِيفَةَ مِنْ هَاشِمٍ ، وَبَيَّضَ بِهِ وَجُوهَكُمْ ، وَأَدَاكُمْ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، وَنَقَلَ إِلَيْكُمْ السُّلْطَانَ ، وَعِزَّ الْإِسْلَامَ ، وَمَنَّ عَلَيْكُمْ بِإِمَامَةِ مَنَحَةِ الْعَدَالَةِ ، وَأَعْطَاهُ حُسْنَ الْإِيَالَةِ^(٣) ، فَخَذُّوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ بِشُكْرِهِ وَالزَّمُوا طَاعَتَنَا ؛ وَلَا تَتَّخِذُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكُمْ ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ مِصْرًا وَإِنَّكُمْ مِصْرُنَا ، أَلَا وَإِنَّهُ مَا صَعِدَ مِنْبَرُكُمْ هَذَا خَلِيفَةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ ، (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ) ، فَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِينَا لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَّا حَتَّى نَسْلَمَهُ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا أَبْلَانَا^(٤) وَأَوْلَانَا .

ثم نزل أَبُو الْعَبَّاسِ ، وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ أَمَامَهُ حَتَّى دَخَلَ الْقَصْرَ .

(١) السفلة (بالكسر وكفرحة) : غوغاء الناس .

(٢) الفلج : الظفر و فلج (كنصر) على خصمه : فاز وأفْلَجَه الله .

(٣) آل الملك رعيته إِيَالَا : ساسهم . وآل على القوم أُولَا وإِيَالَا : تولى عليهم .

(٤) أبْلَاه : صنع به حسنا أو سيئا ، وَالْكَلامُ هُنَا صَالِحٌ لِلْعَيْنِينَ .

وخطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً^(١) ، وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها
وبئس القرار » ، نكص^(٢) بكم ياهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون^(٣) بكم
في الظلم ، ويتهورون بكم في مداحض الزلق ، يطؤون به حرمة الله وحرمة رسوله . ماذا
يقول زعماءكم غدا ؟ يقولون : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ^(٤) . إذا
يقول الله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْمُونَ » .

أما أمير المؤمنين فقد اتنّف بكم التوبة ، واغفر لكم الزّلة ، وبسط لكم الإقالة^(٥)
وعاد بفضلته على نقصكم ، وبجلته على جهلكم . فليفرخ روعكم^(٦) ، ولتطمئنّ بكم
داركم ، ولتغظكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وخطب سليمان^(٧) بن عليّ عمّ أبي العباس ، فقال :

(١) أى بدلوا شكر نعمته كفرا . والاشارة إلى كفار قريش . وعن عمر أنهم الأجران من قريش
بنو المغيرة ، وبنو أمية . فأما بنو المغيرة فقد لقيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتعوا إلى حين .

(٢) نكس على عقبيه : رجع عن الخير ، أو عامّ (بابه نصر وضرب) .

(٣) التسكع والسكع : المشى على غير هدى والتمادى فى الباطل .

(٤) عذابا ضعفا : أى مضاعفا ، والضعف : المثل فى الأصل ، ثم استعمل فى المثل وما زاد عليه ،
والزيادة لا حد لها .

(٥) الإقالة : الإعفاء . ويقال استقاله العثرة : أى طلب أن يقلعه منها ويعفيه .

(٦) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم كما تفرخ البيضة بأن يفرج منها فرخها فتخلو . وعلى
هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب . أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء من روع
فالرّوع هنا الخوف فوجهه أن يشبه الروع بالبيضة وما يتوقع منه بالفرخ داخلها فإذا أفرخ
الروع فقد خلا مما كان يتوقع منه وزال ما فيه من ضرر .

(٧) ولاء السفاح البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ هـ ومات سليمان سنة ١٤٢ فى
خلافة المنصور .

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ^(١) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .
إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » قضاء مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وما هو بالهزل . الحمد لله
الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعثاً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة غَرَضاً^(٢) ،
وَالْفَيْءَ إِرْتَاءً ، والدِّينَ هُزُوءًا ، وجعلوا القرآن عِصِينَ^(٣) ، ولقد حاق بهم ما كانوا به
يستهزون ، فكأنَّ تَرَى من بُرٍّ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ^(٤) ، ذلك بما قدّمت أيديكم ،
وَأَنَّ اللَّهَ ليس بظلام للعبيد ، أُمُهلُوا واللّهُ حتّى نَبْذُوا الكتابَ ، واضطهدوا العِثْرَةَ ،
ونَبَذُوا السُّنَّةَ ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كُلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ ، ثم أخذهم فـ«يَهْلُ تُحْسِنُ
منهم من أحد أو تَسْمَعُ لهم رِكْزًا» .

« ٥ »

وخطب أبو جعفر المنصور يوم الجمعة فقال :
« أحمد الله حمده وأستعينه ، وأتوكلُ عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .
أيها الناس : اتقوا الله - فقام إليه رجل . فقال : أذكرك من ذكرتنا به وأنت

(١) الزبور : كتاب داود عليه السلام . والذكر : التوراة .
(٢) إشارة إلى مانال الكعبة من بني أمية فقد وجه عبد الملك في سنة ٧٢ هـ جيشا لمحاربة ابن الزبير
بمكة وجعل عليه الحجاج بن يوسف خناصر مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق حتى قتل الزبير سنة ٧٣
وفي سنة ٧٤ هـ دهم الحجاج الكعبة وأعاد بناءها .
(٣) العضة : الفرقة ، وجمعها عضون والعضه (بالهاء) : الكذب وجمعه عضون أيضا ، فعني جعلوا
القرآن عِصِينَ : جعلوه أجزاء فقال بعضهم إنه شر ، وقال آخرون هو سحر وقال غيرهم كهانة
وقيل جعلوه كذبا ، وهذا على أن عِصِينَ جمع عضه (بالهاء) .
(٤) المشيد : المطلق بالشيء وهو الحص ، والمشيد (كككرم) : المطول . وفي تفسير النسفي المشيد أيضا
المطلق وليس في كتب اللغة ما يؤيده . وفي اللسان شاد البناء : رفعه (في بعض كلام العرب) ومنه
قول الشاعر :

شاده مرمرًا وكلله كلسًا فللطير في ذراه وكور

في ذكره يا أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : سمعاً وطاعة لمن سمع عن الله وذكره وأعوذ بالله أن أذكره به وأنساه ، فتأخذني العزة بالإثم^(١) لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . ثم التفت إلى الرجل وقال : وأما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردت بها ، ولكن ليقل قام فلان فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت العقوبة . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة الحسنة علينا نزلت وفيها ثبتت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة فقال : رحم الله امرأً نظر في دنياه لآخرته فمضى القصد ، وقال القصد ، وجانب الهجر . ثم أخذ بقاءم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه . فليعتبر عبدي قبل أن يُعتبر به . فما بعد الوعيد إلا الإيقاع . وإنما يُفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

« ٦ »

وخطب أبو عبد الله المهدي فقال .

« الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه . أحمده على آلائه^(٢) ، وأجده لبلائه وأستعينه وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبي ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه . أرسله بعد انقطاع الرجاء وطُموس^(٣) العلم

(١) أخذته العزة بالإثم : احتوت عليه وأحاطت به وصار كالأخذ بها ، والعزة في الأصل : خلاف النل وأريد بها ما الأنفة والحمية مجازاً ، و (بالإثم) أى مصحوباً بالإثم أو مصحوبة بالإثم أو بسبب إثمه . ويجوز أن يكون أخذ بمعنى أسر ، ومنه الأخيد بمعنى الأسير : أى جعلته العزة وحية الجاهلية أسيراً بقيد الإثم لا يتخلص منه .

(٢) الآلاء : النعم واحدها ألوكدلو وإلى كسى وإلى كثر وإلى كرضا .

(٣) الطُموس : الدروس والإحياء ، طمس الطريق (كدخل وضرب) وطمسه (كضرب) وقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) أى غيرها ، وكذلك (من قبل أن نطمس وجوها) .

واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة ، أمية ، أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين . قد استهوهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرأؤهم^(١) ، فاستشعروا^(٢) الردى ، وسلکوا العمى يُبشّر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، ويُذّر من عصاه بالنار وأليم عقابها . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة . وأحسّكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقُدْرته ، والانهاء إلى ما يقرب من رحمته ويُنجي من سُخطه ، ويُنال به ماله من كريم الثواب وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقَفون بين يدي الجبار وتُعْرَضون فيه على النار . يوم لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . يوم يَقَرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغْنِيهِ . يوم لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٣) ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . يوم لا يَجْزِي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ وَبَلَاءٍ وَشُرُورٍ وَاضْمَحَلَالٍ ، وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ ، فقد أَفْنَتْ من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى مَنْ بَعْدَكُمْ . وَمَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا صَرَعَتْهُ ، وَمَنْ وَثِقَ بِهَا خَانَتْهُ وَمَنْ أَتَمَّلَهَا كَذَّبَتْهُ وَمَنْ رَجَاها خَذَلَتْهُ . عِزُّهَا ذُلٌّ ، وغناها فقرٌ ، والسعيدُ من تركها ، والشقيُّ فيها من آثرها ، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فَاللَّهُ اللَّهُ يَا عِبَادَ اللَّهِ ، التوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة . بادروا بالأعمال الزَّكِيَّةَ في هذه الأيام الخالية

(١) القرآن : جمع قرين وهو المقارن والصاحب والشیطان الذي لا يفارق الإنسان .

(٢) استشعر الشيء : لبسه على الجسد ، والملبوس يسمى شعرا ، والمعنى لزموا الردى واتصل بهم تمام الاتصال .

(٣) العدل : الفريضة . والصرف : التوبة أو النافلة أو العكس ، أو العدل الكيل ، والصرف : الوزن

أو الصرف الحيلة ، ومنه (لا يستطيعون صرفا ولا نصرا) .

قبل أن يؤخذ بالكظم^(١) ، وتندموا فلا تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام وموقف ضنك^(٢) المقام ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله . يقول الله تبارك وتعالى « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^(٣) » أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به وأنها كم عما نهاكم الله عنه . وأرضى لكم طاعة الله وأستغفر الله لي ولكم .

« ٧ »

وخطب الرشيد فقال :

الحمد لله على نعمه ونستعينه على طاعته . ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً وننوّك كل عليه ، مفوضين إليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار

(١) الكظم (بالتحريك) : الحلق أو الفم .

(٢) ضنك : ضيق ، والفعل ككرم .

(٣) حق زرتهم المقابر : أى حتى تم ودفت فيها ، أوعدت الموتى تكاثراً . لترون الجحيم : جواب قسم محذوف والتقدير والله لترون الجحيم ولا يصح جعله جواب لولأن جوابها ممتنع لامتناع شرطها . وجواب لو تعلمون محذوف للتفخيم أى لارتدعتم أو لكان منكم ما لا يوصف . والعطف ثم فى ثم كلا سوف تعلمون إشارة إلى أن العلم الأول فى الدنيا أو عند الموت والثانى يوم النشر . وفى ثم لترونها لأن الرؤية الأولى رؤية علم والثانية رؤية بصر وهى أقوى وآكد وتكون بعد الثانية أى يوم القيامة .

عن الدنيا، وإقبال من الآخرة. بشيرًا بالنعيم المقيم، ونذيرًا بين يدي عذاب أليم، فبلغ الرسالة، ونصَح الأُمّة، وجاهد في الله. فأدّى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين ففعل النّبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف الحسنات ، وفوزا بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار، وتُبلى فيه الأسرار، يومَ البعثِ ويومَ التَّغَابُنِ^(١) ويوم التلاقي ويوم التَّنَادِي^(٢) . يوم لا يُسْتَعْتَب من سيئة ولا يُزاد في حسنة يوم الآزفة^(٣) إذ القلوب لدى الحناجر كاطمين^(٤) ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة^(٥) الأعين وما تخفي الصدور . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كَسَبَتْ وهم لا يظلمون .

عبادَ الله إنكم لم تخلقوا عَبَثًا . ولن تتركوا سُدىً^(٦) . حَصَّنُوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع ؛ وصلاتكم بالزكاة فقد جاء في الخبر أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » إنكم سَفَرٌ^(٧) مجتازون . وأتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذِكرُه أوجب رحمته

(١) التغابن : تفاعل من الغين أى أن المؤمنين يغيبون الكفار منازلهم في الجنة لو كانوا آمنوا . أو من غين عقله إذا نسب إلى النقص ، وأهل الجنة ينسبون أهل النار إلى ضعف العقل .

(٢) التنادي : أن ينادى أهل الجنة أهل النار وبالعكس ، أو النداء لأهل السعادة بها ولأهل الشقاء كذلك (٣) سميت القيامة آزفة ، من أزف الرحيل : إذا قرب .

(٤) كاطمين : ممتثلين غما . حال من القلوب وعوملت معاملة أصحابها ، أو حال من أصحابها .

(٥) خائنة لأعين : الأعين الخائنة بمسارقة النظر .

(٦) السدى (بالفتح أو الضم وهو الأكثر) : المهمة من الابل للواحد والجمع كالسادي ، وأسدها أهماله

(٧) رجل سفر وقوم سفر (كلاهما بالفتح) وقوم سافرة وأسفار وسفار : ذوو سفر . والسافر : المسافر لا فعل له ، وفي المصباح : سفر الرجل (كضرب) فهو سافر والجمع سفر (كراكب وركب)

المتقين، ومغفرته للتائبين، وهؤلاء العنيين . قال الله عز وجل وقوله الحق: «وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»، وقال: «وَأِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى»، وإياكم والأمانى فقد غرَّتْ وأوردت^(١) وأوبقت^(٢) كثيرا حتى أكَذَّبْتُمْ منايهم فتنأوشوا^(٣) التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثالات^(٤) فبهم وصرف^(٥) الآيات وضرب الأمثال. فرغب بالوعد، وقدم إليكم الوعيد. وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا نجيلا، وعهدتُمُ الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب فأسلعتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب .

ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .
 إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله . يقول الله عز وجل: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قل هو الله أحد . الله الصمد^(٦) لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

أمركم بما أمركم الله به . وأنها كم عمانها كم الله عنه . وأستغفر الله لى ولكم .

(١) المفعول محذوف : أى موارد الهلاك .

(٢) أوبقت : أهلكت من وبق كوعد بمعنى هلك . والمواقف : المعاصى .

(٣) التناوش : التناول، وقوله تعالى : وأنى لهم التناوش من مكان بعيد : أى كيف لهم تناول الإيمان بعد فوات وقته وهم لم يتناولوه فى إمانه .

(٤) المثالات : العقوبات جمع مثالة (بفتح فضم) وفيها أيضا مثلة (بالتحريك) والفعل مثل به : نكل كمثل (بالتضعيف) .

(٥) تصريف الآيات : تبينها .

(٦) الصمد : السيد المطاع الذى لا يقضى دونه أمر . وقيل هو الذى يصمد إليه فى الحوائج : أى يقصد، والصمد أيضا الدائم والرفيع . ومن معانيه التى لا تناسب مقام الآية المصمت الذى لا جوف له ، والذى لا يعطش ولا يجوع فى الحرب ، والقوم لا حرفة لهم ولا شىء يتعیشون منه .

وخطب المأمون خطبة الجمعة فقال :

« الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومُسْتَوْجِبُه على خَلْقِه . أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتَّجَنُّز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا مَنْ اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جُدَّ بِكُمْ^(١) ، واستعدوا الموت فقد أظانكم ، وكونوا كقوم صريح فيهم فالتبوا ، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عَبَثًا ، ولم يترككم سُدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به . وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بتقصير المُدَّة ، وإن غائباً يحذوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادمًا يحلُّ بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل المُدَّة ، فاتق عبدُ ربِّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان مُوَكَّلٌ به ، يُزَيِّنُ له المعصية ليركبها ، ويُمنِّيهِ التوبة ليسوقها ، حتى تهجم عليه مَنِيَّتُهُ أغفل ما يكون عنها ، فيألفها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وتؤديه مَنِيَّتُهُ إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبْطِرُهُ^(٢) نعمة ، ولا تُقْصِرُ

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجذك لا تفعل » بكسر الجيم استخلاف بالحقيقة وبالفتح استخلاف بالاجت ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل » فتح لاغير .

(٢) أبطرت النعمة : جعلته يطنى .

به عن طاعة ربّه غفلةً ، ولا يحُلُّ به بعد الموت فزعةٌ إنه سميعُ الدعاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فعَالَ لما يريد .

خطب طاهر بن الحسين حين فتح بغداد فقال :

« الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملكَ ممن يشاء ، ويُعِزُّ من يشاء ، ويذلُّ من يشاء ، ولا يُصْلِحُ عملَ الفاسدين ، ولا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ^(١) إِنَّ ظُهُورَ غَلَبَتِنَا لم تكن عن أيدينا ولا كَيْدِنَا ^(٢) بل اختار الله لخلافته ، إِذْ جعلها عموداً لدينه ، وقِيَومًا لعباده ، من يستقل ^(٣) بأعبائها ويضطلع ^(٤) بحملها

« ١٠ »

وخطب الناس عبد الله ^(٥) بن طاهر وقد تجهز لقتال الخوارج فقال :

« إِنَّكُمْ فِئَةُ اللَّهِ المجاهدون عن حقه ، الدَّائِبُونَ عن دينه ، الدَّائِبُونَ عن محارمه ، الدَّائِعُونَ إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة الأمور ، الذين جعلهم رُحَمَاءَ الدين ، ونِظامَ المسلمين ؛ فاستَنْجِزُوا مَوْعُودَ اللَّهِ ونَصْرَهُ ، بمجاهدة عدوّه وأهلِ معصيته

(١) أى لا ينفذه ولا يسوده ، أو لا يهْدِي الخائنين بكيدهم .

(٢) كيدنا : حياتنا .

(٣) استقل بالشيء : رفعه ، ومن المجاز هو مستقل بنفسه إذا كان ضابطاً لأمره ، وهو لا يستقل بكذا : لا ينهض به ولا يطيقه .

(٤) يضطلع ، يقوى . والضلعة : القوة ، والفعل ككرم .

(٥) في سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون عبد الله بن طاهر حرب نصر بن شبث وفي سنة ٢١٠ أرسل عبد الله بن طاهر نصراً إلى بغداد وكانت مدة حصاره وقتاله خمس سنوات . وكان يقول : هوأى مع العباسيين وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

الذين شَدُّوا وتمرَّدوا وشَقَّوا العصا . وفارقوا الجماعة ومَرَّقُوا من الدين ، وسعوا في الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذى إليه تلجئون ، وعدَّتكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دَلَّكُمْ اللهُ عليه ، والجَنَّةُ الحصينة التى أَمَرَكُمْ اللهُ بلباسها ، غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَأَخْفَتُوا^(١) أصواتكم فى مَصَافِّكُمْ . وَاْمْضُوا قُدُماً على بصائرکم ، فارغين إلى ذِكْرِ اللهِ والاستعانة كما أَمَرَكم اللهُ فإنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، أيدكم اللهُ بعزِّ الصبر وَوَلِيَّكُمْ بالحِياطة والنَّصر .

نموذج من خطب أئمة المساجد

خطبة لابن بُناتة خطيب حلب فى ذكر فضل الجهاد :

الحمد لله ملبس من أطاعه أنوار القبول . ومُرَكِّس من عصاه فى مضال الخمول ، الذى خاطب بمراده أهل العقول ، وجعلهم الأمانة والحكام على كلِّ جهول . أحمد حمد من علم أن حمده فريضة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . كلمة تَنْقُذُ بها الأفئدة المريضة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله مُصَلِّتاً بالحسام ، ومُحِبِّتاً فى الظلام . مشتتاً للطعام ، مُشِيداً لشعائر الإسلام ، مؤيِّداً بالملائكة الكرام حتى أذل عبدة الأصنام ، وألف القلوب بتشذيب الهام . صلى الله عليه وعلى آله الهداة الأعلام صلاة دائمة بدوام الأيام وسلم تسليماً .

أيها الناس : اقطعوا بتقوى الله أودية الأعمار ، وارفعوا فى جهاد عدو الله

(١) خفت خفوتاً ، سكت وسكن .

ألوية الأبرار ، واصدعوا بكتاب الله قلوب المناققين والفجّار . وانزعوا بادّكار
المرّد إلى الله عن موبقات الأوزار ، واتمسوا كنوز القرآن بأمثاله وقصصه . ولا تظّلّعوا
عن حمل عزائمهم طلباً لرخصه . وامزجوا سائع الحياة بذكر علز الموت وغُصصه ، وبادروا
غفلات الزمان بانتهاز فُرصه ، فإن الصحة يعتريها المرض ، والأطهار تنوبها الحيض .
وجوهر الآخرة لا يفي به من الدنيا عَرَض . فابذلوا في الجهاد النفوس فقد عظم عنها
العَوَض ، واصبروا وصابروا وربطوا ، وإن مسَّكم المَض ، وأغرِقوا في التَزَع . فقد
استهدف من عدوكم العَرَض . وتمسكوا بجبل جهاده فقد استحصدت لكم مِرَره .
وريشوا السهام لمقاتلته فقد أمكنتكم ثَغْرُه . واغتنموا صفاء وقت غم العدو كدْرُه ،
واحتموا منه بشاكي السلاح ، فإن حامى النحل إِبْرُه . وتحصنوا من كيد العدو
بمعاقل الصبر ، وثَقُوا مع الثبات بعاجل النصر ، وأكثرُوا من ذكر الله تعالى عند
اللقاء في السرّ والجَهْر ، ولا تجعلوا لكم ملجأ سواه عند تضايق الأمر . واستشعروا
السكينة إذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عُقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها .
وأمرّ الحِمَام شربها . وتذكّر العربُ العَرَبَاء أنسابها . ومثلّت العلماء مرجعها ومآبها .
ونزلتم للجهاد منزلاً قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ،
وأشرعت الولدان لمصطفى الله فيه أكوابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال ، فكونوا
الآن خطابها . وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأباطيل بُهتانه ، وهول
باحتشاد عبدة صُلبانه ، وضمّن لهم ما هو مُخَفّر في ضمّانه ، وجاء الحق وبطل النفاق
وانسدت بجيش العدو الجهات والآفاق . فأخذوا هنالك بصواعق العزمات رَهَجَه ،
وأبطالوا بصادق الحملات حججه . وارأبوا بضمّ الرماح فُرَجَه . واضربوا ببيض
الصَفاح نَبَجَه ، واركبوا ببذل الأرواح لججّه ، وانهبوا بالموت الصُراح مَهَجَه .

نماذج من أقوال الوعاظ

حكى أن الأوزاعي قال : بعث إلى المنصور ، فقال : لم تبطىء عنا ؟ قلت : وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له : مهلا فإن عروة بن رؤيم أخبرني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : من جاءته موعظة من ربه قبلها شكر الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام ، إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرياسة : يجربون الكسير ، ويسمنون الهزيلة ، ويردون الضالة ، فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوك إلى الجنة ، إن رسول الله كانت في يده جريدة يستاك بها ، ف ضرب قرن أعرابي ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جبارا مؤيسا مقنطرا تكسر قرون أمتك . ألق الجريدة من يدك ، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك ، إلى داود عليه السلام : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) ، وأوحى إليه : يا داود إذا أتاك الخصمان ، فلا يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأمحوك من ديوان نبوتي ، وأعلم أن ثوبا من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فكيف بمن تقمصه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقلدها ؟ .

ودخل ابن السماك على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى

إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنةٍ أُنارٍ ، فبكى الرشيد حتى اخضَلَّتْ^(١) لحيتُهُ ، فأقبل الفضل بن الربع على ابن السَّماكِ ، فقال : سبحان الله ! وهل يَتَحَالَجُ^(٢) أحدًا شكًّا في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

ودخل عليه مرّة ، فبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد فأَتَتْهُ بَقْلَةٌ ماء ، فقال ابن السَّماكِ : على رِسْلِكَ^(٣) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مُنِعَتْ هذه الشَّرْبَةُ بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اشرب ههناك الله ، فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا يُنَاقَسَ فيه .

وكان المنصور يحجّ ، فسمع رجلا يطوف ، وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور الجور ، والبغى ، والفساد في الأرض ، وما يحول بين المرء وقلبه من الطمع ، فاستدعاه المنصور ، فكان من عظة الرجل له : عَمَدَتْ إلى الطين ، فأوقدت عليه فصيرت منه لَاجِرًا . ثم عَمَدَتْ إلى الرمل ، فأوقدت عليه ، فصيرت منه الحِصَّ ، وصيرت بعضه فوق بعض ، فبنيت لك منها الحصون المشيدة ، والقصور العالية ، ثم غلقت عليها أبواب الحديد ، فاحتجبت عن الناس أجمعين ، ثم أقعدت على الأبواب أقواما عبدوك من دون الله ، فلما قال له ذلك استوى المنصور جالسًا وقال : أنا ؟ قال : نعم ، أما سمعت الله يقول : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) ما صلّوا

(١) اخضلت كاخضوضلت ، ابتلت .

(٢) تتخالج الشك ، تردد في نفسه .

(٣) الرسل : المهل .

ولا صاموا ، ولكنهم أمروهم فأعطوا في كل ما أرادوا ولم يخالفوهم ، فكانت تلك ربوبيتهم ، ثم اتخذت بطانة يسيرة وقلت : لا يدخل عليّ إلا فلان ، فرفع أولئك إليك من أمور المسلمين ماهان عليهم وخفّ عليك ، فإذا جاء المظلوم إلى الباب لم يصل إليك ، فصار إلى بعض من يصل إليك ، فقال : ارفع قصتي هذه إلى أمير المؤمنين . قال نعم ، فدفعها إليه ، فإذا هو يتظلم من بعض من يصل إليك ، فأرسل إليه الظالم الذي ظلم صاحب القصة ، والله لئن رفعت قصة فلان لأرفعن قصة فلان الذي ظلمته ، فأمسك القصة ولم يرفعها ، فعند ذلك انقطعت حقوق الناس دونك ، وأنت محصور في قصرك تظن أنك في شيء أو على شيء ، والناس وراء بابك يُقتلون ويؤكلون ، والله لقد دفعت إلى جزيرة من جزر البحر ، وإذا ملك تلك البلد مشرك وصنمه في كهه وتسمى البلاد الصين ، فرأيت ذات يوم وهو يبكي في مجلسه ، فقام إليه وجوه مملكته ، فقالوا . ما يبكيك أدام الله ملكك وأعزك أيها الملك ؟ أليس قد مكن الله لك ؟ أليس قد مهد لك ؟ قال : أبكي لصمم قد اعتراني أخاف ألا أسمع صوت مظلوم وصارخ بالباب ؛ ألا وقد آليت عليكم ألا يركب منكم الفيل ، ولا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم حتى أعرفه . قال : فلقد والله رأيته يركب الغداة ، والعشي يتصفح الوجوه ، هل يرى مظلوما فينصفه ؟ . فهذا لا يعرف الله جلّ وعلا ، ولا يريد بذلك رفعة عند الله ، ولا زلفى لديه ، ولا رجاء ثواب ، ولا مخافة عقاب ، ولكن شفقة على ملكه ، وخوفا منه أن ينتشر عليه أمره ، فيخاف أن يذهب ملكه ، وهو مشرك يفعل هذا ، ويتفقه من نفسه ورعيته . وأنت ابن عمّ رسول الله ، وكنت أولى بهذا الفعل من ذلك المشرك . قال : صدقت ، قد عرفت الذي قلت ، وفهمت ما وصفت ، والأمر على ما ذكرت ، ولكن كيف أصنع وقد بليت بأمر الأمة ، ودعوت الفقهاء فلاناً وفلاناً أستعين بهم على ما أنا فيه فهربوا . قال : إنهم لم يهربوا منك ، ولكن لم يعلموا أنك تريد لهم للعمل بالحق ، وكان العمل معك ومعوتك أوجب عليهم من الصلاة والصيام والحجّ والنوافل ، ولكنهم هربوا خوفاً على أبدانهم من عذاب الله .

كتب الرشيد إلى سفيان الثوري يشناق إليه ويدعوه لزيارته ، ويذكر أن العلماء

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم في جملتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كل علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهي التي اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة . ويراد بالدخيلة تلك العلوم التي صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى ، فلم يكن لهم فيها أولاً إلا أثر الهمة في النقل واختيار اللفظ العربي لما ورد بها من مصطلحات ، أو تعريب لألفاظها في تلك اللغات وصقلها حتى تخضع لأحكام العربية . ولا بد لنا من أن نذكر ما كان للعلوم في هذا العصر من نشأة وتدرج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسي .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية ، وهي تنقسم قسمين : علوماً لسانية ، وأخرى شرعية ، ولما كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت في جملتها سابقة للعلوم الشرعية في الوجود ناسب أن نبدأ بها أولاً .

وهي أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ والنوادر والأنساب ورواية الشعر وتقده) .

العلوم اللسانية

النحو

نشأ النحو بصرياً ، لأن أبا الأسود الدؤلي واضعه نزل البصرة ، فالتفت حوله من

ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار. كأتى بك يا هرون ، وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي ، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أقيمت لك في النصيح غاية ، فاتق الله يا هرون في رعيته ، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمتة وأحسن الخلافة عليهم . واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك . وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زادانعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته . وإني أحسبك يا هرون ممن خسر دنياه وآخرته . فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

فلما صدر الرسول بالرد جعل هرون يقرؤه ، ودموعه تتحدر من عينيه ، ويقرؤه ويشهق ، فقال بعض الحاضرين : قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أنقلته بالحديد ، وضيق عليه السجن قال : هرون اتركنا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غرتموه ، والشقي من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله .

الكتابة

إن من يتتبع حال الكتابة في العصر الأموي يجد أنها صارت في آخره صناعة لها قواعد ورسوم تجرى عليها بما أدخله فيها سالم بن هشام ، وعبد الحميد بن يحيى وأضرابهما من كل من حذق إلى العربية لغة أخرى كالفارسية أو اليونانية أو السريانية ، وإذ ذاك وجدنا للكتابة تنوعاً بين الإيجاز والإطالة على حسب المقامات ، واختلافاً في البدء والختام مراعى فيهما موضوع الرسالة وحال المكتوب إليه .

وقد كانت الكتابة في العهد الأموي نوعاً واحداً هو كتابة الرسائل إذ لم تكن في ذلك العصر علوم تستحق أن تنفرد بنوع من الأسلوب، على أن علوم هذا العصر إنما كانت جملة روايات ضم بعضها إلى بعض لا أثر لقلم المؤلف فيها . فكتب الحديث هي أسانيد تنتهي بنص الحديث وكتب الأخبار والسير ، كذلك لا تمثل عصر كاتبها ، ولا تنبئ بمقدرته ومبلغ بلاغته ، لأنه إنما يحكى كلام غيره ، ويروى ما انتهى إليه عن أهل الأخبار .

أما في العصر العباسي فقد تنوعت الكتابة ، وتعددت أساليبها ، واختلفت خصائصها ، وانقسمت إلى جذمين عظيمين هما كتابة الإنشاء وكتابة التأليف ، وما زال هذان النوعان يتمايزان ، وتختلف مظاهرها حتى كان لكل نوع أسلوب خاص به ، وحتى صارت أساليب التأليف في علم غيرها في علم آخر .

كتابة الدواوين

اتسعت المدنية في العصر العباسي وكثرت مقتضياتها ، فكان منها تعدد الدواوين التي تقوم بشئون الدولة بعد أن كان منها في العصر الأموي ما يناسب حال المدنية التي صار إليها العرب فيه ، ولما داخل الفرس العرب هذه المداخلة الشديدة ، وصارت إليهم سياسة الدولة زادوا في أنواع الدواوين ، وخصوا كلاً بعمل ، وما زالوا يجربون النظم حتى انتهت بهم التجربة إلى نظام كان أدقّ وضماً وأتمّ ضبطاً جرى على أيدي البرامكة يحيى وولديه الفضل وجعفر ، وما زال هذا النظام متبعاً في جلته حتى حل محله النظام السلجوقي .

تعددت الدواوين في عهد الدولة العباسية ، فكان منها ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الخراج ، وديوان النفقات ، وديوان الجيش ، وديوان المعاين ، وديوان

القضاء ، وديوان المظالم ، وديوان الحسبة ، وديوان الشرطة ، وديوان البريد ، وديوان الضياع ، وديوان الإقطاع ، وديوان الخواص ، وديوان الرسائل بنوعيه : ديوان الخاتم ، وديوان التوقيع

وقد كانت رئاسة ديوان الجيش منفصلة عن بقية الدواوين ، فالوزير الذى يتقلد الوزارة إنما تصير إليه أعمال عامة الدواوين (ماعدا الجيش) ، فالأمر فيه لكبار القواد ، وللخليفة يتصرف فيه بنفسه وأمنائه ، فإذا أبدى الوزير حسن تدبير وكل إليه الخليفة كل أموره ، فصار يتصرف في رئاسة التدبير ، ورئاسة الحرب كما فعل المأمون ، فإنه لما انتصر طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل بن سهل ، رضى المأمون عن الفضل ، ولقبه ذا الرياستين ، وجعل له علماً على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من جانب رئاسة الحرب ومن آخر رئاسة التدبير .

وكانت الكتابة في جميع الدواوين ماعدا ديوانى الرسائل (الخاتم والتوقيع) لا تتعدى التسجيل في الدفاتر ، وضبط الجباية ، وحساب الدخل والخرج ، ونفقات الخليفة ، ووظائف الجند ، وعمل الديوان ، ومحاسبة الولاة ، وليس في ذلك مجال للبحث الأدبي المتعلق بالأسلوب والجمال الفني للتعبير ، لذلك تقتصر من بحث كتابة الدواوين على كتابة الرسائل والتوقيعات ، فإنها لما كانت متعلقة بالوجدان ، ممثلة للعواطف ، حاكية للمشاعر ، منبعثة عن النفس ظهر فيها صور العصور ، واختلفت باختلاف الأحوال .

ولما كان الوزير^(١) يتولى من أمور الدولة ما عرفت وكان إليه مصير الأمور كلها،

(١) كلمة وزير معروفة من قديم فقهى في القرآن قال تعالى (واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى) وقال الطبرى : كان زياد وزير معاوية ، ولكن الكلمة في كل ذلك بمعنى العين والمساعد . واختلفوا في اشتقاقها هل هى من الوزر بمعنى الحمل : أى إن الوزير يحمل من السلطان الثقل ، أو هى من الوزر (بالتحريك) بمعنى الملجأ لأن السلطان يلجأ اليه في المهمات . وقد أخطأ بعض المستشرقين في قوله : ان الكلمة فارسية وان أصلها فيشيرا ومعناها الأمر أو التقرير .

فهو الذى يرجع إليه الرأى فى تدبير المملكة الواسعة الأطراف ، ويتصرف فى شؤ تلك الرعية المتباينة المشارب ، ويحكم البلاد من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، وكان الخلفاء خصوصاً بعد العهد الأوّل من هذه الدولة يريدون ألا يحملوا أنفسهم ثقل هذه التكاليف ، اشترطوا فى الذى ينوء بهذه الأعمال أن يكون رجلاً لمعياً ، عظيم الهمة ، بليغ القول ، ملمّاً بأنواع العلوم ، خبيراً بأحوال الشعوب دارساً للتاريخ ، مستنبطاً منه العبر ليجزى فى هذه المهمة الشاقة ، وليحسن تصريف الأمور حتى لا يضطرب الحبل ولا يسوء التدبير .

ولقد ألف العلماء السابقون فيما يشترط فى الوزير وعمله من الكتاب ، وما يحتاجون إليه من علوم ، وما يلزمهم من صفات ومزايا ، حتى بحثوا فى ثيابهم ، وظاهر هيئتهم ليقم لهم الكمال ويجمعوا الفضل من أقطاره . وفى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة ، و (أدب الكتاب) لأبى بكر الصولى ، وكتاب : (الكتاب) لابن درستويه ، وكتاب (صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا) للقلقشندي ، ما يدل على مقدار عناية القوم بمن يتولى الكتابة ، فما بالك برئيس هؤلاء المشرف عليهم وهو الوزير ؟ ولقد تحقق هذا الاختيار فى أوّل وزير للدولة العباسية ، وهو أبو سلمة بن الخلال وزير أبى العباس السفاح ، فإنه كان فصيحاً عالماً بالأخبار والشعر والسير والجدل ، وكذلك البرامكة يحى وولده ، فقد كانوا معجزة الدنيا علماً وفضلاً وأدباً وشعراً ، وما زال الحال يجرى على ذلك حتى انحطت الأمور جميعاً ، فانحط معها شأن الوزراء ، ولكنهم كانوا على علائهم خير رجال عصورهم فهماً وأدباً .

ونستطيع أن نفهم رأى أهل هذا العصر فيمن يتصل بالخلفاء أو الأمراء ، ويتولى خدمتهم ، من القصيدة التى قدمها أبان بن عبد الحميد اللاحقى إلى البرامكة مستميحاً بها عطفهم راجباً الانضمام إلى زمريتهم ، والاتصال بخدومتهم قال :

أنا من بُغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح زائد على النصح

شاعرٌ مُفْلِقٌ أَحْفَ من الريشة مما يكون تحت الجَنَاحِ^(١)
 لى فى النحو فِطْنَةٌ واتَّقَادُ أنا فيه قِلَادَةٌ بوشاح^(٢)
 ثم أَرَوَى من ابن سِيرِينَ للعلم بقول مُنَوَّرِ الإفصاح
 وظريف الحديث فى كلِّ فنٍّ وبصيرٍ بترهات الملاح
 كمَّ وكَمَّ قد خَبَّأتُ عندى حديثاً هو عند الملوك كالنفاخ
 فبمئلى تَخَاوُ الملوك وتَلَهُوُ وتُنَاجِى فى الشُّكْلِ الغدَّاح
 أَيْمَنُ الناس طائِراً يوم صَيِّدٍ لِفُغْدُوٍّ دُعِيتُ أو لِرَوَاحِ
 أبصرُ الناسِ بالجواهر والخَيْلِ وباللُرْدِ الحِسانِ الصُّباحِ^(٣)
 كلَّ ذا قد جَمَعْتُ والحمد لله عَلَى أَنَّنِى ظَرِيفُ الْمِزَاحِ^(٤)
 لستُ بالناسك المَشْمَرُّ ثوبِيهِ ولا المَاجِنِ الخَلِيعِ الوَقَاح
 لو رعى بى الأميرُ أَصلحه الله رِمَاحاً ثَلَمْتُ حَدَّ الرِّمَاحِ
 ما أنا واهنٌ ولا مستكينٌ لسوى أحرَّ سَيِّدى ذى السَّمَّاحِ
 لست بالضَّخْمِ يا أَمِيرِي ولا القَزِّ مِ ولا بالجَحْدِ الدَّخْدَاحِ^(٥)
 لحيةٌ جَعْدَةٌ ووجهٌ صَبِيحٌ واتَّقَادُ كَشْعَلَةِ المِصْبَاحِ

(١) شاعر مفلق : يأتى بالعجيب ، وذكر فى الكامل أنه من الفلق أو الفلقة (وكلاهما بالكسر)
 وهى الداهية .

(٢) البوشاح : كرسان من لؤلؤ وجواهر منظومان يخالف بينهما ويمطف أحدهما على الآخر .
 والكسر (بالكسر) أحد فروع القلادة إذا تكونت من جملة عقود .

والوشاح أيضا : أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشعها .
 (٣) الحرد : جمع خريدة أو خريد ، وهى البكر لم تمس ، أو الطويلة السكوت الخافقة الصوت المتسترة .
 وتجمع أيضا على خرائد . الصباح : جمع صبيح بمعنى جميل .

(٤) مزح (كمنع) مزحا ومزاحة ومزاحا (بضمهما) ومزاحه ومزاحة ومزاحا (بالكسر) .

(٥) يقال رجل قزم (بالتحريك) وصفا بالمصدر ، وعلى ذلك لا يثنى ولا يؤنث ، وقيل يجوز فيه ذلك
 وقزم بالفتح . وهو الصنبر الجثة . الجحدر والدخداح : القصير .

إِنِّ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَيْنَ مَنِّي شَمْرِيَا كَالْبُئْلُ الصَّدَّاحِ^(١)

آثار العصر في الكتابة

بينما في فصول سابقة أن اختلاط العرب في هذا العصر بالأُم التي عاشروها وخاصة الفرس قد أحدث في جميع شؤونهم تغييرا ظاهرا . ومن هذا ما جرى على الكتابة . فأما تفصيل ذلك فإن اللغة الفارسية تشتمل على خواص ومزايا ، تجلت جميعا في العربية على يد الفرس والعرب الذين حذقوا اللغتين ، وأهم هذه المزايا والخواص هي :

١ — التهويل في الخطاب وتعدد الألقاب ، وقد مر تفصيل القول فيه .

٢ — الإفراط في استعمال نوعي الإيجاز والاطناب ، وهما من صفات الكتاب عند الفرس ، يجهلون لكل من النوعين مقامات يوجبون فيها استعماله ، وذلك من الأمور التي أحدثها عبد الحميد في الدولة السابقة وجرى العمل عليها في هذه الدولة ، ولكنهم بالغوا في الطرفين ، فأطالوا حتى أملاوا ، واختصروا حتى أخلوا ، ولكن سلم لبلغائهم أمثلة من التوقيعات بلغت الغاية في الفصاحة حتى كان الناس يتنافسون في اقتنائها ، ويبيعها عمال الديوان بالدرهم الكثيرة ، وتلك هي التوقيعات التي سنفرد لها فصلا نأتي فيه على ما نستطيع حصره منها في عامة هذا العصر .

وكان من مقامات الإطناب تلك الكتب التي تقرأ على العامة ، ومن أنواعها :

١ — المنشورات . وهي الكتب التي تقرأ على العامة في الولايات وفيها شرح لمذهب سياسي أو أمر ديني .

٢ — البيعات : ولم تكن تكتب قبل العصر العباسي ، ولا في أوائله ، بل كان

(١) الشمرى بفتح الشين وكسرهما ، أو ضمها مع ضم الميم : الماضي في الأمور .

الخليفة يقف في جمهور من أهل الرأي والقواد والأمراء فيعلمهم بموت الخليفة السابق ، وأنه صار إليه الأمر بولاية العهد أو برضا أهل الحل والعقد فيقرّ الحاضرون قوله وتتم البيعة له ويسلم عليه بالخلافة . ثمّ لما صار الأمر إلى من لا يقدر على ارتجال القول ، وكثر من الناس الرجوع في بيعتهم ، وجعل العامة شروط الخلافة صار الوزراء يكتبون صورة البيعة ، وتلى على الناس ، ويشهد عليها أهل الحل والعقد ، ثم تحفظ في الدواوين تسجيلاً لهذا المقام حتى لا يثب واثب ويدعى أنه صاحب الحق .

٣ — تفصيل انتصار على العدو : وكانوا يكتبون فيه من حمد الله على توفيقه ، بأن ما لقيه العدو إنما هو نكال من الله جزاء لما جنت يده من خروج على الطاعة وخلاف للجماعة ، ثم يذكرون أن ما تمّ من النصر كان بعناية أمير المؤمنين ، وحسن قيامه على رعيته وتصريفه لأمر جنوده ، ثم يثمنون بالحمد لله والثناء عليه .

٤ — ولاية العهد : وكانوا قبل ذلك يكتبونها كما فعل أبو بكر في عهده إلى عمر ، ولكنها ظلت مختصرة إلى أيام بني العباس ، فأطالوا فيها بتعداد مناقب وليّ العهد وما يؤمل فيه من عمل خير الأمة ، وشحنوها بالآيمان والمواثيق حتى لقد أحدثوا يمين الطلاق من الزوجات الحاضرة والمستقبل ، وكذلك فعلوا بالرقيق ، ولم يكتبوا بإشهاد القواد والكبراء ، بل علقوها في الكعبة وتقدموا إلى سدتها بحفظها تأكيداً للعمل بها كما فعل الرشيد في عهده إلى أولاده .

٥ — العهد إلى القضاة ، ويبدأ ببيان أن الذي حمل على اختيار القاضي هو ما عرف عنه من فضل وأمانة وعلم ونزاهة ، ثم يثنى بأمره بتقوى الله والرعاية لحقوقه والعمل بسنة نبيه ، ثم يعدّد له ما وكل إليه من الأعمال كالخلف لأموال اليتامى ، وحسن القيام على الأحباس والوقوف ، وتوزيع الموارث ، ويصف له الكتاب الذين يختارهم لعمله من الأذكياء المشهورين بالصلاح ، ثم يأمره باختيار العدل

وامتحان الشهود ، والاجتهاد في استخلاص الحقيقة ، وأن يتجنب الهوى وقد

يتناول الاطناب ذكر كل ما يقوم به القاضى من عمل .

٦ — عهد بإمرة : وفي هذا العهد يذكر المعهود إليه بأنه إنما ارتضاه الخليفة لما عهد

فيه من صلاح نية وحسن طوية ، وما عرف به من استمساك بالدين ورعاية

لمصالح المسلمين ، ولما جمع من فضل وأناة ، وحسن صحة ، ونزاهة طعمة ؛ ثم

يعدد البلاد التي ولاه عليها وكل ما وكل إليه من أمور الناس من فصل في

قضاياهم ، وإقامة لصلاتهم ، وردّ لحقوقهم ورفق بهم في الجباية إلى غير ذلك

مما ينبغي توافره في الوالى ، ثم يختم الكتاب بتوكيد المواثيق عليه بأن يحسن

القيام على ما ولاه عليه ، وأن يكون عند ظنّ خليفته به .

٧ — كذلك كان الإطناب فيما يصدر عن الولاية في تفصيل لحادث وقع ، أو بيان

سياسة اتبعت ، أو تهمة لحقت .

أما مواطن الإيجاز فهي توقيع من الوزير أو الخليفة في قصة رفعت إليه يدلّ به

على اطلاعه عليها ويبدى رأيه فيها ، وكذلك يكون في رسائل الخلفاء والسلطين في

أمر أو نهى ، وإخبار بهزيمة ، أو تحذير من عدو . والذي دعا إلى الإيجاز كثرة أعمال

الدولة وتوالى الكتب من الخلفاء إلى الولاية : ومن هؤلاء إلى رؤسائهم . فإذا التزم

الإطناب في كل ذلك كثر العمل ، وشقّ على متوليه ، ولذلك يقول جعفر بن يحيى في

إشار الإيجاز على الإطناب : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا .

٣ — تعدّد أنواع البدء والختام على حسب تنوع الرسائل ، وأهم ما حدث في البدء

هو ما يأتى .

كانت الصورة الأولى لأوّل عهد الدولة هي التي كانت تفتح بها كتب رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية مع زيادة لفظ عبد الله قبل

الاسم ولفظ الإمام بعده ، وهي هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد الله فلان الإمام أمير المؤمنين إلى فلان . أما بعد فإني أحمد إليك الله (أو فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله) الذي لا إله إلا هو . وإن الأمر كذا .

ثم زاد الرشيد بعد التحميد الصلاة والسلام على النبي فجرى العمل على ذلك ، وعند هذا من مناقبه ، ثم لما صارت الخلافة إلى الأمين اكتفى ، وكانت كنيته (أباموسى) ، فاتبع ذلك بعده . وكانوا ربما قدموا التحميد والصلاة على النبي قبل البعديّة ثم عقبوها بالغرض ، وتلك من اختراع عبد الحميد . وربما اختصروا الصورة فتركوا التحميد والصلاة على النبي ، ولم تكن هذه من اختراع العباسيين ، ولكنهم أكثروا منها في الإخوانيات ورسائل السلطان لاختصارها ، ثم تركوا في الإخوانيات الحمد والصلاة وبدعوا كتبهم بالدعاء المكتوب إليه ، ويقال إن الزنادقة هم الذين اخترعوا هذه الصورة . ثم أحدثوا في منتصف العصر البدء بقولهم : كتابي إليك مردفين ذلك بالدعاء المكتوب إليه أو وصف حال الكاتب أو بهما معا . مثل قول البديع المهداني : كتابي أطال الله بقاء الشيخ من نيسابور ، وقد تمطت على بصلها ، وضاعت على برحبها . وقوله كتابي عن سلامة ونعمة ، وأحوال على النظام جارية ، وشوق إليك وتواجد عليك ، واعتداد بك .

وفي البيعة كانوا يبدءون بعد البسملة بقولهم : تباعون عبد الله فلانا بيعة طوع واتقياد ورضا ثم يكترون من الأيمان المخرجة توكيداً للوفاء وضماناً لعدم الخيس والغدر .

وفي العهد بالخلافة أو بولاية عمل ، (وقد كان يكتب منذ قديم مختصراً مبتدأ بقولهم : هذا ناعهد به فلان في ولاية الأعمال والقضاء ، أو بقولهم : هذا ما كتبته عبد الله فلان إلى خاصة المسلمين وعامتهم . إني قد وليت عليكم فلانا) صار في العصر العباسي يبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ، ومقدمة طويلة في فضائل ولي العهد أو القاضي أو الوالى إلى آخر ما ذكرناه سابقاً وهكذا فعل بالمنشورات ، فبعد أن كانت صورتها :

(هذا كتاب من فلان إلى عامل ولاية كذا وإلى من قبله من خاصة المسلمين وعامتهم صارت تبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ومقدمة في بيان سبب المنشور :
أما الختام فكان غالباً بالفظ (والسلام) أو (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ثم كتبوا إن شاء الله بعد الأمور المستقبلية ، فيقولون فإن رأيت أن تفعل كذا فعلت موقفاً إن شاء الله أو فرأيتك في ذلك موقفاً إن شاء الله تعالى) ، ويكون ختام المنشورات والمشارطات بقولهم : (وحسبنا الله ونعم الوكيل) ، أو : (وهو حسبي ونعم الوكيل) ، ويختتم المهد بقولهم : (وكفى بالله شهيداً) .

هذه هي الخواص الظاهرة التي شاعت في كتابة الرسائل في هذا العصر ، ويضاف إليها قوة النقد عند هؤلاء القوم ، فقد وزنوا بها الألفاظ ، وفرقوا بين أسلوب وآخر بما لم يكن العربي الجاهلي أو الإسلامي إلى زمانهم يدركه ، ولا يستطيع أن يلاحظ هذه الإشارات الخفية في التعابير مثلهم ، ولكنهم وضعوا هذه الفروق ، وطالبوا بها الكتاب ، وعابوا من خالفها وآخذوه إن كان لهم عليه سلطان كما حكى أن عاملاً للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها رسالة . . وأدام كرامتك ، ف وقعت على ظهر الكتاب (أصلح خطأك وإلا صرفناك عن عملك) ، فأعاد النظر في كتابه ، فلم يهتد إلى موضع الخطأ ، فعرضه على ذى دراية بالكتابة ، فقال : إنما كرهت قولك في صدر الكتاب « وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء ، وأعاد إليها الكتاب ، ف وقعت على ظهره « أحسنت ولا تعد » ، كذلك جعلوا « أبقاك الله ، وأمتع بك » لا تقال إلا لمثل الابن أو الخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة ، وقد حدث أن محمد بن عبد الملك الزيات كتب إلى عبد الله بن طاهر ، فوردت في كتابه كلمة وأمتع بك . فكتب إليه عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك أم نات ملكا قهت في كتبك
أم قد ترى أن في ملاطفة الإخوان قصاً عليك في أدبك
أكان حقاً كتاب ذى مقّة يكون في صدره وأمتع بك
أعبت كفيك في مكاتبتى حسبك ما قد لقيت من تعبك

فكتب إليه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أُمّى وكل شيء أنال من سببك
أنكرت شيئاً فلست فاعله ولن تراه يخط في كتبك
إن يك جهل أُنّاك من قبلى فعد بفضل على من حسبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل يعيش حتى الممات فى أدبك

كذلك تشاءموا من قولهم : جعلت فداك ؛ لاحتمال أن يكون فداء فى الخير كما يحتمل
أن يكون فى الشر ، كذلك جعلوا قولهم : أطال الله بقاءك أرجح وزناً من قولهم : أطال
الله عمرك .

وفى كتاب شفاء الغليل : أن الربيع قال : دخلت على الشافعى وهو مريض ،
فقلت له : (قوى الله ضعفك) ، فقال : لو قوى ضعفى قتلتى . قلت : والله ما أردت
إلا الخير . قال : أعلم أنك لو شتمتني ما أردت إلا الخير . قل : قوى الله قوتك ،
وضعف الله ضعفك . ونحوه ما روى البيهقى عن الشافعى أنه قال : أكره أن تقول
أعظم الله أجرك فى المصائب ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك .

وتبع ذلك النقد للألفاظ والترجيح بين معانيها أن جعلوا لكل طبقة من رجال
الدولة نعوتاً تفتتح بها رسائلهم وعبارات تعنون بها كتبهم ، كقولهم فى مخاطبة أولاد
الخلفاء فى زمن المقتدر : « أطال الله بقاء الأمير » ، ولمؤنس المظفر وزيره . « أطال الله
بقاءك ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمته ، وإحسانه إليك » ، وفى العنوان إليه :
لأبى الحسن « أطال الله بقاءه » ، وللولاة : (أكرمك الله ، ومدّ فى عمرك ، وأتم نعمته
عليك ، وأدامها لك) وهكذا .

اختلاف أساليب الرسائل

« ١ »

في المدة الأولى ، وهي من ابتداء الدولة إلى إستيلاء بني بُويه على بغداد بلغت كتابة الرسائل الحدّ الأعلى التي لم تصل إليه في سابق عهدها على يد الجاهليين أو الإسلاميين أو الأمويين ، وهو أيضاً الحدّ الذي لاتزال الأعناق من أهل زماننا تشرّب إليه ، وتتطاول لإدراكه ، فإن استطعنا بمواصلة الجهد والخدمة لهذه اللغة الشريفة أن ندركه ، فذلك شرف لايدانيه شرف ، وهو أمل نرجو الله أن يتحقق ، لنعيد للربية مجدها ، ونلبسها فاخر ثوبها . ذلك هو العصر الذي يحمل راية الكتاب فيه أمثال : ابن المقفع ، والقاسم بن صُبَيْح ، ويعقوب بن داود ، ويحيى البرمكي ، وابنه جعفر ، والفضل بن سهل ، وأخيه الحسن ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وعمرو بن مسعدة ، وغيرهم ممن انقادت لهم البلاغة بغير زمام ، وكان لكلّامهم جرى الماء ووقع السهام . أولئك الذين لم يتكأدهم معنى ، ولم يتوعر عليهم غرض ، ولم يعترضهم لفظ . أولئك الذين أطالوا ، فلم يكن في إطالهم موضع نقص ، وأوجزوا فلم يكن في إيجازهم موضع زيادة . هؤلاء الذين جمعوا الفضل من أقطاره ، فكانت كتابة تأليفهم ككتابة ترسلهم ، ونثرهم كشعرهم . فضل ظاهر ، وملاكمة مطاوعة . أولئك الذين تركوا أنفسهم على سجيّتها ، فأدّوا معانيهم بعبارات كأنما لم تخلق لغيرها ، فلم يكرهوا لفظاً ، ولا عاظوا في أسلوب ، ولا حاليوا زينة مما يلجأ إليه المقصر العاجز ، فسالت أودية الصحائف بأساليبهم المطلقة من كلّ قيد ، الخارجة مع النفس الآتية عفواً الخاطر ، فهي مرسلة غالباً مع الازدواج الذي يحسن به وقع الكلام ، ويتمّ تقسيمه . وتارة تكون مسجوعة سجع الملكة الذي يعرف موضعه القارئ قبل الكاتب ، ويدركه الناقد قبل القائل .

هذه هي صفة كلامهم مع شرف المعاني التي تناولوها ، لأن السرى لا يعرف إلا السرى ،
والفاحش لا يألف إلا الفاحش ، ولا يستطيع أن يدلّك على مقدار بلاغتهم إلا قلم من
أقلامهم الفارعة ، وحكمة من حكمهم البارعة ، وجهد الواصف أن يقول : معان تتراءى في
ألفاظها ، لا يحجبها غموض ولا استكراد ، وأسلوب مرسل لا يعوقه السجع المتكاف ،
فهو في غالب أمره مطلق إطلاقاً ، وقد يقيد بازدواج أو سجع إن جاء به الخطار السمع .

« ٣ »

وفي المدة الثانية ، وهي مدّة حكم البويهيين من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ هـ ،
كانت الحضارة قد بلغت منتهاها ، فهي في المعيشة ترف ونعيم ، وفي العقول ثروة طائلة
بما أثمرته العلوم المترجمة والعلوم الموضوعة ، وما نمته المدنية من خيال وذوق ، ولسكن قد
شاب هذه الحصافة الفكرية والثروة الخيالية نقص في ملكة اللغة التي بعد عهد أهلها
بالبداءة ، وطال أمدهم في المعاشرة للعجمة والنشوء فيها ، فكان من آثار ذلك كراهة مجتمعاً :
صفاء الفكرة ، وقوّة الحجة ، وتلاحق المعاني ، وحسن تسلسلها ، مع سموها وارتفاعها
الخيال فيها . كذلك زانت عباراتهم تلك البطالوة اللفظية التي حاكوا بها ما كان في
معيشتهم من إنافة ، وما تراءى في نفوسهم من رقة وظرف ، فسجعوا كسجع الجاهل ،
سججاً قصير الفقرات حسن الموقع ، ونثروا على كتابتهم تلك الحلى اللفظية من جناس
لائق وطباق مطابق ، وأظهروا موهبة الله فيهم من العلم الواسع المدى ، فضمنوا كلامهم
من الملح والإشارات التاريخية ، والمصطلحات العلمية ، والأمثال النادرة ، والحكم
الحكيمة ، والشعر المشهور ، وتوسّعوا في أغراض الكتابة ، فلم تعد مقصورة على
رسائل السلطان والشوق والعتاب والاستمناح ، بل تعدوا ذلك إلى موضوعات الشعر .
فاستعاروها وكتبوا فيها فناقضاً وتلاحوا وعايروا . وكان الخوارزمي وبديع الزمان في هذا
المقام نجماً وفرنساً رهان .

وقد زادت في هذه الأيام عبارات التفضيم للملوك والأمراء لأن سلطان هؤلاء قد
زاد في هذه الأيام وسطوتهم قد ظهرت ، فقتلت الحرية في الناس ، فلبجئوا إلى الملق ،

خصوصاً وهو من أخلاق الفرس الذين هذه دولتهم وتلك أيامهم ، فزاد العدول عن اسم الخليفة أو الأمير أو الرئيس إلى السكناية عن ذلك بالحضرة أو السدة وكانوا يخاطبون الديوان الشريف يريدون ديوان الإنشاء .

وقد كان ولعهم بالسجع كثيراً حتى التزموه في كل ما يكتبون من رسائلهم ، وقد تعدّوا بعضهم إلى كتب التأليف كما فعل أبو نصر العُتبي في تاريخه اليميني^(١) ، فقد جعله كله سجعاً ، فأظهر مقدرة فائقة ، ودلّ على بلاغة متأصلة ، ولكنه خرج بالكتاب عن أن يكون كتاب تاريخ فجعله نماذج للإنشاء وقطعاً كقطع الرياض كسين زهراً .

وأغلب كتاب هذا العصر مع التزامهم السجع ، وعكوفهم على التحسين اللفظي قد سلمت لهم كتاباتهم من العيب لأنها كانت تعان بطبع سليم ، وبصيرة نقادة ، وعلم غزير ، وقد جمع أغلبهم بين فضيلتي النثر والشعر كشعركشاجم والمتنبى والبديع . ومن مشهورى هؤلاء الكتاب : ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وهو وزير ركن الدولة الحسن بن بويه ، وأبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، وقرنه بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، وأبو إسحاق الصّائبي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وأبو الفتح البُستيّ المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، والحصري صاحب زهر، الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، والعُتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وأبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وأبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

« ٣ »

وفي المدة الثالثة وهي المدة من استيلاء السلاجقيين على بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى انقضاء الدولة وزوال الخلافة من العراق سنة ٦٥٦ هـ ، تقلص من العربية جلّ ظلها بالشرق ، وطغت العجمة على الفصحى ، وماتت النُفُرة العربية إلا قليلاً ، ، فتوانت

(١) بسط العتبي في هذا الكتاب حياة السلطان محمود وشرح حياة عيّن الدولة في آخر أيامه ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وقد شرح كثيراً ومن شروحه كتاب (الفتح الوهبي على تاريخ العتبي) وقد طبعته جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ هـ بمصر في مجلدين كبيرين .

الهمم ، وفترت العزائم ، وقلت الرغبة في الأدب خاصة ، ونقصت الملكات نقصاً فاحشاً ، فتورّط أهل العصر في أنواع التحسين اللفظي والمعنوي يجمعونها على العبارة الواحدة حتى تنوء بحملها ، والتزموا السجع التزاماً ملحاً ، ولم يقدرُوا عليه قصيراً محكم الفقرات ، فجاءوا به طويلاً مهلهلاً ، وساقوه متعثراً مختبلاً ، وصار القارئ لكلامهم تتوزع نفسه بين معنى غامض لم يسفر عنه اللفظ ، ولم يؤده الطبع السليم ، وبين زينة هي باسم التشويه أولى . فكدوا بذلك أنفسهم ، وأتعبوا قارئهم ، ودلوا على قلة بضاعتهم وسوء اتجاههم .

ويقال : إن الوزير الخافاني كان مغرماً بالسجع فوقع مرة إلى بعض عماله : (الزم وفقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج) ، فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال الوزير : هذا الدجاج وفرت به بركة السجعة . ووقع آخر مرة إلى قاضي قم : يا قاضي قم ، قد عزناك قمم . فقال القاضي : ما عزاني إلا السجعة .

والذي ينبغي ملاحظته أن هذا العصر قد ضمّ بينه كتاباً أفاضل كانوا في الكتابة نجومًا ساطعة لم يمثّلوا عصرهم ، ولا شابّوها إخوانهم ، وإنما مرجع ذلك إلى النشأة الخاصة لتلك النابغة بين هؤلاء السُّقَّاط ، وذلك أن الطبع السليم إذا اجتمع إلى تحصيل لبليغ الكلام ، وحرص على طريقة السابقين خرج صاحبه عن طبيعة عصره ، وأمثال ذلك في التاريخ كثيرة ، كابن خلدون بين أهل المغرب على عهده فإنهم كانوا لا يكادون يبينون ، وكابن عبدربه الذي يحاكي ابن المقفع ويقع قريباً منه ، وكالشريف الرضي الذي استطاع أن ينحل كلامه سيدنا عليّاً فلا تكاد تفرق بين الأصل والمنحول ، ومثل هؤلاء في المدة الأخيرة من عصرنا هذا القاضي الفاضل عبد الرحيم اليسانفي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، وهو كاتب الديار المصرية وزعيم الطريقة الإنشائية المنسوبة إليه ، وطريقته هي طريقة أهل المدة السابقة عليه إلا أنه غالى في التورية والجناس ، وبقية أنواع البديع ، فتمّ له ذلك لتمام ملكته ، واستكمال عدته ، ولكن أهل زمانه لما قلّده ، وليس لهم مثل استعدادده سقطوا وتورطوا ، وانتهوا إلى التكلف الزائد .

ومن مشهورى الكتاب فى هذه المدّة : القاضى الفاضل ، وعما الدين الأصهبانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وقد بالغ فى التألق وأولع به ، وأخرج كتاباً سماه : (الفتح القدسى ، فى الفتح القدسى^(١)) ، أرخ فيه فتح صلاح الدين الأيوبي لبیت المقدس ، وقد تكلف فيه ما شاء ، وحوّل على دقيق الكنايات ، وغريب لاستعارات ، فكأنما القارىء لكتابته يحاول حلّ رموز أو فكّ طلاسم ، ومع ذلك فهو خير من كثير من أهل زمانه . وكتابته هذا على أسلوب كتاب العتيبي ، ولكن الفرق بينهما هو الفرق بين عصريهما . ومنهم رشيد الدين الطواط المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، والحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، وابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر الذى راعه خطب الكتابة فانتصر لدولة المعاني على الالفاظ وألف كتابه هذا ؛ وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وله كتاب (رءوس القوارير ، فى الخطب والمحاضرات والمواعظ والتذكير) ، ومؤيد الدين أبو طالب العلقمى (وزير المستعصم آخر خلفاء بنى العباس ببغداد) وقد توفى سنة ٦٥٦ هـ ، فوافق موته انقضاء عهد الدولة بالعراق .

التوقيعات

للتوقيع فى اللغة معان كثيرة كلها يمتّ بسبب إلى المعنى الاصطلاحي ، وهو تلك الكلمات الموجزة التى يكتبها خليفة أو وزير أو رئيس ديوان فى غرض من الأغراض ، (وكانت تكتب فى أسفل الكتب الواردة من الولايات بإبداء الرأى فيما يجرى عليها من حكم ، أو فى تلك الظّلامات التى يقدمها أصحابها يطلبون فيها النصفه من حيف وقع عليهم) فمن معانيه الغريبة : التأثير القليل يقال جنب هذه الناقه مَوْقَع ، أى أن فيه تأثيراً

(١) ويقال له أيضاً الفتح القدسى فى الفتح القدسى أو الفتح القدسى فى الفتح القدسى . وقد أشار عليه القاضى الفاضل أن يسميه الفتح القدسى فى الفتح القدسى . قال فى مقدمة الكتاب : وقد عرضته على القاضى الفاضل ، وهو الذى فى سوقه تعرض بضائع الفضائل فقال لى سمه : الفتح القدسى . فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس .

خفياً من الحبال التي تشدّ عليها . والمناسبة بين المعنيين أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف إلى جانب ما كتب فيه من عبارات مسبهة .

ومن معانيه أيضاً : إيقاع شيء صغير على آخر مع تخالف في لونيها ، ويقال بعير موقع إذا دبر ظهره ثم برى فيرى بموضعه شامة بيضاء ، ولعلّ التوقيع كان يكتب بمداد أحمر ، والقصص تكتب عادة بالسواد ، فمن هنا تكون المناسبة في التسمية ظاهرة أتمّ ظهور .

ومنها : أنه الرمي القريب لا تباعده كأنك تريد أن توقعه على شيء والموقع في حاشية القصة يحاول بكلامه الموجز أن يصل إلى كبد المراد .

ومنها : إقبال الصيقل على السيف بميقعته يشحذه ويجاوه ، والتوقيع في القصة يكشف ما حوته ، ثم هي به تصوير نافذة ماضية فيما أشار به الموقع .

ومنها التعريس : وهو النزول آخر الليل ، والموقع إنما ينتحى بتوقيعه جانباً من آخر الورقة التي كتبت فيها القصة . وقيل هو من وقع الأمر إذا لم يوجب ، أو من وقعت الإبل بمعنى بركت ، أو هو من توقيع المطر : أي إصابته بعض الأرض ومجاوزته بعضها ، والأسباب في التسمية ظاهرة فلا نطيل بشرحها .

وليست التوقيعات حدثاً من أحداث الدولة العباسية ، فقد روى التاريخ كثيراً منها للخلفاء الراشدين وبنى مروان ، ولكن كثيراً جداً روى لخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم . وقد تباروا في إجادتها وتعمدوا إدماجها ، وبلغ غاية الإيجاز فيها . وكانت كما قلنا موضع عناية أهل العصر ، فكانوا يترقبون صدورها من عرفوا بإجادتها ويبدلون فيها من الدراهم إلى عشرين درهماً للتوقيع الواحد .

ولما كان ملاك التوقيع هو الإيجاز المعجز قلّ شأنها بعد العصر الأوّل لعدم استطاعة أهل العصور المتأخرة ذلك الإيجاز ، وإن كان قد سلم لبعضهم توقيعات عدت مع توقيعات السابقين كما هو الشأن في الصاحب بن عباد وقليل من أمثاله .

أمثلة التوقيعات

للسفاح : كتب إليه جماعة من أهل الأنبار^(١) يشكون أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها فوقع « هذا بناء أسس على غير تقوى » ، ووقع في كتاب جماعة اشتكوا إليه احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع في قصة عامل ظلم الناس : « وما كنت متخذ المضلين عضداً^(٢) » .

للمنصور : وقع إلى عمه عبد الله بن عليّ « لا تجعل للأيام فيّ وفيك نصيباً من حوادثها » ووقع لعامل ظلم الناس « لا ينال عهدي الظالمين » ولأهل الكوفة في عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » وفي قصة فقير : « سل الله من رزقه » ووقع إلى عامله بمصر وقد كتب إليه بنقصان النيل : « طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القيادة » ، ووقع لعامل فارس وقد شكى إليه : « إن آثرت العدل صحبتك السلامة » .
للمهدي : إلى عامل أرمينية^(٣) يشكو إليه سوء طاعة الرعية : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » وإلى شاعر أسرف في مديحه : « أسرفت في مديحك فقصرنا في جبانك » ، وقع في قصة رجل حبس في دم : « ولكم في القصص حياة يا أولى الأبواب » .

للرشيد : وقع إلى عامله بخراسان : « داو جرحك لا يتسع » ، ووقع في قصة

(١) الأنبار : بلد بالعراق على نهر الفرات على شاطئه الشرقي وتحتها الحيرة على الشاطئ الغربي .
(٢) العضد (مثلثة) وككنف وندس (بضم ففتح) وعنتق : ما بين الكتفين والذراع ، والمعين ، والناصر
(٣) يفتح الهمة وكسرها وتخفيف الياء الأخيرة وشدها ففيها أربع لغات : وهي اسم لصقع في شمال جزيرة العرب وجنوبي أذربيجان والنسبة إليها أرميني بفتح الهمة وسكون الراء وكسر الميم .
ويقول السيوطي في لب الباب أرميني كما تحرى نسبة إلى بلاد الأرمن وهم طائفة من الروم (إنجام الأعلام) .

البرامكة : « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية » . وفي قصة محبوس : « من لجأ إلى الله نجا » ، ولتنظلم « لا يجوز بك العدل ، ولا يقصر بك الإنصاف » ؛ ووقع ليحيى ابن خالد وقد استطففه من السجن : « عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك » .

للمأمون : وقع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » ، ووقع في كتاب متظلم من أحمد بن هشام : « اكفني أمر هذا الرجل وإلا كفيته أمرك » ، قال عمرو بن مسعدة كتبت إلى عامل كتابا أطلته فأخذه المأمون من بين يديّ وكتب : « قد كثر شاكوك ، وقلّ شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » ، ووقع في قصة رجل يتظلم من الرستمى ، ولعله مطله بدين : « ليس من البر أن تكون آنتك ذهباً ، وقدرك فضة وجارك يطوى ، وغريمك يعوى » .

لأبي مسلم الخراساني : إلى عامل بلخ « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد » ، وإلى سلمة بن الخلال حين أنكر^(١) نيته : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » .

ليحيى بن خالد البرمكي : وقع في قصة محبوس : « العدل أوثقه ، والتوبة تطلقه » ، وفي قصة مستمنح كان قد وصله مراراً : « دع الصرع يدرك غيرك كما در لك » ، وإلى بعض العمال : « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ، ووقع لمظلوم : « طب نفساً فكفى بالله المظلوم ناصراً » .

للفضل بن سهل : وقع في قصة ستظلم « كفى بالله المظلوم ناصراً » ، وإلى صاحب الشرطة^(٢) « ترفق توفق » . وفي شفاعة في قاتل وجب عليه الحد : « كتاب الله أحق أن يتبع » .

(١) أنكره : عده منكراً . ونكر الأمر (كفرح) وأنكره واستنكره وتناكره جهله .
(٢) الشرطة (بالضم) واحد الشرط (كحجرة وحجر) وهم أول كتبة تشهد الحرب والطائفة من أعوان السلطان والواحد شرطي (بضم فسكون) وشرطي (بضم ففتح) الأول كتركي والثاني كجهني .

لظاهر بن الحسين : وقع في قصة مستمنح : « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » ، ووقع في بعض الكتب : « الأعمال بخواتمها ، والصنيعة باستدامتها ، وإلى الغاية ما جرى الجياد فحمد السابق وذم الساقط » .

للصاحب بن عباد : كتب إليه بعضهم رقعة سرق فيها كثيراً من تعابيره ، فوقع فيها : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، ووقع في قصة استحسنها : « أفسخر هذا أم أنتم لا تبصرون » ، ووقع لبعض مخالفيه : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ، وكتب إليه بعضهم : أن رجلاً من أعدائه يدخل داره في جملة الناس ، فوقع إليه : (دارنا هذه خان^(١) ، يدخلها من وفى ومن خان) .

المقامات

وهي نوع من كتابة الرسائل كثرت بعد العصر الأوّل من عصور اللغة في مدة الدولة العباسية .

وأصل كلمة مقامة اسم مكان من قام بمعنى أقام ، والمعنى أنها موضع للإقامة ، ثم انتقل من هذا المعنى إلى الكلام الذى يملأ به مجلس من المجالس ، فتكون من إطلاق الحلق على الحال . ولم يعرف استعمالها بهذا المعنى قبل العصر العباسى ، كما أطلقوا كلمة مجلس على مقدار ما يتلى فيه من حديث أو تفسير أو أدب . فصارت المقامة تطلق ويراد بها تلك الجملة من القول المروية على لسان امرئ خيالى يحكى قصة وقعت لإنسان أو أكثر يتخيلهم الكاتب ، ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما شاء ، ويلتزم فيها السجع غالباً ، ويحاول أن يأتى فيها بنصيب وافر من الألفاظ ، وزينها بما

(١) الخان : محل التجار .

استطاع من الحكم والأمثال والشعر . وما ورد إلينا من هذه القصص غالباً ضئيل المغزى ، تافه الغرض ، ليس القصد منه إلا تعليم الناشئ في الأدب كيف يستعمل هذه الألفاظ ويحكم الاستشهاد بتلك الأمثال والحكم . فهي في الواقع صحف لغوية لم تجيء ألفاظها مسرودة سرداً بل استعملت ليسهل على الناشئ معرفة مواقعها من الكلام ، وليستفيد العلم بها في سياق الفكاهة .

وقد ذكروا أن أول من عرفت له مقامات من هذا النوع هو أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وهو صاحب المقصورة المشهورة ، والجمهرة في اللغة ، وقد ذكر في مقدمتها أنه صاغها أربعين مقامة استنبطها من ينابيع صدره ، واستخرجها من معادن فكره . وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، ولسكن الذي يؤخذ عليه فيها أنه حشاها بالألفاظ الوحشية الغريبة ، ويظهر أن عذره قدم عهده وكونه أحد علماء اللغة ، فظهر أثر ذلك في مقاماته فجاءت غريبة نابية .

وقد وليه أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي صاحب كتاب المجل في اللغة المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، فعمل أيضاً مقامات لم تصل إلينا كسابقتهما ، ثم جاء بديع الزمان الهمداني ، فأملى بهمدان أربعمائة مقامة لم يعثر منها إلا على خمسين ، وقد اقتنى في عملها أثر أستاذه ابن فارس ، وقد سمي راويها عيسى بن هشام ، وسمى رجلها الذي وقعت منه حوادثها (بطلها) أبا الفتح الإسكندري ، وهي صورة صادقة لبلاغة البديع ، وحسن ذوقه ، ولائق سجمه ، وقد طبعت بمصر والشام ، ومن شراحها : الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والزميل الفاضل محمد محيي الدين عبد الحميد المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر .

ثم جاء بعد البديع ابن نباتة السعدي^(١) المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، فعمل مقامات ولكنه

(١) ابن نباتة السعدي من سعد من تميم ، بغدادى طاف البلاد ومدح الرؤساء ومنهم سيف الدولة وابن العميد وعضد الدولة وهو غير ابن نباتة (بفتح النون) المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، وقد ضبطه لسان العرب بالفتح . كما ضبط ابن خلكان اسم السعدي والفارقي بالضم . وعليه تكون أسماء ابن نباتة المعروفة في التاريخ بالضم ماعدا المصرى صاحب الديوان ومؤلف سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (ملخص من كتابنا لإعجام الأعلام) .

لم يبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته .

ثم وضع بعده أبو القاسم بن نايقا البغدادي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ، مقامات اشتهرت في أيامه ، ولكنها لم تصل إلينا .

ثم وضع أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ مقامات باغت خمسين مقامة ، وقيل : إن أول ماعمله منها المقامة الحرامية ، وهي الثامنة والأربعون ؛ وقد اتفق أن قدم البصرة أعرابي فصيح يسمى أبا زيد ، فنحله الحريري وقائع مقاماته ، وجعل راويها الحارث بن همام يقصد نفسه إشارة إلى الحديث القائل : كلهم حارث ، وكلهم همام ، وقد وضعها الحريري برسم الوزير جمال الدين وزير المسترشد ، ولما شاعت مقامات الحريري ببغداد ، واشتهرت حسده عليها كثير من الأدباء حتى قالوا : إنها كانت لمغربى قدم البصرة ومات بها فوقعت للحريري في تركته .

وجاء بعد الحريري جارا لله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، فعمل مقامات ومثالات بلغ عدد المقالات مائة ، وسماها : أطواق الذهب ، وعدد المقامات خمسين ، وكلتاها مواعظ وحكم ، ولكنها ليست في طول المقامات التي عرفت للبديع أو الحريري ، بل إن المقالة أو المقامة لا تزيد غالباً على عشرة أسطر ، ولم يجعل المقامات راوياً ولا صوراً في شكل قصة بل كان يبدوها بقوله يا أبا القاسم .

ثم جاء بعده شرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني ، فعارضه بكتاب سماه : أطباق الذهب ، وكلا الكتابين مطبوع في مصر متداول .

الكتابة العلمية

كان لكتابة العلوم أسلوب خاص امتازت به عن كتابة الرسائل ، ولم تتأثر بما تأثرت به تلك الكتابة في عصورها المختلفة . وربما كان ذلك راجعاً في الغالب إلى أن العبارة العلمية لا يقصد منها إلا إفهام المراد ، وإيصال المعنى إلى ذهن القارئ ، فلم تكن مجالاً للتأنق والزينة التي استدعت التكلف في أواخر العصر ، ثم إن المعاني العلمية

المحدودة لا تحتل التهويل ولا المضى مع الخيال ولا يقبل فيها المجاز ، وإذا برئت من ذلك فهي غالباً عبارة تؤدى المعنى من أقرب طرقه وتستعمل فيها الألفاظ فيما وضعت له لغة أو اصطلاحاً لا تعدى ذلك . كذلك ربما رجع الأمر إلى أنه لا يتناول التأليف عادة إلا كل عالم وهم في الغالب ذوو ملكات سليمة واطلاع يشحذ أذهانهم ، وللعلم مقام يصونه غالباً عن الادعاء ، أما الكتابة فقد يدعيها من لا يملك من آلاتها شيئاً ، وقد قال الشاعر في ذم الزمان وتناول الناس إلى مناصب الكتابة بغير حق :

تعس الزمان لقد أتى بعجباب ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب

ولولا أن أحوالاً خاصة عرضت لبعض العلوم لبقيت عباراتها كلها بمثابة واحدة تتأثر جميعها بالعصر الذى تصير إليه ، ولكننا رأينا بعضها يغمض أو يرك على حين يكون الآخر متماسكاً لا وهن فيه ؛ فالأدب كتب أو ترجم فى أوائل العصر بعبارات هي أسمى ما وصل إليه الأسلوب العربى فى حياة اللغة العربية : (حاشا القرآن وحديث رسول الله) ، ثم مازال يكتب بعبارة لائقة نقية بارعة طول مدة العصر خصوصاً حين أهملوا ذكر السند وكتبوا بأقلامهم الفصول الممتعة فى النقد والموازنة كما فعل الأمدى المتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، فى كتاب : «الموازنة بين أبي تمام والبحتري» ، وكما فعل أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٠ هـ فى الصناعتين ، وأبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ فى كتابه « يتيمة الدهر » .

أما الحديث والتفسير ، فقد ظلا طويلاً لا أثر فيهما لأهل العصر لأن العمل فيها لا يكون غير قتل الأحاديث والآيات وشرحها بما ورد غالباً عن الصحابة والتابعين .

وكتب الفقه بدأت طريقتها تختلف بعد القرن الأول من العصر العباسى إذ أصبح للمصنفين أثر فى الاستنباط والتفريع والتعليل حتى اتهموا من ذلك إلى علم الأصول الذى يرجع الفضل فى اختراعه إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وما زالت عبارة الفقهاء لا غبار عليها فى جميع المذاهب حتى اشتغل بفقه الحنفية كثير من الفرس والأتراك فركت

عبارته ودخلها كثير من التراكيب الفارسية والتركية .
وأما العلوم الدخيلة ، فقد كانت ترجمتها الأولى في أيام المنصور والرشد غير صالحة ،
فلما عني المأمون بهذه العلوم وبذل فيها النصار نشط الناس في الترجمة ، ورحل كثير من
أبناء السريان وغيرهم إلى اليونان فخذقوا اليونانية وترجموا ما لم يكن ترجم وصححو
ما ترجم أولاً ، ثم انتهى الحال بأن برع العرب في هذه العلوم ، واستطاعوا أن يستقلوا
بالتأليف فيها ، وكانت عبارتها أولاً واضحة ، ثم تعمد أصحابها تعميتها على من يتصدى
لهم من الحنابلة ، فصارت إشارات ورموزاً وبقيت كذلك إلى الآن .

أما كتب علم الكلام (التوحيد) الذي وضع الردّ على الزنادقة ، فقد كان
للعلماء فيه مطلق الحرية في التعبير لا يتقيدون بعبارات غيرهم ، بل يعولون على تأثير حججهم ،
وبلاغة ألسنتهم إلا في نصّ ينقل أو شاهد يورد ، ثم لما ترجمت علوم الفلسفة والمنطق
استعاروا أساليبها ، وأخضعوا علمهم لقواعدها . ولما كان المشتغلون به عادة هم في
الغالب الذين يدرسون هذه العلوم ، وكان يناصبهم الحنابلة المشددون في دينهم ، والذين
طالبوا أثاروا الفتن ببغداد على مخالفيهم في الرأي ، رأى أصحاب هذه العلوم أن
يعموها على غيرهم كما ذكرنا ، ولكن ذلك حرك إنكار قوم لا يرون أن يكون العلم
طلاسم لا يحلها غير أصحابها ، فقام جماعة سمو أنفسهم إخوان الصفا وأخفوا أسماءهم ،
وألّفوا في كلّ هذه العلوم خمسين مقالة بكلام سهل واضح ، فأقبل الناس على كتابهم
(رسائل إخوان الصفا) ، وأدمنوا قراءته ، ونقلوه إلى كلّ بلاد الإسلام ، وانتفعوا بما
فيه وهو متداول بمصر ومطبوع بها وبأهند وغيرها .

وعلوم البلاغة ما زال التأليف فيها مساوفاً للطبع ، سائراً مع السليقة يؤلف فيها
الأدباء فتأني عباراتهم ناصعة واضحة ، كما فعل صاحب الصناعتين ، ثم عبد القاهر
الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة »
حتى تناول هذه العلوم قوم من الأعاجم ، فخلطوا مباحثها بالفلسفة ، وأجروا على قواعد
تلك العلوم أحكام هذه الفلسفة وتقاسيمها واقتراضاتها ، فتعقدت مسائلها وركت عباراتها ،

- ١٠٢ -

وتعسفت تعاريفها ، وما كان أحق أن يبقى علماؤها مثالا للإفصاح والإبانة حتى تكون القوس في يد باريها .
هذا هو أهم ما يقال فيما تقلبت فيه لغة التأليف ، وسندكر في المنشور أمثلة منها بقدر الاستطاعة .

نماذج من كتابة البلغاء

في المدة الأولى من العصر العباسي

« ١ »

لما انتصر أبو مسلم الخراساني على عبد الله بن علي أرسل أبو جعفر المنصور رسولا من قبله ليحصى المغنم التي غنمت من عبد الله ، فلما ورد الرسول غضب أبو مسلم وكاد يقتله لولا أن علم أنه مأمور بذلك فلا ذنب له ، ولكنه لم يمكنه من العمل الذي جاء له ، وقال : أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال . وبعد ذلك كتب المنصور إلى أبي مسلم :

إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب . فكتب إليه أبو مسلم : إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان^(١) أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريون^(٢)

(١) آل ساسان: هم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس وهم الأكاسرة الذين ينسبون إلى أحد هم « ساسان » وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد الذي قتل أيام عثمان رضى الله عنه سنة ٣١ هـ .

(٢) الحرى (كفتى) والحرى (كغنى) والحرى (بكسر الراء مع تخفيف الياء) : الجدير . والأول لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث . قال ابن منظور في لسان العرب : فمن قال حرى لم يغيره عن

— ١٠٣ —

بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً^(١) بنفسى .

« ٢ »

فكتب إليه المنصور: قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإن راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناجحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حل إليك أمير المؤمنين عيسى ابن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته^(٢) وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك .

و بتأثير كتب المنصور ألقى إليه أبو مسلم القياد وقدم إليه فلقى حتفه .

« ٣ »

قال الرشيد يوماً ليحيى بن خالد البرمكى : قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر ، وقد استحيت من مكاتبتة فى هذا المعنى فاكتب أنت إليه ، فكتب يحيى إلى الفضل : (أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك

لفظه فيما زاد على الواحد وسوى بين الجنسين لأنه مصدر. ومن قال حر وحرى نى وجمع وأنث فيقال حريان وحررون وحرية وحررتان وحريرات ويقال هم أحرىاء بكذا وهم حرايا وأنهم أحرء جمع حر .

(١) ضن يضمن (بفتح الضاد فى المضارع) ضنا (بالكسر) وقال الفراء يضمن (بالكسر) ضنا (بالفتح) لغة ، ويقال هو علق مضنة بفتح الميم والضاد أو بفتح الميم وكسر الضاد: أى يضمن به والتركيب لإضافى .

(٢) يقال نزغه (كنعج) طعن فيه واغتابه ، وبينهم أفسد وأغرى ووسوس .

(إلى شمالك) ، فأجابه الفضل (قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه) .

« ٤ »

لما انتصر طاهر بن الحسين على "على" بن عيسى وقتله ، كتب إلى الفضل بن سهل : (أطل الله بقاءك ، وكتب^(١) أعداءك ، وجعل من يشنوك^(٢) فذاك . كتبت إليك ورأس "على" بن عيسى فى حجرى ، وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين) ، فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض ، فسلم على المأمون بإمارة المؤمنين ، وأمدّ طاهراً بالرجال والقواد ، وسماه ذا اليمينين ، وصاحب جبل الدين .

« ٥ »

وكتب عبد الله بن المقفع يصف الصديق : كان لى أخ أعظمُ الناس فى عينى . وكان رأسُ ما عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعوه إلى مؤنة ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان لسانه فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى^(٣) فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان لا يَبْطُر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة . وكان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بَرَّ القائلين ، وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجدُّ فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً فهما وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم

(١) كتبه (كضرب) : صدعه وردده بغيظه وأذله .

(٢) شنأه (كنع) : أبغضه والمصدر شنأ (مثلاً) وشنأنا وشنأنا (بفتح النون وإسكانها) . وأزد شنوءة سميت بذلك لشنأنا كان بينها .

(٣) المارة : الجدال والحاجة . قيل هى من المرية بمعنى الشك لأن الانسان لا يحاج فى أمر إلا اذا شك فيه . وفى الأساس أن المارة من المرى بمعنى الحلب لأن كل مجادل يحلب ما عند مجادله .

أحداً فيما يكون العذرُ في مثله حتى يعلم ما عُذْرُهُ ، وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى^(١) ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل^(٢) عن المولى ، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقها ولن تطيق . ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

« ٦ »

وكتب يطلب من أحد إخوانه قضاء حاجة : إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواص من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق ، ويرغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ومن أعان عليه ، وبذل لأهل ثقته المصافين ، وإن بذل النفس ، وإعطاء الرغيب ليس منك ببيكر^(٣) ولا طريف بل هو تليد أتله أولكم لآخركم ، وأورثه أكابرُكم أصغرَكم ، ومن حاجتي كذا ، وأنت أحق من طلبتُ إليه ، واستعنتُ على حوادث الدهر وأنزلتُ به أمرى ، لقرب نسبك وكريم حسبك ، ونباهتك وعلو منزلتك ، وجسيم صنائعك ، وعوام أياديك إلى عشيرتك وغيرها . فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي على قدر ما قسم الله لك حق فضله ، وما عودك من مننه ، ووسع غيري من نعمك وإحسانك .

« ٧ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتمد والوائق :

(١) شبيه (كفرج) وشباه واشتهاه وتشماه : رغب فيه فهو شهى وشهوان (يسكون الهاء) وشهوانى (يسكون الهاء أيضا) .

(٢) غفل (كدخل) عن الشيء تركه على ذكر ، والتغافل : تعمد الغفلة ، والتغفل : انتهازاها .

(٣) البكر (هنا) : كل فعلة لم يتقدمها مثلها . والضرية البكر : انقطاع الفاضية .

- ١٠٦ -

« إن حقّ الأولياء^(١) على السلطان تنفيذُ أمورهم وتقويمُ أودهم^(٢) ، ورياضةُ أخلاقهم ، وأن يميز بينهم فيقدّم محسنهم ويؤخّر مسيئهم . ليزداد هؤلاء في إحسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم » .

« ٨ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات أيضاً :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة ، ولعباده على خلفائه بسطَ العدل والرافة . وإحياء الشئْنِ الصالحة ، فإذا أدّى كلٌّ إلى كلٍّ حتّى كان ذلك سبباً لتمام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

« ٩ »

وكتب الحسن بن وهب^(٣) في الشكر :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدّته إياها فإن شكري لك على مهجة^(٤) أحْيَيْتَها ، وحُشَّاشَة أبقَيْتَها . ورمَقَ أمسكت به ، وقت بين التلف وبينه ، فلكلّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهي إليه . ومدّى يُوقِف عندَه . وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْفُ خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزت قدرَه ، وأنت من وراء كلّ غاية : ردّدت عنا كيّدَ العدوِّ ، وأرغمت أنفَ الحسود ،

(١) الأولياء : جمع ولي ، وهو هنا بمعنى التابع .

(٢) الأود : الأوجاج من أود (كفرح) والوصف منه أود والمؤثّة أوداء .

(٣) الحسن هو وأخوه سليمان ابنا وهب بن سعيد وبيتهم في السكّابة قديم منذ عهد معاوية ، وكانوا نصارى من أهل واسط فأسلموا وخدموا في الدواوين . خدم جدهم سعيد آل برمك وكذلك أبوم وهب خدم جعفر بن يحيى ثم الفضل بن سهل وهو القائل فيه : عجبت لمن معه وهب كيف تهمة نفسه ، وكتب سليمان المأمون وعمره أربعة عشرة سنة وولى الوزارة للمهتدى والمعتد . والحسن كتب لابن الزيات .

(٤) المهجة : الدم ، أودم القلب ، أو الروح .

— ١٠٧ —

فنحن نلجأ منك إلى ظلٍ ظليلٍ ، وكَنَفٍ كريمٍ . فكيف يشكر الشاكرُ ، وأين يبلغُ جُهدُ المجتهدِ ! » .

« ١٠ »

من محاسن الإيجاز ما كتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه .
من العمل : شكرى لك على ما أريد الخروجَ منه شكرُ من نال الدخولَ فيه .

« ١١ »

وكتب على بن هشام إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى فى الشوق : ما أدرى ! !
أغيبُ فأشتاق ، وألتقى فلا أشتفى . ثم يحدث لى اللقاء نوعاً من الحُرقة للوعة الفرقة .

« ١٢ »

وكتب العتّابى^(١) فى الذمّ :
تأيننا^(٢) إفاقتك من سكرتك ، وترقّبنا انتباهك من رقدتك ، وصبرنا على تجرّع
الغيظ فيك حتى بان لنا اليأس من خيرك ، وكشف لنا الصبرُ عن وجه الغلظِ فيك .
فهأنا^(٣) قد عرفتك حقّ معرفتك فى تعدّيك لطورك^(٤) واطّراحك حقّ من غلظ
فى اختيارك » .

(١) العتّابى : هو كلثوم بن عمرو التّلبى ويكنى أبا عمرو . وكان صاحب بديهة فى المنثور والمنظوم
حسن العقل والتمييز . قال الجاحظ : العتّابى اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل
الفاخرة ، وعلى ألفاظه وحذوه يقول فى البديع كل من تكلف ذلك من الشعراء المولدين كصور
النرى ومسلم وغيرها .

(٢) تأنى الرجل : تأخر فى أمره ولم يعجل . وتأناه : انتظره .

(٣) الشائع قولهم هأنذا . قال فى لسان العرب : وقالوا هأنت تفعل .

(٤) الطور : القدر والنارة وما كان على حد النوى وبازائه .

كتب طاهر، إلى ابنه عبد الله حين وَلِيَ ديار ربيعة هذا الكتاب :

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ، ومزايلة سُخْطه ، وحفظ رعيته . والزم ما ألبسك الله من العاقية بالذكر لمعادك ، وما أنت سائرٌ إليه ، وموقوفٌ عليه ، ومستولٌ عنه ، والعمل في ذلك كله بما يَعَصِمُكَ من الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه . فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه ، وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومُسائلتك عنه ، ومُثيبك عليه ، بما^(١) قدمت وأخرت . ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يُذهلك عنه ذاهل ، ولا يشغلك عنه شاغل ؛ فإنه رأسُ أمرك ، وملاكُ شأنك ، وأول ما يوقفك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما اقترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها ، على سننها في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل^(٢) في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ثم أتبع ذلك الأخذ بالسنة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزم ما أنزل الله في.

(١) الباء هنا للبدل : أى مثيبك بدل ما قدمت وأخرت .

(٢) ترتل في المي : ترسل وأحسن تنسيقه .

كتاباه من أمره ونهييه ، وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قم فيه بما يُحقُّ لله عليك ، ولا تَمَلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت . لتقريب من الناس ، أو بعيد ، وآثر الفقه في دين الله ، والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والأمر به ، والنهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز وجل وإجلالا له ، ودَرَكا^(١) للدرجات العلا في المعاد . مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره ، والهيبه لسلطانك ، والأنسة بك ، والثقة بعدلك .

ومنه في سياسة الرعية واختيار الولاة : واعلم أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا . وإنما سمي أهلُ عملك رعيته لأنك راعيهم وقيّمهم . تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كُور^(٢) عملك ذوى التدبير ، والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف . ووسّع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة فيما تقلدت ، وأُسند إليك . ولا يَشْغَلَنَّكَ عنه شاغل ، ولا يَصْرِفَنَّكَ عنه صارف ، فإنك متى آثرته ووقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحداث في عملك ، واحترزت النصح من رعيته ، وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العماره بناحيته ، وظهر الخصب في كُورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت لذلك على ارتباط^(٣) جُنْدك وإرضاء العامة ، وكنت محمود السياسة مَرْضِيَّ العدل في ذلك عند عدوك ، وكُنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وعدة فنافس في هذا ، ولا

(١) الدرك (بالتحريك) : اللحاق وبه أو بالفتح التبعة (يقال مالحقك من درك هذا أى تبعته) وقعر الشيء .

(٢) الكور : جمع كورة ، وهى المدينة أو الصقع .

(٣) الارتباط : لإعداد الجند وجعلهم يلازمون الثغور . والرباط : ملازمة الثغر ، والحيل ، أو الخس منها فما فوقها .

تُقَدِّمُ عَلَيْهِ شَيْئًا تَحْمَدُ مَعْبَةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَالِكَ ، وَيَكْتُبُ لَكَ بِسِيرَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ، مُعَايِنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ . وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَاقِبَةَ وَوَجَدْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالنَّصَحِ وَالصُّنْعِ فَأَمْنُضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رَجَبًا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَقَوَّاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ ، وَتَقَصَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ . فَاسْتَعْمَلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ اسْتِخَارَةَ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ .

ثُمَّ قَالَ : وَأَكْثِرِ الْإِذْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ ، وَأَبْرِزْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَسَكُنْ لَهُمْ حَرَسَكَ ، وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَظْهِرْ لَهُمْ بَشْرَكَ ، وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ ، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ ، وَإِذَا أُعْطِيتَ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ ، وَالتَّسِ الصَّنِيعَةَ وَالْأَجَرَ غَيْرَ مَكْدَرٍ ، وَلَا مَتَانٍ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مَرْبُوحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَكَ^(١) ، وَأَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ بِتَمَامِ فَضْلِهِ^(٢) عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ لَكَ ، حَتَّى يَجْعَلَكَ أَفْضَلَ أَمْثَالِكَ نَصِيبًا ، وَأَوْفَرَهُمْ حِظًّا ، وَأَسْنَاهُمْ ذِكْرًا وَأَمْرًا ، وَأَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ، وَمَنْ نَاوَأَكَ ، وَبَغَى عَلَيْكَ ، وَيَرْزُقَكَ مِنْ رِعِيَّتِكَ الْعَافِيَةَ ، وَيَحْبُزُ الشَّيْطَانَ عَنْكَ وَوَسَاوِسَهُ ، حَتَّى يَسْتَعْلَى أَمْرُكَ بِالْعِزِّ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالتَّوْفِيقِ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ .

وَذَكَّرُوا أَنْ طَاهَرًا لِمَا عَاهَدَ إِلَى ابْنِهِ عَبْدَ اللَّهِ هَذَا الْعَهْدَ تَنَازَعَهُ النَّاسُ ، وَكَتَبُوهُ ، وَتَدَارَسُوهُ ، وَشَاعَ أَمْرُهُ حَتَّى بَلَغَ الْمَأْمُونُ فِدَاعِيَهُ ، وَقُرِئَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا بَقِيَ

(١) كِلَاءَهُ (كَمَعَ) كَلَّتَا (بِالْفَتْحِ) وَكَلَاءَةٌ وَكَلَاءٌ (بِكَسْرِ الْكَافِ فِيهِمَا) : حَفِظَهُ وَرَعَاهُ .

(٢) لَعَنَ فَضْلُ الْأَوَّلِ بِمَعْنَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّانِيَةِ بِمَعْنَى الْإِحْسَانِ .

أبو الطيّب شيئاً من أمر الدين ، والدنيا ، والتدبير ، والرأي ، والسياسة ، وإصلاح الملك ، والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة ، إلا وقد أحكمه وأوحى به وتقدّم . وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في النواحي والأعمال .

« ١٤ »

وكتب طاهر^(١) بن الحسين حين أخذ بغداد إلى إبراهيم بن المهدي :
« أما بعد فإنه عزيزٌ عليّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلام الإمرة وسلامها . غير أنه بلغني عنك أنك مائلٌ الهوى والرأي للناكث الخلوغ ، فإن كان كما بلغني فقليلٌ ما كتبتُ به كثيرٌ لك ، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته .

وقد كتبت في أسفل كتابي هذا أبياتاً فتدبرّها :

رُكُوبُكَ الْهَوَى مالم تَلَقَ فُرْصَتَهُ جَهْلٌ ورَأْيُكَ بالتَغْيِيرِ تَغْيِيرُ
أَهْوَنُ بدنيا يُصِيبُ المَخْطُؤَنَ بها حَظٌّ المَصِيبِينَ والمَغْرُورُ مَغْرُورُ
فازَرَغَ صَوَابًا وخُذْ بِالْحَزْمِ حَيْطَتَهُ فلن يُذَمَّ لأهل الحزم تَدْيِيرُ^(٢)
وإن ظَفِرْتَ مَصِيبًا أو هَلَكْتَ به فأنت عند ذوى الألباب مَعْذُورُ
وإن ظَفِرْتَ على جَهْلٍ فَفُزْتَ به قالوا جَهْلُوكَ أَعَاتَهُ المَقَادِيرُ

« ١٥ »

أحمد بن يوسف من بيت عريق في الكتابة ، وقد تولى ديوان الرسائل في عهد المأمون وتوفي سنة ٢١٣ هـ .

(١) طاهر هو قائد جيش المأمون الذي قتل الأمين وهو ذو اليمينين وكان شجاعاً أديباً ، كان بعين واحدة . وأبوه مصعب بن زريق كان كاتباً لسليمان بن كثير صاحب دعوة بني العباس . توفي سنة ٢٠٧ هـ بمرو .

(٢) المصدر حِيطَةٌ وحِياطَةٌ (كلاهما بالكسر) والاسم الحِوطة والحِيطَةُ (بالفتح وتكسر) .

وكان أول ما ارتفع به قدره وعرف اسمه أن الخلويع محمد بن الرشيد لما قتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصر من هذا ، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة فأحضره لذلك ، وكتب :

« أما بعد ، فإن كان الخلويع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق بينها حُكم الكتاب في الولاية والخدمة ، بمفارقة عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . لقول الله عز وجل في اقتصاص علينا من نبي نوح وابنه : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ، ولا طاعة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابي إلى أمير المؤمنين ، وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعنده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه . الكائد^(١) له فيمن ختر^(٢) عهده ونقض عهده ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها . وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها .

وقد بعثت إليك بالدنيا وهي رأس الخلويع ، وبالأخرة وهي البرودة والقضيب . والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين .

« ١٦ »

وكتب يستجديه لزوار على بابه :

(إن داعي نذاك ، ومُنَادِي جَدِّوَاكَ ، جمعا ببابك الوفود . يرجون نائلك العتيد^(٣))

(١) الكيد : المكر والحيلة والحرب . وقوله تعالى « كدنا ليوسف » أى علمناه الحيلة في أخذ أخيه

(٢) الختر : شبيه الغدر والخديعة ، وقيل هو أسوأ الغدر . وفي الحديث : ماختر قوم بالعهد الاسلاط

عليهم العدو . والفعل كضرب ونصر .

(٣) العتيد : المهيأ .

— ١١٣ —

فمنهم من يَمُتَّ بِحِرْمَةٍ^(١)، ومنهم من يُدَلِّي بِسَالِفِ خِدْمَةٍ . وقد أَجْحَفَ^(٢) به المُقَامُ ،
فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَهُمْ بِسَيِّبِهِ ، ويحقق ظَنَّهُمْ بِطَوَّلِهِ^(٣) فَعَلَّ .

« ١٧ »

فوقع المأمون في غُرْضِ كِتَابِهِ :
الخير مُتَّبِعٌ ، وأموال الملوك مَظَانٌّ لَطُلَّابِ الْحَاجَاتِ ، فَاكْتَبَ أَسْمَاءَهُمْ ، وَبَيْنَ
مَرْتَبَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِيَصِيرَ إِلَيْهِ عَلَى قَدَرِ اسْتِحْقَاقِهِ ، وَلَا تُكْذَّرَنَّ مَعْرُوفُنَا بِالْمَطْلِ
وَالْحِجَابِ . فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كَالِصَاقٍ بِهِ طَرَفَ الْهَوَانِ
وَلَمْ تَجْلِبْ مَوَدَّةُ ذِي وَفَاءٍ بِمِثْلِ الْوُدِّ أَوْ بِذَلِ اللِّسَانِ

« ١٨ »

وكتب إلى إبراهيم بن المهدي مع هدية أهداها إليه :
« الثَّغَّةُ بِكَ قَدْ سَهَّاتِ السَّبِيلَ إِلَيْكَ ، فَأَهْدِيْتُ هَدِيَّةً مِنْ لَا يَحْتَشِمُ إِلَى مِنْ
لَا يَغْتَنِمُ » .

« ١٩ »

وكتب إلى عليل :
« قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ وَصَبَ الْعِلَّةَ وَنَصَّهَا ، وَوَفَّرَ أَجْرَهَا وَثَوَابَهَا ، وَجَعَلَ فِيهَا مِنْ إِزْغَامِ
الْعُدُوِّ بَعْقَابَهَا ، أَضْعَافَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ السَّرُورِ بَفَتْحِ أُولَاهَا » .

(١) المَّتْ : النّوْسل بقراءة . الحرمة (هنا) : الذمة ، ومن معانيها : ملايحل انتهاكه والنهاية والنصيب
(٢) من قولهم أَجْحَفَ بِهِ الْفَقْرُ : أَيْ ضَرَّهُ وَآذَاهُ .
(٣) الطول والطائل والطائفة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .

« ٢٠ »

وكتب في الذم :

« أما بعد فإنني لا أعرف للمعروف طريقاً أو عَرَ من طريقه إليك . فالمعروف لديك ضائع . والشكرُ عندك مهجورٌ . وإنما غايتك في المعروف أن تحقره ، وفي وليه أن تكفره »

« ٢١ »

لما قويت شوكة نصر بن شُبَّثٍ ، وهزَمَ جيوش المأمون كتب إليه عمرو بن مسعدة على لسان المأمون :

أما بعد فإنك يا نصرُ بنَ شُبَّثٍ قد عَرَفْتَ الطاعة وعِزَّها وبرَّ دَ ظِلِّها ، وطِيبَ مرَّتِها ، وما في خلافتها من النَّدَمِ والخسارة ، وإن طالَت مُدَّةُ اللهِ بك ، فإنه إنما يُمَلِّ لمن يَلْتَمِسُ مظاهرة الحجة عليه لتقع عِزُّه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيتُ إذْ كَارَكَ وتَبَصَّرَكَ لَمَّا رَجَوْتُ أن يكونَ لِمَا أَكْتُبُ به إليك موقعٌ منك . فإن الصدقَ صِدْقٌ ، والباطلُ باطلٌ ، وإنما القولُ بمخارجِه وأهلِه الذين يُعْنَوْنَ به ، ولم يعاملِك من عمال أمير المؤمنين أحدٌ أنفعُ لك في مالك ، ودينك ، ونفسك ، ولا أحرصُ على إقناذك ، والانتِياشِ لك من خطئِك مني . فبأيِّ أوَّل ، أو آخر ، أو سلطة ، أو إمرة ، إقدامك يا نصرُ على أمير المؤمنين ، تأخذ أمواله وتتولَّى دونه ما ولَّاه الله ، وتريد أن تبَيِّتَ آمناً مطمئناً ، أو وادعاً ساكناً ، أو هادئاً . فوعالم السرِّ والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مُراجِماً ، وبها خانعاً ، لتَسْتَوْبِلَنَّ وَحَمَ العاقبة . ثم لا بدَّ أن بك قبل كلِّ عمل . فإن قرونَ الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنةً في الأرض ، وفساداً كبيراً ، أما لأطانَ بمن معي من أنصار الدولة كَوَاهِلِ رَعاع أصحابك ، ومن تَأَشَّبَ

إليك من أدانى البلدان ، وأقاصيها ، وأوْبَاشِها ، ومن أنصوى إلى حَوْزَتِكَ من خُرَّابِ
الناس ، ومن لفظه بلده ونفثه عشيرته ، لسوء موضعه فيهم . وقد أعذر من أنذر والسلام .

« ٢٢ »

ومن أبلغ ما كتبه وتلطف فيه بتوصيل شكوى الجند الذين تأخرت أرزاقهم إلى
المأمون من غير أن يكون منه إيلاَم للخليفة ولا اعتداء على سامى مقامه وعظيم مكانته ،
وكان هو الذى أخر أعطياتهم :

كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قُواده وسائر أجناده فى الاتقياد والطاعة ،
على أحسن ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخرت أرزاقهم ، واتقيادُ كُفأةٍ تراختُ
أعطياتهم ، واختلَّت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم .

« ٢٣ »

ولإبراهيم بن العباس الصُّولى الذى كان يلقب بكاتب العراق ، وتقلب فى أعمال
النواحى والمواوين ولكنه لم يقلد الوزارة لما اشتهر عنه من اللهو والاستهتار فيه ، يشكو
إلى بعض إخوانه :

لا أزال أبقاك الله ، أسأل الكتابَ إليك ؛ فرة أتوقف توقُّف الخنْف عنك
من المؤونة ، ومرّة أكتب كتابَ الراجع منك إلى الثقة ، والمعتمد منك على اللِّقيل^(١)
لا أعدَمنا الله دوام عرك ، ولا سَلَب الدنيا بهجَّتْها بك ولا أخلانا من الصَّنْع^(٢) لك .

(١) اللِّقيل: يراد به الملبأ ، وهو من القائلة وهو نصف النهار يهدأ فيه الناس ويستكنون من حر الهاجرة

(٢) الصَّنْع: العمل الجليل ، ومعنى من الصَّنْع لك أى الصنع المنسوب إليك ، وكانت العبارة تؤدى بقولك
صنعت لولا أنه أراد أن يزواج بين هذه الفقرة وبين قوله بهجَّتْها بك .

فإننا لا نعرف إلا نعمتك ، ولا نجد للحياة طعماً إلا في ظلك ، ولئن كانت الرغبة إلى
بَشَر^(١) من الناس خَسَاسَةً ودُّلاً ، لقد جعل الله الرغبة إليك كرامة وعزاً ؛ لأنك
لا تعرف حُرّاً قعد به دهره إلا سَبَقَتْ مساءلته بالعطية، وصُنّت وجهه عن الطلب والذلة .

« ٢٤ »

وخرج أهل حمص على الخليفة المتوكل داعين إلى العصبية^(٢) ، فكتب إبراهيم هذا
إليهم على لسان المتوكل : أما بعد : فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم
به من أود ؛ وعدل به من زيغ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على
بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر^(٣) به من تحذير وتخويف ،
ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها^(٤) :

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَبَ بَعْدَهَا وَعِيدٌ فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ كِتَابَتُهُ

نماذج من كتابة البلغاء

في المدة الثانية من العصر العباسي

[ابن العميد] ، وهو فارسي الأصل ، ارتقت به همته وبلاغته ، حتى صار وزير ركن
الدولة ابن بويه سنة ٣٢٩ هـ ، وهو الذي قيل في شأنه : بدئت الكتابة بعبد الحميد ،
وختمت بابن العميد ، توفي سنة ٣٦٠ هـ .

(١) الرغبة إلى بشر : أي الطاب منه ، يقال رغبت إلى فلان في كذا : أي طلبته منه .

(٢) وفي رواية صبح الأعشى أن أهل حمص وثبوا بعامل المتوكل عليها ثم بأخر فأرسل إليهم هذا
الخطاب ، ولا تنافي بين الروايين فقد يكون وثوبهم على العامل بسبب دعوتهم إلى العصبية .

(٣) استظهر : استقوى .

(٤) في رواية « لا ينفع جسم الداء غيرها » .

كتب (وقد أجمع أهل البصر بالأدب على أن هذه الرسالة هي خير كلامه) إلى
بُلْكَانَ بْنِ وَندَادٍ عند استعصائه على ركن الدولة . فأنزله عن استعصائه ، وجره بزمَامِ
كلامه . وقال بُلْكَانُ : والله لقد أغنى كتابه عن الكتائب في عَرَكِ^(١) أدبى
واستصلاحي وردى إلى طاعة صاحبي . قال :

كتابي وأنا مترجح بين طمعٍ فيك ، ويأسٍ منك ، وإقبالٍ عليك ، وإعراضٍ
عنك ، فإنك تُدِلُّ^(٢) بسابقِ حرمة ، وتُتِّمُّ بسالفِ خدمة . أيسرُهما يوجبُ رعاية ،
ويقتضىُ محافظةً وعنايةً ، ثم تشفعُهما بمحادثِ غُلُولٍ^(٣) وخيانة ، وتنبهُهما بأنفٍ^(٤)
خلافٍ ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبِطُ أعمالك . ويمحقُ كلَّ ما يُرعى لك . لا جَرَمَ .
إني قد وقفت بين ميلٍ إليك وميلٍ عنك ، أقدمُ رجلاً لصدِّمِك وأؤخرُ أخرى عن
قصدك ، وأُسْطِيدُ الأَصْطِلَامِك واجتياحك ، وأُنْثَى ثَانِيَةً لاسْتِبْقَائِك واستصلاحك ، أتوقِّفُ
عن أمثالِ بعضِ الأمور فيك ، ضَمًّا بالنعمة عندك ، ومنافسةً في الصنعة لديك ، وتأميلاً
لفيئتك وانصرافك ، ورجاءً لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغربُ العقلُ ثم يَتُوبُ ،
ويعزَّبُ اللبُّ ثم يَتُوبُ ، ويذهبُ الحَزْمُ ثم يعود ، ويفسُدُ العزمُ ثم يَصْلُحُ ، ويضعُ
الرأى ثم يُستدرك ، ويسكرُ المرءُ ثم يَصْحُو ، ويكدرُ^(٥) الماءُ ثم يصفو ، وكلُّ ضيقة

(١) العرك : الدلك . وبابه نصر .

(٢) الإدلال : الثقة بالعفو .

(٣) الغلول : الخيانة في الغنينة . وبابه نصر ، وأما من الحقد فبابه ضرب .

(٤) الروضة الأنف (كعتق) : التي لم ترع . والكأس الأنف : التي لم يشرب منها ، والأمر
الأنف : الذي لم يسبق بمثله .

(٥) كدر من بابي طرب وسهل ، والوصف منه كدر (كفرج) وكدر (كسهل) .

فإلى رَحَاءٍ^(١) وكلَّ عَمْرَةٍ فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم يَحْتَسِبْهِ^(٢) أوليائك ، فلا يدع أن تأتي من إحسانك بما لا يَرْتَقِبُهُ أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى رَكِبْتَ مَارَكِبْتَ واختَرْتَ ما اختَرْتَ ، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تُبْصِرُ فيها قُبْحَ ما صنعتَ ، وسوء ما أثَرْتَ ، وسأقيم على رِسْمِي^(٣) في الإبقاء والمعاظلة ماصِلَح ، وعلى الاستيناء والمطاولَة ما أمكن ، طمعاً في إنابتك ، وتحكياً لحسن الظن بك ، فلست أعَدَمُ فيما أظهره من إغذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستندراجاً لك . فإن يَشَاءَ اللهُ يُرْشِدْكَ ، وَيَأْخُذْ بك إلى حَظِّكَ وَيُسَدِّدْكَ ، فإنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

وزعمت أنك في طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت مُتَوَسِّطُهَا . وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها . وحلبت شَطْرَئِهَا^(٤) فنشدتُك^(٥) الله لما صدقت عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صيرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظلٍ ظليل ، ونسيمٍ عليل ، وريحٍ بليل ، وهواء ندي ، وماء روي ، ومهادٍ وطى ، وركنٍ ركين ، ومكانٍ مكين ، وحصنٍ حصين . يقيك المتألف ، ويؤمّنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحداث^(٦) عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد العُسرة ، واستغنيت بعد المتربة ، واتسعت

(١) الرخاء : لين الأمر واتساعه ، والرخاء (بالضم) : الرخ اللينة .

(٢) احتسبت الرجل : اختبرت ماعنده . والمعنى هنا أنهم لم يعرفوا فيك هذا كأنهم اختبروه فلم يجدوه ينطوى على مثل ما فعل ، أو أنهم لم يشكوا في وجوده فيه فلم يفتشوا عنه .

(٣) الرسم : الطريقة وماخططته لنفسك لتسير على نهجه .

(٤) لناقة شطران : مقدم ومؤخر ، ولكل شطر خلفان (حملتا ثدى) .

(٥) نشد (كنصر) : سأل كناشد ، قال في شرح القاموس : ولا يحىء بعدها إلا لفظ الا ولما والاستفهام والنهي والأمر ، وهذا هو المحلوف عليه أو جواب القسم .

(٦) حداث : جمع حدث ، وهو صرف الدهر .

بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ، ووطئ عقيبك الرجال ،
وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثراً ويكاثراً بك ، وتشير ويشار إليك ، ويذكر على
المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك ، فقيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ،
والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفست منها
كفك ، وعمست في خلافها يدك ، وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظلل نذو
ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ؟ قل نعم . كذلك . فهو والله أكنف
ظلالك في العاجلة ، وأروحها في الآجلة ، إن أمت على الحايطة والعنود^(١) ووقفت على
المشقة والجحود . . . تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستذكرها ،
والمس^(٢) جسدي وانظر هل يحس^(٣) وجس^(٤) عرقك وانظر هل ينبض ؟ وقش
ما انحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلي^(٥) بصدرك أن تظفر بفوت
سريع^(٦) ، أو موت مريع . ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله . . .
روى الثعالبي عن بلكا ، وكان من آرب^(٧) أمثاله أنه كان يقول : والله ما كانت حالي
عند قراءة هذا الفصل من كتابه إلا كما قال ! !

« ٢ »

وكتب ابن العميد أيضاً في غرض دقيق ، ومقام حرج ، إلى صديق تزوجت أمه على رغبة:
الحمد لله الذي كشف عنا ستر الخيرة ، وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع أنف

-
- (١) العنود : مصدر عند (كنصر وجلس وسمع) بمعنى مال عن الشيء أو عرف الحق وجانبه .
(٢) لمس الشيء (كضرب ونصر) مسه بيده .
(٣) حس الشيء وبه (كنصر) وأحس كذلك : وجد حسه وشعر به .
(٤) جس الشيء (كنصر) : لمسه .
(٥) قال الأصمعي يقال حلى (كفرح) في عيني ، وحلا (كنصر) في فني : أي وجدت حسنه وحلاوته
(٦) الأمر السريع : العاجل الذي لا مطلق فيه .
(٧) آرب : أعقل .

الْفَيْرَةِ ، وَمَنَعَ مِنْ عَضَلٍ ^(١) الْأَمْهَاتِ كَمَا مَنَعَ مِنْ وَأَدِ الْبَنَاتِ ، اسْتَنْزَالًا لِلنَّفُوسِ الْأَبْيَةِ عَنْ الْحَمِيَّةِ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ عَرَّضَ لِلْجَزِيلِ مِنَ الْأَجْرَمِ اسْتَسْلَمَ لَوَاقِعَ قَضَائِهِ ، وَعَوَّضَ جَزِيلَ الثَّوَابِ وَالذُّخْرِ ، مَنْ صَبَرَ عَلَى نَازِلٍ بِلَائِهِ . وَهَنَّاكَ اللَّهُ الَّذِي شَرَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ فِي الْبُلُوِّ صَبْرَكَ ، مَا لَهْمَكَ مِنَ التَّسْلِيمِ لِمَشِيئَتِهِ ، وَالرِّضَا بِقَضِيَّتِهِ ، وَمَا وَفَّقَكَ لَهُ مِنْ قَضَاءِ الْوَاجِبِ فِي أَحَدِ أَبْوَيْكَ ، وَمَنْ عَظَّمَ حَقَّهُ عَلَيْكَ . وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَدَّهُ ^(٢) مَا تَجَرَّعَتْهُ مِنْ أَنْفٍ ، وَكَظَمَتْهُ مِنْ أَسْفٍ ، مَعْدُودًا فِيمَا يَعْظُمُ عَلَيْهِ أَجْرُكَ ؛ وَيَجْزُلُ ^(٣) بِهِ ذُخْرُكَ ، وَقَرَنَ بِالْحَاضِرِ مِنْ امْتِعَاظِكَ لِفَعْلِهَا ، الْمُنْتَظَرِ مِنْ أَرْتِمَاضِكَ ^(٤) لِدَفْعِهَا ، فَتَسْتَوِي فِيهَا الْمَصِيبَةُ ، وَتُسَكَّلُ عَنْهَا الْمُثُوبَةُ ، فَوْضَلَ اللَّهُ لِسَيْدِي مَا اسْتَشْعَرَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عُرْسِهَا ^(٥) بِمَا يَسْتَكْسِبُهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَعَوَّضَهُ مِنْ أُسْرَةٍ فَرَسَهَا ، أَعْوَادَ نَعَشِهَا . وَجَعَلَ تَعَالَى جَدَّهُ مَا يَنْعَمُ بِهِ عَلَيْهِ بَعْدَهَا مِنْ نِعَمِهِ ، مَعْرَى مِنْ نِقَمِهِ . وَمَا يُؤْلِيهِ بَعْدَ قَبْضِهَا مِنْ مَنَحِهِ مُبَرَّأً مِنْ مَحْنِهِ ، فَأَحْكَامَ اللَّهُ تَعَالَى جَدَّهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ جَارِيَةً عَلَى غَيْرِ مُرَادِ الْخُلُوقِينَ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الْعَاجِلَةِ ، وَأَبْقَى لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ . اخْتَارَ اللَّهُ لَكَ فِي قَبْضِهَا إِلَيْهِ ، وَقُدُومَهَا عَلَيْهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهَا وَأَوْلَى بِهَا ، وَجَعَلَ الْقَبْرَ كَفْؤًا لَهَا وَالسَّلَامَ .

[الصاحب بن عباد] : لَزِمَ ابْنَ الْعَمِيدِ وَعَرَفَ بِصَحْبَتِهِ وَسُمِّيَ الصَّاحِبَ ، ثُمَّ حُلَّ مَحَلَّهُ عِنْدَ بَنِي بُوَيْهِ ، فَكَانَ وَزِيرَ مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ أَحَدِ مُلُوكِ بَنِي بُوَيْهِ ، ثُمَّ بَقِيَ مَعَ أَخِيهِ فَخَرَّ الدَّوْلَةَ لِمَا حُلَّ مَحَلَّهُ ، وَبَقِيَ مَبْجَلًا عِنْدَهُ نَافِذَ الْأَمْرِ حَتَّى مَاتَ بِالرِّيِّ سَنَةَ ٣٨٥ هـ

(١) العضل : منع التزويج .

(٢) الجد : العظمة .

(٣) جزل (كسكرم) : صار عظيما .

(٤) الارتعاش : التوجع والتحرق واشتداد الأمر .

(٥) العروس : المرأة والرجل ماداما في أعراسهما، وجمعه للرجل عرس، وللرأة عرائس.

كتب من رسالة بعث بها إلى ابن العميد جواباً عن كتابه إليه في وصف البحر :
 وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ،
 وعاین من مراکبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها
 متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها^(١) ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب
 ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلاك . إذا فكروا في المكاسب
 الخطيرة هان عليهم الخطر ؛ وإذا لاحت لهم غرر^(٢) المطالب الكثيرة حُبب إليهم
 الغرر^(٣) . وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرتيه ، وحصولي على مساعدته ،
 ومن رأى بجر الأستاذ كيف يزخر^(٤) بالفضل ، وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم
 يعتب^(٥) على الدهر فيما يقيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار
 الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مفاخره ، وأنفس في جواهره ،
 من وصف الأستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال ، والزلال^(٦) ؛ والسحر الحرام
 لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولم يخطر ب فكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر
 وشلا^(٧) لا يفضل عن التبرض^(٨) وتمدا^(٩) لا يكتر عن الترشف^(١٠) .

-
- (١) أشباح : جمع شبح ، وهو شخص الشيء .
 (٢) الغرر : جمع غرة ، وهي من كل شيء أحسنه .
 (٣) الغرر : اسم مصدر ، من غرر بنفسه إذا عرضها للهلاك .
 (٤) زخر (كنع) البحر : طفا وتعلأ .
 (٥) عتب (كنصر وضرب وفرح) : لام . واستعته : أرضاه أو طلب منه أن يرضيه (ضد) .
 العتب (بالكسر) : الكثير العتاب . العتوب : من لا يعمل فيه العتاب .
 (٦) المراد بالزلال ماء البحر ، لأنه باضطرابه يزلزل ماحوله . أما الزلال بكسر الزاي فهو المصدر
 بمعنى الزلزلة . وهكذا كل ما كان على هذه الصيغة من مضغف الرباعي فهو بفتح أوله اسم فاعل
 وبكسره مصدر .
 (٧) الوشل . الماء القليل يتحلب من نحو صخرة أو جبل ولا يتصل قطره .
 (٨) التبرض : التبغ بالقليل . والبرضة : ماتبلت به من الماء .
 (٩) التمد والتماد : الماء القليل لامادة له .
 (١٠) الترشف كال تبرض : أن يؤخذ قليلا قليلا .

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جُبَّتْ تَشْهَدُ أَنَّكَ السَّجْدُ وَبَحْرٍ شَهِدَ أَنَّكَ الْبَحْرُ

« ٤ »

وكتب في مصحف أُهْدِيَ إِلَيْهِ :

البرَّ أدام الله الشيخ أنواع ، تَطَوَّلُ بِهِ أَنْوَاعٌ ^(١) ، وتَقَصَّرَ أَنْوَاعٌ ، فإن يكن فيها ما هو أكرم مَنْصِبًا ^(٢) وأشرف مَنْسَبًا ^(٣) ، فتحفة الشيخ إذ أُهْدِيَ إِلَى مَا لَا تَشَاكُلُهُ النَّعَمُ ، وَلَا تَعَادِلُهُ الْقِيَمُ : كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ^(٤) ، ووحيه وتنزيله ، وهُدايه وسبيله ، ومعجزة رسول الله صلى الله عليه ودليله . طَبَعَ مِنْ دُونِ مَعَارَضَتِهِ عَلَى الشَّفَاهِ ، وَخَتَمَ عَلَى السُّلُوطِ وَالْأَفْوَاهِ ، فَقَصَّرَ عَنْهُ الثَّقَلَانِ ^(٥) ، وَبَقِيَ - مَا بَقِيَ الْمَلَوَانِ ^(٦) - ، لِأُخْحِ سِرَاجِهِ ، وَاضْحَى مِنْهَا بِهِ ، مُنِيرٌ دَلِيلُهُ . عَمِيقٌ تَأْوِيلُهُ ، يَقْصِمُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ^(٧) وَيُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَفَضَائِلُ الْقُرْآنِ لَا تُحْصَى فِي أَلْفِ قُرْآنٍ ^(٨) ، فَأَصْفُ الْخَطِّ الَّذِي بَهَّرَ الطَّرْفَ ، وَفَاقَ الْوَصْفَ ، وَجَمَعَ صِحَّةَ الْأَقْسَامِ ، وَزَادَ فِي نَحْوَةِ الْأَقْلَامِ ، بَلْ أَصْفَهُ بِتَرْكِ الْوَصْفِ . فَأَخْبَارُهُ آثَارُهُ ، وَعَيْنُهُ فِرَارُهُ ^(٩) . وَحَقًّا أَقُولُ : إِنِّي لَا أَحْسَبُ أَحَدًا مَّاخِلًا لِلْمُلُوكِ جَمَعَ مِنَ الْمَصَاحِفِ مَا جَمَعْتَ ، وَابْتَدَعَ فِي اسْتِكْتَابِهَا مَا ابْتَدَعْتَ ، وَإِنْ هَذَا الْمَصْحَفُ لَزَائِدٌ عَلَى جَمِيعِهَا زِيَادَةُ الْقُرْعَةِ ^(١٠) عَلَى الْغُرَّةِ ، بَلْ زِيَادَةُ الْحَبْجِ عَلَى الْعُمُرَةِ :

(١) الباع : مقدار ما بين اليدين إذا مدتا .

(٢) المنصب : الأصل والمرجع والفعل كضرب .

(٣) نسبه (كضرب ونصر) : ذكر نسبه .

(٤) الفرقان : كل ما فرق بين الحق والباطل . ويطلق على التوراة والقرآن وهو المراد هنا .

(٥) الثقلان : الجن والإنس .

(٦) الملوان : الليل والنهار ، والواحد ملا .

(٧) مرید : عات .

(٨) قرآن الثانية بمعنى مقروء .

(٩) فر الدابة : كشف أسنانها ليعرف عمرها . والمعنى أن ظاهره دليل عليه ، والعين هنا ذات الشيء .

(١٠) فرعة الشيء : أعلاه . وغرته : أوله ومقدمه .

لَقَدْ أَهْدَيْتَهُ لُطْفًا نَفِيسًا وَمَا يُهْدَى النَّفِيسُ سِوَى النَّفِيسِ

[أبو إسحاق الصَّابِي^(١)] : نشأ يتعلم الطبَّ على غير رغبته ، وما زال حتى توفر على الأدب ، واتصل بالوزير المُهَلَّبِيِّ وزير عزَّ الدولة فولاه ديوان الرسائل ، وكان ينوب عنه في أعمال الوزارة حين يغيب ، وقد سجن طويلا لحقد^(٢) عضد الدولة عليه . ثم عفا عنه فبقي بقية حياته لا يكتسب أنفة منه حتى مات سنة ٣٨٤ هـ ، وكان مع صابئته يحفظ القرآن ويصوم مع المسلمين رمضان .

« ٥ »

كتب إلى بعض أصدقائه يستمحه حين أساءت إليه الأيام :

ولما صارت صروف الدهر تتَوَغَّلُ بعد التَّطَرُّفِ^(٣) ، وتُجْحِفُ^(٤) بعد التَّحْيِيفِ^(٥) ، وصادف ما تجدد على في هذا الوقت منها أشلاء^(٦) مني منهوكة ، وأعظما منبرية . وخشاشة مُشْفِية وبقية مُودِية ، جعلت أختار الجهات ، وأعتام^(٧) الجنبات^(٨) لا تحو منها ما لا يُعاب سائله إذا سأل ، ولا يخيب أمله إذا أمَّل ، وكان سيدي أولها إذا عددت ،

(١) الصابئة ، قيل هم عباد السكواكب ، وقيل هم قوم بين النصارى والمجوس . وقال الزمخشري : هم قوم صبثوا عن دين النصارى ودين اليهود وعبدوا الملائكة ، وقيل هم يعبدون الأجرام السماوية والنار .
(٢) كان الصابي يكتب عن عز الدولة بن بختيار بن معز الدولة ورعا كانت تصدر عنه رسائل إلى عضد الدولة وفيها ما يؤلم فلما ملك عضد الدولة بغداد بعد قتل عز الدولة اعتقله وكلفه في السجن أن يكتب تاريخ بني بويه . وقيل لعضد الدولة إن صديقا للصابي دخل عليه وهو يعمل في الكتاب فقال له هذه أباطيل أعقمها وأكاذيب ألقها فهاج عقل عضد الدولة فأبعده وما زال مبعدا طول مدته .

(٣) طرفت الناقة : رعت أطراف المرمى ولم تختلط بالنوق كتطرفت .

(٤) أبحف بالشيء : ذهب به .

(٥) التحيف : التنقص من الأطراف .

(٦) لأشلاء : جمع شلو ، وهو العضو .

(٧) اعتام : أخذ العيمة وهي الحيار .

(٨) الجنبات : جمع جنبه ، وهي الناحية .

وأولاهـا إذا أعتدتْ ، وكتبـت كتابـي هـذا بيد يكاد وجهـي يَـتَظَلَّمُ مـنـها إذ تَحْطُّهُ .
إشفاقا على ما نـه مما يُـرِيقه ، لولا الثقة بـأنه يَحْقِنُ مياـه الوجوه ويَحْمِيها وَيُجَمِّها^(١)
ولا يُقْذِيها .

« ٦ »

وكتب أبو إسحق إلى الصاحب بن عباد يعتذر عن تأخر كتبه ويثني عليه :
أنا أعتذر إلى سيدى أطلال الله بقاءه من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بعذر إذا
تأملته حق تأمله ، وعرضه على نقده وتميزه ، وعرف صدق منطقـه ، وخلوص مـصدـره
علم أنى مواصل بباطن مرادى ، وإن صرمت بظاهره ، فعلى ، وملازم بخافى مقصدى ،
وإن أخلت بىادى مـسلـكى ، وهو أنى جرئت مكاتبته أيدـه الله مواظبا عليها
مـكـتبـا^(٢) ، ومراحيا بين أوقاتها مـغـبـا^(٣) لأتبع أحب الأمرين إليه ، وأوقعهما لديه ،
فلما لاح لى أن الإجمام أنفق ، والترفيه أوفق ، ووئقت بأن رأيه على فى الحالين
محروس النواحي والجوانب ، تحمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أعرف أخباره ،
وأسر باستقامتها وانتظامها . وأتـنـسـم أحواله وأسكن إلى إطرادها والتئامها . وأتـهـج بما
يصير إليه أيدـه الله من ذروة مرتبة يعتكفها ، وغارب مـرـقـبة يمتطيها ، وأن أدل المتحدثين
عنهما ، والسامعين بهما ، على أنه لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فإن للدنيا
مواعيد^(٤) فيه ، لا بد أن ينتجزها بمساعيه

« ٧ »

كتب رجل إلى محمد بن عبد الله :

-
- (١) أجم البئر ، تركها ليتجمع ماؤها . وجمت هى تجم جما وجما (بفتح الجيم فيهما) .
(٢) كبه على وجهه (كنصر) ، صرعه فأكب . وهذا نادر أن يكون الثلاثى متعديا والرباعى لازما
(٣) أغب ، آنى غبا وهو فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، وفى الورد أن ترد يوما وتظما يوما ، وفى
الحج أن تجيء يوما وتدع يوما .
(٤) مواعيد ، جمع موعود .

إن من النعمة على المثنى عليك ألا يخاف الإفراط ولا يأمن التقصير ، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب ، ولا ينتهى من المدح إلى غاية إلا وجد من فضلك عوناً على تجاوزها . ومن سعادة جَدِّكَ أن الداعى لك لا يَعمَدُ كثرة المادحين ومساعدة من النية على ظاهر القول .

نماذج من كلام البلغاء

فى المدة الثالثة من العصر العباسى

[أبو على عبد الرحيم] بن القاضى الأشرف البينسانى^(١) الأَخمى العربى كاتب الديار المصرية أواخر أيام الدولة الفاطمية ، وأوائل الدولة الأيوبية المعروف بالقاضى الفاضل المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ .

« ١ »

كتب على لسان خطيب عيذاب^(٢) إلى صلاح الدين يتشفع له فى توليه خطابة الكرك^(٣) قال :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته . وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته ، وأخذ عدوه قائلاً أو يثبتته ، وأرغم أنه بسيفه وكتبته .

خدمة^(٤) الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب ، ولما نبأ به المنزل عنها وقيل المرفق^(٥) منها ، وسمع هذه الفتوحات التى طبقت الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها

(١) بيسان ، مدينة بالأردن بالغور الشامى .

(٢) عيذاب ، من بلاد مصر على شاطئ البحر الأحمر وهى قبالة جدة من بلاد الحجاز .

(٣) الكرك ، بلدة بلفج جبل لبنان وهى خلاف الكرك (بالتحريك) وهى قلعة بنواحي البلقاء .

(٤) الخدمة ، المراد بها الرسالة .

(٥) المرفق الارتفاع .

شُكْرُهَا ، هاجر من هَجِير عَذَابٍ وَمِلْحَهَا ، سارياً في ليلة كلها نهار ، فلا يسأل عن صُبْحِهَا ، وقد رَغِبَ في خطابة السَّكَرِ وهو خطيب ، وتوسل بالملوك في هذا الملتبس وهو قريب ، ونَزَعَ من مصر إلى الشام وعن عَذَابٍ إلى السَّكَرِ وهذا عجيب ، والفقر سائقٌ عنيف ، والمذكور عاقلٌ ^(١) ضعيف ، ولُطْفُ الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام .

« ٢ »

وله يصف حمام الرسائل :

تَحْمِلُ من البطائق أجنحةً . وتُجَهِّزُ جيوشَ المقاصد ، والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قُلُوبًا ، وتركب الجوَّ بحرًا يُصَفَّقُ فيه هبوبُ الرياح موجاً مرفوعًا ، ومن بلاغات البطائق استفادات ما هي مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض ، فهي إليها دأمة الرجوع ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم . وأعدت في كنفاتها فهي أسمهم ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع ، فصارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقرىها . وجعلها طيف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها ^(٢) تُرغِم أنف النوى بتقريب العهود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهي أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنبا ، وخطبائها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء .

« ٣ »

وله عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بعض الأمراء

(١) عاقل ، اما معناه ذوعقل وفهم ، أو هو من عقل الدية إذا قام بها بدل الجاني ومنه العاقلة وهم عصبة الرجل لأنهم يعقلون عنه . والمراد بكونه عاقلاً أنه ذو أسرة يضمن لهم الرزق ويقوم بأمرهم .

(٢) أى جعلها صادقة غير كاذبة .

بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود ، وهى :

كتابنا هذا إلى الأمير مُعزِّين بالرزء الذى كَمَلَتْ أقسامه وتمت ، ورمّت أحداثه القلوب فأَصَمَّتْ . وطَرَقَتْ أحاديثه الأسماع فأَصَمَّتْ ، وأبى أن تَعْفُو كلومه ، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره ، وتَنَكَّدِرُ نجومه ، وثُلِمَ جانب الدين لفقد من لولاه لَدَرَسَتْ^(١) أعلامه ، ولم تُدْرَسْ^(٢) علومه ، وفجأ فاستولى على كل قلب وجيبه ، وعلى كل خاطر وجُومِه . بانتقال المولى « نور الدين » إلى سكنى دار السلام ، وقُدومه على ما أعدّه الله له من جزاء ذبّه عن الإسلام ، وبكى أهله على فقد عزائمهم التى بها حُفِظَتْ وحُرِّسَتْ ، وشَكَّتِ الممالك وَحْشَةً بَعْدَهُ وإن ابتهجت الملائكة بقربه وأنست ، فله هو !! من مصاب أغرى العيون بَفَيْضِها ، ونقل الأولياء من المسرة ونعيمها إلى المساءة وقِيظِها ، وأوجب تناجى الكفار بالنَّجاة من تلك السَّطوة التى لم تَزَلْ تَزِيدُها غما وتَرُدُّها بغِيظِها . . .

ومهنئين بما أسا الكَلَمَ ودأواه ، وَحوى الحق إلى الجانب الأمتع وآواه . من جلوس ولده الملك الصالح ذى التصويب والتسديد مشمولاً منا بالعرف والنعم والطول الجسم ، جاريا على سننه المعهودة ، وعاداته الحمودة فى رفع صالح أَدْعِيَتِهِ ، عن صفاء سريره ، وخلوص عقيدته ، مستمراً على جميل نَحْيَتِهِ . فى إمدادنا ببركته إن شاء الله تعالى .

« ع »

[وقال عماد الدين الأصبهاني] فى كتابه : « الفتح القسّى ، فى الفتح القدسى » ، يذكر فتح عَكَّاء :

ورحل السلطان ظُهر يوم الثلاثاء ظاهراً^(٣) على أهل التلث ، مُدِيلاً^(٤) للطَّيِّب .

(١) درس الرسم : دفا .

(٢) من الدراسة ، وهى تفهم العلم ومراجعته .

(٣) ظاهراً : متعلباً .

(٤) مدِيلاً : ناصراً .

مُزِيلًا لِلخَيْث ، وسار عسكره ، وثار عَثِيرُهُ ^(١) ، وظَهَرَتْ رَايَاتُهُ ، وَبَهَرَتْ آيَاتُهُ ،
وَنَعَرَتْ كُوسَاتُهُ ^(٢) ، وصاحت بوقاته ، وجالت خيولُهُ ، وسالت سيولُهُ ، وَطَلَعَتْ فِي
سَمَاءِ الْعَجَاجِ نَجُومُ خُرُصَانِهِ ^(٣) ، وَقَلَعَتْ فَلَائِعُ ^(٤) تِلْكَ الْجِبَالِ جِبَالُ فُرْسَانِهِ ، وَحَفَرَتْ
حَوَافِرُ الصَّلَادِمِ ^(٥) أَصْلَابَ ^(٦) الصَّلَادِ ^(٧) وَالصَّلَابِ ^(٨) ، وَفَصَّحَتْ بِأَعْرَابِ الْحَاحِمِ ^(٩)
صَوَاهِلُ الْجِيَادِ الْعِرَابِ ، وَالْأَسِنَّةُ مُسْرِعَةٌ ^(١٠) ، وَالْأَعِنَّةُ مُسْرِعَةٌ . وَبِحُورِ السَّوَابِحِ
مُتَمَوِّجَةٌ مُتَرَجِّجَةٌ ، وَبِوَارِقِ الْبِيَارِقِ مُتَبَوِّجَةٌ ^(١١) ، وَأَوَاضِحُ الْجُرْدِ وَغُرُرُهَا كَأَوَاضِحِ
النَّصْرِ وَغُرُرِهِ مُتَبَلِّجَةٌ ، وَنَزْلُ عَشِيَّةٍ بِأَرْضِ لُؤْبِيَّةٍ لِدَاعِي الْفَتْحِ مُلَبِّيًّا ، وَلِجَيْشِ النَّصْرِ
مُعَبِّيًّا ، وَلِمَوْلُودِ الْمَلِكِ الْعَقِيمِ بِتَلْقِيحِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ مُرَبِّيًّا ، وَبَاتَ بِهَا مُعَرَّسًا بَانِيًّا عَلَى عُرُوسِ
الظَّفَرِ الْبِكْرِ ، جَانِيًا ثَمَارَ الْأَمَانِي مِنْ غُرُوسِ الْبَيْضِ وَالشَّمْرِ ، وَأَصْبَحَ وَقَدْ أَحْصَى جَمَاحُ
الدَّهْرِ ، وَصَحَّ نَجَاحُ الْأَمْرِ .

« ٥ »

كتب القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه ويتشوق إليه ، (وقد
أكثر في الكتاب من الاستشهاد بالشعر) :
فِيَارِبُ إِنَّ الْبَيْنَ أَضْحَتْ صُرُوفُهُ عَلَى وَهَالِي مِنْ مُعِينٍ فَكُنْ مَعِيَ

(١) العثير : التراب ، والعجاج (الغار) .

(٢) الكوس : الطبل (معرب) .

(٣) الخرصان (بضم الخاء وكسرهما) : جمع خرص (مثثة) وهو الرمح .

(٤) الفلائع : لعلها جمع قلاع وهي جمع قلعة ، وهي الحصن في الجبل .

(٥) الصلاد : جمع صلد ، وهو الفرس الشديد الحافر .

(٦) أصلاب : جمع صلب ، وهو عظم الظهر من لدن الكاهل إلى العقب .

(٧) الصلاد : جمع صلد ، وهو الصلب الأملس (يريد الحجارة الشديدة) .

(٨) الصلاب : جمع صلب بمعنى الشديد .

(٩) الحاحم : جمع ححمة وهي عرّ الفرس (صوته) حين يقصر في الصهيل ويستعين بنفسه .

(١٠) شرع الرجل الرمح وأشرعها : سددها نحو القرن .

(١١) تبوّج البرق : تكشف .

على قُرْبِ غُدَالِي وَبُعْدِ أَحَبَّتِي وَأُمُوهِ أَجْفَانِي وَنَهْرَانِ أَضْلَعِي
هذه تحية القلب المعذب ، وسريرة الصبر المذبذب ، وظلامة عزم السلو المكذب ،
أصدرتها إلى المجلس ، وقد رقد في الحشا نارها : الزفير أوارها ، والدُموع شرارها ،
والشوق آثارها ، وفي الفؤاد ثارها :

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالُ هَاجِرٍ لَمَسَدَتْهُ فِي ظُلُمَاتِهِ أَنْوَارُهَا
أسفًا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار ، ومباسم الثغور والأوطار ،
وتذكراً لأوقات عذب مذاقها ، وامتد بالأنس رواقها :

وَاللَّهِ مَا نَسِيتُ نَفْسِي حَالَوْتَهَا فَكَيْفَ أَذْكُرُ أُنَى الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا
وقد فارقت الجنب ، لازال جنبه نضيراً ، وسناسنائه مستطيراً ، وملكه في الخافقين^(١) خافق
الأعلام ، وعزّه على الجديدين جديد الأيام ، لم أقف منه على كتاب تخلف سطوره
ما غسل الدمع من سواد ناظري ، ويقدم بيباض منظومه ومنشوره ما ورعه البين من
سويداء خاطري :

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْأَحْشَاءِ إِلَّا صُبَابَةٌ مِنَ الصَّبْرِ تَجْرِي بِالدُّمُوعِ الْبَوَادِرِ
وأسأله المناب بشريف الجنب ، وأداء فرض تقبيل الأرض ، حيث تلتقى أمور الدنيا
والآخرة ، وتعمُر البيوت العامة المنن الغامرة ، وفضل الظل غير منسوخ هجيرته ،
ويُبشِّرُ المجدُ بشخص لا تسمَحُ الدنيا بنظيره :

تَظَاهَرَ فِي الدُّنْيَا بِأَشْرَفِ ظَاهِرٍ فَلَمْ تَرَ أَنْقَى مِنْهُ غَيْرَ ضَمِيرِهِ
كَفَانِي فِرّاً أَنْ أُسَمَّى بَعِيدِهِ وَحَسَنِي هَدِيّاً أَنْ أُسِيرَ بِنُورِهِ
فَأَيُّ أَمِيرٍ لَيْسَ يَشْرُفُ قَدْرُهُ إِذَا مَا دَعَاهُ صَادِقاً بِأَمِيرِهِ

« ٦ »

ومن ذلك أيضاً قوله :

(١) الخافقان : الشرق والغرب أو أقطابها لأن الليل والنهار يختلفان فيهما .

وصل من الحضرة :

كتابُ به ماء الحياة ونفعه السحياً فكأنَّ إذ ظفرتُ به الخضرُ

فوقفت عنده منه على :-

عُقودُ هي الدُّرُّ الذي أَنْتَ بحُرُّهُ وَذَلِكَ مَا لَا يَدَّعِي مِثْلَهُ الْبَحْرُ
وَرَعَّتْ مِنْهُ فِي :

رِياضِ يَدٍ تَجْنِي وَعَيْنٍ وَخَاطِرٍ تَسَابَقَ فِيهَا التَّوَرُّ وَالزَّهْرُ وَالشَّمْرُ
[أبو محمد القاسم بن علي*] الحريري البصري له المقامات الخمسون التي عرفت شأنها.
ولسنا بصدد أن ننقل لك منها نماذج ، فإنها بمثابة كل طالب ، وقد شاعت مطبوعة
في مصر منذ عهد بعيد . ولكننا نذكر لك أنها تمثل كتابة عصرها من التزام السجع
والعكوف على البديع ، ولذلك سننقل هنا ما أظهر فيه الحريري براعته في التلاعب
بالألفاظ ، وعنايته بأنواع البديع من أحاج ، وتضمين للأشعار والأمثال .

« ٧ »

قال في المقامة الرابعة والعشرين القطيعية^(١) ، وهي التي تتضمن إلقاء أبي زيد على
جلسائه مسائل مُلغِزة في النحو :

فقال فأما إذا دعوتهم نزال ، وتكلمتُم للنضال . فما كلمة هي إن شئتُم حرفٌ
محبوبٌ أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين فرد حازم ، وجمع ملازم ،
وأية هاء إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، وأين تدخل السين فتعزِل
العامل ، من غير أن تجامل ، وما منصوب أبداً على الظرف ، لا يخفضه سوى حرف ،
وأى مضاف أخل من عرى الإضافة بعُرْوَة ، واختلف معناه بين مساء وغدوة ،
وما العامل الذي يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله . الخ .
أراد بالكلمة التي هي حرف محبوب أو اسم لما فيه حرب حلوب . كلمة «نعم» ،

(١) نسبة إلى قطيعة الربيع ، وهي محلة ببغداد .

فهى حرف جواب ، ثم هى اسم يطلق على الإبل وفيها الحرف ، وهى الناقة الضامرة .
وأراد بالاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، كلمة سراويل ، فهى مفرد على
بعض الآراء وجمع على رأى آخر ، ومعنى حازم أنه يربط على الخصر ، ومعنى ملازم أنه
لا ينصرف .

وأراد بالماء التى إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل . الماء اللاحقة
للجموع مثل صيارفة وصياقلة ، فإن الكلمة بدونها ممنوعة من الصرف فهى ثقيلة وبها
تحذف فتصرف .

وأراد بالسين التى تعزل العامل ، من غير أن تجامل : السين الداخلة على المضارع
وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبلها ناصبة ، ثم صارت مخففة من الثقيلة
فارتفع الفعل .

وأراد بالمنصوب على الظرف لفظ عند فهى لاتجر إلا بمن . وأراد بالمضاف الذى
أخل من عرى الإضافة بعروه ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة . لفظ لدن التى
تضاف دائماً ، ولكن إذا وقعت بعدها كلمة غدوة نصبت بها ونونت يقال لدن غدوة .
وأراد بالعامل الذى يعمل معكوسه عمله حرف يا ومعكوسها أى وكلاهما للنداء .

« ٨ »

ومن مقاماته التى أبدع فيها وتلاعب بالألفاظ والحروف المقامة السادسة المراغية
(نسبة إلى المراغة وهى موضع بأذربيجان) ، وهى تتضمن الرسالة التى إحدى كلماتها
معجمة والأخرى مهملة جاء فيها :

الكرم ثبت الله جيش سعودك يزين . واللؤم غَضَّ الدَّهْرُ جفن حُبودك يشين ،
والأروع^(١) يشيب ، والمُعَوَّرُ^(٢) يخيب ، والحُلَّاحِلُ^(٣) يُضَيِّفُ ، والماحِلُ^(٤) يخيف ،

(١) الأروع : الماجد الجليل الذى يروعك جماله .

(٢) المعور ، القبيح الفعل .

(٣) الحلالل : السيد الركين الرزن .

(٤) الماحل : الواشى الماكر .

- ١٣٢ -

والسمح يَغْدَى^(١)، والمَحْكُ^(٢) يُقْدَى، والعطاء يَنْجَى، والمِطَالُ يُشْجَى، والدعاء يَنْقَى،
والمَدْحُ يَنْقَى، والحَرْ يُجْزَى، والإِلْطَاطُ^(٣) يُخْزَى، واطراح ذى حرمة غَى، ومحرمه
بْنَى الآمال بَغَى. وما ضن إلا غَيْن^(٤)، ولا غَيْن إلا ضَيْن... الخ.

« ٩ »

ومنها المقامة السادسة عشرة المغربية^(٥)، وهى التى تتضمن العبارات التى تقرأ
طرذاً ورداً. قال فيها: فابتدر لمنحتى، صاحب ميمنتى وقال: (لَمْ أَخْأَمَلْ)، وقال
ميامنه: (كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ)، وقال الذى يليه: (مَنْ يَرْبُّ إِذَا بَرَّ نَيْمُ)،
وقال الآخر: (سَكَّتْ كُلُّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسُ) الخ.

« ١٠ »

ومنها المقامة السابعة عشرة القهقرية، وهى التى تتضمن الرسالة التى تقرأ من أولها
بوجه ومن آخرها بوجه قال فيها:

الإنسان صنيعه الإحسان، ورَبُّ^(٦) الجميل فعل النَّدْبُ^(٧)، وشيمة الحرِّ ذَخِيرَةُ
الحمد، وكَسْبُ الشُّكْرِ استثمارُ السعادة، وعنوان الكرم تباشير البشر، واستعمال

١) يقال غذوته كغذته. والجوهرى أنكره لأنه لم يعرفه كما يقول صاحب القاموس المحيط.

٢) المحك: البخل اللجوج.

٣) الإلطاط: جحود الحق.

٤) الغين: ضعيف الرأى.

٥) سميت مغربية لأن حادتها جرت في بعض بلاد المغرب.

٦) الرب: التربة والتنمية.

٧) الندب: الخفيف في الحاجة.

المداراة يوجب المصافاة ، وعقد^(١) المحبة يقتضى النصّح ، وصدق الحديث حلية الإنسان وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، ومَلَأُ الخلائق شَيْنُ الخلائق^(٢) ، وسوء الطمع يُبَاينُ الورع ، والنزاهة الحزامة زمامُ السَّلامة ، وتطالب المثالب شرُّ المعاييب ، وتنبُّعُ العثرات يُدَحِّضُ المودات ، وخُوصُ النية خلاصةُ العِطية ، وتهنئة النوال^(٣) ثمن السؤال ، وتكَلَّفُ الكَلْف^(٤) يُسهِّلُ الخَلَف ، وتيقُّنُ المعونة يُسَنِّيُ المثونة^(٥) ، وفَضْلُ الصَّدْر سعة الصَّدْر^(٦) ، وزينةُ الرعاة ، مَقْتُ السَّعة ، وجزاء المدائح بَثُّ المنايح ، ومَهْرُ الوسائل تشفيغ^(٧) المسائل ، ومجلة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحدِّ يُكِلِّلُ الحدَّ ، وتعدَّى الأدب يُحْبِطُ القُرب ، وتناسى الحقوق يُنْشِئُ العقُوق ، وتحاشى الرِّيب يرفع الرُّتب ، وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار ، وتنوُّهُ الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة تنقيح الحكمة ، ورأس الرِّياسة تهذب السياسة ، ومع اللِّجاجة تُلغى الحاجة ، وعند الأوجال تنفاضل الرجال ، وتفاضل الهمم تنفاوت القيم ، وتزيد السفير يهينُ التديز ، وبخل الأحوال تتبين الأحوال ، وبمُوجِبِ الصَّبْر ثمرة النصر ، واستحقاق الإحساد^(٨) بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة كِفَاءُ المحافظة ، وصفاء الموالى^(٩) بتمهيد الموالى ، وتحلَّى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الإخوان بتخفيف الأحران ، ودفعُ

(١) عقد المحبة : رابطتها .

(٢) الخلائق الأولى الناس . والثانية الصفات والأخلاق .

(٣) أى أن تجعل السائل يهنأ بما أعطيته هو ثمن لبذل ماء وجهه بالسؤال .

(٤) أى احتمال المشقة يسهل لك الجزاء عليها .

(٥) يسنى : يسهل أى التحقق من وجود المساعدة يسهل المشقة على صاحبها .

(٦) الصدر الأولى بمعنى الرئيس .

(٧) التشفيغ : قبول الشفاعة .

(٨) أى استحقاق أن تحمد .

(٩) أى إخلاص الحب فى محبته أن يتعهد موالى حبيبه .

الأعداء بكفّ الأوداء ، وامتحان العقلاء ، بمقارنة الجهلاء ، وتبصّر العواقب يؤمن المعاطب ، واتقاء الشُّعْعة ينشُر السُّمُعة ، وقبح الجفاء ينافي الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار ، فهذه مثلاً لفظة ، تحتوى على أدب وعظّة ، فمن ساقها هذا المساق فلامراء ولا شقاق ، ومن رام عكس قلبها وأن يردّها على عقبها فليقل : الاسراء عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ينافي الجفاء ، وقبح السمعة ينشر الشُّعْعة . الخ .

« ١١ »

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ .
كتب من مقالاته يندد بالحرص والجشع في المال :

يا عبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما . ويا أسير الحرص والطمع متى أنت طليقهما ، هيئات لا إعتاق إلا أن تكاتب^(١) على دينك الممزق ، ولا إطلاق ، أو تفادى بخيرك الملقق . يا من يشبعه القرص ، ما هذا الحرص ، ويا من تُرويه^(٢) الجرّع ، ما هذا الجرّع . ستعلم غداً إذا تدمت ، أن ليس لك إلا ما قدمت . وإذا لقيت المنون ، لم ينفعك مال ولا بنون . ما يصنع بالقناطير المتنطرة ، عابر هذه القنطرة . وما يريد من البهجة والفرحة ، نازل ظلّ هذه السَّرحة^(٣) .

« ١٢ »

ومنها في حفظ اللسان :

من لم يحفظ ما بين فكّيه ، ظل يُكلّب كفيه ، وبات يتململ على دفيه ، حزناً على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه من التلفظ ، ولو كان اللسان مخزوناً ،

(١) المكاتب : أن يشتري العبد نفسه من سيده بمال يدفعه له منجماً .

(٢) رواه وأرواه بمعنى .

(٣) السَّرحة : الشجرة العظيمة . والمراد أن مدة الدنيا مثل ظل شجرة لا يلبث أن يزول بتحول الشمس

- ١٣٥ -

لم يكن الفؤاد محزوناً ، وقلماً يحرس مهجته ، من لا يخرس لهجته . ولن تجد على السرّ أميناً ، إلا من كان بكلّ أمانة قيناً .

« ١٣ »

ومنها في الحثّ على الجِدِّ :

دَبَّرَ المعاش والمعاد ، يازيرَ سَلَمَى وسُعاد ، فليس من اعتاد المضاجع ، كمن ارتاد المناجع ، ولا من ألف الملاعب ، كمن كلف المتاعب . الكيس متجلد متصلب ، فيما يجدى عليه منقلب . والعاجز متقاعد متعاس ، عما يجب فيه التيقظ متعاس ، فكس ياكسلان في أمريك ولا تعجز ، ونصيبك من داريك فأحرز ، ولا تبغ في متصرفاتك إلا طيب الحياة ، والقرب من النجاة .

نماذج الكتابة العلمية

في العصر العباسي

من أقدم الأمثلة في الكتابة العلمية ما كتبه الفقيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الذي كان أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان وقاضى قضاة الرشيد ، كتب إليه الرشيد أسئلة في أموال بيت المال وطرق تحصيلها ومواضع صرفها ، فكانت إجابة القاضى كتاباً جليلاً في الفقه سمي : كتاب الخراج ، وهو مطبوع بمصر .

« ١ »

ومنه : ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ، ولا أجر مدى ، ولا احتفان ، ولا نزلة

ولا حمولة^(١) طعام السلطان ، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ، ولا أجور الفيوج^(٢) ، ولا أجور السكيالين ، ولا مئونة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذ ثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع ، فينقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة فى المقاسمة ، ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدرهم يؤدونها فى الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدرهم يؤديها فى الخراج فيقطع منها طائفة ، ويقال هذا رواجها وصرفها ، ولا يضرب رجل فى درهم خراج ، ولا يقيم على رجله فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، وشنيع فى الإسلام .

وقال فى شأن المسجونين : لا بد لمن كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة ، أو من بيت المال . من أى الوجهين فعلت ، فذلك موسع إليك وأحب إلى أن تجري من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك . والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب يترك يموت جوعاً ؛ وإنما حملة على ما صار إليه القضاء أو الجهل .

« ٢ »

ومن كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٣ هـ فى النحو :
(هذا باب إضافة المنادى إلى نفسك) .

اعلم أن ياء الإضافة لا تثبت فى النداء كما لم يثبت التنوين فى المفرد لأن ياء الإضافة بمنزلة التنوين لأنها بدل من التنوين ، ولأنه لا يكون كلاماً حتى يكون فى الاسم ، كما أن

(١) الحمولة : الأبل التى يحمل عليها .

(٢) الفيوج : الحراس .

التنوين إذا لم يكن فيه لا يكون كلاماً ، فحذف وترك آخر الاسم جرّاً ليفصل بين الإضافة وغيرها وصار حذفها هاهنا لكثرة النداء في كلامهم حيث استغنوا بالكسر عن الياء ، ولم يكونوا ليثبتوا حذفها إلا في النداء ، ولم يكن لبس في كلامهم لحذفها ، فكانت الياء حقيقة بذلك لما ذكرت لك إذ حذفوا ما هو أقلّ اعتلالاً في النداء ، وذلك كقولك : يا قوم لا بأس عليكم ، وقال عز وجل : « يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ » .

« ٣ »

قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ في كتابه : « الحيوان » تحت عنوان :
« القول في الحيات » :

اللهم جنبنا التكلف ، وأعدنا من الخطل ، واحمنا من العجب بما يكون منا ، والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين . حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم في رمال بلعبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتدّ الحرّ في رمال بلعبر ، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل ورمض^(١) الجُنْدُب^(٢) غَمَسَتْ هذه الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركزوز أو عود ثابت ، فينجى الطائر الصغير أو الجراد فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس الحية على أنها عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جراداً أو جُعلاً أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعه وبقيت على انتصابها . وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبها في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهجرة ، وذلك أن الطائر لا يشكّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقام الجِذْل^(٣)

(١) رمض (كفرح) : قاسى حر الرمضاء (الأرض الشديدة الحرارة) .

(٢) الجُنْدُب : نوع من الجراد .

(٣) الجِذْل : أصل الشجرة بعد ذهاب فرعها .

للحِزْبَاءِ^(١) إلى أن يسكن الحرّ وَهَجَ الرمل ؛ وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود وفيه قلة أكرث الحية بالرمل الذي عاد كالجر ، وصلاح أن يكون ملة مومضاً للخُبْزَةِ ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة ؛ فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات .

« ٤ »

ومن كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى للآمدى المتوفى سنة ٣٧٢ هـ .
ومن خطئه (يريد أبا تمام) قوله :

وَالْحَرْبُ تَرَكَبُ رَأْسَهَا فِي مَشْهَدٍ عُدِلَ السَّفِينَةُ بِهِ بِأَلْفِ حَلِيمٍ
فِي سَاعَةٍ لَوْ أَنَّ لِقْمَانًا بِهَا وَهُوَ الْحَكِيمُ لَكَانَ غَيْرَ حَكِيمٍ
جَثَمَتْ طُيُورُ الْمَوْتِ فِي أَوْكَارِهَا فَتَرَكَنَ طَيْرَ الْعَقْلِ غَيْرَ جُنُومٍ

فالبيتان الأولان جيدان ، وقوله : جثمت طيور الموت في أوكارها ، بيت رديء في القسمة رديء في المعنى لأنه جعل طير الموت في أوكارها جائمة : أى ساكنة لا ينفرها شيء ، وطير العقل غير جنوم : يعنى أنها نفرت فطارت ، يريد طيران عقولهم من شدة الروع ، وما كان ينبغى أن يجعل طير الموت جنوماً في أوكارها ، وإنما كان الوجه أن يجعلها جائمة على رؤوسهم أو واقعة عليهم ، فأما أن تكون جائمة في أوكارها فإنها في السلم أو في الأمن جائمة في أوكارها أيضاً ، وطير العقل ليست بضد طير الموت ، وإنما هي ضد طير الجهل ، وطير الحياة هي ضد طير الموت ولو كان قال : جثمت طيور الموت فوق رؤوسهم فتركن أطيّار الحياة تنحوم لكان أشبه وأليق . اهـ .

(١) الحرباء : دوية تستقبل الشمس برأسها ، وهي من العطاء ، وهي فصيلة سام أبرص .

من قول الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في كتابه : أسرار البلاغة « فى مواقع التمثيل وتأثيره » : واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى القلوب صباة وكلفا به وقصر الطباع على أن تعطىها محبة وكلفا .

فإن كان مدحا كان أبهى وأخيم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهزَّ للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغرَّ المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ، وإن كان ذمّا كان مسه أوجع وميسمه أذع ، ووقعه أشدّ ، وحدّه أهدّ ، وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . إلى أن يقول ، فانظر إلى قول البحتري .

دَانٍ عَلَى أَيْدِي الْعُقَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدَى فِي النَّدَى وَضَرِيبٌ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْءُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تدبر نصرته إياه وتمثيله له فيما يعلى على الإنسان عيناه ، ويؤدّى إليه ناظراه . ثم قسمهما على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرْفِيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتك وشدة تفاوتهما فى تمكّن المعنى لديك ، وتجبّه إليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت .

« ٦ »

وفي كتاب ، « إحياء علوم الدين » للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قال والوظيفة الثامنة ، (أى من وظائف المعلم المرشد) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سمّ مهلك ، سخر الناس به ، واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء والأذها لما كان استأثر به . ومثل العلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا ينتقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في هذا المعنى :

لَا تَنْتَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلاته عالم كثير يقتدون به ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجالان عالم متهتك ، وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يضر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه ؛ والله أعلم .

« ٧ »

وفي كتاب إحصاء العلوم لأبي نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ في تعريف علم المنطق قال :

فصناعة المنطق تعطى جملة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ، ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات ، والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط في المعقولات ، والقوانين التي يمتحن بها في

المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد غلط فيه غلط ؛ وذلك أن في المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون العقل غلط فيها ، وهي التي يجد الإنسان نفسه كأنها فطرت على معرفتها واليقين بها مثل أن الكل أعظم من جزئه ، وأن كل ثلاثة فهو عدد فرد ، وأشياء أخرى يمكن أن يغلط فيها ويعدل عن الحق إلى ما ليس بحق ، وهي التي شأنها أن تدرك بفكر وتأمل ، عن قياس واستدلال ، ففي ذلك دون تلك يضطر الإنسان الذي يلتمس الوقوف على الحق اليقين في مطلوباته كلها . إلى قوانين المنطق .

وفي هذا القدر من أمثلة كتابة العلوم كفاية ، فقد ظهر فيها ما قلناه آنفاً من أن هذه العلوم كانت في عباراتها بعيدة عما منيت به كتابة الإنشاء من قيود وتكلف زحزحها عن القصد من الإنشاء ، وهو الفناء بلاعناء في تفهيم المراد .

تراجم الكتاب

« ١ »

أبو بكر الخوارزمي

يذكر بعض المؤرخين : أن أصل آبائه من طبرستان ، وهي على الساحل الجنوبي من بحر الخزر « بحيرة أورال » ، وأنه إنما نشأ بخوارزم وتربى بها .

ويذكر آخرون أن أباه من خوارزم ، وأمه من طبرستان ، وهي أخت محمد ابن جرير الطبري المؤرخ ، ولذلك تركبت له نسبة ممزوجة من المواطنين ، فقليل له الطبرخزي .

نشأته وتعلمه

نشأ بخوارزم ، وهي إذ ذاك في أيدي البويهيين ، وكانت من نصيب ركن الدولة ابن بويه أخى عماد الدولة ومعز الدولة ، وكانوا جميعاً يتقاسمون بينهم شرق المملكة الإسلامية « العراق ، وفارس ، وخراسان » .

والذى يعلم من شأن هذه الدولة وغيرها من الدول التى كانت تنافسها ، كالحمدانية ،
والسامانية ، والغزنوية أن العلم كان قد وصل فيها إلى تمام النضج ، فراجت سوقه ،
وكثر الإقبال عليه ، وظهرت فيه المؤلفات الجليلة فى كل نوع ، وكان ملوك هذه الدول
يبالغون فى إكرام العلماء ، ويكرمون وفادتهم ، ويستكتبونهم الكتب بأسمائهم ،
ويجزلون لهم العطاء عليها ، ولقد كان من ملوك هذه الدول الشاعر الملقب والكاتب
الجليل ، وفى أيامهم راجت سوق الأدب حتى استوزر الكتاب المجيدون ، أمثال أبى محمد
الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة الذى كان فى أشد الضيق قبل الوزارة حتى قال :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ

ومن وزرائهم الكاتب الجليل القدر ، ابن العميد وزير ركن الدولة والصاحب ابن عباد
وزير مؤيد الدولة .

وفى هذا الزمن فى ظل هذه الدول ألف أبو الفرج الأصبهاني كتاب « الأغاني » ،
فحمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . كذلك أخرج ابن النديم كتابه
« الفهرست » ، وهو من الموسوعات الكبرى التى يفخر بها هذا العهد ، كذلك كان
من علماء هذا الزمن الفيلسوف الجليل القدر أبونصر الفارابى مخترع القانون ، وابن سينا
الطبيب صاحب كتاب « القانون » فى الطب فى أربعة عشر جزءاً ، وهو مطبوع
بمصر ، والشفاء فى ثمانية عشر جزءاً فى الطب وغيره ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية
بمصر . وابن سينا هو الذى استقدمه منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية لما سمع
بشهرته ، وكان مريضاً فبرىء على يديه فنال منه خيراً كثيراً . وغير هؤلاء كثيرون لهم
مؤلفات لا تدخل تحت حصر ، أكثرها عمل برسم هؤلاء الملوك الذين كانوا يرون من
الفخر العظيم أن يذكر اسمهم فى كتاب يعتقدون أنه سيعمل على الأيام فيخلد معه اسمهم ،
حتى لقد جعلوا التأليف ثمناً للرضا عن السجين ، كالذى ذكروا أن عضد الدولة كان
معتقلاً أباً إسحق الصابى ، فجعل شرط الرضا عنه وإطلاقه أن يؤلف كتاباً فى مناقب
الدولة البويهية ، فجعل يؤلفه فى السجن ، ويقال : إن واشياً دخل عليه حين كان

مشغولاً بالتأليف : فقال له : ما تصنع ؟ فقال : (أباطيل أُنقمتها وأكاذيب أُلغمتها) فنقل ذلك إلى عضد الدولة ، فغضب ولم يطلقه من سجنه حتى كانت أيام ابنه صمصام الدولة فخرج زريّ الحال قد تداعى من الهمّ والمهرم .

في هذه الأيام نشأ الخوارزمي ، وقد رأى العلم تتعدّد له المجالس ، ويكثر فيه التنافس ويرتقى شأن العالم والكاتب حتى تكون قصور الملوك مراحه ومغذاه ، وكروسي الوزارة منقلبه ومأواه ، فكان جديراً أن يؤمل في هذه الأيام دولة لهمه ، وصولة لقلعه . فأقبل على العلوم يحصاها ، وهي إذ ذاك كثيرة لا حصر لها ، فما زال يحصل علومه بخوارزم ، وهي مدينة من مدن العلم لأنها قصبة من قصبات الملك ، فحصل منه نصيباً يستطيع أن يستقل به في طلب الرزق ، وقد ساعده عليه ذكاء شديد ، وحافضة نادرة ، ورغبة أكيدة ، فصار كما وصفه الثعالبي في « يتيمة الدهر » (يحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة) . ولم ينته في طلب العلم عند حدّ من السنّ أو قدر من المعلومات ، بل ظلّ طول حياته نهما يتسقط النوادر ، ولا يمرّ ببلد إلا جالس علماءه ، وطارح شعراءه ، ونادم أدباءه ، وقد تنقل في بلاد الإسلام حتى وصل إلى حلب ، فكان جديراً بعد ذلك أن يكون نادرة عصره دراية وفهماً لأنه جمع مزايا الأقطار ، واشتمل على أنواع المعارف الموزعة في البلاد .

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)

وفي هذا يقول صاحب اليتيمة : (فارق وطنه في ريعان عمره ، وحدائنه سنه ، وهو قوئ المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب في البلاد ، ويدخل كور الشام ، ويأخذ من العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء حتى تخرج وخرج فرد الدهر ، في الأدب والشعر) .

(١) هذا البيت يرويه الناس كثيراً بالواو في أوله وذلك خطأ لأنه من السريع ولا يوزن إلا بحذفها .

مؤهلات فضله

وصل الخوارزمي من الشهرة بين أهل عصره حدًّا بعيداً حتى قال عنه معاصروه :
«إنه باقعة^(١) الدهر وبحر الأدب» ولا يجتمع لا مرئ كل هذا الفضل حتى يكون له
من وراء ذلك ملكة تواتيه وتساعد عليه .

نعم عرف عن الخوارزمي أنه كان يتمتع بحافظة ذاكرة لم يعهد مثلها في أهل
عصره ، فقد كان يروى شعر العرب منذ جاهليتهم إلى أيامه ، يدل على ذلك كثرة
ما تجده في شعره من تضمين لكلام الشعراء من جاهليين وإسلاميين سابقين
ومعاصرين ، ولا يكون ذلك إلا لحافظ ذاكر وراوية تتوارد على ذهنه المعاني بما
لبستها من ألفاظ . وإذا ذهبنا نعدد من أمثلة ذلك خرجنا عن الاختصار اللائق
بعملنا ، ولكننا نشبع رغبة الطالب من الأمثلة ليلمس بيده مقدرة هذا الرجل على
الحفظ والاستحضار .

قال يمدح عضد الدولة :

وَلَمَّا أَكْثَرَ الْحُسَّادُ فِيهِ وَقَالُوا قَدْ تَغَضَّنْتَ الْخُدُودُ
أَجَابَ الْفَضْلُ عَنْهُ حَاسِدِيهِ (لِأَمْرِ مَا يُسْوَدُ مِنْ يَسُودُ)

المصراع الأخير لبُلْعَامُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنَانِيُّ .

وقال في السَّمَاك ، وهو فرس لعضد الدولة :

حَسَدَ السَّمَاكُ سَمِيَّهُ لَمَّا بَدَا فِي سَرَجِهِ شَخْصُ الْهُمَامِ الْأَبْلَجِ
فَلَوْ أَنَّ شَاعِرَ بُحْتُرٍ فِي عَصْرِهِ مَا قَالَ فِي فَرَسٍ وَلَا فِي أَعْوَجِ
(خَفَّتْ مَوَاقِعُ وَطْنِهِ فَلَوَّاهُ يَجْرِي بِرَمْلَةٍ عَالِجٍ لَمْ يَرُ هِجِ)^(٢)

(١) الباقعة : الباهية .

(٢) أرهج : أثار النبار .

والبیت الآخر للبحتری .

ويقول :

وَمَنْ تَرَكَ الْأَخْيَارَ يُنْشِدُ أَهْلُهُ
(أَحِلَّ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِي خَفَّ أَهْلُهُ)

والمصرع الثاني لأبي تمام .

ويقول في الهجاء :

قَوْمٌ تَرَاهُمْ غَضَابِي حِينَ تُنْشِدُهُمْ
(لَكِنَّهُ يَشْتَهِي مَدْحًا بِمَجَّانٍ)

والبیت من قول القائل :

عُمَانُ يُعْلَمُ أَنَّ الْمَدْحَ ذُو مَمْنٍ
لَكِنَّهُ يَشْتَهِي مَدْحًا بِمَجَّانٍ

ومنها :

قَدْ قُلْتُ إِذْ قِيلَ لِإِسْمَاعِيلَ مُمْتَدَحٌ
لَهُ مِنَ النَّاسِ بَحْتُ غَيْرُ وَسْنَانٍ^(١)

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً
مالم يروا عنده آثار إحصان

ويقول من قصيدة :

تُغَاضِبُهُمْ أَسِيْفُنَا فَكُنْمَا
كَأَنَّ ظِلْبَاهَا سَاعَةَ الرَّوْعِ عُلِّمَتْ

والمصرع الثاني لحاتم الطائي :

فهذا التضمين وهو كثير جداً في كلامه نثراً وشعراً هو نتيجة لازمة لكثرة المحفوظ ، وهي ميزة من مزايا الخوارزمي .

وربما دلّ دلالة واضحة على كثرة محفوظه وشهرته بين أهل زمانه تلك القصة التي رووها عنه حين قصد الصاحب بن عباد ، فقال الحاجبه بلغ الصاحب أن أديباً بالباب يستأذن في الدخول ، فعاد الحاجب يقول له : يقول لك الصاحب : إنني ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من أشعار العرب ، فقال

(١) البخت : الجدة ، والمبخوت : ذو الحظ .

الخوارزمي : سله أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء ؟ فلما بلغ الحاجب ذلك قال : إنما هو أبو بكر الخوارزمي ، وأذن له ، وهشّ وبشّ في وجهه وأجزل عطاءه . ولم يكن الخوارزمي يقتصر على هذا الفضل ، بل كان له إلى جانب الحافظة الذاكرة : ذكاء نادر ، وملكة في الفهم قوية ، وحكمة استفادها من تجاربه ووعاها من تجواله ، وقد تجلى العقل الراجح فيما جرى على لسانه من فكرة ناضجة ، وقول جامع وكلمة شاردة ، وحكمة لم يوع مثلها إلا عن حكيم حصيف الرأي ، وهذه الكلمات التي تجري مجرى الأمثال من أقواله كثيرة جدًا قد نثرها في ثنايا رسائله ، فمنها :

الشكر على قدر الإحسان ، والسلع بإزاء الأثمان . الأذكار حيث التماسي ، والتقاضى حيث التفاضي^(١) ، والدواء لغير حاجة داء ، وهو عند الحاجة شفاء ، الاستقالة تأتي على العثرات ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، الشجاع مُحِبٌّ^(٢) حتى إلى من يحاربه ، والجبان مبغض حتى إلى من يناسبه ، والجواد خفيف حتى على قلب غريمه^(٣) ، والبخيل ثقيل حتى على قلب وارثه وحميمه ، الدهر يَمُطِّلُ وربما عجل ، وما شاء الإقبالُ فعل ، أوجع الضرب ما لا يمكن معه البكاء ، وأشدّ البلوى ما لا يحققه الاشتكاء ، من الناس من إذا وَلِيَ عزائته نفسه^(٤) ، ومنهم من إذا عزل ولاه فضله ، ما المحنة إلا سبيل ، والسبيل إذا وقف ، فقد انصرف ، وما الأيام إلا جيش ، والجيش إذا لم يَكُرْ^(٥) ، فقد فرّ .

(١) تفاضى عنه : تنافل .

(٢) يقال أحب فهو محبوب . وذلك أن الثلاثين من مادة الحب مسموع ولكنه قليل واسم المفعول من الثلاثين مستعمل أكثر منه من الرباعي فكأن الفعل الثلاثي هجر وتقي مفعوله ، والرباعي استعمل وهجر مفعوله . فأبو بكر استعمل صيغة المفعول القليلة الورد .

(٣) الغريم : الدائن والمدين (صد) .

(٤) في هذا المعنى يقول الشاعر :

إنّ الأمير هو الذي يضحي أميراً يوم عزله

إن زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

(٥) كثر على العدو من باب نصر : هجم .

فأنت ترى هذه الحكم ليست حكاية لما تردد على ألسنة القوم بل هي نتيجة
تجربته ومشاهدته .

تصرفه وأحواله

لم يكديشديو الخوارزمي في العلم ، ويشب في السن حتى هجر الوطن ، وفارق العطن
إجابة لنداء المهمة العالية التي حفزته إلى لقاء الملوك والاستفادة من جاههم فقد رأى
دولا تنافس في العلم وهو من أعلامه ، وتعطى على قدر الفهم وهو من أقوامه ، وتشيد
بذكر البيان وهو يحمل أبلغ أقلامه ، فحركت منه الآمال أخوذاً^(١) واسع مجال
المهمة ، فخرج من خوارزم ، وجعل تتراعى به كور العراق والشام حتى وصل إلى سيف
الدولة ، فالتصل به وخدمه حيناً ، فاستفاد منه ثم مضى على غلوائه في الاضطراب
والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، فورد بخارى ثم عاد منها إلى نيسابور ، فالتصل
بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي وأكثرت مدحه فاستفاد منه خيراً كثيراً ،
ثم قصد سجستان ، وتمكن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد ومدحه وحوى
صلاته ، ولكنه عاد فهاجمه فوقع في أسره وطال عنده سجنه حتى استشفع بأبي نصر
الميكالي ، وأرسل إليه قصيدة طويلة منها في مدحه :

وما كنت في تركك إلا كتارك
وقاطن أرض الشرك يطلب توبة
وذي علة يأتي عليلاً ليشتفي
وراوى كلام مقتفٍ إثر باقل
يقيناً وراضٍ بعهده بالتوهم
ويخرج من أرض الحطيم وزمزم
بها وهو جاز للمسيح بن مرهم
ويترك قساً خائباً وابن أهتم^(٢)

(١) الأخوذي : الحفيف الحاذق ، والمشر في الأمور لا يشذ عنه منها شيء .

(٢) يقال خرج في إثره (بالكسر) وأثره (بالتحريك) أى بعده . وابن أهتم هو عمرو بن الأهم =

جَنَابُ تَجَنَّبَنَاهُ لَيْسَ يُجَدِّبُ وَبِحَرْ تَخْطِينَاهُ لَيْسَ بِمَرْزَمٍ
ثم عاد إلى نيسابور ، وما زال بها حتى وفق التوفيق كله بقصده حضرة صاحب
ابن عباد بأصبهان فأنجحت^(١) سَفَرَتُهُ ، وربحت تجارته ، وبجاه صاحب اتصل
بابن العميد بشيراز فتم له الغنى ، وعاد إلى نيسابور بالغنيمة الباردة ، واقتنى فيها ضياعاً
وعقاراً ، ثم عاد إلى شيراز ، فكان من تناهى الإكرام من عضد الدولة أن أجرى له
رسماً يصل إليه كل عام بنيسابور مع المال الذى كان يحمل من فارس إلى خراسان ،
فعاش الخُوَارَزْمِيُّ بنِيسَابُورَ فى أحسن حال وأجل مكانة تجرى عليه الأرزاق من
مقتنياته ، ويشغل وقته بالعلم يدرسه ، والأدب يقيم سوقه ، والشعر يرويه ، والخبر يحكيه .
وقد جرت عليه شدة شديدة تجهمت له فيها الأيام كل تجمهم حتى دخل السجن
وبدئ باستصفاء ماله لتطاوله بالهجاء على بعض رجال الدولة هناك ، ولكنه تمكن من
الفرار ، وقصد حضرة صاحب بخرجان ، فأزاح عنه غمته واتفق أن ولي نيسابور
رجل من المتعصبين للخُوَارَزْمِيِّ المعجبين بأدبه ، فاطمان مقامه بالمدينة ، ورَفُتْهُ^(٢)
حاله وردت إليه أمواله ، وكان موضع التجارة والاحترام حتى منى بمساجلة بديع الزمان ،
فلاقى ما لم يكن فى حسبانته وأنف من تلك الحال ، وانخزل انخزالاً شديداً ، ولم يحل
عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ ، وعمره ستون سنة .

وفد مع الزبرقان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله رسول الله عن الزبرقان فقال : مطاع
فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : إنه ليعلم منى أكثر من
هذا ولكنه حسدنى فقال عمرو : أما والله إنه لزمى المروءة ، ضيق العطن ، أحق الولد ، لئيم
الحال . والله يارسول الله ما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الأخرى . ولكنى رجل رضى
فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله : إن من البيان لسحرا .
(١) أنجح كنجد .

(٢) رفة العيش (ككرم) : لان . ورفه الرجل (كنع) : لان عيشه .

بين الخوارزمي وبديع الزمان

كان الخوارزمي متصديراً للزعامة على الكتاب والأدباء ، فكان بنيسابور مرجع الفضل غير مدافع ، وربّ الفصاحة غير مزاحم ، تحط بفنائه رجال الطلاب ، ويسلم عليه بالزعامة الشعراء والكتاب ، ويجلس لإملاء الأخبار ، وهو بحرها الزاخر ، ولرواية الشعر عن الأوائل والأواخر ، واستمرّ على ذلك حتى غازل الستين ، فجمع إلى وقار السنّ ، جلال الفنّ ؛ وكان في غمار الأدباء بنيسابور قتي حدّث ، ولكن له مخايل ، ولخايله قوم يتعصبون ، ولأدبه يحتجون ، ذلك هو بديع الزمان الهمداني ، فأنبرى للخوارزمي يُعّاييه ^(١) ويهّاته ^(٢) ويصاوله ^(٣) ، ويُناضله ^(٤) ، وجرت بينهما في ذلك مراسلات ومكاتبات ومناقشات ومناظرات ، فاجتمع للبديع حدّثة السنّ ونشاط الشباب إلى أدب هو في الأدب لباب ، إلى معجبين يصفقون له كلما سجع ، ويهَيّون كلما رَجّع . واجتمع على الخوارزمي فتور السنّ ودهشة المفاجأة ، بهذه المناوأة ، فما لبث أن حمّ ومات على أثر حماه ، فكانت مصيبة موته فائدة للبديع الذي طار صيته بكلّ مكان ، وجرى اسمه على كلّ لسان .

وكان سبب هذه المهاترة : أن بديع الزمان ورد نيسابور رقيق الحال ، وطمع في معاونة أبي بكر وفي مثله يطمع إذ ذاك ، فقد كانت تدرّ عليه أخلاف الرزق ، ويهيناً بعيش رغد ، فطمع قرينه في الأدب أن يكون له منه عطف ، وفي لقائه لطف ، فلم ير إلاّ تجهماً ، فكتب يستعطفه ويعتذر عنه فيما جرى من لقائه ويذكره بأن صلة الأدب

(١) المعاية : أن تأتي بكلام لا يهتدى لوجهه (الإلغاز) .

(٢) المهاترة : أب يسب كل صاحبه بالباطل .

(٣) المصاولة : المواتبة .

(٤) المناضلة : المباراة في الرمي .

أقوى سبب ، وأعز نسب ، فلم يزد أبو بكر إلا تبحراً وتبرماً ، وجرت بينهما مراسلات ، ثم اجتمعا في دار أحد الإخوان ، وعرض عليه البديع المناظرة في الرواية ، وهو علمها الأشهر ، فلم يقبل الخوارزمي ، واختار إجازة الشعر ، واقترح إجازة قول المتنبي :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْزِقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ
ثم ابتدريجيز ، فقال :

وَإِذَا ابْتَدَهْتُ بَدِيهَةً يَا سَيِّدِي فَأَرَاكَ عِنْدَ بَدِيهَتِي تَتَقَلَّقُ
وَإِذَا قَرَضْتُ الشَّعْرَ فِي مِيدَانِهِ لَا شَكَّ أَنَّكَ يَا أَخِي تَتَشَقَّقُ
إِنِّي إِذَا قُلْتُ الْبَدِيهَةَ قُلْتُهَا عَجَلًا وَطَبْعُكَ غَيْرَ طَبْعِي يَرْفُقُ
مَالِي أَرَاكَ وَلَسْتَ مِثْلِي عِنْدَهَا مُتَمَوِّهَاً بِالْتَّرَهَاتِ تَمْحَرِّقُ (١)

فقال له البديع : أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة ، كل قاف كجبل قاف ، منها تتعلق وتتشقق وتمخرق .

ثم أجاز البديع فقال :

مِهْلًا أَبَا بَكْرٍ فَرَزْتُكَ أَضِيقُ فَأَخْرَسُ فَإِنْ أَخَاكَ حَتَّى يُرْزَقُ
دَعْنِي أُعْرِكَ إِذَا سَكَّتْ سَلَامَةٌ فَالْقَوْلُ يُنْجِدُ فِي ذَوِيكَ وَيُعْرِقُ
وَلِفَانِكَ فَتَكَاتُ سُوءٍ فَيَكُمُ فَدَعِ الشُّنُورَ وَرَاءَهَا لَا تُحْرِقُ
يَا أَحْمَقًا وَكَفَاكَ ذَلِكَ خِزْيَةٌ جَرَّبْتَ نَارَ مَعَرَّتِي هَلْ تَمْحَرِّقُ

فاعترضه أبو بكر ، فقال : « يا أحمقا لا يجوز فإن أحق لا ينصرف » ، فأجابه البديع : إن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف ، وله رأيه في القصر والحذف ، ثم انتهى بهما الحال إلى السباب ، فيقول الخوارزمي : أَنَا كَسَبْتُ بِهَذَا الْعَقْلَ دِيَّةَ أَهْلِ هَمْدَانَ

(١) التمويه : تلبس الأمر وإخفاء حقيقته . الترهات : جمع ترهة وهي الأبطولة . تمخرق : تأتى بالكذب

مع قلته ، فـإذا أفدّت أنت بعقلك مع غزارة ؟ فيردّ عليه الهمداني ، فيقول : إن هذا الذي تمدّح به وتنصّلف إنما أذاك من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، واجتذبت فافتنيت ، ثم اقترقا على صلح هو أشبه بالشقاق .

ثم عادا بعد ذلك إلى المناظرة فاقترح عليه البديعُ أصنافاً كثيرةً من الترسل كأن يكتب في المعنى الواحد نظاماً ونثراً ، ويفرّع^(١) منهما فراغاً واحداً . أو أن يكتب كتاباً يقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً يقرأ منه جوابه ، أو كتاباً إذا عكست سطوره كان جواباً . فقال الخوارزمي ، هذه شعبةٌ ، ولكن تكتب على طريقة الناس ، فاقترح عليهما مقترح أن يكتبا في النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وانقطاعها . فكتب أبو بكر :

الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل إلى جنات النعيم ، ويخلد في نار الجحيم . قال الله تبارك وتعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبناه أشدّ الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وننويه من الخير للبلاد وتعرّفنا في ذلك ما يُربح للناس ، في الزرع والضرع ، ويعود إليه أمرُ الضر والنفع .

أما البديع فقد كتب في هذا الموضوع كلاماً يقرأ من آخره إلى أوله ، وهو :
الله شاء أن المحاضر صدور بها وتملاً ، المنابر ظهور لها وتقرّع ، الدفاتر وجوه بها وتمشّق ، الحابر بطون لها تُرشّق آثارا كانت ، فيه آمالنا مقتضى على ، أياديه في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا ، المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع الدين أهل عن الكلّ هذا يحط أن في إليه نتضرّع ونحن ، واقفة والتجارات ، زائفة والنقود ، صيارفة أجمع الناس صار فقد ، كريماً نظرا لينظار . شبيهه مصابٌ وانتجعنا ، كرمه

(١) فرغ (كنصر وفتح) وقد قرئ بهما قوله تعالى - سنفرغ لكم أيها الثنلان - كما ذكر في الكامل .

بارقة وشممنا ، همه على آمالنا رقاب وعلقتنا ، أحوالنا وجوه له وكشفنا آمالنا وفود إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعمائه تأييده وأدام ، بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن^(١) .

فانكسر الخوارزمي وانهت المناظرة بين إعجاب بالبديع وزراية على الخوارزمي ، ولكن هذه المجالس يرويها البديع نفسه ، فلسنا نعرف نصيب الصدق فيها أو التحامل منه على صاحبه ، ولكن النتيجة ، وهي انهزام الخوارزمي قد تحققت .

نثره وشعره

إذا كان ملاك البلاغة كثرة المحفوظ وتتابع الرواية ، فلا غرو أن يشار إلى أبي بكر بالبنان في موضوع البيان لأنه كما تعلم كان في الرواية بجرأ لا يرد له غرّب ، ولا يقام له بسبيل .

لذلك ترى أن الجزالة بادية في قوله حتى ربما أدته إلى الإغراب ، وتجد ألفاظه حافلة بالمعاني لكثرة ما وعى من أقوال السابقين وترسم خطاهم ، واشتمل على معانيهم ، وكان يسير على نهج أهل عصره في الغرام بالسجع ولكنه لم يكن يلح فيه إلحاح صاحب بن عباد ، ولم يتركه للطبع كما فعل الهمداني .

كذلك كان في الشعر ذا قدم فارعة ، فقد مدح ورثى وتغزل وهجا ولا غرابة في جمعه بين النثر والنظم ، فقد كان هذا شأن أغلب النابغين من أهل زمانه .

(١) لقد صدق الخوارزمي في قوله إن أعمال البديع من هذا النوع إنما هي شعبة فان هذا الكتاب الذي أوهم البديع به الناس أنه يأتي بالحوارق هو إذا تدبرت من أيسر الأمور . وجرب ذلك أنت واكتب كلاماً تبدأ به من آخر الصفحة حتى تنتهي إلى أولها فانه يأتي في ظاهره كأنك كتبت معكوساً . وهذا أهون شيء لولا أن البديع يظهره بهذه الشعوذة كأنه من المحال أناه هو دون سائر الناس .

وإذا قيس بالبديع خرج البديع برقة اللفظ ، واتقياد الطبع ، وحسن مقاطع السجع ، وقصر فقراته ، وعدم التزامه ، ولا شك أن البديع في كل أموره خير منه لوفور ذكائه ، وسلامة طبعه .

وقد أخذ على الخوارزمي أنه قد يفوته التجانس في قوله ، فلا يجمع بين الكلمة وأختها ، ولا يضمها إلى صاحبها ، بل قد يأتي بالفقرة نافرة قلقة ، وقد عدوا عليه من ذلك قوله من رسالة في الشكر : وجدير بمن هطلت عليه سحائب عنايتك ، ورفرفت حوله أجنحة رعايتك قالوا إن التناسب غير واقع بين هطلان السحاب ورفرفة الأجنحة ، وقوله من رسالة : وشرح قلبك وأعلى كعبك . فإن إضافة الشرح إلى القلب ليس لها تلك الروعة في إضافته إلى الصدر في قوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » .

كما عابوا عليه قوله في صاحب بن عباد وقد مرض :
نحوالى نفس المجد ساعة أخبروا بما يشتكى من سقمه ويمارس
فإن لفظة النعى فيها ما فيها من الطيرة ، إذ هي مما يقع في المرائى لا العيادات . وكذلك عابوا قوله يمدح الأمير شمس المعالى ، ويذم الأيام التي لم تجعل الأمير ذا سلطان يحكم بلاداً كغيره :

إلى كم يحلُ المرء مثلك بِلَدَةٍ بها مِنبَرٌ فيها لغيرك خاطبُ
لقد هأن من أمسى ببِلَدَةٍ غيره وقد ذل من بآلت عليه الثعالب^(١)

(١) كان غاوى بن عبد العزى سادنا لصنم بنى سليم . إذ أقبل ثعلبان فتسناه فبالا عليه فقال :
أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بآلت عليه الثعالب
وقد استشهد الجوهري بالبيت على أن لفظ ثعلبان مفرد بضم التاء وخطأه صاحب القاموس .
ولحق غاوى برسول الله فأسلم فقال له النبي ما اسمك فقال غاوى بن عبد العزى فقال له أنت راشد
ابن عبد ربه .

فإن فيه سوء أدب ، وهو بالتقريع أشبه منه بالتقريظ .

ولا ينبغي أن يفضَّ عدَّ هذه المآخذ من فضل الرجل ، فلقد قالوا قديماً :
* كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه * وهذه المآخذ ليست إلى جانب إحسانه وارتقائه
في سماء البلاغة شيئاً مذكوراً ، وأما رجل يتعقب الناس كلامه كما تعقبوا كلام
الخوارزمي لا بدَّ يجدون فيه كثيراً من مثل هذا ، وما أكثر ما عدوا على أبي تمام
والبحتري والمتنبي حتى لقد ألقت الكتب ونصيب كبير فيها لمساوئهم ، ولكن ذلك لم
يفقدهم الزعامة التي عرفت لهم بين الشعراء .

ولأبي بكر مجموعة رسائل مطبوعة متداولة في مصر ، وقد ذكر الثعالبي أن له
ديوان شعر كرسائله ، ولكننا لم نعر عليه ، وأنت واجد منه نصيباً كبيراً في
يَتِيْمَةُ الدهر للثعالبي ، ويقال : إن للخوارزمي مقامات ، ولكنها لم تشتهر لأن مقامات
البديع أختلتها .

مختار قوله

قال يمدح الفقر : . . . وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحب الغناء^(١)
لما فيه من الصوان^(٢) ، فإذا نبغ^(٣) الغم من تربة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر
هو العسر ، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغنى وأقل منه أشغالا ، لأن
الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق فلا يستبطئه إخوانه ،
ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته^(٤) ، ولا في

(١) الغناء : الاستغناء .

(٢) الصوان : هكذا في الأصل ، والصواب الصيان .

(٣) نبغ (كنصر وقطع وضرب) : نبغ وظهر .

(٤) الأضحية : ذبيحة العيد وجعلها أضاح . ومثلها أضحية والجمع أضحي ، وسمى العيد عيد الأضحي لأنه
تذبح فيه هذه الأضاحي . وسبب تسمية الذبيحة بذلك أنها تذبح في وقت الضحى .

شهر رمضان مائدتته ، ولا فى الربيع با كورته ، ولا فى الخريف فاكهته ، ولا فى وقت
الغلة شعيره وبُزّه ، ولا فى وقت الجباية خراجه ومُشره . لا ، إنما هو مسجد يحمل
إليه ، ولا يحمل عنه ، تتجنبه الشرط نهاراً ، ويتوقاه العسس ليلاً ، فهو إمامانم وإماسلم .
وأما الغنى فإنما هو كالغنى غنيمية لكل يد سالبة ، وصيد لكل نفس طالبة ،
وطبق على شوارع النوايب ، وعلم منصوب فى مدرجة^(١) المطالب ، يطمع فيه الإخوان ،
ويأخذ منه السلطان ، وينتظر فيه الحدثن ، ويخيف ملكه نقصان .

وله فى ذكر نهдам منزل : بلغنى ذكر الهدّة ، فالحمد لله الذى هدم الدار ولم يهدم
المقدار ، وثلم المال ، ولم يثلم الجلال ، وسلط الحوادث على الخشب والنشب^(٢) ، ولم
يسلطها على العرض والحسب^(٣) . ولا على الدين والأدب ، ولا بدّ للنعمة من عوذة^(٤)
ولا بدّ لعين الكمال من رقية ، ولأن يكون فى دار تبنى ومال يجبر خير من أن يكون
فى النفس التى لا جابر لكسرها ، ولا نهاية لقدرها .

وكتب فى وصف رمد أصابه : صادف ورود الكتاب رمداً فى عيني حصرنى فى
الظلمة ، وحبسنى فى الغم والعمة^(٥) ، وتركنى أدرك بيدى ما كنت أدرك بعينى ، كليل
سلاح البصر ، قصير خطو النظر ، قد ثكلت مصباح وجهى ، وعدمت بعضى الذى هو
آثر عندى من كلى ، فالأبيض عندى أسود ، والقريب منى مبعد ، قد خاط الوجع
أجفانى ، وقبض عن التصرف بنانى ، ففراغى شغل ، ونهارى ليل ، وطوال الحاظى

(١) المدرجة : المسلك .

(٢) النشب : المال والعقار .

(٣) الحب : ما يعمده الرجل من مفاخر آباءه .

(٤) العوذة : الرقية .

(٥) الغم : الهم . والفمة : كل أمر ملتبس .

قصار ، وأنا ضريرو وإن عددت في البصراء ، وأمى وإن كنت في جملة الكتاب والقراء . قَصَّرت^(١) العلة خطوتي قلمي وبناني وقامت بين يدي ولساني .

وكتب إلى بعض تلاميذه وقد أخبره في كتاب أنه مريض :

وصلني كتابك فسررتني نظري إليه ، ثم غنى اطلاعي عليه ، لما تضمنه من ذكر علتك ، وأنبا عنه من سوء حالتك . جعل الله أول العلة كفارة كافية ، وآخرها شفاء وعافية ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شكراً . وبودى لو قرب على متناول عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك ، فلقد خصني من هذه العلة قسم كقسمك ، حتى مرض قلبي لمرض جسمك ، وأظن أني لو لقيتكم عليلًا لانصرفت عنك ، وأنا أعلّ جسمًا وأشغل منك قلبًا ، فإني بحمد الله جلد على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبو سهم الدهر إذا رماني ، وينفذ في إذا رمى إخواني . فأقرب سهامه مني ، أبعد سهامه عنى . كما أن أبعداها عنى أقربها منى . شفاك الله وعافاك ، وكفاني فيك الحذور وكفاك ، ورفع جنبك^(٢) ، وغفر ذنبك ، وآمن سرّ بك .

وكتب إلى تلميذه له معاتبًا : إن كنت أعزك الله لا ترانا موضعًا للزيارة ، فنحن في موضع الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك استوفيت حقنا عليك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه ، واستغناؤه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعيّة على باب الأمير المعزول فتتجمل له ، ولا تعيره عزله . ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك لكان ذلك فعلاً صائبًا ، وفي القياس واجبًا .

وقد أكثر من شعره . إكثاره من نثره ، وتناول فيه كل المعاني فما قصر في واحد منها .

قال في وصف جميل يزداد حسناً على الأيام وشأنها تغيير الصور وتبحيح المحاسن :

(١) قصره (كضرب) : جعله قصيرا .

(٢) أى أقامك من مرضك حتى يرتفع جنبك عن الفراش .

وشمسٍ ما بدتْ إلا أرْتْنَا بأن الشمسَ مَطْلَعُهَا فُضُول
تَزِيدُ عَلَى السَّيْنِ ضِيَاءً وَحُسْنًا كَمَا زُفَّتْ عَلَى الْعَتَقِ الشَّمُولُ^(١)
وقال في خضراء الدمن :

قلت للعين حين شامتْ جَمَالًا في وجوه كواذب الإيماض^(٢)
لا تَغُرَّنْكِ هَذِهِ الْأَوْجُهُ الْغُرُ رُ فَيَارُبَّ حَيَّةٍ فِي رِيَاضِ
وقال يمدح بالشجاعة :

ويشربُ لِسْكَنٍ فِي إِنْاءٍ مِنَ التَّرَى رَحِيمًا خَوَابِيهَا الطَّلَا وَالْمَنَاكِبُ^(٣)
وَيَسْمَعُ لِسْكَنَ الْغِنَاءِ مَدَائِحُ وَيَكْنِزُ لِسْكَنَ الْكُنُوزِ مَنَاقِبُ
لَوْ أَنَّ حَبِيبًا كَانَ لَأَقَاهُ لَمْ يَقُلْ وَأَكْثَرَ أَمَالِ الْنفُوسِ الْكُوَاذِبُ
وقال من عَصْدِيَّة :

غَرِيبٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَجَدَانُ مِثْلِهِ وَأَغْرَبُ مِنْهُ بَعْدَ رُؤْيَيْتِهِ الْفَقْرُ
فَلَا حُرَّ إِلَّا وَهُوَ عَبْدٌ لَجُودِهِ وَلَا عَبْدَ إِلَّا وَهُوَ فِي عَدْلِهِ حُرُّ
تَحَبَّبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا لِأَنَّ جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ
وقال يرثي ابن العميد :

رَجُلٌ لَوْ أَنَّ الْكُفْرَ يَحْسُنُ بَعْدَهُ هُجِيَ الْقَضَاءُ وَأُنِّبَ الْمَقْدُورُ
أَشْكُو إِلَيْكَ النَّفْسَ وَهِيَ كَثِيبَةٌ وَأَذُمُّ فِيكَ الدَّمْعَ وَهُوَ غَزِيرُ
وَأَقُولُ لِلْعَيْنِ الْغَزِيرِ بَكَوْهَا خَطْبُ لَعْمَرِي لَوْ عَمِمْتُ يَسِيرُ

(١) العتق للخمر: القدم . الشمول : الحمر أو الباردة منها ، سميت كذلك لأنها تشمل بريحتها الناس أو لأن لها عصفة كعصفة ريح الشمال .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يقصد ؟ . الإيماض : اللعان الخفيف من البرق .

(٣) الرحيق ، الحمر أو أطيبها أو أفضلها . الخوابي : جمع خاية (وعاء الحمر) . الطلا : جمع طلية (بالضم) وهي العتق . أما الطلاء (بالكسر والمد) فهي الحمر ، أو مطبخ من العنب حتى ذهب ثلثاه

قَدْ مِتُّ بِعَدْلِكَ مَيِّتَةً مُسْتَوْرَةً قَدْ سَاقَهَا لِي مَوْتُكَ الْمَشْهُورُ^(١)
 وَدُفِنْتُ فِي قَبْرِ الْمَمُومِ وَضَمَّنِي كَفَنَانِ ضَيْقِ الصَّدْرِ وَالتَّفَكُّيرِ
 ضَحِكْتَ إِلَيْكَ الْجُودُ ضَحِكَكَ كَمَا وَافَاكَ ضَيْفٌ أَوْ أَتَاكَ قَفِيرُ^(٢)
 وَسَقَى ضَرِيحَكَ مُسْتَهْلٌ عُمْرُهُ شَهْرُهُ وَعُمْرُ النَّبْتِ مِنْهُ شُهُورُ
 جُودٌ كَكَفِّكَ أَوْ كَعَيْنِي أَوْ دَمٍ أَجْرَاهُ سَيْفُكَ فِي الْعِدَا الْمَشْهُورُ
 وشعره كثير تناول فيه جميع الأغراض ولكننا تقنع بما رَوَيْنَا .

بديع الزمان الهمذاني

هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر المكنى بأبي الفضل ، الملقب ببديع
 الزمان ، وهو عربيّ صميم من تغلب ثم من مضر .

نشأته وتصرّفه

نشأ بهمدان من بلاد فارس ، وهي بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء ، نزهة الرياض ،
 معشبة الريف ، فلما عقل عنى أبوه بتعليمه ، فألزمه أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا
 العالم اللغويّ الشهير ، صاحب كتاب [الجمل في اللغة] فتلقى عنه ، ولقرط ذكرائه
 اشترف علوم أستاذه ووعاها في أقرب مدّة ، وكذلك تلقى عن عيسى بن هشام
 الأخبار . ولبث بهمدان إلى سنة ٣٨٠ هـ ، وعمره إذ ذاك سبع وعشرون سنة ، لأن
 ولادته كانت عام ٣٥٣ هـ .

(١) مات يموت ويمات ويميت .

(٢) الجود : جمع جائد وهو المطر الغزير .

ثم خرج يضرب في الأرض وينتجع الملوك ، وينزل بساحات الأجواد ، والزمن كما علمت زمن اعتزاز بالأدب وحيطة لأهله . تتنافس الدول القائمة في تقريب العلماء ، وإكرام وفادة الكتاب والشعراء ، فكثير من هؤلاء الرحلة بين شرق وغرب ، فهذه شيراز ، وأرجان ، وسجستان ، وأصبهان ، ونيسابور ، وبخارى ، وحلب ، ومصر وغيرها عواصم يقيم فيها ملوك لا يدخرون وسعاً ، ولا يرضون ببذل في سبيل العلم ، يبتغون بذلك إرضاء شعوبهم بخدمة الدين وعلومه ، كما يلتمسون بذلك تسجيل مفاخرهم ، فبعد أن كانت بغداد هي المثابة لكل نايع يريد أن يثرى من وراء علمه وفضله ، صار في كل مصر من هذه الأمصار بغداد ثانية يقام فيها للعلم والأدب أكبر وزن . لذلك رأينا كل أديب بارع أو عالم فاضل قد انتجع كل هذه الأمصار ، وإن هو لم ينشط للرحلة أغرى بالمال ، ووعد العطاء الجزل . فهذا المتنبي يصحب سيف الدولة بن حمدان بحجاب حيناً ، ثم تزين له أطماعه الذهب لامعاً في يد كافور الإخشيدي بمصر فيقصده ثم يعول على زيارة عضد الدولة بشيراز ، ويعرج على ابن العميد بأصبهان ، ويطرف عن قصد صاحب بن عباد بعد أن استزاره ، وضمن له المشاطرة في ماله ، وعلى نهج المتنبي سار كل من نبغ من شاعر أو كاتب ، وقد رأيت ما كان من أبي بكر الخوارزمي .

فتلك سنة هذا العصر قد اتبعها بديع الزمان ، فإنه زایل همدان شاباً في السابعة والعشرين من عمره كما قلنا ، فقصده حضرة صاحب بن عباد فتزود منه مالاً وفضلاً ، ثم قصد جرجان فاستفاد من مداخلة الاسماعيلية (فرقة من الشيعة) ، وعاش في أكنافهم ، واختص منهم بأبي سعيد محمد بن منصور ، وكان مشهوراً بالفضل مغداً على الفضلاء . ثم صحت عزيمته على قصد نيسابور وفيها الأمير أبو الفضل الميكالي فدخلها سنة ٣٨٢ هـ ، فنشر للناس برّه ، وأظهر طرزه^(١) وأملى أربعمائة مقامة لم يصل إلينا منها إلا أربعون ، (وسنفرد لها عنواناً في هذه الترجمة) ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمي ما فصلنا خبره

(١) من معاني البز الثياب . والمراد هنا بضاعته من الأدب . الطرز (بالكسر) : الهيئة ويقال هذا طرز هذا : أي شكله .

من مراسلات ومناظرات ومهاترات في مجالس حضرها العلماء والأدباء ، فانتصر البديع ،
واندحر الخوارزمي ، وحسم من الحزن ، فلم تنته سنة ٣٨٣ هـ حتى مات ، وخلا الجو
للبيديع ، وطار صيته كل مطار ، وارتفع قدره عند الملوك والأمراء ، فاستأنف رحلاته
بعده هذه الشهرة الدائعة ، ولم تبقى بلدة من بلاد خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها وجنى
من ثمراتها ، وجبى من مبراتها . ثم ألقى عصا التسيار بهرة ، (وهي مدينة عظيمة في
ولاية واسعة على أطراف خراسان مما يلي بلاد الهند) ، فاتخذها قراره ، ثم مازال
يتعرف الناس ، ويتوسم الأشراف ليختار منهم رجلاً يباهره حتى وقفه الله كل
التوفيق في مصاهرة أبي علي بن الحسين الخشتمى ، وهو من أعيان هراة وعلمائها .
فصفت للبيديع الدنيا ، واتسقت الأحوال ، واقتنى بمعونة صهره ومشورته الضياع المغلة ،
ولكن المنية لم تمهله حتى يجنى ثمار كدّه ، ويستريح من عناء رحله ، بل عاجلته ، فحبا
ضوءه أزهر ما كان وفارق الدنيا أحب ما كانت إليه وأثلج ما كان صدرها بها .

مات رحمه الله يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٩٨ هـ ، وقيل
مات مسموماً بما دسّه له أعداء فضله وحساد جاهه ، وقيل بالسكتة ، وعجل دفنه ،
فأفاق في القبر ، ثم سمع صوته بالليل . ففتح عليه القبر ، فوجد وقد تغيرت ضجعته ،
وقبض على لحيته ومات من هول القبر كما قالوا ، أو من فساد الهواء على ما نرجح .

نبوغ بديع الزمان

ذاعت للبيديع في أيامه شهرة دوى خبرها بكل مكان ، فكان لا يدخل بلدة حتى
يكون فضله قد سبقه إليها فيحل بها مكرماً وينزل على ملوكها ضيفاً ثم يخرج بالحقائب
البجور من الهدايا والألطف (١) . وقد أجمع نقدة الأدب على الثناء عليه ، وبالغوا في

(١) الألطف : جمع لطف أو لطفة (بالتحريك فيهما) وهي الهدية .

إطرائه حتى يقول الثعالبي في يتيمة الدهر : « هو مفخرة همدان ، ونادرة الفلك ، وبرك عطارد^(١) ، وفرد الدهر ، وغرة العصر » ، ويقول عنه أبو إسحق الحصري في زهر الآداب : « بديع الزمان اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه كلامه غض المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً » ، ولم نر أحداً قد أخذ عليه بادرة أو عدله هفوة على كثرة ما راج النقد في أيامه ، وجعله الحساد مظهرًا للنقمة على ذوى الفضل كما فعل الصاحب ابن عباد حين غاظه كبر المتنبي عليه ، فلم يسلم له بيت واحد من تقده .

فأما أسباب هذا الإجماع على فضل بديع الزمان فهي ما يأتي :

١ — كانت له ملكة سليمة ، وسليقة عربية ورتها من تحدره في الأصلاب العربية التي نمته إلى أفصح القبائل ، فهو كما ذكرنا من تغلب ، ثم من مضر معدن الفصاحة ، وبيئة العروبة الصحيحة ، وليس ينكر أثر الوراثة في المرء ، فبديع الزمان قد نشأ في بيئة فارسية فكان يعرف الفارسية ، ولعلها كانت لغة خطابه ، ثم حاول العربية بالدراسة وتلقاها عن المعلمين ، ولكن الملكة دفيناً في المرء يكشفه الصقال وتجاوله المحاولة ، لذلك رأينا له طبعاً لا يتخلف ومادة لا تُنَزَفُ ، وسلاسة تدلُّ عليه ، ويسراً لا عسر معه ، وسهولة تغري المعارض بالإمكان فيرى المستحيل في إمكانه .

٢ — كذلك كان له إلى جانب هذا الطبع السليم ذكاء وقاد ، وعقل راجح فتت جميع قواه من حافظة وذاكرة ومتخيلة ومفكرة ، فلم تقو إحداها بضعف الأخريات ، ولكنها كلها كانت بمثابة من التناسب ومقدار من التسامى لا يتم إلا للعقول الجبارة كما يقولون .

(١) عطارد : نجم من الخنس ، وهي النجوم الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد وخنوسها أنها تغيب . وهو عند اليونان معتبر إله البلاغة . يقال للبليغ هو بكر عطارد : أي أنه أول من أنجب هذا الإله في البلغاء ، وفي لسان العرب قال الأزهري : عطارد كوكب الكتاب .

فأما حفظه فقد كان عجباً من العجب كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وكان ينظر في الأربعة أو الخمسة من أوراق كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة خفيفة ثم يَهْدُّ بها عن ظهر قلبه هَذَا ، ولذلك استحق أن يلقب « بالحافظ » .

وبلغ من تمام عقله ، وشدة ذكائه ، وسرعة بديهته أن كان يقترح عليه عمل القصيدة ، أو إنشاء الرسالة في معنى بديع فيفرغ منها في الوقت والساعة ، وقد يعطى القوافي الكثيرة ، فيأتي بها في أبيات رشيقة ، وقد تلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها في الحال إلى أبيات عربية ، وربما كان المعنى غامضاً متعاصياً ، وربما كان يكتب الكتاب المقترح عليه ، فيبدأ بآخره حتى ينتهي إلى أوله ، فيخرج كأحسن ما يكتب الكاتبون لا أثر فيه للتعمل ولا دليل فيه على التكلف ، وقد سمى الخوارزمي ذلك شعبذة (كما مرَّ بك في حديث مناظر اتها) ، وما الشعبذة إلا أخذ كالسحر لا يدري مأناه .

ولو لم يكن في كل هذه المزايا إلا سرعة الخاطر التي جعلت كلامه كله عفو الساعة . ومساوقة^(١) القلم ، ومساابقة اليد ، لكان له به الفضل الذي لا يجحده جاحد . وإن رجلاً يكون من آثار إنشائه أربعمائة مقامة ، وتلك الرسائل الكثيرة التي هي وحدها كتاب ضخم ، وديوان من الشعر متنوع الفنون ، إن رجلاً يكون له كل هذه الآثار ثم يسلم من قد ولا يوقف له على عيب ، فهو الرجل العبقري الذي تضن بمثله الأجيال ، فهو كما قال الثعالبي : « بكر عطار ، وفرد الدهر » .

(١) ساوقة : باراه في السوق . وقد وردت هذه الكلمة في جميع تراجم بديع الزمان « مساوقة القلم » بالراء وهي لا معنى لها فصححناها بما ترى .

مقاماته

قد علمت أن اثنين قبل بديع الزمان تقدما بعمل المقامات ، فأما أحدهما فهو أبو بكر بن دريد اللغوى المشهور صاحب كتاب : [جمهرة لغة العرب] المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وأما ثانيهما فهو أستاذ البديع ، وهو أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، صاحب الجمل في اللغة . ولم تصل إلينا مقامات هذين الأديبين حتى نستطيع أن نقيس بهما مقامات البديع ، ونعرف إلى أى حد استفاد منهما في نهجه أو عبارته ، على أن مقامات ابن دريد قد وصفت لنا ، فكانت بالقياس إلى مقامات البديع خشنة محشوة بالغريب ظاهرة التكلف تنبو عنها الطباع ولا تفتح لها حجب الأسماع ، ولعل مقامات ابن فارس لا تختلف عن مقامات ابن دريد ، فهو لغوى مثله ولم يعرف عنه ترسل كما عرف عن منشئ زمانه .

أما مقامات البديع فقد جاءت سهلة العبارة رشيقة الأسلوب محلاة بالزينة اللفظية البارة من جناس وسجع ، وكل ذلك ثوب لمعان خلاصة وحيل ظريفة كلها في السكدية يملؤها بالنكات التي تضحك الشكلى ، والفوائد العالمية النادرة .

وقد جعلها مساجلة ومناقلة بين رجلين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى . أما عيسى بن هشام فهو أستاذه الذى تعلم عنه الأخبار ، وكان راوية لها حتى سمي الأخبارى ، فاستعار البديع اسم أستاذه فجعله راوية مقاماته^(١) ، وأما أبو الفتح الإسكندرى الذى جرت على يده حوادث المقامات ، فهو رجل من أهل اسكندرية مصر اشتهر بالسكدية يتكسب بها ، ويستدرّ عطاء الناس بما يجرى على لسانه من لفظ وما يظرفهم به من حادث فتحله البديع وقائع مقاماته .

(١) لم يذكر ذلك أحد قبلنا من شراح المقامات ولكننا هدينا إليه من مراجعة أسماء أساتذته فعرّفنا من بينهم عيسى بن هشام الأخبارى .

أسلوب بديع الزمان

يتجلى في مقاماته ورسائله وشعره ، ذلك الطبع المطاوع والسليقة المواتية ، فلم يكن يكره لفظاً أبيئاً ، ولا يتكلف أسلوباً متعاضلاً ، بل كانت ألفاظه سهلة وأساليبه سلسلة . أما المحسن البديعي من جناس وسجع وغيرها ، فقد كان يستعمل منه ما هدى إليه الطبع ، وجاء به عفواً خاطر ، فهو يسجع ولكنه لا يكره قافية على محلها ، ولا يأتي بها قلقلة في مكانها ، ولذلك تخلوله قعر من السجع ، ويكتفى فيها بالمزاوجة فلا يرى أثر التكلف في قوله ، وكذلك أنواع البديع الأخرى ينفق منها بقدر^(١) ، ثم هو لا يستعمل منها إلا المحسن اللفظي الذي لا يعضّل ولا يعتاص معه معنى ، وبهذه المزايا استحققت كتابته الإعجاب وخلت من العيب .

وقد تناول في رسائله وشعره كل أغراض القول في أيامه ، فاشتاق واستخبر ، وعتب واعتذر ، واستماح واستهدى ، ووصف وهجا ، وتهكم ونقد ، إلى غير هذا مما تراه موزعاً في ديوانه ورسائله ومقاماته .

والبديهة تغلب على قوله وتراها متمثلة في شعره ، ففيه ما اقترحت عليه قافيته ووزنه ، وفيه ما ترجمه من شعر فارسي للوقت والساعة ، ومنه ما طلب إليه الإجابة به عن رسالة وردت لحينها ، ومنه ما كان ردّاً اتجية ، أو جواباً عن سؤال في معنى شعر فيفسره بمثله إلى غير ذلك مما نأتى بأمثلة منه في مختار قوله .

(١) القدر (بالفتح والسكون) المقدار ومبلغ الشيء .

مختار قوله من رسائله

أول ما كاتب به أبا بكر الخوارزمي قوله : (وقد اتبع فيه طريقة التضمين التي كانت إحدى وسائل التحسين في ذلك العصر) .
أنا لقرب الأستاذ ، كما طرب النشوان مالت به الحجر ، ومن الارتياح لقائه ، كما انتفض العصفور بلبلة القطر . ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء ^(١) والبارد العذب . ومن الابتهاج بمزاره كما اهتزت تحت البارح ^(٢) الفصن الرطب ، فكيف ارتياح الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبة العراق وخراسان ، بل عتبتني نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في برودة جمال ، وجلدة جمال .

رث الشمال منهب الأتواب بكرت عليه مغيرة الأعراب ^(٣)
كمهلل وربيعة بن مكدم وعيينة بن الحارث بن شهاب
وهو ولي إنعامه ، بإفاد غلامه ، إلى مستقرى لأفضى إليه بما عندي إن شاء الله تعالى وحده .

وكتب جواباً عن تهنيئته بمرض أبي بكر الخوارزمي :
الحراً أطل الله بقاءك ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفتي .
إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهي أمانى ، فإن وجدت فهي عواري .
وأن محن الزمان وإن طالست فستنفد ، وإن لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها في نفسه ، ولا يعدها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت . وإن

(١) الصهباء : الحجر المعصورة من عنب أبيض ، وذلك اسم لها كالعلم .

(٢) البارح : الريح الحارة في الصيف ، والمراد هنا مطلق الريح .

(٣) الشمال ، جمع شمال وهو شيء كالخلاة يغلى به ضرع الشاة . والمراد أتوابه نهج اللاس الثوب : أخلفه كنهجه .

لم يمت فسيموت . وما أقبح الشامة ! بمن أمن الإمامة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ؛ وعقب كل لفتة ، والدهر غرثان طُعْمه^(١) الأخيار ، وظمان شربه الأحرار ، فهل يَشَهَتْ المرء بأنياب آكله ، أم يسرّ العاقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا فقد باطنناه ودّا جميلا والحرّ عند الحمية لا يضطاد ، ولكنه عنه الكرم ينقاد^(٢) ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصوّر حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته والتحرّز لمَرْضته . وقاه الله المكروه ؛ ووقاني سماع السوء فيه .

وكتب إلى مستميج عاوده مراراً ، وقال له : (لم لا تُدِيم الجود بالذهب ، كما تديمه بالأدب) . قال :

عافاك الله . مثل الإنسان في الإحسان ، كمثل الأشجار في الثمار . سبيله إذا أتى بالחסنة ، أن يُرَفِّه إلى السّنة ، وأنا كما ذكرت لأملك عضوين من جسدي وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعّاق بالوفود ، وأما اليد فتتوّلع بالجود ، لكن هذا الخلق النفيس ، ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الذهب والأدب ، فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثَرْدُه في قَصْعة ، ولا صَرْفُه في ثمن سلعة ، ولّى من الأدب نادرة : جَهْدَتْ في هذه الأيام بالطباخ ، أن يطبخ لي من جِيَمِيَّة الشّامخ^(٣) ، لوناً فلم يفعل ، وبالقصّاب أن يسمع أدب الكتّاب ، فلم يقبل . وأنشدت في الحمام ، ديوان أبي تمام ، فلم ينفذ ، ودفعنت

(١) الطعم ، الطعام .

(٢) الحمية : الغضب . والمنى أنالا أطاوع على الشدة ولكني أقنّاد باللين .

(٣) الشماخ هو ابن ضرار شاعر مخضرم من أوصاف العرب للحميد والقوس وأرجزم على البديهة ومن جيمته قوله .

دعوت إلى ماناني فأجابني كريم من الفتيان غير مزج
فتي يملأ الشيزي ويروي سنانه ويضرب في رأس الكمي المدجج
فتي ليس بالراخي بأدنى معيشة ولا في بيوت الحى بالتولج

إلى الحَجَّام ، مُقَطَّعات اللحام^(١) ، فلم يأخذ ، واحتيج في البيت ، إلى شيء من الزيت ، فأشدت من شعر الكُمَيْت ، ألفاً ومائتي بيت ، فلم تغن ، ولو وقَّعت أرجوزة العَجَّاج ، في توابل السُّكْبَاج ، ما عَدِمَتْها عندي ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ، فإن كنت تحسب اختلافك إليّ ، إفضالاً عليّ . فراحتي ، في ألا تَطْرُق ساحتى ، وفرَجى ؛ في ألا تهجى ، والسلام .

وكتب يعاتب أبا الفضل الميكالى ويستديم ودّه :

لَنْ ساءنى أَنْ نِلْتَنِى بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّيْ أُنَى خَطَرْتُ بِبَالِكَ

الأمير (أطال الله بقاءه) في حالى بره وجفائه متفضل ، وفي يومى إدانائه وإبعاده مُتَطَوِّل . وهنيئاً له من حمانا ما يَحُلُّه ، ومن عُرانا ما يَحُلُّه ، ومن أعراضنا ما يستَحِلُّه . بلغنى أنه أدام الله عزّه استزاد صنيعه ، فكنت أظننى مَحْنِيّاً عليه ، مُساء إليه ، فإذا أنا في قرارة الذنب ؛ ومثارة العُتْب^(٢) ، وليت شعرى أى محذور في العشرة حضرته ، أو مفروض في الخدمة رفضته ، أو واجب في الزيارة أهملته . وهل كنت إلا ضيفاً أهده منزع شاسع ، وأدّاه أمل واسع . وحدهاء فضل وإن قلّ . وهدهاء رأى وإن ضلّ ، ثم لم يُلْقَ إلا في آل ميكال رَحْلَه ، ولم يصل إلا بهم حبله ؛ ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره ، ثم ما بعدت صحبة إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعفت منة إلا تراجعت منزلة ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابلُ الإِعْظام قطره وعاد قيص القيّام صُدْره^(٣) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة ، فصار ذلك التقريب أزوراراً ، وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماء ،

(١) أبو اللحام : شاعر ولعله هو المراد .

(٢) المعنى أنه لما انقطع لإحسان الأمير حملت ذلك على تنجيه على وظلمه لى بقطعه المبرة من غير سبب ولكنى علمت أن هذا منه لما يراه من وقوعى في الخطأ ونسبى إلى الذنب . والواقع أنى لا أعلم ذنباً جنيته .

(٣) الصدر ما يلبس على الصدر « صدىرى » . والمعنى عاد الطويل قصيرا .

والعبارة إشارة ، وحين عاتبته أمل إعتابه ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، فما ازددت إلالة ولاء ، وعليه ثناء ، لاجرم أنى اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة الودّ ، طويل لسان القول ، رفيع محكم العذر ، وقد حملت فلاناً من الرسالة ماتجافى القلم عنه ، والأمير الرئيس أطال الله بقاءه ينعم بالإصغاء لما يورده موقفاً إن شاء الله عزّ وجلّ :

وكتب إلى الشيخ أبي الطيب يعزّيه :

تالله ما يضرب الكلب ، كما يضرب هذا القلب ، ولا يقطر الشمع ، كما يقطر هذا الدمع ، والنار أرقق بالزّناد ، من هذه المصيبة بالأكباد ، وما للسّم سلطان هذا الغم ، ولا للخمر ، طغيان هذا الأمر ، ونفسى إلى القبر ، أعجل منها إلى الصبر . وأذناى بالموت ، آنس منهما بهذا الصوت ، أو لم يكفنا الجرح حتى ذرّ عليه الملح ، ألم أكن من أبى القاسم مُثَقِّلَ الظهر فما هذه العِلاوة على الحِمْل ، ولم هذه الزيادة على الثَّقَل .

من هراة وأنايين القول والعمل : أعمل فى السّقا^(١) ، وأقول وأأسفأ . والحمد لله الذى كدّر وصقّى . وصلواته على نبيه المصطفى ، وآله المجتبى ، ولولا أن يتطير الشيخ من مقدّمى فيقول لا يأتينى إلا عند مصيبة لسقيتُ تربة هذا النجم الآفل من دموى ، وقدّمت أجداثه بزلوى^(٢) . ولكنه ألقى فى روعى أن خدمتى هذه طيرة ، وأن تأخرى عنها خيرة ، فكلمنا استخفى إليه الجزع ، أقعدنى عنه الفزع . ولو كان أحد من البرية فوق أن يذكر بالله لكانه الشيخ أدام الله عزّه . لما أوتى من تمام النفس وكال الفضل ، والمعركة بأحوال الدهر ، والعرض على ناجذ الحلم^(٣) ، ولكن لفقد الكريم

(١) السقاء (كساء) : الدواء . والمراد أنه مريض يعالج نفسه .

(٢) أى جعلت ضلوى أجداثا له .

(٣) الناجذ : الضرس مطلقاً أو أحد أربعة هى الأواخر أو هو الناب . والحلم (بالضم وبضميتين) : الاحتلام . وناجذ الحلم هو الضرس الذى يثبت عند بلوغ سن الاحتلام والكلام كناية عن تمام العقل .

لوعة ، ولفجأة المصيبة روعة ليس لها إلا التدبر ، والتذكير والتذكر . فأنا أذكر الله عز وجل الذي أنقذ في مشارق الأرض أمره ، وأجرى بين اللحوم والجلود حكمه . وجعل أكثر هذا العالم دونه ، وصان مع ذلك من الشوائب دينه . وأبقى له من صالح الأولاد من يُقَرُّ عَيْنُهُ ، ومن طيب النسل ما يُقَوَّى ظهره وَيَغِيْظُ عدوه ، ولن يُنْسَى الكثير من آلائه ، القليل من بلائه ، والله يجعل هذه المصيبة خاتمة المصائب ، ولا يريه في الأعزّة سوءاً أبداً .

وكتب في تهنئة بفتح الجالية بباب بلخ وهو آخر ما أنشأه .

كتابي أطال الله بقاء الشيخ السيد ، من هرة عن سلامة ، وصنع الله جميل وسلطانه عزيز ، وكيدة متين ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين . وهذا ورب الكعبة ، آخر ما في الجعبة^(١) ، لقد أنصف القارة^(٢) ، ومحا السيف ما قال ابن دارة^(٣) ، ثم لا نزوة بعدها للترك ، ولا تحكم بعدها بالملك ، لقد كاس^(٤) السلطان أعز الله نصره ، إذ عفر^(٥) الله شعره ، وعرض على الله فقره ، وفوض إليه أمره ، ونذر الله نذره ، وناهض بالله خصمه ، وسأل الله حوله ، ولم يعجبه كثرة الملاء حوله ، ولم يشغل بخيوله وفيوله ، بذلك شد الله أزره^(٦) ، وقوى أسره^(٧) ، وأعز نصره ، وأقطع عَصْرَه ، وأطعمه مُلْكَه ، وأورثه أرضه ، إنما الظفر

(١) الجعبة : كنانة السهام .

(٢) إشارة إلى المثل « قد أنصف القارة من رامها . والقارة : قبيلة مشهورة بالرمية .

(٣) ابن دارة : شاعر أكثر من هجاء بني فزارة . فتأمرؤا في قتله فقال بعضهم لا تقتلوه ولتأخذوا عليه أن يمدحنا فيمحو مدحه ماسبق من ذم فعزموا على ذلك . ثم إن رجلاً منهم كان قد آذاه هجاؤه اغتفله فضربه بسيفه فقتله وقال في ذلك :

قتل ابن دارة بالجزيرة سيفنا وزعمت أن سبابنا لا يقتل
فأشار إلى ذلك الكعيت بن معروف فقال .

فلا تكثروا فيه الضجاج فإنه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

(٤) كاس : كان كيسا .

(٥) عفره : ألقي عليه العفر (التراب) .

(٦) الأزر : القوة والظهر .

(٧) الأسر : العصب ، ومتانة التركيب .

بأسبابه ، والموفق يأتي الأمر من بابه ، والخالفون أدام الله تمكين الشيخ الجليل وإن
أكلوا الحديد وهاضوه ، وسروا إلى الموت وخاضوه ، وبلغوا العذر وجازوه ، وجهّدوا
القتال وصدقوا المصاع^(١) ، وأشهدوا السباع ، فقد حكم الله لهم بالغشولة بعد الهزيمة ،
وطرق إليهم الشتيمة ، فهوّلاء الأَشقياء الذين هم فراش النار ، وقَاش^(٢) الدار ،
وأوباش الفرار ، وخشاش^(٣) الأرض ، وعلق السيف ، وحشرات الصيف ، ولفيف
السيل^(٤) ، على سخيّف الخيل ، لا يلزمون دارهم ، ولا يعرفون مقدارهم ، أولا يرون
أنهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرتين . لا صبر في القتال ، ولا نوم في الرحال ، رعدة
فوقها صلف ، وراعدة تحتها قصّف^(٥) ، يا أبناء الإماء ، ورعاء الشّاء ، وحلب
السّقاء^(٦) ، وغُثاء^(٧) الماء ، وجمع الغوغاء ، والقواعد من النساء ، ألا يذهب أحدكم
لسانه ، ألا يلزم أحد قطع لسانه ، ألا يقف عند حدّه ، ما للتاج ، وأهل النتائج ؟ .

المختار من مقاماته

منها المقامة الكوفية ، ونقلها برمتها لقصرها . قال :
حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت وأنا فتىّ السنّ أشدّ رحلى لكلّ عَمَاية ،
وأركض طرفي إلى كل غواية ، حتى شربت من العمر سائغه ، ولبست من الدهر

-
- (١) المصاع : النزال والحرب . من ماصعه : أي حاربه وجالده .
 - (٢) القماش : ما على وجه الأرض من ثنات الأشياء . وقاش الناس أراذلهم .
 - (٣) خشاش الأرض (بالثليث) : حشراتهما .
 - (٤) ليف السيل : ما يلفه ويجمعه من كل ماصر به ، والمراد أنهم أوباش مختلطون كالذى يجمعه السيل في مروره .
 - (٥) القصف . الحور من قصف (كفرح) صار خوارا .
 - (٦) حلب السقاء : ما فيه من بقية ماء يستمر كما يستدر الضرع .
 - (٧) غثاء الماء : ما عليه من زبد .

سابقة ، فلما أن صاح النهار بجانب ليلى^(١) وجمعت للمعاد ذيلي ، وطئت ظهر المروضة^(٢) لأداء المفروضة ، وحسبني في الطريق رفيق لم أنكره من سوء ، فلما تجالينا وخبرنا بجاليينا ، سمرت القصة عن أصل كوفي ومذهب صوفي ، وسرنا فلما أحللتنا الكوفة ملنا إلى داره ودخلناها ، وقد بقل وجهه النهار^(٣) واحضر جانبه ، ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربته^(٤) . قرّع علينا الباب ، فقلنا من القارع المنتاب ؟ . فقال وقد الليل وبريده^(٥) ، وفلّ^(٦) الجوع وطرّ يده ، وحُرّ قاده الضّرّ ، والزمن المرّ ، وضيف وطوّه خفيف ، وضالته رغيغ ، وجارّ يستعدي على الجوع ، والجيب المرقوع . وغريب أوقدت النار على سقره ، ونَبَحَ العوّاء في أثره ، ونُبذت خلفه الحصىات ، وكُنست بعده العرصات ، فنضّوه طليح^(٧) ، وعيشه تبريح ، ومن دون فرخيه مهامه فيح . قال عيسى بن هشام : فقبضت من كيس قبضة الليث وبعثتها إليه ، وقلت زدنا سؤالا ، نزدك نوالا ، فقال : ما عرض عَرَفَ العود ، على أحرّ من نار الجود ، ولا لُبّي وقد البرّ ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليؤاس ، فلن يذهب العرف بين الله والناس ، وأما أنت فحقق الله آمالك ، وجعل اليد العليا لك . قال عيسى بن هشام : ففتحنا له الباب ، وقلنا ، ادخل فإذا هو

(١) يشير إلى قول الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانيه نهار

(٢) المروضة : الدابة المذلة .

(٣) يقال بقل وجه الغلام : إذا ظهر فيه الشعر (الحية) .

(٤) طر شاربته : نبت شعره . وقد لاحظ الامام محمد عبده في شرحه للمقامات أن الأجل أن يكون

اخضر جانبه في حيز الليل ، وطرّ شاربته في حيز النهار . كما في بعض الروايات .

(٥) البريد : الرسول .

(٦) الفلّ : المنهزم .

(٧) النضو : المهزول . الطليح : التعب .

شيخنا أبو الفتح الإسكندري ، فقلت : يا أبا الفتح ، شدّ ما بلغت منك الخصاصة .
وهذا الزّيّ خاصّة^(١) ، فتبسّم وأنشأ يقول :

لا يغرّك الذي أنا فيه من الطلّب
أنا في ثروة تُشقق لها بُرْدَةُ الطَّرب
أنا لو شئت لا تأخذ تُسْقُوفًا من الذهب
أنا طوراً من التَّبيّط وطوراً من العرب

ومنها المقامة البلخية ، وهي قصيرة أيضاً ننقلها برمتها ، قال :

حدثنا عيسى بن هشام قال : نهضت بي إلى بلخ تجارة البرّ فوردتها وأنا
بُعْدَرَة^(٢) الشباب وبال الفراغ وحلية الثروة ، لا يهمني إلا مُهْرَةٌ فكر استقيدها ، أو
شُرُودٌ من الكَلِمِ أصيدها . فما استأذن على سمعي مَسَافَةً مُقَامِي ، أفصح من كلامي ،
ولما حنى الفراق بنا قَوْسَهُ أو كاد دخل على شاب في زِيٍّ مِلءِ العين ، وحلية تشوك
الأخدعين . وطرف قد شرب ماء الرافدين^(٣) . ولقيني من البر في السّناء ، بما
زدته في الثناء . ثم قال : أظعنّا تريد ؟ قلت : إي والله ؛ فقال : أخصّب رائدك
ولا ضلّ قائدك ، فمتى عزمت ؟ فقلت : غداة غد ، فقال :

صباحُ الله لا صبحُ انطلاق وطيرُ الوصل لا طيرُ الفراق

فأين تريد ؟ قلت الوطن ، فقال : بلغت الوطن ، وقضيت الوطر . فمتى العود ؟ قلت :
القابل ، فقال : طويت الرّيط^(٤) وثنيت الخيط^(٥) . فأين أنت من الكرم ؟
فقلت : بحيث أردت ، فقال : إذا رجعت الله سالماً من هذا الطريق ، فاستصحف لي

(١) خاصة بالرفح خبر لزيّ أي زيه دليل وعلامة . وبالنصب مفعول مطلق أي وما أشد ما بلغ منك
هذا الزي خصوصاً .

(٢) عذرة الشباب : أوله .

(٣) الرافدان : دجلة والفرات .

(٤) الرّيط : الثوب الرقيق أو كل ملاءة ذات لفقين والمراد أنه يمضي ليالي هنيئة .

(٥) المراد بالخيط الزمن من اليوم إلى قابل والمراد بثنيه جعل أحد طرفيه على الآخر أي أنه يستولى
على طرفي المدة من هذا الزمن .

- ١٧٣ -

عدوًّا في بردة صديق . من نِجَارِ الصُّفْرِ^(١) ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظُّفْرِ
كدارة العين ، يحط ثقل الدِّين ، ويتأنق بوجهين قال عيسى بن هشام : فعلت أنه
يلتمس ديناراً ، فقلت لك ذلك تقدأ ، ومثله وعدأ ، فأنشأ يقول :

رَأَيْكَ مِمَّا خُطِبْتُ أَعْلَى لَازَلْتَ لِلْمَكْرَمَاتِ أَهْلًا
صَلَبْتُ عُودًا وَدُمْتُ جُودًا وَقُتْتُ فَرْعًا وَطَبْتُ أَصْلًا
لَا أُسْتَطِيعُ الْعَطَاءَ حِمْلًا وَلَا أُطِيقُ السُّؤَالَ ثِقْلًا
قَصَّرْتُ عَنْ مَنَهَاكَ ظَنًّا وَطُلْتُ عَمَّا ظَنَنْتُ فِعْلًا
يَا رُجْمَةَ الدَّهْرِ وَالْمَعَالَى لَا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ تُكْلًا^(٢)

قال عيسى بن هشام : فئلته الدينار ، وقلت أين منبت هذا الفضل ؟ فقال : نمتني
قريش ، ومهد لي الشرف في بطائعها ، فقال بعض من حضر : ألسنت بأبي الفتح
الإسكندري ؟ ألم أرك بالعراق تطوف في الأسواق ، مُكْدِيًا^(٣) بالأوراق ، فأنشأ يقول :

إِن لِّلَّهِ عبيداً أخذوا العُمَرَ خَليطاً
فَهُمْ يُمْسُونَ أَعْرَاءاً بَا وَيُضْحُونَ نَبِيطاً

المختار من شعره

له تسمية في حَجَرِي الرحي ، وقد بعث بها إلى صاحب بن عباد .
أَخْوَانٍ مِنْ أُمِّ وَأَبٍ لَا يَفْتُرَانِ عَنِ الشَّعْبِ
مَا مِنْهُمَا إِلَّا ضَنْ يَشْكُو مُعَانَاةَ الدَّأْبِ

(١) الصفر : جمع أصفر وهو الدينار لصفرة لونه .

(٢) الرجمة : ما يبنى حول النخلة تسند به والمعنى أنه عماد الدهر .

(٣) في لسان العرب : أ كدى ألح في المسألة ، ويقال لا يكديك سؤالي : أي لا يلج عليك .

— ١٧٤ —

وكلاهما حَنَقَ القَوَا دِ عَلَى أَخِيهِ بِلَا سَبَبٍ
يَغْرِيهِمَا بِالْشَرِّ سَبَطَ الرِّيحَ وَابْنَ أَبِي الْخَشَبِ
مَا مِنْهُمَا إِلَّا بِهِ شَرَطُ الْيُبُوسَةِ وَالْحَرْبِ^(١)
فَلَمَّا بَصُلِحَهِمَا رَدَّى وَلَمَّا بَحَرَّيهِمَا نَسَبَ
وَقِيلَ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ قَتَالَ :

أَصْبَحْتَ فِي الْبَيْتِ بِلَا بَيْتٍ أَقْلَبَ الْكَفَّ عَلَى لَيْتِ
وَصَاحِبِ الْبَيْتِ يَرِيدُ الْكِرَا وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ سِوَى الْبَيْتِ
وَقَالَ فِي تَرْجُمَةٍ مَعْنَى فَارْسِي :

جَيْشُ الْمَلَاخَةِ وَالْجَمَا لِي بَوَاجِهٍ مِنْ أَهْوَى مُنَاخِ
فَلَوْ انْتَبَرَى لِلْأَرْضِ فِي أُتَارَ أَزْهَرَتِ السَّبَاخِ
وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْيِزَ هَذَا الْبَيْتَ :

جَمِيعَ فَوَائِدِ الدُّنْيَا عُرُورُ وَأَكْثَرُ قَوْلِهَا كَذِبٌ وَزُورُ
قَالَ عَلَى النَّفْسِ ارْتِجَالًا :

إِذَا الدُّنْيَا تَأَمَّلَهَا حَكِيمٌ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَاهَا عُبُورُ
فَبَيْنَا أَنْتَ فِي ظِلِّ الْأَمَانِي بِأَسْعَدِ حَالَةٍ إِذْ أَنْتَ بُورُ^(٢)
زَمَانٌ فِي قَضِيَّتِهِ جُورُ وَدَوَارٌ بِمَا تَأْتِي دَعْوُورُ
رَضِيَتْ قَضَاءَهُ أَوْ لَسْتُ تَرْضَى فَعُضَّ يَدَيْكَ وَانْظُرْ مَا تَصِيرُ

وَقَالَ يَرْتِي صَاحِبَاهُ :

لَنْ أَخْرَزَكَ الدَّاعِي لَقَدْ أَخْرَزَنِي النَّاعِي
وَإِنْ بَتَّ يَجْمَعُ جَاعَ لَقَدْ بَتَّنَا بِأَوْجَاعَ

(١) حَرِيه : سَلَبَهُ مَالَهُ .

(٢) الْبُورُ : الرَّجُلُ الْفَاسِدُ وَالْمَهَالِكُ لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ .

أَرَبَّ القصر والمنظر مَالَكَ بالقاع
أيا من دونه الموت بنفسى وبأشياى
ويا مؤنس آمالى ويا مؤحش أطماى
لقد كنت أَرْجِيكَ لِمَا يَسْعَى له الساعى
وما تسمو له نفْسٌ ولا يُدْرِكُه باعى

وقال يمدح الأمير فريغون ملك الجوزجان :

ألم تر أُنَى فى نهَضَتِي لقيتُ الغنى والمنى والأميرا
ولما التقينا شَمِمْتُ التراب وكنتُ أمراً لأشْمُ العَمِيرَا
لقيتُ أمراً مِثْلَ غَيْبِ الزمان يعلو سَحَابَا وَيَرْسُو بُيُورَا
فلا عدم الملك ذا رَوْعَةٍ يَمُونُ المنى وَيَسْرُ السَّرِيرَا
لآلِ فَرِيغُونِ فى المَكْرَمَاتِ يَدُّ أَوَّلَا واعتذارُ أخِيرَا
إذا ما حَلَّتْ بِمَغْنَاهُمُ رَأَيْتُ نَعِيماً وَمُلْكَاً كَبِيرَا

العلوم فى العصر العباسى

عرفت مما ذكرناه فى المقدمة أن العلوم بلغت فى هذا العصر ثلثمائة أوتزيد، والذى حدا بالعرب إلى العناية بهذه العلوم هو الضرورة الحافزة، إذ لا يعقل أن أمة يتعاضم عمرانها وتتسع رقعة ملكها كما حدث للأمة العربية ثم تبقى مستغنية عن العلم غير محسنة بالحاجة إليه. فهذه الضرورة المدنية تدفعهم إلى طلب الطب لعلاج مرضاهم، وتعرف الحساب لضبط جبايتهم، والهندسة لإقامة مبانيهم، وهكذا لا ترى علما من العلوم الكونية من فلك وكيمياء وفنون حرب وتدمير ملك إلا والمدنية داعية إليه موجبة له. ثم علوم الدين وغيرها من النفسيات تدعو إليها ضرورة الاجتماع حتى تضمن السعادة.

لأُمّ تزدهم بها مواطنها وتكثر مطالبها وتتعدد علاقاتها . ولعلوم اللسان عند العرب شأن خاص إذا كان كتاب دينهم وهو القرآن بالعربية فنشأت علومها من نحو ولغة وغيرها في خدمة القرآن حتى يظل واضح البيان مفهوم العبارة .

وقد قيض الله للعلم من نصروره في جميع فترات هذا العصر ؛ فحين كانت الدولة عربية خالصة في أيام الخلفاء الأول أيام المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم كان يحدوهم الى العناية بالعلم حرصهم على بقاء دولتهم إذ العلم سياج الدول والضامن لبقائها . وقده ساعد على ذلك قوة الدولة وكثرة جبايتها فسهل على الخلفاء وهم ذوو السلطان المطلق أن يبذلوا في سبيل العلم . فألهبوا الهمم بعطائهم الكثير حتى رأينا أنه لم يمض على دولتهم قرن من الزمان حتى كانت قد وضعت جميع العلوم الإسلامية وترجم أكثر ما عرف من علوم الأمم القديمة المدنية ، من يونان وفرنس وكلدان وهنود ومصريين . فاجتمع للعرب علم الأوائل والأواخر وانصرفت الهمم إلى تحصيل هذه العلوم والزيادة عليها حتى أتوا فيها بالعجب العجيب .

وحين ضعف هؤلاء الخلفاء وغلت أيديهم وتقلصت دولتهم من أطرافها لم يضعف شأن العلم ولم يبطل نشاط العلماء ، لأن هذه الأمارات التي اقتطعت من الدولة كان حكامها وشعوبها مسلمين فضمن ذلك للعلم أن يبقى رواجه وتدوم العناية به ؛ لأن أغلب هذه العلوم إنما أحدثت لخدمة الدين وسهولة الوصول إلى فهمه . كذلك شاءت المنافسة بين هؤلاء الملوك أن يبذلوا في إكرام العلماء وإن يصدقوا عليهم العطاء فكان للعلم في عصرهم شأن هو على التحقيق أزهى من شأنه في العصر الأول فكثرت في أيامهم التأليف وكانوا يحملون عليه العلماء ليسجلوا أسماءهم في مؤلفاتهم ، وانتشرت المدارس وكثرت دور الكتب ونبغ الفلاسفة في كل فن وتعددت الخترعات مما سنعدله فصلا في آخر هذا الباب نبين فيه نتائج اشتغال العرب بالعلم .

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم في جملتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كل علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهي التي اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة . ويراد بالدخيلة تلك العلوم التي صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى ، فلم يكن لهم فيها أولاً إلا أثر الهمة في النقل واختيار اللفظ العربي لما ورد بها من مصطلحات ، أو تعريب لألفاظها في تلك اللغات وصقلها حتى تخضع لأحكام العربية . ولا بد لنا من أن نذكر ما كان للعلوم في هذا العصر من نشأة وتدرج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسي .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية ، وهي تنقسم قسمين : علوماً لسانية ، وأخرى شرعية ، ولما كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت في جملتها سابقة للعلوم الشرعية في الوجود ناسب أن نبدأ بها أولاً . وهي أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ والنوادر والأنساب ورواية الشعر ونقده) .

العلوم اللسانية

النحو

نشأ النحو بصرياً ، لأن أبا الأسود الدؤلي واضعه نزل البصرة ، فالتفت حوله من

تعلمه عنه ، وهم الطبقة الأولى من النحاة ، ومنهم : يحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون بن الأقرن . وساعد على نمو النحو في البصرة أن الذين نزلوا بها من جالية العرب كانوا كثيرين ، والبادية حولهم عامرة بالأعراب الفصحاء في نواحي نجد والبحرين ، فسهل عليهم الأخذ عن البادية . أما الكوفة فقد قلَّ حولها من تؤخذ عنهم اللغة ، ولم يكن عربها في الفصاحة بمثابة عرب البصرة ، على أنه قد شغلهم منذ قديم رواية الشعر والأخبار ، فانصرفوا عن النحو حيناً حتى نشأت في البصريين طبقة ثانية هي طبقة عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبي عمرو ابن العلاء ، وأبي الخطاب الأخفش الأكبر ، وهؤلاء جميعاً أدركوا العصر العباسي ماعدا الحضرمي فإنه مات سنة ١١٧ هـ في أيام هشام بن عبد الملك ، وبقي أهل الكوفة لا يشتغلون بالنحو حتى نشأت هذه الطبقة فبدءوا بالأخذ عنهم ، وقد ذكرنا أن أول من عرف النحو بالكوفة شيبان بن عبد الرحمن التيمي المتوفى سنة ١٦٤ هـ ، وكان بصرياً فانتقل إلى الكوفة وسكن بها وهو من تلامذة أبي عمرو بن العلاء ، وقد ظهر معه في طبقتة أبو جعفر الرؤاسي ، ومُعَاذُ الهَرَاءِ واضع علم التصريف . ثم تتابعت الطبقات من البصريين والكوفيين فكانت الطبقة الثالثة من البصريين هي طبقة الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبي معاوية بن شيبان . ثم جاءت منهم الطبقة الرابعة ؛ ومن أشهر رجالها : سيبويه ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصاري . وكان سيبويه إمام هذه الطبقة أخذ النحو عن الخليل بن أحمد ، وعيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر . ولسيبويه كتابه الذي كمل فيه تفاريع العلم وأكثر من شواهد حتى صار كتابه هو الإمام في هذا العلم ، وحتى صار لشهرته إذا قيل « الكتاب » لا ينصرف إلا إليه .

وقد عاشر هذه الطبقة من البصريين طبقة من الكوفيين كان إمامهم الكسائي ، وهو الذي جمع البرامكة بينه وبين سيبويه إمام البصريين حين قدم بغداد ليظهر بها فضله . تناظرا بمجلس يحيى البرمكي ، وكان موضوع المناظرة هذه المسألة : « كنت أظن

أن الزنبور أشد لسعاً من العقرب فإذا هو هي أو فإذا هو إياها ، فكان سيبويه يرى أن الصواب فإذا هو هي : ويرى الكسائي أنه يجوز أيضاً فإذا هو إياها ، وادّعى أن العرب تقول بالوجهين ، فتحا كما إلى أعرابي ، فكان رأيهم مع الكسائي وانخزل سيبويه وخرج من بغداد ولم يعد إليها .

وقيل : إن الانتصار إنما تمّ للكسائي بخديعة وتدليس^(١) . ذلك أن الدولة كان ضلعا مع الكوفيين لأنهم شيعتهم ، فكانوا يؤثرونهم على البصريين ، ويختارون منهم مؤدبي أبنائهم وحضار مجالسهم ، فأراد يحيى البرمكي أن يحمل الأعرابي الذي اختير للفصل في هذه المسألة على أن يقول برأى الكسائي ، فلم يطاوعه لسانه ، فاتفقوا على أن يقولوا له بمحضر الناس يقول الكسائي كذا ويقول سيبويه كذا فع أيهما الصواب ؟ فيقول الأعرابي مع الكسائي . ففعل الأعرابي ذلك فكان قوله فصلا ، وانخزل سيبويه . ثم كانت طبقة خامسة من البصريين إمامها الأخص الأوسط ويقابلها من الكوفيين طبقة الفراء وهو تلميذ الكسائي ومؤلف كتاب الحدود ، وكان المأمون قد أمره أن يؤلف كتاباً يجمع به أصول النحو ، وأمر أن تفرّد له حجرة في دار الحكمة ، ووكل به من يكفيه كل حاجة حتى لا يتعلق قلبه بشيء حتى إنهم كانوا يؤذنون له في حجراته بأوقات الصلاة ، فألف كتابه الحدود حفظ به العربية . ومن فضله كان يقال عنه « الفراء أمير المؤمنين في النحو » ، ثم جاءت طبقة المبرد من البصريين يقابلها طبقة ثعلب من الكوفيين .

(١) القول في هذه المسألة ماقاله سيبويه وعلى مثاله قوله تعالى فإذا هي بيضاء . ولوثبت النصب لكان خارجاً عن القياس واستعمال الفصحاء ، وقد ذكر في توجيهه أمور منها :

أولاً : أن الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه معنى وجدت ورأيت .
ثانياً : أن الضمير استعير من مكان ضمير الرفع ، قال ابن مالك ويصعد له قراءة إياك يعبد .
ثالثاً : أن الضمير مفعول به والأصل فإذا هو يساويها ونظروا له بقوله تعالى : لئن أكله الذئب ونحن عصبة (بنصب عصبة) .

رابعاً : أنه مفعول مطلق ، والأصل فإذا هو يلسع لسمتها وهذا أشبه ماوجه به النصب .
خامساً : الضمير منصوب على الحال من الضمير في الخبر المحذوف والأصل فإذا هو ثابت مثلها .

ثم لم يكن بعد هؤلاء تجديد في النحو، وإنما كان عمل من أتى بعدهم شرح كلام السابقين أو اختصاره للناشئين، وبطلت العصبية الكوفية والبصرية، فكان الواحد من هؤلاء العلماء يجمع آراء أهل البلدين لا يزيد على الترجيح بينها والمفاضلة، ومن هؤلاء: بن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ، وأبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، والسيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ، والرماني سنة ٣٨٤ هـ، وابن جني سنة ٣٩٢ هـ، والرابعي سنة ٤٢٥ هـ، والزنجشري صاحب المفصل المتوفى ٥٣٨ هـ، وابن الشجري سنة ٥٤٢ هـ؛ وهؤلاء جميعاً كانوا ببغداد وماتوا بها، وإنما كانوا يرحلون إلى ملوك الشرق، إجابة لرغبتهم، وطمعاً في عطائهم، ومن النحويين في غرب المملكة الإسلامية بمصر والشام ابن النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧ هـ، وابن خالويه أحد العلماء بحضرة سيف الدولة بن حمدان، وقد توفي سنة ٣٧٠ هـ، وابن بري المقدسي المصري المتوفى سنة ٥٨٢ هـ، وابن الحاجب صاحب الشافية في الصرف والكافية والأمال في النحو المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

الفروق بين مذهبي البصريين والكوفيين

كان البصريون لقربهم من العرب الخلف يستطيعون الاستشهاد على كل مسألة من مسائل العلم. فكانوا لذلك أهل سماع لا يميزون رأياً إلا إذا أيده بالشاهد واحتجوا له بكلام العرب؛ أما الكوفيون فقد كانوا أهل قياس لعدم استطاعتهم النقل عن العرب كما استطاع إخوانهم، فحين وجد البصريون شاهداً لكل مسألة من مسائل العلم لجأ الكوفيون إلى القياس، وحين أخذ الكوفيون غير متحرجين استطاع البصريون ألا ينقلوا إلا عن تمت ملكاتهم وعرفوا بفصاحة ألسنتهم. هذا هو مجمل الفرق بين المذهبين، ولا نزال إلى الآن نرجح المذهب البصري على المذهب الكوفي لاختلاف مبني المذهبين كما رأيت.

وقد احتدم الجدل بين أهل البلدين وتعددت مسائل الخلاف بينهما وألف فيها كثيرون أشهرهم كمال الدين الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ألف كتاب : (الإنصاف ، في مسائل الخلاف) وأبو البقاء البكري ألف كتاب : (التبيين ، في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ؛ وقد نلخص السيوطي هذه المسائل وأتى بها في الجزء الثاني من كتابه (الأشباه والنظائر) ، وبلغ مجموع مسائل الخلاف مائة مسألة واثنتين ، وهذه أمثلة منها تراها موزعة في كتب النحو :

- ١ — الاسم مشتق من السمو عند البصريين ، ومن الوسم عند الكوفيين .
- ٢ — الفعل مشتق من المصدر عند البصريين ، والعكس عند الكوفيين .
- ٣ — عند البصريين لا ينوب الظرف والجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول ويجوز ذلك عند الكوفيين .
- ٤ — عند البصريين لا يبنى فعل التعجب من الألوان إلا بواسطة أشدّ وأشدّد ونحوهما ويجوز بناؤه من السواد والبياض بلا واسطة عند الكوفيين .
- ٥ — يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يجوز عند الكوفيين .
- ٦ — لا يقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويجوز عند الكوفيين .
- ٧ — العدد المركب كخمسة عشر يعرف صدره فقط عند البصريين ، ويجوز تعريف العجز مع الصدر عند الكوفيين ، فيقال على رأى الأولين جاء الخمسة عشر رجلا ، ويجوز على رأى الآخرين جاء الخمسة عشر رجلا .

علم اللغة

هو كعلم النحو لم يكن وليد هذا العصر بل قد بحث أيام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عنوا بالعربية من جميع أطرافها ، فكانت لهم بألفاظ اللغة عناية تمثلت في استفسارهم عن معاني كلماتها إذا وردت في شعراً أو نحوه ، فقد ذكروا أن عبد الملك كان في

مجلس يضم خاصته وسّمّاه ، فقال لهم : « أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ، وله على ما يتناه ؟ فقام إليه سويد بن عُقْلة وقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال قل ما عندك . قال : أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خد . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غَبَبَة^(١) . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نُغْنُغ^(٢) . هامة . وجه . يد . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين .

فقام بعض الجالسين وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال اسويد : أما سمعت ما قال ؟ قال أنا أقولها ثلاثا ، فقال له : « لك ما تمني » ، فقال : أنف . أسنان . أذن ، بطن . بصر . بزباز^(٣) ، ترقوة . تينة^(٤) . تمر ، ثغر . ثدايا . ثدى ، جمجمة . جنب . جبهة ، حلق ، حنك^(٥) . حاجب ، خد . خصر . خاصرة ، دبر . دماغ . دُرْدُر^(٦) ، ذقن . ذكر . ذراع ، رقبة . رأس . ركة ، زند . زَرْدَمَة^(٧) . زغب ، ساق . سرّة . سبابة ، شفة . شعر . شارب ، صدغ . صدر . صلعة ، ضِلْع . ضفيرة . ضرس ، طحال . طرة . طرف ، ظهر . ظِلْم^(٨) . ظفر ، عين . عنق ، عاتق ، غببة . غلصمة . غنة ، فم . فك . فؤاد ، قلب . قدم . قفا ، كف . كتف . كعب ، لسان . لحية . لوح ، مِرْفَق . مَنَكِب . منخر ، نغوغ . ناب . نَن^(٩) ، هامة . هَيْف . هياة . وجه . وجنة . ورك ، يمين . يسار . يا فوخ ؛ ثم نهض مسرعاً ،

(١) الب : اللحم المتدلى تحت الحنك .

(٢) النغغ : اللحم في الحلق عند اللهازم ، واللهزمتان : نائمتان تحت الأذنين .

(٣) البزباز : الفرج .

(٤) التينة : الدبر .

(٥) الحنك : ماتحت الذقن .

(٦) الدردر : مغارز أسنان الصبي .

(٧) الزردمة . موضع الابتلاع .

(٨) الظلم : ماء الأسنان وبريقها ، وهو كالسواد يداخل السن من شدة البريق .

(٩) النن : الشعر الضعيف .

وقبل الأرض بين يدي عبد الملك ، فقال : والله ما نزيد عليها ، أعطوه ما تمنى ، وأعطاه كثيراً .

وقبل عصر التأليف لم يكن سبيل إلى معرفة كلمة أو الوقوف على معناها إلا بمشاهدة الأعراب أو سؤال أهل العلم أو العثور عليها في شعر يفسرها ، ويبين موقعها فيه . ففكر الأئمة في وضع كتب يجمعون فيها الألفاظ ويشرحون معناها ، ولكن الفكرة لم تأتهم كاملة كما هي الآن في معاجم اللغة التي بأيدينا ، بل إنهم كانوا يقصرون أبحاثهم على أنواع خاصة من الكلمات ، فكتاب مثلاً في النخل والكرم يبحث في أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بهما من ثمر وأوراق ، وما يرتبط بذلك من أفعال في غرسها وظهورها ، وأثمارها وقطعها وغير ذلك ؛ وللاصمعي في هذا الباب فضل عظيم فأكثر كتبه الباقية للآن من هذا النوع . منها : كتاب أسماء الوحوش ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الشاء ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب النخل والكرم المتقدم ذكره .

وعلى خطة الاصمعي : سار الثعالبي في فقه اللغة في حصر الكلمات تحت معانيها ، وكذلك فعل ابن سيده^(١) في المخصص .

أما طريقة وضع المعاجم مرتبة على حروف الهجاء ، فيقال : إن أول من اخترعها هو الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ذكروا أنه ألف كتاب العين ، وسماه كذلك لأنه بدأه بحرف العين إذ اقتضى الترتيب في نظره أن يجعلها على حسب الخارج وأقصاها الحلق ثم يليه اللسان ثم الأسنان ثم الشفتان ، وكان ترتيب الحروف على نظامه هكذا : ع ح هـ خ غ

(١) ابن سيده (بسين مكسورة بعدها ياء ساكنة ودال مفتوحة وهاء ساكنة) : هو الحافظ أبو الحسن علي بن اسمعيل ، كان اماماً في اللغة والعربية حفظاً لهما وكان ضريراً ، وله المحكم في اللغة ومنه أجزاء بدار الكتب لانتم نسخة ، وله « المخصص » وهو مطبوع بمصر في سبعة عشر جزءاً . توفي سنة ٤٥٨ هـ وهو أندلسي من مدينة مرسية ولذلك يلقب بالمرسي . (كتابنا لمعجم الأعلام) .

ق ل ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ل ن ف ب م ا ي و^(١) .
ويظهر من وصف كتابه أنه كان يحوى شواهد الكلام ، ويعرض لآراء في النحو كما
بحث في أوله عدد المهمل والمستعمل من الألفاظ ، ولكن هذا الكتاب ظل متوارياً
بعد الخليل نحوستين عاماً حتى قدم به وراق من خراسان سنة ٢٤٨ هـ ، فباعه في
البصرة بخمسين ديناراً . ويقال إن الخليل عمل الكتاب وحج خلفه بخراسان ، فكان
في الخرائن الطاهرية حتى وجه به إلى العراق . وقال ابن النديم في فهرسته : إنه لم يرد
لهذا الكتاب ذكر في الأخبار ولا عدّ من آثار الخليل قبل ظهوره على يد هذا
الوراق . ويرجح جماعة من الثقات أنه موضوع منحول بدليل أن ما فيه من قواعد
النحو إنما ورد على مذهب الكوفيين والخليل بصرى وقد اختصر هذا الكتاب^(٢) ،
أبو بكر الزبيدي الأندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ اختصاراً لطيفاً حذف فيه الشواهد ،
ونقاها من التصحيف والأبنية المختلة ، فشاع المختصر ، وأقبل الناس عليه وفضلوه على
الأصل . وبسبب اختفاء كتاب الخليل هذه المدة بقي التأليف في اللغة منحصرّاً في
طريقة الأصمى ، وابن الأنبارى (٣٢٨ هـ) ، والنضر بن شميل (٢٠٣ هـ) ، وابن
الأعرابي (٢٣١ هـ) ، وابن السكيت وغيرهم ، ومضى على زمن الخليل أكثر من قرن ، ولم
يؤلف في اللغة كتاب على نظام كتاب العين^(٣) حتى جاء أبو بكر بن دريد ، فألف كتاب
الجمهرة^(٤) في اللغة ، ولم يتبع فيه ترتيب الخليل ، فبدأ بالعين بل جعله على الترتيب
الأبجدي المشهور (ألف باء تاء) ، ولكن البحث فيه يخالف ما نألفه الآن من كتب

-
- (١) وهذا الترتيب في الحروف على رأى الخليل يؤخذ من الأبيات الآتية باعتبار أوائل كلماتها .
 علفت حبيبا هنت خيفة غدره قليل كرى جفى شكا ضرصده
 سبأ زهوه طفلا ديانة تائب ظلامته ذنب ثوى ربع لحده
 نواظره فتاكه بعميسده ملاحته أجرت يابيع وجده
- (٢) وتوجد نسخ خطية من مختصر الزبيدي بمكتبات أوروبا .
- (٣) كتاب العين هو رواية الليث عن الخليل ، وفي دار الكتب المصرية قطعة منه مطبوعة في بغداد
 من الجزء الأول تنتهى إلى مادة جمع .
- (٤) من الجمهرة نسخ خطية في لندن وغيرها من مكتبات أوروبا ، ونسخة ناقصة بدار الكتب المصرية .

اللغة لأنه إذا ذكر مادة (ع ل ن) مثلاً قلبها على أوجهها وأتى بمعانيها في جميع الأحوال فيفسر العلق واللعن والنعل ، وقد تلمذ لابن دريد أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر الملقب بالأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكان فقيها فغلبت عليه اللغة وقرأ على ثعلب وابن دريد ونفطويه ، وطاف بلاد العرب في طلب اللغة ، فأخرج معجمه المسمى تهذيب اللغة ، فجعله على ترتيب مخارج الحروف كما فعل الخليل ، وفي المكتبة الملكية جزءان (الأول والثاني) من هذا الكتاب عدد صفحاتهما ألفان ينتهي الثاني منهما بمادة « ذرا » ، ومنه نسخ كاملة بمكاتب الآستانة وحلب .

ثم جاء صاحب بن عباد الكاتب المشهور وزير مؤيد الدولة ثم أخيه فخر الدولة ابني ركن الدولة ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فأخرج كتابه المحيط وهو في مبعة مجلدات والمجلد الثالث منها بالمكتبة الملكية ، وقد أكثر صاحب في كتابه من الألفاظ وقلل من الشواهد .

ثم جاء بعده أبو الحسن أحمد بن فارس (٣٩٠ هـ) أحد وضاع المقامات وأستاذ البديع الهمداني ، وكتابته مجمل كما يستفاد من اسمه « المجمل » ، وفي كتب المحرم الشنقيطي نسخة منه في مجلدين يحتويان ١٣٠٠ صفحة حسنة الخط ، وقد عاش في زمن ابن فارس أبو إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٨ هـ) ، وهو من فاراب ببلاد الترك ، وقد كان واسع العلم في اللغة سافر إلى البدو ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وطاف الحجاز . ثم أخرج كتاب : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، وقد جاء كتابه أوفى من المجمل لابن فارس ، والتهذيب للأزهري ، وجمهرة ابن دريد ؛ ويمتاز عليها بأنه استوعب أكثر الألفاظ المستعملة في السنة العرب لزمانه وحفظها بالسماع عن عاشرهم من أهل البادية ، وقد جعل القاعدة في ترتيب الألفاظ على أواخر الكلمات .

يؤخذ على الصحاح خطأ في ضبطه وتصحيح لبعض ألفاظه ، لأن صاحبه مات قبل أن يبيضه وينقحه إذ كان قد وسوس في عقله ، فزعم أنه يطير ، وقال : أيها الناس إني قد عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه ، وسأعمل للآخرة مثله ، ثم أتى بمصرعي باب

وضمهما إلى جنبه ، وصعد مكاناً عالياً في جامع نيسابور ، ثم أهوى فوق ميثاً ، وقد ألف كثيرون في نقد الصحاح ، وآخرون في الاحتجاج له . والكتاب مطبوع في مصر .

ثم جاء جار الله الزخشرى ، فأخرج كتابه : (أساس البلاغة) ، وهو يمتاز بأنه يفصل بين الحقيقة والحجاز في الكلمة ، وقد خلط ذلك المتقدمون ، ثم أنه يأتي بالكلمة مستعملة ، ويلم بالشواهد إلماً مناسباً ، وقد رتبته على حروف المعجم ، ولكنه جعل ذلك حسب أوائل الكلمات ، فما أوله همزة قبل ما أوله باء ، ويراعى مع الأول الثانى ثم الثالث فيأتى مثلاً بطمع ثم طم ثم طمن ثم طما وهكذا .

وبهذه المعاجم ينتهى تكوين اللغة وحصرها وجميع من يأتى بعد هؤلاء الذين ذكرناهم ليس له أثر فى جمع ما لم يجمع أو نقل ما لم ينقل لأن اللغة كانت قد فسدت بالبادية ، فلم يكن لمؤلفى المعاجم إلا جمع ما تفرق منها واختصار ما طال ، ومن كتب اللغة بعد ما تقدم : (الباب الزاخر ، والباب الفاخر) لرضى الدين الصاغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ ، ولم يتم بل وقف فيه عند مادة « بكم » .

وقد قال فيه بعض الشعراء فحسنت منه التورية كل حسن :

إن الصَّغَانِي الذي حَاَزَ الْعُلُومَ وَالْحِكْمَ
كان قُصَّارَى أَمْرِهِ أَنْ اِنْتَهَى إِلَى بَكْمِ

وكان قد ألف قبله : (تكملة الصحاح) ، وهى بعض حواشى الصحاح ذكر فيها ما فاتته من اللغة وناقضه فى بعض مواضع ، وهى أكبر حجماً من الصحاح ، فجمع بينهما فى كتاب سماه : « مجمع البحرين ^(١) » ، وكذلك لأبى السعادات المبارك المعروف بابن الأثير كتاب أسماه : « النهاية » ، فى غريب الحديث والأثر » ، وهو مطبوع بمصر فى أربعة مجلدات ، وقد جعل ترتيبه كترتيب الأساس ، وكلامه خاص بالألفاظ التى

(١) ليس بدار الكتب المصرية من هذه التأليف للصاغاني إلا التكملة واسمه (التكملة والذيل والصلة) .

وردت في الأحاديث النبوية ، وآثار الصحابة رضوان الله عليهم ، فهو في غالب شأنه خدمة لعلم الحديث وليس كتاباً عاماً في اللغة .

علوم البلاغة

تتعلق هذه العلوم بضمّ الكلمات وتركيب الأساليب والنظر فيما يحسن العبارة بعد استيفائها شرط الصحة ، وهذه العلوم قد بحثت مسائلها متفرقة غير مضمومة إلى أبواب العلم ولا محصورة في تقاسيمه . وكان ذلك منذ العصر الأموي حين أولع العرب بالنقد فعاثوا القول المهلهل والقوافي القلقة والاستعارات البعيدة والتشبيهات غير المقبولة مما تراه مروياً في كتب الأدب عن معاوية وعبد الملك وهشام وجلسائهم . والحق أن تلك العلوم بهذا الاعتبار الواسع المدى قد خلقت مع العرب من يوم عرفوا الكلام وذاقوه ، وتحركت أسنتهم بنقده وتمييز مقبولة من مردوده .

والذي نبجته في هذا الباب هو تكون هذه العلوم وصيرورتها إلى ما صارت إليه من انقسامها إلى أنواعها الثلاثة وحصر مسائلها في كتب خاصة لا تختلط بغيرها من مسائل العلوم الأخرى .

فنعول : إنه لما ضعفت الملكات في العصر العباسي عن إدراك الأسرار في الأساليب ، وحسن الالتئام بين الكلمات ، وخفي على الناشئين في اللغات الأعجمية كثير من أسرار الكلام تكوّنت مباحث هذه العلوم من الأبحاث التي جرت في بعض آي القرآن وكلام البلاء ، كالذي عرض من الشبهة لهذا الذي سأل أبا عبيدة في مجلس الفضل من الربيع في معنى قوله تعالى : « طَاعَهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، فقال له هذا على حدّ قول الشاعر (أمرئ القيس)

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ

ومثل الذي كان من أبي يوسف يعقوب الكندي الفيلسوف الذي ركب إلى

أبى العباس المبرد وقال له أرانى أجد فى كلام العرب حشواً ، فقال أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ قال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ، فقال أبو العباس بل المانى مختلفة ؛ فالأول إخبار عن قيامه ، والثانى جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر ، وقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى .

كذلك كان لالتجاء المتقعرين إلى استعمال الغريب وتنطسهم به وتزيدهم على الناس أن بحث العلماء فى حدّ الفصاحة وشروطها ، فنفوا أن يكون هذا التعقير فصاحة بل عدوه سخفاً ، وكذلك كان التعصب للقديم من الشعر والزراية على الحديث منه مثاراً للجدل فى مسائل هذه العلوم ، فوازنوا بين أسلوب وآخر وفضلوا استعارة على غيرها .

كذلك كان الشعراء المحدثون أمثال : بشار ، وأبى نواس ، ومسلم ؛ ومن تقييلهم يعنون بالحسن البديعى ، ويستعملونه على نسق ما جاء فى القرآن وكلام العرب منه ، ولكنهم أكثروا من هذا من غير أن يعرفوا أسماء ما يستعملون غالباً حتى نبه ذلك ابن المعتز إلى حصر هذه الأنواع فى كتاب عمله ، وسماه : « البديع »

وكان أعظم داع إلى بحث هذه العلوم هو الدفاع عن بلاغة القرآن لما نشأ من الزنادقة والملحدّين وغيرهم من يعيبه ، ويقول : إنه فى مقدور العرب وأن الله صرّفهم عنه ، كما فعل النظام وغيره . فدعا كل هذا العلماء إلى بحث مسائل هذه العلوم متفرقة .

وإذا أردنا أن نرتب كيف تخلقت بضعة هذه العلوم ، ثم تمثلت بشراً سوياً ، فإنا نذكر أن أول ما بحث منها هو بعض مسائل علم البيان . فقد ألف أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتابه : (مجاز القرآن) على أثر السؤال الذى تقدّم ذكره عن معنى قوله تعالى : « طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ » . ثم تتابع العلماء بعده فوضعوا رسائل وأملوا مجالس فى الاستعارة والسكناية ، ثم جاء الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، فأخرج كتابه (إعجاز القرآن) ، و (البيان والتبيين) ، فبحث فى معنى الفصاحة والبلاغة ،

ولم يكن يفرق بينهما وتكلم في الأسجاع ، وما يحسن وقعه منها وما يسوء ، وأتى للمستكره بأمثلة من أسجاع السكهان إلى غير ذلك مما بحث في أبواب متفرقة من كتابه : (البيان والتبيين) . أما كتاب : (إعجاز القرآن) ، فلم يصل إلينا ، ولكن اسمه وحده كاف للدلالة على موضوعه ، وأنه كان حجاجاً ومخاصمة للمخالفين له في الرأي الطاعنين في إعجاز القرآن .

وأتى بعده ابن المعتز الخليفة العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، فتبع ما في الشعر من محسنات ، وألف كتاباً سماه : (البديع) ، وذكر فيه سبعة عشر نوعاً هي : التشبيه الاستعارة . الكناية . التجنيس . الطباق . ردّ العجز إلى الصدر . المذهب الكلامي . الالتفات . التمام . الاستطراد . تأكيد المدح بما يشبه الذم . تجاهل العارف . حسن التضمين . الإفراط في الصفة . عتاب المرء نفسه . حسن الأبتداء . الهزل الذي يراد به الجد ؛ وكان يستشهد عليها بآيات من القرآن وكلام الجاهليين ، وإنك لترى في موضوعات كتابه أن العلوم الثلاثة : (معان . بيان . بديع) لم تنفصل بعد ولم توضع لها حدودها ، فإن مما سماه بديعاً كل مسائل علم البيان وهي : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية .

ثم كان من المعاصرين لابن المعتز ، قدامة بن جعفر البغدادي المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، فإنه ألف كتاباً في نقد الشعر سماه : (نقد قدامة) ، وأتى فيه بعشرين نوعاً توارد مع ابن المعتز في سبعة منها ، وهي : الجناس ، والطباق . والالتفات . والتشبيه . والمبالغة . والاستعارة . والتتيميم ؛ وانفرد بثلاثة عشر .

ثم جاء أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، فألف كتابه المسمى : (كتاب الصناعتين : الشعر والكتابة) ، وقد ذكر في مقدمته : « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإعجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة . . . » ، ثم كان

من موضوعات الكتاب : البلاغة والفصاحة لغة . الإبانة عن معنى البلاغة . الإيجاز والاطناب . التشبيه حسنه وقبيحه . السجع والازدواج ، البديع وهو خمسة وثلاثون نوعاً . ذكر مبادئ الكلام ومقاطععه . القول في الفصل والوصل .

فأنت ترى من مراجعة فهرس هذا الكتاب أن العلوم لم تتميز ، وأن الفصاحة والبلاغة لا تزالان لفظين مترادفين لمعنى واحد ، وأن علم البديع بلغ خمسة وثلاثين نوعاً مع ملاحظة أنه لم يعد السجع والازدواج منه ، ولكن علم البديع ظاهر الاستقلال عن أخويه لأنه جمع مسائله على ما يرى تحت عنوان واحد وهو « البديع » .

فكتاب الصناعتين هو أول كتاب أشير فيه إلى مسائل العلوم الثلاثة أى أنه ذكر مسائل من علم المعاني كالإيجاز والاطناب والفصل والوصل وأخرى من البيان وهي التشبيه ، ولكنه لم يدل على أن هذا من موضوعات علم المعاني ، وذلك من موضوعات علم البيان ، ولكن الذى صرح به وحصر أنواعه هو علم البديع كما عرفت .

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، فألف كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، وجعل الأول خاصاً بمسائل علم المعاني ، فأتى فيه بتحقيق القول في الفصاحة والبلاغة ، ولم يفرق بينهما ، ثم تكلم في التقديم والتأخير والذكر والحذف والفصل والوصل والتعريف والتنكير والقصر والتأكيد ، وقد تكلم في هذا الكتاب عن الاستعارة والتمثيل ، ولكنه تناوله من ناحية التأثير وبيان فضيلة الكلام بهما ؛ وفي كتاب (أسرار البلاغة) بحث في موضوعات علم البيان من التشبيه وأقسامه والاستعارة وأنواعها والمجاز العقلي واللغوي ، ولكن الذى نلاحظه أنه لم يتناول مباحث علم البديع . وإذا كنت قد علمت أن البديع متميز منذ ألف فيه ابن المعتز وصاحب الصناعتين ، وأن عبد القاهر حدد موضوعات المعاني والبيان ، فتكون علوم البلاغة على أيام عبد القاهر قد تميزت وانفصلت أنواعها وخصرت مسائل كل علم وحدها ، وإن كان لم يأت في كلامه ما يدل على أنه يسمى

مباحث : « دلائل الإعجاز » علم المعاني ، ومباحث « أسرار البلاغة » علم البيان ، وإن كنت ترى على ظاهر الكتابين تحت عنوان الأول : « في علم المعاني » ، وتحت عنوان الثاني : « في علم البيان » ، فأكبر ظني أن هذه من زيادة الطابع ، ولا يدل إهمال عبد القاهر لمباحث علم البديع على جهل بها فإنه قد ذكر منها في مقدمة « أسرار البلاغة » التجنيس والطباق في سياق ما يحسن به الكلام من ارتباط بين ألفاظه وتناسب إلى غير ذلك .

وكتب عبد القاهر : هي عروس كتب البلاغة إذ أنها مصوغة أحسن صوغ تناسب عبارة مؤلفها شرف الموضوع وسمو درجته ، ويكثر فيها من الشواهد والأمثلة من حرر الكلام وأشرفه فقد أكثر من الآيات القرآنية والشعر البليغ ، وقد أعانه على ذلك تمكنه من ملكة البيان وسلامة ذوقه من تعقيد الفلسفة .

وكان من آثار شيوع هذه العلوم وكثرة تداولها أن فسر الزمخشري القرآن الكريم مستدلاً على إعجازه ببيان أسرار بيانه وما اشتمل عليه من حسن تأليف وقوة تأثير وجمال إيجاز وحلاوة تفصيل وإطناب ، وتفسيره يعدّ تطبيقاً لمسائل هذه العلوم فليس داخلها في سلسلة المؤلفات التي ظهرت فيها إذ المراد بذلك الكتب التي تجمع المسائل وتضمّ الفروع فيظهر فيها التقسيم والتبويب والزيادة على ما فعله الأوائل أو تغيير ما كان لهم من مذهب أو تبديل ما كان من مصطلح ، ولم يفعل الزمخشري شيئاً من ذلك .

وجاء بعد ذلك أبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فألف كتابه : « مفتاح العلوم » ، وجعله في النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، فأنتهى إليه الاجتهاد في هذا الفن ، ولم يأت بعده من زاد شيئاً من أصول العلم ، اللهم إلا ما كان من علم البديع . فإن علماء مصر والشام قد زادوا على ما وضعه أهل المشرق فيه وقد أوصله بن أبي الاصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، إلى تسعين نوعاً في كتابه « تحرير التمييز » . ثم زادت الأنواع البديعة عن ذلك كثيراً ، ولكن بعد هذا العصر فنترك ذلك لموضعه .

علم العروض

يطلق توسعاً على علمى العروض والقافية ، والعروض هو علم وزن الشعر بالمقاييس التى جرى عليها العرب فى نظمهم ، وعلم القافية هو العلم بأحكام أواخر الآيات .
وعلم العروض من العلوم التى كان العرب يجرون على أحكامها بالسليقة ومحض الفطرة من غير تعليم ، فهو كالنحو الذى لم يكن العربى يعرف منه إلا أن يجرى كلامه عليه إجراء صادقاً لا يخطئ فيه ولا يتعثر ولو سأله عن سبب رفع أو نصب لا يُجيب^(١) جواباً ، بل هو لم يكن يعرف النصب والرفع بهذه المعانى التى صار عليها الاصطلاح ، وإذ كان الغناء طبعياً فى النفوس ، لا تجد أمة إلا ولها منه نصيب على قدر ما منحها الله من رقة طبع وسلامة ذوق ، فهذه الأوزان الشعرية هى مقاييس العرب فى غنائها ترنمت بها فى كلامها ، فجاء على تلك الأوزان والألحان التى ضبطت فيما بعد فكانت علم العروض ، وكما لم يكن العرب يستطيعون تعليل صوابهم فى النطق ، كذلك كانوا ينظمون على هذه الأوزان التى دلهم عليها ذوقهم ، فيأتى شعرهم مضبوطاً بها فلا يخطئون ، ولا يستطيعون تعليل ضبطهم .

والسبب الذى حدا إلى اختراع هذا العلم هو ما طرأ على الملكات من فساد فنقصت السليقة العربية ، وأصبح المقتفى لآثار العرب فى ألحانها لا يستطيع أن يلتزمها بل يزيد أو ينقص فيها ، ويقع ذلك منه خطأ بحكم فساد الطبع أو هو يعتمد ذلك لما رأى الألحان التى تجرى عليها الأمم الأخرى من فرس وروم وغيرهم واستطابها ، ورأى فيها اتساعاً من ضيق الأوزان العربية القليلة . فخرج عنها ونظم بها ما سماه شعراً ، وادعى عربيته وهو فى نظر العلماء غير عربى لخروجه عن أوزان العرب .

فبعثت الحمية للغة والذود عن كيانها والحفاظ على قديمها ، رجلا من أفذاذ العالم وفلتات العصور هو الإمام الجليل ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري ، فراجع أشعار العرب ، وحصرها تحت أنواع من الأوزان يجمع كل وزن صوراً منها متقاربة ، وسمى هذه الأوزان بحور الشعر ، وكان عالماً بالنغم حاذقاً فيه حتى أنه ألف كتاب : « النغم » ، وكتاب : « الإيقاع » كما ذكر ابن النديم ، فساعده ذلك على استخراج هذه الأوزان .

وليس استخراج هذه الأوزان أمراً يسيراً ، ولولا أن الخليل كان إلى جانب علمه بالأنغام ، ذكياً معدوداً من أفراد العالم ، زاهداً في الدنيا ، منصرفاً إلى خدمة العلم ماوفق إلى اختراع علم العروض في صعوبته فيخرجه للناس كاملاً مخالفاً بذلك سنة النشوء ، والارتقاء في تدرج العلوم وانتقالها على أيدي العلماء جيلاً بعد جيل حتى تصير إلى ما هي عليه . ولقد ذكر من صبر الخليل على عمله في استنباط هذا العلم أنه كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها ، وقد دخل عليه ابنه مرة ، فظن أنه قد جن ، فقال له الخليل :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذرتك
لكن جهلت مقالي فعذرتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

هل للعروض أصل ؟

قيل : إن رجلاً سأل الخليل هذا السؤال ، فقال له : نعم ، لقد مررت بالمدينة ، فرأيت شيخاً يعلم غلاماً ، ويقول له :

نعم لا . نعم لا لا . نعم لا . نعم لا لا . نعم لا لا . نعم لا لا . نعم لا لا

قال الخليل : فسألت الشيخ عن هذا ، فقال : هو علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه « التنعيم » .

وقيل أيضاً : إن العرب كانت تعرف نغم الأبحر ، فكان الشاعر إذا أراد أن يقول شعراً كرر بيتاً ، أو كلمات مهمة حتى تمتلئ نفسه بالنغمة التي يريد أن ينظم عليها ، ثم يقول على مثال ما كرّر ، وكانوا يسمون هذا المكرر « المتر » .

وأرى أن هذا كله أدعاء يراد به الغرض من شأن الخليل في اختراعه . يؤيد ذلك أن العرب لم تكن تعرف الصناعة في لغتها من أى ناحية فلم تعرفها من ناحية الوزن ؟ وأن هذا العلم لو كان قديماً معروفاً قبل الخليل ما أصاب الناس الدهش حين أخرجه لهم فشغلهم به عن كل ما سواه حينما من الدهر . والخليل جدير أن يكون أباً عُذرة هذا الفن ، فقد عوّدنا أن يأتي بالعجب العجيب في كل ما يعمل ، فهو المتهدى إلى طريقة وضع المعاجم وحصر ألفاظ اللغة ، كذلك هو مخترع صور حركات الشكل للحروف العربية ، وقد زاد في الشطرنج قطعة سماها الجمل ظل الناس يلعبون بها زمناً ومات وهو يفكر في طريقة حسابية قال عنها : تمضى بها الجارية إلى البديل فلا يظلمها . . . ، ومات الخليل سنة ١٧٤ هـ . . .

علماء العروض

وأشهر العلماء الذين يذكرون في هذا العلم ولهم فيه آراء اعترضوا بها على الخليل وهى غير جوهرية ، هم : الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيدييه ، والجرمى وأبو إسحق الزجاج تلميذ المبرد ، وقد حصر الخليل أوزان الشعر في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً تشبهاً لأحدها بالبحر في الاتساع لأن كل وزن تجرى عليه أمثلة كثيرة من شعر العرب ، وتلك البحور هى : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ،

والكامل ، والمهزج ، والرجز ، والرمل ، والسريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمتقارب ، والمجتث ، والمتقارب .

وقد جاء الأخفش فزاد وزناً هو بحر المتدارك ، وقيل : إن الخليل نظر في هذا الوزن فلم يصح عنده لأنه مخالف لأصوله التي وجد عليها أكثر كلام العرب إذ أن التشعيت والقطع ، وهما من العلل الشعرية (يدخلان في حشوه وهما مختصان في كل الأوزان بالأعاريض والأضرب ، فلذلك جعله الخليل شاذاً ولم يعول عليه ، ولو أننا تابعنا من يقول : إن الخليل لم يهتد إلى هذا الوزن ولم يعثر بأمثاته فيما جمعه من كلام العرب فليس ذلك بقادح في فضله .

وجاء بعد الأخفش الجوهري ، فجعل البحور اثني عشر : سبعة مفردات ، وهي : الوافر ، والكامل ، والمهزج ، والرجز ، والرمل ، والمتقارب ، والمتدارك ؛ وخمسة مركبات وهي : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والخفيف ، والمضارع . فالطويل : مركب من المتقارب . والمهزج : لأن الأول وزنه فعولن فعولن ، والثاني وزنه مفاعيلن مفاعيلن . والطويل : مركب منهما ووزنه فعولن مفاعيلن ، وبقية الخمسة يتركب كل واحد منها من بحر من السبعة المفردة ، فلا نطيل بذكر هذا التفصيل ، وزاد الأخفش في الوافر عروضاً ثالثة مجزوة مقطوفة وضربها مثلها ، واستشهد عليها بأبيات من الشعر القديم إن صحت فهي قليلة لا تكفي لتقرير قاعدة . كذلك خالف الأخفش الخليل في مشطور الرجز ومنهوكه ؛ فالخليل يعدّها شعراً ، والأخفش لا يرى ذلك . أما ما تركب من جزء واحد ، فهما متفقان على أنه لا يسمى شعراً ، وخالفهما الزجاج ، فجعل من الشعر قول القائل : موسى القمر ، غيث زخر ، يحيى البشر .

وقد كان الخليل يسمى مجموع الحذف والقطع (الحذف هو حذف السبب الخفيف والقطع : حذف ساكن الوند المجموع) بترّاً إذا وقعاً في المتقارب والمديد ، وخالفه الزجاج ، فلم يسم ذلك بترّاً إلا في المتقارب ، إذ هو الذي يظهر فيه البتر لصيرورته إلى فع بعد

فعلون . أما في المديد فإن فاعلاتن يصير فاعل فيبقى من الكلمة أكثرها ، فلم يستحسن الزجاج تسمية هذا الجزء من المديد أبتر ، وكان يسميه (محذوفاً مقطوعاً) .
هذه أمثلة مما استدرك به العلماء على الخليل وجميعها أمور في العرض لا تقدر في فضل الرجل ونسبة هذا العلم إليه جملة وتفصيلاً فيكون نسيج وحده في العلماء ، وهو جدير بهذا فقد قالوا قديماً في الدلالة على فضله : إنما أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خص لا يشعر به . وحكاياته في الزهد كثيرة . ولعله لا يتم لعالم ماتم له من الفضل ، وحسن الأثر إلا إذا كان مثله في زهده ، وعدم قصده الدنيا بعلمه ، رحمه الله رحمة واسعة .

مصطلحات العروض

كان من لوازم وضع العلم أن توضع له مصطلحاته ، وقد قام الخليل بذلك فاختر ألفاظاً عربية ناسب فيها بين المعاني اللغوية والمعاني المرادة في اصطلاحه ، وشرح للناس هذه المناسبات .

فقال : إنه يسمى الجزء الذي في آخر الشطر الأول من البيت عروضاً تشبيهاً له بالخشبة التي تكون في وسط الخيمة وعلل تسمية الطويل بطول أجزائه وكثرة حروفه ، والوافر بوفرة الأوتاد فيه ، والمديد بامتداد سباعيه حول خماسيه ، وخالفه الزجاج ، فقال : إنه يشاركه في هذا كل ما تركب من خماسى وسباعى ، وإنما سمي مديداً لامتداد سببين في طرف كل جزء من أجزائه السباعية ، واعترض قوم على هذا التعليل بما لا طائل تحته ، إذ أن سبب التسمية لا يوجبها ، ولكل مصطلح عند الخليل تعليل ، وقد يخالفه من أتى بعده في سبب التسمية أو في التسمية ذاتها كما حصل في تسمية مجموع الحذف والقطع بالبتير ، وقد مرّ بك هذه المسألة .

- ١٩٧ -

ويحسن بالطالب ألا يجهل من مصطلحات العروض أشياء في وصف الأبيات تمرّ به كثيراً في دواوين الشعراء وكتب الأدب ، ولا يليق به جهلها ، فمن ذلك :

البيت الثام : هو الذي استوفى أجزاءه فلم يحذف منه تفعيله من تفعيله ، ولا عراها نقص كقول الشاعر (من الكامل) :

وَإِذَا حَوَّتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَالِي وَتَكَرَّمِي
وقول الآخر من الرجز :

دَارُ لِسَلَمَى إِذْ سُلِمَى جَارَةٌ قَفَرًا تَرَى آيَاتَهَا مِثْلَ الزُّبُرِ
والوافية : هو ما استوفى أجزاءه مع نقص شيء من بعض الأجزاء مثل قول طرفة (من الطويل) :

سَبُّبِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ
والجزء : هو ما ذهب جزءا عروضه وضربه مثل قول الشاعر (من الوافر) :

لَقَدْ عَلِمْتَ رَبِيعَهُ أَنْ نَ حَبْلَكَ وَاهِنٌ خَلَقُ
والمشطور : ما ذهب نصفه مثل قول العجاج (من الرجز) :

* مَا هَاجَ أَحْزَانًا وَشَجَوًا قَدْ شَجَا ؟ *

والمهوك : ما بقي ثلثه مثل قول ورقة بن نوفل (من الرجز) :

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعُ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ

والمصمت : وهو ما خالفت عروضه وضربه في الروي كقول ذي الرمة :

أَنْ تَوَسَّمْتَ مِنْ خِرَفَاءِ مَنْزِلَةٍ مَاءَ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومِ

والمصرع : ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزيادة أو نقص ، فالزيادة كقول امرئ القيس :

قَفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبَ وَعِرْفَانَ وَرَبَعَ خَلْتَ آيَاتِهِ مِنْذُ أَرْمَانَ

ومثال النقص قوله أيضاً :

- ١٩٨ -

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإنى مقيم ما أقام عسيب
والمقفى : ما اتفقت فيه العروض والضرب فى القافية من غير تغيير فى العروض مثل
قوله أيضاً :

قنا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

٣ علم الادب

يُحسن بنا قبل تعريف هذا العلم وبيان المراد منه أن نذكر الأطوار التى مرت
بكلمة « أدب » فعمل فى توضيح ذلك إشارة إلى المراد من هذا العلم .

لم يعرف الجاهليون الأدب إلا بمعنى الخلق الحسن والخيم الطيب ، وقد نقلوا هذا
المعنى عن الأدب ، وهو الدعوة إلى الطعام ولا يدعوا إليه فى مثل صحراء العرب المقفرة
وأرضهم المجدبة إلا كل سمح جواد طيب النفس .

ثم جاء العصر الأموى فاشتغل الناس برواية الشعر الذى يسمو بالنفس ويزيد فى
فضائلها ، والأخبار الدالة على شجاعة العرب وكريم شمائلهم وعظيم قائلهم فسمى
مجموع ذلك أدبا لأنه وسيلة الأدب وباعته فى النفس . وسمى رواة هذه الأشعار وقلة
تلك الأخبار أدباء أو مؤدبين ، وسمى تعليمها تأديبا . ثم نشأت العلوم العربية من نحو
وعروض ولغة فانضمت إلى رواية الشعر والأخبار وشماتها كلمة الأدب إذ كان طالب
الشعر والخبر لا يصاح له إلا بحذق هذه العلوم ، ومنذ القرن الثالث لما داخل الشعراء
والكتاب الأدباء فى صناعتهم سمو أدباء مثلهم وما زالوا حتى استبدوا بوصف الأدب
فصار الأديب فى الغالب هو الشاعر والكاتب .

وقد قال ابن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ صاحب كتاب « نزهة الألبا ، فى طبقات
الأدبا » : (ان علوم الأدب ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى

وصنعة الشعر وأمثال العرب وأنسابهم) ثم جعلها الزمخشري اثني عشر علماً . وأرى أنهما لم يستوفيا إلا ما كان يشترط في الأديب لعهدهم وما قبله فإنه لما كان المقصود من الأدب ثمرته وهي الإفادة في فن المنظوم والمنثور كما يقول ابن خلدون ، توسع الناس في مطالب الأديب حتى لم يجدوه مستغنيا عن الإلمام بأى علم ، فقالوا في تعريف الأدب قولاً أشمل من قول ابن الأنباري والزمخشري ، وهو (حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف) . ولعل هذا أصدق تعريف له . ويكفي أن تتمثل ما يحتاج إليه الأديب اليوم إذا أنشأ مقالا أو عمل قصيدة هل تراه في غنى عن فلسفة أو اقتصاد أو علم نبات أو حيوان أو تاريخ قديم أو حديث ، إلى جانب الخيال الشعري والأدلة الخطابية ، حتى يستطيع أن يصور معانيه ويحسن تمثيلها للناظر في كلامه .

أولية الأدب العربي م

إذا كان الأدب أبسط معانيه هو حفظ الأشعار ورواية الأخبار ، فاعلم أن العرب اشتغلوا به منذ جاهليتهم ، فقد كان لهم شعراء لا ينبغون حتى يتعلموا لغتهم كما كان أمرؤ القيس تلميذ أبي دؤاد الإيادي ، وكما كان زهير تلميذاً لخاله بشامة بن الغدير ، وأوس بن حجر ، وكما كان الحطيئة تلميذ زهير وابنه كعب من بعده ؛ فكان هؤلاء يروون أشعار أساتذتهم ويمدون بها القوم ويتنمون بمحاسنها كذلك كان في العرب نسابون يعرفون أنساب القبائل ويحفظون وقائعها وأيامها . بل لقد وصلوا بالأدب إلى أقصى غاياته ، وهو النقد والتحريض لآثار البغاء ، وقد تمثل ذلك كله في سوق عكاظ على ما تعلم .

ولما جاء الإسلام شغلهم حيناً عن الشعر وقوله والأخبار وروايتها بالأمر العظيم الذي جاء به ، وهو نشر الدين ، وإعلاء كلمته ، على أنهم في هذه الفترة لم يعدوا زعماء

يدعونهم إلى الأدب ويرغبونهم فيه ، كالسيدة عائشة ، وعمر بن الخطاب ، وأقوالهم في ذلك ماثورة مشهورة .

فلما صار الأمر إلى بنى أمية جعلوا إحياء الأدب وتجديد دارسته ونشر مطويه ناحية من نواحي سياستهم ، فكانت له في أيامهم سوق نافقة .

وفي هذه الأطوار كان الأدب يتناقل بالمشافهة ويدرس بالمحاضرة لم يقيد منه إلا قليل ؛ فلما جاء العصر العباسى ، ودوّنت العلوم كان للأدب من بينها نصيب كبير ، وبدأت تأليفه في أول أمرها رسائل صغيرة في مسائل خاصة ، فلاّ بن المقفع رسائل في الآداب ؛ منها الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان . وللأصمعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ كتاب في معاني الشعر ، وكتاب الأصمعيات ، وهو مجموع مختارات من كلام الشعراء ، وله أيضاً رجز العجاج . ولأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كتاب : « قنائض جرير والفرزدق » ، وكتاب طبقات الشعراء ، ويسميه ابن النديم : « الشعر والشعراء » ، ولأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ هـ كتاب الأمثال وقبل ذلك جمع حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ هـ معلقات العرب التي بأيدينا ، وكذلك جمع شعراً أكثر القبائل ، وأخرج المفضل الضبي المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتاب « المفضليات » ، وكتاب « الأمثال » .

كانت هذه الرسائل هي الإرهاص لما جاء بعد ذلك من كتب الأدب التي تشمل أبوابه وتجمع فنونه ، وتكون خليطاً من النحو واللغة والنقد والتاريخ ، ولقد تأخرت هذه الكتب في الظهور لأنها كانت تحتاج إلى ثقافة خاصة وفكر مقوم درس العلوم على اختلاف أنواعها ثم خرج منها بنتائج كانت هي محاسن تلك العلوم فناسب أن تجتمع في الكتب التي تقرأ للذة والفائدة ، وتقويم اللسان ، وتثقيف الجنان ، وتلك هي كتب الأدب .

وكان أول ما خرج منها للناس : « كتاب البيان والتبيين » للجاحظ المتوفى

- ٢٠١ -

سنة ٢٥٥ هـ ، وهو كتاب يجمع فنون القول من نثر ونظم ، ويضم أخبار طبقات الناس من جاهليين وإسلاميين ، ومن خلفاء وأمرأ ، وعامة ، ومن صلاح زهاد وزنادقة ملحدين ، ويجمع إلى الفكاهة المضحكة ، الموعظة المشجعة .

ولما كانت كتب الجاحظ أسبق كتب الأدب إلى الوجود ، وكان صاحبها قدوة في علمه وفضله رأينا أن الكتب التي جاءت بعده قد نهجت نهجه وسلكت طريقه ، فترى كتاب الكامل المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ صورة للبيان والتبيين في جمعه المسائل الكثيرة بلا نظام ولا تبويب محكم ، وإن كان طابع كل مؤلف قد ظهر في كتابه ، فغزارة علم الجاحظ وكثرة تعويله على العقل جعلته يعتمد في كتابه على قلمه ، فترى له فصولاً هي من نسج يده كتاب « البيان » وغيره . وكثرة رواية المبرد وغلبة النحو عليه جعلت كتابه أقرب إلى أن يكون جمعاً وسرداً لا أثر للمؤلف فيه ، وتستطيع أن تفهم هذا من قول صاحبه في مقدمته : (هذا كتاب يجمع ضرورياً من الآداب بين منشور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن نفسر كل ما يقع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق) .

وقد فعل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى ٢٨٠ هـ فعل الجاحظ والمبرد في كتابه : المنظوم والمنثور الذي أخرجه في أربعة عشر جزءاً لم يكن له فيها أثر ظاهر لأن كتابه كله اختيار بحث .

ثم إننا نرى التأليف في الأدب ينتحي منحى أدق في بابه ويعنى فيه بأبواب جديدة ، فتحل أبحاث البلاغة محل أبحاث النحو الذي طال عليه العهد وفرغ الناس من استطرافه ، فترى كتاب : « الصنائع : الشعر ، والنثر » ، يعنى بمباحث البلاغة على حين لا يعرض لمسألة واحدة من النحو . وترى كذلك كتب النقد تخرج دالة على حصافة مؤلفيها وعظيم ثقافتهم ، فتنتقد الشاعر أو الكاتب في اختيار لفظه ، وفي تأليف خياله وصوغ استعارته أو تشبيهه كما فعل أبو بشر الأمدى في الموازنة بين

أبى تمام والبحترى ، وكما فعل أبو منصور الثعالبي في « يتيمة الدهر » خصوصاً عند ما عرض المتنبي ، فإنه لم يترك حسنة إلا سجلها له ، ولا مذمة إلا عدّها عليه في أسلوب قوى وتقذ لا ذع . ويتمثل في كتب هذه الطبقة النظام وحسن التبويب . وأرقى مثال لهذا ، كتاب العقد الفريد وإن كان صاحبه من أدباء الأندلس . وكذلك ترى مادة العلم تتسع وينضمّ شتاتها حتى يؤلف أبو الفرج الأصبهاني كتابه : « الأغاني » ، وهو واحد وعشرون جزءاً في الألحان وتراجم مغنيها وقائلي شعرها .

وقد كان الغناء في أوائل أيام الدولة أحد علوم الأدب لالتزامهم تلحين الشعر ، فكان المعاني له لا بد أن يكون أديبا يحسن اختيار ما يلحّنه من كلام الشعراء ويحسن فهمه وضبطه ، وكان سامع الغناء يستفيد إلى جانب اللذة فائدة لغوية وخيالاً بديعاً فيما يسمعه من شعر مختار ، وكانوا يسمون النغم والمنادمات والأسمار « الآداب الرفيعة » .

الأسمار والخرافات

في العصر الثاني من عصور اللغة في الدولة العباسية انتشر نوع من الآداب هو الأسمار والخرافات ، وقد كثر هذا النوع لما أصبح السمر والمناذمة صناعة ، وذلك حين شلت يد الخلفاء عن أعمال الدولة واستبدّ بها الوزراء من الترك والفرس فاحتاج الخلفاء إلى ما يشغلهم ويملاً فراغ وقتهم ، فعكفوا على أنواع الملاحى من شطرنج ونرد وغيرها ، وأدّنوا منهم القصص والندماء يحدّثونهم بما يزيح سأمهم ويزجي وقتهم . وأوّل ما عرف الناس من كتب الأسمار (وقد ظهر مبكراً جداً) هو كتاب : « كليلة ودمنة » الذي ترجمه عبد الله بن المقفع .

وقد أقبل عليه الناس يدرسونه لطرافته وبلغ حكيمته حتى أنهم من عنايتهم به

نظموه كما فعل أبان بن عبد الحميد ، ولكن هذا النظم قد ضاع ، فلم يبق منه إلا قليل ؛ ومنه هذان البيتان وهما :

هذا كتابُ أدبٍ ومُحَنِّه وهو الذي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَهُ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدٌ وهو كتابٌ وَصَعَتَهُ الهِنْدُ

والأسمار التي اشتغل بها العرب تنقسم قسمين : منها عربي ، ومنها مترجم ؛ فالعربي منها يحكي حياة العرب ويمثل معيشتهم وآدابهم وشجاعتهم ، والذي يغلب على هذه القصص أنها ترجع إلى أصل من الحقيقة ، ولكنه ضئيل بالنسبة إلى ما صارت إليه بالتهويل والزيادة على مرور الأيام ، وقد أباحوا لأنفسهم فيها عدم التقيد بالحقيقة لأن الغرض منها إما إثارة الحمية في النفوس أو تزجية الوقت ، فلم يكن الشأن فيها للحقيقة ، بل هو لأغراض أخرى لا تتحقق إلا بالإطالة والتوسع .

ومن تلك القصص العربية قصة عنتر وضعها رجل اسمه يوسف بن إسماعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي بمصر ، وكانت قبله معروفة يتناقلها الناس بالرواية عن الأصمعي ، وما زالت تتسع وتتشعب حتى دونها يوسف هذا حين طلب إليه الخليفة العزيز الفاطمي أن يصنع للناس شيئاً يشغلهم عن الحديث في فتنة وقعت في قصره فدون هذه القصة فتلهى بها الناس عن ذاك الحديث .

ومن القصص العربية أيضاً قصص غرامية تمثل العفة والتفاني في الحب بنيت على ما جاء في أخبار العشاق ، ككثير لُبني ، وجميل بثينة ، ومجنون ليلى ؛ وفي كل هذه القصص نصيب للحقيقة ، ولكن لخيال الرواية فيها ظل كبير .

القصاص المترجمة

كذلك نقل العرب قصصاً عن الأمم الأخرى ، وكان أكثر ما نقل عن الفرس والهند ، وقد ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات منها ، ولكنها ضاعت فلم يبق بأيدينا منها إلا ألف ليلة وليلة ، وهى قصص متسلسلة تقع فى نحو أربعة آلاف من الصفحات ، وهى فارسية الأصل نقلت قبل القرن الرابع للهجرة واسمها بالفارسية (هزار افسان) قال المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ : إن اسمها إفسانه ، ومعناه بالفارسية : خرافة . قال والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة وليلة » .

وذكر ابن النديم فى فهرسته : أن سبب وضع الكتاب بالفارسية أن ملكاً من ملوكهم كان كلما تزوج امرأة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من بنات الملوك لها عقل ودراية ، وكانت تسمى شهرزاد ، وقد علمت عنه هذه الحالة . فلما حصلت عنده جعلت تخوفه وتنتهى من حديثها فى كل ليلة بما يجعل الملك يشاق إلى تتمته ، وما زالت كذلك حتى أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وكانت قد رزقت منه ولداً ، فأظهرته وأوقفت الملك على حيلتها فاستعقلها واستبقاها .

وهذا الكتاب أيضاً لم يبق على ما كان عليه فى الأصل الفارسى ، بل زيدت عليه حكايات بغدادية ومصرية ، ولكن لا تزال عليه المسحة الفارسية ، وقد عدّه ابن النديم : « غثا باردا » لكثرة ما أصابه من عبث وما أفسده من ألفاظ وأساليب عامية ، وخيالات وتصوّرات تمثل أفكار الطبقات الجاهلة فى تلك العصور . ولسنا نعدّه اليوم من كتب الأدب المحترمة التى يقبل عليها ذوق السليمة ، وطلاب الأدب الراقى ، بل هو عندنا لهو العامة وأهل البطالة وصغار المتعلمين .

والعجب أن الإفرنجية يطرون عجباً بهذا الكتاب وقد ترجموه إلى لغاتهم ويعدونه من أجمل الآداب العربية ، ولعلمهم إنما نظروا إليه من ناحية أنه يصور الشعوب في تلك العصور تصويراً حقيقياً ، وذلك مقصد يهم الباحث الاجتماعي .

وأظهر ما في الكتاب أنه يمثل حياة الانهماك في اللذة في قصور الملوك والعظماء ، ويصف المرأة وصفاً يدل على الضعف وسوء ظن الرجل بها وعدم ثقته بأدائها ، ويدل الكتاب كذلك على نشو الجاهالة في طبقات تلك الشعوب حتى إنها كانت تميل إلى تصديق هذه الخرافات من أخبار السندباد البحري وغرائب ما شاهده في أسفاره من السمك الكبير الحجم على هيئة البقر والحمر ، والثعابين التي تأكل الآدميين وطير الرنخ الذي يشبع فرخه الصغير عشرات من الناس إلى غير ذلك .



وقد عرض ابن خلدون لكتب الأدب فذكر أنه سمع من شيوخه في مجالس العلم أن أصول هذا الفن (الأدب) ، وأركانه أربعة ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى ذلك فتبع لها وفروع منها .

وأنت ترى من هذه الكتب ما ليس له قيمة ظاهرة بين كتب الأدب مثل : أدب الكاتب فهو إلى الإملاء أقرب منه إلى الأدب ، ولا ينبغي أن نسيء الظن بفهم ابن خلدون في تقديره لكتب الأدب فإنه إنما حكى آراء شيوخه فليس ينبغي أن يؤخذ بها على أنه في نفس هذا المعرض أشاد كثيراً بذكر كتاب الأغاني ، فقال عنه : « جمع فيه (أي مؤلفه) أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المسألة صوت التي اختارها المغنون للرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في

- ٢٠٦ -

كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها .

العلوم الشرعية

نكتفي منها بالكلام عن التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام

التفسير

نزل القرآن الكريم على صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فكان يفسر للصحابة غامضه ، ويبين أحكامه بالقول والفعل ، ويعين ناسخه ومنسوخه ، وكان الصحابة يحفظون ذلك عنه ويتناقلونه ، وكان فقهاؤهم كالحلفاء ، وابن عباس ، وعبد الله ابن عمر ، وابن عمرو ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنس بن مالك يبينون للناس ما غمض عليهم ، ثم جاءت طبقة التابعين ، فنقلوا عن الصحابة ؛ ومن هؤلاء : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة بمكة ؛ والنخعي والشعبي بالكوفة ؛ ومالك بن أنس بالمدينة ، والحسن البصري بالبصرة .

ولم يؤثر عن أحد من هؤلاء تأليف ، بل كان الناس يتناقلون رواياتهم بالسمع . اللهم إلا ما ذكرنا من تفسير ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ، وفي دار الكتب الملكية نسخة منه ، والذي يظهر أن نسبته إلى ابن عباس إنما يقصد بها أنه من روايته لا أنه كتبه فإن عهد ابن عباس عهد تخرج من كتابة التفسير حتى لا يختلط بالقرآن ، والمشهور أن أول من دوّن التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولما حدث التأليف في العصر العباسي دوّن الناس التفاسير ، فجمعوا فيها كل

- ٢٠٧ -

ماوصل إليهم من روايات ، وفيها كثير من الأباطيل التي قبلها المسلمون في عهدهم الأول من أمثال : كعب الأحبار ، وعبد الله بن منبه ، وعبد الله بن سلام ؛ وهم يهود أسلموا ، وكانت لهم أقدار استفادوها بصحبة النبي أو البلاء في الإسلام وكان العرب قد بدأت أذهانهم تتفتح للمعرفة ، فكانوا يسألون هؤلاء لأنهم أهل مدينة وأديان قديمة ، فكانوا يجيبونهم بما درسوه في دينهم القديم ، وكان قد سبق فحشى بالترهات والأباطيل ، فانتقلت هذه إلى المسلمين عن هذا الطريق ، كذلك عمل كثير من أعداء المسلمين على دس هذه المفاسد والأضاليل حتى يشوهوا بها جمال الدين ، فجازت على الناس خصوصاً إذا وردت إليهم منقولة عن يوثق بإسلامه .

وجاءت بعد ذلك طبقة من المفسرين فخصوا هذه الأقوال ، وحققوا الروايات ، ونفوا الأكاذيب . ومن هؤلاء : أبو جعفر بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ صاحب « جامع البيان في تفسير القرآن » ، وقد وزن فيه بين الآراء ونفى زائفها وحرص على جمع أقوال الصحابة والتابعين التي رويت من طرق صحيحة فلذلك كان من أجل التفاسير مع كونه من أقدمها . والذي ساعده على تمحيص الروايات أنه كان عالماً بالتاريخ فاستفاد بذلك في تفسيره ، وهو صاحب التاريخ المنسوب إليه المسمى : « كتاب أخبار الرسل والملوك » .

وفي العصر الثاني وما بعده : حين ضعفت الملكات من الفهم لم يكن يكتفى في تفسير الآية ببيان معناها ، بل احتاج طلاب العلم إلى أن يدلوا على ما فيها من وجوه البلاغة ، وأن يعرب لهم لفظها ليساعد ذلك على الفهم ، وكانت العلوم من فقه وأصول وغيرها قد عرفت ، فكان المفسرون يتناولون مسائلها كلما عرضت لها مناسبة ، فاجتمعت العلوم كلها في تفسير القرآن ، وهذا يحقق ما قلناه من أنها إنما بحثت في سبيل خدمته ، ولكن كل تفسير كان يغلب عليه العلم الذي برز فيه مؤلفه ، فتفسير أبي إسحق الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ المسمى : « كشف البيان عن تفسير القرآن »

يغلب عليه القصص . وتفسير الكشاف تغلب عليه البلاغة والاحتجاج لمذهب المعتزلة ،
وتفسير الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ المسمى : (مفاتيح العلوم) يغلب عليه الكلام
والأصول .

وفي هذه الكتب الأخيرة تركت الأسانيد التي كانت تلازم التفسير القديمة .

علم الحديث

كان شأن حديث رسول الله ﷺ شأن تفسير القرآن منقولاً بالرواية عن الصحابة
وتابعيهم ، وكان الأئمة في العصور الأولى يتحرّجون من تدوينه حتى لا يختلط بالقرآن .
ولكن كثيرين اجتروا على رسول الله ﷺ يكذبون عليه متعمدين غير خاشين من
تبوء مقاعدهم من النار يوم القيامة ، وهؤلاء هم الذين دخلوا في الدين ليفسدوه ويغيروا
معامله ، كما أن كثيرين ممن لا شك في إسلامهم أرادوا أن يستعينوا بمقام رسول الله
عند الناس ، فأسندوا إليه أقوالاً لم يقلها ، وإنما كان غرضهم أن يحاربوا بها أعداءهم
كما كان يفعل المهلب بن أبي صفرة في قتاله للخوارج ، فكان يضع الأحاديث ليشد بها
أزر جنوده ويضعف أمر أعدائه ، كذلك أكرت الفرق الدينية كالشيعة وغيرها من
وضع الأحاديث لتأييد مذاهبها حتى كان لأهل السنة أحاديث وللشيعة غيرها . وقد
عدّ من وضاع الأحاديث محمد بن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن
سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام ، وابن أبي العوجاء بالكوفة ، وكثير من
هؤلاء كان يعترف بما أحدث ، كما فعل ابن أبي العوجاء حين قدم للقتل سنة ١٥٣ هـ
فإنه قال : « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حلت بها الحرام وحرمت الحلال ،
والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتمكم يوم فطركم » .

كثرت الأحاديث كثرة هائلة ، وتناقضت تناقضا ظاهراً على أيام عمر بن عبد العزيز حتى كانت الأحكام في البصرة والكوفة ، تخرج متناقضة في مسألة واحدة ببلدة واحدة ، فراع ذلك عمر ، ولكنه أحجم عن التدوين ، ونفى الزائف حتى لا يكون قد ابتدع ما لم يسبق إليه ، وكان ورعاً كثير التحرج ، ولكنه لم يستطع صبراً على هذه النتائج ، فاستخار الله أربعين يوماً ، فخارله الله أن يدون الحديث . فندب لذلك ابن جريج ، أو ابن شهاب الزهري ، أو أبا بكر بن حزم ، ودون من الأحاديث مدونة كتب بها إلى الأمصار حتى يكون العمل عليها .



وفي العصر العباسي تجرّد العلماء بمعونة الخلفاء لجمع الأحاديث ، والنظر في رواياتها وتعديلها وتجريحها ، وبيان ناسخها ومنسوخها ، ففرع من الحديث علوم ، منها : معرفة الناسخ والمنسوخ إذا تعارض الخبران ، ولم يمكن الجمع بينهما ببعض التأويل ، وعلم تقدم أحدهما على الآخر ، فيحكم إذ ذاك بنسخ المتأخر للمتقدم ، وقد قال الزهري : (أعياء الفقهاء أن يعرفوا ناسخ الحديث ومنسوخه) وكان للشافعي فيه قدم راسخة . ومن علوم الحديث معرفة الأسانيد ، فبحثوا في الرواة تعديلاً وتجريحاً ، وفي الرواية اتصالاً واقطاعاً ، وألفوا الكتب في طبقات الرواة ، كما بحثوا في غريب الحديث ، وألفوا المعاجم في ذلك . فلم يتركوا في خدمة كلام رسول الله باباً إلا ولجوه . وقد أبلوا في هذا العمل بلاءً حسناً حتى استطاعوا تجريد الحديث مما شابه على مرور الأيام ، ولم يتركوا في هذا العمل بقية يتمها غيرهم من بعدهم ، فهم كانوا لقربهم من عهد الرواية ، ولحدبهم على الدّين خلفاء وعلماء ، أجدر ألا يتركوا ثلثة دون أن يسدوها ، ولذلك يقول ابن خلدون : (وقد انقطع لهذا العهد (عهد ابن خلدون) تخريج شيء من الأحاديث أو استدراكها

على المتقدمين ، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم ، وتلاحق عصورهم ، وتفاينهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة ، أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخرون . هذا بعيد عنهم . وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية ، والنظر في أسانيدھا إلى مؤلفيھا ، وعرض ذلك على ما تقرّر في علم الحديث من الشروط والأحكام) .

وقد اختلف نظر الأئمة الفقهاء إلى الأحاديث ، فمن صحّ عنده منها كثير ظهر أثره في مذهبه ، فكان إلى التقليد أقرب كالإمام مالك أفادته نشأته بالمدينة بين أهل الحديث ، وثقات روايته أن صحّ عنه منه الكثير ، فلم يحتج إلى القياس في أحكامه . والإمام أبو حنيفة النعمان نشأ بالعراق ، والحديث الصحيح بها قليل والمكذوب الموضوع كثير ، فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً ، فكان مبنی مذهبه القياس . والإمام أحمد بن حنبل كان يروى ألف ألف حديث ، وقد دون نصفها فكان مذهبه أشدّ تعويلاً على الرواية من كل المذاهب .



والكتب المصنفة في الحديث أكثر من أن تحصى إلا أن السلف والخلف قد أطبقوا على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى هي : « صحيح البخارى » ثم « صحيح مسلم » ثم « موطأ مالك » ثم « سنن أبي داود » ثم « سنن الترمذى ^(١) » ، ثم « سنن النسائي ^(٢) » .

(١) نسبة إلى مدينة على طرف نهر جيحون . قال ابن خلكان : والناس يختلفون في ضبطها ، فبعض يقول بفتح التاء ، وبعض بضمها ، وآخرون بكسرها . قال والمتداول على لسان أهل تلك المدينة فتح التاء مع كسر الميم ، والذي كنا نعرفه كسر التاء والميم جميعاً ، والذي يقوله المتشققون وأهل المعرفة ضم التاء والميم (كتابنا إجماع الأعلام) .

(٢) النسائي : نسبة إلى مدينة نسا من مدن خراسان ، والنسائي كان إمام عصره في الحديث سكن مصر وانتشرت بها تصانيفه ، وفي آخر حياته قدم دمشق فثّل عن معاوية فقال : أما يرضى أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل على فداسه الأمويون في المسجديات سنة ٣٠٣ هـ (إجماع الأعلام) .

والذى أشار على مالك بعمل الموطأ هو أبو جعفر المنصور لما حج سنة ١٤٣ هـ ، فقال للإمام مالك : « يا أبا عبد الله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك ، فاجمع هذا العلم ودونه ووطئه للناس ، وتجنب شذائد ابن عمر ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة ، فاعتذر مالك فلم يقبل منه المنصور ، ثم قال مالك : « والله لقد علمنى التصنيف » ، وهو أقدم كتاب فى الحديث ، والفقه إلى أيامنا هذه .

وأما صحيح البخارى ، فهو للإمام محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ جمع فيه سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثاً ، منها ثلاثة آلاف مكررة ، وكان يقول : أصح الأسانيد على الإطلاق : مالك عن نافع عن ابن عمر . وقد كان البخارى آية فى الحفظ ، فإنه لما قدم بغداد ، وسمع به أصحاب الحديث فيها اجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث ، فقبلوا أسانيدها ومتونها وجعلوا متن هذا السند ذاك ، ثم دفعوها إلى عشرة من الرجال مع كل رجل عشرة أحاديث ، وأحضروهم مجلس امتحانه ، فجعلوا يسألونه وهو ينفى لهم صحتها ويرويها على أصلها ، فأقرّوا له بالفضل . ومسلم تلميذ البخارى ، وقد تبع أستاذه فى عمله ولم ينقل فى صحيحه إلا ما صح لديه بعد أن كان الأئمة يكتبون الصحيح والضعيف بسنده ، ويعتمدون على التمييز بذكر السند ، ولكن البخارى ومسلماً تركا بعض الصحيح والحسن .

ثم جاءت الطبقة التى يقول عنها ابن خلدون فلم يكن لها استدراك شىء فات ، وإنما كان عملها الشرح ، والضبط ومراجعة الأسانيد .

علم الفقه

هو استنباط الأحكام الشرعية من : واجب ، ومحذور ، ومندوب ، ومكروه ، ومباح فى أمور العبادات والمعاملات ، والأصل فى هذه الأحكام هو نص القرآن ، وحديث رسول الله من قول وعمل ، وقد كان الصحابة أيام النبى إذا نزلت الآية تولى

النبيّ شرحها لهم ، والعمل بها أمامهم ، وكلما جدّ لهم أمر أو عرضت قضية سألوه عنها فينزل فيها القرآن فيعملون بما قضى به .

فلما قبض الرسول عنهم ، وحدثت أحداث لم تكن على عهده ، أو نسوا حكماً في أمر من أمور دينهم كانوا يرجعون إلى كبار الصحابة الذين عنوا بدرس القرآن ، ولازموا رسول الله ووعوا قوله ورأوا فعله ، وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون القراء إذ لم يكن أغلب العرب إلا أمّيين لقربهم من البداوة ، فكان هؤلاء القراء يفتون الناس فيما يعرض لهم ، ويرجعون في ذلك إلى نصّ القرآن أو الحديث ، وتختلف أفهامهم في آية القرآن ، أو يصحّ عند أحدهم حديث لم يروه الآخر ، فنشأ عن ذلك اختلاف الآراء في مسائل الدين ، وكانت القضية التي تعرض إذا لم يجدوها نصّاً في القرآن ، ولا حديثاً من كلام الرسول رجعوا إلى أشباهها مما له حكم ، فقاسوها بها ما دامت العلة في الحكم متمثلة في تلك القضية العارضة ، وهذا ما يسمونه بالقياس .

وقد تفاوتت الأئمة في التعويل على القياس فبعض أكثر منه ، وهم أهل العراق لما فاتتهم رواية الحديث لقلة من نزل ببلادهم من أهله ، وكثرة ما راجع عندهم من الأحاديث الموضوعة ، لذلك لم يصحّ عند أبي حنيفة إلا سبعة عشر حديثاً ، فأغلب أحكامه اتبع فيها القياس ، وأهل المدينة لما كانت الرواية عندهم متوافرة ورجالها العدول كثيرون عوّلوا عليها في استنباط أحكامهم حتى كادت تكون كلها تقليداً ، وبعض توسط فأخذ من الحديث ، وعمل بالقياس على قدر ما أداه إليه اجتهاده .

وقد كثرت المذاهب حتى كان لكلّ فرقة من الفرق التي نشأت في الإسلام فقه يخالف فقه الفرقة الأخرى ، فكان للشيعة فقه ، وللخوارج فقه ، ولكن أغلب هذه المذاهب قد تلاشى بضعف أصحابه وذهاب ريعهم ، ولم يبق منها إلا ما أراد الله بقاءه لصالح الناس ، وهو المذاهب الأربعة : الحنفيّ ، والمالكي ، والشافعيّ ، والحنبليّ . ولكل من هذه المذاهب إمام عرف المذهب به ، ومواطن شاع فيها ، فأما الحنفيّ

- ٢١٣ -

فصاحبه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومقامه في الفقه لا يلحق ، يشهد بذلك الإمام مالك الذي قال في شأنه : « إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته » ، وقد انتشر مذهبه في العراق ، وفارس ، والهند والصين ، وما وراء النهر ، وبلاد الترك ، وشرق أردن ، وبعض بلاد الشام ، ومصر . والمذهب المالكي : صاحبه الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكان الشافعيّ من تلاميذه ، وقد بلغ من ورعه أنه لم يكن يركب بالمدينة مع ضعفه وكبره ، وكان يقول : لا أركب بمدينة بها قبر رسول الله . وقد انتشر مذهبه بالحجاز ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس . ولما عاد كثير من جالية العرب بالأندلس إلى الإسكندرية وصعيد مصر راج مذهب المالكية فيهما .

ومذهب الشافعي ينسب للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وكان مولده بغزة بالشام ، ثم نقل إلى الحجاز فتربى به ، وتلقى العلم عن الإمام مالك الذي قال في شأنه : « إن يكن أحد يفلح فهذا الغلام » . ثم قدم بغداد ، ثم خرج منها إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأملى فيها مذهبه القديم ، وكان ممن أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ثم خرج إلى مصر فأقام بها إلى أن توفى . ومقلدوه بمصر أكثر منهم بغيرها ، وكان قد انتشر مذهبه في العراق ، وخراسان وما وراء النهر ، وقاسم أهل الحنفية في الفتوى والتدريس ، ثم تقلص ظله ، وفي مصر اعتراه انزواء لما كان من فعل الفاطميين بأهل السنة عامة ، فراج مذهبهم الشيعي حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي ، فعاد مذهب الشافعي إلى الظهور بمصر ثانية . ومذهب الحنابلة : منسوب إلى الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو الذي شهد له الشافعي حين زایل بغداد إلى مصر ، فقال : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفتقه من ابن حنبل » ، وفي أيامه كانت فتنة خلق القرآن ، فدعى إلى القول بخلقه ، فلم يجب وضرب وحبس وهو مصرّ على الامتناع ، ومذهبه قليل

الأشباع لبعده عن الاجتهاد وأصالتنه في معاضدة الرواية ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وبلاد نجد والبحرين ، وهم متشددون في مذهبهم وطالما قامت الفتن ببغداد من آثار تشدهم وإنكارهم على غيرهم .

علم الكلام

هو العلم الذي يبحث في العقائد الإيمانية ، كوحانية الله وكماله وقدرته ، ويتناول إثبات ذلك بالدليل العقلي بعد ثبوته بالدليل النقلى ، فترتفع الشكوك ، وتزول الشبه التي تخالج النفوس الضعيفة

وإن البحث في تدرج هذا العلم ليمثل لنا كيف تنقل الفكر العربى في أطواره منذ بدء الاسلام إلى أن شاعت الفلسفة ، وانتشرت آراؤها بين المسلمين .

تدرج هذا العلم من البساطة إلى التعقيد ، ومن الفطرة السليمة إلى منازعة الشك ، ومجازبة التردد ، ومن وضوح البيان إلى تعقيد الفلسفة ، حتى صار في نهاية أمره طلاس ، واختلطت مسائله بمسائل العلوم النظرية التي جدت في الملة وصار لها السلطان على جميع الناس .

كان السلف الصالح يقرءون القرآن فتطمئن إليه قلوبهم وتسرع آياته إلى قرارة اليقين من نفوسهم ، فنزهوا الخالق عن مشابهة المخلوقات ، وآمنوا بالبعث والنشور لحديث القرآن عنهما ، ولم يتشككوا في حصولهما ، ولا في عذاب النار ونعيم الجنة ، ولم يحتاجوا الى دليل عقلى على ذلك ، وكفاهم أن الله أخبر عنه ، وأفاد تعلق إرادته به .

وليس معنى هذا أن الدين الإسلامى لم يأت حائثاً على النظر في ملكوت السموات والأرض ، فالآيات الداعية إلى ذلك في القرآن كثيرة قال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

كُلِّ دَابَّةٌ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ، وقال تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ، إلى غير ذلك من الآيات الحائلة على النظر والاستدلال بالموجود على الموجد . حتى إنه تعالى لم يقصر الاستدلال والبرهنة على وجوده جلّ شأنه ، بل ساق الدليل وأحكم العلة في الآداب التي هي مواضع محضة أو تكليف مطلق ، قال تعالى : « أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

وقد ظل السلف الصالح على ذلك وتلقاه منهم التابعون بالقبول الحسن ، ونظروا في الآيات التي توهم التشبيه فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث أو تأويل وقالوا أقرءوها كما جاءت مغلبين أدلة التنزيه لكثرتها ووضوحها ، ولكنه قد شذ عنهم قوم اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه لما جاء في ظاهر الآيات من إثبات اليد والأصبع والوجه والقدم في نحو قوله تعالى : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » : وقوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ » ، وقوله تعالى : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله : « تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إلى غير ذلك من الآيات والآثار . فأثبتوا كل ذلك لله فلما رأوا أنهم قد وقعوا في التجسيم الصريح ومخالفته آيات التنزيه أرادوا الفرار من شناعة ذلك فقالوا : جسم لا كالأجسام فوقوا في التناقض وخالفوا المعقول . وذهب فريق إلى التشبيه في الصفات فقالوا بالجهة ، والاستواء ، والنزول ، والصوت ، فاتهموا إلى التجسيم كما انتهى إخوانهم ، لأن الاستواء لا يكون إلا لمتحيز ولا يتحيز إلا الجسم . وهكذا بقية هذه الصفات تنتهي إلى ما انتهى إليه الاستواء من استلزام التجسيم ، ولما رأى هؤلاء صيرورتهم إلى ما لا يحبون أن يصفوا به الله تعالى قالوا صوت لا كالأصوات وجهة لا كالجهاة فسقطت حججهم بسقوط حجة الأولين ولم يبق قائماً إلا مذهب السلف والإيمان بما آمنوا به تغليفاً للآيات الصريحة الكثيرة على القليلة المتشابهة .

وهذه الآراء السابقة ما بين مشبهة ومنزهة كلها تمثل الفطرة ولا تخرج عن دائرة التفكير الأولى لأنها لم تتعدّ النصوص الواردة في الشرع غير أن بعضها آثر السلامة فغلب دليلاً على دليل وهذا هو رأى الذين نقوا التشبيه ، وبعض آخر حاول الجمع بين الدليلين وأحس أنه يحسن التخريج بينهما بما ارتأى ولكنه وقع في الخلف من حيث أراد التوفيق .

ثم لما تفتحت الأذهان قليلاً ، وعاشر العرب أقواماً لهم أديان سابقة ومذاهب في تلك الأديان متعددة تعمقوا التفكير وبحشوا الأدلة وناقشوها بفكر اعتاد الجدل فنشأت فرقة المعتزلة في حدود المائة الأولى بعد الهجرة وكان مبدأ تكونها أن واصل بن عطاء كان بمجلس من مجلس الحسن البصرى فاعتزل مجلسه وجعل يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، وأن له منزلة بين المنزلتين ، فقال الحسن : قد اعتزل مجلسنا فسمى واصل ومن تابعه في آرائه معتزلة . أما هم فسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد لقولهم : بأنه يجب على الله إثابة المطيع وعقاب العاصى ، ولنفيهم عن الله تعالى الصفات : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، وعلاوا ذلك بأنه لو ثبتت هذه الصفات لله للزم تعدد القديم كما نقوا السمع والبصر عنه تعالى لكونهما من عوارض الأجسام ، وقد ردّ عليهم أهل السنة الجارون على مذهب السلف الصالح فقالوا إن ثبوت صفات العلم والقدرة وغيرها لا يستلزم تعدد القديم لكونها ليست عين الذات ولا غيرها ، وكذلك قالوا في الاحتجاج لثبوت السمع والبصر له تعالى انه غير مشروط فيهما البينية وإنما المراد بالسمع إدراك المسموع وبالبصر إدراك المبصرات ، وقد نشأ عن رأى المعتزلة القول بخلق القرآن لأنهم لما نقوا صفة الكلام نقوا أن يكون لله كلام فحكموا بأن القرآن ليس كلام الله وأنه مخلوق ، وهذا رأى نشأ منذ الدولة الأموية ونسب إلى الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد ثم كانت لهذا القول فتنة أيام المأمون والمعتصم والوائق وضربت فيها الأبشار ، وأريق الدماء .

وكان أبو الحسن الأشعري أحد المعتزلة ولكنه خرج عليهم بمذهب كان إلى مذهب السلف أقرب ، وكثر تابعوه فسمى مذهب أهل السنة والجماعة ، وكان ذلك في حدود سنة ثلثمائة إذ أنه ولد سنة ٢٦٠ هـ ودام على الاعتزال أربعين سنة ثم أراد الله للحق أن يغلب الباطل ، فكان ذلك بأن شرح قلب الأشعري للدفاع عن السنة فخرج على الناس يوما فصعد منبر الجامع بالبصرة وقال: أيها الناس إني قد استهديت الله فهداني وقد انخلت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلت من ثوبي هذا ورمى بثوبه . وكان المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم فحجروا الأشعري حتى دخلوا في أقصاع السماسم ، وكان سبب خروجه على أستاذه ابن علي الجبائي أنه قال له ماتقول في ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعا ، والآخر عاصيا ، والثالث صغيرا؟ فقال: الأول يثاب بالجنة ، والثاني يعاقب بالنار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب .

قال الأشعري فإن قال الثالث: يارب لم أمتني صغيرا ولم تبقى إلى أن أكبر وأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة ، ماذا يقول الرب تعالى؟ فقال الجبائي : يقول إني كنت أعلم أنك لو كبرت عصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا ، قال فإن قال الثاني يارب لم تمتني صغيرا لثلا أعصى فلا أدخل النار ، فما يقول الرب؟ فبهت الجبائي . وترك الأشعري مذهبه واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأى المعتزلة وإثبات ماوردت به السنة ومضى عليه الجماعة ، وتوسط بين الفريقين فنفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية الأربع ، وهي القدرة والارادة والعلم والحياة ، وكذلك أثبت السمع والبصر والكلام القائم بالنفس ، واحتج لذلك بالنقل والعقل وتعرض لجميع ما أورده المعتزلة من الآراء كالكلام في الصلاح والأصلح والحسن والقبح .

وقد كثر أشياع أبي الحسن الأشعري وتوالت طبقاتهم فكان من تلاميذه ابن مجاهد وغيره . وأخذ عن هؤلاء إمام الحرمين أبو بكر الباقلائي وقد كان له أثر في مذهب الأشاعرة ، فإنه زاد فيه مقدمات عقلية تتوقف عليها الأدلة وتحتاج إليها تلك

البحوث مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ولا يبقى زمانين ، وأن بطلان الدليل يؤدي إلى بطلان المدلول ، وجعل اعتقاد هذه المقدمات واجبا تبعا للعقائد المتوقعة عليها .

وإلى هذا الحين لم يكن المتكلمون قد نظروا في علم المنطق ولا حاولوا معرفته لظنهم أنه من الفلسفة وهي في نظريهم مباينة للعقائد الشرعية فكانوا يتحرجون من النظر فيها خوفا على عقائدهم . وتبع ذلك انصرافهم عن المنطق إذ كان معدودا في جملة ما كثر تداول العلوم الفلسفية وعرف أن المنطق لا علاقة له بما فيها من آراء وأنه ليس إلا معيارا للأدلة ، تقاس به أدلة الفلسفة كما تقاس به أدلة غيرها من العلوم فحينذاك أقدم علماء الكلام على دراسة قوانينه فكانت دراسته وتطبيقه على فئهم سببا في تهذيبه والعدول عن كثير من مسائله فرجعوا عن القول بأن بطلان الدليل بطلان للمدلول ، وسميت طريقتهم طريقة المتأخرين . وأدخلوا في علم الكلام منذ ذلك الحين الرد على الفلاسفة لكونهم أصل الابتداع في الملة .

وكان الامام الغزالي أول من كتب في علم الكلام على هذا المنحى وتبعه الامام ابن الخطيب . ثم زاد إقبال علماء الكلام على كتب الفلسفة حتى اختلطت مباحثهما . وأكثر ما يتجلى ذلك في كتاب الطوالع للبيضاوي وكذلك من أتى بعده من العجم ، فكل تأليفهم قد امتزجت بمباحث الفلسفة حتى صارت إلى الغموض والتعمية .



ومن هذا يتحقق لك ماقلناه من تمثيل هذا العلم لأطوار الفكر العربي فهو يتدرج من سذاجة وبساطة إلى محاولة للابتداع وتغليب للرأى إلى النظر في أدلة الفلسفة والبحث على منوالها إلى الانغماس المطلق فيها حتى صار علم الكلام لا ينفصل عنها ولا يفهمه إلا من اطلع على قوانينها وعرف أسلوبها .

وقد ذكروا في سبب تسمية العلم أنه إنما سمي علم الكلام لأن سبب وضعه والخرص فيه هو إثبات الكلام النفسى لله تعالى ، وقيل لأنه مبنى على الدليل العقلى وقلما يرجع فيه إلى نقل ، فالمعول فيه على الكلام والبلوغ به إلى الاقناع ، وقيل لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبينه سالك الحجج في علوم الفلسفة فتوبلت كلمة المنطق في تسمية هذا بالكلام في تسمية ذاك ، وقيل لأنه أكثر العلوم خلافا ونزاعا فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين ، وقيل لأنه اقوة أدلته صار هو الكلام دون ماسواه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام . ويسمى أيضا التوحيد تسمية للعلم بأهم مسائله ، وهى إثبات الوحدة لله تعالى

السير والتواريخ

اشتغال الأمة بتاريخها وسير أبطالها وتفصيل وقائعها وأيامها أمر يكاد يكون طبيعيا في الأمم تدعو إليه المفاخرة بالآباء والاعتزاز بفضائلهم والرغبة في تسجيل محامدهم لذلك نرى أن العرب وهم في باب الفخر والعصبية مجلون قد اشتغلوا في جاهليتهم بتاريخهم فأطروا أبطالهم وتمدحوا بأعمالهم وحكوا فعلهم في وقائعهم وقد ملئوا بذلك شعرهم فكان ديوانهم وسجل أعمالهم كما يقولون .

وفي هذه الجاهلية اشتغلوا بالأنساب فكان منهم علماء بها يعرفون نسب القبيلة ويردون إليها الضال وينفون عنها الدعى بمهارة عجيبة تدهش المتتبع لأخبارهم ، وقد جعلوا نسبهم ست مراتب ، وهى الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة . فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . والقبيلة هى ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر . ثم العمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبيلة مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم .

ثم الفخذ، وهى ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية. ثم الفصيلة مثل بنى طالب وبنى العباس .

وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما تفرع منها حفظاً يهذونه هَذَا، فإذا عرض لأحدهم رجل وقال له أنا من تميم مثلاً فانسبني فإنه يبدأ بالأصل وما تفرع منه وما يزال يتنقل من العماثر إلى البطون إلى الألفاظ حتى ينتهى إلى الفصيلة، ومنها إلى والد السائل. ومن أشهر النسابين فى الجاهلية أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ولما جاءت الدولة الأموية عنى معاوية بأخبار العرب لما بنى سياسته على العصبية فكان مجلسه مذاكرات فى أيام الجاهليين وأعمالهم حتى لقد استدعى عبيد بن شربة من أهل اليمن فكان يحدثه بذلك وألف له فى تلك الأحاديث كتاب (أخبار الملوك الماضين) فكان أول كتاب فى التاريخ .

وقد دفع العرب إلى العناية بالأنساب فى هذا العصر سبب آخر هو بناؤهم العطاء وأرزاق الجند على حسب ترتيب القبائل، وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب لما وضع ديوان جنده فكانت قریش فى ترتيبه أولى القبائل، وكان آل النبى مقدمين على غيرهم ومن حضر بدرأ أكثر عطاء ممن لم يحضرها إلى غير ذلك من الفروق التى استدعت العلم بالأنساب والمغازى وتاريخ الإسلام عامة .

كذلك احتاجوا إلى معرفة الأماكن وحوادث الإسلام الأولى وتواريخ الأمم لما رأوا أن تفسير القرآن يستلزم معرفة أسباب النزول وأما كنهه والبحث عن أخبار الأمم التى ورد ذكرها فيه فنشأ عن ذلك تتبع لسيرة النبى وسماع لأخبار الأمم التى ورد ذكرها فى القرآن، ممن دخل الإسلام وكان ذا سابقة فى العلم كأهل اليمن ويهود الجزيرة، ولكن هؤلاء كانوا بين منافقين أرادوا تشويه الإسلام بالأخبار الكاذبة، أو جهلاء امتلأت رءوسهم بالترهاب فقبلها عنهم العرب بسذاجتهم ولم يستطيعوا إذ ذاك تقدها وبهجة باطلها لمكانهم من الأمية والجهل بهذه التواريخ .

- ٢٢١ -

ولما لم يكن العصر الأموي عصر تدوين لم نجد فيه عملاً للمؤرخين مستقلاً بنفسه غير مثبت في روايات المفسرين وأهل الحديث .

فلما جاء العصر العباسي وزخرت الدولة بالعلم وتفرعت أصوله وجدنا التاريخ من أوائل العلوم التي عنوا بها فقد اشتمل عندهم على هذه الأنواع .

(١) فن السير والمغازي (٢) فن فتوح البلدان (٣) فن طبقات الرجال (٤) فن النسب (٥) فن تاريخ الممالك (٦) فن معرفة أيام العرب (٧) فن القصص (قصص الأنبياء وغيرهم) .

ولكل من هذه الفنون أسباب دعت العرب إلى بحثه والعناية به .

ففن السير نشأ عن عنايتهم بتاريخ رسول الله إذ كان مصدر الشرع ووسيلة إلى معرفة ناسخه ومنسوخه وأحبابه وسنته ، وقد كتبت هذه السيرة بأكثر عناية حتى لم يترك مؤرخوها حالاً من أحواله عليه الصلاة والسلام إلا فصلوا القول فيها فأصبحنا نعرف عنه ما لا نعرفه أمة عن نبيها أو عظيمها ، ودراسة حياته عليه الصلاة والسلام مبعث هداية ورشد ، ودليل فضل ونبل ، وسبيل حكمة وسداد لكل من عنى بها واهتدى بنورها .

وأقدم ما عرف من ذلك (كتاب المغازي) لابن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ و (كتاب المغازي) لموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ وقد ضاعا . وليس في هذين الكتابين كما يدل اسمهما إلا ذكر غزوات الرسول فقط . فأما سيرته كاملة فأقدم ما وصل إلينا منها سيرة محمد بن إسحق رواية عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ المسماة (سيرة ابن هشام) وهي أقدم المصادر وأوثقها في هذا الباب .

وفن فتوح البلدان دعاهم إلى بحثه تحقيق أمر الجزى والخراج لمعرفة المفتوح صلحا وأماناً أو عنوة ، ومراعاة اليهود التي تمت بين الفاتحين وأهل البلاد .

وأقدم ما وصل إلينا من كتب الفتوح كتاب (فتوح الشام) لأبي اسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري من أواسط القرن الثاني للهجرة ، وقد طبع الكتاب

بكل كنه سنة ١٨٥٤م وفيه كثير من الخبايا السياسية التي جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم وما تكتب به القواد أو راسلوا كبراء الروم أو عقدوه من العهود أثناء حروبهم بالشام . وقد جاء بعده أبو عبد الله الواقدي فألف كتاب (فتوح الشام) أيضاً ولكنه أشبهه بالقصص لما حواه من التفصيل والمبالغة ، وإن كان مؤسساً على الحقيقة ، وقد طبع بمصر وغيرها .

فنّ الطبقات : ويراد بها طبقات الرجال وترتيبهم بحسب أزمئتهم أو فضلهم في قنهم ، والذي دعاهم إلى تناول هذا النوع أنهم حين اضطروا لتحقيق مسائل العلم نظروا في رواياتهم وفرقوا بين ضعيفها ومتينها فاستتبع ذلك منهم بحث أحوال الرواة وتقسيمهم إلى عدول وغير عدول ، ولقد تناول بحشهم جميع أنواع الطبقات حتى كانت لهم طبقات للشعراء ، والأدباء والنحاة ، والفقهاء والصحابة ، والتابعين والفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسائين والأطباء ، والندماء والمغنين ، وألقوا في كل نوع غير كتاب . فكان العرب أكثر أمم الأرض كتباً في التراجم ، وقد يحوى الكتاب الواحد أربعة آلاف ترجمة ككتاب الأنساب للصاغاني وغيره ، ومن أشهر كتب الطبقات كتاب طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ المسمى طبقات الصحابة والتابعين وقد طبع في ليدن سنة ١٨٢٥ م في ثمانية أجزاء ، وفيه غير السيرة النبوية تراجم البدرين والأنصار والمهاجرين وتراجم الصحابة من الرجال والنساء .

فنّ الأنساب : احتاجوا إليه كما ذكرنا حين بنوا عطاءهم على مراتب القبائل والسبق إلى الاسلام ، وقد ذكروا أن أول من ألف فيه زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بأبي سفيان فيقال انه عمل كتاباً في نسبه ومثالب العرب ودفعه إلى أبنائه وقال استظفروا به على العرب .

وفي العصر العباسي ألف هشام الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتابه (النسب الكبير)

وهو يحتوى على أنساب القبائل من العدنانية والقحطانية، ومنه نسخ خطية في باريس والأوسكوريال واكسفورد وغيرها .

ومن النساين في هذا العصر الهيثم بن عدى الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، والمدائني المتوفى سنة ٢٢٥ هـ، وعلان الشعوبى، والزيير بن بكار وغيرهم ممن ترى أسماءهم تتردد في كتب الأدب أو التاريخ كالأغانى أو الطبرى وغيرها .

فنّ تاريخ الممالك : يصح أن يكون نواة التأليف في هذا ما كان عند معاوية من رغبة في تعرف سير الملوك والساسة من الأعاجم حتى كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل فيقصون عليه ما كان لهم من مكاييد حربية وسياسة للرعية . ولا شك أن سماع أخبار العظماء يستنهض الهمم ، ويضيف إلى عمر السياسى وتجارب به تجارب من سبقه فيسير في سياسته على نهج ، ويخرج من هذه الأخبار بعلم وتجربة لا يستغنى عنهما مثله .

ولقد جاء المنصور من خلفاء العباسيين بعد ذلك فاحتاج إلى مثل ما احتاج إليه معاوية فنقلت له الكتب من الفارسية في سير ملوك الفرس وقد كانوا دهاة في السياسة وذوى رأى صائب في قيادة الجيوش وإحكام أمور الرعية ، فترجم له ابن المقفع (خدای نامه) في سيرة ملوك الفرس . ثم رأى العرب أنهم عاشروا هذه الأمم وفتحوا بلادها ولم يحسن أن يجهلوا تاريخهم فألفوا الكتب في ذلك حتى لقد كتبوا في بدء الخليقة وحوادث الطوفان وغيرها مما ورد في القرآن . وللعرب في ذلك همه عظيمة فإنهم بحثوا وحققوا وطافوا البلاد^(١) ودرسوا بأنفسهم طبائع أهلها وسمعوا من أفواههم

(١) ومن أشهر الرحالين العرب السائح الهروى الذى يقال انه لم يترك برّا ولا بحرا إلا قصده ولم يصل

إلا موضع إلا كتب خطه في حائطه حتى ضرب به المثل فقيل في إلحاح شجاذ :

أوراق كديته في بيت كل فتي على اتفاق معات واختلاف روى

قد طبق الأرض من سهل ومن جبل كأنه خط ذاك السائح الهروى .

- ٢٢٤ -

تاريخ أسلافهم، وأقدم كتاب وصل إلينا في ذلك كتاب يعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ طبع في ليدن سنة ١٨٨٣ م وهو قسيمان قسم للتاريخ القديم تناول فيه التاريخ منذ آدم إلى ظهور الإسلام، وفيه أخبار السريان والهنود واليونان والرومان والفرس والنوبة والبربر . والقسم الثانى فى تاريخ الإسلام وقد رتبته على حسب الخلفاء وينتهى إلى سنة ٢٥٩ هـ فى زمن المعتمد على الله .

ومن هؤلاء المؤلفين أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ وله كتاب (الأخبار الطوال) وهو يشتمل على نحو ما اشتمل عليه كتاب يعقوبى، وينتهى بوفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ .

وشيوخ المؤلفين فى هذا الباب هو ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وقد اشتهر بقوة عارضته وفصاحة لهجته وصبره على العمل حتى قالوا إنه قضى أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين صفحة . وعمله الذى اشتهر به هو تفسيره المعروف بالتفسير الكبير وتاريخه المسمى أخبار الرسل والملوك، وينتهى إلى سنة ٣٠٢ هـ، وقد طبع بمصر فى ثلاثة عشر جزءا وقد اتبع فى أخباره الإسناد إلى الرواة . وقد كان للكتاب رواج عظيم فى سالف الأيام حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرون نسخة وفى دار العلم للحاكم بأمره مائة وعشرون . ثم جرى عليه ما جرى على غيره من الضياع حتى أنهم حين أرادوا طبعه أخيراً لم يجدوه مجموعاً فى مكان واحد .

فن معرفة أيام العرب : احتاجوا إليه حين قاموا بجمع أشعار العرب فاضطروا إلى معرفة أسباب إنشاء المعلقات وكبار القصائد وتجردوا لمعرفة أحوال العرب التى يستدل عليها بشعرهم فجمعوا من ذلك كثيراً، وقوّاهم على عملهم ارتياح الخلفاء لسماع هذه الأخبار فكثرت واستفاضت وصار من أقسام التاريخ قسم يسمى أيام العرب وأخبارها .

وأقدم مؤلف وصل إلينا في هذا النوع كتاب «طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين» ، وهو لابن سلام الجعفي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، وقد طالما استشهد صاحب الأغاني بأقواله ورجع إليه في تعيين طبقات كثير من الشعراء ، وفعل ذلك القالي والزجاج في أماليهما وكذلك السيوطي في مزهره ، وقد قسم ابن سلام الجاهليين عشر طبقات غير أصحاب المراثي ، وقسم الاسلاميين عشرة كذلك والكتاب مطبوع بمصر ، ويعد الأغاني لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أكبر مصدر في هذا الباب ، والكتاب كبير يقع في واحد وعشرين جزءا طبع منها أولاً عشرون ثم عثر المستشرق رودلف برنونس سنة ١٨٨٨ م على الجزء الحادى والعشرين فتم الكتاب على ذلك .

اشتغل أبو الفرج نحواً من خمسين سنة في كتابه ، وقد بناه على تبين مائة الصوت التي اختارها المغنون للرشيده فكان إذا ذكر صوتاً منها ذكر طريقته ومن غناه ، وربما ترجم لواضع لحنه ، ثم يستطرد إلى ذكر قائل الشعر فيترجم له ، وقد يعرض في الكلام ذكر أشياء من واقعة أو رجل فيذكر تاريخه ، فلذلك احتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء ، والمغنين والأدباء والعشاق والخلفاء والقواد وأكثر أيام العرب وأحوالهم وقبائلهم وأنسابها ، ووقائعها ومذامها ومحامدها فصار سجلاً عاماً لتاريخ العرب في الجاهلية خصوصاً .

وصاحبه ثقة يعتمد على السند ولا يكتفى بذلك بل كانت له ملكة للنقد ، وبصيرة بالكلام ، بها يبين منحوه ويرد زائفه .

ذكر صاحب الأغاني خبر تعلق ابن أبي ربيعة بالثريا وإلحاحه عليها بالهوى ، وتزويج أهلها لها من سهيل وكتابه إليها شعراً في قوهية^(١) وبعث به إليها ، فلما قرأته بكت بكاء شديداً ثم كتبت إليه تقول :

(١) قوهية : هي ثياب بيض تنسب إلى بلدة تسمى قوهستان ببلاد فارس ثم قيل لكل ثوب يشبه ما ينسج بها قوهى أيضا .

أَتَانِي كِتَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسَ مِثْلَهُ أُمَدَّ بِكَافُورٍ وَمَسِكَ وَعَنْبَرٍ
وَقَرطَاسِهِ قُوْهِيَّةٌ وَرَبَاطُهُ بِعَقْدِ مَنْ يَلِيقُوتُ صَافٍ وَجُوهٍ
وَفِي صَدْرِهِ مَنَى إِلَيْكَ تَحِيَّةٌ لَقَدْ طَالَ تَهْيِائِي بِكُمْ وَتَذَكَّرِي
وَعَنْوَانَهُ مِنْ مَسْتَهَامٍ فَوَّادِهِ إِلَى هَاسَمٍ صَبَّ مِنَ الْحَزَنِ مُسَعِّرِ

ثم يقول : قال مؤلف هذا الكتاب : وهذا الخبر عندي مصنوع وشعره مضعّف يدل على ذلك ، ولكنني ذكرته كما وقع إلى (ص ٩١ ج ١ طبعة الساسي) وفي ص ٣٣٣ ج ٢ تحقيق تاريخي في تنصر النعمان بن المنذر ، وهكذا ترى فيه من مثل ذلك كثيرا .

وقد عد عليه ياقوت الحموي بعض ما أخذ ذكرها في قوله (وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مرارا وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابي المرسوم بأخبار الشعراء فأكثرته وجمعت تراجمه فوجدته يعد بالشيء ولا يفي به في غير موضع منه كقوله في أخبار أبي العتاهية (وقد طالت أخباره هاهنا ، وسنذكر خبره مع عتبة في موضع آخر) ولم يفعل . وقال كذلك في مقام آخر (أخبار أبي نواس مع عنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت) ولم يتقدم منها شيء إلى أشباه ذلك والأصوات المائة هي تسعة وتسعون (وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان قد غلب عليه) والكتاب لا يزال كما وصفه ياقوت .

وقد اشتمل الكتاب على كثير من أخبار المستهترين ، والجنان ، والأخبار الموضوعة على الخلفاء ، وكثير منها لا يصدق ، وعذر أبي الفرج فيها أنه نقلها عن عاصروه ، وكثير منهم لا يتورع عن الكذب ، ولم يكن همّ أبي الفرج تحقيق الحادث في ذاته ، ولكن كان همه نقل الشعر الذي قيل فيه أو غنى ، فهو لأجل ذلك لم يتحرّر فليس الكتاب من هذه الناحية مصدرا تاريخيا للحقائق ، وإن كان أمر ذلك في الجاهليات أقرب إلى التحقيق لأن رواتها كانوا أقرب إلى الورع ، والتحرّج من الكذب .

وقد اختصر أبو الفرج نفسه كتابه ، ولكنه فقد ، واختصره بعده كثيرون ، منهم ابن مكرم صاحب لسان العرب المعروف أيضاً باسم ابن منظور ومختصره هذا مخطوط بمكتبة الأزهر .

فن القصص : قد سبق لنا القول فيما كان منه في الأسمار والخرافات في الكلام عن علم الأدب ، أما قصص الأنبياء : فقد كان من خدمة التفسير العناية بها لورودها في القرآن ، وتلك القصص اعتمد العرب فيها على من أسلم من اليهود والنصارى ، وأغلبهم كانوا من جهلاء قومهم أو من فاسدى العقيدة فكثرت فيها الخلط .

ترجمة العلوم

في العصر العباسى

شعر العرب بالحاجة إلى العلم لأنه قوام الحياة المدنية ، وضرورتها التي لا غنى عنها ، وقد عرفت كيف أقبل العرب في هذا العصر على المدنية يأخذون بأسبابها ، ويتشبه ملوكهم بالأكاسرة في نظام معيشتهم ، وتدير ملكهم ؛ فكان لابد من العلم الذى تساس به هذه الممالك ، وتدبر أمورها .

ولذلك تضافرت الأمة : خلفاء ووزراء ، فبدلوا في سبيل ذلك ما حرك الهمم لتحقيق هذا الغرض الشريف ، وبذل معهم كثيرون من أهل البيوتات الكبيرة في الدولة ممن يتشبهون بالملوك ، ويريدون أن يذكروا بهذه المنقبة معهم .

العلم في الأمم المعاصرة للعرب

وكان يعاشر العرب في هذا الحين أمم ذات مدنيات سابقة ، وعلوم ناضجة متوارثة في أجيال متعاقبة . فكانت اليونان مشهورة بحكمتها ، ولها فلاسفتها وأطبائوها الذين لا تخفى شهرتهم : كسقراط ، وأرسطاليس ، وأفلاطون ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأرشميدس ، وغيرهم .

وكذلك كان الفرس أهل أدب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في عهود سابقة ، وكان ذلك نتيجة للجوار والاختلاط في الحروب . وقد ذكروا أنه في عهد سابور بن أردشير بعث إلى اليونان من جلب كتب الفلسفة ونقلها إلى الفارسية ، ولما جرى على علماء اليونان الاضطهاد من ملكهم جُستينيان^(١) نزحوا إلى بلاد الفرس ، فوجدوا صدوراً رحبة فنشروا علومهم بتلك البلاد ، واستفادت الفارسية هذا الميراث الذي زفه إليها هؤلاء الضيوف الطارئون . كذلك كانت أمة الكلدان على نهر دجلة ، وقد عرفت قديماً بالعلم خصوصاً الطب ، وكانت بها مدرسة جُنديسابور^(٢) التي بقيت إلى العصر العباسي قائمة ، وكان يعلم فيها الطب الهندي واليوناني .

وحدث كذلك أن العلوم انتقلت إلى أمة الشريان^(٣) بانتقال أستاذة مدرسة الإسكندرية على أثر إغارة الإسكندر المقدوني عليها ، فأسس هؤلاء العلماء في وطنهم الجديد مدارس الرُّها ، ونصيبين وقنَّسرين ، وكان يدرس بها الطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات .

وأمة الهند ذات مدنية قديمة وعلوم موروثية ، اشتهرت من بينها علوم النجوم ، والطب ، والآداب ، فعن هؤلاء ، وعن المصريين أسبق الأمم إلى المدنية نقل العرب علومهم . وقد كان لاتصال هذه الأمم قديماً بعضها ببعض أثر عظيم في تنقل علومها من واحدة إلى الأخرى ، فالفرس نقلوا من علوم الهند ، وكذا ترجعوا إلى لغتهم كثيراً من

(١) كان ذلك أيام كسرى أنوشروان ، وقد فرَّ إلى بلاده سبعة من اليونان الذين شردهم اضطهاد جستنيان للوثنية فأمرهم كسرى بنقل العلم فنقلوا الطب والنطق ، وكان حكم كسرى (٥٣١ - ٥٧٨) من الميلاد .

(٢) أنشأ سابور بن أردشير هذه المدينة وبني كسرى أنوشروان بيارستانها ، وهي الآن أطلال مدينة شاه آباد ، وبها تعلم طبيب العرب الحارث بن كلدة وطبيب بعض عظماء الفرس فنحه مالا وجارية هي سمية أم زياد .

(٣) بلاد السريان فيما بين النهرين .

- ٢٢٩ -

كتب اليونان ، فتجد عندهم كتباً في علم النجوم ، وأصله هندي ، وأخرى من الطب والآداب والمنطق ، استفادوها من الهند أو اليونان ، لوقوعهم بينهم من الشرق والغرب ، وهذا شأن العلم في كل زمان فهو لا وطن له بل ينتقل برحلة العلماء ، وإغارة الفاتحين . وقد جاء العرب فوجدوا هذه العلوم ذخراً نفيساً تعزبه هذه الأمم ، وإن كان قد اعترى بعضها فتنور في تحصيله ، وكسل عن النظر فيه فقمعوا بأن يصوروا كتب العلم في دورها ، وأن يقوموا على حراستها ، وهذا شأن الأمم إذا بلغت نهايات عمرها تجعل العلم من المقتنيات مجترئة من تحصيله بضم أشتاته في خزائنها ، ولكن الأمة العربية كانت في ذلك الحين جديدة الآمال منبعثة النشاط ، فكما أسرعت في غزو هذه الممالك ، والاستيلاء على مواطنها ، كذلك غزتها في منتجات أفكارها فأسرعت في ذلك إيسراعها في الفتح ، ولم يمض إلا قليل حتى حازت علوم الدنيا نقلاً ودراسةً وانتقاداً ، فصار لها من آثار ذلك ما أحدثته في آثار الماضين من تهذيب ، وما أبرزته من جديد ، ونشأ من رجالها الفلاسفة الذين أربوا على سابقهم ، وأثروا بالعجب العجائب في علومهم ، وسنفرد لهذه النتائج فصلاً خاصاً .

أدوار الترجمة

بدأت الترجمة قبل العصر العباسي بما تم على يد خالد بن يزيد بن معاوية من نقل بعض الكتب ، وكان مغرماً بالنظر في الكيمياء فترجم له فيها ، وفي الطب والنجوم ، وقد قال عنه الجاحظ : (وهو أول من ترجم له في النجوم والطب والكيمياء) . ولكن عمل خالد كان عمل فرد لا يصح أن نحكم به على العصر . لذلك نقول إن العصر الأموي قد انتهى ، ولم يكن العرب قد اشتغلوا بالترجمة ، فهي لذلك ميزة العصر العباسي ، وفضيلة نذب الله لها خلفاءه .

وكان أول من عني بها منهم أبو جعفر المنصور فإنه على بخله بالمال بذل في سبيل الترجمة بسخاء حتى لقد أعطى جرجيس ابن بختيشوع الطبيب عشرة آلاف دينار، وهو عطاء لم يجز مثله على يده؛ ورغب إليه منذ ذلك الحين في نقل كتب الطب اليونانية، وقد ترجم في عهد المنصور في أنواع كثيرة من العلوم، فقد ترجم في الموسيقى كتاب بطليموس في اللاحون الثمانية، وترجم كذلك في الهندسة والمنطق، ولكن العلمين اللذين زاد اهتمام المنصور بهما هما الطب والنجوم؛ فقد نقل له جرجيس المتقدم بعض كتب أبقراط الطبيب اليوناني المشهور، كما نقل له البطريريق كتاب الترياق لجالينوس الطبيب اليوناني أيضاً، ونقل له في النجوم محمد بن إبراهيم الفزارى (وهو من أشهر المترجمين في عهده) كتاب السندهند من الهندية، وكذلك ترجم له ابن المقفع من الفارسية كتاب كليلة ودمنة، وهذا الكتاب هندی الأصل نقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية، وكذلك ترجم ابن المقفع كتاب المقولات، وكتاب تحليل القياس لأرسطو، وكتاب إيساغوجي الذي ألفه فُرفُريُّوس الصُّوري، وجعله المدخل إلى كتب أرسطو المنطقية.

ولقد قتر أمر الترجمة في عهد المهدي والهادي، لاشتغالهما باستئصال شأفة الزنادقة فلم يكن في أيامهما شيء يذكّر في هذا الباب.

ثم جاء عصر الرشيد: وقد بلغت المملكة أوجها غنى ونظاماً وقوة فراجت الترجمة في أيامه، وساعد على ذلك أن كان البرامكة وزراءه، وكانوا في دولتهم أسبق الناس إلى الفضل، وأحرصهم على طيب الذكر، وأعرفهم بقدر العلم، فحروا همة الرشيد لذلك، وجادواهم من تلقاء أنفسهم على المترجمين فيما ترجموه من الكتب برسمهم، ونتج عن ذلك إقبال الناس على الترجمة فنقلوا منها كثيراً في كل العلوم، وأعادوا ترجمة كثير من الكتب التي ظهرت في أيام المنصور، لأن ترجمتها لم تكن صحيحة.

وكان من آثار رواج العلم ، والترجمة في أيام الرشيد إنشاء دار الحكمة ببغداد ، وهي تلك الدار التي حوت كل ما عثر عليه في ذلك الحين من كتب هندية ، وفارسية ، ويونانية .

ثم كانت أيام المأمون فكانت أزهر عصور الترجمة لأن المأمون كان عالماً جليل القدر في كل العلوم ، وكان يجالس العلماء فيشاركونهم بحوشهم ، بل يتغلب عليهم بقوة عارضته وصفاء ذهنه ، فكان الناس يتقربون إليه بالعلم ، ويتسابقون بالفضل ، وقد اعتنى بالترجمة عناية كبيرة حشد لها همته ، وأعدّ عدته ، فكتب ملك الروم في إنفاذ ما عنده من كتب العلم المدخرة ببلاده ، فسمح له بها ، فأخرج المأمون بعثاً من أشهر رجال الترجمة منهم الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وجعل على رأسهم حنين بن إسحق ، فنظروا في تلك الكتب وحملوا إليه ما اختاروه منها ، فأمر المأمون بترجمته ، وكان يعطى كثيراً حتى كان يعطى أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً .

ومن عناية المأمون بالترجمة ، وسلامتها من الأغلاط العلمية واللغوية ، أنشأ ببغداد مدرسة للتراجمة يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها ، وقد جعل النظر في أمر هذه المدرسة إلى طبيب نسطوري ، وللنساطرة في الطب قدم فارعة وخدمة سابقة ، ويقال إن في مكتبة الأسكوريال معاجم عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية وضعت ليحذق بها أبناء العربية لغة هذه العلوم في اليونانية .

وقد جعل المأمون المترجمين يوماً في الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطالع هؤلاء على عملهم فيصححوه ويقرروه ، ولم ينته عصر المأمون حتى كانت كل العلوم التي ألف فيها الهنود والسريريان والفرس واليونان قد ترجم منها في العلم الواحد الكتاب أو الكتابان أو الثلاثة ، خلا السحر ، وعبادة الأوثان .

ومن المترجمين في أيام المأمون عن اليونانية حبش الأعسم وأصطفان بن باسيل

ويوحنا بن ماسويه وقسطا بن لوقا ، وعن الفارسية آل نوبخت (موسى ويوسف)
وعن الهندية منكه وابن دهن .

ثم فترت الترجمة في أيام المعتصم لأنه لم يكن له في العلم نفوذ المأمون ، وعناية
الرشد فسكنت ريجها ولم يكن من غيره عناية بها لأن الناس تبع للموكلهم فيما يقبلون
عليه ، أو ينصرفون عنه من الأمور . فلما كان عصر الواثق ، وكان ذكيا ذالوع
بالآداب والعلوم حتى كان يقال له المأمون الأصغر ، نشطت الترجمة في أيامه ولكنها
كانت في نوع خاص هو الأسفار والخرافات . وذلك لأن استبداد الأثران بدأ يظهر
في أيامه فكان يرى في مطالعة الأسفار وسماعها أثرا في التسلية وتزجية الوقت ، وقد
ترجم له كتاب ألف ليلة وليلة (هزار أفسان) وقد عرفت حديثه فيما مضى .

ولما ولي التوكل وكانت الآراء الفلسفية قد أثمرت ثمرها المسكروه من الإلحاد
والابتداع رأى أن يقضى على ذلك فاشتغل باحياء السنة ونهى عن الجدل ، ولم يمد
إلى الترجمة يداً إلا ما كان من العلوم النافعة كالطب فقد نقل له حنين بن إسحق
وأصطفان بن باسيل وموسى بن خالد كتباً للجالينوس كما نقل أصطفان كتابا في النبات
لديسقوريدس اليوناني .

وكان من مقاومة التوكل للبدعة أن حجب على أهل الذمة وألزمهم أموراً فيها كثير
من الاستخفاف بهم كلبس الزنار والطيايسة العسلية ونهى عن تعليم أبنائهم في
مكاتب أولاد المسلمين ، وحرّمهم من أعمال الدواوين ، وكتب إلى الأمصار بهدم بيوتهم
وأبطل كثيراً من حقوقهم ، وذلك ما لم يهدوه في سعة صدر الإسلام وحسن رعايته لمن
دخلوا في حكمه ، ولعل المتوكل عذرا في إرادته القضاء على ما راعه من تبديل الناس
للشرع ، وجدّ لهم فيه بالباطل ، وأن هؤلاء النصاري كانوا الأيدي العاملة غالباً في ترجمة
ما جرّ على المسلمين هذه المصائب ، فعاملهم هذه العاملة ليقضى على فتنة ناجمة قبل أن
يكون منها القضاء على الدين .

ويعد عصر المتوكل آخر عهد المسلمين بالترجمة معزوة إلى الخلفاء .

نقل العلم لغير الخلفاء

لما عرف الناس رغبة الخلفاء في نقل العلم جروا في ميدانهم وساروا على نهجهم والناس في كل عصر مقلدون لموكلهم، يتفانون فيما يحبون، ويحرصون على ما إليه ينزعون، لذلك رأينا كثيراً من غير الخلفاء اعتنى بنقل العلوم وبذل فيها عن سعة. وأول من يذكر في هذا المقام هم البرامكة الذين لم يكن ينقصهم من عظمة الخلافة إلا اسمها، وقد كان لهم في الدولة الشأن الأول، ووصلوا في نفوس الناس إلى المنزلة التي لا يسمو إليها إلا الخلفاء، وقد يذكر بعدهم كثيرون من بيوتات الجدا أئمة أولاد شاكرا الذين جدوا في طلب العلوم القديمة، وكان لهم فيها نفاذ، فكان محمد بن موسى بن شاكرا وافر الحظ في الهندسة والنجوم، وسائر الرياضيات، وأخوه أحمد كان ماهراً في الحيل (الميكانيكا)، وأخوهما حسن كان متفرداً بالهندسة، له فيها طبع لا يداني، وقد خدم هؤلاء الإخوة تلك العلوم بتحصيلها، وكذلك بذلوا الرغائب في سبيل نقلها إلى العربية، وكان من جملة من أنفذوه للبحث عن الكتب إسحاق بن حنين، وكانوا ينفقون على الترجمة في الشهر خمسمائة دينار، ومن المترجمين لهم إسحاق، وحبيش، وثابت ابن قرة.

ومن آثار غرامهم بتلك العلوم أن أخرجوا مؤلفات كثيرة في الطب والحيل والهندسة، وهم الذين حققوا للمأمون أن محيط الأرض طوله ٢٤٠٠٠ ميل، وذلك أن المأمون رأى في الكتب المترجمة أن محيط الكرة يبلغ طوله ما ذكرنا فأراد أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا هذا أمر قطعي، فطالبهم بالتحقيق فخرجوا إلى صحراء سنجان، وهي في غاية الاستواء، وأخذوا معهم جماعة ممن يثق بهم المأمون ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة فلما كانوا بتلك الصحراء أخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتدًا وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى

الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف حتى كان ما قاسوه من الأرض $\frac{٦٦}{٣}$ ميل ، ثم أخذوا ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد درجة على الارتفاع الأول ، ثم فعلوا مثل ذلك متجهين من الوتد الأول إلى جهة الجنوب حتى انتهى مثل القياس الأول وقاسوا ارتفاع القطب فوجدوه قد نقص درجة عن ارتفاعه الأول . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° وبضرب هذه الدرجات في حصة الدرجة الواحدة من سطح الأرض وهي $\frac{٦٦}{٣}$ ميل نتج أن محيط الأرض هو أربعة وعشرون ألف ميل كما ورد في كتب العلوم ثم عادوا ففعلوا ذلك في نواحي الكوفة فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء .

ومن بذل في نقل العلوم من غير الخلفاء أيضاً محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساح ألفي دينار في الشهر ، وقد نقل باسمه عدة كتب ، ومنهم أيضاً علي بن يحيى المعروف بابن المنجم ، وكان من كتّاب المأمون ، ومنهم إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونان .

إحصاء الكتب المترجمة

يطول بنا القول لو عمدنا إلى ذكر الكتب التي نقلت إلى العربية في جميع أدوار الترجمة منذ عهد المنصور إلى أن قُتِرَت في أواخر أيام المتوكل ؛ على أنه لا فائدة من تعداد هذه الكتب ، فإن أكثرها قد ذهبت به الحوادث ، ولكننا في سبيل الدلالة على مجهود العرب في هذا المقام نستطيع أن نحصى ما استطاع إحصاؤه من الكتب بحسب أنواعها وأشخاص مؤلفيها .

ففي الفلسفة نقل ثمانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر لأرسطاليس غير كثير من شروح لتلك الكتب ، وغير كتب أخرى لمؤلفين لا تعرف أسمائهم .

وفي الطب نقل عشرة كتب لأبقراط ، وأربعة وستون لجالينوس ، وهذا غير

كتب في الطب ذكرها صاحب الفهرست ، ولم يذكر ناقلها . هذا إلى كتب أخرى في الرياضيات والنجوم وسائر العلوم ، وهذه الأنواع كلها مترجمة عن اليونانية .

أما الكتب التي ترجمت عن غير اليونانية فهي عن الفارسية نحو عشرين كتابا في التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين عن اللغة السنسكريتية ، وأكثرها في الرياضيات والطب والنجوم ، ونحو عشرين عن السريانية والنبطية ، وأكثرها في السحر ، والطلسمات ، وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية والمصرية .

وقد ضاع أغلب هذه الكتب ولم يبق منها إلا القليل ، فمن ذلك كتاب المجسطى لبطليموس ترجمه الحجاج بن يوسف ؛ وكتاب (السياسة في تدير الرياسة) ترجمه يوحنا البطريق ، وكتاب (المدخل في الطب) ، وكتاب (النواميس) لحنين ابن إسحاق ، وكتاب (منطق أرسطو) لإسحاق بن حنين بن حنين بن إسحاق السابق الذكر ؛ وكتاب (الفلاحة اليونانية) لقسطا بن لوقا نقله عن السريانية ، وقد طبع بمصر ؛ وأغلب هذه الترجمات مشتتة في مكتبات : ليدن ، وبرلين ، وأسبانيا .

إهمال الأدب اليوناني في الترجمة

يلحظ الباحث في موضوعات الترجمة في العصر العباسي أنها شملت كل شيء من علوم الأمم وآدابهم خلا الآداب اليونانية من شعر وقصص ، وذلك أمر يسترعى النظر . والسبب فيه ظاهر وهو أن العرب إنما نقلوا العلوم التي عرفوا قدر الحاجة إليها من طب وصيدلة ، وهندسة وكيمياء وما إلى ذلك مما كان ينقصهم في مدينتهم ، فأما الشعر والخيال فهم فيه مُتَجَلِّون ولهم منه تراث تليد من العصر الجاهلي وكسب طريف أحدثوه بعد إسلامهم فهم لم يعدلوا بالشعر شيئا ثم هم من الاعتداد بأنفسهم والسمو بلغتهم في المسكاة التي لا يظنون أن أحدا يدانيهم فيها فلم تكن بهم حاجة إلى خيال اليونان وقصصهم ، والآداب خصوصا تتباين فيها أذواق الأمم ، فلو أن العربي أراد أن يترجم

أدب اليونان لحض اللذاذة والاستمتاع به ؛ فإنه غير واجد فيه ما يسره ، لأنه لم يألف إلا خياله ولم يعتد إلا ما يمليه عليه ذوقه .

أما نقل آداب الفرس والهند فذلك راجع في جملة إلى أن النقلة من هذه اللغات لم يؤمروا بذلك من قبل الخلفاء ولسكنهم تزيدوا به من عند أنفسهم ليظهروا في العربية فضل لغتهم ولعلمهم أرادوا بذلك مسرة الأمراء من الفرس فيما نقل من الفارسية فهم طبعاً يحنون إلى لغتهم ويشغفون بأدائها ، وإذا كانوا يقرءونه في الفارسية فإنهم يرضون عن نقله إلى العربية حتى يكون لأبنائهم اتصال بلغة آبائهم . كذلك يقال في اللغة الهندية إنه اتفق وجود ترجمة تبرعوا بنقل هذه الآداب ورأوا أنها لشرقيتها تمازج الخيال العربي ولا تجافيه ، وهناك أمر جدير بالاعتبار يحول دون ترجمة الأدب اليوناني وهو بناءه على الوثنية وتأليه الكواكب والقوى الكونية ، والعرب يفرون من الوثنية ويمقتونها لأن دينهم إنما جاء لمحاربتها . فهذا سبب ذاك .

أثر الترجمة في حضارة العرب

لقد ظهر أثر هذه الترجمة عاجلاً فإنه في أوائل عهدها استطاع الرشيد أن يطرف ملك الروم بساعة دفاقة متحركة بالماء ، فلما رآها رجال شلمان ظنوها آلة سحرية ووقعوا في حيرة حتى هموا بكسرها . وقد مر بك أنهم في عهد المأمون استطاعوا التحقق من طول محيط الأرض . كذلك عملوا في زمنه أرساداً وأزياجاً^(١) فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدال الربيعي والخريفي ، وقدروا ميل منطقة فلك البروج .

وقد تعددت المراصد في نواحي المملكة العربية : منها مرصد بغداد المنشأ على

(١) الأزياج : جمع زيغ وهو حساب حركات الكواكب للوقوف على أوقات شروقها وغروبها وهو ما يراد الآن من لفظ (تقويم) .

قنطرتها وقد رصدت به عدة أرصاد ، ومرصد المراغة الذى أنشأه نصر الدين الطوسى بأمر هولاكو خان ، ومرصد سمرقند الذى أنشأه تيمورلنك ، ومرصد دمشق الذى أنشأه حفيد تيمورلنك ، ومرصد جبل المقطم الذى أنشأه ابن يونس الفلكى صاحب الزيج الحاكى .

وكذلك كان من آثار الترجمة غير ما مر أن كشف العرب قوانين لثقل الأجسام مائها وجامدها وبحثوا الجاذبية وقالوا بها واخترعوا مذبذب الساعة (البندول) اخترعه يونس بن حبيب المصرى . وكان أبو الحسن الجوهري أول من وضع مبادئ الضوء وفسر أسباب انعكاسه على النجوم . وكذلك عملوا بيت الإبرة « البوصلة البحرية » وقالوا بكبرية الأرض ودورانها على محورها ، واخترع أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ آلة الغناء المسماة بالقانون ، كما كان لأبى بكر الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ولع بالعلوم الحكمية وخصوصا علم الكيمياء ، وقد توصل إلى تركيب زيت الزاج المسمى الآن « الحامض الكبريتى » باستقطار « كبريتات الحديد » التى كان يعرف تركيبها ، ويسمى الزاج الأخضر ، وكذلك استحضر الكحول « السبرتو » باستقطار مواد نشوية وسكرية متخمرة ، وقد اعترف الإفرنجية بأن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة المسمى الآن « حامض النترك » وماء الذهب المسمى « النيترو وهيدر وكلوريك » وكشفوا البوتاسا ، وروح النوشادر وملاحه ، وحجر جهنم المسمى « نترات الفضة » والسليمانى المسمى « كلوريد الزئبق » والراسب الأحمر المسمى « أكسيد الزئبق » وقد أشار ابن الأثير إلى مركبات إذا طلى بها الخشب امتنع احتراقه وقد استخدمها العرب فى واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ وهم أول من وصف التقطير، والترشيح والتصفيد والتبلور والتذويب .

وفى كتاب : (ميزان الحكمة) الذى نقله أحد الأوربيين عن العربية بحوث فى وزن الجسم فى الهواء وما يطرأ على وزنه من التغير تبعا لتغير كثافة الهواء ، وذلك يدل

على أن العرب كانوا يعلمون أن قاعدة ارشميدس عامة ، وليست مقصورة على السوائل بل تشمل الغازات أيضاً . ومن هنا يتضح أن العرب كانوا يفهمون أن الهواء الساخن يرتفع لأنه مغمور بوسط أكثر كثافة منه لا لأنه استفاد شيئاً من طبيعته العلوية كما يقول أرسطو . وفي الكتاب السابق بحث في مركز الثقل واتزان الميزان ، وفيه يعزى سقوط الأجسام إلى تأثير قوة تجذبها نحو الأرض .

وكان لابن الهيثم المصرى أثر في علم الضوء كبير ، فقد أثبت أن خطوط الضوء تصل من المرئى إلى العين ، وأبطل نظرية أفلاطون وإقليدس التى كانت تقول بالعكس ، مما يدل على أن ابن الهيثم كان يعرف تركيب العين معرفة مبنية على التشريح والاختبار ، وقد بحث ابن الهيثم أيضاً في انكسار الأشعة عند مرورها في طبقات الهواء واستنبط من ذلك أن النجم الذى ترقبه العين يظهر في موضع غير موضعه الحقيقي ، وأن الشمس تظهر على الأفق قبل وصولها إليه فعلاً ، وكذلك يبقى شعاعها بعد غروبها . وكان الأقدمون ينظرون إلى الكيمياء نظرة خيالية فأظهر العرب استحالة ذلك وبحثوا في الكيمياء الحقيقية وهى تركيب الأجسام من عناصر وتحليلها إليها .

ومن آثارهم العظيمة أنهم كانوا السبب في نقل الأرقام الهندية إلى سائر أقطار العالم ، فالعرب يسمونها الهندية والإفرنجية يسمونها العربية . وأول من تناول هذه الأرقام من العرب هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي ، كذلك أخذ الإفرنجية علم الجبر عن العرب ونقلوه باسمه العربى . وكان أول من تكلم في هذا العلم هو ديوفنتوس الإسكندرى من أهل القرن الرابع للميلاد ولكن بحثه فيه كان بحثاً أولياً . أما العرب فهم واضعو قواعده الأساسية التى صار بها علماً مستقلاً فهم بالنسبة لديوفنتوس كعبد القاهر الجرجاني أو السكاكى مثلاً بالنسبة إلى من تكلم قبلهم في علوم البلاغة ولم يتناولوها إلا من أطرافها .

وفي الطب أحدثوا في العلاج وسائل لم تكن معروفة قبلهم وقد وافق عليها من

جاء بعدهم ففد عالجوا الفالج بالفصد والنزيف بصب الماء البارد ، واستعملوا المرقد (البنج) فى العمليات الجراحية ، وكتب أبو بكر الرازى فى أمراض الأطفال ، وله كتاب بهذا الأسم ، وألف كذلك فى الجدرى والحصبة ، ومن الأقوال الماثورة التى تدل على فضل العرب فى الطب قولهم : إن الطب كان معدوما فأحياء جالينوس ، وكان متفرقا لجمعه الرازى ، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا .

أما الصيدلة فإنهم أول من ألف فى الأقرباذين على النمط المعروف الآن ، وأول من أقام حوانيت الصيدلة على وضعها الحاضر .

وقد كان للعرب أثر عظيم فى علم تقويم البلدان ، فقد طافوا البلاد ، ورسموا الأقطار ، ووصفوا أحوالها ، وطبائع أهلها وهيئاتهم وملهم وصوروا الكرة الأرضية ، وعلموها الأقاليم السبعة مبيّناً عليها عامرها وغامرها وخلقجانها وبحارها . فعل ذلك الشريف الإدريسى سنة ٥٤٨ هـ . وقد كان الطواف ديدن كثير من العلماء اختبروا البلاد بأنفسهم ولم يتكلموا فى حقائقهم التى سجلوها إلا على ما رأوا رأى العين واختبروه اختبار المحقق . ومنهم عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ الذى قدم مصر ووصف الأهرام . والسائح الهروى المتوفى سنة ٦١١ هـ الذى يقال إنه لم يترك برا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا يزار إلا قصده ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه ، وقد ذكر ابن خلكان أنه شاهد ذلك فى البلاد التى رآها حتى صار مضرب الأمثال .

قال الشاعر :

أَوْزَاقُ كُدَيْتِهِ فِي بَيْتِ كُلِّ قَتَى عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَانٍ وَاخْتِلَافٍ رَوَى
قَدِطَّبَقَ الْأَرْضَ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ كَأَنَّهُ حَطَّ ذَاكَ السَّائِحُ الْهَرَوَى



وإذا عددنا فلاسفة الإسلام ، وذكرنا لكل آثاره خرجنا إلى الاطالة التي لا يسمح بها كتاب ككتابنا ، ويكفي أن نشير إلى أنه نبغ من المسلمين في عصور متفاوتة أمثال أبي يعقوب يوسف الكندي العربي الصميم الذي يتصل أباه بملوك كندة ، وقد عاصر المأمون والمعتصم ، والواثق والمتوكل ، وبرع في علوم الطب والحساب والمنطق ، والأحان ، والهندسة ، والنجوم ، وألف أكثر من مائتي كتاب ولم يبق منها إلا كتاب في إلهيات أرسطو ، ورسالة في الموسيقى وهما بمكتبة برلين ، ورسالة في معرفة قوى الأدوية المركبة ، وهي في مكتبة منش ، وكتاب في علة اللون للأزوردي الذي يرى في الجو ، وكتاب في المد والجزر ، وهما في أكسفورد وغير ذلك .

ومن فلاسفة الإسلام أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، وهو محمد بن طرخان ، وأصله من فاراب ببلاد الترك ولكنه نشأ بالشام ، وقد فاق الكندي في كثير من علومه وألف فيما لم يسبق إليه ككتاب (السياسة المدنية) وهو من قبيل الاقتصاد السياسي الذي يظن أنه من آثار التمدن الحديث ، وله كتاب (إحصاء العلوم) ، وهو من قبيل الموسوعات لاشتماله على عدة علوم ، وله كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) وله غير ذلك .

ومنهم أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وقد مر بك كثير من استنباطاته في علم الكيمياء ، وقد خلف أكثر من مائتي كتاب كما فعل الكندي ، ومن هذه الكتب كتاب (الحاوي) في الطب ، وهو أجل كتبه وأعظمها ، وكتاب (الحصبة والجدرى) وكتاب (برء الساعة) « الاسعاف » .

ومنهم الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وهو من المتفردين بسعة العلم وقوة العقل تزيد مؤلفاته على مائة . ومن كتبه الباقية في الطب (القانون) وهو في أربعة عشر

جزءاً وهو مطبوع بمصر (والشفاء) وهو ثمانية عشر جزءاً مطبوع على الحجر ببلاد فارس ، وبادار الكتب الملكية بمصر نسخة منه . وقد ألف في غير الطب في الفقه والتوحيد واللغة والمنطق ، وله قصيدته المشهورة في النفس وأولها :

هبطت إليك من الحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

ومن العلوم التي لم يسبق إليها العرب ولم يصل إلى مثلها أهل التمدن الحديث إلا بد نضج تمدنهم في القرن الماضي علم (تدبير المنزل) وقد حدوه بأنه معرفة اعتدال لأحوال المشتركة بين الرجل وزوجته ، وأولاده وخدمه ، وطريق علاج الأمور الخارجة من الاعتدال ، وعلم السياسة ، وقد كانت عندهم شرعية ومدنية ، وألف فيها على جمالها أبو زيد البلخي كتائين ، وألف في السياسة المدنية أبو نصر الفارابي - ومن أهم كتبها (سلوك الممالك في تدبير الممالك) ألفه ابن الربيع المستعصم آخر خلفاء العباسيين - وكذلك ألفوا في الاقتصاد وتدبير المال ، ومن ذلك كتاب (الإشارة إلى محاسن التجارة) للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ، ولا يعرف تاريخ وفاته ولكن يرجح أنه عاش في العصر العباسي - وفي الكتاب فصول في تعريف المال وأنواعه وطرق تثيره والكشف عن رديئه وفاسده ومعرفة الأحجار الكريمة والأفاريه والأنسجة والأبسطة - ومن ذلك أيضاً كتاب (الجواهر وأصنافها) لمحمد بن شاذان الجوهري ألفه المعتضد المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وهذه الكتب غير معثور عليها إلا كتاب الإشارة فإنه مطبوع بمصر .

ونرى في هذا القدر كفاية وإن كان فضل العرب في هذا الباب يعز عن الاستيعاب .

اثر الترجمة في اللغة العربية

لقد كانت ترجمة العلوم سبباً في اتساع اللغة من ناحيتين ضربنا لك أمثلة لواحدة منهما في أبواب سابقة وتلك هي الألفاظ التي عربت من اللغات الفارسية واليونانية والهندية وغيرها .

أما الناحية الثانية فهي ناحية وضع اللفظ العربي للعدل الذي أرادوا نقل معناه - وقد وجد العرب من لغتهم ليناً واتساعاً ومطاوعة في هذه كما وجدوا ذلك في الناحية السابقة فيحسن بنا في محاولتنا جعل العربية اليوم لغة العلم كما هي لغة الدين والأدب أن نعول على الناحيتين فنستفيد من محاسنهما ونبرهن على أننا نتقيل أسلافنا فيما انتحوه في خدمة هذه اللغة الشريفة .

ومن المصطلحات التي وضعها العرب قولهم في فنون الطب مثلاً : الكحالة « طب العيون » . الصيدلة . التشريح . الجراحة . التوليد ، وقولهم في اصطلاحات عامة فيه : الرطوبة . المزاج . الحار . البارد . الجاف . اليابس . السوداء . الصفراء . البلغم . التعمة . الإنذار . النبض . الهضم . البخران . الإمساك . وقولهم في وصف الأدوية : مرطب . ملطف . محلل . منضج . مخشن . هاضم . أكال . لناع . مبرد . مقو . مخدر . قابض . مسهل . مدرّ . معرق .

وقولهم في مصطلحات الفلك والرياضة : الزيج . الفلك . الرصد . التعديل . المماس . المخروط . المثلث . المربع . شبه المنحرف . الدائرة . القوس . الوتر . الزاوية . (قائمة . حادة . منفرجة) .

ومن الاصطلاحات الفلسفية : العرض . الجوهر . الموضوع . المحمول . المقتضى . المانع . التصور . التصديق . الشكل . القياس . الماهية . الهوية . الكمية . الكيفية . اللانهائية . اللاضرورة . الدور . التسلسل .

وقد زادت المصطلحات العلمية حتى اضطروا إلى وضع معاجم لها ، ومن أشهر تلك المعاجم كتاب (التعريفات) للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، و (كشف اصطلاحات الفنون) للتهانوي المتوفى سنة ١١٥٨ هـ و (كليات أبي البقاء) وغير ذلك . هذا إلى ما نال الأسلوب من تغير ، فقد كثر فيه استخدام فعل الكون والبناء للمجهول والفصل بالضمير الغائب وصوغ المصادر الصناعية ، وهي التي تكون بزيادة ياء النسب على اسم الذات فيصيرها مصدرا مثل : المائية . الكيفية . الكمية . ولقد كان لتطبيق قواعد المنطق واستعمال أقيسته أثر في تضيق الأساليب ، فقد أصبح المتكلم مقيدا بالإتيان بالمقدمات ، ووصلها بالتأني بصورة تكاد تتحد في كل تدليل ، فضاعت بذلك الأساليب بعد أن كان المتكلم يتلاعب باللفظ ، ويقلب الكلام على وجوهه ماشاء .

وبكثرة المصطلحات ودقة دلالتها أصبحت لغة العلوم لا يفهمها إلا أصحابها ، وأصبحت معرفة المعاني اللغوية لا قيمة لها في فهم أساليب العلوم حتى لقد ألفوا معاجم للمصطلحات العلمية إلى جانب المعاجم اللغوية .

حياة ابن المقفع

نسبه : اسمه روزبه بن داؤدويه ، ويكنى أبا عمرو ، ثم تسمى بعبدا لله ، وكنى

بأبي محمد بعد أن أسلم كما سيأتي

وهو فارسي من أهل غورستان المعروفة باسم الأهواز ، وهي قرية من البصرة .

نشأته

ولد ابن المقفع بالبصرة سنة ١٠٦ هـ ، ونشأ بها في ولاء بنى الأهم ، وكان أبوه قد ولى للحجاج خراج بلاد فارس ، فاحتجن شيئاً من مال السلطان فضر به الحجاج حتى تقفعت يده (تشنجت) فلقب من ذلك الحين بالمقفع ، وكل الموالي في عهد الأمويين كانوا مضطهدين ليس لهم في الدولة جاه لأن الأمويين بنوا سياستهم على الغض من شأنهم والزراية بهم ، فكان هؤلاء يتقربون إليهم بالفضل ، ويلتمسون لنيهم المنزلة بالأدب ، وحذق العربية . لذلك حرص المقفع على تنشئة ابنه أحسن تنشئة ليخرج صالحاً لخدمة هؤلاء الخلفاء أو أهل بيتهم أو وولاتهم ، ولا يتذرع متذرع إلى ذلك إلا بالعربية يدرسها ، فيروى الشعر ، ويحفظ الخطب ، ويقرأ القرآن ، ويضم إلى ذلك معرفة الحساب وغيره مما يحتاج إليه السكاتب في هذه الأيام . وتستطيع أن تعرف منهج هذه الدراسة من مراجعة وصية عبد الحميد بن يحيى للكتاب ، فمنها تعلم حاجة الناشئ الذي يلتمس الرزق من عمله في الكتابة .

وقد كانت نشأة ابن المقفع في البصرة وولائه لبنى الأهم سببين لهما أثرهما في بلاغته وما صار إليه من تصدر في حلبة البيان .

فالبصرة هي ذاك البلد الذي أنشأه عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ بين ريف العراق وصحراء العرب ، فهوت إليه أفئدة كثير من القبائل العربية وخصها الله بقوم كانوا في الفصاحة مجلين . فكانت البصرة منذ قديم مثابة الرواة ومجمع الأدباء ومنبت الشعراء ، وبها أقيم المربد فكان خلفاً لمكاظ . وعرف من علماء البصرة ، وشعرائها ، ومحدثيها ورواتها كثيرون هم قادة أهل العربية وجلة رجالها . فكان من علمائها النحويين أبو الأسود ، وابن أبي إسحق الحضرمي أول من علل النحو ، وعيسى بن عمر الثقفي أول من ألف فيه ، وسيبويه أول من جمعه في كتاب ، وكان من رواتها الأصمعي وأبو عبيدة وخلف ، ومن متكلميها واصل ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والحسن البصري وابن سيرين . ومن شعرائها بشار ، وصالح بن عبد القدوس ، وسلم الخاسر ، وأبونواس .

ولا بد أن ابن المقفع تلمذ لجلة العلماء من البصرة وإن كان المؤرخون لم ينصوا على أحد من معلميه إلا على أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي كان ينفذ إلى البصرة وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة . هكذا روى ابن النديم . ولكن فضل ابن المقفع يجعلنا نقول إنه لم يترك علماً إلا عرفه ولا شاردة أو واردة في اللغة إلا وقف عليها فإن فضله يستلزم ذلك . ويكفي أن نقول إنه وزن بالخليل بن أحمد فقال محمد بن سلام سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولم يكن في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

تقلبه في عمله

ولما عرف فضل ابن المقفع وظهرت له في الكتابة مخايل حرص الناس على الانتفاع بمواهبه فاتخذوه داود بن يزيد بن هبيرة كاتباً له . وكان داود مع أبيه يزيد الذي كان والى العراق من قبل مروان بن محمد ، فلما قتل مروان امتنع يزيد على بنى العباس حتى أمنه المنصور ثم قتله . وبذلك انتهى عمل ابن المقفع في الدولة الأموية ولكننا لا نجد له بين آثاره شيئاً لما كان قد كتبه عن داود .

فلما أظلمت الدولة العباسية أبى فضله إلا أن يعتز به هؤلاء كما اعتز به أصحاب الدولة السابقة ، فقد اتصل بأعمام المنصور فكتب لعيسى بن علي أيام ولايته على كرمان وقد أسلم على يده . وتأدب عليه بعض أبناء إسماعيل بن علي . ثم كتب لسليمان بن علي في ولايته على البصرة وأعمالها ، وقد دامت له هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٣٩ هـ حتى عزله المنصور وولى محله سفيان بن معاوية الذي كان على يده قتل ابن المقفع .

وفي أيام اتصاله بأعمام المنصور وصلت شهرته إلى الخليفة فانتفع به فيما أراد من نقل علوم الفرس إلى العربية ، فقد وجد فيه فارسياً أضاف إلى معرفته للغة حذق

العربية مع ذكاء متوقد وهمة عالية فترجم له شيئاً ووضع شيئاً ، ولكن ذلك لم يمنع المنصور أن يوعز بقتله أو يسكت عنه لأسباب سنذكرها على حدة .

ديانة ابن المقفع

كان ابن المقفع كما كان أبوه زُرَادُشْتِيَا ، وتلك ديانة تنسب إلى بني الفرس زرادشت الذي كان له كتاب يسمى الإيستاق ، وقد عامل العرب أهل هذه الديانة معاملة أهل الكتاب . والمشهور من تعاليم زرادشت أنه يقول بأصلين وهما أهورا وهو أصل الخير ، وأهرمن وهو أصل الشر . ولكل من هذين قدرة وتصرف ، فأهورا خلق كل نافع من حيوان ومادة ، وأهرمن خلق كل ضار من حيوان مفترس وحشرة مؤذية . والحرب سجال بين هذين الإلهين ، وأن المؤمن من ينصر إله الخير فيعمل على تعمير الدنيا ومقاومة إله الشر .

وهذه الديانة كانت معتقد الفرس عامة إلى الفتح الإسلامي ، فدخل في الإسلام من دخل وبقى على دينه من بقي . وتلك الديانة هي التي حرفها «ماني» فرأى أن تغلب الخير على الشر في العالم غير مستطاع ، فلذلك حرم الزواج وأوجب الصوم ، حتى يعجل الفناء إلى العالم ، وقد ذكروا أن هُرْمُزُ ملك الفرس اعتنق هذا المذهب فراج حيناً فلما خلفه بهرام وقتل ماني وشرد أصحابه بقيت تعاليمه .

وقد تفرع من ديانة زرادشت مذهب آخر وهو مذهب «مَزْدَك» وكان أيضاً يقول بالنور والظلمة (إله الخير وإله الشر) ولكنه يرى أن تعالج الحياة ويقضى على البغضاء ، ويرى أن وسيلة ذلك إباحة الأموال والنساء لأنهما سبب التباعد .

فهذه هي الديانة الزرادشتية في أصلها وما تفرع منها ، وقد كان لهذه الفروع أتباع ولكنهم قليلون ، أما الأصل فقد كان عليه غالب القوم كما ذكرنا . وقد حكى

الإصطخري أن بعض قرى كرمان كانت على مذهب مرذك طول عهد الدولة الأموية .
وبعد فهل كان ابن المقفع يتبع أصل الدين وتعاليمه المرتضاة لجمهور الفرس أم يجنح
إلى شيء مما جدّ فيها من فساد وسوء تفسير . ولكن يظهر من حسن سمت ابن المقفع
ووافر أدبه أنه إنما كان يتبع أصل الديانة ولم يكن يتطرف بما جد فيها من مذاهب
تنافي النظام وتضاد أصول الاجتماع فإن ذلك لا يقر عليه من يدين به خصوصاً في
حواضر البلاد كالْبصرة وبغداد مثلاً .

أسلم ابن المقفع ولم يذكر في إسلامه أن أحداً حمّله عليه أو رغبه فيه وذلك
شأن المسلمين في هذا العهد فإن اعتزازهم بأنفسهم واستغناءهم بكثرتهم لم يجعلهم يرون في
الإسلام قلة تحتاج إلى التكثير . وقد خدمهم جمهور من أصحاب الديانات الأخرى ،
ونالوا جوائزهم ، واستحوذوا على رضاهم ، فلم نر أحداً من الخلفاء رغب إليهم في
الإسلام . وبقى هؤلاء على دينهم حتى ماتوا عليه فلم يكن ذلك بحائل دون وصولهم
إلى ما أرادوا من الدولة . فهذه الشواهد تؤيد أن ابن المقفع لم يسلم بإيعاز ولا إلحاح ولم
يدفعه إلى الإسلام طمع في مادة أو قرْبى من أصحاب الدولة فقد كانت له هذه المزايا
وهو على المجوسية .

فابن المقفع كان أحد هؤلاء الذين دلهم عقلهم وهداهم بحُثْمهم إلى أن الدين
الإسلامي هو أقوم سبيل إلى معرفة الله والاستحواذ على رضاه وأنه الوسيلة للنجاة في
الدنيا والآخرة .

لذلك نرى المؤرخين مجمعين على أن ابن المقفع قد رغب من ذات نفسه في
الإسلام حين كان كاتباً لعيسى بن علي فاستمهله عيسى إلى الغد ليكون إسلامه بمشهد
من المسلمين وليحتفل به في جمع من القواد والرؤساء .

فلو أن إسلام ابن المقفع بتدبير وحمل ما رأينا عيسى بن علي يعدّ ذلك مفاجأة
ويطلب منه التهل إلى الغد . ولما أسلم سمي عبد الله وكنى أبا محمد .

أما ماشاع عن زندقته وما انبنى عليها من قتله بيد سفيان بن معاوية فيصح أن يكون ذلك قد اتخذ ذريعة إلى قتله .

أستدل الناس على زندقته بأنه حين بات على نية الإسلام زمزم على الطعام فقال له عيسى ألسنت على نية الإسلام؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين . وأقول ربما حمّله على ذلك العادة فلما أنكر عليه عيسى احتج بهذه الحجة وهو رجل تأبى له كرامته الأدبية وحصافته العقلية أن يبدع بقول فما يحير له جوابا .
كذلك عدوا عليه أنه مر بيت نار المجوس فتمثل .

يَا بَيْتَ عَائِكَ الذِي أَتَعَزَّلُ حَذِرِ الْعِدَا وَبِهِ الْفَوَادِ مُوَكَّلُ
إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصَّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لَأُمِئِّلُ

ونرى أن التمثل بالأبيات لا يكون حجة على ندمه لترك دينه فيكفي في التمثل عموم المعنى وأنه فارق ديننا إلى دين وهجره كما هجر الشاعر بيت محبوبته . فأما تطبيق جميع أجزاء المعنى فليس ذلك شرطاً لهم في التمثيل .

على أن اعتبار الفكاهة في ذلك أقرب من اعتبار الأسف على ما فاتته من دينه وهو لم يضطر كما ذكرنا إلى الإسلام . وانظر كيف تلمسوا له المزالق في قوله في رثاء يحيى بن زياد .

رُزِينَا أَبَا عَمْرٍو وَلَا حَيَّ مِثْلُهُ فِإِلَهِ رَيْبُ الْحَادِثَاتِ بَيْنَ وَقَعِ
فَإِنْ تَلَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذَوِي خَلَّةٍ مَا فِي أَسْدَادِهَا طَمَعُ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ نَا لَكَ أَنَّنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

فعزوا ذلك إلى مذهب الزنادقة في أن الخير مخلوط بالشر أخذوا ذلك من قوله (لقد جرّ نفعاً فقدنا لك) وهذا بعيد جدا .

ولقد بلغ من حسد الناس له على فضله ورغبتهم في الخط من شأنه أن ألف

بعضهم الكتب في الإلحاد ونسبها إلى ابن المقفع ولكنها تدل بسخف عباراتها وضعة معانيها أن ابن المقفع برىء منها .

ومهما كثر من الناس اتهامهم له بالزندقة فإن هذه الكثرة لا تدل على حقيقة التهمة لما نعلمه من أن كثيرا من الناس يتبعون أول ناعق فهم في ذلك إمعات لا يستقلون بحكم .

والقول في إسلام أمرى أو نفاقه يخفى على المعاشرين الخاطئين فكيف إذا طال العهد ؟ على أن كثيرا من متهمي ابن المقفع بالزندقة يحاسبونه على أمور أتاها قبل الإسلام وهو فيها غير ملوم إذ كان انما ينصر دينه . فإذا كان قد ترجم كتباً أو وضع حديثاً عن رسول الله فكل ذلك قد جبه الإسلام فليس عدلاً محاسبته عليه .

أسباب قتله

كان سليمان بن علي والياً على البصرة من قبل المنصور وقد خرج أخوه عبد الله ابن علي على الخليفة فجاهد سليمان ولم يسلمه إلى أبي جعفر إلا بعد أن أمضى أماناً كتب صيغته عبد الله بن المقفع ، واشترط فيه شروطاً وأفرط في الاحتياط لمولاه حتى لا يستطيع المنصور الغدر به ، فكان من الأمان قوله : (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته) . ولما تمكن أبو جعفر من عبد الله سجنه وعزل أخاه عن البصرة وولى عليها سفيان بن معاوية وما فعل ذلك إلا ليغيظ سليمان بما فعل من حمايته لأخيه .

وقد ظهر من ابن المقفع اعتداء على سفيان وإهانة له ولا ندرى هل كان من هوان الرجل في نفسه أو لأن ابن المقفع يرى من وفائه لأصحاب نعمته أن يحقر هذا الذي عورضوا به وخوّل ما كان لهم من جاه وعز .

ذكروا أن ابن المقفع كان يتنادر على سفيان ويسخر به فكان إذا دخل عليه (وكان سفيان كبير الأنف) قال السلام عليكم . وقال له يوما ما تقول في رجل خلف زوجا وزوجة ؟ وقال سفيان يوما ما ندمت على سكوت ، فقال له ابن المقفع الخرس زين لك فكيف تندم عليه ؟ فكان سفيان يقول والله لأقطعنه إربا إربا وقد فعل .

وقد حكوا في قتله حكايات تختلف في صورتها ولكنها تتحد في شاعتها . ذكروا أنه ألقاه في بئر وردم عليه بالحجارة ، وأنه أدخله حماما وأغلقه عليه حتى اختنق ، وأنه ألقاه عضواً عضواً في تنور حتى أتى عليه ، وكان يقول ما على في هذه المثلة شيء فهو زنديق قد أفسد الناس . وقد كان قتله سنة ١٤٣ هـ فيكون قد مات وعمره ست وثلاثون سنة .



حقا لقد كثرت الزندقة في هذه الأيام وراع الخلفاء أمرها ، ولكننا رأينا أنها قد اتخذت وسيلة لشفاء العداوات ، فكثيراً ما رأينا العداوة تنشأ بين وزير وشاعر فيتبعها قتل ذلك الشاعر بدعوى الإلحاد كما حصل لبشار حين هجا يعقوب بن داود وزير المهدي . فليس يبعد أن تكون ضغينة سفيان على ابن المقفع هي التي جعلته يصوغ له هذه التهمة فيقتله بها . وما أكثر ما تروج هذه التهم في زمن تتجه فيه الأذهان إلى محاربة الزندقة ويعتقد الولاة والخلفاء أنهم يتقربون إلى الله بدماء هؤلاء الزنادقة . وليس يبعد أن يكون تغير قلب المنصور على ابن المقفع لتشدده في الأمان لعمه هو الذي جراً سفيان على قتله . وقد ظهر أثر ذلك حين غضب سليمان وعيسى لقتله ، وقدم الشهود على المنصور للشهادة على سفيان فقال لهم أرايتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت وأشار إلى باب خلفه وخاطبكم ما ترون أني صانع بكم أأقتلكم بسفيان ؟ فرجع

الشهود عن الشهادة ، ولا شك أن هذا تهاون من المنصور في دم الرجل وما دعاه إليه إلا نصرة واليه على أعمامه وما سبق من حقد على ابن المقفع بسبب الأمان .

أخلاق ابن المقفع

لقد ذكروا عن ابن المقفع من حسن السمّت ، وتمام الخلق ، ودوام الوفاء ما جعله في هذا الباب أصلاً وعمدة ، وإذا كان شعر الشاعر أو كتابة الكاتب صورة لنفسه ودليلاً على خلاله ، فإننا نجد في كتابة ابن المقفع تمجيداً للفضيلة وإشادة بذكرها وإعظاماً لشأن الصداقة وتعوّيلاً عليها وحثاً على الوفاء ودعوة إلى القناعة وترغيباً في بسط المعروف وكف الإساءة ، يمثل ذلك أدباه الصغير والكبير ، وكذلك تتمثل هذه النزعة فيما اختار من الكتب التي ترجمها واختيار المرء قطعة من عقله . فكتاب كليلة ودمنة كله أدب وحكمة كما تعرف فلا شك أن بين خلق ابن المقفع وآثار قلعه نسباً كبيراً . وما ندرى هل كانت هذه الأخلاق طباعاً فيه جعلته يلهج بذكرها ويحرص على نقلها للناس أم أن نشأته وتسامحه جعله بهذه المثابة من تمجيد الفضيلة والترغيب فيها لكثرة ما تأدب بذلك في مطالعته ودراساته .

ولكن الذي نقول إن دين ابن المقفع القديم ، وبناءه على نصرة الخير ، ومغالاة رؤسائه في ذلك بل حصرهم الدين كله فيه ، وكذلك قراءته لأدب لغته ، وكلها مبنية على تمجيد الفضيلة والاتعاظ بالحوادث وضرب المثل ، واستنباط العبرة ، ثم ما أفاده أخيراً بالإسلام من هذا ، وهو فيه أعقل وأقوم قليلاً ، كل ذلك مضافاً إلى طبع هادئ ونفس طيبة جعلنا نرى من ابن المقفع رجلاً يؤثر على نفسه ، ولو كانت به خصاصة ، ويفدى صديقه بروحه لا يرأى ولا يداهن .

فأما ما روى عنه مما يؤيد هذه الشائيل فيه فهو كثير ، وأدله على تمكن الوفاء من نفسه ما ذكرنا من أنه كان صديقاً لعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، فلما لجأ إليه عبد الحميد بالبحرين بعد قتل مروان ، وفاجأ الطلب عبد الحميد وهو معه في بيت . قال الجند : أيكما عبد الحميد ؟ فقال : كل « أنا » ، وتلك الكلمة من عبد الحميد حق ، ولكنها من ابن المقفع وفاء لا حد له . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا بأذى إلى صاحبه ، فقال : ترقموا فإن في علامات أعرف بها ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض ليعود بهذه العلامات .

كذلك ذكرنا أن سعيد بن سلم قصد الكوفة ، فلقى ابن المقفع ورحب به وعلم منه أن به فاقة وأن ديناً ركب ، فسأله : هل قصدت أحداً ؟ فقال له : أتيت ابن شبرمة فوعدني أن أكون مريباً لبعض أولاد الخاصة ، فقال ابن المقفع : أف !! ! يجعلك مؤدباً في آخر عمرك . أين منزلك ؟ فعرفه إياه . فلما كان الغد قصده ابن المقفع فوضع بين يديه منديلاً ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودرهم متفرقة ، ومقدار ذلك أربعة آلاف درهم ، فأخذ سعيد هذه الهبة وعاد إلى البصرة واستغنى بها .

وقال ابن قتيبة في عيون الأخبار : بلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داراً له بدين ركب ، وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقت بحرمة ظل هذه الدار إن باعها معدماً وبت واجداً ، فحمل إليه الثمن وقال : لا تبع . وحدثوا عنه أيضاً : أنه كان يطعم الطعام ويوسع على كل محتاج ، وأنه كان يجري على بعض وجوه البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين في كل شهر .

وكذلك كان فيه إلى جانب هذه الأمهات من الفضائل كمالات أخرى من الوفاق وحسن السميت ورقة الشائيل .

علم ابن المقفع وبلاغته

بلغ ابن المقفع منزلة عالية من تقريب الملوك واعتمادهم عليه واستشارتهم له وتديبرهم الملك برأيه كما فعل الأمراء والولاة الذين استكتبوه ، فقد كانوا إنما يصدرن عن رأيه ، وكان بمثابة الوزير لهم في عملهم . تدرك ذلك من إشارته في الرأي عند تسليم عبد الله ابن عليّ إلى المنصور والنزول على حكمه من التشدد مع الخليفة وتوكيد الأيمان عليه . وقد فعل المنصور في الاعتماد عليه والاستئناس إلى مشورته أكثر من ذلك ، فقد خول إليه وضع دستور يسير عليه في حكم الرعية ، وذلك في رسالة الصحابة التي عملها له ، وسنعرفك بها في الكلام عن كتبه .

ولا يرتقي رجل إلى هذه المنزلة حتى يكون من حصافة الرأي وجودة الفكر بمثابة كبيرة . ولن يصل إلى هذا الرأي الحصيف والفكر الجيد حتى يكون قد تنقف بالعلوم وتحلى بالآداب ، فأثمرت فيه هذا الثمر الذي حرص عليه الخلفاء وولاة الأمور . وإن حادثاً واحداً نذكره لك يكفيها مؤونة الدليل على فضله والإشادة بذكره ، وذلك أنهم قالوا : لم يكن في العرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع . ولا في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد جمع بينهما عبّاد بن عبّاد المهلبى ، فكتبنا ثلاثة أيام ولياليها يتحادثان ، فلما افترقا سئل الخليل عن ابن المقفع ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله . وسئل ابن المقفع عن الخليل ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

فهذه القصة كافية في الدلالة على فضله فإنه لم يجمع بينهما إلا وهما في الفضل متعادلان ، وبالرياسة في العلم موسومان ، والخليل بن أحمد هو ما هو ! جبار من جبابرة العقول ، وقد من أفذاذ الدنيا ، اخترع العروض ووضع طريقة المعاجم . وهذب

الشكل في الخط العربي ، فإذا قرن ابن المقفع به ، فقد قرن إلى إمام جليل ونادرة من فلتات الأيام . ثم تكون شهادة الخليل ، وهو بهذه المثابة من الفضل « إن ابن المقفع علمه أكثر من عقله » أعظم دليل على مكانة الرجل .

فلا بد أن يكون قد حاز علوم العصر ، وحوى الفضل الذي وزع في الناس . وإن في كتبه لدليلاً أوضح على فضله ، فقد تكون هذه القصة مكذوبة أو مبالغاً فيها . فأما الأثر الباقي الذي تواترت الأخبار بنسبته إلى الرجل ، فهذا ما لا شك في دلالاته ولا أثر للمبالغة في شأنه .

تدل مؤلفات ابن المقفع وترجماته على أنه كان يعرف المنطق ، وقد ترجم فيه « إيساغوجي » لأبي جعفر المنصور ، فكان أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية كما يقول القفطى صاحب كتاب أخبار الحكماء ، ومثل المنطق لا يستطيع الترجمة فيه إلا كل من فهمه وحذق مسأله . كذلك كان أول من اخترع في العربية طريقة التدوين في التاريخ بترجمته كتاب « خدائنامه » في سيرملوك العجم . وأول ما عرفت العربية السمر الملهى والقصص المشتمل على الحكمة كان على يد ابن المقفع بترجمته كتاب : « كليمه ودمنة » ، كذلك لم يكونوا قبله كتبوا في الأخلاق ، فدلهم على ذلك بأدبيه الصغير والكبير وإن كان ما فيهما ليس بحثاً في الخلق وبيان حدوده ، وطريق تربية النشء عليه ، ولكن عمله كان نواة انضمت إلى غيرها مما أنتجته الترجمة للعلوم ، فألف الناس في الأخلاق بالبحث الفلسفي المعروف كما فعل ابن مسكويه .

ويكفي أن يكون ابن المقفع قائد الناس إلى الفخر وداهم على هذه المحامد التي كان لها في اللغة وأهلها أكبر نفع .

أما بلاغة ابن المقفع فإننا نستطيع أن نلُحس أسبابها ونتأجها لمساً لا يدع شكاً في أن نصيبه منها كان عظيماً وحظه كان وافراً . فأسباب بلاغته هي نشأته في البصرة أو

في ولاء بني الأهتم ، وتقدّم الزمن به إلى صدر القرن الثاني إذ أنه ولد في سنة ١٠٦ هـ ومات سنة ١٤٢ هـ . فقد عاش في شباب العربية ، وحضر شيوع الرواية ، وشافه الأعراب ، وصادف عناية الخلفاء من أمويين وعباسيين ، بأمر تلك اللغة ، فلا بدّ أنه نهل من العربية وعلم حتى تملأ . ومما يدلّ على ذلك قوله : (شربت الخطب ريا ، ولم أضبط لها روياء ، فغاصت ثم فاضت ، فلا هي نظاماً ، وليس غيرها كلاماً) وأما نتائجها فهو ما تراه في كتبه الباقية الآن ، وهي كليلة ودمنة ، والأدبان : (الصغير والكبير) ، ورسالة الصحابة .

إن البلاغة التي تلتئم مع كلّ ذوق وتزوج في كلّ جيل هي البلاغة الجديرة بالاعتبار ، ومن هذا النوع بلاغة ابن المقفع فإن كتبه وقد مرّ عليها ألف سنة أو تزيد ، لا تزال جديدة قد شغف الناس حبها على مدى الأيام ، فكان كتاب : كليلة ودمنة موضوع احتفاء العصور التي تلت وضعه إلى يومنا هذا ، ولا نجد هذه الميزة لكتاب حاشا القرآن الكريم وحديث رسول الله . ولا شك أن سرّاً عظيماً تشتمل عليه بلاغة الرجل هو الذي جعلها جديدة على الأيام مستحسنة مع تبدل الأذواق واختلاف الرغبات . والذي نراه أن كتابة ابن المقفع تمثل أعلى طبقات البلاغة العربية . فإن العصر الذي عاش فيه هو الذي حاز هذه الفضيلة بجمعه بين الثقافة الفكرية وسلامة الملكة اللغوية . وإذا اجتمع للكلام معنى ولفظ فقد جمع الحسن من أقطاره ، وإذا كان ابن المقفع شيخ طبخته غير مدافع فهو لذلك شيخ كتاب العربية أولاً وآخراً وغابراً وحاضراً .

تناول المعاني الحكيمة من كل موعظة حسنة ، وكلمة سامية ، وخلق فاضل ، ومثل سائر ، وقصة رائعة ، فكان موضوع كتابته هو لباب العلم ، وخلاصة التجربة ، وثمرة الحياة وهو جدّ ووقار ، وإرشاد وتأديب .

ولقد احتاجت هذه المعاني الشريفة إلى لفظ يكون موافقاً وملائماً لها وكفئاً لشرفها .

فكان ابن المقفع أقدر الناس على هذه الملاءمة بما وهب من ذهن صاف وخطر حاد ورواية شحن بها ذهنه ففاضت كما يقول .

كان موضوع كتابته دقيقاً فهو حكمة وليس أدق من الحكمة ، ومثل وليس أحوج منه إلى حسن الوضع ، ومعان نفسية تخلق خلقاً على غير مثال سابق ، فهي من أجل هذا تحتاج إلى لفظ يوافقها في دقتها ، وقد وهب ابن المقفع المهل في اختيار لفظه والتأني لما ينشئ من عباراته حتى لقد كان كثير توقف القلم فليل له في ذلك فقال : « إن الكلام يزدحم في صدرى فيقف قلبي لتخيره » ، فهو لاجبسة ولا حيرة ولا فقر في الأساليب يقف قلعه ولكن تتكاثر عليه سائحات الأساليب فيختار منها الجياد .

تنظر في عبارته فتجد لفظاً قد جاء وفق المعنى لا فاضلاً عنه ولا مفضولاً ، وتجد الطبع قد أرخى له عنانه ، فجرى على سننه ، لا يلوى على سجة يجتلبها ، ولا يحرص على فقرة يزواج بها ، ولا ينظر في أعطاف الأسلوب لعله يحسنه بتجنيس أو طباق ، فهو في شغل عن كل هذا بتطبيق أصول البلاغة وذلك لا يكون في رأيه إلا بتجلية المعنى وإيراده ضاحياً لا يحول بينه وبين الفهم حائل .

لم يفعل ابن المقفع ذلك إلا وهو يدين بأن البلاغة الإبانة والإفصاح ، فقد سئل عنها فقال : (البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها) ، ولا يدخل في وهم الجاهل هذا الظن إلا إذا رأى كلاماً سهلاً ومعنى جلياً فظن أنه قادر عليه ، وقد كان من لوازم هذا في رأى ابن المقفع أن يترك الألفاظ الوحشية التي كان يزيدها بها بعض أهل زمانه ويظنونها من البلاغة ، فقد قال في وصية لبعض الكتاب : (إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر) ولم تنته به الرغبة في السهولة إلى أن يسف ويتبدل ، فإن ذلك عيب لو صار إليه لم يكن أقل من عيب التكلف والتعمل ولكن الذى حفظ لكلامه الفضيلة أن كان سهلاً متجافياً عن التعمير مترفعاً عن الإسفاف .

ومن ذلك وصيته لكتاب (عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة) .
فابن المقفع قد لاءم بين معنى حكيم ولفظ حكيم ، فاجتمع لكلامه الفضل ، وحوى
كل نبل .

وقد جاءت آثاره شاهدا لاتبليه الأيام ، على أنه كان قوى الملكة تام السليقة ، فلم
يوقف له على غلطة ولم تؤخذ عليه نبوة ، والنبو في الطباع مألوف ، والعثرات في الألسنة
متوقعة خصوصا من مثل ابن المقفع الفارسي الأصل الذى تراحم العربية في ذهنه لغة
آبائه التى يجيدها ، ويحكم أصولها . وقد شهد له الأصمعى بالفضل فى هذا الباب فقال :
(ما رأيت فيما كتب ابن المقفع لحنا إلا فى موضع واحد وهو قوله : العلم أكبر من أن
يحاط به فخذوا البعض) . يريد أن كلمة بعض لا تدخل عليها أداة التعريف .

آثاره

لابن المقفع آثار كثيرة وأغلبها قد فقد ولكن الباقى منها هو :

- (١) الأدب الصغير . (٢) الأدب الكبير . (٣) رسالة الصحابة .
- (٤) اليتيمة فى طاعة السلطان . (٥) كلىة ودمنة .

فأما الأدبان : فهما من وضعه ، جمع فيهما ما وعاه قلبه من الحكم ، وما استقر فى
نفسه من كلام الفلاسفة ، وليس ترجمة عن كتب فى الفارسية صادف فيها هذه الحكم
مجموعة فنقلها ، فهما أشبه شىء بملاحظات فى الحياة ، وتجاربه من الأيام . والأدب
الصغير منشور الحكم ، مبثوث الأقوال ، لارتباط بين أجزائه ، فقد تجدد كلمة فى الصديق إلى
جانب أخرى فى القناعة إلى ثالثة فى محاسبة النفس ، ثم يعود بعد ذلك إلى الكلام عن
الصدقة ، أو أدب من آداب النفس سبق له القول فيه ، وكأنه إنما جمع أشتات هذه
الحكم من ذهنه ، ولم يحاول أن يجعل لها نظاما .

أما حكم الأدب الكبير فهي أقرب إلى التبويب . إذا أنه جعل الشرط الأول منه خاصا بالسلطان وأصحابه وولاته ومن اتصل بهم : ينهى في ذلك عن خصال ، ويدعو إلى أخرى ، ويدل على أخلاق هؤلاء الحكام في الغدر ، وطبيعتهم في الإيقاع . والشرط الثاني من كتاب جعله للصديق والحاجة إليه ، ومتى يثق به المرء ، وما يطلب منه إلى غير ذلك .

وإذا أردنا أن نتبين عن أى ثقافة صدرا هذان الكتابان ، هل هما أثر لثقافة ابن المقفع الفارسية ، أو لثقافته العربية نرى أن من الظلم ادعاء أنهما لواحدة منهما دون الأخرى ، ففيهما : حكم فارسية ، وحكم إسلامية ، أو عربية . فالرجل مدين فيهما للثقافتين متأثر بالتهذيبين .

أما رسالة الصحابة : فقد أوردها صاحب كتاب المنشور والمنظوم ، وهو مخطوط بدار الكتب الملكية المصرية ، وقد نشرت في مجموعة رسائل البلغاء ، وهي كما يفهم من قراءتها بحث في أمور الدولة ، وما يجب أن يتبع في سياستها ، وقد كتبها المنصور . تعلم ذلك ، وإن لم يصرح باسمه لأنه ترحم على أبي العباس السفاح ، فهي مكتوبة للمنصور الذي وليه في الحكم ، ومات ابن المقفع في أيامه .

تناول فيها الجند فأثنى على الخراسانيين ، وذكر أموراً في استصلاحهم ، ودوام طاعتهم ، وجعل منها التعويل في تقديمهم ، وإعلاء مراتبهم على الكفاية وحدها ، ودعا إلى تعليم الجند ، وجعل أعطياتهم في أوقات محدودة لا تعدوها دفعا لقلقهم ، واستبقاء لمودتهم .

ثم تناول أهل العراق فأثنى عليهم ، وذكر أنهم عمود الدولة وبهم قام صرحها ، واتسقت أمورها ، ثم يستعطف الخليفة على أهل الشام لأنهم من رعيته ، ويعتذر عن كراهتهم للعباسيين ، ويذكر الحيلة في القضاء على هذه الكراهة بأن يصطنع الخليفة خيارهم ، فإنهم لا يباشون أن ينفصلوا عن أصحابهم من أهل الهوى فيتتابع الناس في رضا الخليفة ، وتتم له طاعتهم .

ويتناول أمراً كان مفسدة للعدالة وذاهاً بطمأنينة الناس وذلك هو أمر القضاء الذى تعددت أحكامه وتناقضت حتى لقد صار القاضى فى جانب من الكوفة مثلاً يقضى فى مسألة بغير ما يقضى به الذى فى جانبها الآخر فى المسألة ذاتها وكلّ يتبع رأياً وينتهى إلى أثر عن النبى أو عمل للصحابه . فأشار على المنصور بأن ترفع إليه الأقضية التى يختلف فيها القضاة مدعومة بأسبابها ينظر فيها الخليفة ويرجح ما يراه ويدون ذلك ويأمر بالعمل به . ومعنى هذا أن يصبح للمسلمين قانون أحكام يتبعه القضاة فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية . وهذا هو الذى انتهت إليه المدنية الحديثة ، وقد أشار به ابن المقفع منذ ألف سنة وتزيد .

وتناول الخراج وما فيه من فوضى ، فقد فرضت على الأرضين فروض واحدة مهما بلغ اختلافها فى الجودة والخصب ، وفى ذلك غبن . وقد أشار بأن تمسح الأرض وينظر فى نوعها ومقدار صلاحيتها للزراعة ويفرض على كل نوع منها ما يناسبه ويدون ذلك فى سجلات الدولة فيرتفع بذلك الظلم ويقل من العمال والولاة احتجائهم للأموال . كذلك تناول أصحاب السلطان وخاصة رجال « المعية » وذكر أن من حول أمير المؤمنين منهم قوم ليسوا من العلية فشرهم على الناس كبير ، وأثرهم فى رأى أمير المؤمنين سيئ ، فهم عيونه وآذانه فيجب أن يختارهم اختياراً حسناً ليكونوا أداة إصلاح بين الراعى ورعيته .

تلك هى رسالة الصحابة وهى كما ترى ثقافة فارسية صرفة احتاج إليها العرب فى تنظيم ملكهم فكان على يد ابن المقفع نقلها إليهم . ومن أجدر من الفرس بتعرف هذه الأمور وقد كانوا أهل ملك سابق ودولة عظيمة وسياسة محكمة .

واليتيمة موضوعها طاعة السلطان (أبى جعفر المنصور) وحمل الناس على اتباعه هو وآل بيت العباس جميعاً لمكانهم من رسول الله . وقد طبع الأدب الكبير يوماً ما باسم اليتيمة خطأ حتى عثر فى كتاب المنثور والمنظوم لابن طيفور على اسم هذه الرسالة وجزء منها وليس فيه شيء مما فى الأدب الكبير .

كليه ودمنه

أصله بالهندية ، وضعه بيدبا الفيلسوف منذ نيف وعشرين قرناً ملك من ملوك الهند يسمى دبشليم ، وكان قد طغى واستبد فحاول الفيلسوف نصيحته ولكنه لم يسمع له قولاً وأمر بسجنه ثم عاد ففكر في نصيحته واستعادها منه فوجد فيها خيراً ، فأمره أن يعمل كتاباً يرجع إليه الملك إذا احتاجوا للموعظة. فجمع تلاميذه وأخرج هذا الكتاب على مثال لم يسبق إليه ، فجعل النصيحة على السنة البهائم حتى لا يلقي المارك غضاضة في تلقيها والانتصاح بها .

وقد كان الكتاب في اللغة الهندية السنسكريتية اثني عشر باباً وهي :

(١) باب الأسد والثور . (٢) باب الحمامة المطوقة . (٣) باب البوم والغربان . (٤) باب القرد والغليم . (٥) باب الناسك وابن عرس . (٦) باب الجرذ والسنور . (٧) باب الملك والطائر فزة . (٨) باب الأسد وابن آوى والناسك . (٩) باب اللبؤة والأسوار والشعهر . (١٠) باب إيلاذ وبلاذ وإيرخت . (١١) باب السائح والصائغ . (١٢) باب ابن الملك وأصحابه .

وأول ترجمة للكتاب كانت إلى اللغة التبتية ، ثم تسمع الناس بشأنه فوصل خبره إلى ملك الفرس أنوشروان الذي عني بنقل العلم وتوفير أسباب الصلاح لمملكته فاختار طبيباً فيلسوفاً اسمه برزويه وزوده بالمال والنصيحة بالتكتم والحيلة في نقل الكتاب إلى الفارسية . فخرج إلى بلاد الهند متطعياً وما زال يحتال حتى اتصل بخازن كتب الملك فكنه من نقل الكتاب إلى اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) فعاد به إلى كسرى فبالغ في إكرامه وفتح له خزائنه ليختار ما يشاء ، فلم يرغب إلا أن يخلد اسمه بالكتاب فصدر بترجمة حياته وما كان من حيلته في نقل الكتاب وكتب تلك الترجمة بزرجمهر وزير أنوشروان ، وسمى هذا الباب باب برزويه .

وقد نقل الكتاب بعد ذلك إلى اللغة السريانية حوالى سنة ٤٧٠ للميلاد ، ثم نقل ابن المقفع الكتاب من اللغة الفهلوية إلى العربية وصدره بمقدمة شرح فيها الغرض من الكتاب وما يجب على قارئه أن يستنبطه من حكمته ، ويقال إنه زاد فى صلب الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة ، وباب الناسك والضيف ، وباب البطة ومالك الحزين ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . فإن فى هذه الفصول روحا إسلامية كقوله فى باب الفحص عن أمر دمنة « ولأن تعذب فى الدنيا بجرمك خير من أن تعذب فى الآخرة بجهمك مع الإثم » وكقوله « وقد قالت العلماء « من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة » وكقوله « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكما » وقوله « من كتم شهادة ميت ألجم بلجام من نار يوم القيامة » .

ثم زاد على بن الشاه ويقولون إنه هو أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى^(١) من نسل الشاه بن ميكال وقد توفى سنة ٣٠٢ هـ ، مقدمة ذكر فيها السبب الذى من أجله وضع بيدبا كتابه وقد جاء فى هذا السبب : أن الاسكندر غزا بلاد الهند واستبد بهم حينما تم استخلف عليهم رجلا من ثقافته فتاروا به وخلعوه ثم ولوا رجلا من أبناء ملوكهم يقال له دبشليم فلما استوثق له الأمر طغى وبغى واستهان بأمر الرعية فرأى الفيلسوف بيدبا أن واجبه يقضى عليه بنصيحة الملك فنصحته فأعرض واستكبر أولا ثم عاد إلى الرشد وسمع النصيح وتقدم إلى بيدبا أن يعمل له كتابا « يجهد فيه نفسه وليكن مشتملا على الجند والهزل واللهو والحكمة والفلسفة » فجمع تلاميذه واستعان بهم على إخراج الكتاب فكان أول عمل من نوعه .

والذى يظهر أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية يحرص فيها على الأصل بل إنه كان يمازج بين ما ينقل وبين روح العصر ومزاج المنقول إليهم واعتبار إسلامهم فلم يرد فى الكتاب شئ من الوثنية التى يدين بها الهنود ولعل هذا ما دعا

(١) كان الظاهرى أديبا طبيا مفاكها فى نهاية الظرف والنظافة (فهرست ابن النديم) .

الناس إلى القول بأن الكتاب موضوع لا مترجم، فقد قال ابن خلكان « إن الكتاب مختلف فيه هل هو ترجمة أو تأليف » على أن عبثاً كثيراً نال الكتاب من الأجيال التي مر بها والنساخ الذين عملوا فيه ، فقد ترى فقرات منقولة في بعض الكتب فإذا عدت إلى النسخة التي بيدك لم تجددها فيها وكذلك النسخ التي بأيدينا من الكتاب الآن تختلف فيما بينها بعبارات تزيد وتنقص .

وقد راج الكتاب وتسامعت به الأمم فنقل إلى أغلب اللغات من الترجمة العربية لأنها هي التي بقيت بعد ذهاب الأصل الفهلوى . وقد ترجم إلى السريانية ثانية عن العربية بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادي ، كما ترجم إلى اليونانية والفارسية الحديثة عدة ترجمات . وهو الآن في جميع لغات العالم حتى الهندية نفسها ترجم إليها . وقد بلغت عناية القوم بالكتاب أن نظم مرات فأول من نظمه أبو سهل الفضل ابن نوبخت وقد خدم المنصور والمهدي ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحق ، فعل ذلك بإشارة البرامكة لتعليم أبنائهم . ومن هذا النظم قوله :

هذا كتاب أدبٍ ومحنه وهو الذي يدعى كليله ودمنه
فيه احتيالات وفيه رُشدٌ وهو كتابٌ وضعتُه الهندُ

كذلك نظمه علي بن داود كاتب السيدة زبيدة زوج الرشيد، ونظمه بشر بن المعتمد. وقد قدمت كل هذه المنظومات . ثم نظمه ابن الهبّاري المتوفى سنة ٥٠٤ هـ وسماه «تأنيج الفطنة : في نظم كليله ودمنه » وهو مطبوع . ونظمه ابن ممتّاتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ كما نظم أبواباً منه عبد المؤمن بن الحسن من أهل القرن السابع ، ونظمه أيضاً جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع وكل ذلك مطبوع .

ونقله مرة ثانية من الأصل الفارسي عبد الله بن هلال الأهوازي إيجي بن برمك في خلافة المهدي ، وقد ضاعت هذه الترجمة .

وقد عارضه كثيرون ، وأسبق الناس إلى معارضته سهل بن هرون صاحب بيت

الحكمة للمأمون وضع على نسقه كتاب ثلثة وعشرة ، وابن الهبّاريّة ناظمه ألف على منواله : كتاب : « الصادح والباغم » ، وهو مطبوع ، وكذلك لابن خنفر المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كتاب : « سلوان المطاع في عدوان الطباع » ، وهو مطبوع في تونس ويروت . ولابن عمر شاه المتوفى سنة ٨٥٢ هـ « كتاب فاكهة الخلفاء » ، ومناظرة الظرفاء » ، وهو مطبوع بمصر ، ويقال ان أبا العلاء المعري ألف كتاب : « القائف على مثال كليلّة ودمنه » ، وهو غير موجود ، وقد شرحه في كتاب سماه : « منار القائف » .

ولا شك أن عمل ابن المقفع وقد سبق هذه الأعمال كان صاحب الفضل في شيوع هذا الأسلوب على ألسنة الشعراء والكتاب ، ذلك الأسلوب الذي يعجب العامة ويلهى الخاصة ، ولا يحول بين الحكيم ونفاذ حكمته إلى كل قلب يريد في أخرج أوقات الظلم وأروع أيام الاستبداد . وقد انتشر هذا النوع من الأدب في كل لغات العالم على أثر شيوع هذه الترجمة العربية . وإن كان له أصل فيها ، فالعرب كانت تعرف في أمثالها وقصصها الجاهلية ذلك النوع الذي يجري على لسان الحيوان والمراد به موعظة الإنسان ، ومن أمثالهم في ذلك : إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، وقولهم في بيته : يؤقى الحكم ، إلى غير ذلك .

مختار من كلام ابن المقفع

في الأدب الصغير

على العاقل (ما لم يكن مغلوباً على نفسه) ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلّي

فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ،
وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بلغة .
ومنه : سمعت العلماء قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالـكف . ولا حسب
كحسن الخلق . ولا غنى كالرضا . وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره ، وأفضل البر
الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون .
وطيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل إليه . وليس من الدنيا سرور يعدل حبة
الإخوان ، ولا فيها غمّ يعدل فقدهم .

من الأدب الكبير

إنما يحمل الرجل على الخلف إحدى هذه الخصال : إما مهانة يجدها في نفسه
وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه ، وإما عيب بالكلام فيجعل الأيمان له حشواً ووصلاً ،
وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل قوله إلا بعد
جهد اليمين ، وإما عبث بالقول وإرسال للسان على غير روية ولا حسن تقدير .
ومنه : إذا رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك ، فإنما هو أحد
رجلين إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأقع مواطنه لك أقربها من عدوك لشرّ يكفه
عنك ، أو لعورة يسترها منك ، أو غائبة يطلع عليها لك . فأما صديقك فما أغذاك أن
يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك ، فبأي حق تقطعه عن
الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى .
وقد سبق اختيار وصف الصاحب ، وهو من الأدب الكبير .

من كليلة ودمنة

قال دمنة : زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات . كيسة وأكيس منها وعاجزة ، وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد ، وبقربه نهر جار ، فاتفق أن اجتاز بذلك النهر صيادان ، فأبصرا الغدير ، فتوعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيда ما فيه من السمك ، فسمع السمكات قولهما . فأما أكيسهن لما سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوفت منهما ، فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ، وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ، فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ، فإذا بهما قد سداً ذلك المكان ، فحينئذ قالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحال ، وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق . غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت ، فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

من رسائله

كتب إلى بعض أصدقائه :

كان من خبري بعدك أني قدِمْتُ بلد كذا ، فتهيأ لي بعض ما شَخَصْتُ له ، والحمد لله على ذلك الله عز وجل . وأنا إلى أن يأتيني خبرك محتاج . فأما جملة خبري في فراقك فقلبي مَكَّةُ كل ما سواك حرام فيها .

وكتب يُعزّي عن ولد :
 إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه ، فلا تجمعنّ إلى ما فُجعت به
 من ولدك الفجعة بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى
 المرزئتين لك . أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب
 هذا إلى ما قدمناه من كلامه في نماذج الكتابة ، فعد إليه .

حياة الجاحظ

[نسبه] : لقد ضاعت الحقيقة في نسب الجاحظ بين التعصين له وعليه فالأولون
 يقولون : إنه كنانى صليبية ، والآخرون يدعون أنه مولى للكنانية ، وأن جدّه كان
 عبداً أسود لأبى القلمس بن قلع الكنانى :
 وقد ذكر يموت بن المزرع كما روى ياقوت الحموى صاحب معجم الأدباء قال :
 (الجاحظ خال أمى ، وكان جدّ الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن
 قلع الكنانى) :
 وعلى كلا الرأيين ، فهو عمرو بن بحر بن محبوب ، وإذا لم يكن محبوب هذا هو
 فزارة الذى تحدث عنه يموت يكون جدّا لأبى الجاحظ .
 والجاحظ لقب لعمرو ، وكنيته أبو عثمان ، وإنما لقب بالجاحظ لبحوث عينيه ،
 وبرزها .

نشأته

ليس ثبوت نسب الجاحظ من كنانة أو لحاقه بهم بالولاء بذى أثر عظيم في حياته ،
 وإنما المهم هو ما ترتب على ذلك من نشأته بينهم خصوصاً إذا ثبت أن هذا الولاء

قديم ، وأن له ثلاثة آباء تمت لهم مخالطة بنى تميم ، فيكون الجاحظ على ذاك عربى
النشأة سليق اللسان يقول فيعرب . وذلك هو الذى يهتم الباحث فى حياة الأدباء .
كذلك لا يضير الجاحظ أن يكون قد نشأ فقيراً يبيع الخبز والسمك بسوق سيحان ، فقد
ارتفع به ذكاؤه وعلمه حتى جالس الملوك وولع الناس بمشاهدته وحضور مجلسه بعد أن
شاعت شهرته كل الشيوخ ، حتى لقد حضر إليه من الأندلس سلام بن زيد ، وكان
قد أعجب بما وصل إلى الأندلس من كتبه ، ككتاب الترييع والتدوير ، وكتاب
البيان والتبيين . قال : وكان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بقاء أبى عثمان ،
فخرجت لا أعرج على شىء حتى وصلت إليه . كذلك ولع المتوكل به فأحضره مجلسه ،
وكان الذى يدلّه على فضله وزيره الفتح بن خاقان ، وهو أحد المعجبين بالجاحظ . وقد
أحب المتوكل أن يكل إليه تعليم أولاده ، فلما رآه لأوّل مرّة استبشع منظره ، فأعطاه
عشرة آلاف درهم وصرفه . وهو الذى أرسل إليه رسولاً وهو مريض فى آخر حياته ،
وألحّ على الرسول فى التعجيل به إليه ، ولكن الرسول وجده ، وقد قعد به المرض
وألحّت عليه العلة فلم يستطع إجابة أمر الخليفة .

بيئة الجاحظ

نشأ بالبصرة ، وهى ناهيك من بلد جمع أسباب الفضل فى تلك العصور الزاهية
التي عاش فيها الجاحظ ، فقد كانت البصرة موطن علوم العربية . بها نشأ النحو وعاش
رجالها وإليها ثاب علماء اللغة ورواد الأدب ، وحولها ضرب خيامهم عرب خلص
اختارهم الأئمة لنقل اللغة . وفيها كان المريد يقيم بديلاً من سوق عكاظ فى الجاهلية .
تلك هى البصرة موطن العلماء الأعلام فى كل علم من النحو ، والرواية ، والحديث ،
والنفس ، والفقه ، والكلام ، والخطابة ، والشعر ؛ وفيها عاش أبو الأسود ،

وعَنْبَسَةُ الْفِيلِ^(١)، وَنَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، ثُمَّ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ، وَأَبُو الْخَطَّابِ الْأَخْفَشُ الْأَكْبَرُ، وَالْأَصْمَعِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَخَلْفُ الْأَحْمَرُ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارِ النَّظَامُ، وَمِنْ أَعْلَامِ عِلْمِهَا وَوَعَاظِهَا التَّابِعِيَانِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَقَبْلَهُمَا الصَّحَابِيَانِ: أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ؛ وَكَانَ بِهَا مِنَ الْخُطْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ، وَالْفَرَزْدَقُ، وَبِشَارٌ، وَأَبُو نُوَّاسٍ وَغَيْرُهُمْ .

فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ نَشَأَ الْجَاهِظُ وَتَرَبَّى بَيْنَ بَنِي كِنَانَةَ الْفَصَحَاءِ، فَكَانَ بِمَا انْضَمَّ إِلَى هَذِهِ النُّشَاةِ مِنْ ذِكَاةٍ خَارِقٍ أَحَدُ أَفْذَاذِ الْعَالَمِ . وَقَدْ عَاشَ الْجَاهِظُ وَلِيدًا فِي خِلَافَةِ الْهَادِي، وَشَابَا أَيَّامَ الرَّشِيدِ، ثُمَّ شَهِدَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ حَرَكَةٍ فِلَسْفِيَّةٍ، ثُمَّ عَاشَ، فَرَأَى أَيَّامَ الْمُعْتَصِمِ وَالْوَاتِقِ وَالْمُتَوَكِّلِ، وَبَقِيَ بَعْدَهَا مَفْلُوجًا حَتَّى مَاتَ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَزِ .

وَلَدَ الْجَاهِظُ حَوْلَى سَنَةِ ١٦٠ هـ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٥ هـ، فَكَانَتْ مَدَّةُ حَيَاتِهِ طَاعَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ هُوَ أَزْهَى أَيَّامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فِيهِ نَضَجَتْ الْعُلُومُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِسْلَامِيَّةُ، وَتَمَّتْ تَرْجُمَةُ الْعُلُومِ الدَّخِيلَةِ، وَازْدَحَمَتِ الدُّنْيَا بِخُلَفَاءِ وَوُزَرَاءِ لَمْ تَشْهَدْ الْأَيَّامُ مِثْلَهُمْ فَضْلًا وَسَخَاءً، وَقُوَّةَ سُلْطَانٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ أَسْبَابَ لِنُبُوغِ الرِّجَالِ . وَقَدْ اَزْدَحَمَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ بِالنَّابِغِينَ مِنْهُمْ بَيْنَ شُعْرَاءِ وَكُتَّابٍ وَعُلَمَاءٍ وَفِلَسَفَةٍ، وَأَطْبَاءٍ يَخْتَصُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الْفَضْلِ، وَيَسْتَبْدُّ بَنُوعَ مِنَ النُّبُوغِ، وَلَكِنْ نُبُوغُ الْجَاهِظِ

(١) هُوَ عَنْبَسَةُ بْنُ مَعْدَانَ وَكَانَ مَعْدَانُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِيسَانَ قَدِمَ الْبَصْرَةَ وَأَقَامَ بِهَا، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: مَعْدَانُ الْفِيلِ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ كَانَ لَهُ فِيلٌ بِالْبَصْرَةِ وَقَدْ اسْتَكْبَرَتْ النِّفَقَةُ عَلَيْهِ فَأَتَاهُ مَعْدَانُ فَتَقَبَّلَ نَفَقَتَهُ فَكَانَ يُسَمَّى مَعْدَانُ الْفِيلِ فَنَشَأَ ابْنُهُ عَنْبَسَةُ فَفِيلٌ لَهُ عَنْبَسَةُ الْفِيلِ، وَقَدْ قَالَ الْفَرَزْدَقُ يَهْجُوهُ :

لَقَدْ كَانَ فِي مَعْدَانَ وَالْفِيلِ زَاجِرٌ لِعَنْبَسَةِ الرَّأْيِ عَلَى الْفَصَائِدِ
وَقِيلَ لِعَنْبَسَةٍ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ لَمْ يَقُلِ الْفِيلُ وَاعْمَا قَالَ اللَّؤْمُ فَقِيلَ لِمَا أَمَرَا يَفِرُّ مِنْهُ إِلَى اللَّؤْمِ .
لَأَمْرِ عَظِيمٍ .

كان غير محدود ، فهو بحق معدود في الكتاب ، وفي المؤلفين ، وفي الفلاسفة والمتكلمين وإذا طوّل المؤرخ أن يضرب المثل لرجل جمع ثقافات هذا العصر وحوى أنواع فضله فإنه غير واجد إلا الجاحظ يحتج به لكل باب من أبواب تلك المعارف .

وقد ذكروا من أساتذة الجاحظ : الأصمعي ، وأبن الأعرابي ، وأبا عبيدة ، وأبا زيد الأنصاري في الرواية واللغة ، وأبا سعيد بن مسعد الأخفش في النحو ، ويزيد ابن هرون ، والسري بن عبدربه ، وأبا يوسف القاضي في الحديث ، وأبا إسحق إبراهيم بن سيار النظام في الكلام . وأنا أضيف إلى هؤلاء جميع فلاسفة اليونان وعلماء الهند وأدباء الفرس الذين قرأهم الجاحظ كتبهم المترجمة في هذا العهد ، وقد كان خير تلميذ يحسن التلقى لما كان له من قوة نقد ، وحرص على الفهم والتعلقل .

مؤهلات الجاحظ

قد يعيش الرجل في مثل هذه البيئة أو خير منها ، ولكنه لا يكون أهلاً للاستفادة مما فيها فلا ترى له بين رجالها ذكراً ، ولكن الجاحظ كان جديراً أن ينتفع بكل ما أحاط به إذ كان شديد الذكاء ، قوى الفطنة ، وقد تمثل ذلك فيما حواه من هذه العلوم ، وترأس فيه من أنواع المعارف . فقد كان إماماً في المتكلمين ونادرة في الأخباريين ، وبلغاً في الكتاب ، وفيلسوفاً عالماً بالطبائع ، دارساً لأحوال المخلوقات ، ملمّاً بالتاريخ ، خبيراً بمطالب الأمم ومحامداها .

وليس أدل على ذكائه من الاطلاع على كتبه ، ففيها تتمثل قوة التحصيل للعلم ، والجمع لأشأت مسائله ، ثم التمهيص لها ونفى زائفها ، وعدم التعويل إلا على ما يؤيده العقل وتؤدى إليه التجربة .

ولا يصل هذه المنزلة في الفضل إلا كل من كان قوى الملكة فاذ البصيرة ،

ليس كل همه التحصيل والوقوف عند أقوال الأقدمين، وهكذا كان الجاحظ، وهو القائل في حكمته التي كان أول الآخذين بها (إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح)، فهو لم يكن يؤمن بانتهاء الفضل عند الأوائل، بل يعتقد أن له نصيباً من الفهم يزيف به الباطل من آرائهم، ويزيد به ما نقص من كمالها. ولذلك رأيناه يناقش أرسطو وغيره من الحكماء، ويعارض المفسرين وغيرهم فيما يرون من رأى كما سيمر بنا في الكلام عن كتبه.

وقد ساعد هذا الذهن الوقاد صبر جميل وشغف بالعلم لا مزيد عليه، فقد كان مغرمًا بالاطلاع حتى لم يكن يقع في يده كتاب إلا استوعبه قراءة، وما أكثر الكتب في أيامه، فهي في كل علم نشأ أو ترجم. ولقد بلغ من شغفه بالعلم وعدم استطاعته شراء كل ما نشره إليه نفسه من كتبه أن كان يستأجر دكاكين الوراقين، ويبيت فيها ليطالع ما بها من الكتب، ولم يذكرها هذه المنقبة إلا عن الفتح بن خاقان، فقد قالوا: إنه كان يحضر لجلسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كفه، وجعل يقرأ فيه إلى حين عودته إلى المجلس، وحكوا مثل ذلك عن القاضي إسماعيل بن إسحاق، فما كان يرى إلا ناظراً في كتاب.

نوادير الجاحظ

لعلك متعجب من عقدنا لهذا الفصل في حياة عالم كاتب متكلم الجاحظ ولكننا إنما نريد أن ندلك على مزية في هذا الرجل جمعت دروسه وتأليفه حميمة إلى الناس، وتلك هي البادرة النادرة، والفكاهة الحاضرة، والمزاح الظريف الذي كان ينتقل به مع طلابه بين الحقائق، فلم يكن يواليها عليهم حتى تسأمها نفوسهم، وتستغلق أمامها أفهامهم، بل كان يحجم بالمزاح نشاطهم، وينفي سأمهم، وقد طالما اعتذر عن ذلك في كتبه، إذ عابه به حساده، فقالوا: إنه يخلط الجدّ بالهزل، والحقائق بالترهات.

فقد قال في شأن كتاب الحيوان والاعتذار عما فيه من فكاكة . وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفتية وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتسكر في فصوله وتعتبر آخره بأوله ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطلالة^(١) لم تطلع على غورها ، ولم تدرك لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت ، وأى شىء أريغ بها ، ولأى جدّ احتمل ذلك الهزل ، ولأى رياضة تجمشت . تلك البطلالة ، ولم تدرك أن المزاح جدّ إذا اجتلب ليكون علة للجدّ ، وأن البطلالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة .

وقد عدوا له من نوادره المستظرفة أنه قيل له وقد هرب بعد القبض على ابن الزيات وكان خاصاً به منحرفاً عن أحمد بن أبى دؤاد عدو ابن الزيات لم هربت ؟ قال خفت أن أكون ثانياً اثنين إذ هما فى التنور (إشارة إلى التنور الذى كان يعذب فيه ابن الزيات فى أيام سطوته ، وعذب به فى أيام محنته) .

وطلب إليه بعض الناس أن يكتب كتاب توصية برجل لا يعرفه إلى صديق له ، فكتب إليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلنى فيه من لا أوجب حرمة ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك) ، ثم اتفق أن الوسيط فى الكتاب اطلع عليه قبل أن ينفذه ، فلما رأى مابه عاد إلى الجاحظ ، فلما رآه علم أنه فتح الكتاب ، فقال له : علمت أنك أنكرت الكتاب ، وإنما هذه علامة بينى وبين الرجل فيمن أعتنى به ، فقال الرجل . يا أبا عثمان ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جبلت عليه . واتصلت هذه النادرة بالفتح بن خاقان وزير المتوكل فخذته بها ، فكانت سبب اتصال الجاحظ به وحضور مجلسه . وقال الجاحظ : دخلت ديوان الرسائل ببغداد ، فرأيت قومًا صقلوا ثيابهم وصفوا عما هم ووشوا طرزهم . ثم اختبرتهم فوجدتهم

(١) بطل الشيء (كدخل) صار باطلاً ، والمصدر بطل وبطلان (بالضم فيهما) وبطل الأخير (كدخل أيضاً) بطلالة تعطل ، والبطلالة هنا من المعنى الثانى : أى إن المزاج تعطيل للجد وإضاعة للوقت .

كما قال الله تعالى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » . ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيقة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون . وأتاه مرة بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت فعلمنى منها ، فقال : نعم . قال : الرجل إذا قال لى شخص يازوج القعبة ، يا ثقیل الروح فأى شىء أقول له ؟ قال : قل له صدقت . وحدث من نفسه قال : ما أخجلنى أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما بالعسكر ، وكانت طويلة ، وكنت على الطعام ، فأردت أن أمارحها ، فقلت ، انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى نرى الدنيا ؛ وأما الأخرى فإنها أمتنى وأنا على باب منزلى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى ، فشيت معها حتى أتت بى إلى صائغ ، فقالت له : مثل هذا . وانصرفت ، قال : فسألت الصائغ عن قولها ، فقال أمتنى بفصّ وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : ما رأيته ، فأنت بك .

وذكر فى كتاب البيان والتبيين ما يأتى « . . والعرب تقول : أخزى الله رأى الدّبرى ، وقالوا : وجه الحجاج إلى مظهر بن عمار بن ياسر ، عبد الرحمن بن سليم الكلابى ، فلما كان بجلوان أتبعه الحجاج مدداً وعجل عليه بالكتاب مع تحييت الغلط ، (وإنما قيل له ذلك لكثرة غلطه) فرّ تحيت بالمدد ، وهم يُعرضون بخاتقين ، فلما قدم على عبد الرحمن . قال له : أين تركت مددنا ؟ قال : تركتهم يُخَنَّقُونَ بعارِضين قال : أو (يعرضون بخاتقين) ؟ قال : نعم . اللهم لا تخانق فى باركين . . . (١) ، وقد حدث الجاحظ عن بعض تلاميذه ، فقال : كان من تلاميذنا من يدعى كيسان كان يسمع غير ما يقال ؛ ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب (٢) . وما أكثر ما روى الجاحظ من فكاهات .

(١) وتسمية هذه الفكاهة : أن الأمير عبد الرحمن أراد أن يقول لتحيت ألا تتغذى فسمعه يضبط فقال ألا يضبط قال قد فعلت أصلح الله الأمير . قال ما هذا أردت . قال صدقت ولكن الأمير غلط كما غلطنا . قال أنا غلطت من فى وأنت غلطت من استك .

(٢) وفى مثل كيسان يقول الشاعر :

يى غير ما قلنا ويكتب غير ما يسمه ويقرأ غير ما هو كاتب

معتقد الجاحظ

لم يكن الجاحظ بهذه المثابة من الفضل والعقل ثم يكون معهما مقلداً يدين بآراء غيره ، ولم يكفه أن يكون صاحب رأى يجتهد فيه ويستقل به ، ثم لا يكون لأبيه هذا شأن يذكّر بين الآراء . ولكنه كان صاحب رأى يجذب إليه طائفة من الناس استطاع أن يجمعهم على الإيمان به والتعصب له ، فعرفت بين الفرق فرقة تسمى الجاحظية ، وهى مشتقة من المعتزلة الذين كان من رؤوسهم على أيام الجاحظ إبراهيم النظام والجاحظ ، فهو على هذا معتزلى يشارك المعتزلة فى غالب آرائهم ، ولكنه يستقلّ بآراء يحتج لها ببيانه الناصع وبلاغته العجيبة . والقول فى آرائه دخله التحريف والتبديل ، فإن كثيرين من الناقمين عليه شوّهوا آراءه وحكوها على غير وجهها ليتخذوا ذلك وسيلة للغضب من شأنه عند الناس .

ومن آرائه التى انفرد بها عن أصحابه من المعتزلة ما ذكره صاحب كتاب الملل والنحل من قوله بأن المعارف كلها ضرورية وطباع ، وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعباد كسب سوى الإرادة . ولعلّ هذا رأى قد نشأ له من أنه كان يقول بأن الأفعال المتولدة ليست من فعل الإنسان ، كما إذا رميت حجراً فسقط على شىء فكسر ، فهذا الكسر متولد ورأيه أنه لا ينسب إلى الرامى ، فكذلك كل ما يحصل من المعرفة فهو متولد من اتجاه الحواس ، فإذا رأيت شجرة لم يكن فعلى إلا توجيه نظرى إليها ، فأما علمى بشكلها وكل ما يتعلق بها فهو متولد عن الروية وليس لى كسب فيه . وكذلك كان يقول باستحالة انعدام الجواهر بعد حدوثها . وقد رد عليه البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق بأن هذا يستلزم أن الله يقدر على خلق شىء

ولا يقدر على إفثائه . ومن آرائه قوله : إن الله لا يدخل العباد النار ، وإنما هى التى تجذبهم إليها ، وأنهم لا يخلدون فيها وإنما يصيرون من طبيعتها . قال البغدادى : يلزم على ذلك أن تكون الجنة كذلك فتنقطع الرغبة إلى الله . ويقال أيضاً إن هذا الرأى من الجاحظ مخالف لقول الله تعالى : « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » ، والدع : الدفع العنيف ، وقوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ » ، وقوله تعالى : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كِتُونَ » ورووا عنه أيضاً أنه قال إن القرآن جسد يجوز أن يكون مرة رجلاً ومرة امرأة . وقد تصدى للدفاع عنه فيما نسب إليه من الآراء الخاطئة أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار لعقيدة أبى عثمان وملخص هذه الردود أن أغلب ما نسب إليه مكذوب عليه .

والمشهور أنه كان من الناصبة الذين كانوا يفضلون عثمان على على وعلى هذا الرأى كان أهل البصرة منذ واقعة الجمل لأنه ما منهم إلا من قتل له فيها أب أو أخ أو ابن ولكن الجاحظ كان يتنصل من هذا وينفيه عن نفسه خوفاً من بنى العباس^(١) .

أسلوب الجاحظ

يأبى العبقرى إلا أن يكون أمة وحده فى كل شىء وهكذا كان الجاحظ ، فكما

(١) وقد نسبته إلى النصب (بغض على) كثيرون منهم الشريف الرضى فى نهج البلاغة ، ولكن ينافى ذلك أن للجاحظ رسالة فى بنى أمية ذكر فيها أنه لا يتولى عثمان إلا فى السنين الست التى كانت فى أول ولايته ، ثم يذكر معاوية وتحول الخلافة إلى ملك كسروى ويعدد أخطاءه حتى لقد كفره وكفر من ترك تكفيره ، وهكذا كان شأنه مع ملوك بنى أمية يذكر مساوئهم فى تلك الرسالة ، ورأى الجاحظ فى عثمان وبنى أمية هو رأى جميع المعتزلة الذين كانوا يكرهونهم ، وإن لم يخرجوا عليهم ، ولعلك تفهم هذا أيضاً من حب العباسيين للمعتزلة وتقريبهم إياهم والأخذ برأيهم حتى يقال المأمون بمنل مقالهم فى خلق القرآن وهم بلعن معاوية على المنبر .

كان علما بين المتكلمين كذلك كان إماما في الأدباء والمترسلين ، له أسلوب عرف به واشتهر حتى إن الذى يعرف خصائص هذا الأسلوب ويدرس نهجه لا يفوته أن يعزو إلى الجاحظ ما كان من كلامه مهما عميت عليه روايته . وذلك أنك إذا عرضت بين يديك أساليب الكتاب وجدت أنهم إما علماء مؤلفون أو أدباء مترسلون ، فإن كانوا مؤلفين اقتصروا على رواية كلام السابقين لا يستقلون بعبارة ولا يتزيدون برأى ، ثم رأيتهم فى دائرة من العلم لا يتعدونها ، فالمؤرخ لا يزيد على سرد الوقائع ووصف المعارك ، والأديب يروى الشعر والخطب ويشرح أو يعرب ما ورد فى عباراتها من غامض . فأما الذى لا يحده موضوع ولا يضبط له خاطر ولا يعرف إلا المعانى تنسال عليه من شعاب الفكر فهو الجاحظ ينتقل : من فلسفة ، إلى توحيد ، ومن قرآن ، إلى حديث ، ويخلط جد ذلك بالمرح . ثم يخرج منه إلى القصص فيحكى عن نفسه ويروى عن الناس ولا يقتصر على عرب أو فرس حتى ينتقل عن الهند والصين وعن اليونان وجميع من خلق الله ، وربما عاد إلى ما بدأه من بعيد ، وربما أنساه الاستطراد ما بدأ ، إلى غير ذلك مما لعلك غير مصادف له إلا فى كتب الجاحظ . وقد قدمنا لك أنه عيب بذلك من حساده ، وهو عيب أقرب إلى الإقرار بالفضل ، فإنه ما فعل ذلك إلا من فضل الذكاء ، وازدحام الفكر بالمعانى ، وكثرة ما قرأ عن عرب وعجم ، مع قدرة عجيبة على مزج ذلك وتذكره عند مناسبتة التى تعرض وموضعه الذى يحسن فيه ، ولسنا نحيلك إلا على كتاب الحيوان ، فإنك لا تكاد تفتح له صفحة حتى ترى فيها ألوان العلوم مجتمعة ، فأين تجد مثل هذا إلا فى كتب الجاحظ التى عرفت بأنها البحر لاساحل له .

هذه هى ناحية الفكر فى تأليفه . فأما العبارة ، فهى اللفظ الرصين ، والأسلوب المتين ، يهذى إليهما طبع عربى ، ونشأة بين ربوع الفصاحة ، ومخالطة للجهابذة القول فى البصرة ، مباءة العربية ، ومثابة الفصحاء تجمعوا على حدود البرية ، وأشرفوا على الريف ، فكانوا مورد العربية الصافى ، ومنهلها العذب .

لا يعرف الجاحظ في أسلوبه غير جانب المعنى ، فأما اللفظ فما أظن أنه يوما طلب كلمة شاردة ، ولا عانى عبارة غير مستوية ، ولا توقف يبحث عن محسن ، أو يستدعى سبعة ، وليس مثل الجاحظ في كثرة ما ألف ، وطويل ما حبر يحاول ذلك في كلامه ، فإنه جدير إذا حاوله ألا يكون منه عشر ما كان له من الكتب التي قاربت ثلاثة المائة .

وكذلك كان في ترسله يرسل المعنى في اللفظ الذي يشرف به المعنى ، وهو فيه غير متكلف ل عبارة أو مؤثر لسجع ، ولكن شيئاً من العناية بالألفاظ والتخير لها يكون في غير تكلف ، ولا استكراه لمكان الترسل من القلة ، ولموضعه من خطاب الكبراء والعظماء ، وأنه إلى الخاصة دون غيرهم ، فإذا ترفع فيه عن مستوى عبارته في كتبه ، فما ذلك إلا لأنه يضع الهناء مواضع الثقب^(١) ، ويلبس لكل حال لبوسها ، فهو يعلم أن الكتب للخاصة والعامة ، فلا ينظر فيها إلى جانب اللفظ نظره إليه في الرسائل يبعث بها إلى الإخوان والوزراء ، وليس يدعو قولنا هذا إلى الخط من شأن عبارته في كتبه ، فهي خير ما يكون إذا قيس إلى سائر عبارات المؤلفين على أن فيها مواطن استدعت التأني كوصفه للكتب ، وبيان فوائدها في أول كتاب الحيوان ، فإنه جاء آية في الإبداع والرصانة ، ومثلاً يحتذى في البلاغة ، كذلك وصفه للقرآن ، وبيان إعجازه في كتاب : « البيان والتبيين » ، وغير ذلك كثير موزع في كتبه .

ويشيع في كتاباته عامة كثرة الترادف ، وليس ذلك إلا من الغنى اللغوي والثروة بالألفاظ والأساليب ، وهو شيء ربما دعاه إليه حاجته إلى تفهيم المتعلمين ما يلقى عليهم من المعاني ، فهو مدفوع إلى التكرار كما يندفع المعلم في خطاب تلاميذه ، ولكنه تكرر من بليغ ، فكان دائماً زينة لقوله ، ودليلاً على فضله .

(١) الثقب : الجرب .

كذلك يكثر في قوله الاعتراض وهو لا يفتأ يقول : وذاك الله ، وجنبك الشبهة ، وعصمك من الريبة ، وأعزك الله إلى غير ذلك مما كثر في كلامه .
وقد كان للجاحظ شعر ، ولكنه لم يكثر منه ، فلم نجعله موضوع بحث ودراسة .

آثار الجاحظ

لا سبيل بنا إلى عد كتب الجاحظ ، ويكفي أن نقول إنها أربت على المائتين وقد كانت سبب ثرائه وشهرته حتى لم يبق أحد من معاصريه إلا تعلق بأن يرى هذا الذي طبقت شهرته الخلفين .

أما ثروته التي استفادها من كتبه فقد ذكر طرفاً منها ، فقال لمن سأله : هل لك ضيعة بالبصرة ؟ أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وكتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وكتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . وإذا كان هذا رأيه في المال لا يقتنى به ضياعاً مغلة فإنه جدير ألا يبقى على الأيام منه شيء . وقد كان كذلك فإنه في آخر أيامه لما فلبج احتاج إلى المال حتى إنه حين قصده ذلك الوالى المعزول الذى أحب أن يرى الجاحظ فى مروره بالبصرة ، وكان قد صاغ ثروته إهليلجات وقصد بلده بها ، فلما كان عند الجاحظ فطن لقصته بعجيب ما أوتى من صدق الحس . وقال له : أيها الفتى ، إن الأهليلج الذى معك ينفعنى ، فأبعث إلىّ منه ، فأعطاه مائة إهليلجة ، وهو متعجب من استكناهاه خبره مع شدة تسكته .

وسنورد عليك من كتب الجاحظ ما تتبين منه أنه لم يترك عالماً ولا موضوعاً إلا خاض فيه ، وأحسن استقصاءه ، فبينما هو يكتب فى الشعر والخطب : « البيان

والتبيين » إذا به يشرح الحيوان ، ويدرس طبائعه في كتاب : « الحيوان » ثم يتناول « الشطرنج والنرد » ، ويفرق ما بين « النبيّ والمتنبي » ويبحث « إمامة معاوية » ، ويدرس أحوال « المعلمين » ، « وطبقات المغنين » ، ويكتب في طبائع « الحاسد والمحسود » ، ويحاول « مدح النبيل » ، و « ذم النبيل » ، ويظهر « غش الصناعات » ، ويعنى بـ « أخلاق الشطار » ، و « نوادر الطفيلين » إلى غير ذلك مما يجعلك تعتقد أنه لم يترك معنى جاد به الله على فكر بشر إلا تناوله بالبحث ، وأفاض فيه القول .

والمطبوع المتداول من كتبه هو « البيان والتبيين » « والحيوان » : « والبخلاء » ، وإحدى عشرة رسالة طبعت بمصر ، وهى : « الحاسد والمحسود » ، « ومناقب الترك » ، و « فخر السودان على البيضان » ، و « الترييع والتدوير » ، و « تفضيل النطق على الصمت » ، و « مدح التجار ، وذم عمل السلطان » ، و « العشق والنساء » و « الوكلاء » و « استنجاز الوعد » و « بيان مذاهب الشيعة » و « طبقات المغنين » .

ومن غير المطبوع ، ولكنه موزع بمكاتب أوروبا « أخلاق الملوك » ، وهو بأيا صوفيا ، و « تنبيه الملوك » ، و « سمر البيان » ، وهما بكوبرلى ، و « العرافة » ، والزجر ، والفراسة « بليدين ؛ وأما غير المنشور عليه من كتبه ، فهو كما علمت كثير ، فاطلب فهرسه من الكتب المطولة التى عنيت بذكره ، كمعجم الأدباء لياقوت الحموى ، والفهرست لابن النديم .

مبلغ تحقيقه وبحثه

قد يظن المطلع على كتب الجاحظ (وهو يكثر فيها من النقل) أنه حاطب ليل لا يحقق ما يروى ولا ينقده ببصيرته . ولكن الجاحظ على كثرة مازى وكثرة

ما ألف لم يكن يمر بقول زائف إلا بهرجه وأزاح الشبهة عن حقيقته .
ومن ذلك أن النسايين تناقلوا أن أمّ النضر بن كنانة بن خزيمة اسمها برة بنت
مرة بن أد بن طابخة ، وأن كنانة تزوّجها بعد موت أبيه خزيمة (على عادة أهل
الجاهلية من تزوّج الابن الأكبر زوج أبيه إذا كان من غيرها) ، فولدت له النضر .
فلحظ الجاحظ أن هذا يستلزم أن يكون في سلسلة نسبه عليه الصلاة والسلام سفاح ،
فلم يقبله وردّه بأن كنانة خلف أباه حقاً على برة ، ولكنها ابنة أد بن طابخة فلم تعقب
منه . أما برة التي أعقت منه ، فهي ابنة أخيها وهي برة بنت مرة بن أد بن طابخة ،
وهي ولدت لكنانة النضر . ومنها اتصلت سلسلة النسب إلى رسول الله ، فليس
فيه نكاح غير صحيح . قال الجاحظ : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر .

كذلك هو في كتاب الحيوان ليس محض ناقل عن الذين سبقوه فيما كتب عن
طبائع الحيوان وصفاته ، بل إنه في سبيل التحقيق العلمي رحل إلى بعض الأمصار ،
ومنها مصر أقام بها مدّة ، واختبر ما بها من حيوان . وفي تعقبه لأرسطو وكثرة ردّه
عليه دليل على أن قوّة النقد كانت تصحبه في كلّ ما كتب .

تعريف ببعض كتبه

الحيوان

هو أكبر كتب الجاحظ ، وهو سبعة أجزاء ويقع كله في نحو ألف صفحة من
القطع الكبير ، وهو مطبوع بمصر قام بالإتفاق عليه المرحوم الحاج محمد الساسي المغربي
التاجر بمصر ، ومما جاء في أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على ما فيه قول الجاحظ :
(وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان

عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرف السياسة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحس ، وإحساس الغريزة ، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن) .

بدأ الجاحظ كتابه بمقدمة استغرقت طلع خمسين صفحة ذكر فيها بعضاً من مؤلفاته وأنحى باللوم على العائنين لكتبه ، ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام ، وجعل النامي النبات والحيوان ، ثم ذكر أقسام البيان ، ثم استطرد إلى مدح الكتب ، ثم تناول موضوع الخط ، ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشرع قبل الإسلام ، ثم عاد إلى القول في شأن الكتب والترغيب في اصطناعها ، ثم ذكر ما يعترى الإنسان بعد الخلاء ، ثم سرد طرق الخلاء في البهائم ، ثم ذكر أن الخصى أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ، ورجع إلى القول في محاسن الخصى ومساويه .

ولا تظن أنه حين تناول البحث العلمي في كتابه بذكره للخلاء وما فيه كف عن الاستطرد !! فهذا ما لا يتصور في الجاحظ ، فهو غير معفيك من مثل يشرحه وحكمة ينسبها إلى قائلها ، وكلمة يرويها عن صاحبها ، وآية يستدل بها على ما يقول ، وقد يستطرد من ذكر الآية إلى أقوال المفسرين في القرآن ، فيقول :

كان أبو إسحق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » ليست المساجد التي نصلى فيها بل هي الجباه والأيدى والأرجل . وكل ما يقع على الأرض عند سجودنا ، وقالوا في

قوله تعالى : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) أنه ليس يعنى الجمال والنوق ، وإنما عنى السحاب ، وقالوا فى قوله تعالى : (وَيَلْهُ الْمُطْفَفِينَ) ، الويل واد فى جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى ، ومعنى الويل فى كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى : (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) ، فوصل بعض هذه الكلمة ببعض ، وإنما هى سل سبيلا إليها يا محمد . فإن كان كما قالوا ، فأين معنى تسمى ؟

وقد قصر الجزأين الأول والثانى على الكلام عن الكلب والديك ، وعقد موازنات ومفاضلات بينهما ، فجعل للكلب صاحباً يحتاج له ويذكر محاسنه ، فإرد عليه صاحب الديك برد هذه المحاسن إلى مساوئ ، وإثبات محاسن للديك ، فينكر عليه صاحب الكلب بمثل ما فعل ، وهكذا دواليك . وذلك الأسلوب لعله كان متبعاً عندهم تختبر به قوة الحججة وشدة العارضة . وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة ، فكتاب فى « ذم النبىذ » ، وآخر فى مدحه ، وآخر فى « ذم الكتاب » وغيره فى مدحهم .

ثم يبدأ الجزء الثالث بقوله : باب ذكر الحمام ، وما أودعها الله عز وجل من ضروب المعرفة ، ومن الخصال الحمودة لنعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعه المدبر وإن كنا قد أملناك بالجد . ثم يستمر فى الاعتذار عن خلط جده بالهزل ، فيقول . على أنى قد عزمت - والله الموفق - أنى أوشح هذا الكتاب ، وأفضل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة ، وإن كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غایتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً ، وقال أبو الدرداء : إني لأجهم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها ،

ثم يروى جملة فكاهات تضحك كما يقول : كل شكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، فقال :

حدثني المديني قال : تحول أبو عبد الله الكوفي اللحياني إلى الحربية ، فادعى أنه فقيه ، وظن أن ذلك يجوز له لمكان لحيته وسمته ، وألقى على باب داره البواري^(١) وجلس إليه الجيران ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله رجل أدخل أصبعه في أنفه ، فخرج عليها دم ، فأى شيء يصنع ؟ قال : يحتجم ، قال : الرجل قعدت طبيباً أم فقيهاً ؟ وقال : حدثني أبو الجهم قال : ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر في شيء من نسب كندة ، فقلت له يوما وهو عندي : ممن أنت يا فلان ؟ قال من كندة . قلت : من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله . وقال أخبرني محمد ابن سليمان قال : قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة : نحن أشد حباً لرسول الله منكم يا أهل المدينة . قال المديني : فما بلغ من حبك لرسول الله ؟ قال : وددت أنى وقيت رسول الله وأنه لم يكن وقع عليه في يوم أحد ولا غيره شيء يكرهه إلا كان بي دونه . قال المديني : أفعندك غير هذا ؟ قال : وما يكون غير هذا ؟ قال : وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي وإني كافر . وجعل يروى من مثل ذلك ونحوه ثمانى صفحات ، ثم استطرد بقوله : وسندكر من نوادر الشعر جملة ، فإن نشطت لحفظها فإنها من أشعار المذاكرة ، واستمر يروى من الشعر ، وطالت الرواية حتى لقد عقد في هذا الاستطراد أبواباً ، كباب صدق الفطن ، وجودة الفراسة ، وباب المديح بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام .

وأظنك بذلك لمست جانب الاستطراد في تأليف الجاحظ ، وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية ، فإنه بعد هذا الاستطراد كتب في الحمام

(١) البواري: جمع بوري أو بورية ، وما الحصر المنسوج كالبورياء ، والبارياء والبارية .

وحده أكثر من خمسين صفحة ، فوصف أنواعه وذكر طبائعه ، فلم يترك فيه قولاً لقائل .

وفي هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ، ويسميه صاحب المنطق ، ولأرسطو كتاب في الحيوان نقله ابن البطريق ، وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة ، فلم يكن يخضع لقول أرسطو ، ويخضع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر ، بل قد ناقشه في عدة مواضع من الكتاب زيف بها آراءه . فقد روى رأيه في أن إناث العصافير أطول أعماراً من ذكرها التي لا تعيش إلا سنة واحدة ، فقال والذين زعموا أن البعل إنما طال عمره لقلة السفاد ، والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلظته ، لوقالوا بذلك على جهة الظن والتقريب ، لم يلهم أحد من العلماء والأمور المقتربة غير الأمور الموجبة ، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب ، وفرق ما بين الدليل ومشبه الدليل . ثم رد على من ادعى أن البلب لا يستقر أبداً ، فقال : وزعموا أن البلب لا يستقر أبداً ، وهذا غلط لأن البلب إنما يقلق لأنه محصور في قفص ، والذين عاينوا البلب والعصافير في غير أوكارها وغير محصورة في الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلب في الحركة .

وانظر إلى كلامه عن الحيات كيف يهاجم المزاعم الكاذبة والخرافات الهائلة في بعض أنواع الحيات . قال : والأعراب تقول في الأصل قولاً عجيباً ، تزعم أن الحية التي يقال لها الأصل لا تمر بشيء إلا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة . وتزعم الفرس أن الأجدهانى أعظم من البعير ، وأن لها سبعة رءوس ، وربما لقيت أناساً فتبتلع من جهة كل فم ورأس إنساناً ، وهومن أحاديث الباعة والعجائز . وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهر حية لها رأسان ، فسألت أعرابيا عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق ، فقلت له : فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال : أما السعى فلا تسعى ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل . وأما الأكل

فإنها تتعشى بفم وتغدى بفم. وأما العض فإنها تعض برأسها معاً. فإذا به أكذب البرية..
والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام
العرب ، واعتماد على روايتهم وملاحظة دقيقة واختبار ذاتي ؛ واستطراد إلى مثل ما
عرفت . فكلّ هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .

البيان والتبيين

لعلّ هذا الكتاب آخر ما ألفه الجاحظ ، فقد أشار فيه إلى كتاب الحيوان ،
وهو لم يؤلف الحيوان إلا حين كان متقدماً في السن مريضاً كما يقول ، لذلك نستطيع
أن نعتبر كتاب البيان والتبيين مثال النضج والتمام لعلم الجاحظ ، وإن كان في كل كتبه
بمثابة واحدة من تدفق المعرفة وجمع الشوارد والإحاطة الشاملة .

موضوع الكتاب أدب : من شعر ونثر ورواية ، وقد استطاع الجاحظ إلى حدّ ما أن
يلزم في هذا المؤلف ما حدّه لنفسه من الكلام في الأدب ، فإن جميع ما فيه رواية شعر
وخطب ومحاورات ، وحكم وأمثال وفكاهة ، وتعرّض للمذاهب من شعوبية وغيرها ،
وكلام من مشافهات الأعراب ، وحكم حكمائهم ، وتناول لما كان عند غير العرب
كالفرس والروم والهند من فلسفة وحكمة ورواية لشيء من مآثور كلامهم . وكل هذا
صادق عليه اسم الأدب لأنه كما يقولون : الإلمام بأطراف العلوم ، ومن هنا تدرك السرّ
في أنه لم يتجاوز فيما كتب موضوع الكتاب ، ولكنه مع هذا قد تجلّى فيه ما ذكرنا
عن الجاحظ من ازدحام معلوماته وسرعة تواردها ؛ فلم يكن يستطيع أن يضبط أفكاره
تحت عناوين وأبواب يجمع فيها كل ما هو متناسب ، لم يستطع ذلك ، وهذا شأنه في كل
ما ألف وعذره فيه كثرة معلوماته. وكون التأليف إلى أيامه لم يصّر صناعة محكمة الأصول
متعارفة المنهج .

وهاك بعضاً من الموضوعات التي تناولها في كتابه تدرك منها كيف يخضع الجاحظ لحكم المناسبة ، ولا يستطيع ضبط فكره وادّخار معلوماته إلى مواضعها التي تليق بها .

بدأ كتابه بالتعوّذ من العيّ والحصر ، ثم استطرد إلى ما قيل فيهما من شعر ونثر وكلام مروى عن العرب وغيرهم ، ثم استطرد إلى ذكر واصل بن عطاء ، وأنه لما كان ألثغ فاحش اللثغ ، وأنه لا بدّ له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة الخرج وجهازة المنطق وتكميل الحروف أسقط واصل الرء من كلامه ، ثم ذكر شيئاً من كلامه تجنب فيه الرء ، ثم تراه بعد ذلك طفر طفرة ذكر فيها أن أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، وضرب لذلك أمثلة كثيرة ثم عرض لاستخفاف الناس لبعض الألفاظ وغيرها أحق منها بالاستعمال وضرب لذلك الأمثلة فذكر أن الجوع لم يذكر في القرآن إلا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس يذكرونه في حال المقدرة والسلامة ، ولا يذكرون السغب

ثم عقد فصلاً لتسمية واصل بالغزال وسبب ذلك ، ثم فصلاً لذكر الحروف التي تدخلها اللثغة ، ثم عرض لذكر الخطباء الذين يجمعون بين الخطابة والشعر وعدّد منهم كثيرين ، وإنما أتى بذلك استطراداً حين ذكر رجلاً عرف بقرض الشعر وتعبير الكلام ، فأطال في استطراده هذا ، ثم قال : رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات ، فأطال في ذلك ، وذكر أسماء كثيرين من لُكن البلغاء والشعراء والرؤساء ، وروى لكلّ منهم قولاً أثر عنه وبذلك ختم الباب .

فأنت ترى أن كلّ ما ذكره إلى هنا إنما كان استطراداً لاستعاذته في أوّل كتابه

من العيّ والحصر .

ثم عقد باباً سماه : باب البيان ، ثم آخر سماه : باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء^(١) والفقهاء والأمرء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل ، ثم باب ذكر اللسان ، ثم باب الصمت ، ثم باب ... ثم يختم الجزء الأول بذكر « باب ما قيل في الخناصر والعصى وغيرها » .

وهذه الأبواب التي عقدها في الجزء الأول منها ما يطول جداً ، ومنها ما يقصر جداً ، حتى لا يتعدى نصف صفحة من الطبعة التي بأيدينا ، وكل هذه الأبواب على النمط الذي ذكرناه لا تضم أشياء متشابهة متناسبة ، بل قد يعرض لما لاهلاقة بينه وبين عنوان الباب ، ففي كتاب الخناصر والعصى يذكر أن العرب كانت تخطب بالخناصر ، وتعتمد على القسي ، وتشير بالعصا والقنا ، ويذكر شيئاً من الشعر قيل في ذلك ، ثم إذا عرض لذكر البعيث الشاعر الخطيب ذكر سبب تسميته بالبعيث ، ثم استطراد إلى ذكر كثير من الشعراء ، وبين أسباب تلقيبهم بألقابهم ، ثم قال : ومن الخطباء وجعل يعدد أسماء من الخطباء ، ويذكر أقوالهم ، ونسى ما عقده الباب وهو العصا والخصرة ، وكان كلامه فيما عنون له قليلاً جداً بجانب ما لم يعنون له .

ثم بدأ الجزء الثاني بقوله : أردنا أبقاك الله أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا أيمانهم بالخناصر ، واعتمدوا على وجه الأرض بالقسي والعصى ، ولكننا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين

وقد اطرده الاستطراد ، والخروج من موضوع إلى موضوع حتى انتهى الجزء الثاني من الكتاب ، وهو لم يرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب مع أنه كما ترى في عبارته كان يجب أن يجعل ذلك بدء الجزء الثاني ، فحزحه الاستطراد حتى

(١) الأبيناء : جمع بين بمعنى مين .

جعله بدء الجزء الثالث ، فكان أوله هذا باب العصا عدد فيه بعض مطاعن الشعوبية على العرب في عاداتهم التي منها الإشارة ، بالعصى ، والاتكاء على أطراف القسي ، ولزوم العمائم ، والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح ، ثم عقد كتاب الزهد ، فأورد فيه كثيراً من أعلام النساء ، وروى كذلك من كلامهم ومواعظهم ، وما روى من أحوالهم وأخلاقهم ، ثم عاد بعد ذلك يقول : ومما يكتب في باب العصا - ومما يزداد في باب ذكر العصى ، ثم عقد بعد ذلك باباً في دعاء الصالحين والأعراب ، ثم باباً في مقطعات من نواذر الأعراب وأشعارهم .

ولعلك قد تمثلت تمام التمثيل تلك الفوضى التي شاعت في هذا الكتاب ، وهي فوضى لزمت كتب الأدب حيناً طويلاً ، فإن على نمطه ألف المبرد الكامل ، وابن قتيبة عيون الأخبار ، ولكن هذا العيب أخذ يقل حتى صارت الكتب إلى نظام حسن ، وتبويب منسق ، وتفريع من التبويب يتسع ويتشعب ، فوصل التأليف إلى أدق نظمته في مثل كتاب : صبح الأعشى ونهاية الأرب ، ولا شك أن للزمن كما ذكرنا أثراً عظيماً فيما كان قديماً من اضطراب وما صار أخيراً من نظام .

والظاهرة التي تتجلى في كتاب البيان والتبيين مع كونه كتاب أدب هي أنه قد وضع فيه جلياً كل أنواع الثقافات التي تثقف بها العرب إلى زمن الجاحظ ، ففيه ما يدل على أن العرب ترجحوا عن الفرس والروم والهند ، وعرفوا تاريخ هذه الأمم ، ووقفوا على تاريخ مذاهبها الدينية ، وآرائها الفلسفية ، تعرف ذلك في كثير مما رواه من حكمة الفرس والهند وفلسفة الروم ، وما عرض له عند الكلام عن بشار من آراء الثنوية . وما ذكره من مزاعم الشعوبية عند الرد عليهم ببيان فضائل العرب التي عدوها مذاماً ومقايح ، كما أنه على أساس قوى من الثقافة العربية الإسلامية : من رواية الشعر والخطب والاستشهاد بالقرآن ، وحديث رسول الله ، وذكر عادات العرب في قديم أيامها ، وما صاروا عليه بعد إسلامهم .

كذلك يلاحظ أن هذا الكتاب من كتب الأدب هو أول كتاب جمع كثيراً من فنونه وضروب القول فيه ، فقد كانت كتب السابقين لا تشمل إلا على مبحث من الأدب : كشعر شاعر ، أو قبيلة ، أو جمع جملة من كلام العرب كما فعل أبو عبيدة في كتابه أدعية العرب ، وكما فعل الأصمعي في كتاب الأراجيز ومعاني الشعر ، فكان الجاحظ أول من أخرج للناس في الأدب كتاباً يجمع الشعر والنثر ، والخطب والأسجاع ، والنوادر والأدعية ، والحكمة والتاريخ ، إلى غير ذلك .

والكتاب بعد يعدّ أعظم وأوثق مصدر للخطباء جاهليهم وإسلاميهم ، كما أنه سجل كذلك لما نقل عنهم من كلامهم ، وكل من ألف في هذا الباب يروى عنه وينسب إليه .

ويعدّه ابن خلدون أحد كتب أربعة هي أصول فنّ الأدب وأركانه ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل المبرّد ؛ والنوادر لأبي عليّ القالي ، وهذا الكتاب . وإن كان ابن خلدون قد بالغ في شأن بعض هذه الكتب ، كأدب الكاتب ، فإنه محقّ كلّ إحقاق فيما عداه .

مرض الجاحظ وموته

ذكروا في سبب مرضه بالفالج: أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه الطبيب على مأدّة الوزير إسماعيل بن بلبل أو الوزير أحمد بن أبي دؤاد ، فقدم لهم سمك فأكلوا ثم مضى فامتنع يوحنا ، فقال أبو عثمان : لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له ، فإن كان أحدهما ضدّ الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد ، فلنحسب أننا أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال يوحنا : والله مالي خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أبا عثمان ، وانظر

ما يكون غداً ، فأكل أبو عثمان انتصاراً لدعواه ففلج من ليلته ، فقال : هذه والله نتيجة القياس الحال .

وحدث المبرد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو حزن بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنْقَرَسٌ^(١) لو طار الذباب بقربه لآلمه . وأشد من ذلك ست وتسعون سنة .

وقال يوماً لطبيب يشكو إليه علته : اصطاحت الأضداد على جسدى : إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسى .

ولا يعلم متى فلج ، ولا كم بقى مفلوجاً ؟ ولكنهم ذكروا أن المتوكل بعث إليه في السنة التي قتل فيها ، وهي سنة ٢٤٧ هـ ، وطلب أن يحمل إليه من البصرة ، فوجدوه لا فضل فيه ، وقال الجاحظ لرسول الخليفة : ما يصنع أمير المؤمنين بأمرى ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ، فهذه ثمان سنوات من سنة ٢٤٧ هـ إلى ٢٥٥ هـ وهي سنة وفاته قد تحقق فيها أنه مريض ، فكم مكث قبلها ؟ .

وما زال مفلوجاً والناس يزورونه ، وطلاب العلم يحضرون إليه ، وهو يؤلف بعض كتبه ، فقد ذكر أنه كان يؤلف البيان والتبيين وهو مريض . وكان كل من مر بالبصرة يقصده ويسمع كلامه حتى يتحدث بأنه جالس الجاحظ ، أوراها ، وكانوا يعدون ذلك مفخرة كبيرة .

وقد ذكروا أنه لما حانت منيته سقطت مجلدات الكتب من رف كان ينام تحته ، فقضت على ما بقى فيه من ذماء ، فسجل هذا الحادث أن حياته كانت للعلم أولاً وآخرأ .

(١) من النقرس ، وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

مدى شهرة الجاحظ

إن أكثر النابغين إنما يشتهرون بعد مماتهم على حين يكونون في حياتهم مغمورين لا يكشف حقيقتهم إلا الموت ، ولكن شهرة الجاحظ خرجت عن هذه القاعدة فاشتهر في حياته شهرة كان من آثارها ما مرّ بك من اعتداد الأندلسيين بكتبه ورفعهم قدر طالب العلم منهم بالمشرق إذا كان قد رأى الجاحظ وتلمذ له ، إلى غير ذلك من إعجاب المتوكل به وطلبه لتعليم أولاده أولاً ، ثم لمناذمته ثانياً .

كذلك بلغ من شهرته بعد موته أن ألف أبو حيان التوحيدى كتاباً في بيان فضائله سماه : « تقييد الجاحظ » ، وقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من الكتب ، ولكن الحموى نقل في معجم الأدباء عن أبي سعيد السيرافي : أنه حدثه بأن ثابت ابن قرّة الطيب الفيلسوف قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : عمر بن الخطاب ، والحسن البصري ، والجاحظ ؛ وكان يقال : اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلي بن عبيدة ، وأبو زيد البلخي ؛ وكان يقال له جاحظ خراسان ، كما كان ابن العميد من المعجبين بالجاحظ ، وكان يعجبه أن يلقب بالجاحظ الثاني ، وكان من عظيم تقديره له إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم ، ومصطنعي الآداب ، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد والجاحظ ، فإن وجده متفطناً لمزايها ببغداد ، عارفاً بقدر رجالها ، قارئاً لشيء من كتب الجاحظ ، ارتفع في عينه ورضى عن أدبه . وكان ابن العميد يقول : كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً .

وبلغ من شهرته أن ابن الأخشيد علي بن عيسى النحوي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وكان غاية في كل علم قال : ذكر الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان بعض كتبه ، فكان منها : « الفرق بين النبي والمتنبى » ، و « دلائل النبوة » ، ثم أعاد في الجزء

الرابع ذكر كتاب « الفرق ... » وأحييت أن أرى الكتّابين فلم أقدر إلا على أحدهما ، وهو « دلائل النبوة » ، وربما لقب بالفرق خطأ ، فلما أن حججت أمت منادياً ينادى بعرفات حين اجتماع الناس : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي للجاحظ ، فعاد المنادى بالخيبة ، قال ولكنني أبليت نفسي عذرها .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : ما هي ؟ قال : كتب الجاحظ وأشعار الحديث ونوادر أبي العيناء ^(١) .

وبلغ من شهرة الجاحظ أن كثيراً من المؤلفين كانوا إذا أرادوا شهرة كتبهم نسبوها إلى الجاحظ ، فاستفادوا من ذلك إقبال الناس عليها وتقديرهم لها ، ومن هذه الكتب كتاب « المحاسن والأضداد » ، وأنت إذا نظرت فيه عرفت أنه لغير الجاحظ لأنه ليس إلا عبارات منقولة ، وأقوالاً منسوبة إلى أصحابها . ليس للمؤلف فيه أثر لكلمة أو فكرة . وليس عهدنا بالجاحظ إلا أن يظهر لقارئ كتبه ، ويدله على نفسه بروحه الخفيفة ، وظرفه المتتابع ، وعبارته الفياضة ، وليس شيء من هذا في كتاب : (المحاسن والأضداد) . على أنك ترى فيه شعراً منسوباً إلى ابن المعتز ، والجاحظ قد مات ، وعمر ابن المعتز ست سنوات ، وهي سن لا تسمح أن يكون قائل الشعر المنسوب إليه إن صحت النسبة . على أن في أول الكتاب بعضاً من وصف الكتب والثناء عليها مما ورد في مقدمة كتاب الحيوان . وما عهدنا الجاحظ يكون ضعيف العبارة جامد الفكر حتى يعيد ذكر شيء سبق له أن كتبه في كتاب آخر ، وإن أعاد المعنى فهو جدير ألا يعيد اللفظ . ولكن المنقول هنا هو بنصه وفصه الذي ورد في كتاب الحيوان .

(١) قد أحصينا على وجه التقريب جميع ما تفرق في الكتب من نوادر أبي العيناء في الترجمة التي عقدناها في صفحتي ٩١ ، ٩٢ بذيّل كتاب « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » فارجع إليها هناك ففيها متعة عظيمة ، ودليل واضح على ظرف الرجل وخفة روحه .

وكذلك كتاب (سلوة الخريف ، بمنظرة الربيع والخريف) يدلك عنوانه المسجوع على النحل الظاهر كما تستدل على ذلك مما في داخله من ألفاظ التبجيل للملك المؤلف له كقوله : قوام الملك ونظام الدين . . ومن شعر منسوب لابن المعتز وابن الرومي ، وهما لم يكونا إلا بعد الجاحظ ، كذلك كتاب الحنين إلى الأوطان فيه نحو من ذلك وكتاب « الهدايا » ذكر ياقوت أنه مما نسب للجاحظ قديماً .

فهذه الكتب وأمثالها إنما كانت من فعل تجار الكتب « الورّاقين » يحبون أن يستفيدوا من نسبة ما يجمعون إلى رجل مشهور كالجاحظ لئلا يكلوا الخبز باسمه .

والغريب أن الجاحظ كان في أوائل حياته ، وقبل أن يشتهر ينسب الكتب إلى غيره ليكون لها رواج ، فكما دان الناس دأبه ، وقد قال في ذلك :

« كنت أولّف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسي ، فلا أرى الأسماع تصغي إليه ، ولا الإرادات تتيمّم نحوه . ثم أولّف ما هو أخص منه رتبة وأقلّ فائدة ، وأنحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماءهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا شيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي عني بتشبيدها » .

مختارات من كلامه

تكلم عبد القاهر الجرجاني في مقدمة كتاب : « أسرار البلاغة » عن عناية قوم بالبديع وجناتهم بذلك على المعنى ، فقال : إن أردت أن تعرف مقالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جنابة منه عليه ، فانظر إلى خطب الجاحظ في أوائل كتبه ،

ثم روى من قوله في أول كتاب الحيوان قوله : « جَنَّبَكَ اللهُ الشَّبهَةَ ، وعصمَكَ من الحيرة ، وجعل بينكَ وبين المعرفة سبباً . وبين الصدق نسباً ، وحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ . وزَيَّنَ في عينكَ الإنصافَ . وأذاقَكَ حلاوةَ التقوى ، وأشعر قلبكَ عزَّ الحقِّ ، وأودع صدرك برَّ اليقين ، وطرد عنكَ ذلَّ اليأس ، وعرفَكَ ما في الباطل من الذلَّة ، وما في الجهل من القلَّة » .

قال الجرجاني : فقد ركَّ أولاً أن يوفق بين الشبهة والحيرة في الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطالب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفاً له لأنه رأى التوفيق بين المعاني أحقَّ والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بهأحقى تكون أخوة من أب وأمٍّ ، ويذرهما على هذا تنفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطالب الأوزان أولاد علة عسى ألا يكون بينها وفاق إلا في الظواهر .

ومن محاسن ما كتب الجاحظ يصف الكتب ، ويبين فضيلتها قوله في كتاب الحيوان :

الكتاب نعم الذَّخْرُ والعُقْدَةُ^(١) ، ونعم الجليس والعُمْدَةُ ، ونعم النُّشْرَةُ^(٢) والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل^(٣) ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشوي ظرفاً ، وإناء شجن مزاحاً وجداً ، إن شئت كان أئين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجبتك^(٤) مواعظه ، ومن لك بواعظ مثله ، وبزاجر مُغَرٍّ ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وبيارد حارٍّ ، ومن لك

(١) العقدة : العقار .

(٢) النشرة : رقية يعالج بها المجنون أو المريض .

(٣) الدخيل : الصديق المداخل .

(٤) شجاء كأشجاء : أحزنه .

بشيء يجمع الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ،
والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ وبعد : فما
رأيت بستاناً يحمل في رُدن^(١) ، وروضة تقلب في حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ،
ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ،
آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديع من أرباب
الوديع . . . ، ولا أعلم جاراً أبرّ ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقلّ جنابة وإملاً ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ،
ولا أقلّ تصلفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مرأى ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ،
ولا أكف عن قتال ، من كتاب . . . ولا أعلم قريباً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ،
ولا أحضر معونة ، ولا أقلّ مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا
أطيب ثمرة ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في كل إبان من كتاب . .
ولا أعلم نتاجاً في حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع
من التداوير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان
اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن
الآخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة
ما يجمع لك الكتاب . والكتاب هو المجلس الذي لا يطريك ، والصديق الذي
لا يقلبك ، والرفيق الذي لا يملك ، والمستريح الذي لا يؤذك ، والجار الذي لا يستبطنك
والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك
بالنفاق ، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طبعك ،
وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخم ألفاظك ، وعمر صدرك وحباك تعظيم العوام ،

(١) الردن : السكم .

ومنحك صداقة الملوك . يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفي السفر طاعته في الحضر ، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يَحْقِرْكَ^(١) ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت عليك ريح أعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقاً به ، ومتصلاً منه بأذى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى قرين السوء ، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ^(٢) نهارهم ، وأصحاب الكفريات ساعات ليلهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه أبداً ازدياد في تجربة وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، ومال ، ورب^(٣) ، صنعة ، وابتداء إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، ونظرك إلى المازة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور أفاضلهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة لكان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة .

ومن إخوانياته كتابه إلى إبراهيم بن المدبر .

ما ضاء لي نهار ، ولا دجا لي ليل ، منذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك ، قد حزّ في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط^(٤) في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدي ، فأنا بين أحشاء^(٥) خافقة ، ودمعة مُهرّاقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت^(٦) بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الارتماض^(٧) ممنوع من لذة الاغماض قول بشار :

(١) حقره (كضرب) : أذله .

(٢) الفراغ : جمع فارغ ، وهو الخالي من العمل .

(٣) الرب : التنمية .

(٤) في الأساس سقط في يده (بالبناء للفاعل) : ندم ، والهمزة هنا للتعدي أي أن الأسف يجعلني أسقط في يدي : أي أندم .

(٥) في الأصل حشا ، وليس في كتب اللغة ما يبرر أن تكون حشا مؤنثة لذلك جعلناه أحشاء .

(٦) بلى الشيء (كرضى) : أصابه البلى وذهبت جدته .

(٧) الارتماض : من قولهم ارتمض من كذا إذا اشتد عليه وأقلقه .

إِذَا هَتَفَ الْقُمْرَى نَازِعَى الْهَوَى بِشَوْقٍ فَلَمْ أَثَلِكْ دُمُوعِي مِنَ الْوَجْدِ
أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَا وَكُنَّا كَمَا الْمُزْنِ شَيْبَ مَعَ الشَّهْدِ
لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَا كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالْعَبْرِ الْوَرْدِ^(١)
فانتظم وصفنا كنا نتعاشر عليه ، ونجرب في مودتنا إليه في شعره هذا . وذكرت
أيضاً مارماني به الدهر من فرقة أعزائي من إخواني الذين أنت أعزهم ويمتحنني بمن نأى
من أحبائي وخُصاني^(٢) الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويُجَرِّعُنِيهِ مِنْ مَرَارَةِ نَائِهِمْ
وبعد لقائهم ، وسألت الله أَنْ يَقْرِنَ آيَاتِ سُرُورِي بِالْقُرْبِ مِنْكَ ، وَلِيَنْ عِشَى
بِسُرْعَةٍ أَوْ بَتَكَ .

وكتب إلى قلب المغربي يتشوق : وَاللَّهِ يَاقَلْبُ لَوْلَا أَنْ كَبَدِي فِي هَوَاكَ مَقْرُوحَةً ،
وَرُوحِي بِكَ مَجْرُوحَةً ، لَسَاجَلْتُكَ هَذِهِ الْقَطِيعَةَ ، وَمَادَدْتُكَ حَبْلَ الْمَصَارِمَةِ ، وَأَرْجُو اللَّهَ
تَعَالَى أَنْ يُدِيلَ صَبْرِي مِنْ جَفَائِكَ ، فَيُرْذِكَ إِلَى مَوَدَّتِي ، وَأَنْفِ الْقَلْبِ رَاغِمٌ ، فَقَدْ طَالَ
الْمَهْدُ بِالْاجْتِمَاعِ حَتَّى كِدْنَا تَنَاقَرُ عِنْدَ الْلقاءِ .
وكتب إلى الفتح بن خافان في يوم عيد :

أخترتني العلة عن الوزير (أعزّه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني
ويعمر ما أخلته العوائق مني ، وأسأل الله تعالى أَنْ يجعلَ هذا العيدَ أعظمَ الأعيادِ
السَّالِفَةِ بَرَكَةً عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فِيمَا يُحِبُّ وَيُحِبُّ لَهُ ، وَيَقْبَلُ مَا تَوَسَّلَ
بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، وَيَضَاعَفُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ ، وَيَمْتَنِعَهُ بِصَحْبَةِ النِّعْمَةِ ،
وَلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ، وَلَا يَرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ نَقْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ، وَيَجْعَلُنِي مِنْ كُلِّ
سُوءٍ فِدَاءً ، وَيَصْرِفَ عَمُونَ الْغَيْرِ عَنْهُ ، وَعَنْ حَظِي مِنْهُ .

وكتب يستنجز : أَمَا بَعْدَ فَقْدِ رَسْفَنَّا فِي قِيُودِ مَوَاعِيدِكَ ، وَطَالَ مَقَامُنَا فِي سِجُونِ

(١) العنبر هنا : الزعفران ، والورد : اسم له ، وأصله وصف كما يقال أسد ورد .

(٢) خلصان : جمع خلص (بالكسر) وهو الحذن ، ويجمع على خلصاء أيضا .

مَظْلَك فَاُطْلَقْنَا (أَبْقَاكَ اللَّهُ) مِنْ ضَيْقِهَا ، وَشَدِيدِ غَمِّهَا بِنَعْمٍ مِنْكَ مُثْمِرَةٍ ، أَوْ
« لَا » مُرِيحَةٍ .

مجالس العلم والمناظرة

إن المتتبع لتاريخ هذه الدولة يجد أن العلم فيها كان جليل القدر رفيع الشأن دعا
إليه الخلفاء ، وتنافس فيه الأمراء ورفل به أهله في حلل الثراء .

وقد كانت له حركة دائبة منذ ظهرت هذه الدولة ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور
يحجج ، فيدعو الإمام مالك بن أنس إلى وضع الموطأ ، ويرسم له خطته حتى يقول مالك
لقد علمنى التأليف ، ثم هو يستدعى ابن المقفع ، فيأمره بأن يترجم له إيساغوجي وغيره ،
ويستدنى جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ، فيحمله على أن يترجم له في
الطب ، ويعطيه على بخله عشرة آلاف دينار ، وهذا غيره من الخلفاء : كالرشيد ،
والمأمون ، ووزرائهم ، كالبرامكة ، والفضل بن سهل وغيرهم يقربون منهم علماء اللغة ،
وشعراء العربية ، وتراجمة العلوم ، ويجودون في سبيل ذلك بالعطاء ، ولا يكتفون بالحث
وبعث الهمم ، بل يكونون هم أنفسهم أدباء شعراء علماء ناظرين في كل علم مناظرين
فيه أهله ، فقد حكوا عن المأمون أنه كان يجمع العلماء من كل فن ، ويناقشهم واحداً
واحداً . فربما غلبهم جميعاً .

ثم يأتي من بعد هؤلاء خلف ، وهم ملوك الدول الناشئة في الدولة العباسية فيتشبهون
بالخلفاء ، ويسترضون العامة بمثل أعمالهم ، ويبالغون في تقريب العلماء ، والاستئثار
بمشهورهم ، ويطلبون إليهم تأليف الكتب برسمهم ، فتكثر الكتب ، ويعظم شأنها
وتعلو قيمتها حتى يعطى سيف الدولة بن حمدان أبا الفرج الأصبهاني ألف دينار ثمناً
لكتاب الأغاني ويعتذر إليه .

فهذه حال تجعل الناس يحرصون على العلم ، وينضون في سبيله مطايا الطلب ، ويقاسون الأسفار البعيدة طلباً لحديث ، أو رغبة في لقاء راوية . كما أنهم داخلوا الأعراب في باديتهم ، وعاشروهم في أخيتهم طلباً للغة وضبطاً لألفاظها ، وألتماساً لفصيحتها ، فراجت بذلك سوقهم عند الخلفاء ، ووطئوا أعتابهم بهذا العلم ، وأدانت مجالسهم ، بل استحقوا أن يقوم الخلفاء بخدمتهم توفيراً للعلم ، فقد صبّ الرشيد الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو يغسلهما ، وإذا كان خلفاء بني أمية قد قرّبوا الشعراء ورواة اللغة ، وأهل الأخبار ، فذلك منهم أشبه بأن يكون سلوة واستطرافاً وباراً من أبواب المندامة لا يدعو إليه في رأيهم خدمة للدين ، أو إحياء لسنته ، أو إبقاء على القرآن حتى لا يستغلق معناه على الناس بدليل أن اهتمامهم كان من ناحية واحدة هي ناحية الرواية لأموال الجاهلية ، والإحياء لآدابها ، فهم قد بذلوا في هذه السبيل دون غيرها ، ولم ترهم قرّبوا محدثاً ، أو أحسنوا إلى فقيه ، وإنما كان هؤلاء يجتهدون في عملهم إحياء للدين ، وطلباً للثواب من الله كما كان يفعل ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين من بعدهم .

أما بنو العباس فحاديهم إلى ذلك ورع ورغبة في إحياء السنة ، وحرص على القرآن ثم مسامرة للمدنية ، واستكمال لدواعيها ، فتجردوا في هذا ، وبذلوا الكثير من المال ، فكان لعطاياهم أثر عظيم في التشمير في سبيل العلم حتى رأيناه متعلق كل همة ، ومناط كل أمل ، وحتى رأينا الناشئ ينشأ في المهنة الحقة ، فما هو إلا أن يحسن باستطاعته للمغامرة في هذا التيار حتى تراه قد غامر فيه ، فإذا هو يوماً ما شاعر الخليفة ، أو قاضيه أو نديمه ، وإذا هو يثرى من عطائه ، ويصير من ذوى الأحساب ، ولا حسب له إلا علمه وأدبه ، فهذا أبو نواس كان غلام عطار بالبصرة ، ثم صار شاعر الخلافة ، وكذلك أبو العتاهية كان يصنع الجرار ويبيعها على ظهره بالكوفة ، ثم يصير من كبار الشعراء ويُدلى على الرشيد فلا يجيبه إلى قول الشعر فيحبسه ويضربه ، والزجاج كان يخرط

الزجاج ، ثم اشتهى تعلم النحو فلازم المبرد ، وكان لا يعلم إلا بأجر وكان كسب الزجاج درهماً ونصفاً في اليوم ، فاشتراط للمبرد أن يعطيه درهماً في كل يوم إلى أن يفرق بينهما الموت ، وقد وفى بتعهده فأخلص المبرد في تعليمه ، ثم صار الزجاج يعلم القاسم بن عبيد الله الذى صار وزير المعتضد ، فكان ذلك سبب ثراء الزجاج ، وهذا أبو تمام كان يسقى الماء بالجرة في جامع القسطنطين ، ثم هو يحل بموضع التجارة من رجال الدولة ، فيتولى بريد الموصل ، والجاحظ كان يبيع الخبز والسمك بسوق سيحان ، ثم يصير صديق الوزراء ، ونديم الخلفاء ، ثم هو يعيش أرفه عيش من كتبه التى يتقاضى عن الواحد منها آلاف الدنانير ، إلى غير هؤلاء ممن رفعهم العلم .

من أجل هذا كثرت مجالس العلم وتعددت حلقاته ، وشاعت المناظرة فيه ، فكنت ترى هذه المجالس ، وتلك المناظرات فى المساجد الجامعة كالحرمين الشريفين ، والمسجد الأقصى ، ومسجد بنى أمية بدمشق ، ومساجد البصرة والكوفة ومصر : كالجوامع الأزهر ، ومسجد أحمد بن طولون ، وجامع الحاكم ، كذلك مجالس العلم فى دور الخلفاء والأمراء ، وفى الأسواق العامة كالربد بالبصرة ، والكناسة بالكوفة ، والعقيق بالمدينة ، وفى أندية الشعراء ببغداد وغيرها ، وكان للشعراء مجتمعات كثيرة فى مقاصر القصور ، وحانات الخمر ، والأديرة ، والرياض والبساتين ، وشواطئ البرك والأنهار . وقد كانت المناظرات متنوعة ، فمنها نوع هادئ لا خطر منه على الاجتماع لأنه لم يكن يتعلق بالعقيدة الدينية التى يستهين المرء فى الدفاع عنها بروحه ، وذلك مثل مناظراتهم فى النحو والأدب وفهم الشعر وتفسيره ، أما المناظرات الحادة التى كانت تتعلق بالعقائد ، فقد كانت خطيرة تراق فيها الدماء فى كثير من الأحيان كفتنة خلق القرآن التى أشعل جذوتها المأمون ، واستباح فيها الدماء ، والأذى لأولياء الله من العلماء ، وقد تبعه فى طريقه المعتصم ، ثم ابنه الواثق حتى زال عن الناس شرها أيام التوكل ولكنه بين حين وآخر كانت الفتن تهب فى بغداد بين الحنابلة المتشددى فى دينهم وبين أصحاب الآراء

المتطرفة ممن قرءوا الفلسفة وولعوا بأرائها ، وكان العامة يساهمون في هذه المناظرات فتصير إلى نضال وكفاح لا يقف عند الحجة بل ينتهي إلى القتال .

أمثلة من المناظرات الأدبية

١ — قيل كتب الرشيد في ليلة من الليالي إلى أبي يوسف صاحب أبي حنيفة :
أفتنا حاطك الله في هذه الأبيات :

فإن ترَفَّقِي يا هند فالرَّفَقُ أَيْمَنُ وإن تَحَرَّقِي يا هند فالخَرَقُ أَشَامُ
فأنتِ طَلَّاقٌ والطلاقُ عَزِيمَةٌ ثلاثًا ومن يَحَرَّقُ أَعْقُ وَأَظْلَمُ

فقد أنشد البيت عزيمة ثلاث بالرفع ، وعزيمة ثلاثًا بالنصب . فكم تطلق بالرفع ، وكم تطلق بالنصب ؟ قال أبو يوسف : فقلت في نفسي هذه مسألة فقهية نحوية إن قلت فيها بظني لم آمن الخطأ ، وإن قلت لا أعلم قيل لي كيف تكون قاضي القضاة ، وأنت لا تعرف مثل هذا ، ثم ذكرت أن أنا الحسن حمزة بن علي الكسائي معي في الشارع ، فقلت ليكن رسول الخليفة بحيث يكرم ، وذهبت فدخلت على الكسائي وهو في فراشه ، فأقرأته الرقعة ، فقال لي خذ الدواة واكتب : أما من أنشد البيت بالرفع ، فإنه طلقها واحدة ، وأنبأها أن الطلاق لا يكون إلا بثلاثة ولا شيء عليه . وأما من أنشد عزيمة ثلاثًا ، فقد طلقها وأبانها لأنه قال : أنت طالق ثلاثًا . فأنفذت الجواب فحملت إلى آخر الليل جوائز وصلات فوجهت بالجميع إلى الكسائي .

٢ — قال حماد بن إسحق عن أبيه قال كنا عند الرشيد فحضر الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحَرِّمًا ودعا فلم أَرِ مِثْلَهُ مَخْذُولًا

فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعي وتهاف^(١) ، فقال الرشيد :

(١) التهاف : ضحك النساء خاصة ، أو ضحك في فتور كضحك المستهزئ .

ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه دخل في شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أوعام . فقال الكسائي : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى بالإحرام . قال الأصمعي : فخبرني عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يتمتع بكفن
أي إحرام لكسرى ، فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً
يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي ما تطاق في الشعر .

٣ — قال يحيى بن المبارك : كنا في مجلس أبي عمرو بن العلاء ، فجاء عيسى
ابن عمر الثقفي ، فقال : ماشيء بلغني عنك أنك تجهزه . قال : وما هو ؟ قال : بلغني أنك
تجهز ليس الطيب إلا المسك بالرفع ، فقال له أبو عمرو : هيات نمت وأدب الناس ، ثم
قال لي أبو عمرو : تعال أنت يا يحيى ، وقال خلف الأحمر : تعال أنت يا خلف امضيا إلى
أبي مَهْدِيَّة ، فلقناه الرفع فإنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نيهان التميمي ، فلقناه النصب
فإنه يأبى . قال : فضينا إلى أبي مَهْدِيَّة ، فوجدناه قائماً يصلي ، فلما قضى صلاته أقبل
علينا ، فقال : ما خطبكما ؟ فقلت جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب ، فقال :
هاتياه ، فقلنا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك ، فقال : أتأمراني بالكذب على
كبر سني فأين الزعفران وأين الجاوى ، فقال له خلف الأحمر : ليس الشراب إلا العسل ،
فقال : فما تفعل سودان هجر ؟ ما لهم غير هذا التمر ، فلما رأيت ذلك قلت له : كيف
تقول : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله ، فقال : هذا كلام لا دخل فيه ليس ملاك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى ، فكتبنا ما سمعنا منه ، ثم جئنا إلى
المنتجع ، فقلنا له كيف تقول : ليس الطيب إلا المسك ونصبنا ، فقال : ليس الطيب
إلا المسك ورفع ، وجهدنا به أن ينصب فلم ينصب ، فرجعنا إلى أبي عمرو وعنده عيسى
ابن عمر لم يبرح بعد ، فأخبرناه بما سمعنا ، فأخرج عيسى خاتمه من يده ، فدفعه إلى
أبي عمرو وقال : بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

٤ — حدث النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ قَالَ: كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَى الْمَأْمُونِ فِي سَمَرِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ لَيْلَةً فِدَارَ الْحَدِيثِ عَلَى ذِكْرِ النِّسَاءِ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ: حَدَّثَ هِشَامٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينِهَا وَجَاهِلَهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عِزٍّ « فَأُورِدَهُ بَفَتْحِ السَّيْنِ » قُلْتُ: صَدَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامٌ، حَدَّثَنَا عَوْفُ بْنُ أَبِي جَمِيلَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ: إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينِهَا وَجَاهِلَهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عِزٍّ، « وَأُورِدَهَا بِكَسْرِ السَّيْنِ »، وَكَانَ الْمَأْمُونُ مُتَكِنًا فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ: يَا نَضْرُ، كَيْفَ قُلْتَ سِدَادٌ؟ فَقُلْتُ نَعَمْ، لِأَنَّ السِّدَادَ هُنَا لَحْنٌ. قَالَ: أَوْتَلَحْنِي؟ قُلْتُ: إِنَّمَا لَحْنُ هِشَامٍ وَكَانَ لِحَانًا فَتَمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَفْظَهُ قَالَ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟ قُلْتُ: السِّدَادُ « بِالْفَتْحِ » الْقَصْدُ فِي الدِّينِ وَالسَّبِيلِ، وَ« بِالْكَسْرِ » الْبَلُغَةُ، وَكُلٌّ مَاسِدَدَتْ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ سِدَادٌ. قَالَ: أَوْتَعْرِفُ الْعَرَبَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، هَذَا الْعَرَجِيُّ يَقُولُ:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتْيٍ أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تَعْرِ

قَالَ الْمَأْمُونُ: قَبِيحَ اللَّهِ مِنْ لَا أَدَبَ لَهُ وَأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: مَا حَالُكَ يَا نَضْرُ؟ قُلْتُ: أَرِيفَةٌ لِي بِمَرَوِّ أَنْصَابِهَا وَأَتَمَّرُزُهَا « أَشْرَبَ صِبَابَتَهَا ». قَالَ: أَفَلَا أُفِيدُكَ مَا لَا مَعَهَا؟ قُلْتُ: إِنِّي إِلَى ذَلِكَ لِحَتَّاجٌ. قَالَ: فَأَخِذِ الْقُرْطَاسَ وَأَنَا لَا أُدْرِي مَا يَكْتُبُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَقُولُ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُتَرَبَّ الْكِتَابُ^(١)؟ قُلْتُ: أَتُرَبِّهِ. قَالَ فَمِنْ الطَّيْنِ. قُلْتُ: طِنُهُ. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ قُلْتُ: مَطِينٌ. قَالَ: هَذِهِ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى. ثُمَّ قَالَ: يَا غُلَامَ تَبْلُغُ بِهِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ. قَالَ: فَلَمَّا قَرَأَ الْفَضْلُ الْكِتَابَ. قَالَ: يَا نَضْرُ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَمَا كَانَ السَّبَبُ؟ فَأَخْبَرْتَهُ وَلَمْ أَكْذِبْهُ، قَالَ

(١) نَرَى أَنَّهُ لَا يَدُ مِنْ قِرَاءَةِ الْفِعْلِ (يَتَرَبُّ) بِالْبِنَاءِ الْمَجْهُولِ حَتَّى لَا يَظْهَرُ نَوْعُهُ أَهْوَى ثَلَاثِي أَمْ رُبَاعِي فَيَكُونُ لِلسُّؤَالِ وَجْهٌ.

لحنت أمير المؤمنين ؟ قلت : كلا إنما لحن هشام ثم أمر لي الفضل من خاصة ماله بثلاثين ألف درهم ، فأخذت ثمانين ألفا بحرف استفيد منى .

٥ — عن أبي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمُثَنَّى قَالَ : أُرْسِلَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّيِّعِ أَنْ أَقْدِمَ عَلَيْهِ بِبَغْدَادَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لِي وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ لَهُ طَوِيلٍ عَرِيضٍ فِيهِ بَسَاطٌ وَاحِدٌ قَدْ مَلَأَهُ ، وَفِي صَدْرِهِ فَرْشٌ عَالِيَةٌ ، لَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى كُرْسَى وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهَا ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالْوِزَارَةِ ، فَرَدَّ وَضَحَكَ إِلَيَّ وَاسْتَدْنَانِي حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى فَرْشِهِ . ثُمَّ سَأَلَنِي وَالْطُّفَنِي وَبَاسْطَنِي ، وَقَالَ : أَتَشْدُنِي فَأَنْشِدْتَهُ ، فَطَرَبَ وَضَحَكَ . وَزَادَ نَشَاطَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ فِي زِيِّ الْكِتَابِ لَهُ هَيْئَةٌ ، فَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِي وَقَالَ لَهُ : أَتَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ لَا . قَالَ هَذَا أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَامَةُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَقْدَمَنَاهُ لِنَسْتَفِيدَ مِنْ عِلْمِهِ ، فَدَعَا لَهُ الرَّجُلُ وَقَرَضَهُ لِنَعْمَلَهُ هَذَا ، وَقَالَ لِي : إِنِّي كُنْتُ إِلَيْكَ مُشْتَاقًا . وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، أَفْتَأْذِنُ لِي أَنْ أَعْرِفَكَ إِيَّاهَا ؟ قُلْتَ هَاتِ . قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « طَلَعُوا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِثْلَهُ ، وَهَذَا لَمْ يَعْرِفْ . قُلْتَ : إِنَّمَا كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَرَبَ عَلَى قَدَرِ كَلَامِهِمْ . أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابٍ أَغْوَالٍ

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .

٦ — قَالَ الْأَصْمَعِيُّ بَعَثَ إِلَى الْأَمِينِ ، وَهُوَ وَلِيَّ عَهْدٍ فَصَرَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ إِنَّ الْفَضْلَ ابْنَ الرَّيِّعِ يُحَدِّثُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِحَمَلِكِ إِلَيْهِ وَكَانَ بِالرَّقَّةِ يَوْمَئِذٍ ، فَجَهَزَتْ وَحَمَلَتْ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ اسْتَرَحَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَدْخَلَنِي الْفَضْلُ بْنُ الرَّيِّعِ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَذَا هُوَ جَالِسٌ مَنْفَرَدٌ فَسَلَّمْتُ فَاسْتَدْنَانِي وَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَاسَتْ فَقَالَ يَا عَبْدَ الْمَلِكِ وَجْهَتُ إِلَيْكَ بِسَبَبِ جَارِيَتَيْنِ أَهْدَيْتُنَا إِلَيْكَ قَدْ أَخَذَتْهُمَا مِنَ الْأَدَبِ أَحَبَبْتُ أَنْ تَبُورَ مَا عِنْدَهُمَا وَتَشِيرَ فِيهِمَا بِمَا هُوَ الصَّوَابُ ثُمَّ اسْتَدْعَى الْجَارِيَتَيْنِ فَسَأَلْتُ أَحَدَاهُمَا عَنْ حُرُوفِ مِنَ الْقُرْآنِ

فأجابتنى كأنها تقرأ من كتاب وسألته عن النحو والعروض والأخبار فما قصرت ثم
سألته هل تقرضين الشعر فاندفعت تقول :

يَا غِيَاثَ الْبِلَادِ مِنْ كُلِّ مَحَلٍّ مَا يُرِيدُ الْعِبَادُ إِلَّا رِضًا كَا
لَا وَمَنْ شَرَّفَ الْإِمَامَ وَأَعْلَى مَا طَاعَ الْإِلَهَ عَبْدُهُ عَصَا كَا

فقال يا أمير المؤمنين مارأيت امرأة في مَسْك^(١) رجل مثلها ، وسأل الأخرى فوجدها
دونها وبعد حديث طويل وسمر مع الخليفة أمر له بمائة ألف درهم ، وأمر له الفضل
بعشرة آلاف وأشركته الجارية الأولى في عطاؤها .

٧ — حكى أبو العباس المبرد قال : قصد أبا عثمان المازني رجل من أهل الذمة ليقراً
عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار على تدريسه فامتنع أبو عثمان وأضرب على رده
قال فقلت له جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فافتك وشدة اضافتك . قال ان هذا
الكتاب يشتمل على ثلثائة ، وكذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها
ذمياً غيراً على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن أشخص إلى الواثق ، وكان السبب
في ذلك أن جارية له أغنت :

أَظْلَمُ إِنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلُمُ

فرد عليها بعض الناس نصبها رجلاً وتوهم أنه خبر إن ، وليس كذلك وإنما هو معمول
لمصابكم ، لأنه في معنى أصابكم وظلم خبر إن . فقالت الجارية لا أقبل هذا ، وقد قرأته
على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازني ، فلما دخل المازني على الخليفة . قال له من
خلفت وراءك؟ قال له خلفت أخية أصغر مني أقيمها مقام الولد فقال : ما قالت لك حين
خرجت قلت طافت حولي . وقالت وهي تبكي أقول لك يا أخي ما قالت بنت الأعشى
لأبيها وهو :

(١) المسك : الجلد أو خاص بالسخلة (وهي ولد الشاة ما كان)

تَقُولُ ابْنِي حِينَ جَدَّ الرِّحِيلُ أَرَانَا سَوَاءً وَمِنْ قَدْ تَيْمٍ^(١)
أَبَانًا فَلَا رِمَتْ مِنْ عِنْدِنَا فَإِنَّا بَخِيرٌ إِذَا لَمْ تَرِمْ
تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتِكَ الْبِلَادُ نُجْنَفِي وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمُ

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت أقول لك يا أخية ما قال جرير لزوجته أم حذرة :

ثَبِّقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

فقال : لاجرم إنك ستنجح ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وفي غير هذه الرواية أنه لما دخل عليه قال له با اسمك ؟ قال : المازني أراد أن يعاين معرفته ابدال الباء مكان الميم في هذه اللغة ، فقلت بكر بن محمد المازني ، فقال مازن بن شيبان ، أم مازن بن تميم ؟ قلت : مازن بن شيبان . قال حدثنا ، قلت : يا أمير المؤمنين هيبتك تمنعني ، وقال الراجز :

لَا تَقْلُوهَا وَادْلُوهَا دَلُّوا إِنْ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَدُوا

قال فسرّه . قلت لا تقلوها : لاتعنفا بها في السير ، يقال : قلوته إذا سرت سيرا عنيقا ، ودلوت : إذا سرت سيرا رفيقا ، ثم أحضر التوزي ، وكان في دار الواثق ، وكان قد قال : إن مصابكم رجل توها أنه خبر إن ، فقال له المازني : كيف تقول إن ضربك زيدا ظلم . قال التوزي : خبر ، وفهم المسألة :

٨ — سئل المازني بحضرة المتوكل عن قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا »

ف قيل له كيف حذف التاء وبقى فعيل ، وفعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته التاء نحو فتى ، وفتية ؛ فقال : إن بغيا ليست بفعيل ، وإنما هي فعول بمعنى فاعلة لأن الأصل فيها بَعْوَى ، ومن أصول التصريف إذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن

(١) تيم (كلم وضرب) : صار يتيم .

- ٣٠٦ -

قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء كما قالوا شويت شيئا ، وكويت الدابة كيتا ، فعلى هذه القضية بغى ، ووجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما تحذف من صبور بمعنى صابرة .

المناظرات في العقائد

تسرّبت إلى المسلمين آراء لم يرضها السلف الصالح ، وكان ذلك قبل أن يترجم شيء من العلوم ، فقد كانوا في العصر الأموي يختلفون بين شيعة ومعتزلة ومرجئة وجماعية ، ولبعض هذه الفرق آراء تطرفوا فيها وغلوا ، وإنما كان منشأ هذا أن الإسلام دعا إلى توحيد الله من طريق النظر في آثاره ، وتلك حكمة من الشارع ليؤمن من آمن عن بينة ، وليظل باب الإيمان مفتوحا لمن ضل سواء السبيل حيناً ، حتى إذا ثاب إلى رشده ، وحكم فكره كف عن غيه ، ودخل في الإسلام مقتنعاً بصحته ، فيستطيع الدفاع عن عقيدته ، ولكن قوما أساءوا استعمال هذه الحرية فجروا وراء مزاعمهم فضلوا الطريق . كذلك كان دخول كثيرين في الإسلام من أهل الديانات الأخرى داعياً إلى مزجهم معتقداتهم القديمة بدياتهم الجديدة ، فحدثت لهم شبه وشاعت بين إخوانهم من المسلمين ، أو هم تعمّدوا إفساد الدين بإفساد أصوله ، فكل هذه العوامل اجتمعت ، فكان من آثارها ما كان من افتراق المذاهب في العقائد حتى كان بعضهم يكفر بعضاً ، وقد كان جدال في هذه العقائد في العصر الأموي حتى أن القول بخلق القرآن كان يقوله الجعدي مربي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ولكن هذا الجدال اتخذ مظهر الحدة في عهد الدولة العباسية ، وقد ساعد على ذلك إطلاق الخلفاء العباسيين الحرية للناس في تفكيرهم واعتقادهم ما لم يمس ذلك خلافتهم حتى إذا رأوا سوء أثر هذه الحرية عادوا يتشدّدون ، وكذلك كان من الأسباب ضعف الإيمان

عند بعض ، واستيلاء الآراء الفلسفية على عقول بعض ، وشدة الورع ، والتخرج في الدين عند من ظلوا على نهج السلف الصالح محاذرين الوقوع في الإبداع ، ومجانبن كل ما يدينهم من الشبهة . فالتشدد من هؤلاء ، وإطلاق العنان^(١) للفكر من أولئك وسع مسافة الخلف حتى كانت فتن ، وسالت دماء ، وأبيحت ذمم ، وأقوى ما تكون الحنة في ذلك إذا دان صاحب السلطان برأى ، فإنه يتخذ من قوة سلطانه عوناً على مخالفه في رأيه ، فيشتد الكرب بالناس ، وتكثر المآسى المفضعة .

فهذه محنة القول بخلق القرآن أودى فيها كثير من العلماء من أهل الورع : بالحبس والضرب ، بل لقد قتل المعتصم منهم كثيرين ، ولكها مع ذلك تعتبر فتنة ضيقة النطاق . أما الحنة التي ينصب فيها الشر على رؤس جماهير كثيرة من عامة الشعب فتلك ما حدث في الدولة الفارسية بالعراق وهي شيعية تتعصب لآل علي^{عليه السلام} ، وكذلك الدولة الفاطمية بمصر ، فإنها كانت تحارب أهل السنة أشد حرب ، وعداء دولة لفريق عظيم من شعبها فظيع الأثر ، طويل الأمد ، ظاهر البغى .

القول بخلق القرآن

لم يكن قبل المأمون أحد من العلماء الذين يرون خلاف رأى الجمهور يستطيع أن يظهر رأيه ، ولكن المأمون هو الذى شجعهم على ذلك فإنه كان بمرو قبل دخوله بغداد يجالس العلماء ويناقشهم ، ثم لما دخل بغداد أمر يحيى بن أكرم أن يجمع له وجوه العلماء والفقهاء ، فجمع له أربعين فسألهم المأمون وناقشهم ، وكان من الحرية التى منحهم إياها أن تناظر بين يديه محمد بن أبى العباس ، وعلى بن الهيثم ، فنصر محمد الإمامية ،

(١) العنان (بالكسر) : اللجام ، والعنان (بالفتح) : السحاب . فكلاهما كوزن ما بعناه .

ونصر على الزيدية^(١)، وجرى بينهما كلام وتناول، فقال المأمون: الشتم عي، والبذاءة لؤم، إنا قد أجبنا الكلام، وإظهار المقالات، فمن قال الحق حيدناه، ومن جهل ذلك دفعناه، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه (يريد أن المعاند يكره على رأى). وهذا منتهى ما يكون من حرية الرأى، فإن هذين المذهبين اللذين تناظر فيهما محمد وعلى هما أكبر حرب على الدولة العباسية، فمعجيب أن يقبل خليفة هذه الحرية فيما ينقض دولته من أساسها

وكان من آثار هذه الحرية التى سنّها المأمون أن أنشأ القول بخلق القرآن .

ومسألة القول بخلق القرآن مبنية على إثبات صفات لله أو نفيها، فالمعتزلة لا يثبتون لله صفات قائمة بذاته لثلاثي تعدد القديم، وأهل السنة يثبتونها، فتفرّع عن ذلك أن قال المعتزلة: إن القرآن مخلوق، لأنه لو كان قديماً لتعدد القديم، وهم يمنعون ذلك ويقولون: إنه ليس بصفة لله، بل إن الله يخلق هذه الحروف فى جسم محدث يسمعه النبي، وهذا هو الوحي عندهم .

أظهر المأمون رأيه فى خالق القرآن سنة ٢١٢ هـ، وربما كان يظن أنه بذلك يتبعه فقهاء الأمة فينحسم الخلاف، ولكن لم يحدث إلا أن أنكر عليه الفقهاء المتورعون واتهموه بالابتداع، بل قال بعضهم بكفره، فلما خشى هذه الحال على نفسه أراد أن يحمل الناس على رأيه بقوة سلطانه، فكتب وهو غازٍ إلى واليه على بغداد، إسحق

(١) الزيدية: بعد وفاة زين العابدين تولى قوم أكبر أولاده محمداً الباقر، وقال قوم إن الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات الشجاعة والعلم والسخاء، وهؤلاء قاموا بإسعادون زيد بن علي ابن الحسين فسموا الزيدية .

الإمامية: فرق كبيرة من الشيعة تقول بعودة إمام منتظر، ففرقة تنتظر جعفر الصادق، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية، وتزعم أنه يقيم رضوى، وعنده غسل وماء. قال كثير:

تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده غسل وماء

ابن إبراهيم أن يمتحن الناس ، فلما فعل إسحق لم يجيبوه إجابات صريحة ، وهذا مثال من ردودهم . قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال أقول : إنه كلام الله . قال لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء . قال : أما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء . قال فخلق هو ؟ قال ليس بخلق ، ثم أعاد عليه السؤال ، فقال : ما أحسن غير ما قلت .

فرفع إسحق كلامهم إلى المأمون فغاضه منهم هذه المحاولة وكتب إليه أن يعيد أمتحانهم ، ومن لم يجبه أوثقه في الحديد وأرسله إلى عسكر الخليفة ، وفي هذه المرة أجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق ما عدا أربعة ، فشدوا في الحديد . وفي اليوم الثاني أعاد سؤالهم فأجاب منهم واحد ، وفي الثالث أعاد على الباقيين فأجاب واحد ، وبقي اثنان ، وهما أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فوجههما إلى عسكر المأمون ، وفيما هم بالرقعة بلغتهم وفاته فأعيدوا إلى دار السلام .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم بالجد في هذا الأمر فأحضر الامام أحمد وعرض عليه أن يقول كما قال غيره فأبى ، ولم يثنه عن رأيه مالتى من الضرب ، والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه ، وكان يتردد بين ذلك ، وبين ضيق الحبس وهو صابر محتسب . وقد اتبع الواصل سيرة أبيه ، فكان يحمل إليه كل من يدين بهذا الرأي حتى لقد حمل إليه من مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطِيُّ أكبر أصحاب الشافعي ، ومات في سجنه سنة ٢٣١ هـ ، وقد ملّ الواصل نفسه هذه المقالة ، وانتقلت من الجد إلى الهرل حتى لقد دخل عليه عبادة المضحك وقال له : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن . قال ويلك القرآن يموت ؟ قال يا أمير المؤمنين : كل مخلوق يموت . من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواصل وجيء بشيخ مقيد فسأله أحمد بن أبي دؤاد عن قوله في القرآن ، فقال له الشيخ : أنا أسألك قبل أن تسألني هذا الذي تقوله من خلق القرآن شيء علمه رسول الله والصحابة أم جهلوه ؟ قال بل علموه . قال : دعوا إليه الناس كما

دعوتهم أم سكتوا؟ قال بل سكتوا ، قال فهلا وسعك ماوسعهم ، فأمر الواثق بإطلاقه .
ثم جاء المتوكل فأمر برفع الحنة في هذه المسألة ، فاستراح الناس بعد عناء طويل .
والحق أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا الصراع ، فقد كانت تقريباً لخلاف قديم
بين المعتزلة وأهل السنة ، فما بالها تأخذ وحدها كل هذا الإهتمام ، على أن المقرر عند أهل
السنة أن الدلالات ، وهي الألفاظ التي نقرأها حادثة ؛ لأننا نتلوها بألسنتنا ونكيفها
بأصواتنا ، وهي حين القراءة قائمة بالحدث . أما مدلول القرآن ، وهو الصفة النفسية
القائمة بذاته تعالى فقديم ، والفرق بين القراءة والمقروء كالفرق بين الذكر والمذكور ،
فالذكر حادث والمذكور قديم^(١) . وما كان على المتورعين من مثل أحمد بن حنبل
أن يقول ذلك فيصرح بأن المخلوق من القرآن تلاوته أو أن ما بين دفتي المصحف مخلوق :
أي هذا الخط وتلك الألفاظ المكتوبة مخلوقة ، ولكنه لم يفعل وقبل الأذى على أن
يقول بخلق القرآن بهذا المعنى فيسرى إلى اعتقاد الناس خلقه بحسب مدلوله ، وقد مرّ بك
في الكلام عن علم التوحيد بعض مناظرات فيه فارجع إليها هناك .

المدارس في الدولة العباسية

لقد عرفت ما كان من شأن الأمة العربية في العلم ، وتبجيل رجاله وتمكينهم من
الشرف والثراء ، فكان جديراً أن يطلب العلم بكل مكان ، وأن يرحل في سبيله إلى
أقصى البلاد ، وقد تمّ ذلك وتعلقت الهمم به كل تعلق ، ورأينا أفنية المساجد ، ورحبات

(١) كان فريق من أهل السنة يقولون : لفظي بالقرآن مخلوق ، وهؤلاء لقوا الاضطهاد من العامة
والإغفال من أهل الحديث ، وقد كان الإمام البخاري بعينه أثر من هذا . فقد كان يقول بهذا
الرأى فاضطهده محمد بن يحيى الذهلي لإمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخاري عنها خوفاً من
العامة أن تبطش به .

- ٣١١ -

البيوت، وقصور الملوك، وميادين الأسواق، ودور الكتب العامة، بل دكاكين الوراقين تصبح مجالاً لطلب العلم، ثم انتهى الأمر بأن بنيت المدارس المنتظمة، ورتب لها المدرسون، ووقفت عليها الحبوس التي تضمن لطلبتها ومدرسيها الأرزاق الشهرية، والجرايات اليومية.

وقد نشأ تلقى العلم بنشأة الإسلام؛ فإن المسلمين منذ أيامهم الأولى حين كان الإسلام غير ظاهر الأمر كانوا يجتمعون بدار بنى الأرقم عند الصفا يتلقون عن رسول الله الوحي ويقرءون القرآن، وتلك هي الدار التي قصد إليها عمر بن الخطاب حين هدى الله قلبه للإيمان، ومنها خرج المسلمون صفين بينهم النبي فأعلنوا الإسلام واستمر منذ ذلك الحين إعلانه.

ولقد ذكروا أن رسول الله جعل فداء أسرى بدر أن يعلم الأسير القارئ عشرة من أولاد المسلمين القراءة، فهذه أول مدرسة في الإسلام لتعليم الأحداث ومحاربة الأمية فيهم، كما ذكروا أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة فنزل بدار القراء. ذكره السيوطي في حسن المحاضرة، فدل على أن للقراء داراً يجتمعون فيها للقراءة والمذاكرة في العلم. وما بالخفي أمر مجلس رسول الله بين أصحابه في المسجد حيث كان يجلس عليه الصلاة والسلام فيتحدث الناس حوله حلقات بعضها دون بعض ويتلو عليهم القرآن ويعلمهم الدين، ويدعوهم إلى الخلق الفاضل.

ولسنا محتاجين إلى نص يدل على أن المسلمين اتخذوا مجالس للعلم بعد دخولهم في الدين، فإن العقل وحده ليجب علينا تيقن ذلك إذ كان الدين قانوناً عظيماً، وأصولاً متعددة في العبادات والمعاملات، فلا بد لحذف ذلك من تعليم وتلقين.

ولقد أتى القرآن حاثاً للعرب على العلم، مرغباً لهم في تحصيله، فكانت أول آية منه هي قوله تعالى: « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وفى العصر العباسى لما استبحرت العلوم ، وحسنت مكافأة الخلفاء والأمراء عليها رأينا العلم يُطلب أحثّ طلب ، ولكنه ظل حيناً طويلاً ليس لطلبه نظام ، فالراغب فى العلم يقصد إحدى حلقاته بمسجد من المساجد ، ويختار أستاذه بمحض إرادته ، فيختلف عدد الطلبة باختلاف منزلة المعلم وحذقه لعلمه . فقد كان يجتمع فى حلقة الفارابى مئات من المثمن من الطلبة ، وكان أبو بكر الرازى الطبيب المشهور يجلس فى مجلسه ودونه تلاميذ ، ومن دونهم تلاميذهم ، ودون هؤلاء غيرهم ، فكان المريض يجيء فيصف ما يجده لأول من يلقاه ، فإن كان عندهم علم وإلا تعدهم إلى غيرهم ، فإن أصابوا ، وإلا تكلم الرازى . وكان الإمام فخر الدين بن خطيب الرى إذا ركب مشى حوله ثلثمائة من تلاميذه الفقهاء ، وكان هو والشيرازى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى أكثر العلماء تلامذة .

وربما قصد الطالب إلى دار العالم فيقرأ عليه كتاباً فى العلم الذى أشتهر به ويأخذ عنه إجازة فى ذلك . ومن كان فى مثل منازل الأمراء من أهل الثراء يحضر المعلمين لأولاده . وبعض العلماء كانوا يرضون بعلمهم فيطلبون عليه الأجر ، ولكن أغلبهم كان يلقي الدروس العامة لا يبغي عليها جزاء ، فكان الفقير من طلبة العلم واجداً بغيته عند هؤلاء وهم كثير .

وقد كثر تلقى العلم على أنواعه ، ولم يكن مقصوراً على الذكور ، بل كان للإناث منه حظٌ وافر ، فقد ذكروا أن السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأمّ الأمين كان عندها مائة جارية يقرآن القرآن ويدرسن العلم ، وكان المصارف بمقاصيرهن يسمع لهن دوايا كدوى النحل . وذكروا أن إبراهيم بن إسحق الموصلى كان يعلم الجوارى ، ويتقهن يبتغى بذلك الربح لأن الناس يرغبون فى الجارية إذا كانت أدبية مثقفة ، فقد يدفعون فيها أغلى الأثمان ، وكذلك كان يفعل دحمان يشترى الجارية بمائتى دينار فيعلمها فيبيعها بعشرة آلاف . ومن عناية الخلفاء بالعلم ، وإعداد الأماكن لتلقيه ما حكوا أن الخليفة المعتضد

- ٣١٣ -

بالله العباسى لما بنى قصره ببغداد استزاد فى الذرع ، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريد أن يبنى دوراً ومساكن ومقاصير يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنوية ليقصد كل ما اختار علماً أو صناعة رئيساً فيأخذ عنه .

ولكن لأندرى هل نفذ الخليفة إرادته ؟ فيكون أول من أنشأ المدارس المنظمة ، وأجرى على أساندها الأرزاق .

ولكن المشهور أنه لم يكن للعرب مدارس من هذا النوع حتى أحدثها نظام الملك وزير السلطان إلب أرسلان^{١١} ، ثم وزير ابنه ملكشاه ، وقد اقتدى بنظام الملك غيره فى إقامة هذه المدارس .

والمراد بها كل بناء أعد للدراسة ، ورتب له المدرسون . وعين لكل مدرس نوع عمله وزمنه ، وقدّر له راتبه الشهري ، وكذلك اختير طلبتها وحصر عددهم ، وأجريت عليهم الأرزاق والمعالي . وفى كثير من الأحيان كان يكفل لهم أمر معاشهم من طعام وكسوة ومأوى .

بنى نظام الملك مدرسة الكبرى ببغداد . شرع فيها سنة ٤٥٧ هـ ، ونجرت سنة ٥٤٩ هـ ، واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشرى القعدة من هذه السنة ، وجمع الناس على طبقاتهم ليحضروا درس الشيخ أبى إسحق الشيرازى ، فجاء الشيخ ليحضر ، فلقبه صبيّ فى الطريق ، فقال يا شيخ : كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ واختفى ، فلما يئسوا من حضوره ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ .

وكان نظام الملك قد بنى قبل ذلك مدرسة بنيسابور سميت النظامية أيضاً ، ودرس بها إمام الحرمين .

هذا هو المشهور من أن نظام الملك أول من بنى المدارس من هذا النوع ، وقد أنكر الحافظ الذهبى فى كتاب «تاريخ الإسلام» على من زعم ذلك ، وقال قد كانت المدرسة

البيهقية المنسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين أخو السلطان محمود حين كان والياً بها . ومدرسة ثالثة بها أيضاً بناها أبو سعيد إسماعيل بن عليّ بن المثنى ، ومدرسة رابعة بناها إسماعيل الاسترابادي الصوفي ، وأخرى بنيت للأستاذ أبي إسحاق ، وذكروا أنه لم يكن قبلها بنيسابور مدرسة .

ويمكن التوفيق بين الرأيين كما فعل القاضي تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى ، فإنه قال : قد أدّرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب المعاليم للطلبة . وفى مصر ذكر ابن خلكان أنه لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شئ من المدارس ، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعى سنة ٥٦٦ هـ ، وهى أول مدرسة بنيت بمصر ، وبنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للإمام الشافعى ، وجعل لناظرها أربعين ديناراً فى كل شهر ، ورتب له فى كل يوم ستين رطلاً من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ، وبنى أخرى مجاورة للمشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة الحنفية ، وهى المعروفة الآن (على عهد بن خلكان) بالسيوفية ، وبنى غير ذلك . وقد مرّ بك فى الأبواب المتقدمة شئ من المدارس فى الإسلام فارجع إليه .



والذى يجب ملاحظته أن إقامة المدارس فى الإسلام قد حدثت متأخرة كثيراً عن نهضة العلم نفسه ، فإن العلم بدأ ينهض فى النصف الأول من القرن الثانى والمدارس لم يبدأ وجودها إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ؛ وكان العلم إذ ذاك قد سمقت غروسه ، وطالت أغصانه ، وامتدت ظلاله ، وأينعت ثماره ، فلا بد لهذا من سبب يحسن معرفة كنهه .

تأخر وجود هذه المدارس إلى تلك الأيام التي ضعف فيها شأن الخلفاء ، وحل محلهم في المنزلة هؤلاء السلاطين الذين توزعوا الملك واقتسموه ممالك صغيرة يتجهد كل منها أن تستحوذ على رضا عاقتها ومودة خاصتها ، فكان منهم تنافس في إكرام العلماء والعطف على الفقراء ، وإحياء شعائر الدين ليستفيدوا بذلك قوة يستعينون بها على صيانة هذا الملك المغموب من أصحابه . لذلك نرى أن ظهور هذه المدارس مقرون بإنشاء الأربطة للزهاد ، والمؤسساتات المرضى ، والمساجد للصلاة ، وحبس الأوقاف الكثيره لينفق منها على هذه المنشآت . كذلك كان هؤلاء السلاطين يخافون على ما جمعه من ثروة أن يستبد بها من يجيء بعدهم من الحكماء ، فكانوا يعجلون بوقفها على أعمال الخير ، ويجعلون لأبنائهم نصيباً منها فيحززون ثواب الله ويضمنون لأبنائهم الاستمتاع ببعض ما جمعوا . كذلك كان من دواعي إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التي كان السلاطين يشتدون في نصرتها ، فإن صلاح الدين لما استولى على مصر كانت الدروس التي تلقى في الأزهر على مذهب الشيعة ، فأبطل هذا المذهب وأحيا المذهبين الشافعي والمالكي وأنشأ لهما المدارس كما مرّ بك .

وقد ندرك بعض هذه الأسباب من هذه القصة : ذكروا أن نظام الملك بذل جهده في استمالة الأعداء وموالاتة الأولياء ، فأكثر من الإحسان حتى عمّ به الصديق والعدو والبغيب والحبيب ، وكان من أهمّ مساعيه في ذلك أن بنى دور العلم لطلبته والأربطة للعباد والزهاد ، وأنه كان ينفق في هذا السبيل كل عام ستمائة ألف دينار فوشى به بعضهم إلى السلطان ، وقالوا : إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية ، فعاتبه ملكشاه في ذلك ، فأجابه إنى أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وبركاتهم تملأون وترزقون ، فقبل ملكشاه قوله وسكت .

الجامع الأزهر

كان الفاطميون منذ قامت دولتهم في مصر مجدين في نشر مذهبهم الشيعي ، فلم يكد جوهر القائد فاتح مصر باسم المعز لدين الله الفاطمي يخطط أساس مدينة القاهرة حتى شرع في بناء مسجد يتلقى فيه الناس عقائد هذا المذهب ، وقد شرع في بنائه لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ وأقيمت فيه الصلاة ، لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦٢ هـ .

وأول من حاول جعله جامعة علمية هو الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، وأول ما عمله في هذا الشأن أن بنى بجواره داراً لجماعة من الفقهاء وعدتهم خمسة وثلاثون فقيهاً ، فكانوا يجتمعون بالمسجد كل يوم جمعة عقب صلاة الجمعة فيقرءون القرآن إلى صلاة العصر وأجرى عليهم الخليفة أرقاقاً ، وكان وزيره ابن كلس يصلهم ويبرمهم . ولما ولي الحاكم بأمر الله أمر بنقل الكتب التي كانت عنده في دار العلم أو الحكمة ووزعها على المساجد الثلاثة : الأزهر ، والحاكم ، والمقس ، وكان نصيب الأزهر منها نحو نصفها .

وبلغ من العناية بالعلم وخصوصاً فقه الشيعة أيام الفاطميين أن كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر كما ذكر المقرئ في خطه .

الشعر في الدولة العباسية

قد رأيت أن قيام الدولة العباسية كان حدثاً عظيماً، وانقلاباً هائلاً له أثره في حياة العرب ، ونظام معيشتها ، وتعاضل مدنيتهما ، وتكاثر علومها ، ونبوغ فلاسفتها . ولقد كان للشعر العربي نصيب كبير مما نال اللغة العربية من ارتقاء . والشعر جدير بهذا ، فقد كان في كل عصر موضوع عناية القوم والمقدم من فنون قولهم ، والعمدة في إظهار مشاعرهم ، وقد شمل التغيير كل شيء في الشعر من معانيه وأغراضه وألفاظه وأسلوبه ووزنه . وكان للشعر في نفوس الخلفاء والأمراء منزلة . وللشاعر عندهم مكانة ، وسنشرح كل ذلك لنتمثل من مجموعه ما كان للشعر والشعراء في هذا العصر من قدر .

منزلة الشعر

كان الحكام الأوائل في هذا العصر هم عرب نشئوا في العربية ، فوسخت فيهم ملكتها ، وتأصلت عاداتها ، وهزت أعطافهم بلاغتها . لذلك رأيناهم يحرصون على الشعر لأنهم يرون فيه مجدهم السابق ، وفخرهم التالذ . فتذاكروا أقوال أسلافهم ، وتناشدوا مآثور كلامهم ، وعقدوا المجالس لذلك ، وجادوا بعظيم العطاء على كل مبرز في العناية بهذه الآثار ، وحاذق في تفهم ما ورد عن السلف منها ، كذلك سمعوا المدح من شعراء عصرهم ، وفرضوا لهم الأعطية في بيت المال ، وأعطوا على كل بيت ألف دينار إلى غير ذلك مما دل على مبلغ عنايتهم بالشعر وقائله .

ولم ينته أمرهم إلى الالتذاذ بسماع الشعر ، والارتياح إلى إنشاده ، بل كان لهم بصر به ، ومعرفة بخبره ، فقد سمع المنصور شعر طريف بن تميم العنبري :

إِنَّ قَنَايَ لَنَبْعُ لَا يُؤَيِّسُهَا غَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا وَهْنُ وَلَا نَارُ^(١)

(١) التأيس : التأثير في الشيء .

متى أُجِرَ خائفاً تَأْمَنَ مَسَارِحُهُ وإن أُخِفَ آمِنًا تَقَلَّقَ به الدارُ
إنَّ الأمورَ إذا أُوْرِدَتْهَا صَدَرَتْ إنَّ الأمورَ لها وِرْدٌ وإِصْدَارُ

فقال : أنا أحق بشعره منه ، وأنا الذى وصف لا هو). وليس هذا القول منه إلا أنثراً
لحسن تقديره لهذا الكلام ، وأنه فى علو معناه لا يليق إلا أن يكون صفة لخليفة مثله .
وكذلك المنصور هو الذى انصرف من دفن ابنه جعفر الأكبر ، وفى قلبه لوعة
الحزن عليه ، فلم ير مسلماً عنه إلا قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه ، فقال
للربيع : أبغى من أهل بيتى من ينشدنى :

أَمِنَ النُّونَ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُفْرَعٍ مِنْ يَجْزَعُ

فخرج الربيع إلى بنى هاشم ، فلم يجد فيهم من يحفظها ، فعاد إليه فأخبره بذلك ، فقال :
والله لمصيتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم من يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب ،
أعظم وأشدّ على من مصيتى بابنى . ثم قال : انظر هل فى القواد والعوام من يعرفها
فإني أحب أن أسمعها من إنسان ينشدها . فخرج الربيع فاعترض الناس فلم يجد واحداً
ينشدها إلا شيخاً مؤدّباً قد انصرف من تأديبه فانصرف به إلى المنصور ، فأنشدها إياه ،
فلما قال : « والدهر ليس بمفزع من يجزع » قال : صدق والله ، فأنشدنى هذا البيت
مائة مرة لتردد هذا المصراع على فأنشده ؛ ثم مرّ فيها ، فلما انتهى إلى قوله : « والدهر
لا يبقى على حدثانه » الخ قال : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول . فأنت ترى أنه عرف
موضع الإبداع فى القصيدة ، فاستعاده مائة مرة ، وعلم حين هدأت نفس الشاعر وسلا .
وكان المأمون كذلك بصيراً بالشعر : حدث عمارة بن عقيل قال : أنشدت المأمون قصيدة
فى مدحه فيها مائة بيت ، فما ابتدأت بيت إلا سبقتنى إلى قافيته . قال عمارة : فقلت
والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط . قال المأمون : وهكذا ينبغى أن يكون .
وقال عمارة : قال لى عبد الله بن السمط : علمت أن المأمون لا يبصر الشعر ، فقلت : ومن

ذا يكون أعلم به منه ؟ فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال : إني أنشدته بيتاً أجدته ، فلم يتحرك له ، فقلت له : وما هو ؟ قال :

أضحى إمام الهدى المأمونُ مشغولاً بالدين والناسُ بالدنيا مشاغِلُ
فقلت ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سُبُحتها .
فمن القائمُ بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ؟ وهو المطوق بها . هلا قلت كما قال جرير في
عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نصيبُهُ ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شَاغِلُهُ

ولقد عرف الناس عن خلفاء هذه الدولة ما للشعر في نفوسهم من كرامة وفي آذانهم من قبول ، فكانوا يجعلون الشعر وسيلة إلى إيصال ما يتحاشون مواجهتهم به ، كأن الشعر يجعل من عسر الموقف يسراً ، ومن شدة الأمور سهولةً ولينا . ذكر المبرد في كتاب « الروضة » أن الرشيد غزا بلاد الروم ، فخضع له تقفور ، وبذل الجزية ، فلما عاد واستقر بمدينة الرقة ، وسقط الثلج نقض تقفور العهد ، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد بمكان هيبته في صدور الناس . فبذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يقولوا إشعاراً في إعلامه ، فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد . فأنشد الرشيد قصيدة منها :

نقض الذي أعطيتَه تقفورُ فعليه دائرة البوارِ تدورُ
أبشرُ أمير المؤمنين فإنه فتَحَ أُنَّاك به الإلهُ كبيرُ
تَقْفُورُ إِنَّكَ حينَ تغدُرُ أن نأى عَنْكَ الإمامُ لجاهلٍ مغرورُ
أظننت حينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُفَلَّتْ هَمَلَتِكَ أُمُّكَ ما ظننتَ غُرُورُ

فلما انتهى الشاعر من هذه الأبيات قال الرشيد : أوقد فعل ثم غزاه في بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة . وقد ذكروا أن جفاء دب بين الرشيد وبين جاريته ماردة ، وهي بعزة دلال المعشوق تأبى أن تعتذر وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، فرام يحيى .

ابن خالد أن يزيل ما بينهما ، فاستدعى العباس بن الأحنف ، فقال : ويحك يا عباس ! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك ، وحسن تأتيك ، وإن الذي نذبتك له من شأنك ، وقد جرى بين الرشيد وبين ماردة عتب أعياني أمره ، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل ثم تركه حيناً ، فقال أربعة أبيات من روى واثنين من آخر ، وبعث بالجميع إليه ، والأبيات هي :

العاشقان كلاهما مُتَغَضِّبٌ وكلاهما مُتَوَجِّدٌ مُتَجَنِّبٌ
صَدَّتْ مَغَاضِبَةٌ وَصَدَّ مَغَاضِبَا وكلاهما مما يُعَالِجُ مُتَعَبٌ
رَاجِعُ أَحِبَّتِكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إن المُتِمَّ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ
إِنَّ التَّجَنَّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكَ دَبَّ الشُّؤْ لَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ

والبيتان :

لَا بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ تكون بين الوصل والصَّرمِ
حتى إذا ألهمَّ تَمَادَى بِهِ رَاجِعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رَغَمِ

فلما سمع الرشيد الشعر ، وانتهى إلى قوله : « راجع من يهوى على رغم » أغرب في الضحك ، ثم قال : أراجعه والله على الرغم ، ثم أمر له ، وأمرت الجارية والوزير بما اشترى ببعضه ضياع تغل عشرين ألف درهم .

ولم يقف بصرهم بالشعر عند حدِّ فهمه ، وإدراك محاسنه ، والتسلي بلهوه ، والاهتياج بحماسة ، بل إنهم كانوا هم أنفسهم شعراء ، فقد رووا للرشيد شعراً كثيراً ، فمن ذلك قوله في جارية له تركية :

يَا رَبَّةَ الْمَنْزِلِ بِالْبَرْكِ وَرَبَّةَ السُّلْطَانِ وَالْمُلْكِ^(١)
تَرْفُقِي بِاللَّهِ فِي قَتْلِنَا لَسْنَا مِنَ الدَّيْلِمْ وَالْتَرَكِ

(١) البرك (بالفتح أو الكسر) اسم لمواضع كثيرة ، ومنها أقصى المعمور من الأرض . ولعله أشار بذلك إلى أنها من تلك البلاد (بلاد الترك) .

وقوله في قينة له أيضاً :

تُبْدِي صُدُوداً وَتُخْفِي تَحْتَهُ مِقَّةً فَالْنَفْسُ رَاضِيَةٌ وَالطَّرْفُ غَضْبَانُ
يَا مَنْ وَضَعْتَ لَهُ خَدِّي فَدَلَّلَهُ وَلَيْسَ فَوْقِي سِوَى الرَّحْمَنِ سُلْطَانُ

وقوله في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له

صدره وفرغ دونه صبره :

قَاسَيْتُ أَوْجَاعاً وَأَحْزَاناً لَمَّا اسْتَخَصَّ الْمَوْتَ هَيْلَاناً^(٢)

فَارَقْتُ عَيْشِي حِينَ فَارَقْتَهَا فَمَا أَبَالَى كَيْفَمَا كَانَ

قَدْ كَثُرَ النَّاسُ وَلَكِنِّي لَسْتُ أَرَى بَعْدَكَ إِنْسَاناً

وَاللَّهِ مَا أَنْسَاكَ مَا حَرَّكَتْ رِيحٌ بِأَعْلَى نَجْدٍ أَغْصَاناً

وكان له ثلاث جوار أهداهنَّ إليه الفضل بن الربيع ، وهنَّ : سحر ، وضياء ، وخنث ؛

فقال فيهنَّ :

إِنْ سِحْرًا وَضِيَاءً وَخَنْثُ هُنَّ سِحْرٌ وَضِيَاءُ وَخَنْثُ

أَخَذْتُ سِحْرٌ وَلَا ذَنْبَ لَهَا ثُلُثِي قَلْبِي وَتَرَبَّاهَا الثُّلُثُ

وقال فيهنَّ أيضاً :

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآلِيسَاتُ عِنَانِي وَحَلَّانَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ

مَا لِي تَطَاوَعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأَطِيعُهُنَّ وَهْنٌ فِي عِصْيَانِي

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوَيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

ولقد نسبوا للمأمون قوله في الشطرنج ، وقد كان أحب ملاهيهِ إليه :

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ سَحَرَاءُ مِنْ أَدَمٍ مَا بَيْنَ الْإِنِّينِ مَوْصُوفِينَ بِالْكَرَمِ

هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يُغَيِّرُ وَبَيْنَ الْحَرْبِ لَمْ تَمِ

(١) استنخس : خصّ .

- ٣٢٢ -

فانظر إلى الخليل قد جاشت بمعرفة في عسكرين بلا طبل ولا علم
وقال الزبير بن بكار : دخلت على المعتز بالله فسلمت عليه ، فقال يا أبا عبد الله إني قلت
في ليلتي هذه أبيتاً ، وقد أعيا على إجازة بعضها ، فقلت أنشدني ، فأنشدني ،
(وكان محمواً) :

إني عرفت علاج القلب والوجع وما عرفت علاج الحب والجزع
جزعت للحب والحمى صبرت لها إني لأعجب من صبري ومن جزي
من كان يشغله عن حبه وجعه فليس يشغلني عن حبكم وجعي
قال أبو عبد الله الزبير ، فقلت :

وما أمل حديثي ليلة أبدا مع الحبيب وياليت الحبيب معي
فأمر لي على البيت بألف دينار .

ولقد يطول بنا القول لو ذهبنا نسرد ما تفرق في الكتب من شعر هؤلاء الخلفاء ،
ويكفي في الدلالة على شأن الشعر فيهم أن نذكر أن ابن المعتز وهو واحد منهم عد من
كبار الشعراء ، وقد قالوا : إن الرازي آخر خليفة ، انقرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة
خطب على منبر يوم جمعة ، وآخر خليفة له شعر مدون ، فكأن الشعر كان لازمة من
تقدمه من الخلفاء ، وليس معنى هذا أن الخلفاء بعده انقطعوا عن قول الشعر لأن المنفى
هو اجتماع هذه الخصال في خليفة بعد الرازي ، فيصبح أن الشعر ظل فيهم ، وهذا
هو المناسب لما صاروا إليه من فراغ وانصراف إلى اللهو والمنادمة .

هذا وإن من استبد بالأمر من ملوك الدول الناشئة في المملكة العباسية قد أرادوا
أن يتقيلوا العباسيين في كل ما عرفوا به ، فكانوا مع عجمتهم يحتفلون بالشعر ويحيزون
عليه ، بل لقد قالوه ونبغوا فيه ، فهذا عضد الدولة يروي له قوله :

ليس شرب الكأس إلا في المطر وغناء من جوار في السحر
غانيات سـالبات للثهي ناغمات في تضاعيف الوتر

مُبرَزَاتِ الكَأْسِ من مَطْلَعِهَا سَاقِيَاتِ الرَّاحِ من فَاقِ البَشَرِ
عَضْدُ الدَّوْلَةِ وابنَ رُكْنِهَا مَلِكُ الْأَمْلاكِ غَلَابَ القَدَرِ!!

و بلغ من شغفه بالشعر وحسن تقديره له أنه لما سمع قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي قالها في الوزير بن بَقِيَّةٍ لما صلب ، قال : ليتني كنت المصلوب وقيلت في هذه القصيدة ، ومطلعها :

عُلُوٌّ في الحياة وفي المماتِ لَحَقَّ تلكَ إحدى المعجزاتِ
ولعله بهذا يقلد أبا ذؤلف حين سمع قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي قال لأبي تمام ، وددت أنها لك في ، والله إنه لم يمت من رُئِي بهذا الشعر .
وهذا سيف الدولة (وإن كان عربياً) يقول في وصف قوس قزح فيبلغ غاية الإحسان :

وساقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعْوَتُهُ فقام وفي أجفانه سِنَّةُ الغَمَضِ
يطوف بكاساتِ العُقَارِ كَأَنْجُمٍ فمن بين مُنْقَضٍ علينا وَمُنْقَضِ
وقد نَشَرَتْ أَيْدِي الجَنُوبِ مَطَارِفًا على الجَوِّ دُكْنًا والحواشي على الأرضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَصْفَرٍ على أَحْمَرٍ في أَخْضَرٍ إِنْزَرُ مُبَيَضِ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلْتُ فِي غَلَائِلِ مُصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ
وقابوس بن وشمكير من ملوك الدولة الزيرية بطبرستان كان أديباً شاعراً كاتباً ،
ومن شعره قوله :

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيْرَنَا هل حاربَ الدهرُ إلّا من له خَطَرُ
أما تَرَى البحرَ تعلو فوقه جَيْفُ وتســـــــــــــــــتقرُّ بأقصى قَعْرِه الدُّرُورُ
وفي السماءِ يُجُومُ ماها عَدَدُ وليس يَكْسِفُ إلّا الشَّمْسُ والقَمَرُ^(١)

(١) . جمع دُرٍّ في القاموس

(١) يشبه قول ابن الرومي :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْمِجُ كُلَّ وَغْدٍ وَيُخَفِّضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفِهِ
كَمَلَّ الْبَحْرُ يَفْرُقُ فِيهِ حَى وَلَا يَنْفَكُ تَعْلُو فِيهِ جَيْفِهِ

ومن قوله أيضاً :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَوْدِقِي فَأَحْسُ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَيْبًا
لَا عُضْوَ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبًا

شان الشاعر

على قدر نصيب الشعر من المكانة في النفوس تكون منزلة الشاعر بين أهل زمنه فإذا رأينا جيلاً من الناس يعتد بالشعر ، ويعرف له أثره في تهذيب النفوس ، ومحاطبة الوجدان ، وتجميل مناظر الحياة ، وتخليد محاسن الدنيا ، ومفاخر الملوك ، رأينا الشاعر ، وقد سامى الملوك في المنزلة ، وساوهم في نعيم العيش ، وكأثرهم بالمال ، وهو إنما استفادهم منهم ، واستجدهم من أكرههم ، ولكن كثرة العطاء ، والتخرق فيه يجعل من هذا المستمنح المستجدي ثرياً يملك القصور والضياع ، ويسير في ركابه الغلمان والأتباع ، ثم رأينا له كرامة وجاهاً مرعياً .

وهكذا كان شأن الشعراء في المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، فقد كانت الأموال تنصب وفودها معجلة إلى بيت المال والخلفاء في هذا العهد عرب تهزهم الأُزَيْجِيَّة ، ويُريِّح أعطافهم الثناء ، فكانت أقوال الشعراء كاللؤلؤ وأخذ السحر تجعلهم يجودون ثم يجودون ، حتى أننا لا نكاد نصدق اليوم ما نقرؤه في كتب الأدب عن هذه العطايا التي قد تبلغ مائة ألف دينار ، وقد كانت هذه جائزة مروان بن أبي حفصة عدة مرات .

لما علم المهدي بمكانة مروان هذا ومنزلته في الشعر أحب ألا يدخل عليه في غمار الناس ، وعين له يوماً حشد فيه وجوه بني العباس في مجلسه ، فلما تمام المجلس دعاه فأنشده :

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا لَرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدَ

على أنه من خالف الحق منهم سقته به الموت الختوف الرواصد
فأشار إليه المهدي فأمسك ، ثم قال : يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادي
فيكم فآتوه ما يسره ، ثم ففرض عليهم مالا فرض على موسى ابنه خمسة آلاف
درهم ، وعلى هرون مثله ، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم حتى بلغ مجموع ذلك
أربعين ألفاً ، ثم قال : وأمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله ثلاثين ألفاً حاضرة وسيأتيك
منى ما يؤديك إلى الغنى . فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما
سمعت منى ما سآزداد به شعراً ، وستسمع ويبلغك ثم قال : لا يبلغ ما أعطيتني لشاعر
بعدي قال أجل . قال فأذني في زيارتك ؟ قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لى فيك وفى
أهلى بيتك عدو فإن رأيت ألا تجعل لأحد على سلطاناً دونك قال : لا سلطان عليك
دون أمير المؤمنين . .

ودخل مروان بن أبي الجنوب ويلقب مروان الأصغر^(١) على المتوكل فأنشده :
سقى الله نجداً والسلام على نجدٍ ويا حَبْدًا نَجْدٌ على القرب والبُعدِ
نَظَرْتُ إلى نَجْدٍ وبعْدًا دُونَهَا لَعَلِّي أرى نَجْدًا وَهِيَاتٍ من نَجْدِ
وَنَجْدٌ بها قَوْمٌ هَوَاهُمْ زِيَارَتِي وَلَا شَيْءٌ أَحْلَى من زِيَارَتِهِمْ عِنْدِي
فلما أتم إنشادها أمر له بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً وثلاثة من الظهر فما
برح حتى قال فى شكره :

تَخَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمَّا كَهُ أَمْرَ الْعِبَادِ تَخَيَّرَا

فلما صار إلى قوله :

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْفِئَ وَأَنْ أَتَجَبَّرَا
قال المتوكل : لا والله لا أُمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فقال

(١) هو ابن مروان بن أبي حفصة الشاعر الذى مدح المهدي والرشد ومات سنة ١٨١ هـ .

الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها من اليمامة ذكر ابن المدبر أنها وقف المعتصم قال :
فإني أقبلتها بخراج درهم ، ثم قال : هذه ليست بحاجة . قال فضياعي التي كانت لي
وحال ابن الزيات بيني وبينها فأمر المتوكل بردها إليه .

دخل ابن الخياط على المهدي فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها
فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغَنَى وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُو الْغَنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي قَاتَلْتُ مَا عِنْدِي^(١)
فلما بلغ المهدي الخبر والأبيات أعطاه بكل درهم ديناراً .

دخل سلم بن عمرو الخاسر على المهدي فأنشده :

أَلَيْسَ أَحَقَّ النَّاسُ أَنْ يُدْرِكَ الْغَنَى مُرَجَّى أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهُ
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلًا وَنَائِلًا كَأَنَّهُمَا عَدْلُ النَّبِيِّ وَنَائِلُهُ
فقال : أما ما ذكرت ياسلم من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا ، وأما
العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، وإني لأتحرّاه جهدي ، ثم أمر
له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، ووفد عليه من قابل ، فأنشده :

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلَافَةٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مِنْهَا كِبُ مُلْكِهِمْ بِخِلَافَةٍ كَالدَّهْرِ يَخْلُطُ لَيْنُهُ بِشِمَاسِ^(٢)

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . فلما كان العام الثالث أنشده :

أَفَنِي سُؤْأَلِ السَّائِلِينَ بِجُودِهِ مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي
هَذَا الْخِلَافَةُ جُودُهُ وَنَوَالُهُ نَفِدَ السُّؤْأَلُ وَجُودُهُ لَمْ يَنْفَدِ

(١) أفاد : أعطى . أفدت : استفتدت .

(٢) الشماس والشموس : النفور ، من شمس (كنصر) .

فَأَسْرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَثَلَاثِينَ ثَوْبًا . . وَسَلَّمَ هَذَا هُوَ الَّذِي مَاتَ سَنَةَ ١٨٦ هـ ،
وَخَلْفَ ثَرَوَةٍ مَقْدَارِهَا خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ وَأَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ
مِنَ الْفِضَّةِ ، غَيْرِ الضِّيَاعِ .

وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يَتَكَسَّبُ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَلَفًا سَمَحًا ، وَكَانَ يَسَاجِلُ فِي
الْإِنْفَاقِ عَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ ، وَصَرِيحُ الْغَوَانِي ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَدَّخِرٌ . وَأَبُو تَمَامٍ جَمَعَ
ثَرَوَةً طَائِلَةً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَغْرَمًا بِالتَّجَوُّلِ فِي الْأَرْضِ ، فَأَفْنَى فِي ذَلِكَ ثَرَوَتَهُ ، وَكَانَ لَهُ
قَهَّارَةٌ وَكِتَابٌ ، وَكَانَ الْبَحْتَرِيُّ يَسِيرُ فِي مَوَكِبٍ مِنْ عِبِيدِهِ ، وَلَهُ أَيْضًا قَهَّارَةٌ وَكِتَابٌ .
وَالْمُتَنَبِّيُ جَمَعَ ثَرَوَةً طَائِلَةً ، وَكَانَ بِخَيْلٍ وَطَمَعٌ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَلِكِ بِثَرَوَتِهِ ، وَبَلَغَ مِنْ كِبَرِهِ
واعتداده بنفسه أَنْ كَانَ يَنْشُدُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى خِلَافِ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ
الَّذِينَ كَانُوا يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْفُونَ لِلْإِنْشَادِ .

وَبَعْدَ الْمَسَائَةِ الْأُولَى إِلَى حِينَ قِيَامِ الدَّوْلِ النَّاشِئَةِ فِي الْعَبَّاسِيَّةِ ، الْمُتَنَافِسَةِ فِي إِكْرَامِ
الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ كَانَتْ فِتْرَةٌ بِخُلِّ فِيهَا الْخُلَفَاءُ ، وَصَلَدُوا وَاتَّبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ رِجَالُ دَوْلَتِهِمْ ،
فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الشُّعْرَاءِ بِالشُّكْوَى ، وَرَأَيْنَا ابْنَ الرَّوْمِيِّ يَقُولُ فِيمَنْ أَخْلَفَ ظَنَّهُ
وَحَيْبٌ أَمْلَهُ :

إِنْ كُنْتَ مِنْ جَهْلٍ حَقٍّ غَيْرِ مُعْتَدِرٍ وَكُنْتَ مِنْ رَدِّ مَدْحِي غَيْرِ مُتَّئِبٍ (١)
فَاعْطِنِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كَفَّارَةُ الْكَذِبِ

وَقَالَ فِي ابْنِ الْمَدْبَرِّ :

يَا بْنَ الْمَدْبَرِّ غَرَّكَ الرُّوَادُ عُمْرًا وَلَيْسَ لَهُمْ سِوَاكَ مُرَادُ
أَدْعُو عَلَى الشُّعْرَاءِ أَخْبَثَ دَعْوَةٍ إِذْ تَجَدُّوكَ وَغَيْرُكَ الْأَمْجَادُ
قُلْ لِي بِأَيَّةِ حِيلَةٍ أَعْمَلْتُهَا هَتَفُوا بِأَنَّكَ لَا حُفِظْتَ جَوَادُ
مَا أَنْتَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْ مِفْتَاحَهُ ذَهَبَتْ بِدَيْنِكَ دُونَكَ الْأَجْوَادُ

(١) اتَّابَ : خَزَى وَاسْتَعْيَا وَمَجْرَدَهَا «أُوب» .

لَكِنْ إِخَالُ مَعَاشِرَا خَيَّبَتْهُمْ نَصَبُوا الْحَبَائِلَ لِلْأَسَى فُجَادُوا^(١)
أَثْنُوا عَلَيْكَ لِيَسْتَمِيحَكَ غَيْرُهُمْ فَيَخِيبَ خَيَّبَتْهُمْ وَتِلْكَ أَرَادُوا

ويقول في الأسف على من مضى من الكرام :

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهَزُّهُمْ مُدَّاخُهُمْ هَزَّ الْكُمَاةِ عَوَالِي الْمُرَانِ^(٢)
كَانُوا إِذَا امْتَدَّحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمْ فَالْأَرْيَحِيَّةُ مِنْهُمْ بِمَكَانٍ^(٣)

ثم كان للشعر رواج على يد سيف الدولة وعضد الدولة وأمثالهما ممن أعادوا سيرة الخلفاء الأولين ، فكثرت الشعراء ، وتوزعوا في البلاد ، ونبغت طائفة منهم في خراسان وطبرستان والأهواز ومصر ، وقد كنا لا نراهم إلا في بغداد ، ومن نبغ منهم في غيرها من بلد أوبادية ، فإنما كان همه أن يقصد بغداد حيث الخلفاء يemporون عطاءهم الغدق على الشعراء .

معاني الشعر

أما معاني الشعر في هذا العصر فهي قسمان : معاني السابقين من جاهليين ، وإسلاميين تناولها العباسيون فأحسنوا غالباً في صوغها وحاكوا هؤلاء في حسن سبكها أو زادوا عليهم في ذلك لما امتازوا به من حصافة الرأي واتساع الخيلة في القول ، والقدرة على الخلابة باللفظ ، وما كان لهم من عناية بالتحسين ، وليس ذلك مطرداً في أخذهم ولكنه غالب شائع في مجيديهم . والذي ساعدهم على ذلك أيضاً أن المعنى وقع إليهم ، وقد تعب الأول في استنباطه ، واحتفل بحسن صوغه ، فلم يبق على مستعيره

(١) الإسوة (بالكسر ويضم) : القدوة وما يتسلى به الحزين والجمع أسا (بالكسر والضم) .

(٢) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحدها مرانة .

(٣) الأريحية : الارتياح للندى ، والأريحي : الواسع الخلق .

إلا أن يحدث فيه ما يحاول به الزيادة على السابق ، وذلك ميسور له حين كفى المثونة في الاستنباط . والذي نعينه من تلك المعاني إنما هو المعاني التي امتاز بإيرادها شاعر ، فنسبت إليه وعرفت به ، فأما المعاني العامة التي لا بدّ لكلّ قائل أن يعرض لها كقولهم : إن الطيف يجود بما بخل به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار الطّيف لساءه ، وكقولهم في المديح : إنه كالبحر والسحاب ، وإن عطاء اليوم لا يمنع عطاء الغد ، وإنه يجود ابتداء ، وقولهم في الرثاء : إن الدنيا حرمت نفع هذا الميت وإن هلكه ليس هلك واحد ولكنه هلك أمة ، وكسفة النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من البروق والعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام وما يدلّ عليه ، إلى غير ذلك من المعاني التي لا تنسب إلى صاحب لأنها قد شاعت ، ولأنها لا يستغنى عنها قائل وإن كان قد تبع فيها اللاحق السابق ، ولكنها كثرت حتى لم تصبح خاصة بشاعر دون غيره .

وأما القسم الثاني فهو المعاني التي استقلّ العباسيون باختراعها ، ولم يكونوا فيها عيالا على غيرهم .

المعاني القديمة

وحين أخذ المتأخر المعنى من المتقدم لم يكن دائماً بمثابة واحدة من الزيادة عليه أو التقصير عنه ، بل إن ذلك يرجع إلى الشاعر ومهارته في الصوغ ، وحسن تأتيه للمعنى واحتياله على إبرازه حتى لقد يصبح بذلك أجدر بالمعنى من مخترعه .
ذكروا أن النابغة قد أبدع في وصف قدرة النعمان وأنّ مطلوبه لا منجى له ولا معتم ، فقال :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن خِلْتُ أن المُنتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وقد اعترض الأصمعي على النابغة فقال : أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتي بما لا قسم له حتى يأتي بمعنى مفرد .
فلو قال قائل : إن منصورا النرى في ذلك أحسن منه لوجد مساعا إلى ذلك حيث يقول :

فَلَوْ كُنْتُ كَالْعَنْقَاءِ أَوْ كَسُمُوهَا خَلِيتُكَ إِلَّا أَنْ تَصُدَّ تَرَانِي
وقد أخذ هذا المعنى كثير من الشعراء ، فقال سلم الخاسر :
فَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَالْدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ
ولو ملككت عنان الرّيح أَصْرِفُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا فَاتَكَ الطَّلَبُ
وقال البحتري :

ولو أنهم ركبوا السكوا كب لم يكن يُنْجِيهِمْ مِنْ خَوْفِ بَأْسِكَ مَهْرَبُ
وقال علي بن جبلة :

وما لأمرى حاولته منك مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتَهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ
بَلَى هَارِبُ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظِلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ^(١)
وقد يدق الأخذ حين يعول الأخذ على عموم المعنى ومغزاه ويترك أفضله جملة كما قال
عروة بن الورد :

وَمِنْ يَكْ مِثْلِي ذَاعِيَالٍ وَمُقْتَرَا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أَوْ يَبْلُغَ رَغْبَةً وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ
أخذه أبو تمام ، فقال :

(١) بلى تفيد إبطال النى سواء في الاستفهام أو غيره . مثال الاستفهام . قوله تعالى : أأنت بربكم قالوا بلى . ومثال غير الاستفهام قوله تعالى أيضا : زعم الذين كفروا أن أن يعيشوا قل بلى وربى لتبعن . وتكون بمعنى بل مثل قوله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ثم قال : بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمعنى بل من كسب ، وهي في البيت بمعنى بل أى إن الهارب الموصوف بهذه الصفات لا مهرب له منك .

فَقَتَّى مَاتَ يَبْنَ الطَّغْنِ وَالضَّرْبِ مَيْتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
فقد جعل عروة اجتهاده في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجح ، وأبو تمام جعل الموت
في الحرب قائماً مقام الانتصار ومرجع المعنيين واحد وإن اختلف التصوير واللفظ .
ومثل ذلك قول جرير :

وَلَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَرْبٍ لِحَاهُمُ سَوَاءٌ ذُو الْعِمَامَةِ وَالْحِمَارِ
أأخذه أبو الطيب ، فقال :

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاقَةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِصَابٌ
وقد يزيد الأخذ على صاحب المعنى كما قال المَعْدِلُ بن غِيْلَان :
وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى إِذَا كَانَتْ الْعُلْيَا فِي جَانِبِ الْفَقْرِ
فأخذه أبو تمام ، فقال :

يَصُدُّ عَنْ الدُّنْيَا إِذَا عَنْ سُوءُودٍ وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَذْرَاءٌ نَاهِدٌ^(١)
وزيادة أبي تمام بقوله « ولو برزت » جعلت المعنى حسناً جميلاً حتى كاد
يستبد به ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر .

يَسْعَى بِهَا ذُو تَوَمَّتَيْنِ كَأَنَّمَا قَنَاقَاتُ أُنَامِلِهِ مِنَ الْفَرِصَادِ^(٢) التَّوَمَّتَانِ^(٣) الْحَصْرُ
وقد أحسن أبو نُوَاسٍ أتباعه بزيادة من الحاسن ، فقال :

يَبْكِي فَيُذَرِّي الدَّرَّ مِنْ رَجَسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْنَابٍ
وأحسن الواوَاءُ الدمشقي بعد أبي نواس ، فقال :

(١) السُّوُودُ (بالهمز مضموم الدال الأولى ومن غيره مفتوحها) : السيادة والعرف .

(٢) قَنَاقَةٌ (كنع) : اشتدت حرته . التوَمَّتَانِ : حبتا در . الفرصاد : صيغ أحر ، والبيت في وصف
ساقى الحر وقبله :

ولقد لهوت وللشباب بشاسة بسلافة مزجت بماء غواذى

وَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ
ومن ذلك أيضاً قول جرير :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ رَأَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا
أَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ ، فَقَالَ :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
فأبدع غاية الإبداع إذ أخرجه مخرج العموم وصاغه صيغة الكلمات الجامعة وبالغ في
مدوحه ، فجعله العالم على حين جعل جرير قبيلة تميم هي الناس كلهم ، ثم بقي فرق بين
العالم والناس فالأولى أشمل وأعم وأبعد في المبالغة .

ومن ذلك أيضاً قول الفرزدق في ناقته :

عَلَامَ تَلَفَّتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَامِي
مَتَى تَأْتِي الرُّصَافَةُ تَسْتَرِيحِي مِنْ الْأَنْسَاعِ وَالذَّبَرِ الدَّوَامِي^(٢)

فأخذه أبو نواس وصار أحق به حين قال :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلَّغْنَ^(٣) مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامٌ

فقد جعل الفرزدق جزاء ناقته على بارغ الممدوح أن يريحها فحسب من الأنساع والذبر
الدوامي . أما أبو نواس فكان أكرم وأدل على سروره بقاء ممدوحه وثقته بما يؤمل
منه ، إذ خلى راحلته سائمة وحرم ظهرها على الركاب .

ومن المعاني التي سبق إليها جاهلي فقتابع الشعراء في كل العصور على استعارة.

(١) وقال أبو نواس في نفس المعنى :

مَتَى تَحْطِي إِلَيْهِ الرَّحْلُ سَالِمَةً تَسْتَجْمَعِي الْخَلْقَ فِي تَمَثَالِ إِنْسَانٍ

وقال المتنبي :

هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتُ مَهْدِيهَا إِلَّا رَأَيْتُ الْعِبَادَ فِي رَجُلٍ

(٢) الأنساع : جمع نسع ، وهو سير بشد به الرحل . الذبر : جمع دبرة ، وهي قرحة الدابة .

معناه قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ

فالأصمعي يقول : إنه سرقة من مسلم بن الوليد حيث يقول :

تَجْرِي مَحَبَّتُهَا فِي قَلْبٍ وَامِقِهَا جَرَى السَّلَامَةِ فِي أَعْضَاءِ مُنْتَكِسِ^(١)
وهو أخذه من قول عمر بن أبي ربيعة :

لَقَدْ دَبَّ الْهَوَى لَكَ فِي فُؤَادِي دَيْبَ دَمِ الْحَيَاةِ إِلَى الْعُرُوقِ
وهو أخذه من قول بعض العذريين :

وَأَشْرَبَ قَلْبِي حُبَّهَا وَمَشَى بِهِ كَمَشَى حُمَيَّا الْكَأْسِ فِي عَقْلِ شَارِبِ
وَدَبَّ هَوَاهَا فِي عِظَامِي وَحُبُّهَا كَمَا دَبَّ فِي الْمُسُوعِ سَمُّ الْعَقَارِبِ
وهو أخذه من أَسْتَفْتِ نَجْرَانَ حيث يقول :

مَنْعَ الْبَقَاءِ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَمْسِي
وَطُلُوعُهَا حُمْرَاءَ صَافِيَةٍ وَغُرُوبُهَا صَفْرَاءَ كَالْوَرَسِ
تَجْرِي عَلَى كَبِدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حَمَامُ الْمَوْتِ بِالنَّفْسِ

ومن المعاني التي توارد عليها الشعراء قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِسُ قَدْ أُيِّنَ أَنْ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَقَى الْجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

أخذه أبو نواس ، فقال :

تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ^(٢)

وقال مسلم بن الوليد :

(١) المراد بالمنتكس : مطلق مريض . لا الذي عاوده المرض بعد نقه .

(٢) تأيا بالمكان : تلبث وانتظر .

- ٣٣٤ -

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا فَهَنَ يَتَّبِعُنَهُ فِي كُلِّ مَرَحَلٍ
وقال أبو تمام :

وقد ظَلَمْتَ أَعْنَاقُ أَعْلَامِهِ ضَعَى بَعِثْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

وجاء المتنبي فأضاف إلى المعنى ما جعله أحق به إذ قال :

يُقَدِّى أَمْتُمُ الطَّيْرَ عُمَرَاءَ سِلَاحِهِ نُسُورُ الْمَلَأِ أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ^(١)
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقُهُ بَغِيرٍ مُخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

وإننا لنقتصر على ما أوردنا حتى لا نخرج عن القصد من الإشارة والتشيل ، وإن كان القول في هذا الباب من لباب العربية لأنه يفشى سر الشعراء في انتحائهم نواحي المعاني وديبهم إلى محاسن القول ، ويدل على مقدار أذواقهم ، وما استطاعوه من زيادة بمحاولتهم ، أوقصروا عنه من وفاء وإبداع . فلصق العيب بالسارق ، وحفظ المعنى للسابق .

المعاني الجديدة

يراد بها تلك المعاني التي استقل المحدثون بابتداعها ، ولم يسبقهم إليها جاهلي ولا إسلامي ، وتلك لعمر الحق كثيرة كثيرة المشاهدات التي أحدثتها الحضارة متعددة تعدد العادات التي أوحى بها المدنية مبتكرة بهذا الفكر المثقف الذي قرأ حكمة الهند ، وتأدب بأدب الفرس ، وتأمل تأمل اليوناني الحكيم ، وإذا استبد المتقدمون بمتانة التعبير وصحة الأداء ، وحازوا فضيلة السلامة من قصور الملكة ، وكان كلامهم حجة في العربية ، ومعجماً لألفاظها وأساليبها ، فإن للمحدثين مزية المعنى ، والتحليق في سماء

(١) الملا : الفلاة ، وفي رواية الفلا فيكون جمع فلاة وهي الصحراء . الأحداث : الصغيرة . القشاعم : المسنة ، والمراد بأتم الطير عمرا لأنهم أطول الطيور عمرا .

الخيال ، واتساق الفكر ، ولقد قال أبو الفتح عثمان بن جنى . المولدون يستشهد بهم .
في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

ولا شك أن الشاعر إنما يحكى ما يرى ، ويصف ما أحس ، ومن الذى ينكر
أن الحضري قد شاهد ما لم يره البدوى ، فهو يعيش في مدن حافلة وجموع حاشدة ،
ويرى أنواع الناس ، ومختلف الأزياء ، ويعيش بين القصور ، ويبصر ما تحوى من
أناث ورياش ، ويذوق مختلف الطعوم ، وهو يكسب رزقه بغير الوسائل التى يكسب
بها البدوى فيلتمسه في صناعة أو زراعة أو تعليم أو كتابة ؛ والعربى إنما سبيله فيه
الغارة ، ومطاردة الوحش ، فكيف لا تختلف بعد كل هذا مقادير عقولهما
ومادة خيالهما .

وإذا كان ابن الرومى وابن المعتز ، وهما حضريان يظلهما عصر واحد ويعيشان
في مدينة واحدة ، ويحسان إحساساً هو فى جملة واحد ؛ قد تباينت بهم الحال فيما
يصفان ؛ فكيف بالجاهلى أو الإسلامى إذ قيس إلى العباسى والحكم فى معيشتهم
متباين . ولقد ذكروا أن لا ممّا لام ابن الرومى وقال لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز
وأنت أشعر منه ؟ فقال . أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى
صفة الهلال :

فانظر إليه كزَوْرَقٍ من فضة قد أثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ من عَنَبٍ^(١)

قال فزدنى فأنشده :

سقىا لروضاتٍ لنا من كل نَوْرٍ حالیه
عيونٌ آذَرِيُونِهَا للشمس فيها كَالِيَه^(٢)

(١) الحمولة (بالضم) : المتاع الذى يحمل . والحمولة (بالفتح) الدابة يحمل عليها المتاع .

(٢) الأذريون : معرب آذركون : أى لون النار وهو ورد له أوراق حمراء فى وسطها سواد له بنود .

وارتفاع وقد يكون أصفر ، ولاختلاف لونه يشبه بكاس من عقيق فيها مسك قال ابن المعتز : .

- ٣٣٦ -

مداهنٌ من ذهبٍ فيها بقايا غَالِيَةٍ

فصاح واغوثاه يا الله !! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته
لأنه ابن الخلفاء وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع
الناس كلهم منى . هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام ، (وروى الأبيات
التي رويت من ناحية أخرى لسيف الدولة ، وقد مرت بك) ، وقولى من قصيدة فى
صفة الرقاقة :

ما أنسَ لا أنسَ خَبَارًا مررتُ به يَدْحُو الرُقَاقَةَ مِثْلَ اللَّحْمِ بِالْبَصْرِ (١)

ما بَيْنَ رُؤْيَيْهَا فى كَفِّهِ كُرَّةٌ وَبَيْنَ رُؤْيَيْهَا قَوَرَاءُ كَالْقَمَرِ (٢)

إلا بمقدارٍ ما تَنَدَّاحُ دَائِرَةُ فى جُبَّةِ الْمَاءِ يُرْمَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

وسنورد عليك من المعانى التي عرفت للمحدثين ، ولم تقع قبلهم لشاعر جاهلى أو اسلامى
ما يكون مثالا لها وشاهداً عليها إذ لا سبيل إلى حصر ذلك ، فإنه كثير شائع .

فمن المعانى التي لم يعرفها المتقدمون قول بشار :

يا قومُ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأَذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

قالوا بمن لا تَرَى تَهْدَى فَقُلْتُ لَهُمْ الْأَذُنُ كَالْعَيْنِ تُوفِي الْقَلْبَ مَا كَانَ

وقال أبو نواس (وقد ذكر المبرّد أنه لم يسبق إليه) :

أيها الرائيحان بالوم لوما لا أذوقُ المدامَ إلا شَمِيماً

نالى بالملامِ فيها إمامٌ لا أرى لى خلافةَ مُسْتَقِيماً

وحمل أذريونة فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

وقد يشبه بمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية (أخلاط الطيب) كقوله المروى فى الأصل .
ومعنى كلاءة عيون الأذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والضمير فى « فيها » للرياض .

(١) دحا الشىء : بسطه .

(٢) قور الشىء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً ، والمراد هنا مجرد الاستدارة .

فَاضِرٍ فَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
كَبِيرُ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيمَا^(١)
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعْدِي يُرَيْنُ التَّحْكِيمَا
كُلٌّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِ فَاَوْصَى الْمُطِيقَ الْأُيُومَا

وقوله في صفة نساء خمارات (ويروى لابن المعتز) :

وَتَحْتِ زَنَانِيرٍ شَدَدْنَ عَقُودَهَا زَنَانِيرُ أَعْكَانٍ مَعَاقِدُهَا الشَّرَرُ^(٢)
ومن اختراعات أبي تمام (وهو كثير الاختراعات) قوله :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ
وقوله في الرثاء :

بَنِي مَالِكٍ قَدْ نَبَّهَتْ حَامِلَ الثَّرَى قُبُورُكُمْ مُسْتَشْرِفَاتُ الْمَعَالِمِ
غَوَامِضُ قَيْدِ الْكَفِّ مِنْ مُتَنَاوِلٍ وَفِيهَا عُلَا لَا يُرَى تَقَى بِالسَّلَامِ
وقوله :

وَإِذَا الْمَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى الْمَرْءِ تَقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِي
وقوله :

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تَرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ
ولابن الرومي في باب الاختراع مجال واسع إذ قد عرف بالغوص على المعاني واستقصائها

(١) كبر الشيء (بالكسر) : معظمه .

(٢) الزنار : الحبل يشد على الوسط . العكنة : ما انطوى وثني من لحم البطن سمناء ، والجمع أعكان وعكن .

حتى لا يدع فيها بقية لمحاول ، ولعل ذلك إنما أتاه من نسبه إلى الروم ، وهم أهل تأمل وحكمة وعقول راجحة ، فظهرت وراثته في المعاني التي غاص عليها واستقصاها ، ومن ذلك قوله :

عَيْنِي لِعَيْنِكَ حِينَ تَنْظُرُ مُقْتَلٌ لَكِنَّ لِحَظِّكَ سَهْمٌ حَتِيفٌ مُرْسَلٌ^(١)
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّ مَعْنَى وَاحِدًا هُوَ مِنْكَ سَهْمٌ وَهُوَ مِنِّي مُقْتَلٌ
وقال يعاتب من يزدد على التَّوَدُّدِ بعدا :

تَوَدَّدْتُ حَتَّى لَمْ أَدْعِ مُتَوَدِّدًا وَأَفْنَيْتُ أَقْلَامِي عِتَابًا مُرَدِّدًا
كَأَنِّي أَسْتَدْبِعِي بِكَ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ بَعْدًا
وقوله في الغزل :

نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفُؤَادَ بِلَحْظِهَا ثُمَّ انْشَنَّتْ عَنْهُ فَظَلَّ يَهِيْمُ
فَالْمَوْتُ إِنْ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَعُ السَّهَامِ وَنَزَعُهُنَّ أَلِيمُ
وقوله في تعليل طول قصائد المدح بأنه هجاء للممدوح :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأًا لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ^(٢)
لَوْلَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بُعْدُ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ
وقوله في صفة بخيل :

- (١) مقتل : اسم مكان . والمعنى أن عيني هي المكان الذي تقتلني منه عينك ، فاذا نظرت إليّ ونظرت إليك كان في ذلك هلاكى ، وما سبب ذلك إلا عينك التي أثرت فيّ بوقع نظرها الذي هو كالسهم ولولا أني نظرت إليك فرأت هذا الطرف الساحر ما وقعت تحت تأثيره الذي أودى بحياتي .
- (٢) كرر ابن الرومي هذا المعنى فقال :

إِذَا عَنَ رَفْدٍ لِمُسْتَرْفِدٍ أَطَالَ الْمَدِيحَ لَهُ الْمَادِحُ
وقدما إِذَا اسْتَبْعَدَ الْمُسْتَقَى أَطَالَ الرِّشَاءَ لَهُ الْمَائِغُ
وقد أخذ السراج الوراق هذا المعنى فقال :

سَامِحٌ بِفَضْلِكَ عَبْدًا مَقْصُودًا فِي النَّثَاءِ
رَأَى قَلِيًّا قَرِيبًا فَلَمْ يَطُلْ فِي الرِّشَاءِ

- ٣٣٩ -

يَقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس بيباقٍ ولا خالِدٍ
فلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنْفَسَ مِنْ مَنَحَرٍ وَاحِدٍ

ومن المعاني المحترعة قول ابن الخياط ، وينسب إلى بشار :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى ولم أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُو الْغِنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

ومن ذلك قول المتنبي في ابن العميد ، وزير ركن الدولة .

مِنْ مُبْلَغِ الْأَعْرَابِ أَتَى بَعْدَهَا جَالَسْتُ رَسْطَالِيَسَ وَالْإِسْكَانَدَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلِيْمُوسَ رَاوِيَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرًا
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ إِلَهُهُ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا
نُسِقُوا كَمَا نُسِقَ الْحَسَابُ مُقَدَّمًا وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا^(١)

وقوله :

حُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لفارقتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا
ومن المعاني التي لم يعرفها المتقدمون إذ لم تكن المثلة بالصلب شائعة في أيامهم شيوعها في
هذه الأيام ، وإن حصلت فإنه لم يحصل أن رثى مصلوب ، قول ابن الأنباري في
ابن بَقِيَّة :

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّالَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ يَضُمَّ عُلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ
أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاذُوا عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
وقول عُمارة اليماني فيه :

(١) قيل إن كلمة فذلك فاعل أتى : أي أتى هذا اللفظ الذي يقال عند الجملة في آخر الحساب .

وَمَدَّ عَلَى صَلِيبِ الصَّابِ مِنْهُ يَمِينًا لَا تَطُولُ إِلَى شِمَالِ
وَنَكَّسَ رَأْسَهُ لَعْنَتَابِ قَلْبٍ دَعَاهُ إِلَى الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ
ومن العجيب أن عُمارَةَ صلب بعد قوله بقاليل ، صلبه الملك الناصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب :

ونحن نكتفى من المعانى المحدثه بما أوردنا فإنها كثيرة لا تكاد تحصى .

أغراض الشعر

لاختلاف الزمن وتقلب الأيام أثر في الأغراض التي يحاول الشعراء القول فيها ،
إذ أن اختلاف نوع المعيشة ، وتبدل وسائل الحياة ، وتغاير علاقات الناس بعضهم
ببعض ، والانتقال إلى العلم بعد الجهل ، والتزام عادات ، واطراح أخرى ، واستحسان
ما كان مستقبلاً ، واستقباح ما كان مستحسناً ، والاعتداد بما كان مغفلاً ، وإغفال
ما كان مرعياً ، كل أولئك أسباب تجعل اتجاه القول في عصر يختلف عنه في عصر
آخر . لذلك كان لازماً أن يصبح للشعر في العصر العباسي أغراض غير أغراضه في
العصور الماضية ، وليس يلزم من ذلك أن يمحي القديم ، وينشأ جديد لاصلة له به ،
بل نجد في العصر الناشئ أغراضاً حدثت ، وليس لها في القديم سبب ترجع إليه ، ونجد
الأغراض القديمة التي بقيت قد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها في العصر
الذي قبله .

فكثير من الأغراض القديمة كالمديح والهجاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر
والسياسة ، والزهد ، والحكمة ، والمثل أكثرها منها ، وافتتنوا في معانيها ، وصبغوها
بصبغة المبالغة حتى انتهت المدح إلى الكفر أو قريب منه ، وصار الهجاء أقذاعاً شائناً
للهاجي قبل المهجو ، وفي الوصف تناولوا كل ما وقعت عليه عيونهم من قصور وبساتين

- ٣٤١ -

وسفن ، ومجالس أنس ، وبرك ماء ، وطير ، وسمك ، حتى لقد تناولوا صغير الأشياء كالوقد ، والشمعة ، والقلم ، والدواة ، وفي السياسة تناولوا العصبية بين المضرية واليمانية ، أو بين العجم والعرب ، واحتجّ للعباسيين قوم ، وانتصر للعلويين آخرون حتى لقد انتهى التعصب إلى الآراء في العلوم ففاضلوا بين نحوي البصرة والكوفة . ومن الأغراض التي جدت ولم يكونوا يعرفونها من قبل الغزل بالمذكر (وأظهر ما فيه وصف العذار) ، والتعصب لبعض أنواع الزهر ، والقول في المصلوبين ، والخوض في الجحون ، وهجاء المغنين ، والالتهام بالأبنة ، والذمّ بالرشوة ، ووصف أنواع المطاعم ، ونظم القصص ، والحكايات التهذيبية ، وضبط قواعد العلوم من فقه وغيره . ومن المعاني القديمة التي شنت عليها الغارة الوقوف بمنازل المحبوبة والبكاء واستبكاء الأصحاب ، ووصف الآثار من نُؤى وأثافي^(١) وأبعاد ، ثم ذكر الناقة ، وحنينها إلى العطن ، ووصف خلقها ، وجميل صبرها ، ووصف الصحراء وما قاسى الشاعر من حرها وعاصف ريحها ، وما صادف من وحشها . ولكنّ قوما قد بقوا إلى حين متمسكين بالتقديم يحنون إليه ، ويرون في التزامه بقاء لرونق العربية ، وحفظا لعمود القصيد . وأول من شنّ الغارة على ذلك أبو نواس ، فإنه جعل وصف الخمر هو مفتتح قصائده ، فكان أول المجدّدين في ذلك واتبعه الشعراء .

ولقد أكثر أبو نواس من التنديد بالطريقة القديمة حتى كان حامل لواء هذا التجديد بقوله :

لَا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ وَأَشْرَبُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

وقوله :

(١) نُؤى : جمع نُؤى (كقفل) ونثى (كبر) ونؤى (كهدى) وهو الحفيرة تجعل حول الحباء يتجمع فيها ماء المطر . الأثافي : جمع أثفية ، وهى الحجر تنصب عليه القدر .

- ٣٤٢ -

صِفَةُ الطَّالُولِ بِلاَغَةِ الْقَدَمِ فاجعل صفاتِكَ لابنة الكَرَمِ^(١)
وقوله :

سَقِيًّا لِفَـيْرِ الْعِلْيَاءِ فَالسَّغْدِ وَغـيْرِ أَطْلَالٍ مَيَّ بِالْجَرْدِ
وقوله :

بَارِعٌ شُغْلَكَ إِنِّي عَنْكَ فِي شُغْلٍ لَا نَاقَتِي فِيكَ لَوْ تَدْرِي وَلَا جَمَلِي
وقوله :

تَبْكِي عَلَى طَلِيلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ؟
لَا جَفَّ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صَبَا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدٍ
وقد أحل أبو نواس ذكر الخمر وإعلان محاسنها محلَّ بكاء الدار ، فجعله مستهلاً
قصائده ، ولكنه لما اشتهر بذلك وبأن فجوره فيه حبسه الرشيد ، فاضطرَّ أن يعود في
سخرية وتنادر إلى ذكر الأطلال ، وهجر النعت للخمر ، فقال :

أَعْرِ شِعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْمَنْزِلَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَمَا أَرْزَى بِهِ نَعْتُكَ الْخُرَا
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطَّالُولِ مُسَلِّطُ تَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرَّ كِبَاوَعْرَا

نماذج من أغراض الشعر

المسح

كان من آثار المدنية أن تمتع الملوك بالسلطان الواسع ، وتأييد ملكهم بالجيوش
الكثيفة ، وامتلات قصورهم بالعلمان والجواري ، وسعى بين أيديهم القواد والوزراء

(١) القدم : يصح اعتبارها جمعا لقديم ويكون أصلها قدم (بضمّين) ثم خففت بتسكين الدال .
ويصح ضبطها بكسر القاف ويكون أصلها القدم (بكسر ففتح) ثم خففت بتسكين الدال أيضا .
ويصح قراءتها بالفاء المفتوحة (القدم) ويكون ذلك من أبي نواس جريا على عادته في ذمه
للعرب وتشنيع أمرهم .

فزادت هيبتهم في النفوس ، وعظم إجلال الناس لهم ، وتأثر الشعراء بهذه المظاهر ، واحتاج الخلفاء ومن على شاكلتهم من القواد والوزراء والأمراء أن تزداد هيبتهم في نفوس العامة ، فأجزلوا العطاء على قدر المبالغة في مدحهم فأكثر الشعراء من ذلك . وكان القدماء قد قنعوا بحاتم مثلاً أعلى في الجود ، وعمر بن معديكرب غاية في الشجاعة ، والبدر مصدراً للجمال الفائق ، فلما شبه أبو تمام المتعصم بهذه الأمثلة عابه بعض جلساء الأمير، وقال: الأمير فوق من ذكرت ، فاضطرَّ أبو تمام أن يعتذر بقوله :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مثلاً شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

ولكنه عرف أن الاقتصار على هذا الحد من الثناء لا يرضى الأمير ولا متعلقيه .

وقد حكى لنا علي بن عبد الرحمن بن المنجم أن محبوبته لم ترض عن تشبيهه بإياها البدر، فقال :

شَبَّهْتُهَا بِالْبَدْرِ فَاسْتَضَحَّكَتْ وَقَابَلَتْ قَوْلِي بِالنُّكْرِ^(١)
وَسَفَّهَتْ قَوْلِي وَقَالَتْ مَتَى سَمِجْتُ حَتَّى صِرْتُ كَالْبَدْرِ
الْبَدْرُ لَا يَرْنُو بَعِينَ كَمَا أَرْنُو وَلَا يَبْسُمُ عَنْ ثَغْرِ
وَلَا يُمِيطُ الْمِرْطَ عَنْ نَاهِدٍ وَلَا يَشُدُّ الْعِقْدَ فِي نَحْرِ
مَنْ قَاسَ بِالْبَدْرِ صِفَاتِي فَلَا زَالَ أَسِيرًا فِي يَدَيِّ هَجْرِي

وقال المتنبي :

هُمْ الْحُسَنُونَ الْكَرَّ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى وَأَحْسَنُ مِنْهُمْ كَرُّهُمْ فِي الْمَكَارِمِ
وَلَوْلَا احْتِقَارُ الْأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ وَلَكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي الْبَهَائِمِ^(٢)

وقال السَّلامِيُّ^(٣) شاعر اليتيمة :

(١) النكر : استفظاع الأمر .

(٢) ويروى شبهتهم بها وهي أظهر . والأولى أشد مبالغة لقلب التشبيه .

(٣) السلامي : نسبة إلى دار السلام (بغداد) .

تُشَبِّهُهُ الْمُدَّاحُ فِي الْبَاسِ وَالنَّدَى بِنِ لَوْرَاهُ كَانَ أَصْغَرَ خَادِمٍ
فِي جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفًا كَعَنْتَرٍ وَأَمْضَى وَفِي خُزَّانِهِ أَلْفُ حَاتِمٍ
فَاتَجَبَّتْ أَذْهَانُ الشُّعْرَاءِ إِلَى الْمُبَالَغَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَسْتَدْعِيهَا عَظْمَةُ الْمَدُوحِ وَانْغِمَاسُهُ
فِي التَّرَفِّ وَنَزْوَعِهِ إِلَى الْغُرُورِ وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ ، فَكَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ افْتِنَانُ وَغُوصُ
عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي تُثِيرُ الْإِعْجَابَ ، وَتَزِيدُ فِي تَعْظِيمِ الْمَدُوحِينَ الَّذِينَ دَلُّوا عَلَى رِضَاهُمْ بِكَثْرَةِ
الْعَطَاءِ وَتَقَرُّبِ مَنْ شَفَى حَاجَةَ نَفْسِهِمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ . بَلْ لَقَدْ طَالَبُوا بِالْإِفْرَاطِ فِي مَدْحِهِمْ ،
فَقَدْ حَكُّوا أَنَّ الشُّعْرَاءَ اجْتَمَعُوا بِيَابِ الْمَعْتَصِمِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ابْنُ الزِّيَّاتِ يَقُولُ لَهُمْ : مَنْ
كَانَ يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ النَّمْرِ فِي الرَّشِيدِ :

خَلِيفَةَ اللَّهِ إِنَّ الْجُودَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تُجْتَمِعُ
(وقد مرت الأبيات ص ٣٠) ، فليدخل وإلا فلينصرف ، فقام محمد بن وهيب
فقال فينا من يقول مثله ، فقال أي معنى ؟ فقلت فقال :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
فَادْخُلْ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، وَحَسَنْتَ جَائِزَتَهُ .

وَمُحَمَّدُ بْنُ وَهَيْبٍ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مَدْحِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ :

تُعْظِمُهُ الْأَوْهَامُ قَبْلَ عِيَانِهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ الطَّرْفُ وَهُوَ مُحَاذِرُ
بِهِ يُجْتَدَى النِّعْمَا وَتُسْتَدْرَكُ الْمَنَى وَتُسْتَكْمَلُ الْحُسْنَى وَتُرْعَى الْأَوَاصِرُ
أَصَاتَ بَنَا دَاعِي نَوَالِكِ مُؤْذِنًا بِجُودِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُحَاوِرُ
قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بِأَسَا وَنَائِلًا فَالْكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِنَفْسِكَ فَخِيرًا لَمَا انْتَسَبْتَ إِلَّا إِلَيْكَ الْمَفَاخِرُ

فَطَرِبَ الْحَسَنُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ : أَحْسَنْتُ وَاللَّهِ وَأَجَلْتُ ، وَلَوْ لَمْ
تَقُلْ فِيَّ وَلَا قُلْتَ بَاقِي دَهْرِكَ غَيْرَ هَذَا لَمَا احْتَجَجْتَ إِلَى الْقَوْلِ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِخَمْسَةِ آلَافٍ
دِينَارٍ ، وَاقْتَطَعَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ فِي كَنَفِهِ أَيَّامَ وَلايَتِهِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ ،
لَا يَتَصَدَّقُ لغيره .

ويبالغ المتنبي في شأن ممدوحيه حتى يستأثر بعطاياهم ، فقد خوطب عضد الدولة في شأنه حين استدعاه ليدحه ، فقيل له : إنك ستعطيه مالو وزعته على ثلاثين شاعراً
لملثوا الأرض بمدأحك فلم يصح إلى قول النصاح :
والمتنبي هذا هو الذي يقول في أبي على الكاتب :

لم تَلَقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارنا إلاَّ بوجه ليس فيه حياة
فبأى ما قدِمَ سَعَيْتَ إلى العلا أدُمُ الهلال لأخمصيكِ حِذاءً^(١)
ولك الزمانُ من الزمانِ وقايةً ولك الحمامُ من الحمامِ فداءً^(٢)
لو لم تكن من ذا الورى اللذمنك هو عَقِمْتَ بمولِدِ نسلها حواءَ^(٣)
ويقول في كافور :

تجاوزَ قدرَ المدحِ حتى كأنه بأحسن ما يُثنى عليه يُعابُ
وغالبه الأعداءُ ثم عَنَوْا له كما غالبت بيضَ السيوفِ رقابُ
وأكثر ما تلقى أبا المسك بذلةً إذا لم يكن إلا الحديدُ ثيابُ
وأوسع ما تلقاه صدرا وخلفه رماءٌ وطعنٌ والأمامُ ضرابُ^(٤)
وأنفذ ما تلقاه حُكماً إذا قضى قضاءً ملوكُ الأرض منه غضابُ

وقد غر قوماً كثرة العطاء ، وهان عليهم أمر الدين فلم يتهيبوا أن يرفعوا ممدوحيه

(١) ما زائدة . والمعنى على التعجب من وصوله إلى درجة في العلا لم يصل إليها غيره ، فهو يقول : بأى قدم وصلت إلى هذه العالی ، ثم دعا له بأن يكون وجه الهلال نعلًا له ،
(٢) المعنى ليكن الزمان وقاية لك من عواديهِ : أى ليهلك هو بها دونك وليت الموت فداء لك من نفسه .
(٣) اللذ لغة في الذى ، والضمير « هو » بالتسكين ضرورة أو لغة ، ومعنى البيت : لو لم تكن بين الناس لعدت حواء عقيماً مع ما ولد من نسلها ، وجعل الناس منه في قوله : « الورى اللذمنك هو » لأنه جاهلهم وشرفهم حتى كأنهم ساقطون دونه .

(٤) الرماء والضراب مصدران بمعنى المفاعلة : أى المراماة والمضاربة . الابتذال : ترك صيانة الشيء والمعنى أنه يكون أوسع صدرا حين تضيق الصدور بإحاطة جيوش الأعداء .

إلى مقامات يسامون فيها الله عز وجل ، فمنهم من دنا من الشرك ، ومنهم من وقع فيه .
قال أبو نواس :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافَكَ النُّطْفَةُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ
وقد قيل إن العتّابي لقي أبا نواس ، فقال له : أما استحييت من الله بقولك :
« وأخفت . . . » ، فقال له أبو نواس : وأنت أما استحييت منه بقولك :

مَا زِلْتُ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَرَّحًا يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حَيْلِي
فَلَمْ تَرَكَ دَائِمًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي
فقال العتّابي : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكل
ناصح جواباً ، وقد أعاد أبو نواس : المعنى في قصيدة أخرى ، فقال :
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ (لَمْ يَكْ صُورَةٌ) لِفَوَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ
وقد بالغ البحترى في المتوكل مبالغة زائدة ، ولكنه لم يحجم حول الإشراف إذ كان معناه
في ناحية أخرى ، فقال :

وَلَوْ أَنَّ مَشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
فحدث البلاذرى قال : كنت من جلساء المستعين بالله وقد قصده الشعراء ، فقال لهم :
لست أقبل إلا من قال مثل قول البحترى (وذكر البيت السابق) قال البلاذرى :
فرجعت إلى بيتي ثم لقيته وقلت له : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال :
هات ، فأنشدته :

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسَتْهُ يَطْنُ لُظَنَ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
وَقَالَ وَقَدْ أُعْطِيَتْهُ وَلَبِسَتْهُ نَعَمْ هَذِهِ أَعْطَاؤُهُ وَمَنَّا كَيْه

فقال له المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به . فرجع فبعث إليه سبعة آلاف
دينار وقال : ادخر هذه للحوادث بعدى ، ولك على الجارية والكفاية ما دمت حيّاً .
ومن الغلوّ الذى إن لم يكن كفراً ، فهو منه قريب قول ابن دريد يخاطب الدهر .

— ٣٤٧ —

مارستَ من لوهوت الأفلاك من جوانب الجؤ عليه ما شكا
 قيل إنه لادعائه الجبروت في هذا البيت ابتلاه الله بمرض كان يخاف فيه من الذباب
 أن يقع عليه ، ومن قوله وهو كفر صراح :

ولو حمى المقدار منه مُهَجَّةً لرامها أو يستببح ما سمى
 تغدو المنايا طائعاتٍ أمره ترضى الذى يرضى وتأتى ما أبى
 و قول المتنبي :

إن كان مثلك كان أوهوكائن فبرئت حينئذ من الإسلام
 وقال المتنبي :

يترشَّن من في رشفات هُنَّ فيه أخلَى من التوحيد
 وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له بأن التوحيد هنا نوع من التمر ، وبعض أصلح
 البيت ، فقال :

هُنَّ فيه حلاوة التوحيد
 وذكروا أن عضد الدولة لما قال :

مُبْرِزَاتِ السَّكَّاسِ مِنْ مَطْلَعِهَا سَاقِيَاتِ الرَّاحِ مِنْ فَاقِ الْبَشَرِ
 لم يفالح بعد هذا القول وأخذته علة الصرع ودخل في غمرات الموت فكان لا ينطق إلا
 بقوله تعالى : « مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ » . والمتساهلون في هذا
 النوع كثيرون ، كآبي نواس ، وابن هاني الأندلسي ، والمتنبي ، والمعري وغيرهم من
 المتأخرين ، كابن النبيه ومن جرى مجراه .

الهجاء

' يمثل الهجاء في هذا العصر ما ثمره المدنية من خبث النفوس، وتبعية العثرات، وسهولة الادعاء، والتقول على الناس (لضعف الوازع الديني). كذلك كان من أثر المدنية أن تعددت المثالب، وكثر الفجور، فكان ما تورط الناس فيه من المفاصد مادة للهجاء. فعيبوا باللواط والأبنة والرشوة وامتناع الوفاء. كما كان من آثار المدنية أن ارتقت الأذواق، فاستغذرت بعض المناظر، وهيجت بعض العادات. فذموا اللحي، واستبشعوا طولها، وهزئوا بالخلقة المشوهة، والأنوف الكبيرة، واستهجنوا بعض أصوات المغنين؛ مما يدل على أن الشعور قد دق، والإحساس قد رقى.

ولم يكن كل الباعث على الهجاء تلك الأحقاد التي تغلى بها الصدور، والعصبيات التي تقتل في النفس طبيعة الإنصاف، وفضيلة الرحمة كما كان ذلك في العصور الماضية. بل كان مرجع أغلبه إلى السخرية والتهكم وحب التنادر، والغلو في المجون، وإظهار البراعة في التقييح وتوليد المعاني فيه، كما هو الشأن اليوم فيمن توفرت لهم أسباب الراحة وخلت أيديهم من الأعمال، وأفكارهم من البلبال فهم يزجون وقتهم بالتنادر على ذى خلقة عجيبة. أوعادة غريبة، وربما لم يجدوا حقيقة يدعمون بها دعواهم فبنوها على الخيال الكاذب.

وقد يبنى الهجاء على سبب ليس له في قرارة النفس غور، ولكنه ناشئ من حرمان الشاعر من العطاء، وذلك حين كثر الشعراء وقلت رغبة الممدوحين في الجود فترتب على ذلك أن الشاعر يمدح المرء طمعا في ماله، ثم يخيب أمله فيذمه، ثم يعود إلى الرضا حين يجد له أملا فيه، وهكذا أصبحت دواوين الشعراء ميدانا لمناقضات تدل على انحطاط أنفس الشعراء، وأنهم لا يتبعون في ذمهم أو مدحهم رأيا يتعصبون

له ، أو حقيقة يدافعون عنها ، فمدحهم وذمهم كله كذب ، وهم أعلم الناس بكذب مزاعمهم . ولم يكن للأخلاق رقيب يحميها ، ولا لهؤلاء الذين اتخذهم الناس هزأة من يدفع عنهم تلك العاديات ، فانطلق الهاجون يقولون بالحق وبالباطل ، ويبالغون في الصغير حتى يجعلوه جسماً ، والوهم حتى يصيره حقيقة . ولقد كانت هذه الإباحة شأن الدولة في كل شيء يتعلق بالأدب أو المعتقد ما لم يمس الخلافة أو سلطان ذوى السلطان .

ذكروا أن دُعْبَلًا هجاً للمأمون بقوله :

أَيَسُوْمُنِي الْمَأْمُونُ خُطَّةً عَاجِزٍ	أَوْ مَا رَأَى بِالْأَمْسِ رَأْسَ مُحَمَّدٍ
يُوفِي عَلَى هَامِ الْخَلَائِفِ مِثْلَ مَا	تُوفِي الْجِبَالُ عَلَى رُءُوسِ الْقُرْدِ (١)
وَيَحِلُّ فِي أَكْنَافِ كُلِّ مُنْمَعٍ	حَتَّى يُذَلَّلَ شَاهِقًا لَمْ يُصْعَدِ
إِنَّ السُّتْرَاتِ مُسَهَّدٌ طُلَّابُهَا	فَأَكْفُ لُعَابِكَ عَنْ لُعَابِ الْأَسْوَدِ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُبُوهُمْ	قَتَلْتَ أَحَاكَ وَشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ (٢)
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ حُمُولِهِ	وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

فلما بلغ المأمون قوله : ما زاد على أن قال : قاتل الله دُعْبَلًا متى كنت خاملاً ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، و بَدَّرَهَا غُذِيَّت ، وفي مَهْدِهَا رُبِّيْتُ .



قال ابن الرومي حين خاب أمه في جائرة المدح :

إِنْ كُنْتُ مِنْ جَهْلٍ حَقٍّ غَيْرَ مُعْتَذِرٍ أَوْ كُنْتُ عَنْ رَدِّ مَدْحِي غَيْرَ مُنْقَلِبٍ (٣)

فَأَعْطَنِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كَتَبْتَ فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كَفَّارَةُ الْكَذِبِ

وقال في نفس المعنى أَبُو الْمُظَفَّرِ الْأَبْيُورْدِيُّ :

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض .

(٢) يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعي ، وهو من قبيلة دعلج .

(٣) سبق أن روينا الأبيات ، وفيها « متنب » بدل « منقلب » وها روايتان .

ومدائحٍ تحكى الرياضَ أضعفها في باخلٍ أعتيت به الأحساب^(١)
فإذا تنأشدها الرثوة وأبصرُوا السَّمْدُوحَ قالوا ساحرٌ كذابٌ
وقال بشار بن بُردٍ في بحيل :

خليلى من كعبٍ أعيناً أحاكماً على دهره إنَّ الكريمَ معينٌ
ولا تبخلًا بجلِّ ابنِ قرعةٍ إنَّه مخافةً أن يُرجى نداءُ حزينٍ
كان عبيدَ الله لم يلقَ ماجداً ولم يدر أن المكرُماتِ تكونُ
إذا جئته في حاجةٍ سدَّ بابَه ولم تلقَه إلا وأنت كمينٌ
فقل لأبى يحيى متى تبُلِّغُ المنى وفى كلِّ معروفٍ عليك يمينٌ
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة :

فَضُغْ ما كنتَ حليّتَ به سيفَكَ خَلْجَالاً
فَمَا تَصْنَعُ بالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَالاً

وقال البحتري يهجو الخثعمي بكبر الأنف :

رَأَيْتُ الخثعمي يُقِلُّ أنفًا يَضِيقُ بعَرْضِهِ البلدُ الفَصَاءُ
سما صُعداً فقصر كل سامٍ لهيبته وغصَّ به الهـواءُ^(٢)
هو الجبل الذى لولا ذراه إذا وقعت على الأرض السماء

وقال ابن الرومي في صُلعة أبي حفصٍ الوراق :

يا صُلعة لأبى حفصٍ مُمرِّدةً كأنَّ ساحتها مرآةٌ فُولاذ
تَرَنُّنٌ تَحْتَ الأَكْفِ الواقِماتِ بها حتى تَرَنَّ بها أ كُنافٌ بَغْدَاذِ^(٣)

وقال يهجو كُنيزةَ المغنية :

(١) أعيا : تعب .

(٢) غص (كضرب وفرح والمضارع بالفتح فقط) : امتلأ .

(٣) بغداذ (بالذال) لغة في بغداد .

شَاهَدْتُ فِي بَعْضِ مَا شَاهَدْتُ مُسَمِّعَةً
تَظَالُّ تَدْقُ عَلَى مَنْ ضَمَّ مَجْلِسُهَا
لَهَا غِنَاءُ يُثِيبُ اللَّهُ سَامِعُهُ
ظَلَلْتُ أَشْرَبُ بِالْأَرْطَالِ لَا طَرَبًا
وَقَالَ يَهْجُو جَعْفَةَ بِالْقُبْحِ :

رَأَيْتُ جَعْفَةَ يَخْشَى النَّاسُ كُلَّهُمْ
تَخَالُهُ أَبَدًا مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِهِ
كَأَنَّهُ ضِفْدَعٌ فِي لَجَّةٍ هَرَمٍ
لَوْ كَانَ لِلَّهِ فِي تَخْلِيدِنَا قَدْرٌ
وَقَالَ يَهْجُو مِنْ يَسْمَى عَمْرًا :

وَجْهُكَ يَا عَمْرُو فِيهِ طَوْلُ
وَالْكَلْبُ وَافٍ وَفِيكَ غَدْرُ
وَقَدْ يُحَايِي عَنِ الْمَوَاشِي
وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ سُوءِ
وُجُوهُهُمْ لِلْوَرَى عِظَاتُ
مُسْتَفْعِلُنْ فَاعْلَنْ فَعُولُنْ
بَيْتُ كَعْنَاكَ لَيْسَ فِيهِ
وَفِي وَجْهِهِ الْكَلَابِ طَوْلُ
فَفِيكَ عَنْ قَدْرِهِ سُئُولُ
وَمَا تُحَايِي وَلَا تَصُولُ
قِصَّتُهُمْ قِصَّةُ تَطُولُ
لَكِنَّ أَقْضَاءَهُمْ طُبُولُ
مُسْتَفْعِلُنْ فَاعْلَنْ فَعُولُ
مَعْنَى سِوَى أَنَّهُ فَضُولُ

وَقَالَ فِي عَجُوزِ تَنْصَابِي :

عَجُوزُ تَنْصَابِي وَهِيَ بَكْرُ بَزْعَمِهَا
تَرَى شَعْرَهَا تَحْتَ الْقِنَاعِ كَأَنَّهُ
وَقَالَ ابْنُ أَبِي يَهْجُو ضَبَّةَ بْنِ يَزِيدِ الْعَتَبِيِّ :

يا أطيّبَ الناسِ نفسًا وألينَ الناسِ رُكْبَةً
وأخبثَ الناسِ أصلاً في أخبثِ الأرضِ تَرْبَةً
إن أوحشتك للمعالى فإنها دارُ غُرْبَةٍ
أو آنستك الخمازى فإنها لك نِسْبَةٍ

وقال يهجو كافورا :

أريك الرضا لو أخفتِ النفسُ خافيا وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا^(١)
أمينًا وإخلافاً وغدراً وخسّةً وجُبْنًا ! أشخصاً لحت لي أم مخازيا
تظنُّ ابتساماتي رجاءً وغبطةً وما أنا إلا ضاحكٌ من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعلِ إننى رأيتك ذا نعلٍ إذا كنتَ حافيا
وإنك لا تدري ألونك أسودُّ من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويذكرني تخييطُ كعبك شقّه ومشيّك في ثوبٍ من الزيت عاريا^(٢)
ولولا فضولُ الناسِ جئتُك مادحاً بما كنتُ في نفسى به لك هاجيا^(٣)
فأصبحتَ مسروراً بما أنا مُنشدُّ وإن كان بالإشاد هجوُك غاليا
فإن كنتَ لا خيرًا أفدتَ فإننى أفدتُ بلحظي مشفريّك الملاهيا
ومثلُك يؤتّى من بلادٍ بعيدةٍ ليضححك ربّاتِ الحدادِ البواكيا

(١) لست راضيا عن نفسى لحطّى بقصدك . ولا عنك لتقصيرك في حقى .

(٢) يشير إلى أن كافورا كان غلام زيات فكان يحمل الزيت ويمشى عاريا ، وقد تلمّخ بالزيت . فكأنه يلبس ثوبا منه .

(٣) الفضول : تعرض الناس لما لا يعينهم . يقول : إنك لا تفهم الفرق بين المدح والهجاء ، ولولا أنى أخشى أن يدلك الناس بما عندهم من فضول . على أن ما أنشدك على أنه مدح هو في الواقع هجاء لفعالت .

شعر السياسة

خلف العصر الأموي كثيراً من الخلاف والعصبيات ، فقد أحدث الأمويون
عامدين عصبيات اليمانية والمضرية بما أرتثوا بينهم من نار الحقد ، وأثاروا من أسباب
المنافسة ، فبقيت هذه الأحقاد إلى العصر العباسي خصوصاً في أوله ، وقد أكثر من
القول فيها مسلم بن الوليد ، وأبونواس من اليمانية ، والحكم بن قنبر من المضرية ،
وكان يهجو الأنصار .

وكذلك كان احتقار الأمويين للموالى قد أحدث في نفوس هؤلاء ضعينة عليهم ،
فتحرّكوا للدفاع عن أنفسهم بذكر مفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن قليلاً
منهم الذي اجتراً على إظهار القول في هذا ، أيام بني أمية . فلما قامت دولة بني العباس ،
وهي من الإباحة في إبداء الرأي ، والاعتداد بالموالى بحيث عرفت ، كثر القول في ذلك
كما في شعر بشّار وديك الجثن والخريمي والمتوكلي ، (وكان من ندماء المتوكل) .

فأما الشعر الذي كان في صميم السياسة فهو الذي كان يقوله شيعة بني العباس أمثال
مروان بن أبي حفصة ، وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد يحتجون لاستحقاقهم الخلافة ،
وأنهم أولى بها من بني علي ، وبكسبهم شيعة العلويين أمثال السيد الحميري ، ودعبل
الخزاعي ، ومسلم بن الوليد ، ومحمد بن وهيب ، فإنهم يردّون عليهم في ذلك ويهجو
بعضهم ملوك بني العباس كما فعل دعبل .



دخل بشّار على المهدي ، فقال له : فيمن تعتمد يا بشّار ؟ فقال : أما على اللسان

والرأى فعرى ، وأما على الأصل فعجمى كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :
 وَنُبِّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يَقُولُونَ مِنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ
 أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ جَاهِلًا لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ
 نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِرَ فُرُوعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ

وقال مسلم بن الوليد يفاخر قريشاً :

فَاخْرَجْنَا بِمَا بَسَطْنَا لَهَا النَّخْرَ قُرَيْشُ وَفَخَّرَهَا مُسْتَعَارُ^(١)
 ذَكَرْتُ عِزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَسْتَجِيرَنَا مُسْتَجَارُ
 إِنَّمَا كَانَ عِزُّهَا فِي جِبَالٍ تَرْتِمِيهَا كَمَا تَرْتَقَى الْوَبَارُ^(٢)
 أَيُّهَا الْفَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعِزُّ زُ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ وَالْفَخَارُ
 أَخْبَرُونَا عَنِ الْأَعَزِّ أَلَمْ نَصُورْ حَتَّى اعْتَلَى أَمْرُ الْأَنْصَارِ
 فَلَنَا الْعِزُّ قَبْلَ عِزِّ قُرَيْشٍ وَقُرَيْشُ تِلْكَ الدُّهُورِ تِجَارُ
 وَقَالَ مِرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ يَخَاطِبُ آلَ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لَهُمْ :

حَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمُعَشْرِ عَادَاتِهِمْ حَطَمُ الْمَنَّا كَيْبَ يَوْمَ كُلِّ زِحَامٍ
 وَارْضَوْا بِمَا قَسَمَ إِلَهُ لَكُمْ بِهِ وَدَعُوا وَرَاثَةَ كُلِّ أَصِيدٍ سَامِي^(٣)
 أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ^(٤)

ومثله قول الطاهر بن علي بن عبد الله بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس :

لَوْ كَانَ جَدُّكُمْ هُنَاكَ وَجَدُّنَا فَتَنَازَعَا فِيهِ لَوَقَّتْ خِصَامُ
 كَانَ الثَّرَاثُ لِحَدِّنَا مِنْ دُونِهِ فَنُوحُوا بِالْقُرْبَى وَالْإِسْلَامِ
 حَقُّ الْبَنَاتِ فَرِيضَةٌ مَعْلُومَةٌ وَالْعَمُّ أُولَى مِنْ بَنَى الْأَعْمَامِ

(١) بما بسطنا لها الفخر : أى بسطنا لها الفخر . أى بتكليفها من أسبابه وذلك بنصرتها .

(٢) الوبار (بكسر الواو) : جمع وبرة (بالفتح) وهى دويبة كالسنور .

(٣) الأصيد : الملك ، وكل رافع رأسه كبرا .

(٤) أى كيف يأخذ بنو البنات حق الأعمام فى الوراثة ؟

كان الرشيد قد سمع غناء في قول دعبل :

أَيْنَ الشَّبَابُ وَأَيَّةُ سَلَا لَا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلَّ بَلْ هَلَاكَ؟
لَا تَعَجَّبِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَ
يَالَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَ يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكَ
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا قَلْبِي وَطَرَفِي فِي دَمِي اشْتَرَا

فسأل عن قائلها ، فقليل له : دعبل ، غلام من خزاعة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وخلعة من ثيابه ، ومركب من مراكبه ، وجهاز له ذلك مع خادم من خدمه إلى خزاعة فأعطاه جائزة أمير المؤمنين ، وأشار عليه بالمسير إليه فحضر ، ولما سلم أمره بالجلوس فجلس ، فاستنشد الشعر ، فكان الرشيد أول من حرّضه على قول الشعر ، ثم لما بلغه موت الرشيد كافأه أقبح مكافأة ، فقال فيه من قصيدة يمدح أهل البيت ويهجوهم :

وَلَيْسَ حَتَّى مِنَ الْأَحْيَاءِ نَفَعَهُمْ مِنْ ذِي يَمَانٍ وَلَا بَكْرٍ وَلَا مُضَرَ (١)
إِلَّا وَهُمْ شُرَكَاءُ فِي دِمَائِهِمْ كَمَا تَشَارَكَ أَيْسَارُهُ عَلَى جُرُرِ (٢)
قَتْلٍ وَأَسْرٍ وَتَحْرِيقٍ وَمَنْهَبَةٍ فَعِلَ الْغَزَاةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ (٣)
أَرَى أُمِّيَّةً مَعْدُورِينَ إِنْ قَتَلُوا وَلَا أَرَى لِبَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ عُذْرٍ
إِرْبَعَ بَطُوسٍ عَلَى الْقَهْرَانِ كَيْ إِذَا مَا كُنْتَ تَرَبُّعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ (٤)
قَبْرَانٍ فِي طُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبَرِ (٥)

(١) يقال : ذو زيد . أى صاحب هذا الاسم . فذو يمان : أى الذى يقال له يمان ، ويمان كيمنى نسبة إلى اليمان .

(٢) الأيسار . جمع يسر ، وهم لاعبو الميسر . الجزر : جمع جزور ، وهى الناقة التى يقامرون عليها ، ثم يجزونها ويوزعون لهما على الفقراء .

(٣) الجزر : جيل من الناس خزر العيون (ضيقوها) .

(٤) اربع : قف وامكث .

(٥) يعنى قبر الرشيد ، وقبر موسى الكاظم .

ما يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرٍ
هِيَهَاتَ كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ فَخُذْ مَا شِئْتَ أَوْ فَذَرِ

الغزل بالمدح

قد عرفت أن من أثر اختلاط الفرس بالعرب شيوع هذه العادة بينهم ، وكان أول من اجترأ على القول فيها حماد مجرّد ، ووالبة بن الحُبَاب ، ثم أبو نُوَاس ، وحسين ابن الصَّحَّاح ، ثم توالى من الشعراء القول في ذلك حتى غلب الغزل بالمدح على كل قائل ، وصار المتغزل يعيد الضمير في غزله مذكراً ، ولو كانت الصفات للأنثى .

وقد تبع القول في هذا أن وصفوا العذار وافتنوا فيه ، وهو معنى كما قلنا لم يعرفه السابقون لأنهم لم يكونوا عرفوا هذا النوع من الغزل ، كما كان من آثار شيوع هذه العادة أن هجى الناس بالأبنة واللوطية ، فنفرع عن هذه الرذيلة مساوئ كثيرة كانت في الأدب العربى سبباً لقائلها ، وقذى في عين قارئها ، وصمماً في أذن سامعها ، وبعد أن كان الغزل القديم إلا أقله عفيفاً يدلّ على طهارة النفس ، ونبل المقصد ، والتسبيح بحمد الله في خلقته الجمال ، صار على أيام العباسيين عهراً ودعارة ، حتى نرى أكثر المؤلفين إذا تناولوا القول فيه أمسكوا عن الاسترسال خشية أن تنسى وجوههم خجلاً مما يسطرون في الأوراق ، وما يحكون عن غيرهم ؛ من وصف شنيع ، أو حكاية لفعل قبيح ، فكيف بقائل الكلام إن كان صادقاً فيما يروى مخبراً عن واقع جرى .

وليس بعيداً أن تكون الأخلاق قد انحطت إلى هذا الدرك ، فكل الشعوب تنتهى بها المدنية ، وإعطاء النفس رغباتها إلى مثل هذا الحد ، ولكن تسجيل هذه الحازى في الشعر دليل على الإفلات من قيود الأدب حتى يتبجح الجرم بما جنى ، فلا ينثنى عن تسجيل تهمته بشهادة نفسه .

ونحن ناقلون إليك ما يدلُّ على اتجاههم في هذا النوع ، وإن كنا كذلك
لا نستطيع أن ننقل كلَّ ما وقفنا عليه . قال أبو نواس :

يا بدعةً في مثالٍ يَجُوزُ حَدَّ الصِّفَاتِ
الوجه بدرُّ تمام بعين ظبي فـلـاة
والقدَّ قدَّ غلام والغنَّج غنَّج فتاة^(١)
مذكر حين يبدو مؤنث الخـلوات
زها على بضدغٍ مزرَفَنِ الحلقات^(٢)
من فوق خدٍّ أسيلٍ يضيء في الظلمات^(٣)

وقال أيضاً :

جالَ ماء الشباب في خديكا وتلالا البهاء في عارضيك
ورمى طَرَفُكَ الْكَحْلَ بالسحر فؤادى فصار رهنا لديك
أنا مُسْتَهْتَرٌ بِجَبِكَ صَبَّ لست أشكو هواك إلا إليك^(٤)
يا بديع الجمال والحسن والدال حياتي وميتي في يديكا
بأبي أنت لو بليت بوجدى لم يهن ما لقيت منك عليك
وقال الحسن بن الضحاك في غلام يستحم :

وا بأبي أبيض في صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن دُرَّة تلوح فيها عُكَنُ بَصَّة
غصن تبادى يتثنى على مأْكَمَةِ مُثَقَلَةِ النَّهْضِ^(٥)

(١) الغنَّج : ملاحاة العنين ، أو دل المرأة وعزلها .

(٢) الزرفين : حلقة الباب أو عام ، وقد زرفن صدغيه : أى لوى شعرهما وحلقه .

(٣) الحد الأسيل . المستطين المسترسل .

(٤) المستهتر بالشئ (بصيغة المفعول) : المولع به لا يبالي ما قيل فيه .

(٥) المأكمة : اللحمية على رأس الورك ، وهما مأْكَمَتان في الإناث .

كأنما الرّمش على خده طلّ على تفاحة غضه^(١)
صفاته فأنسـة كلها فبعضه يذكّرني بعضه

وقال فضل الرّفاشي :

وشاطر فأتك الشّائل قدّ خالط منه الجون تخنيثا
نراه طوراً مذكراً فإذا عاقر راحاً رأيت تأنيثا
أثغ إن قلت يا فديتك قل موسى يقلّ من رطوبة موثي^(٢)
مازال حتى الصّباح مُعتنق مطارحي في الدّجى الأحاديثا

وقال السّراج الورّاق في العذار :

وفاتك يجرّح سيف لحظه مُجرّداً من جفنه ومُعَمّدا
خاف على خديّه من لحاظه فبات في عذاره مزرّدا^(٣)

ومن استعمال لفظ المذكر في المؤنث قول أبي نّوّاس :

يا قرا أبصرت في مآتم يندب شجّوا بين أتراب
يبكي فيذكرى الدرّ من نرجس ويكلم الورد بئسّاب^(٤)
أبرزه المآتم لي كارها برغم دآيات وحجّاب^(٥)
لا تبك ميتاً حلّ في قبره وابك قتيلاً لك بالباب

(١) الرمش : الدمع القليل .

(٢) اللثغة في النطق : تحوّل السين ثاء أو الراء غينا ، أو مطلق تغيير حرف بحرف .

(٣) الزرد : الدرّ . يريد أن العذار على بشرته كالزرد يغطى الجسم .

(٤) أذرت العين الدمع : أسقطته .

(٥) في القاموس المحيط : المآتم كل مجتمع في فرح أو حزن أو خاص بالنساء أو الشواب منهن ، وفي الصّحاح : المآتم عند العرب النساء يجتمعن في الحبر والشر . قال أبو العطاء السندی :

عشية قام النّائحات وشققت جيوب بأيدي مآتم وخدود

أي بأيدي نساء ، وفي المصباح أتمّ بالمكان : أقام ، ومنه المآتم للنساء يجتمعن في خير أو شر تسمية للحال باسم المحل .

نماذج من بقیة الاغراض

من الوصف قول الأَرَجَانِيّ في شِمْعة ، وقد استوفى كل ما يقال فيها ، ولم يكد يخلو
لمن بعده فيها فضلا :

نَمَتْ بِأَسْرَارٍ لَيْلٍ كَانَ يُخْفِيهَا	وَأَطْلَعَتْ قَلْبَهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا
سَفِيهَةٌ لَمْ يَزَلْ طَوْلُ اللِّسَانِ لَهَا	فِي الْحَيِّ يَحْنِي عَلَيْهَا حَذْفَ هَادِيهَا ^(١)
غَرِيقَةٌ بِدَمْسٍ وَهِيَ تَحْرِقُهَا	أَنْفَاسُهَا بِدَوَامٍ مِنْ تَلَطُّبِهَا
قَدْ أَثْمَرَتْ وَرْدَةً حَمَاءَ طَالَعَةٍ	تَجْنِي عَلَى الْكَفِّ إِنْ أَهْوَيْتَ تَجْنِيهَا
وَرَدُّ تَشَاكُّهُ بِهَ الْأَيْدَى إِذَا قَطَفَتْ	وَمَا عَلَى غُصْنِهَا شَوْكٌ يُوقِيهَا
وَيَلُمُّهَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُسْعِدَةً	إِذَا الْمُهْمُومُ دَعَتْ قَلْبِي دَوَاعِيهَا

وهي طويلة ، ولأبي الفَرَجِ البَیَّهَاءِ في وصف كانون :

وَذِي أَرْبَعٍ لَا يُطِيقُ النَّهْوَضَ	وَلَا يَأْلَفُ السَّيْرَ فَيَمْنُ سَرَى
تَحْمَلُهُ سَبَجًا أَسْوَدًا	فَيَجْعَلُهُ ذَهَبًا أَحْمَرَ ^(٢)

ومثله قوله :

وَالْتَهَبَتْ نَارُنَا فَمَنْظَرُهَا	يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبٍ
إِذَا رَمَتْ بِالْشَّرَارِ وَاضْطَرَبَتْ	عَلَى ذُرَاهَا مَطَارِفُ اللَّهَبِ
رَأَيْتُ يَاقُوتَةً مُشْبِكَةً	تَطِيرُ مِنْهَا قُرَاضَةُ الذَّهَبِ

وقال السَّريُّ الرَّقَّاءُ يصف الطبيعة :

وَعِمْ مَرْهَفَاتُ الْبَرْقِ فِيهِ	عَوَارٍ وَالرِّيَاضُ بِهَا كَوَاسِي
------------------------------------	-------------------------------------

(١) الهادي : العنق .

(٢) السبج : الشيء الأسود .

- ٣٦٠ -

ولاح لنا الهلال كَشَطَرِ طَوْقٍ عَلَى لَبَّاتِ زَرْقَاءِ اللِّبَاسِ

وقال ابن المعتز يصف سمحابة :

وسارية لا تَمَلُّ البُكَاءَ جَرَى دَمْعُهَا فِي خُدُودِ الثَّرَى
سَرَتْ تَقْدَحُ الصَّبْحَ فِي لِبَاسِهَا يَبْرُقُ كَهْنَدِيَّةٍ تَنْتَضِي
فلما دنت جلجلت في السما رَعْدًا أَجَشَّ كَجَرَشِ الرِّحَى
كَأَنَّ عَلَيْهَا ارْتِدَاءَ الْيَفَاعِ بِأَنْوَارِهَا وَاعْتِجَارِ الرُّبَا^(١)
فَمَا زَالَ مَدْمَعُهَا بِأَكْيَا عَلَى الثَّرْبِ حَتَّى اكْتَسَى مَا كُتِسَى^(٢)
فَأَضْحَتْ سَوَاءً وَجْوهُ الْبِلَادِ وَجُنَّ النَّبَاتُ بِهَا وَالتَّقَى^(٣)

ولابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد :

للنرجس الفضل المبين لأنه زَهْرٌ وَنَوَّرَ وَهُوَ نَبْتُ وَاحِدٍ^(٤)
ينهى النديم عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع مساعد
خبجت خدود الورد من تفضيله خججلا توردها عليه شاهد
هذى النجوم هي التي رَبَّتَهُمَا بِحِمَا السَّحَابِ كَمَا يُرَبِّي الْوَالِدُ
فتأمل الأثنين مَنْ أَدْنَاهَا شَبَهَا بِوَالِدِهِ فَذَلِكَ الْمَاجِدُ
أَيْنَ الْخُدُودِ مِنَ الْعَيُونِ نَفَاسَةٌ وَرِيَاسَةٌ لَوْلَا الْقِيَاسُ الْفَاسِدُ

وقال أحمد بن يونس الكاتب يفضل الورد :

يَا مَنْ يُشَبِّهُ نَرْجِسًا بِنَوَاطِرِ دُعُجٍّ تَنَبَّهْ إِنَّ فَهْمَكَ رَاقِدٌ^(٥)
إِنَّ الْقِيَاسَ (لِمَنْ يَصِحُّ قِيَاسُهُ) بَيْنَ الْعَيُونِ وَبَيْنَهُ مَتَبَاعِدُ

(١) الاعتجار : التعم (لف العمامة) . أنوار : جمع نور (بالضم) وهو الضوء .

(٢) الترب : لغة في التراب .

(٣) جنّ النبات : طال وزاد نموه ، ومن معانيه أيضا : أخرج زهره ونوره .

(٤) الفرق بين الزهر والنور : أن الزهر هو الأصفر من نور النبات . والنور هو الأبيض منه .

(٥) الدعج : جمع دجاء ، وهي العين الشديدة السواد مع السعة ، وبابه طرب .

والورد أشبه بالحدود حكايةً فعلام تَجِدُ فضله يا جاحد
ملك قصير عمره مُسْتَأْهِل نَحْنُ لوده لو أن حَيًّا خالد
وخليفةٌ إن غاب ناب بنفحه وبنفحه عنه مقيم راكد
إن كنت تشكر ما ذكرنا بعد ما وضحت عليه دلائله وشواهد
فانظر إلى المُصَفِّرَ لونًا منهما وافطن فما يصفر إلا الحاسد^(١)
وقال أبو نواس يصف مجلس الشراب وآنيته^(٢) :

ودارٍ ندأى عطّلوها وأدّجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مَسَاحِبُ من جَرَّ الزّقاقِ على الثرى وأصغاثُ رِيحانٍ جنىً ويابسُ
حبست بها صحبي فجددتُ عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس
ولم أدْرِ مَنْ هُمُ غَيْرَ ما شهدتُ به بشرقٍ سَابَطَ الدَّيَّارُ البسابسُ
أقنابها يومًا ويومين بعد—هـ ويوما له يوم الترحل خامس
تُدارُ علينا الرَّاحُ في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهًا تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوهم وللماء ما دارت عليه القلائس
وقال يصف اللعب بالصولجان والكرة :
جنٌ على جنٍّ وإن كانوا بشرً
كأنما خيطوا عليها بالابر

- (١) فطن من باب قعد وفرح وكرم .
(٢) قالوا خرج أبو نواس مع بعض الناس إلى المدائن فرأى بسابط آثارا تدل على اجتماع كان لقوم فقال له أصحابه صف لنا هؤلاء وبقيائهم فقال غير متمكث ، هذه الأبيات . قال الجاحظ : نظرنا في شعر القدماء والمحدثين فوجدنا المعاني تقلت ورأينا بعضا يسرق من بعض إلا قول عنتره :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترم
هزجا يحك ذراعه بنراعه فعل المكب على الزناد الأجدم

وقول أبي نواس :

قرارتها كسرى

أَوْ مُسَمَّرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمَرَ^(١) بَيْنَ رِيَاضٍ مِثْلِ مَوْشَى الْحَبَرِ^(٢)
 مَكَالَاتٍ بِيَهَارٍ وَزَهَرٍ^(٣) فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ قُرٍ وَخَصَرٍ^(٤)
 إِذَا ذَرَقَرْنُ الشَّمْسُ فِي غَيْبٍ مَطَرٍ^(٥) صَوَالِجَا يَصُوبُوا إِلَيْهَا مِنْ نَظَرٍ^(٦)
 مَحْنِيَّةً أَطْرَافُهَا فِيهَا زَوَرٍ^(٧) قَدَّرَهَا شَابِرُهَا لِمَا شَاسِرٍ^(٨)
 فَلَمْ يَعْبُ طَوْلٌ وَلَا شَانُ قِصَرٍ^(٩) وَقَدْ تَنَادَوْا فَتَرَامَوْا بِالْأَسَرِ^(١٠)
 مُدْمَجَةُ الْأَرْكَانِ مُدْمَاةُ الطَّرَرِ^(١١) شَدَّدَ صَفْقَتِي مَتْنَهَا حَشْوُ الشَّعَرِ^(١٢)
 أَحْكَمَهَا صَانِعُهَا لِمَا فَطَرَ^(١٣) أَلْطَفَ بِالْإِشْفَاءِ خَرَزًا إِذَا دَسَرَ^(١٤)
 فَلَيْسَ لِلْإِشْفَاءِ بِالْجِلْدِ أَثَرُ^(١٥) يُحَسِّنُ تَفَاحًا تَدَلَّى مِنْ شَجَرٍ^(١٦)
 وَقَالَ يَصِفُ الْحَجَرَ (وَهِيَ مِنْ غُرَرِهِ) :

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ^(١٧) نَمَتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَتَمِّ^(١٨)
 فَاسْتَقَى الْبِكْرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ^(١٩) بِخِمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحِمِ^(٢٠)
 نَمَتَ أَنْصَاتِ الشَّبَابِ لَهَا^(٢١) بَعْدَ مَا جَازَتْ مَدَى الْهَرَمِ^(٢٢)

- (١) يقال وثى الثوب ووشاه فالثوب موشى وموشى أو وضع عليه ما يجمله من غير لونه . الحبر .
 (كعنب) : جمع حبرة (كعنبه) وهي ثوب يمان .
 (٢) القر : البرد . الحصر : البرد يجده المرء في أطرافه .
 (٣) قرن الشمس : أعلاها وأول ما يبدو منها . صوالجا : مفعول لانتدبوا . يقال ندبه للأمر إذا طلبه فانتدب : أى أجاب فكان الوجه أن يقول فندبوا . فيكون أبو نواس أول من أشاع هذا الخطأ إن لم يكن قد سبقه غيره إليه .
 (٤) الأكر : جمع أكرة ، وهي السكره .
 (٥) مدماة : شديدة الحرارة . الطرر : جمع طرة وهي شبه علمين يخاطان على طرف الثوب . الصفق الجانب
 (٦) فطر : شق . الإشفى : مخرز يشق به الجلد . وقد مد هنا وفي البيت بعده للشعر . الدسر : الطعن والمراد هنا الثقب بالإشفى .
 (٧) حكم : مخلاف من البين ينسب إليه أبو نواس وقد ذكره في شعره في غير هذا الموضع قال :
 وينبى إلى حكم دعوة وما إن له نسب من حكم
 (٨) المراد بخمار الحجر : ما يعلوها من الزبد .
 (٩) انصات : أجاب .

فَهَيَّ لِلْيَوْمِ الَّذِي بُرِّتَ وَهِيَ تَرِبُ الدَّهْرِ فِي الْقِدَمِ (١)
 عُنُقَتْ حَتَّى لَوْ اتَّصَلَتْ بِلِسَانِ نَاطِقٍ وَفَمٍ
 لَاحْتَبَّتْ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةً ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الْأُمَمِ
 قَرَعَتْهَا بِالْمَزَاجِ يَدٌ خُلِقَتْ لِلسَّيْفِ وَالْقَلَمِ
 فِي نَدَامَى سَادَةِ زُهْرٍ أَخَذُوا اللَّذَاتِ مِنْ أُمَمٍ (٢)
 فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ
 فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصَّبْحِ فِي الظُّلَمِ
 فَاهْتَدَى سَارَى الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

حكى الأصمعي قال : رأيت أبا نواس في المنام ، فقلت له : هل نسي من خمرياتك شيء ؟
 قال : أجودها ، قلت : فاذكر ، فقال :

أَذْكَى سَرَاجًا وَسَاقِي الشَّرْبِ يَمْزُجُهَا قَلَاخَ فِي الْبَيْتِ كَالْمَصْبَاحِ مَصْبَاحُ
 كِدْنَا - عَلَى عَلَمِنَا - بِالشَّكِّ نَسْأَلُهُ أَرَاخُنَا نَارُنَا أَمْ نَارُنَا الرَّاحُ
 وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ يَصِفُ صَانِعَ الزَّلَائِيَّةِ :

وَمُسْتَقَرٌّ عَلَى كُرْسِيِّهِ تَعَبٍ رُوحِي الْفَدَاءُ لَهُ مِنْ مَنْصِبٍ نَصَبٍ
 رَأَيْتُهُ سَحْرًا يَقْلِي زَلَايِيَّةٍ فِي رِقَّةِ الْقَشْرِ وَالتَّجْوِيفِ كَالْقَصَبِ
 يُلْقَى الْعَجِينَ لَجِينًا مِنْ أَمَامِهِ فَيَسْتَحِيلُ شَبَابِيكًا مِنَ الذَّهَبِ
 وَقَالَ يَصِفُ الْعَنْبَ الرَّازِقِيَّ (٣) :

وَرَازِقِيٍّ مُخْطَفٍ الْخُصُورِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبَلُورِ
 قَدْ ضَمَّتْ مِسْكًَا إِلَى الشُّطُورِ وَفِي الْأَعَالَى مَاءٌ وَزِدٌ جُورِي (٤)

(١) بزل الشراب بالمبزل : أسال منه ، والمبزل شبه الطي في الدن « صنبور » .

(٢) زهر : جمع أزهر ، وهو المشرق .

(٣) الرازقي : نوع من عنب الطائف أبيض طويل الحب .

(٤) جور : مدينة بفارس هي قصبة فيروزآباد من أعمال شیراز ، وردها جيد جدا .

بلا فريد وبلا شذور له مذاق العسل المشور^(١)
وبرد مس الخصر المقرور ونكهة المسك مع الكافور
لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور^(٢)
لو أنه يبق على الشهور قرط آذان الحسان الحور

وقال أبو حسن الجوهري يصف الفيل :

يزهو بنحروطوم كمثل الصولجان يردردا^(٣)
متمددا كالأفعوا ن تمده الرضاء مدا
أوكم راقصة تشير به إلى الندمان وجدا^(٤)
وكانه بوق يحر ركه لينفخ فيه جدا
يسطو بصارمتي الحى يخطمان الصخرهدا^(٥)
أذناه مروحتان أسندتا إلى القودين عمدا^(٦)
عيناه غائرتان ضيقتا لجمع الضوء عمدا

ومن وصف التصور وما فيها قول البحترى يصف بركة المتوكل وما فيها من السمك :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها والآناس إذا لا حت مغاريتها
بحسبها أنها من فضل ربتها تعد واحدة والبحر ثانيا
ما بال دجلة كالغيري تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباها

(١) الفريد : الدر الذى يفصل بين الذهب فى القلادة ، فلدر فريد والذهب مفرد . الشذر : صغار اللؤلؤ

(٢) الوهج : الشعاع . الحرور : حرّ الشمس .

(٣) يرددا : يحرك تحريكا .

(٤) الندمان : المنادم .

(٥) اللحي (كفعيل) : منبت اللحية فى الانسان وغيره ، وهما لحيان وثلاثة ألح والكثير لحي (بضم اللام أو كسرهما مع شد الباء) .

(٦) القودان : جانبى الرأس .

أما رأت كالى الإسلام يَكَلُّوها من أن تُعاب وبانى الجدِ بينها
 كأنَّ جِنَّ سَليمانَ الذينَ وَلُوا إبداعها فادَّقُّوا فى معانيها
 فلو تَمَرَّ بها بِلَقَيْسٍ عن عَرُضٍ قالت هى الصَّرحُ تمثيلاً وتشبيهاً^(١)
 تَنصَّبُ فيها وفُودُ الماءِ مُعْجَلَةً كالخيل خارجةً من حبل مجريها
 كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً من السبائك تجرى فى مجاريها
 إذا عَلَتْها الصَّبا أبَدَتْ لها حُبَّكَ مثل الجواشِنِ مصقولاً حواشياً^(٢)
 فحاجبُ الشمسِ أحياناً يضحكها ورَيِّقُ الغيثِ أحياناً يباكيها^(٣)
 إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها لَيْلاً حَسِبْتَ سماءَ رُكَّبتَ فيها
 لا يَبْلُغُ السمكُ الحِصْرَ غايَتها لُبْعِدٍ ما بين قاصيها ودانيها
 يَعْمَنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحةٍ كالطير تَنقُضُ فى جوِّ خوافيها
 لَمَنْ صَعِنَ رَحِيبٌ فى أسافلها إذا انخططن وبَهَوُ فى أعاليها
 صُورٌ إلى صُورَةِ الدُّلُفِينِ يُؤَنِّسُها منه انزواءٌ بعينيهِ يُوازِيها^(٤)
 مَحْفُوفَةٌ بِرياضٍ لا تزال ترى ريش الطواويسِ تَحْكِيهِ وَيَحْكِيها
 وَدَكَّتَيْنِ كَثَلِ الشَّعْرَيْنِ غَدَّتْ إحداها بإزا الأخرى تُسامِيها^(٥)
 إذا مساعى أمير المؤمنين بدتْ للواصفين فلا وَصَفَ يدانيها
 ومن شعر الجون قول الحمدونى الشاعر فى طيلسان أهدها إليه محمد بن حرب ، فأكثر

- (١) بلقيس هى السادسة من ملوك التبابعة (الطبقة الأولى) وكانت ذات جمال رائع وعدل فى حكمها وكان فى عصرها نبي الله سليمان يملك بيت المقدس فنقل الهدهد إليه خبرها وسافرت إليه فأكرمها وآمنت على يديه ثم عادت إلى بلادها فوجدت الملك المخلوع قبلها قد استولى عليه فاحتالت له بأن تزوجته ثم قتله . العرض الجانب .
- (٢) الجواشين: الدروع والواحد جوشن . الحبك : التكسر . قال الفراء : هو التكسر فى كل شىء .
- (٣) ريق الغيث : أوله . حاجب الشمس : حرفها وجانبها .
- (٤) انزواء : تجمع وتقبض .
- (٥) الدكة كالدكان الذى يجلس عليه . كمثل الشعريين : أى متقاربين تقارب هذين النجمين .

في وصف بلاده وانسالت عليه المعاني حتى قال : قرابة مائتي مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى جديد وكلها تهكم بالهدية فمن قوله فيه :

يا بن حرب كسوتني طيلساناً ملّ من صحبة الزمان وصداً
خسبنا نسج العناكب قد حا ل إلى ضعف طيلسانك سداً^(١)
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدى
وقوله :

قل لابن حرب طيلسانك قد أوهى قواي بكثرة الغرم
متبين فيه لمبصره آثار رفو أوائل الأمم
وكأنه الخمر التي وصفت في (يا شقيق النفس من حكم)
فاذا رمناه فقيـل لنا قد صبح قال له البلى انهـدم
مثل السقيم برا فراجعـه نكس فأسلمه إلى سقم^(٢)
أنشدت حين طغى فازعجني « ومن العناء رياضة الهرم »
وقوله^(٣) :

يا بن حرب أطلت فقرى برفو طيلسانا قد كنت عنه غنياً
فهو في الرفو آل فرعون في العر ضي على النار بكرة وعشياً
وقد أكثر أيضاً من القول في شاة أهداها إليه سعيد بن أحمد بن خوسنداذ ، ومن قوله فيها :

أسعيد قد أعطيتني أضحية مكشت زماناً عندكم ما تطعم
نضوا تعافت الكلاب بها وقد نذوا عليها كي تموت فتؤلم^(٤)

(١) لعل المعنى : ظننا أن نسج العناكب قد صار بمثابة السد في المناعة بالنسبة لهلهلة وضعف طيلسانك .
(٢) النكس (كقفل) : عودة المرض بعد الدخول في الشفاء ، ولا يقال نكس بفتح النون الا مع تعس وذلك للمزاوجة والانباع . برا : مسهل برا (كقطع) وهي لغة في برى .
(٣) في الجزء الرابع من زهر الأدب مقطعات للحمودوني في طيلسان بن حرب ،
(٤) النضو : الهزيل والأثني بالناء .

فإذا الملا فحكوا بها قالت لهم لا تهزأوا بي وارحوني ترحموا
مرت على علف فقامت لم ترم عنه وغنت والدامع تسجيم^(١)
وقف الهوى في حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم

حدث أحمد بن خالد قال : كنا يوماً عند دار رجل يقال له صالح ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على كنيصة في سطحها ديك طار من بيت دعبل ، فلما رأيناه قلنا هذا صيد فذبجناه وشويناه ثم خرج دعبل وسأل عن الديك ، فعرف قصته ، فغدا في اليوم

الثاني على مسجد الحى ، فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد ينشد قوله :

أسر المؤذن صالح وضيفه أسر الكمي هفاخلال المايط^(٢)

بعثوا عليه بناتهم وبنيتهم ما بين ناقة وآخر سامط^(٣)

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط^(٤)

نهشوه فأنزعت له أسنانهم وهشمت أبقاؤهم بالحائط

وزعموا أن وهب بن سليمان بن وهب ضرط في حضرة أحد القضاة فذاع أمر هذه

الضرطة ، وتناولها الشعراء فأكثروا من النول فيها ، فمن ذلك قول ابن

مهدى الكسرى :

إن وهب بن سليمان بن وهب بن سعيد

حمل الضرطة للرئى على ظهر البريد

في مهمات أمور منه بالركض الشديد

إسته تنطق يوم السحفل بالأمر الرشيد

(١) سجيم الدمع (كدخل) : سال .

(٢) المؤذن : الديك . هنا : سقط . المايط : مسهل المايط ، وهو حومة الوغى .

(٣) سمط الدجاجة : وضعها في ماء ساخن لينظف ماعياها من ريش .

(٤) خاقان : لقب للملك الترك ككسرى للملك الفرس ، وقبصر الملك الروم ، وفرعون للملك مصر .

قديما . ناعط ، قبيلة من همدان : وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه .

لم يُجِدْ في القول فاحتنا جَإِ إلى دُبُرٍ محميد
وقد عارض بعض الشعراء قول أبي نواس :

يا قمرأ أبرزه مآتم يندب شجوا بين أتراب
فقال في ذم أعور :

یا أعورا اُبرزه ماتم یندب شجوا بتخالیط
 یبکی فیذری الدمع من کُوة و یلطم الشوک ببلوط
 وحدث أبو عَبَسٍ الصَّیْمَرِیُّ قَالَ : کنت عند المتوکل والبحتریٰ ینشده :
 عن أیِّ نَعْرِ تَبْتَسِمُ و بأیِّ طَرَفٍ تَحْتَمُ
 حتی بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتمد
والجندى ابن المجتدى والمنعم ابن المنتقم
اسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم
وكان البحترى من أبغض الناس إنشادا فضجرت المتوكل منه ، وأقبل على فقال : أما
تسمع ما يقول يا صيّمري ؟ فقلت : بلى يا سيدي ، فرنى فيه بما أحببت ، فقال
بجياتى اوجه على هذا الروى الذى أشدنيه ، فقلت :

أدخلت رأسك في الرحمِ وعلمت أنك تنهزم
يا مجترئ حذار ويحك من قضا قضية ضغم^(١)
فلقد أسلت بالديك من الهيجا سيل العرم
فبأي عرض تعصم ويهتك به جف القلم
والله حلفة صادق وبقي أحمد والحرم
وبحق جعفر الإمام م ابن الإمام المعتصم

(١) قضاضة : جمع قضائش (بضم الفاف وفتحها) وهو الأسد . ضغيم : جمع ضغيم وهو الأسد .

لَا صَـيْرَ نَكَ شُهْرَةٍ بَيْنَ الْمَسِيلِ إِلَى الْعِلْمِ

فَجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ، وقد خرج البحتري مغضباً .

ومن مشهورى شعراء الجون أبو الرِّقَعَمَقِ بالشَّامِ المتوفى سنة ٣٩٩ هـ ، وابن حَجَّاجِ المتوفى سنة ٣٩١ هـ ، وابن سُكَّرَةَ المتوفى سنة ٣٨٥ هـ بالعراق ، وقد اجتمعا في بغداد ، فكان يقال فيهما إن زماناً جاد بابن سُكَّرَةَ ، وابن حَجَّاجِ لسخى جداً .

وأبو الرِّقَعَمَقِ ، (وهو نزيله واسمه أحمد بن محمد الأنطاكي) هو القائل :

إِخْوَانُنَا ذَكُرُوا الصُّبُوحَ بِسُخْرَةٍ فَاتَى رَسُولُهُمْ إِلَى خُصُوصَا

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدُكَ لَكَ طَبَخَهُ قُلْتَ اطْبَخُوا لِي جُبَّةً وَقِيصَا

وإلى هنا نمسك القلم عن الإفاضة في نماذج الشعر ، فإنه باب لا تنتهى محاسنه ، ويحسن بك العود إلى ما مثلنا به في أبواب سابقة للحكمة والمثل ، فلا نطيل بذكر أمثلتهما

لفظ الشعر وأسلوبه

كان من أثر المدنية رقة حاشية الكلام بنوعيه : النثر والنظم ، ولما كان الشعر مجال الأناقة والنظرف ، فقد رقت حاشيته كثيراً ، خصوصاً وأنه كان موضوع الغناء وهو يتطلب اللفظ الأنيق الرقيق العذب ، لذلك نرى لفظه في هذا العصر قد صار إلى غاية الرقة ، فلو سال كلام لرقته لسال ، ولو طار لفظ لخفته لطار .

وقد دخل الشعر بعض الألفاظ الفارسية على حالها في لغتها دون تعريب أو معربة مصقولة ، وقد فعلوا ذلك تطرفاً حين استعملوا الألفاظ الفارسية على حالها لأن ذلك غير جائز في العربية ، ولكن فعله منهم أبو نواس ، وابن المعتز كثيراً اقتداء بالأعشى ، وأمّية بن أبى الصلت في الجاهلية ، وقد فعلا ذلك لأن

الأول أكثر من الرحلة إلى بلاد الفرس ومدح ملوكها وأمية قد طال نظره في كتب الدين ، فانتقلت عدواها إلى لغة شعره .

وأما استعمال الألفاظ بعد تعريبها فتلك شرعة أبيحت في العربية منذ قديم ، وكثرت في هذا العصر في شعر وغيره لأنهم لما رأوا مسميات ولم يجدوا لها ألفاظاً عربية استعاروها من اللغات الأخرى ، وأجروها على مثال ألفاظهم ، فصارت عربية بالتعريب ووقع منها كثير في كتب العلم والأدب والشعر وسواه .

فمن التظرف باستعمال اللفظ الأعجمي بعجمته قول أبي نواس :

أَلْبَسْتُ كُنْفِي دَسْتَبَانًا مُشْعَرًا فَرَوَةَ سِنَجَابٍ تَوَّامًا أَوْبَرًا

وقول إبراهيم الموصلي :

إذا ما كنت يوما في شجهاها فقل للعبد يسقى القوم يَرًّا
فإن السقى مكرمة ومجد وَمَدْفَأَةٌ إذا ما خفت قُرًّا

واليرّ : لفظ فارسي معناه ملآن .

وقول العُمانيّ يصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غياضِ الأسدِ وصار في كفِ الهزبرِ الوردِ

* آلى يذوق الدهر آبَ سَرْدٍ *

وآب سرد : هو الماء البارد .

وأما الألفاظ المعربة فقد كثرت بداعي الحاجة إليها في الدلالة على مسمياتها مثل

آسنون في قول القائل :

يا طبيباً بالآسنون يداوى ليس ما بي يزول بالآسنون
داوِني يا مُعَدِّبِي باسم قوم أي وقت ذَكَرْتُهُمْ آسنوني

وقول ابن المعتز :

سقىا لروضات لنا من كل نورٍ حاله

عيون آذَرِيُونِهَا للشمس فيها كاليه
مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غاليه
وقد وردت ألفاظ كثيرة مثل ، مِهْرَجَان ، وَنَيْرُوز ، وَبَرَكَار ، وَلَوَزِينَج ،
وَجَوَزِينَج ، فلا نطيل بذكرها .

أما أسلوب الشعر فقد رق بركة ألفاظه ، وحسن بالإكثار من التشبيه والاستعارة ،
والعناية بالحسن البديعي . وأول من التفت إليه ، واستكثر منه (لأنه قبل ذلك في
القرآن الكريم ، وقديم كلام العرب) بشار ، وإبراهيم بن هرمة ، ثم مسلم وأبو نواس
ثم أبو تمام والبحتري ، ثم ابن المعتز ، وكل طبقة من هؤلاء تزيد على سابقتها ،
وتستكثر من استعمال البديع ، وبعضهم يغلو كأبي تمام فيغض في بعض الأحيان من
جمال شعره . وآخر من انتهى إليه الإبداع والاكثار مع السلامة من السقوط هو
ابن المعتز ، ثم جاء بعده قوم توسعوا في البديع ، وألحوا في المحسنات خصوصاً في عصر
بنى بويه ، ولكنهم كانوا إلى السلامة أقرب . ثم غض البديع من محاسن القول فيما
بعد عصر بنى بويه كما كان الشأن في الكتابة .

ومن المحسنات التي أكتروا منها الإشارة إلى مصطلحات العلوم مثل قول
أبي نواس :

تَأْمَلُ العين منها محاسن ليس تَنْفَدُ
فبعضها قد تناهى وبعضها يَتَجَدَّدُ
والحسن في كل عضو منها مُعَادٌ مُرَدَّدُ

وقول القاضي شرف الدين المقدسى موجهاً في قواعد الفقه :

أُحْبِجْ إلى الزَّهْرِ لَتَحْظَى به واربم جِمَارَ الهَمِّ مُسْتَنْفِرَا
من لم يَطْفُفَ بِالزَّهْرِ في وقته من قبل أن يُحْلَقَ قد قَصَّرَا

وقول أبي الفتح البستي :

عَزَلْتُ ولم أَذْنِبْ ولم أَكْ جانِباً
حُذِفْتُ وغيري مُثَبَّتٌ في مكانه
وهذا لإنصاف الوزير خِلافُ
كَأَنِّي نُونُ الْجَمْعِ حين يُضَافُ

وقال أبو نصر أحمد بن يوسف :

وَلِي غُلَامٌ طَال في دَقَّةٍ
وَقَدْ تَنَاهَى عقله خِفَّةً
كَحِطِّ إِقْلِيدِسَ لَاعَرَضَ لَهُ
فَصَارَ كَالنَّقْطَةِ لَا جُزْءَ لَهُ

وقال آخر :

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ
وَمَغْنَمَاتُهَا أَفْنَدَةُ الرِّجَالِ^(١)

وقال آخر :

مَسْأَلَةُ النَّوْرِ جَرَتْ
لَوْلَا مَشِيئِي مَا جَفَا
بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَحَبَّ
لَوْلَا جَفَاءُ لَمْ أَشِبْ

وقول البستي :

قَدْ غَضَّ مِنْ أَمَلِي أَنِّي أَرَى عَمَلِي
وَأَنَّنِي رَاحِلٌ عَمَّا أَحَاوِلُهُ
أَقْوَى مِنَ الْمُشْتَرَى فِي أَوَّلِ الْحَمَلِ
كَأَنَّنِي أَسْتَمِدُّ الْحِظَّ مِنْ زُحَلِ
وكذلك الجناس أكثر ما منه وعلى نسبة الكثرة في أقسامه في علم البديع تجد أمثلة كثيرة ، ولكننا تقتصر على بعضها ، فمن المطرف قول البحتري :

فَإِنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّتْ أَنْفُسُ
وَمِنَ الْمَقْلُوبِ قَوْلُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَخْنَفِ :

حُسَامُكَ فِيهِ لِلْأَحْبَابِ فَتَحٌ
وَرُوحُكَ فِيهِ لِلْأَعْدَاءِ حَتَفٌ

(١) الهيولى : الأصل وهو فى الأصل القطعة ، وشبه به الأوائل طينة العالم . وهو فى اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد الله سبحانه وتعالى من أنه موجود بلا كمية ولا كيفية ولم يقترن به شئ من سمات الحدوث ثم حلت به الصنعة واعترضته الأعراض فحدث منه العالم .

— ٣٧٣ —

ومن جناس التركيب قول البُستيّ :

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبُهُ فَدَعُهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبُهُ
وقول شمسويه المصري في غلام يبيع الفراحي :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مَا دَهَاكَ أَجْبَنِي قَالَ لِي بَائِعُ الْفَرَاحِيِّ فَرَاحِي
نَظَرَاهُ فِيمَا جَنَى نَظَرَاهُ أَوْ دَعَانِي أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي
وقال البُستيّ ؛

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَا مَ وَلَا جَا مَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْجَا مَ لَوْ جَا مَلْنَا
وقوله :

إِلَى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَا قِي دَمِي

وقد أولع المتأخرون من أهل هذا العصر بالنوع البديعي المعروف بالقلب ، وهو المسمى
أيضاً (مالا يستحيل بالانعكاس) ، وهو أن يكون عكس البيت ، أو عكس شطره
كطرده ، ولصعوبة مركب هذا النوع لم يسلم من أمثله إلا قليل ، وقد انعقد الإجماع
على أن أبلغ الشواهد عليه قول الأَرَجَانِيّ :

مُودَتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوًى وَهَلْ كُلُّ مُودَتِهِ تَدُومُ
ومن الشواهد المقبولة عليه قول بعضهم :

عُجْجٌ تَمَّ قُرْبُكَ دَعْدُ آمَنَا إِمَّا دَعْدُ كَبْرُقٍ مُنْتَجِعُ

ومما ألحوا فيه أيضاً فخرجوا عن الجادة ذلك النوع البديعي المسمى لزوم مالا يلزم ، وهو
الالتزام حرف قبل الروي ، وما يقع من هذا الباب لمتقدم فهو غير مقصود ، أما المتأخرون
فقد قصدوا عمله وأكثروا منه حتى إن أبا العلاء المعري عمل في ذلك ديواناً كاملاً
يسمى « اللزوميات » .

ومنه قوله :

كن كيف شئت مُهَجَّنًا أو خالصًا وإذا رزقت غِنًى فأنْتَ السَّيِّدُ
وأصمْتُ فما كثر الكلام من امرئٍ إلا وقالوا إنه مُتَزَيِّدٌ

ويلحق به : ما يختبر به الأدباء مواهبهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها
مهمل أو معجم أو ما لا تنطبق فيه الشفتان أو مافى كل كلمة منه همزة أو حروفها كلها
منفصلة أو ما يجمع به حروف المعجم كلها في بيت واحد ، إلى غير ذلك مما استهلك
المعنى وجنى على الأسلوب فلم ينظر الشاعر بعد تحقيق وجه من تلك الوجوه في كلامه
إلى حسن تعبير ، أو وضوح دلالة ، أو صلاحية كلمة لموضعها إلى غير ذلك .

وإننا من باب الفكاهة نروى بعض أمثلة من هذا .

فما جميع الحروف فيه مهملة قول الخطيرى الوراق :

صُدُودُ سَعَادٍ أَحْدَرَ الدَّمْعَ مُرْسَلًا وَأَسْأَرَ حَرًّا لَمْ أَحَاوِلُهُ أَوْلَا

ومما لا تنطبق فيه الشفتان :

هأنذا عارى الجِلْدِ أسهرنى الذى رَقَدَ^(١)

آه لعين نظرت إلى غزال ذى غيد

ومما كل كلمة فيه مهموزة :

بأبى أغيدٌ أذاب فُوَادَى إِذْ تَنَاءَى وَأَظْهَرَ الإِعْرَاضَا

ومما ليس فيه حرف متصل بآخر :

زَارَ دَاوُدُ دَارَ أَوْزَى وَأَوْزَى ذَاتُ دَلٍّ إِذَا رَأَتْ دَاوُدَا

ومما جمع حروف المعجم في بيت ، قول أبى جعفر اليزيدى :

ولقد شَجَّنِي طِفْلَةٌ بَرَزَتْ ضَحًى كَالشَّمْسِ خَنَاءِ الْعِظَامِ بِذِي الْغَضَى^(٢)

(١) الجلد (بالكسر أو بالتحريك) : المسك من كل حيوان .

(٢) طفلة (بالفتح) : رخصة ناعمة . خناء : عريضة العظام .

أوزان الشعر وقوافيه

نظر الخليل بن أحمد الفراهيدى فيما ورد عن العرب من الشعر ، فاستطاع أن يضبطه ، ويرجع أوزانه إلى خمسة عشر أصلاً سماها بحور الشعر . وخالفه في ذلك الأخنس ، فجعلها ستة عشر ، وكان بحر المتدارك هو الذى نفاه الخليل وأثبتته الأخنس . فكل ما خرج عن هذه الأوزان الستة عشر ، أو الخمسة عشر فليس بشعر عربى وما يصاغ على غير هذه الأوزان ، فهو عمل المولدين الذين رأوا أن حصر الأوزان في هذا العدد يضيق عليهم مجال القول ، وهم يريدون أن يجرى كلامهم على الأنغام الموسيقية التى نقلتها إليهم الحضارة ، وهذه لاحد لها ، وإنما جنحوا إلى تلك الأوزان لأن أذواقهم تربت على إلفها ، واعتادت التأثير بها ، ثم لأنهم يرون أن كلاماً يقع على الأنغام الموسيقية يسهل تلحينه والغناء به ، وأمر الغناء بالشعر العربى مشهور ، ورغبة العرب فيه خصوصاً في هذه المدينة العباسية أكيدة .

لذلك رأينا أن المولدين لم يطبقوا أن يلتزموا تلك الأوزان الموروثة عن العرب ، فأحدثوا أوزاناً أخرى منها ستة استنبطوها من عكس دوائر البحور . وهى :

١ — المستطيل ، وهو مقلوب الطويل ، وأجزاؤه : (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين كقول القائل :

لقد هاج اشتياقى غريرُ الطَّرْفِ أحورُ أدير الضَّدْعُ منه على مِسْكٍ وَعَنْبُرُ

٢ — الممتد ، وهو مقلوب المديد ، وأجزاؤه : (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين كقول القائل :

صاد قابى غزالُ أحورُ ذو دلالٍ كلما زدت حبا زاد منى نفورا

٣ — المتوافر ، وهو محرف الرمل ، وأجزاؤه : (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين ، ومثاله :

ما وقوفك بالركائب فى الطَّلَلِ ما سؤالك عن حبيبك قدرحل

— ٣٧٦ —

ما أصابك يا فؤادى بعدهم أين صبرك يا فؤادى ما فعل
٤ — المتند ، وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه : (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين .
وقد نظم منه بعض المولدين :

كن لأخلاق التصابي مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا
٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين ، وقد
نظم منه بعضهم :

على العقل فعول فى كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى
٦ — المطرد ، صورة أخرى من مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن)
مرتين . كقول بعضهم :

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد
ومن الأوزان التى استحدثوها ما فعله أبو العتاهية ، فقد ذكر أنه نظم على أوزان
لا توافق ما استنبطه الخليل إذ جالس يوما عند قصار ، فسمع صوت المدق ، فحكى
وزنه فى شعر ، وهو :

العنون دائرا ت يدرن صرفها
حتى ينتقيننا واحدا فواحدا

فلما انتقد فى هذا . قال : أنا أكبر من العروض .

ومما ينسب إلى مسلم بن الوليد من ذلك قوله :

يأيها المعمود قد شفقك الصدود
فأنت مستهام حائفك السهود
تبیت ساهرا وقد ودعك الهجود
وفى الفؤاد نار ليس لها خمود

ومن أشهر ما استحدث غير ما تقدم الفنون السبعة ، وهى : السلسلة ، والدوبيت ، والقوما ، والموشح ، والزجل ، وكان وكان ، والمواليا ، (والموشحات والأزجال من اختراع الأندلسيين وتبعهم فيها المشاركة) .

١ - فالسلسلة أجزاؤه (فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان) ، ومنه :

السحر بعينيك ما تحرك أوجال إلا ورماني من الغرام بأوجال
ياقامة غصن نشا بروضة إحسان أَيْآنَ هَفَّتْ نَسْمَةُ الدِّلال به مال

٢ - والدوبيت ، وهو وزن فارسى نسج على منواله العرب ، ودو بالفارسية : معناها اثنان ، أى أنه مركب من بيتين ويسميه الفرس الرباعى ولعله لاشتغاله على أربعة أشطر . وأوزانه كثيرة ، وأشهرها : (فَعْلَنَ متفاعِلن فعولن فَعْلَن)^(١) مرتين ، ومنه قول ابن الفارض .

روحى لك يا زائر الليل فِدَا يا مؤنس وَخَدَّيْ إذا الليل هَدَا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وهو كما ترى متحد القوافى فى جميع مصاريعه ، فإن اختلفت الثالثة منها سُمى أعرج مثل قول شرف الدين بن الفارض :

أهوى رَشَاءً كُلَّ أَسَى لى بعثا مذ عاينه تصبرى مالِيشا
ناديت وقد فَكَّرْتُ فى خلقته سبِحَانِكَ ما خلقت هذا عبثا

٣ - القوما : اختراع هذا الفن البغداديون القائمون بالسحور فى رمضان ، واسمه مأخوذ من قول بعضهم لبعض (قوما نسحر قوما) ، وقد شاع هذا الفن ، ونظموا فيه الزَّهْرَى والخمرى والعتاب وسائر الأنواع ولغته عامية ماعونة ووزنه (مستفعلن فَعْلَان) مرتين .

(١) قال ابن غازى فى ضبطه :

دوبيتهم عروضه ترتجل فعلن متفاعِلن فعولن فعلن

وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يطرب له فجعل له عليه وظيفة كل سنة، ولما توفي كان ابنه ماهراً في نظم القوما، فأراد أن يعرفه الخليفة ليجري على مفروضه، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان، ثم جمع أتباع والده، ووقف أول ليلة من تحت شرف القصر وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة له وطرب، فلما أراد الانصراف قال :

يا سيد السادات لَكَ بالكرم عادات
أنا ابن أبو نقطة تعيش أبويا مات

فخلع عليه الخليفة، وجعل له ضعف ما كان لوالده .

٤ — الموشحات : اخترعها الأندلسيون ، وأول من نظمها منهم مُقَدِّمُ بن مَعَاقر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث ، وقد كسدت هذه الصناعة في أول الأمر حتى نشأ عبادة القَزَّاز المتوفى سنة ٤٣٣ هـ ، فأجاد فيه وانتقل هذا الوزن إلى المشرق فنسج المشارقة على منواله ، وأوزانه كثيرة منها :

(مستفعِلان فاعِلن فعيل°) مرتين مثل :

يا جيرة الأبرق اليمان هل إلى وصلكم سبيل

ومنها : (فاعلاتن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن) مرتين مثل موشحة ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ هـ :

كللى يا سحب تيجان الربا بالخللى
واجعللى سوارك منعطف الجدول

٥ — الزجل : وقد اخترع هذا الفن بالأندلس بعد أن نضجت الموشحات وتداولها الناس بكثرة حركت نفوس العامة ، فنسجوا على منوال الموشح بلغتهم الحضرية ، وقد كثرت أوزانه حتى قيل صاحب ألف وزن ليس بزجال . وأول من اخترعه رجل يقال له راشد ، ولكنه لم يظهر فيه رشاقتة كما أبدع فيه بعده ابن قَزْمان

المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، ومن قوله فيه :

وعريش قام على دكان بحال رواق
وأسد ابتلع ثعبان في غلظ ساق
وفتح فم بحال إنسان فيهِ القواق
وانطلق يجري على الصَّفاح والقي الصَّباح^(١)

٦- وكان وكان : نظم اختصره البغداديون ، وسمى بذلك لأنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات .

فكان قائله يحكى ما كان حتى ظهر الإمام الجوزى والواعظ شمس الدين فنظما منه الحكم والمواعظ ، ويصاغ معرب بعض الألفاظ على وزن واحد وقافية واحدة ولا تكون قافيته إلا مردوفة (سا كنة الآخر وقبله حرف سا كن) ومثاله :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجوارى فى البحر كالأعلام

٧- المواليا : هو من الفنون التى لايلزم فيها مراعاة قوانين العربية ، وهو من بحر البسيط لولا أن له أضربا تخرجه عنه .

وقد ذكروا فى سبب نشأته أن الرشيد لما نكب البرامكة أمر ألا يرثوا بشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول : يا مواليا ليكون ذلك منجاة لها من الرشيد لأنها لا ترثهم بالشعر المنهى عنه .

وهو فى الاصطلاح ثلاثة أنواع : رباعى ، وهو ما كان أشطر بيتيه مصرعة مثل قول جارية البرامكة :

يا دار أين الملوك أين الفرس أين الذين رعوها بالقنا والترس

(١) الصفايح : حجارة رفيقة عريضة والمفرد صفاحة . ولقى الصباح : يريد أن الماء فى ايضاضه كئانه الصباح .

قالت تراهم رم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة ألتتهم خرس
وأعرج : وهو ما اختلف مصراع منه عن الثلاثة الباقية مثل قول بعضهم فى الوعظ :
يا عبد إبكى على فعل المعاصى ونوح هم فىن جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غروره تجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحور وتروح
ونعمانى مثل قول بعضهم :

الأهيف الى بسيف اللحظ جارحنا بيده سقانا الطلا ليلا وجارحنا
رمش رمى سهم قطع به جـوارحنا آهين على لوعتى فى الحب يا وعدى
هجره كوانى وحيرنى على وعدى يا خل واصل ووافى بالمنى وعدى
* من حر هجرك ومن نار الجوى رحنا *



إن الذى دعاهم إلى الإفلات من قيود الوزن ، (وهو على زعمهم ضيق الأوزان
فى الشعر العربى) قد دعاهم مثله إلى الإفلات من قيود القافية . ذلك بأن الشعر العربى
إذا زاد المقول فيه على بيت واحد وجب أن يتحد مع الأصل فى الوزن والقافية ، ولم
يعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر فى معرض واحد إلا جاءوا بذلك
من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا فى هذه الأواخر من
شروط مجموعها هو علم القوافى .

حقاً إن هذا إذا نظرنا إليه نظرة عامة نراه التزاماً شديداً لم تشترطه لغة غير
العربية . فأكثر اللغات يكفى فيها شرط الوزن مع خلاف بين اللغات واللغة العربية
فما يراد بهذا الشرط أيضاً .

ولسكننا ننظر إلى العربية فى سابق عهودها فنجدها قد نهضت بجميع أغراض
القول مع اشتراط الوزن والقافية ، وكان أكثر كلام العرب شعراً ، ولم يعرف أن أحداً

منهم شكاً من ذلك ، أو تبرم به ، أو حاول الخروج عليه لا في جاهلية ولا إسلام حتى كان العصر العباسي .

فإذا كان بعض الشعراء في العصر العباسي قد تبرم بهذين القيدين ، فليس العيب عيب اللغة ، ولكنه عيب من يحاول ما لا يستطيع ، هو عيب من لا يستكمل الوسائل ، ثم يريد الطفور إلى الغايات . وما كان لنا أن نتابع هؤلاء الباغين على العربية الذين يريدون أن يتحيفوا جمالها من أطرافه فننادى معهم بطرح هذه القيود ، فإنها ليست كما ظنوا قيود منع وإرهاق ، ولكنها حجز زينة ، ومعاقدة رشاقة ، ونظام كأنه نظام فريد لا يحسن إلا إذا روعى فيه التناسق والتناظر .

ومن أمثلة هذه المحاولة المزرية بقدر الشعر ما أنشد القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن قول بعضهم :

رب أخ كنت به معتبطاً أشد كفى بعري صحبته
تمسكا منى بالود ولا أحسبه يزهد في ذى أمل

ولكن هذا الناق لم يبعد من يتابعه ، لأن الأذن لا تترتاح إلى صنيعة ، ولكنهم قبلوا من ذلك نوعاً سموه المزدوج ، وهو أن يؤتى بيتين من مشطور أى بحر مقفيين وبعدهما غيرهما بواقفية أخرى ، وهكذا . وقد احتاجوا إلى ذلك ، وأكثروا منه في نظم القصص الطويلة والحكم والأمثال ومسائل العلوم ، مما لا يراد به إلا مجرد الضبط لسهولة الحفظ ، وحرّموا هذا النوع أن يسمى قصيدة مهما طال . وأول من نظم فيه بشار وأبو العتاهية ، ثم تنابح عليه الشعراء ، ومن مزدوجة لأبى العتاهية في الحكم ، وقد سماها ذات الأمثال وله فيها أربعة آلاف مثل ، قوله :

حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
القدر فيما جاوز الكفا من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلمنى أو فدر إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

- ٣٨٢ -

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل المنام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاءه نفص عيشاً كله فناؤه
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بأنواع القذى
من لك بالحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب
ومن هذا النوع ألفية ابن مالك ، وما على شاكلتها من متون العلوم .

ومما استحدثوه في القافية أيضاً نوع يسمى المسمط ، وهو أن يبتدئ الشاعر بيت
مصرع ، ثم يأتي بأربعة أقسمة من غير قافيته ، ثم يعيد قسمًا واحداً من جنس ما أبتدأ
به وهكذا إلى آخر القصيدة ، وقد نسبوا إلى امرئ القيس قوله من هذا النوع :

تَوَهَّمتُ من هِنْدٍ مَعَالِمَ أَطْلالٍ عَفَاهُنَّ طُولُ الدَّهْرِ في الزَمَنِ الخَالِي
مَرَّابِعُ من هِنْدٍ خَلَّتْ وَمَصَافِيهِ يَصِيحُ بِمَغْنَاهَا صَدَى وَعَوَازِفُ
وغيرَها هُوجُ الرياحِ العَوَاصِفُ وَكُلُّ مُسِفٍّ ثم آخِرُ رَادِفُ
* بِأَسَحَمَ من نَوءِ السَّما كَيْنِ هَطَّالٍ *

وقد يكون بأقل من أربعة أقسمة وبلايت مصرع مثل قول بعضهم :

غَزَّالٌ هاج لي شجنا فَبِتُّ مكابداً حَزَنًا
عَمِيدَ القلبِ مُرْتَهَنًا بِذِكْرِ اللّهِ والطَّرَبِ
سَبَبَتْنِي طَبِيَّةٌ عَطُلُ كَأَنَّ رُضابها عَسَلُ
يَنوؤُ بِخَصْرِها كَفَلُ ثَقِيلُ رَوادِفِ الحَقَبِ

كذلك أحدثوا فيها الخمس ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة كلها من وزن واحد
 وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية

للأقسام الأربعة الأولى ، ويتحد القسم الخامس مع الخامس من الأولى في القافية
كقول الشاعر :

ورقيب يردد الالحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذجنى الخلد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى

* فتملى من حسنه تكحيدا *

وتصدى من فحشه فى استباقٍ يمنع اللحظ من جنى واعتناقٍ
أيأس العين من لحاظ اعتناقٍ قال جفنى لصنوه لا تلاقٍ

* إن بينى وبين لقياك ميلا *

المولدون أو المحدثون

يراد بالمولدين فى الاصطلاح العام للأدب هؤلاء الشعراء الذين نشئوا فى العصر
العباسى ، وهم أيضاً المحدثون . وسبب تسميتهم مولدين أنهم من الجيل الذى لم تخلص
أنسابه بل اختلطت ، فكان من الناس المهجين والمقرّف ، بعد أن كانوا فى القديم عرباً
خالصاً ، ليس فى نسبهم ما هو غير عربى .

فالمولد اسم لكل من نشأ غير خالص العربية ، ثم صار فى اصطلاح الأدب كل
من قال الشعر من أهل العصر الذى كثر فيه هؤلاء المولدون فى الأنساب ولو كان
عربياً قحاً ، وكلمة محدث قريبة المعنى من هذا ؛ لأن معناها الذى جد وحدث
بعد الأصل .

على أنك واجد من بعض رواة الأدب تشدداً فى اعتبار المولد من الشعراء ، فهذا أبو
عمرو بن العلاء يقول عن طبقة جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن
آمر صبياننا برواية شعره ، وهو الذى جالسه الأصمعى ثمانى سنين فما سمعه يحتاج
ببيت إسلامى .

وقريباً منه كان الأصمعي في التعصب للشعر القديم . ولكنه كان أقرب إلى الانصاف ، فقد روى عنه أنه كان يستحسن أبيات أبي نواس ، « ودار نداهي عطوها وأدجلوا » وقد مرّ بك أنه عاب النابغة في قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
فقال لو أن قائلاً قال إن النمرى أحسن من النابغة في قوله :

فلو كنت كالغناء أو كسموها خللتك إلا أن تصد تراني

لوجد إلى ذلك سبيلاً ، ولعل كل جديد يجري عليه ما جرى على جديد الشعر في العصر العباسي ، فقد تعصب عليه قوم حتى أعماهم التعصب عن محاسنه ، وحتى كان الشعر يعجبهم قبل أن يعرفوا قائله فينشطون لكتابته وروايته ، فإذا ما علموا أنه لحدث ألفوا حسنه ومرضوا صحيفته كما روى عن ابن الأعرابي أنه عرضت عليه أرجوزة أبي تمام اللامية التي مطلعها .

وعاذل عذلتُهُ في عذله فظن أني جاهلٌ من جهله
لبست ريعاني فذرني أبله ما غبن المغبون مثل عقله

وقيل له إنها لفلان من شعراء العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخُسرواني^(١) ، ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هي لأبي تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى الورقة من يده وقال : يا غلام خرق ، خرق .

ويبلغ من آخرين أن يهجنوا القديم ويعملوا على هدمه ويبالغوا في الزايرة عليه كما فعل أبو نواس في تهكمه بمبادئ القصائد في كلام الجاهليين ومن بعدهم حتى حمل الناس على تكسير هذه القيود والإفلات منها .

ولكن الاعتدال في الحكم هو الذي يصادف من العقلاء ارتياحاً ، وقد اعتدل كثير من النقدة المتقدمين كابن قتيبة وابن رشيق وغيرهم فكروا أن القديم من الشعر يجب أن يكون مقدماً من ناحية الجزالة وسلامة العبارة وأنه مرجع النحوي في شواهد ،

(١) نسبة إلى خسرواية ، وهي بلدة بواسط .

واللغوى فى معانى ألفاظه ومبانيها ودلالات تراكييها ، وأن الجديد المحدث يرجح فى الميزان بعدو به ألفاظه ورقتها وحلاوة معانيه وشدة ترابطها ، وقد حكم ابن رشيق فى كتابه «العمدة» بأن مثل القديم والمحدث كمثل رجلين ابتداءً هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أنى الآخر ففقهه وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

محاسن المولدين فى الشعر

تذاكر الناس يوما فى مجاس محاسن الدنيا ونزهها ، وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الراوية اللغوى فقال لهم قد أكثرتم من ذكر محاسن الأبصار فأين أتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا له وما هى ؟ قال شعر المحدثين ، وكتب الجاحظ ، ونوادير أبي العيناء .

والحق أن شعر هؤلاء مجال للروح وقد أحرزت به العربية فضيلة كبرى فصار بها ألد الآداب لما حواه من محاسن لا تنفد .

فمن محاسنهم تلك المعانى التى أراحوا عنها حجب القلوب ، فكانت درا انصدعت عنه أصدافه ، أزهرا تفتحت أكامه ولم يقفوا بها عند حد بل تنافس الشعراء فيها ، حتى يؤثر عن أحدهم ما يشرف به عند التفضيل والموازنة . ويمثل ذلك فى المعانى التى اخترعوها ، والمعانى التى تناولوها من القدماء ، فولدوا فيها حتى استبدوا بأغلبها وظهر فيها فضل الحضارة على البداءة ، وميزة الثقافة على الجهالة . فما بقى معنى تعرض له جاهلى أو إسلامى إلا شرف بتناول هؤلاء له وإبرازه واضحا جليا . فانظر إلى توليد أبى نواس فى وصف الدمن وهو المعنى الذى أكثر الأولون منه ، ولكن حضارة

أبي نواس أبت إلا أن يحدث فيه ما أحدثته الحضارة في نفسه . قال :

لِمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ حُسْنَ رُسُومٍ عَلَى طُولٍ مَا أَقْوَتْ وَطِيبَ نَسِيمٍ
تَجَافَى الْبَلَى عَنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّمَا لَبِسْنَ عَلَى الْإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمٍ
وقال امرؤ القيس يصف حلي امرأة .

كَأَنَّ عَلَى لَبَاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزَلًا وَكَفَّ بِأَجْزَالِ

فأخذه ابن المعتز ، وتصرف فيه أبدع تصرف قتال في وصف الثغر :

أَلْتَمِهَ فِي الدَّجَى وَبَرَقَ ثَنَا يَاهُ يَرِينِي مَوَاضِعَ اللَّثَمِ

أما اختراع المحدثين للمعاني فذلك مالا يحده حصر . وقد سبق من أمثله كثير . ومن غير الذي ذكرناه قول أبي نواس في الحجر وهو ما لم يسبق إليه ولا حام حوله حاتم قبله :

فِي كُؤُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ دَائِرَاتُ بُرُوجِهَا أَيْدِينَا

طَالَعَاتُ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

ومن المعاني التي استفادوها بمدنياتهم وإطلاعهم على العلوم ، تلك الحكمة التي شاعت في أقوالهم واشتهر بها كثير منهم : كصالح بن عبد القدوس ، وأبي العتاهية الذي يؤثر له فيما أثر من حكمته أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة ، وقد مر بك بعض أبياتها ، وأبي تمام ، والمتنبي اللذين اثبتت حكمهما في شعرهما وفصلت بها أقوالهما . وليس ذلك بغريب على قوم اطلعوا على فلسفة سقراط وأرسطو وعوا كل ما أثر عن فلاسفة اليونان وحكماء الهند والفرس . وللمروزي أحمد بن محمد أبي الفضل السكري مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس ومنها قوله :

مَنْ رَامَ طَمَسَ الشَّمْسَ جَهْلًا أَخْطَا الشَّمْسُ بِالتَّطْيِـينِ لَا تُغَطَّى

أَحْسَنَ مَا فِي صِفَةِ اللَّيْلِ وَجِدَ اللَّيْلُ حَبْلِي لَيْسَ يُدْرَى مَا تَلَدُ

مَنْ مِثْلَ الْفَرَسِ ذَوِي الْأَبْصَارِ الثَّوْبُ رَهْنٌ فِي يَدِ الْقَصَّارِ

إن البعير يُبْغِضُ الخشاشا لكنه في أنفه ما عاشا^(١)
 نال الحمار من سقوط في الوحل ما كان يهوى ونجا من العمل
 من لم يكن في بينه طعام فإله في بيته مقام
 كان يقال من أتى خوانا من غير أن يدعى إليه هانا
 ومما يتجلى للعيان من محاسن المولدين ما جرى على أيدي مجيديهم من العناية بالبديع ،
 وليس ينكر أحد أثره في النفس وحسن موقعه في الكلام ، إذا أحكم أمره فجاء مساوقا
 للطبع غير بادی الكلفة . فانظر إلى الطباق في قول أبي تمام :

ولكنني لم أخوِ جمعا مؤفراً ففرت به إلا بشملٍ مُبَدِّدٍ
 ولم تعطني الأيام نومةً مُسَكِّناً ألدُّ به إلا بنومٍ مُشْرِدٍ

وانظر إلى قول مسلم بن الوليد يهجو وقد دق معناه ولطف وارتاحت النفس إلى حسن
 لفظه ، وما سبب حسنه إلا المقابلة والطباق اللذان اجتلبهما المعنى ودعا إليهما حسن
 تنسيق القول ، قال :

أما الهجاء فلدق عِرْضِكَ دُونَهُ والمَدْحُ عَنْكَ كما عَلِمْتَ جَلِيلُ
 فاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ

وانظر إلى حسن التعليل في قول ابن المعتز ويروي لابن الرومي :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتْلِ مَسَمًا الوَصْبُ
 حرمتها من دماء من قتلت والدم في النَّصْلِ شاهدٌ عَجَبٌ^(٢)

وقول مجير الدين بن تميم وقد كتب البيتین مع وردة لم تنفتح وأرسلها إلى معشوق :
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْخَدَائِقِ وَرَدَةٌ وَأَتَتْكَ قَبْلَ أَوَانِهَا تَطْفِيلاً
 طَمِعَتْ بِلَشْمِكَ إِذْ رَأَتْكَ فَجَمَعَتْ قَهْمًا إِلَيْكَ كَطَالِبٍ تَقْبِيلاً

(١) الخشاش : ما يوضع في أنف البعير ليسهل قياده .

(٢) الأمر العجيب : هو ما جاوز حد العجب .

وقال ابن الرومي في تعليل بكاء المولود عند ولادته :

لَمَّا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُوَلَّدُ
وَالَا فَمَا يُبْكِيه مِنْهَا وَإِنَّهَا لَاوَسْعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَزْعَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا مُهْدَدُ^(١)

وقد حسنت المبالغة في شعر العباسيين الذين لم يستأسروا للصنعة فيقعوا في الإحالة وهم كثيرون خصوصاً في المدة الأولى . والمبالغة هي التي يعظم بها الحقير . ويهون الهائل . وهي ما دامت مقبولة في الذوق سائغة في التخيل ، جمال لا يعد له جمال . وردت في القرآن فقخم بها المعنى . قال تعالى - يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار - . فهي في الآية حسنة سائغة لموضع يكاد من الدلالة على القرب ومشارفة الوقوع . فلم يدخل القول في الغلو الممقوت أو الكذب المرذول . ومن أشعار العباسيين في المبالغة قول البحترى في المتوكل :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
فانظر إلى التعليق بلو والتقييد بما فوق الوسع فإن المبالغة دخلت بهما في باب الإمكان وخفم المعنى بذلك كل فخامة .

ومنها قول ابن الرومي في وصف بخيل :

لو أن قصر ك يا بن يوسف كله إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قيصه لم تفعل

فانظر إلى المبالغة كيف كان أثرها في تهويل أمر هذا البخيل وتصوير ضنه بإعارة أهون الأشياء لنبي من الأنبياء في مقام يجود فيه البخيل وتجب المواساة . فأذا أضفت إلى ذلك وفرة ماتحت يد هذا البخيل مما لا يجتمع مثله في ملك أحد وذكرت أنه

(١) استهل : بكى .

ابن المستعير كما يدل عليه ظاهر لفظ يوسف وابن يوسف علمت إلى أى حد صور لنا الشاعر بخله فاستوجب الزاوية من كل مصدق لهذا القول فيه .
وانظر إلى أبى تمام وقد وصف المعتصم بالشجاعة يوم عَمُورِيَّةَ فبالغ ما شاء مع وقوعه في حدود الإمكان قال :

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَهَا فِي جَحْفَلٍ لِحَبِ

ويكفي في تصديق مثل هذا أن تطلع على التاريخ لتعلم أن من الشجعان من سلم له العدو قبل أن يتحرك لحاربه فكان جيش الرعب هو العامل قبل جيش الهندوآنيات والسمهريات ، وأن منهم من لقي الجحافل وحده واخترق الصفوف وألقى الرعب في قلوب الأعدى .



ومن مزايا الشعر العباسى حسن الربط بين المعانى وذلك أثر لكثرتها عندهم وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . فليس فيها ذلك الشرود والتقطع البادى في أقوال الجاهليين مثلاً . وهذه الظاهرة عامة في شعر العباسيين لرغبتهم في الغوص على المعانى ، فلم يكن يعرض لأحدهم معنى حتى يستوفيه ويأتى على ما استطاع فيه ، فرتب المسببات على الأسباب ، وجاء بالنتائج بعد المقدمات . ومن بناء أفكارهم على هذا التنسيق البديع لم يروا من المقبول في النوق أن يَطْفِرَ الشاعر من غرض إلى غرض دون أن يمهّد له بصلة تجمع الغرضين في ناحية من نواحي التفكير ، فكان من عنايتهم بذلك نشوء النوع المسمى بحسن التخلص ، ومن أمثله قول أبى تمام في عبد الله ابن طاهر :

تَقُولُ فِي قَوْمِ قَوْمِي وَقَدْ أَخَذْتُ مَنَا الشَّرَى وَخُطَا الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ^(١)
 أَمَطَّلَعَ الشَّمْسَ تَبْغِي أَنْ تَوْثَّمَ بَنَا فَقُلْتُ كَلَّا وَلَكِنْ مَطَّلَعَ الْجُودِ
 وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي بَدَأَهَا بِوصفِ الرَّبِيعِ وَأَوَّلَهَا :
 رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرَّمُ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ
 فَلَمَّا أَرَادَ التَّخْلَصَ إِلَى مَدْحِ الْمُعْتَصِمِ قَالَ :
 خُلِقَ أَطْلَ من الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ خُلِقَ الْإِمَامِ وَهَدِيَهُ الْمُتَشَرُّ
 وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نَوَاسَ :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ حَمِيلِي يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
 أَمَادُونَ مِصْرٍ لِلْغَنَى مُتَطَلَّبُ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغَنَى لَكَثِيرُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتَهَا بِوَادِرٍ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيهِنَّ غَدِيرُ
 دَعَيْتِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ
 فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
 وَقَوْلُ الْمُتَنَبِّى فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ^(٢)
 فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السِّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

وَتَعْرِفُ فَضْلَ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي ذَلِكَ إِذَا قَسْتَ عَلَيْهِمْ فِيهِ بِمَا كَانَ يَفْعَلُهُ الْجَاهِلِيُّونَ مِنْ
 الطُّفُورِ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلَا أُنْسَةٍ وَلَا تَمْهِيدِ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ وَصْفِ اللَّيْلِ
 إِلَى الْمَدْحِ :

(١) قومس : بلدة بأصفهان . المهرية : الإبل تنسب إلى حتى من العرب يسمى مهرة بن حيدان .
 اقنود : جمع أقود وهو الذلول .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني : لو قال فتحكم لكان أحسن .

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَبٍ
عَلَى لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوْلَاهُ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَّارٍ^(١)
أَوْ بِرَبْطٍ هُوَ بِالْقَطْعِ أَشْبَهَ كَقَوْلِ زَهِيرٍ :
دَعَّ ذَا وَعْدَ الْقَوْلِ فِي هَرَمٍ خَيْرُ الْبُدَاةِ وَسَيِّدُ الْخَصْرِ



ومما يدل على سلامة أذواقهم ولطف مداخلهم عنايتهم بمطالع القصائد وخواتمها
فجعلوا المطلع دالا على القصد مشيرا إلى موضوع القول واختاروا له اللفظ المناسب للمقام :
المشجى في مقام الحزن ، المطرب في مقام السرور والارتياح ، ليكون أول ما يقرع السمع
مساعدًا على النشاط داعيا إلى حسن الإقبال . ومن محاسن الابتدآت قول أبي تمام
في مدح المعتصم بعد فتح ثَمُورِيَّةَ .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحِدِّ وَاللَّعِبِ
بَيْضُ الصَّخَاةِ لَأَسْوَدُ الصَّخَائِفِ فِي مُنُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وقوله في أول مرثية :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَعْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلَقَعَا^(٢)
وقصيدته المشهورة في رثاء محمد بن حُمَيْدٍ الطُّوسِيِّ :

كَذَا قَلِيلُ جِلِّ الْخَطْبُ وَلِيَقْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ

ومن خير ما يذكر في هذا الباب ابتداء المتنبي وقد لقي كافورا بعد فراق سيف الدولة
فإنه جمع المعنيين في قوله في بدء القصيدة :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَأَمُّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مِيَمٍ

(١) العقارب : النمام .

(٢) المنفى : المنزل الذي أقام به أهله ثم ظعنوا أو هو عام . البلع : الفقر .

ومثله وإن كان المقام أدق والجمع بين المعنيين أصعب قول ابن نباتة المصرى يهنى الملك
الأفضل صاحب حماة . ويعزيه عن والده الملك المؤيد ، وهى من غرر قصائده :

هناها محاذك العزاء المُقدِّما فما عَبَسَ الحزونُ حَتَّى تَبَسَّما
ثُغُورُ ابْتِسَامٍ فى ثُغُورِ مَدَامِعِ شَبِيهَانِ لَا يَمْتَّازُ ذُو السَّبْقِ مِنْهُمَا
تُرْدُ مجارى الدمع والبشرُ واضحٌ كوابِلُ غَيْثٍ فى ضحى الشَّمْسِ قَدْ هَمَّى (١)

وأما الختام فقد احتفلوا فيه وقصدوا إلى أن يكون اللفظ مؤذنا بالفراغ شافيا للنفس من
الحاجة إلى السماع . فراعوا فى ذلك ألا ينتهى الشاعر بمعنى لم يستوفه فإن بقاء النفوس
طالبة وقد عزَّ المطالب ، رغبة ولا تحقيق لرغبتها ، يعكر عليها سرورها بما مضى من
القصيدة ، وينتهى بها إلى القلق وهو لا يحسن أن يكون غاية . لذلك اختاروا للختام
تلك المعانى التى تفر النفس عندها كالدعاء الممدوح فإنه غاية الغايات ، وكالحكم البالغة
فإنها لاستقلالها بنفسها وجلال مكانها فى النفس تشغل السامع عن انتظار شىء فيتم
مراد الشاعر من حسن المخرج .

ومن حسن الانتهاء قول أبى العلاء المعرى أو المتنبى (على أنه ليس فى
ديوان أحدهما) :

بَقِيتَ بقاءَ الدَّهْرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ وهذا دعاءُ للبرِّيَّةِ شامل
وقول أبى تمام فى ختام قصيدة يمدح بها أبا سعيد الطائى :
أَتَيْتُكَ لَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ وَلَمْ أَشُدَّ الْحَاجَاتِ فى غَيْرِ مَنْشَدٍ
وَمَنْ يَرْجُ معروفَ البَعِيدِ فَإِنَّمَا يَدَى عَوَّاتٍ فى النَّائِبَاتِ عَلَى يَدَى



وإنهم حين دلوا على حسن ذوقهم باختيار المعانى الجليلة وسوقها فى معارضها المناسبة

(١) ترد مجارى الدمع : تكفكف .

والإبداع في ترتيبها ، والإحكام في ربطها ، لم يفهم أن ينظروا إلى قالبها من الألفاظ فيختاروها أليق شيء بمدنيتهم ، وأول دلائل على حضارتهم : لأن عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائهم فرقت عباراتهم ، وركبوا الفاره ، وأكلوا الطيب ، وذاقوا العذب وسمعوا المطرب ، فحكوا كل هذا فيما التمسوا من الكلام للدلالة على معانيهم الحضرية وأغراضهم السامية .

وإن فضل العباسيين على الأدب العربي لفضل واسع المدى غير مستطاع الشكر . فلو تصورنا أن الأدب ظل متوعر اللفظ خشن الجس فكم يكون مبلغ إقبالنا عليه ونظرنا فيه . فيد العباسيين على العربية عظيمة القدر . وإننا كما قلنا في مقامات سابقة إنما نتقيل ظلمهم ونطبع على غرارهم إذ كانت همتهم غاية المهمة وآثارهم مناط الآمال .

مساوىء المولدين في الشعر

إذا تم شيء بدا نقصه ، وقد تم الحسن للشعر على يد المولدين فأبت سنة الله في خلقه إلا أن يدخل عليه النقص مع الكمال من باب ، ويزوراه في إهاب . ذلك أن المعاني التي رفعت شعر العباسيين وجعلته حبيباً إلى النفوس بما فتح من أكام الأفكار ، وجلا من عرائسها الأبحار ، تلك المعاني هي التي جنت على الشعر حين لج فيها الشعراء ، فما يزال أحدهم يدق ويمعن في دقته حتى ينتهي إلى الاستغلاق ويحتاج قارئه إلى إعمال الفكر في الفوص على مراده ، ومن ذلك قول بعضهم :

وَعَلَّمَتْنِي كَيْفَ الْهَوَىٰ وَجَهْلَتُهُ وَعَلَّمَكُم صَبْرِي عَلَىٰ ظُلْمِكُمْ ظُلْمِي
فَأَعْلَمُ مَالِي عِنْدَكُمْ فَيَمِيلُ بِي هَوَايَ إِلَىٰ جَهْلِي وَأَعْرِضْ عَنِّي عِلْمِي^(١)

(١) معنى البيتين : علمتني بما فيك من جمال ودل كيف أحب ، وجهلت أنت حق الحب فلم ترحم شجوى . وقد كان صبري على ما يقع علي من ظلمكم سبباً في استمراركم في هذا الظلم . وإني لأعرف ما تنطوون عليه من إعراض عني ولكن هوى لكم وبحبتي تجعلني أستمري في التعاقب بكم متناسياً ما أعرفه من إعراضكم عني وإغفالكم لشأني .

وما زالوا يتتبعون العويس حتى انتهوا إلى الإلغاز فأكثرُوا منه وصار موضوع سمرهم
ومجال مباراتهم قال بعضهم في القلم :

ما غلام راكع ساجد
أخو نُحُولٍ دمه جارٍ
ملازم للخمس في وقتها
مُعْتَكِفٌ في خدمة الباري

وقال آخر في الميزان :

وقاضى قُضَاةٌ يفصل الحكم ساكتاً
وبالحق يقضى لا يبوح فينطقُ
قَصَى بلسان لا يميل وإن يَمِلُ
على أحد الخصمين فهو مُصَدِّقُ
وقال السَّرِيُّ الرَّفَّاءُ في شبكة الصياد :

وكثيرة الأحداق إلا أنها
عمياء مالم تَنْفَمِسَ في ماء
وإذا هي انغمست أفادت رَبَّهَا
ملا ينال بأعين البُصْرَاءِ

وقال أبو العلاء المعرِّي في الملح :

وبيضاء من سِرِّ الملاح مَلَكْتُهَا
فلما قَصَّتْ إِرْنَى حَبَوْتُ بها صَحِي
فباتوا بها مُسْتَمْتَعِينَ ولم تزل
تَحُثُّهُمْ بعد الطَّعَامِ على الشُّرْبِ
وقوله سر الملاح: السر الخالص ، والملاح جمع ملح . والإرب الحاجة .

وقول آخر في النوم :

وحامل يحمانى
إذا حصلت فوقه
سريت لا أدري أفى
وماله شخص يرى
وهو لذيذ المتطى
أرض سريت أم سما

وقال آخر في الصدى :

وساكن يسكن في الفلاة
ولا من الجن ولا الحيات
ولا بذى جسم ولا حياة
بلى له صوت من الأصوات
ليس من الوحش ولا النبات
ولا الخيام الشعر والأبيات
كلا ولا يدرك بالصفات
يسمع في الأحيان والأوقات



وكان التشبيه والاستعارة زين كلامهم لما يحملان من المعنى ويكشفان من غامضه
ويقرّبان من بعيدة ، فلما أمعنوا فيهما وكدوا الطبع بها أحالوا ، أو أتوا بالسخيف
البارد : فمن ذلك قول أبي نواس :

بُحَّ صوتُ المالِ مما مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
فأى شيء أبعد من جعل المال ذا صوت حتى يدعى أنه قد يح من كثرة الشكوى والصياح .
وكذلك قول بشار يصف محبوبته وهجرها .

وَجَدْتُ رِقَابَ الوصلِ أَسْيَافُ هَجْرٍهَا وَقَدْتُ لِرَجُلٍ البينِ نعلينِ من خَدَيِ
فانظر كيف جعل الوصل مقتولا والهجر سيفاً والبين ماشياً على رجلين منتعلاً أديم الخدين .
وقال أبو تمام :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ اللَّامِ فَإِنِّي صَبُّ قَدْ اسْتَعَذْتُ مَاءَ بَكَائِي
فأطلق الألسنة بعينه حتى أرسل إليه ظريف من أصحابه قارورة ، وقال له : ابعث لنا
شيئاً من ماء الملام ، وقد استثقل منه غاية الثقل ، واستبرد غاية البرد قوله :
كَأَنِّي حِينَ جَرَدْتُ الرِّجَاءَ لَهُ غَضًّا أَخَذْتُ بِهِ سِيفًا عَلَى الزَّمَنِ
ولعل ذلك إنما جاءه من جعله الرجاء شيئاً غضا طرياً كأنه فاكهة أونحوها بعد
قوله جردت ، وقد رواه صاحب الصناعتين ؟

* عَضْبٌ صَبِيتَ بِهِ مَاءَ عَلَى الزَّمَنِ *

وقد حق له أن يقول بعد إيراد البيت : « ولا يكاد يرى تشبيهه أبرد من هذا » .



وقد حسنت المبالغة منهم حين كانوا مقتصدين فيها ، فلما سباهم حسننها وغرم ماتقيده
من جلال وروعة تورطوا في مقابحها فأتوا بالحال كقول الخبز أرزى في وصف نحو له :

ذبت من الشوق فلوزج بي في مقلة النائم لم ينتبه
 وكان لي فيما مضى خاتم فالآن لو شئت تمنطقت به
 ومنها قول المتنبي (وما أكثر مبالغاته) يمدح محمد بن زريق الطرسوسي :
 لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شمساً^(١)
 أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى^(٢)
 أو كان ليج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
 وبعض هذا كفر وبعضه شبيه به . على أنك علمت من أمثلة مبالغتهم كثيراً فيما تقدم .



وبقية المحسنات البديعية التي أرقصت وأطربت منهم في كثير من أقوالهم هي التي
 تجيء اليوم غامضة ممقوتة لأنهم تعمدها وألحوا في تعمدتها ، وأكروها أبيها ولم يقصدوا
 إلى المعنى أو لم يجدوها الغرض إلى إنشاء القول بل حدثهم الرغبة في تحقيق مثال من هذه
 البديعيات ، فانظر إلى أي حد صار العرض جوهراً والطلاء أساساً . والغريب من
 أمرهم أنهم عولوا على الدقيق من هذه الأنواع فأكثروا من الاستخدام والتورية وبعد
 أن كان الاستخدام يقع بضمير واحد غالباً استطاع أن يجعله صلاح الدين الصفدي
 بثلاثة ضماير في قوله :

ورُبَّ غزالةٍ طلعت بقلبي وهو يرهاها
 نصبت لها شراكاً من نضار ثم صَدَنَّاها
 وقالت لي وقد صرنا إلى عين قصدناها
 بذلت العين فأكلها بطاعتها ومجراها

(١) رأيه أي رأى المدوح .

(٢) عازر (كهاجر) : الرجل الذي أحياء عيسى عليه السلام .

وقد اجتمع الاستخدام في البيت الرابع ، فالعين: الفضة . والضمير في أكلها لها بمعنى الباصرة ، وفي طلعتها بمعنى الشمس ، وفي مجراها بمعنى معين الماء .

ومن الاستخدام قول ابن نباتة المصري من قصيدة في مدح الرسول :

إذا لم تقض عيني العقيق فلا رأيت منازلها بالقرب تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي فلا عاها عيش بمغناه أخضر
ومن التورية قول المعري :

إذا صدق الجدُّ افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وإن كذَّبَ الحالُ
وقول الحريري في الحجر :

يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ ممدوحٍ الأوصابِ في الأندية
قتلتها لا أتقى وارثاً يطلبُ منى قوداً أو دية
ومنها قول القاضي الفاضل في محبوبه الذي نبت شاربهُ :

وكنْتَ وكنَّا والزمان مساعدُ فصرْتَ وصرُّنا وهو غيرُ مساعدٍ
وزاحمني في وِرْدٍ ريقك شاربُ ونفسي تأبى شِرْكها في المَواردِ

وأما فضيلة السهولة التي ظهرت في شعر الأوائل من شعراء هذه الدولة فقد صارت ركة وغثاءة في شعراً وآخرهم وفقدت الأساليب على أيديهم جلالها ونخامتها ، حتى ائقظوا المعاني العامة في الألفاظ المهلهلة . وقد سلم ذلك إلى حدٍّ ما في شعر البهاء زهير المصري ولكنه في غيره دل بنفسه ، على سخفه .

ومن قول البهاء :

أنا من تسمع عنه وترى لا تُكذِّبُ في غرامي خَبَرا
لى حبيب كملت أوصافه لا أرى مثل حبيبي لا أرى

وقوله :

أيارسولى إلى من لا أبوح به إن المهمات فيها يعرف الرجل

بلغ سلامي وبالغ في الخطاب به وقبل الأرض عنى عند ما تصل
ويتصل بهذا مذكروا من أن بعض الأدباء اطلع على ديوان صفي الدين الحلي ، فقال :
لا عيب فيه إلا أنه خال من الألفاظ الغريبة فأرسل إليه صفي الدين بهذه الأبيات .
إنما الحيزبون والدرديس والطخا والثقأخ والعطليس^(١)
والعطاريس والشقحطب والسقوب والحر بصيص والعيطموس^(٢)
والجراجيح والعنفقس والعفلق والطرفسان والعسطوس^(٣)
لغة تنفر السامع منها حين تروى وتشمئذ النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المانوس
إن خير الألفاظ ما طرب السا مع منه وطاب فيه الجليس
إن قولي : هذا كتيب ، قديم . ومقالى عققل ، قدموس^(٤)
لم نجد شاديا تعنى « قفا نبك » على العود إذ تدار الكؤوس
أتراني إن قلت للحب يا علق درى أنه العزيز النفيس
أوتراه يدرى إذا قلت خب السعير أنى أقول سار العيس
درست هذه اللغات وأضحى مذهب الناس ما يقول الرئيس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس
وقد علمت من قول صفي الدين مقدار إزرائه بالألفاظ إذا لم تكن مما ارتضاه أهل

-
- (١) الدرديس : الداهية والشيخ والمعجوز . الطخا (بالحاء) : المنبسط من الأرض . وبالحاء والمد : السحاب المرتفع . الثقأخ : البارد العذب . العطليس : الأملس البراق .
(٢) العطاريس : جمع غطريس وهو الظالم المتكبر . الشقحطب : الكبش له قرنان أو أربعة كل منها كأنه شق حطب . السقوب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد ، أو خاص بالذكر . الحر بصيص : الحلي . العيطموس : النامة الخلق من الإبل والنساء .
(٣) العنفقس : العسر الاخلاق . العفلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الحقاء . الطرفسان : القطعة من الرمل . العسطوس : شجرة كالحيزران .
(٤) العققل : الوادى العظيم . القدموس : القديم .

زمنه على أن هذا الأديب الناقد ربما أراد ما أردناه من خلوة أهل العصر من الجزالة وهي كما علمت لا تقتضى الوحشية .

وقد حط من قدر الشعر على أيدي العباسيين المتأخرين أنهم ابتذلوا مصون شرفه وتعدوا جليل مقامه ، فبعد أن كان عند الأولين مجال خيال ومستتراد حكمة استعانوا بوزنه ونظام قافيته على ضبط مسائل العلوم من : فقه ونحو وطب وتقويم بلدان وتاريخ . وهذا وإن كان خدمة لتلك العلوم لأنه يسهل تحصيلها بهذا التقييد لكنه إضرار بقدر الشعر وتعد على قدسيته .

ومن أمثلة ذلك قول الحريري في كتابه (ملحة الإعراب وسنخة الآداب) في علم النحو .

باب الشرط والجزاء

هذا وإن في الشرط والجزاء	تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما	وحيثما أيضاً وما وإذما
وأين منهن وأنى ومتى	فاحفظ جميع الأدوات يافتي
وزاد قوم ما فقالوا إما	وأينما كما تلوا أياما
تقول إن تخرج تصادف رشدا	وأينما تذهب تلاق سعدا
ومن يَرُزُ أزره باتفاق	وهكذا تصنع في البواق
فهذه جوازم الأفعال	جلوتها منظومة الآلى
فاحفظ وقيت الشر ما أملت	وقس على المذكور ما ألفت

ومن ذلك أيضاً قول ابن سينا من أرجوزة له في المنطق :

الحد

العالم منه ماهو التصور ومنه تصديق لشيء يخبر
ويحصل التصديق بالقياس وقد شرحناه بلا التباس
والحد منه يحصل التصور والرسم أيضاً منه فيه أثر
إذا أردت أن تحد حداً فرتب الجنس القريب جدا
فإنه يحصر كل ذاتي يكون المحدود في الصفات
ثم اطلب الفصول فهي الحاده من صورة أخذتها أو مادته

وقال في مواد المقدمات :

لا يعرف المجهول بالمجهول وإنما يعرف بالمعقول
وإن حكمنا أن كل ما علم قد كان مجهولاً فهذا ينتظم
بغير حد وبلا نهاية وليس عند أحد درايه
بل عندنا المقدمات أول منها يحاز علم ما قد يجهل
فبعضها مقدمات الحس كظلمة الليل وضوء الشمس
وبعضها توجبها الأوهام فإن يكن موضوعها الأجسام
وكل ما تدركه الحواس فليس فيما أوجبه باس

وقال أيضاً في أرجوزة الطب :

ابلع من الصابون وزن درهم تنجوسن القو لنج غير المحكم
وهكذا الكمون والسكر اويا تأكله محمصا تدوايا
وطبقك الأرضاس في التثاؤب مأمنة منه لدى التجارب



مرارة الحية سم قاتل وهو للمسوع بها يقابل
إذا سقى المسموم منها حبه نجا من السم بتلك الشر به
وإن سقى الصحيح منها ماتا في وقته وفارق الحيانا

طبقات الشعراء العباسيين

كثر الشعراء في هذا العصر كثرة هائلة . حتى لا يكاد يحصيهم عدّ ، لما علمت من عظم شأن الشعر واحتفال الخلفاء والأمراء به ، وكانت كثرتهم هائلة في المدينتين الأولى والثانية . ولعلمهم في الثانية (وهي مدة حكم البويهيين) كانوا أكثر لتعدد أمصار المسلمين بتعدد الدول الحاكمة المتنافسة في العناية بالأدب وترقية أهله . ولقد بلغ من كثرتهم أن صاحب بن عباد بنى قصراً فنهأه خمسون شاعراً . وقالوا إنه اجتمع بباب سيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع بباب خليفة من الخلفاء .

وقد اتفق في هذه المدة أن قامت الدولة الفاطمية بمصر أيضاً فازدهرت الآداب بها ونافست مصر بلاد المشرق ، فكان للشعر شأن عظيم في كل مكان .

وليس يهمننا حصر الشعراء في هذا العصر الطويل المدى الذي دام خمسة قرون أو تزيد ، ولكننا نذكر طبقات الشعراء فيه . والطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك .

والطبقة الأولى من شعراء هذه الدولة هم مخضرمو الدولتين الذين أدركوا شطرا

- ٤٠٢ -

من عصر بني أمية ثم أظلمتهم الدولة العباسية . ومن هؤلاء إبراهيم بن هرمة ، و بشار ابن بُرْد سنة ١٦٧ ، والحسين بن مُطَيْر ، وأبو حية النَّمِيرى ، وابن الخياط المَكِّي ، وسَدِيف بن مَيْمُون ، وأبو الهندي ، وحماد تَجَرْد سنة ١٦٨ ، ومُطِيع بن إِيَّاس سنة ١٦٩ ، وصالح بن عبد القدُّوس سنة ١٦٧ ، وأبو دُلَّامة سنة ١٦١ ، والسَّيد الحُمَيْرِيُّ سنة ١٧٣ ، ومروان بن أبي حَفْصة سنة ١٨١ ، ومن رُجَّاز هذه الطبقة أبو نُحَيْلة السَّعْدِي ، ورؤبة بن العَجَّاج سنة ١٤٥ .

والطبقة الثانية نشأت في صدر الدولة ، ومن رجالها والبة بن الحُبَّاب وأبو العتاهية سنة ٢١١ ، وأبو نُوَّاس سنة ١٩٨ ، ومسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، والحَكَم بن قَنْبَر (وكان بينهما مباحة) وسَلَم بن عمرو الخاسر سنة ١٨٦ ، والعباس بن الأحنف سنة ١٩٢ ، وأبو الشَّيْص سنة ١٩٦ ، وأشجع السَّهْمِيّ ، والفضل بن عبد الصمد الرِّقَاشي سنة ٢٠٠ ، وكنثوم بن عمرو العَتَّابِيّ سنة ٢٢٠ ، ومنصور النَّمَرِيّ وربيعة الرِّقِّيّ ، وأبان بن عبد الحميد ، والعَكْوَك (على بن جَبَلَة) سنة ٢١٣ ، وعَوْف ابن مُحَلَّم الخُزَاعِيّ ، ومحمد بن بَشِير الرِّيَّاشِيّ وبَكْر بن النُّطَّاح .

والطبقة الثالثة طبقة أبي تمام سنة ٢٢١ ، وديك الجِنِّ الحِمَصِيّ سنة ٢٣٥ ومحمود بن الحسين الورَّاق ، وعبد الصمد بن المُعَذَّل وأخوه أحمد ، والحَمْدُونِيّ إِسْمَاعِيل ابن إبراهيم بن حَمْدَوِيَّة البصري ، وأبو العَمَيْثَل كاتب آل طاهر سنة ٢٤٠ ، ودَعِيل بن علي الخُزَاعِيّ سنة ٢٤٦ ، والعَطَوِيّ (نسبة إلى جده عَطِيَّة) والحسين ابن الضَّحَّاك سنة ٢٥٠ .

والطبقة الرابعة طبقة بن الرومي سنة ٢٨٣ ، والبحثري سنة ٢٨٤ ، وابن المعتز سنة ٢٩٦ ، ومحمد بن اسحق الصيمَرِيّ ، وعلي بن يحيى سنة ٢٧٥ وقد نادى المتوكل ثم المعتمد بعده ، وأبو العباس الأنباري سنة ٢٩٣ ، والبَسَامِيّ سنة ٣٠٢ ، والخُبَزَّارُزِّيّ سنة ٣١٧ ، ومن رَجَّازها العَمَّانِيّ مادح الرشيد وعُمارة بن عَقِيل .

— ٤٠٣ —

ومن شواعر هذه المدة والتي قبلها : عليّة بنت المهدي وأخت الرشيد ، وعنان جارية النّاطقيّ وصديقة أبي نواس . ومحبوبة ، وبنان ، وفصل ، جوارى المتوكل .



وفي عهد بني بويه ومن بعدهم ينقسم الشعراء قسمين : المشاركة وهم شعراء بغداد ومدن العراق ؛ ثم شعراء مصر والشام .

فأما المشاركة فقد اشتهر منهم : أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلاميّ سنة ٣٣٩ ، وابن نباتة السّعديّ سنة ٤٠٥ ، والشريف الرضي سنة ٤٠٦ ، ومهيار الديلميّ تلميذه الذي أسلم على يديه سنة ٤٢٨ ، وابن الهبّاريّة سنة ٤٠٥ وهؤلاء جميعاً عاشوا ببغداد .

ومن شعراء الأمصار الأخرى في العراق : أبو طالب المأموني سنة ٣٨٣ ، وأبو الفتح البُستيّ سنة ٤٠٠ ، وصّرْدُرّ سنة ٤٦٥ ، والباخرزي سنة ٤٦٧ والطُّغرائيّ سنة ٥١٣ ، والغزّيّ سنة ٥٢٤ ، وابن التعاويذي سنة ٥٣٨ والقاضي أبو بكر الأَرَجانيّ سنة ٥٤٤ ، وصالح الدين أبو المظفر الأبيوزديّ سنة ٥٥٧ ، أما شعراء الشام ومصر فهم أكثر عدداً وأرقى شعراً من المشاركة وسبب ذلك ما يقوله أبو منصور الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر . قال :

والسبب في تبرز القوم (يعني شعراء الشام وما يقاربها) قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريتهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم) .

وشيوخ الشعراء في هذه الأيام إلى نهاية الدولة العباسية هو أبو الطيب المتنبي سنة ٣٥٤ ؛ ومن المعدودين أبو فراس الحمداني سنة ٣٥٧ ، وكشاجم سنة ٣٦٠

- ٤٠٤ -

والسريّ الرّقاء سنة ٣٦٣ ، وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالوأواء الدمشقي
حوالي سنة ٣٩٠ ، وأبو الفرج الببغاء سنة ٣٩٨ ، وأبو العباس النّاعي سنة ٣٩٩
والخالدّيان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد) الأول سنة ٣٨٠ والثاني سنة ٤٠٠
تقريباً . وخاتم المجيدين أبو العلاء المعرّي الفيلسوف الذي أحدث في الشعر الكلام
في الاجتماع وتقد الحكم والرّاء للبائسين سنة ٤٤٧ .

ويجيء بعد هؤلاء من أهل الشام : ابن سينان الخفّاجيّ سنة ٤٦٦ ، وأبو الفتيان
محمد بن حيّوس سنة ٤٧٣ ، وابن الخياط الدمشقي سنة ٥١٧ ، وابن منيّر الطّرابُلُسيّ
سنة ٥٤٨ ، وابن الساعاتي ولد بالشّام وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٤ .

ومن شعراء مصر القاضي أبو الفتح نصر الله المعروف بابن قلاّيس الإسكندريّ
سنة ٥٣٢ ، والقاضي أبو الحسن المعروف بابن الزّبير الغسانيّ الاسوانيّ المقتول
سنة ٥٦٣ ، والقاضي السعيد هبة الله المعروف بابن سناء الملّك سنة ٦٠٨ ، وكال
الدين بن النّبيه سنة ٦١٩ ، وعمر بن الفارض سنة ٦٣٢ وجمال الدين ابن مطروح
سنة ٦٤٩ ، وبهاء الدين زهير سنة ٦٥٦ .

بشار بن برد

بشار واحد من شعراء قلائل كان لقبهم سلطان عليهم في جميع مظاهر حياتهم فحضرت
له كل تصرفاتهم . واصطبغت به علاقاتهم بالناس ؛ فقد كان من امتزاج الشاعرية
بدمية أن أسرع ظهورها فيه حتى قال الشعر ولم يبلغ العاشرة من سنه ، وقد تمثلت هذه
الشاعرية في اتخاذه آنية داره فإنه لم يعجبه رسم جام طلب من مصوّر أن ينقشه له
فقد ذكر المصور أنه صور طيوراً تطير فغضب بشار وقال : كان ينبغي أن تجعل فوقها
جارحاً يحوم لصيدها ، ثم كان له من بيته مجالس : مجلس للغداة ، وآخر للعشي ، ويسمى
الأول البردان والآخر الرقيق ، وكذلك كان شاعراً في تناديه ، شاعراً في كل تصوراته

ينغم بالفن ويعرف قدره ويحرص على ما أحدثه منه ، حتى لقد غضب على تلميذه سلم
الخاسر حين أغار على بيته :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهَجُ^(١)
فقد أخذه سلم فقال :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسورُ
قال بشار أناخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها فتكسوها ألفاظاً
أخف من لفظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ، لا أرضى عنك أبداً .
وبكى حين رأى حماداً قد اهتدى إلى معنى في هجائه كان بشار قد عرفه في
نفسه ولم يشأ أن ييوح به حتى لا يتخذ سلاحاً يقاتل به وذلك قول حماد :

ويا أقبح من قرٍدٍ إذ ما سمى القرِدُ
ثم هو شاعر يجعل الشعر صورة ما في نفسه من حب وبغض وإعجاب ومقت ، فهو يمدح
ويهجو ويتعزل مندفعاً إلى ذلك مجنون الفن الذي لا حذر معه ولا روية تنهه من
غربه في هجاء ذى سلطان أو إخفاش في غزل بعد ان هدد من أجل ذلك . كل هذا
كان في بشار فكان شاعراً لا كهؤلاء الذين قالوا الشعر من أجل الجائزة ، ثم هم بعد
لا أثر للشعر في مظهر من مظاهر حياتهم ولا غور له في نفوسهم .



بشار بن برد بن يَرْجُوح ، وقد عدَّ له أبو الفرج الأصبهاني ستة وعشرين جداً
أسماءهم كلها أعجمية ، وذكر أن يرجوخ أقرب أجداده كان من طَخَارِستان من سبى
المهلب بن أبي صُفْرة وأن أباه برداً كان من عبيد خيرة القَشِيرِيَّة امرأة المهلب ، وكان
مقيماً لها في ضيعتها بالبصرة فزوجته من امرأة من بنى عَقِيل يقال لها أم الظباء كانت

(١) اللَّهَج : المغم بالمشيء ، من قولهم لهج بكذا : إذا أغرى به .

- ٤٠٦ -

متصلة بها ثم وهبته لها فولدت منه بشاراً وهو في ملكها. فأعتقته العقيلية فنشأ بشار في ولاء بني عُقيل . وعلى هذه الرواية يكون رق بشار من ناحية أبيه فتكون كذلك عجمته من هذه الناحية . ولكن بعضاً من الرواة يحدث أن بشاراً وأمه كانا لرجل من الأزد ، فتزوج امرأة من بني عقيل فساق إليها بشاراً وأمه في صداقتها ثم كانا أن أعتقت العقيلية بشاراً لأنه كان مكفوفاً ، وعلى هذه الرواية تكون عجمته من ناحية أمه فإذا كان قد انضم إليها عجمته من ناحية أبيه يكون بشاراً معماً مخولاً في العجمة ولا يكون له في العربية عرق . ويؤيد هذا الظن إلى حد ما أنه قال : دخلت على المهدي فسألني فيمن تعتدّ يا بشار ، فقلت : أما اللسان والزيّ فعرييان وأما الأصل فمجمي كما قد قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

وَنُبِّئْتُ قوماً بِهِمْ جِنَّةٌ يقولون من ذا وكنت العَلَمُ
ألا أيها السائلُ جاهداً ليعرفني أنا أَنفُ الكَرَمِ
نَمَتْ في الكرامِ بنى عامر فروعى وأصلي قريشُ العَجَمِ

وأظن أنه لو كانت أمه عربية لما استطاع أن يدعى العجمة المطلقة ، فإنهم فرقوا بين من هو عربي الأب أعجمي الأم ، ومن هو على العكس ومن كان أعجمي الأبوين ، فسموا الأول هجيناً ، والثاني مقرفاً ، والثالث أعجمياً وما كان بشار يجهل هذه التفرقة حتى يحمل كلامه على التوسع .



ومن كان مثل بشار له ولاء في قبيلة عربية يفخر بذلك الولاء ويملاً شذقيه بالنسبة إليها ، ولكن بشاراً صادف زماناً قد شغب فيه العجم على العرب وأحسوا لأنفسهم بوجود فأكثروا من ثلب العرب والزراية بهم وذلك مذهب إنما جد من احتقار العرب للأعاجم وسومهم الخسف فتولد الحقد في نفوس هؤلاء عليهم ، ولما

- ٤٠٧ -

وجدوا من الدولة الأموية ضعفا ثم من العباسيين ممالأة واعتدادا بحسن أثرهم أعلنوا ذلك في حوارهم مع العرب وسجلوه في أشعارهم ، وكان بشار أحد هؤلاء الشعوبين فكان من قوله الدال على الزراية بشأن العرب :

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبَعْضُهُمْ مولى العُربِ فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرمُ من تميم كلها أهل القَعَالِ ومن قرش المَشْعَرِ^(١)
فارجع إلى مولاك غير مُدافعٍ سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

خلقه وخلقه

كان من صفة بشار الكمه وجحوظ الحدقتين مع تغشيهما بلحم أحمر ، فكان أقبح الناس عَمى وأفظعه منظرا مع الطول المفرط وضخم الجثة وتشويه الوجه بالجدرى^(٢) وأدمة البشرة .

أما صفاته النفسية فقد كان له منها محاسن ومساوئ ، فكان من محاسنه توقد الذكاء وصدق الحس . فقد ذكروا أنه مر به رجل وهو جالس على بابه وليس معه أحد ويده مخرصة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأُتْرُج^(٣) فتاقت نفس الرجل إلى سرقة ما بين يديه فأقبل قليلا قليلا حتى إذا أهوى بيده ليتناول ما فى الطبق ضربه بشار بالقضيب على يده حتى كاد يكسرها فقال له الرجل أنت الآن أعمى !! قال فأين الحس ؟ .

وجاءه من يسأل عن منزل رجل يعرفه بشار فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكم قد ضلّ من كانت العميان تهديهِ

(١) المشعر : النسك، والمراد به مكة .

(٢) الأترج : ثمر شجر بستانى من جنس الليمون ناعم الحطب والورق .

وقد أدرك بشار علة ذكائه وعرف أن العمى هو الذى وفر له هذا الذكاء فإن المعروف أن القوى والحواس يزيد بعضها بنقصان بعض وقد قال فى ذلك :

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالذِّكَاءُ مِنَ الْعَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثِلًا
وَعَاضُ ضِيَاءِ الْقَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِدًا لِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصَلًا
ولعله لم تكن له منقبة بعد الذكاء إلا صلة الرحم والكرم كان له أخوان يقال لأحدهما
بشرو للآخر بشير وكانا قصابين وكانا بشار بارًا بهما على ضيق صدره وتبرمه بالناس
فكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخاها وينتنان رائحتها ، فإذا دعا بشار بشوب فلبيسه
فأنكر رائحته يقول : (أَيْمًا أَوْجَهُ أَلْتَى سَعْدًا^(١)) ، وكان يخرج للناس فى تلك الثياب
التي ابتذلها أخواه ، فإذا قيل له ما هذا يا أبا معاذ قال : (هذه ثمرة صلة الرحم) .

وكان كريمًا حتى لقد جعل لأبى الشَّمَمَقِ الشاعر الرقيق الحال مائتى درهم فى
كل عام فجاءه فى بعض السنين فقال له هلم الجزية يا أبا معاذ ، قال ويحك أهي جزية ؟
قال هو ما تسمع ، ثم امتد بينهما المزح حتى قال أبو الشَّمَمَقِ يهبجو بشارًا :

إِنِّي إِذَا مَا شَاعِرٌ هَجَانِيهِ وَلَجَّ فِي الْقَوْلِ لَهُ لِسَانِيهِ

أَدَخَلْتُهُ فِي اسْتِ أُمِّهِ عَلَانِيهِ بَشَارِيَا بَشَارِيَا بَن

وأراد أن يقول يا بن الزانية فقام بشار فأمسك فاه ودفع إليه مائتى درهم .
وأنشد بشار جعفر بن سليمان :

أَقْلَى فَإِنَّا لَا حَقُونَ وَإِنَّمَا يُؤْخِرُنَا أَنَا يَعِدُ لَنَا عَدَا

وما كنت إلا كالأغر بن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا^(٢)

(١) سبب هذا المثل أن الأصبط بن قريع كان سيد قومه ، فلقى منهم سوء معاملة فرحل عنهم إلى غيرهم
فوجدهم يعاملون سادتهم كذلك فقال هذا القول . ويظهر أن سعدا هذا هو الذى كان يناوئه فى
قومه وهو سعد بن زيد ، وقد روى المثل رواية أخرى : فى كل واد سعد بن زيد .

(٢) يقصد عبد الله بن جعفر كرم المدينة المشهور . وقد قيل عنه إن أهل المدينة كانوا يدانون إلى
أن يأتي عطاء عبد الله فيردوا ديونهم .

فقال له جعفر بن سليمان من ابن جعفر؟ فقال الطيار في الجنة، فقال لقد ساميت غير مسامي، فقال والله ما يقعدني عن شأوه بعد النسب ولسكن قلة النسب. وإني لأجود بالقليل، وإن لم يكن عندي الكثير، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور. أما غير ذلك من صفاته، فقد كان شرا كله. كان متبرما بالناس شديد الكراهة لوجوده بينهم، فكان يقول: (اللهم إني تبرمت بالناس وبنفسي فأرحني منهم ويقول: الحمد لله الذي أذهب بصري لئلا أرى من أبغض) ونشأ عن ذلك إقذاعه في الهجاء، وكان كثير الاستهتار بشعائر الدين غير مبال بالوقعة فيه، فقد حدث بعض أصحابه قال: كنا نكون عنده، فإذا حضرت الصلاة قمنا إليها، ونجعل على ثيابه تراباً حتى ننظر هل يقوم ليصلي فنعود والتراب بحاله وما صلى. وحدث آخر قال أتينا بشارا فأذن لنا والمائدة بين يديه فلم يدعنا إلى طعامه، فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته وبال فيه ثم حضرت الظهر والعصر فلم يصل فدنا منه أحدهم وقال دخلنا عليك والطعام بين يديك فلم تدعنا إليه فقال إنما أذنت لكم أن تأكلوا، وقال ودعوت بطست ونحن حضور فبليت ونحن نراك فقال أنا مكفوف وأتم بصراء وأتم المأمورون بغض الأبصار، قال وحضرت الظهر والعصر فلم تصل فقال إن الذي يقبلها تفارق يقبلها جملة.

وسمع مغنية تغني في قوله :

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته
ومُخَضَّبِ رَخْصِ البَنَّا نِ بَكى على وما بكيتُهُ
يا منظرًا حسنًا رأيت بوجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ثوب الشباب وقد طويته

فطرب بشار وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر.

وتلاحي عبد الله بن مسعود الباهلي وأبو النضير أمام بشار في شيء، فقال عبد الله

يا بن اللخناء أتكلمنى ولو اشتريت عبداً بمائتى درهم وأعتقته لكان خيراً منك فقال أبو النضير والله لو كنت ابن زنى لكنت خيراً من باهلة كلها فغضب الباهلى فقال بشار أنت منذ ساعة تزنى أمه ولا يغضب فلما كلمك كلمة واحدة لحقك هذا كله ! فقال وأمه مثل أمى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار وقال : والله لو كانت أمك أم الكتاب ما كان بينكما من المصارمة كل هذا .

ويكنى فى الدلالة على فجوره أن واصل بن عطاء خصمه من أجل معتقداته وخطب الناس فى أمره وكان أبلغ بالراء فكان لبلاغته يتجنبها فى كلامه فقال فى شأنه .

(أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة سحبية من سجايا الغالية لدستت إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله ، أوفى حفله ثم كان لا يتولى ذلك إلا عُقَيْلى أو سَدُوسى) فقال أبا معاذ ولم يقل بشارا ، وقال المشنف ولم يقل المرعث (وتلك كنية بشار لأنه كان يلبس الرعاث فى أذنه) وقال من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة وقال فى منزله ولم يقل فى داره وقال يبعج ولم يقل يبقر كل ذلك ليتجنب الراء حتى لا يظهر عيب لثفته .

وكذلك أنكر عليه سوار بن عبد الله الأكبر ، ومالك بن دينار ما هو متورط فيه من هجاء الناس ، والتشبيب بالنساء ، وقال فيه : ما شئ أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وقال واصل أيضاً : إن من أخدع حبايل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد ، وقد قصده مالك بن دينار فى داره وقال : أنشتم أعراض المسلمين ، وتشبب بنسائهم ؟! فجبن بشار ، وقال له : لا أعود ، ولكنه لم يكن إلا كاذبا جباناً يتخلص من الموقف ، ثم عاد إلى ما كان فيه من غزل مغر وهجاء مقذع ، حتى إنه لم يستطع أن يقلع بعد أن تسمع المهدي بما كان من إفساده للنساء والشبان فى البصرة ونهاه وحرمه من الجائزة ، فلم يكن ذلك رادعا له

كما لم يكتف بهجاء النساء حتى هجأ الخليفة ووزيره يعقوب بن داود ، فجعل كل ذلك مع تهمة الزندقة ذريعة لقتله ، فاستراح الناس من شره .



ومن مساوئه : المجون ، وهو في المرء خليط من اطراح الحشمة ، والتنكب عن حسن السمات ، وخبث في النفس يدعوها إلى إبراز ما تكن من زراية وامتهان لما تريد الزراية عليه ، والامتهان له في صورة المزء والسخرية ، فهو جاع لشروور كثيرة في المرء ، وقد كان لبشار منه نصيب كبير .

ذكروا أنه سمع قاصدا يقول في قصصه . من صام رجبا ، وشعبان ، ورمضان بنى له قصر في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره ، عشرة فراسخ في مثلها ، فقال بشار : لمن معه : بئست والله هذه الدار في كانون الثاني^(١) .

ومر برجل قد رحته بغلته وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : استزد يزدك ، ومر على قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين أترام سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم ، ورفع إليه غلامه في حساب نفقته عشرة دراهم جلست بها مرأة ، فصاح به بشار وقال : ما في الدنيا أعجب من جلاء مرأة أعمى بعشرة دراهم ، والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم .

وكان ينشد المهدي ، ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه يزيد (وكانت فيه غفلة) وقال له يا شيخ ما صناعتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك

(١) كانون الأول والثاني شهران يقعان في قلب الشتاء .

- ٤١٢ -

المهدى ، وقال لبشار : أتناذر على خالى ، قال : وما أصنع به ، يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ، ويسأله عن صناعته .

وكان بشار جالسا في دار المهدى والناس ينتظرون الاذن ، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر : ما عندكم في قول الله عز وجل : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ) فقال بشار النحل التي يعرفها الناس قال : هيهات ، النحل بنو هاشم . وقوله : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) يعنى العلم ، فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعنا غثاثة ، فغضب وشتم بشاراً وبلغ المهدى الخبر فضحك حتى أمسك بطنه ، وقال للرجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك غث بارد .

آراؤه ومعتقداته

كانت الآراء الفلسفية قد بدأت تشيع بين العرب وكان يسرع إلى التعلق بها كل من كان واهى العقيدة كبشار ، لذلك تراه قد اعتنق من هذه الآراء القول بالرجعة إلى الدنيا ، وتكفير جميع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن الدين . قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال كفروا ، قيل فما تقول في على كرم الله وجهه ؟ فتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبَحِينَا

وكان يفضل النار على الطين والنور على الظلمة ويصوب رأى إبليس في عدم سجوده لأدم وقد ذكر ذلك في شعره ، فقال :

الأرضُ مظالمٌ والنارُ مُشْرِقةٌ والنارُ معبودَةٌ مذكَانتُ النارُ

ويقولون إنه كان أحد أصحاب الكلام الستة بالبصرة، وهم: عمرو بن عبيد، وواصل ابن عطاء، وبشار، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد كانوا يجتمعون في داره ويختصمون عنده. فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فقد صححا التوبة، وأما الأزدي فقد مال إلى قول الشَّعْبِيَّة^(١) وهو مذهب من مذاهب الهند، وأما بشار فقد بقي مترددا متحيرا مغلطا.

والذي نراه أن بشارا كان منافقا يظهر للجمهور الناس بأنه على طريقتهم ويضمر ازدراء لمذهبيهم. وكان يعلم ضرر الظهور بالإلحاد بين شعب متدين فاتخذ ذلك سلاحا في هجاء حماد مجرد فكان يتهمة بالزندقة فيقول له:

يا بن نُهَيْبِ رأس على ثقيل واحتمال الرأسين خطبٌ جليل
ادْعُ غَيْرِي إلى عبادة الآءِ نين فإني بواحد مشغول
يا بن نُهَيْبِ برئت منك إلى الله جهارا وذاك مني قليل

وليس بعيداً على شاعر يقول بفيه مالميس في قلبه أن يكون منافقاً فقد ألف ذلك في جميع مظاهر حياته. وهكذا كان بشار زنديقا مع الزنادقة ملازماً للجماعة بين جمهور الناس حتى يأمن الشر على نفسه. فليس من أصحاب الآراء الذين يفنون في معتقداتهم ولا يبالون ما يجره عليهم تمسكهم بأرائهم. وهكذا كان في شعوبه يتحقر العرب ويتلق أمراءهم لأخذ الجوائز والاستحواذ على العطايا. وبعد فهو شاعر أصدق أوصافه أنه كاذب.

شاعرية بشار

كان لنشأة بشار في بني عقيل أكبر أثر في شاعريته، فإنه لما تمت له ملكة اللغة بهذه النشأة وانضم إليها ماله من فطرة في الشعر وخيال واسع لا يستعصى معه معنى ولا

(١) قوم من الهنود يعبدون صنما يسمى سومنات، وعندما أن العلم والمعرفة لا يحصلان إلا من طريق الحواس فهم لا يؤمنون إلا بما كان محسوسا. قال عنهم في القاموس المحيط: قوم بالهند دهريون فائلون بالتناسخ.

يفوت غرض ، صار بشار ذلك الشاعر الذى كثر قوله كثرة لم تعهد لغيره من الشعراء فى قديم ولا حديث فإننا إذا صدقناه فيما ادعى من أن له اثني عشر ألف قصيدة لا يكون فى الشعراء من خلف خمس هذا الشعر أو عشره . والعجب أن يقول بشار هذا القول ولا يرد عليه دعواه أهل عصره ثم لا نرى من شعره إلا نصيباً هو أقل من القليل .

ولعل السبب فى موت شعر بشار هو إقذاؤه فى المهجاء وإفخاشه فى الغزل ، وأنه كان السابق إلى هذا فى زمن كان أقرب إلى الورع وفى بلدة (البصرة) هى موطن التابعين وتابعيهم : أمثال الحسن البصرى وابن سيرين وسوار بن عبد الله ومالك ابن دينار وواصل بن عطاء وغيرهم فكل ذلك جعل لشعر بشار أقيح أثر فى النفوس ، ولعل ماجنى الناس من شر هذا الشعر على فتياتهم هو الذى دعاهم إلى ستره وطول الإغفال له بعد موت بشار حتى لا تفوح رائحته . وهذا لعمري هو الذى جعلنا لا نرى كثيراً من الشعر لوالبة بن الحباب ومطيع بن إياس وحماة عجرد وغيرهم من كل فاجر فأتلك بشعره .

ولو أن الزمن تأخر قليلاً ببشار فعاش فى بغداد أو صادفها وقد تمكنت منها الحضارة وألف الناس هذا الفسوق فى الشعر لبقى لنا شعره سليماً كاملاً وكنا نطلع على هذا الشعر الذى يعدل تقريباً نصف الباقي لنا من شعر العرب كلهم . ولكن الذى لا ينبغى أن ننساه أن بشاراً كان مطبوعاً على قول الشعر يقوله بلا كلفة ويناديه فيلجى النداء سريعاً لا حبسة فى لسانه ، ولا عقم فى خياله . فلم يكن ينحت من صخر وإنما كان يغرف من بحر ، وقد شبهه الأصمى فى كثرة فنونه وسعة تصرفه وأنه لا يتكلف شيئاً متعذراً ولا يقول البيت يحكمه أياما ، شبهه بالأعشى والناطقة ، وشبه مروان بن أبى حفصة بزهير والحطيئة .

ودليل انطباعه : أنه قال الشعر وعمره عشر سنين ، فلم يبلغ الحلم حتى كان مخشياً

معرفة لسانه . وقد هاجى جريراً فأعرض عنه واستصغره فقال لو هاجاني لكنت أشعر الناس . وكان الناس يشكونه إلى أبيه إذا هجأهم فيضربه أبوه فلامته أمه يوماً وقالت له كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه ؟ فيقول لها بل والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى فسمعه بشار فقال له يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى هو الشعر وإنى إن أملت عليه أغنيتك وسائر أهلى فإذا عادوا إليك قتل لهم أليس الله يقول (لَيْسَ عَلَى الْأَنْعَمَى حَرَجٌ) فلما عاودوه قال لهم ذلك فانصرفوا يقولون فتمه برد أغيظ لنا من شعر بشار :

ومن انطباعه على قول الشاعر أنه كان يرتجله فى المعنى الضيق والثقافية العسرة فيأتى بما يستحق عليه المثوبة . فقد ذكروا أن المنصور ركب هجيناً فى وقت الهجرة فجعلت الشمس تلمع بين عينيه ، فقال لمن حوله : إنى قاتل بيتنا فمن أجازه فله جبتى هذه وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى يقطع ظهرها ظهر العظاية^(١)
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى على خدّى وأقصر واعظايه
فنزع المنصور الجبة وهو راكب ودفعها إليه فباعها بأربعمائة دينار . ودخل مع
أبى الشمقمق على عقبة بن مسلم فشفع له عنده ليناله بشيء من خيره فأمر عقبة
لأبى الشمقمق بخمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذى أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير
فأمر لبشار بألفى درهم .

وذكروا أن الزوار كانوا يسمون فى قديم الدهر السؤال حتى قال خالد بن برمك

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام أبرص .

هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء
المؤمنين لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل
أدباً ولكننا نسميهم الزوار؛ فقال بشار في الساعة التي تكلم فيها خالد بهذا الكلام :
حذا خالدٌ في فعله حَدَّوْ بَرِّمَكِ فوجدُ له مُسْتَطَرَفٌ وَأَصِيلُ
وكان ذَوُو الآمال يُدْعَوْنَ قبله بلفظ على الإعدام فيه دَلِيلُ
يُسَمَّوْنَ بِالشُّوَالِ في كل موطن وإن كان فيهم نابهٌ وجليل
فسمَّاهُمُ الزُّوَارَ سَتَرًا عليهم فاستاره للمجتدين سُودُولُ
فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم .

ودخل بشار على عقبة بن مسلم فأنشده بعض مدائحه وعنده عقبة بن ربيعة
ابن العجاج الراجز ينشده رجزاً مدحه به فسمعه بشار فجعل يستحسن ما قاله إلى أن
فرغ فقال له ابن ربيعة هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار ألى يقال هذا؟ إني
والله لأرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال عقبة إنا والله قد فتحنا للناس باب الغريب
وباب الرجز والله إني خليق أن أسده عليهم وتلاحيا فعاد بشار من غده إلى عقبة وعنده
ابن ربيعة الراجز فأنشده أرجوزة يمدحه بها ، ولعل بشارا كان منصرفاً عن الرجز يتركه
لمثل عقبة ولكنه حين حاوله أتى فيه بالعجب . وهذه هي أرجوزته :

يا طَلَلُ الحَيِّ بذات الصَّمَدِ بالله خَبَّرَ كيف كُنْتَ بَعْدِي^(١)
أَوْحَشْتَ من دَعْدٍ وترِبٍ دَعْدٍ سَقِيًّا لأسماء ابنة الأشَدِّ^(٢)
قامت تَرَأَى إذ رَأَتْني وَحَدِي كالشمس تحت الزُّبُرِجِ المُنْقَدِّ^(٣)
صَدَّتْ بِجَدِّ وَجَلَّتْ عن خَدِّ ثم انثنت كالنفسِ المُرْتَدِّ
عهدي بها سَقِيًّا له من عهدٍ تُخَلِّفُ وَعَدًا وَتَنِي بوعْدٍ

(١) ذات الصمد : اسم مكان في ديار بني يربوع .

(٢) الزبرج : السحاب الرقيق . المنقذ : المنشق .

— ٤١٧ —

فنجن من جهْد الهوى في جهْدٍ وزاهرٍ من سَبِطٍ وجَعْدٍ^(١)
أَهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ أفوافَ نَوْرِ الحَبْرِ المُجَدِّ^(٢)
يَلْقَى الضَّحَى رَيَّحَانَهُ بِسَجْدٍ بَدَّلْتُ من ذاك بُكَاءً لَا يُجْدِي^(٣)
وَأَفَقَ حَظًّا مَنْ سَعَى بِجَدِّ ما ضَرَّ أَهْلَ النَّوْكِ ضَعْفُ الجَدِّ^(٤)
الحُرُّ يَلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وليس للمُحِيفِ مثْلُ الرَّدِّ
وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعَدَّى وصاحبِ كَالِدٍ مَسْلُومٍ المَدِّ
حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ^(٥)
حَتَّى مَضَى غَيْرَ فَقِيدٍ الْفَقْدِ وما دَرَى ما رَغَبْتِي مِنْ زُهْدِي^(٦)
إِسْلَمَ وَحِيَّتَ أبا المِلْدِّ مفتاحَ بابِ الحَدَثِ الْمُنْسَدِ^(٧)
مُسْتَرَكَ النَّيْلِ وَرَى الزَّنْدِ أَغَرَّ لِبَاسَ ثِيَابِ الحَمْدِ
ما كان مِنِّي لَكَ غَيْرُ الْوَدِّ ثم ثَنَاءٌ مِثْلُ رِيحِ الْوَرْدِ

ونكتفي منها بهذا . فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلاته ، وقام ابن رؤبة بخزى ، وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه .



ومن انطباعه على الشعر أن ترى له الشعر في كل معرض حتى في الهزل ومحاور الأشياء ،

-
- (١) زاهر : يريد به شعره الأبيض . السبط : المرسل . الجعد : المثنى .
(٢) أفواف : جمع فوف ، وهو من برود اليمن تشبه به الأزهار . الحبر : جمع حبرة (كعنة) : ضرب من برود اليمن منبر . المجد : الذي قطعه الحائك حديثا فهو جديد لم يبل بعد .
(٣) شبه الشعر بالريحان . السجد : السجود . والمعنى أن النهار إذا طلع قابل هذا الشعر بالسجود لشدة بياضه .
(٤) من كان له حظ نال المراد ولو بغير اجتهد .
(٥) الورد : الحلى .
(٦) أى ذهب وفقدته كأنى لم أفقده .
(٧) أبو الملد : كنية عقبة بن سلم .

- ٤١٨ -

فهو لم يجعل الشعر صورة لنفسه المنمقة المزوقة ، ولكنه جعله صورة طبيعية وفيها السمين والغث ، والقوى والفاتر ، والجليل والحفير .

وقد دخل العياب على بشار من هذا الباب ، فقد قال له بعض أصحابه : يا أبا معاذ من الذى يقول :

أحبّ الخاتم الأحمر من حب مَوَالِيَّه

فأعرض عنه ثم صاح به ، فقال : يا أبا معاذ من الذى يقول :

إن سامى خُلِقْتُ من قَصَبٍ قصب السكر لا عَظْمَ الجَمَلِ
وإذا أَدْنَيْتُ منها بَصَلاً غَلَبَ المسكُ على رِيحِ البَصَلِ

فغضب وصاح : من الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها فى الحداثة فهو يعيرنا بها ، وكان إسحق الموصلى يطعن على شعر بشار ويضع منه ، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً .

وقيل لبشار : إنك لتجىء بالشئ المحجين المتفاوت ، فبينما تقول شعراً تثير به النقع

وتخلع القلوب مثل قولك :

إذا ما غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَطَرَّ الدِّمَا
إذا ما أَعْرَضْنَا سَيِّدًا من قبيلة ذُرًّا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

تقول :

رَبَابَةٌ رَّبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى ، فأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها خير من : (فما نبك) عندك .

الأغراض في شعره

ولما كان بشار مطبوعاً على قول الشعر لم يكن ليستعصى عليه غرض من الأغراض ، فقد فُدح وهجا ، وتغزل ورثى ، ووصف ما أحسّ ولم يحسّ ، وأتى بالحكمة والمثل ، فما قصر في غرض من الأغراض ، وإن اثنى عشرة ألف قصيدة يقولها لا بدّ أن يعيد فيها ويبدى في جميع أغراض الشعر ومعانيه . ثم إن بشاراً هو هو قوّة عارضة وتمام قريحة ، حتى لقد عدت له معان كثيرة اخترعها ولم يسبق إليها ، مثل قوله (وينسبان لابن الخياط) :

لَمَسْتُ بِكَفِّ كَفِّهِ أَبْتَغِي الْغَنَى وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَقَادَ ذَوْو الْغَنَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

ولكنه مع ذلك كله غلبت عليه أغراض ، فكثير المروى لنا منها بنسبة غيره مما روى من شعره . وهذه الأغراض ، هي : المدح ، والهجاء ، والتشبيب بالنساء .



فأما المدح فقد اتصل بكثير من الأمراء ، فنال جوائزهم السنية أمثال : خالد ابن برمك ، وعقبة بن سلم ، ونافع ابنه بعده ، وعمر بن العلاء ، والهيثم بن معاوية ، وسليمان بن هشام ، وعمر بن هبيرة ؛ وكان فوق ذلك أن اتصل بالخلفاء فُدح أبا جعفر المنصور ثم المهدي بعده ، فهو من هذه الناحية شاعر نابه لم تقصر شهرته عن الوصول إلى ساحات الخلفاء ، ولم يستغن عن تقيظه أمير من الأمراء ، وقد استحق على شعره الجوائز الكثيرة ، ولكنه كان كما علمت متلافا كريماً ، فلم يبق له مدخر من كل هذا .

وقد كان بشار يبذل من مدحه على قدر ما يجوز من الصلة ، حتى لقد قيل له يوماً : إن مدائحك في عقبة بن سلم فوق مدائحك في كل أحد غيره ، فقال : إن عطاياء كانت

فوق كل عطاء ، دخلت عليه يوماً فأنشدته :

حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ تَرَى كَابِنَ سَلَمٍ عُقْبَةَ الْخَيْرِ مُطْعِمِ الْفُقَرَاءِ
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْ فِي وَلَسَكِنْ يَلِدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ
يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ الْحَبْسُ وَتُعْشَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار . وهأنأ قد مدحت المهدي وأبا عبيد الله وزيره ، وأقمت
بأبوابهما حولاً فلم يعطيني شيئاً فالأم على هذا ؟
مدح خالد بن برمك وهو على فارس فقال :

أَخَالِدُ لَمْ أَخْبِطْ إِلَيْكَ بِذِمَّةٍ سَوَى أَنْتَى عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ^(١)
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْحَمْدِ حَاجِي فَأَيُّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَّادُ
فَإِنْ تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَأْتِبَ لَمْ يُضْرَبْ عَلَى سِدَادُ^(٢)
رَكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مُسَمِّعٍ وَمَالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ^(٣)
إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَةً أَوْ نَكِرْتُمَهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادُ^(٤)

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس ، فوضع واحداً عن يمينه ، وواحداً عن
شماله ، وآخر بين يديه ، وآخر خلفه ، وقال يا أبا معاذ : هل استقل العماد ، فلمس
الأكياس ، ثم قال : استقل والله أيها الأمير .

مدحه بقوله :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَى ابْنِ بَرْمَكٍ وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الْغِنَى عَنْهُ يُجْدِي
حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحَتِيهِ فَدَرَّتَا سَمَاحَا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّعْدِ

(١) الخطب : السير على غير هدى . والمراد هنا مطلق السير العنيف . يقول : أفصذك وليس لي بك
آصرة ، أو بيني وبينك عهد إلا أني سائل وأنت كريم . وهذه أعظم آصرة تربط بك
طالبي إحسانك .

(٢) السداد : إما مفرد وهو ما يسد به الشيء كاللثة ونحوها . وإما جمع سد بمعنى الحاجز . والمعنى
إن لم تعطني اليوم فاني لا أبأس من عطائك في غد .

(٣) الحرف : الناقة الضامرة . المشيع : الشجاع .

(٤) أي خرجت مبكراً لأن البازي يخرج في ظلام الليل قبل تبليغ الفجر .

إذا جثته للمدح أشرق وجهه . إليك وأعطاك الكرامة بالحمد
له نِعَمٌ في القوم لا يستثيها جزاء وكَيْلَ التاجر المَدَّ المَدَّ^(١)
مُفِيدٌ ومِتْلَافٌ ، سبيلُ تراته إذا ما غدا أو راح كالجزر والمَدَّ^(٢)
أخالد إن الحمد يَبْقَى لأهله جمالا ولا تَبْقَى الكنوز على الكَدِّ
فأطعمهم وكلُّ من عَارَةٍ مستردَّةٍ ولا تَبْقَى إن العواري لِلرَّدِّ
فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كلِّ وفادة خمسة آلاف .
وأمر خالد أن يكتب البيتان الأخيران في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه . وقال ابنه
يحيى : آخر ما أوصاني به أبي أن أعمل بهذين البيتين .

ووفد على عمر بن هبيرة ، فدحه بقصيدة يقول فيها :
لألقى بني عَيْلانَ إنَّ فعالمهم يزيد على كلِّ الفعَّال مرَّاتِبُهُ
أولئك الأولى شقوا العمى لسيوفهم عن العين حتى أبصر الحقَّ طالِبُهُ
ومنها يصف الجيش :

وجيشٍ كَجُنْحِ اللَّيْلِ يَرْحَفُ بِالْحَصَى وبالشوك والخطَّى حُمُرُهُ ثعالبُهُ^(٣)
غدونا له والشمس في خِدرِ أمها تطالعا والطلُّ لم يَجِرْ ذائبُهُ
بضربٍ يذوق الموت من ذاق طعمَهُ وتُدْرِكُ من نَجَى الفوارِ مثالبُهُ
كأنَّ مُثَارَ النَّفْعِ فوقَ رء وسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ
بعشنا لهم موت الفجاءةِ إننا بنو الموت خفاقٌ علينا سبائبُهُ^(٤)

(١) يقول : إنه ينعم ، ولا ينتظر الجزاء على قدر إحسانه كما يفعل التاجر الذي يعطى مدا في نظير مدا .
(المد : مكيال ، وهو عند أهل العراق رطلان ، وعند أهل الحجاز رطل وثلاث) .

(٢) التراث : ما يخلفه المرء لورثته . يقول : إن هذا الرجل كسوب ولكنه لا يستبقى كسبه بل يجهود به
فضاله في زيادة ونقص . وجعل ماله تراثا لأنه من شأنه أن يورث عنه ويرى بعض أن الكلمة
محرقة عن تراثه .

(٣) جنح الليل (بالكسر أو الضم) : الطائفة منه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : جمع شوكة
وهي السلاح . الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين تباع فيه الرماح . الثعالب :
جمع ثعلب ، وهو طرف الرمح ، يقول : إن اطراف الرماح اجرت من دماء الأعداء .

(٤) السبائب : جمع سببية وهي الشقة من الثوب . والمراد بها هنا الأعلام (الرايات) .

- ٤٢٢ -

فراحوا فريق في الإسار ومثلُه . قَتِيلٌ ومثلُه لاذ بالبحر هارِبُه
إذا الملكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّه مَشِينًا إليه بالسيفِ نَعَاتِبُه
فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أول عطية سنية أعطاها بشار ورفعت
من ذكره .



وأما هجاء بشار فقد كان مقذعا ، وقد علمت أن الحامل له عليه أولا ما يضره
للناس من ضغينة وما ينطوى عليه لهم من نفور ، فهو من أجل هذا يجد في نفسه الدافع
إلى هجائهم لا يتكلف ذلك ، ولا يغالبه طبعه فيه ، إذ كان الشر مركبا في ذلك الطبع
والحق يدملأ هذا الصدر . فلذلك كان يهجو لأهون الأسباب بل لغير سبب ، إلا أن
القافية احتاجت إلى اسم فهو يضعه فيها غير مبال بما يصيب صاحبه الوادع من وخزه ،
وما يجره ذلك عليه من تسجيل عار وهو لم يحسن ذنباً .

وقد سئل عن سبب ميله للهجاء ، فقال : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر
من المدح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرّم في دهر اللثام على المدح فليستعدّ للفقر
وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى .

ذكروا أن حماراً نهق ذات يوم بقرب بشار ، فخطر بباله بيت ، فقال :

ما قام . . . حمار فامتلا شَبَقًا إلتَحَرَّكَ عِرْقٌ في استِ تَسْنِيمِ

ولم يكن يريد تسنيا بالهجاء ، ولكنه حين وصل إلى القافية كان قد مرّ به تسنيم ،
فسلم ، فضحك بشار وقال في است تسنيم ، فلما علم تسنيم بالحادث قال : أما عندك
فرق بين صديقك وعدوك ؟ ألا قلت في است حماد الذي فضحك وأعياك ، وليست
قافيتك على الميم فأعذرْك ؟ فقال بشار : صدقت في هذا كله ، ولكن الذي جرّ عليك
هذا تسليمك على حين طلبى للقافية ، فقال تسنيم : إذا كان هذا فلا سلم الله عليك ،
ولا على حين سامنت عليك فجعل بشار يصفق وتسنيم يشتمه .

وكان يهجو لأهون الأسباب ، فقد قدم صديق له يسمى كردى بن عامر من مكة ، فلم يهد لبشار شيئا فكتب إليه :

ما أنت يا كُرْدِيَّ بالهَشِّ ولا أُبَرِّيكَ من الغِشِّ
لم تُهْدِنَا نَعْلًا ولا خَاتَمًا من أين أَقْبَلْتَ؟ مِنَ الحِشِّ؟^(١)
وفي هذا ما فيه من استهانت به بأمر الدين وجعله الكعبة حشا .

وكان فتى بالبصرة قد اعتاد أن يرسل إلى بشار في كل عام في عيد الأضحى أضحية ، وكان أهل البصرة يسمونها سنة أو أكثر حتى تباع بعشرة دنانير ، ففي عام من الأعوام كلف الفتى وكيله أن يشتري النعجة فاشتراها هزيلة ، وسرق باقي الثمن ، فكتب إليه بشار يتمكم بالهدية :

وَهَبْتَ لَنَا يَا فَتَى مِنْقَرٍ وَعَجَلٍ وَأَكْرَمَهُمْ أَوْلَا
وَأَبْسَطَهُمْ رَاحَةً فِي النَّدَى وَأَرْفَعَهُمْ ذِرْوَةً فِي الْعُلَا
عَجُوزًا قَدْ أَوْرَدَهَا عُمرُهَا وَأَسْكَنَهَا الدَّهْرُ دَارَ الْبِلَى
سَلُوحًا تَوَهَّمتُ أَنْ الرِّعَاءَ سَقَوْهَا لِيُسَهِّلَهَا الْحَنْظَلَا^(٢)
وَأَضْرَطَّ مِنْ أُمِّ مَبْتَاعِهَا إِنْ اقْتَمَحَتْ بُكَرَةً حَرَمَلًا^(٣)
فَلَوْ تَأْكُلُ الزَّبْدَ بِالنَّرْسِيَانِ وَتَدَمِّجُ الْمِسْكَ وَالْمَنْدَلَا^(٤)
لَمَا طَيَّبَ اللَّهُ أَرْوَاحَهَا وَلَا بَلَّ مِنْ عَظْمِهَا إِذْ قُفِّلَا^(٥)

وقد هجا جاره لأنه بعث إليه يطاب ثيابا بنسيئة فلم يصادفها عنده ، فقال يهجو به :

-
- (١) الحش (مثلثة) : المخرج (موضع قضاء الحاجة) لأنهم كانوا يقضون حاجتهم بعيدا من البيوت .
(٢) السلق : هو اللحم والطير ، كالنفوط للإنسان .
(٣) اقتمحت البر أو الجوارش : استقها . الحرمل : نبات كالسمسم يعني آكله . ونلاحظ أن كلمة « اقتمحت » وردت في الأغاني « اقتمحت » ولم تفسر لأن معاني المادة لا تناسب المقام . فأدرنا الكلمة على عدة وجوه ثم انتهينا إلى أنها لابد أن تكون محرفة عن « اقتمحت » .
(٤) النرسيان : تمر بالكوفة مشهور بجودته ، يقال الزبد بالنرسيان ، يضرب مثلا لأجود ما كول . تدمج يريد تلتطخ بهما منغسة فيهما من قولهم ادماج الشيء في الشيء إذا دخل فيه واستتر .
(٥) الأخل : الشديد اليبوسة .

ألا إن أبا زيد زنى في ليلة القدر
ولم يرع تعالى الله ربي حرمة الشهر

واسمته العباس بن محمد بن علي فلم يمنحه ، فقال يهجو :

ظل اليسار على العباس ممدود وقلبه أبداً بالبخل معقود
إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود^(١)
إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجي للنوال فما ترجي الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد قفراً فهو محمود

ولما مدح المهدي فخره الجائزة هجاه بقوله :

خليفة يزني بعماته يلعب بالدبوق والصولجان^(٢)
أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حرائير الزان

وأنشدها في حلقة يونس النحوي ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ، وكان قد هجاه من قبل لما أخر دخوله على المهدي ، فقال :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

فدخل يعقوب على المهدي وتلطف حتى أبلغه هجاء بشار له ، فكاد ينشق غيظاً ، وعمد إلى الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها وما وكده غير بشار ، فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً في الضحى ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ، فأتى به وشهد الشهود عليه بالزندقة ، ف ضرب سبعين سوطاً مات في أعقابها ، وكانت وفاته سنة ١٦٨ هـ ، وقد أوفى على السبعين أو التسعين .

(١) يقول إن البخيل يمتنع عن العطاء ويذكر عملاً قبيحة غير مقبولة كما لا يحسن في الناس أن ترى

عيوناً زرقاء على وجوه سوداء .

(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : المحجن ، وهو العصا المحقوفة (الملتوية) .

- ٤٢٥ -

ولكنّ بشاراً مع هذه الجرأة في الهجاء من ناحية كان جباناً يفرق من الهجاء إذا وجه إليه ويفتدى من ذلك بماله أو بمداواة من توهم أنه سيوجعه بميسمه . وفي عطائه لأبي الشمقمق رائحة الخوف إلى جانب الرحمة لرقّة حاله ، فإنه لما تأخر عليه في بعض السنين هدّده بالهجاء ، فأظهر بشار عدم الاكتراث ، فلما قال فيه :

إني إذا ما شاعر هجانيه ولجّ في العذل له لسانيه
أدخلته في أمت أمه علانيه بشار يا بشار

فلما أراد أن يقول : يا ابن الزانية وثب بشار وأمسك بفمه ، ثم دفع إليه مائتي الدرهم التي كان يجريها عليه كلّ عام وقال : لا يسمع هذا منك صبيان البصرة .

وحديثه مع حمدان الخراط الذي طلب إليه أن يرسم له في جام صور طيور تطير ، فلما حمل ذلك إليه قال له : كان ينبغي أن تجعل جارحاً يحلق فوقها كأنه ينقضّ عليها ، فإنه كان أحسن ، ولكنك علمت أني أعمى لا أبصر شيئاً وهدّده بالهجاء ، فقال له حمدان : لا تفعل فإنك تنادم ، فقال : وما تفعل ؟ قال أصورك على باب داري ، وأصور وراءك قرداً يفعل بك الفحشاء ، فقال بشار : اللهم اخزه ، أنا أمازحه ، وهو يأبى إلا الجد !!



أما الغزل فقد كان أظهر ما في شعر بشار من الشناعة ، فإنه هو الذي جعل المتورّعين وأولياء الفتيات والفتيان يهتفون ببشار ، ويسعون به لدى الخليفة ، وقد حداهم ذلك أكثر مما حداهم الهجاء ، فإن الهجاء ليس ضرره واقعاً إلا على المقول فيه ، على أنه لا يقدر في الشرف ، ولا ينال من الكرامة إلا من ناحية تناول السقاط من الناس له ، وهتفهم به وتعييرهم من قيل فيه ، فأما الغزل فجريرته على الأخلاق ، وجنانيته على الشرف الحقيقي ، وإذاعته للفجور ، ومساعدته لطيش الشباب ، وجنون الصبا ، ضرر بالغ يزري بقدر أمة لا قبيلة ، ويطأطيء رأس أسرة لا فرد ، وعاره باق ، ومسبته متوارثة . هذا هو خطر الغزل المغري للفتاة والفتى وهو غزل بشار لذلك نرى أن المهدي

حين غضب عليه لم يغضب إلا من تشبيهه وحين نهاه لم ينهه إلا عن التشبيب .
وقد سأل بعضهم أبا عبيدة فقال : ما أحسب هذا (يريد بشاراً) أبلغ في تلك
المعاني (يريد التشبيب) من كثير وجميل ، وعروة بن حزام ، وقيس بن ذريح ، وتلك
الطبقة ، فقال أبو عبيدة : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار
يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يريد ، وأى حرّة حصان تسامع قول بشار ،
فلا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة الغزلة . وكأن أبا عبيدة إنما يريد أن يفرق بين شعر
هؤلاء وشعر بشار ، بأن بشاراً يخالط النساء ويوضح لهن شعره . وليس هذا هو السر في
شناعة شعر بشار ، وليس شعر من سبقه غامضاً حتى يفوت الناس معناه حين يفوتهم
لفظه ، وإنما السر في ذلك هو ما تعرفه من قراءتك لشعر بشار فقد رققه أولاً حتى
حببه إلى النفوس ، فصار كل فتى وفتاة يرويه ، ولا يرى في لفظه استعصاء ، بل هو
ككلام الناس سهولة ولياناً ، وهذا خبث من بشار عمد إلى غزله وهجائه ، فرققهما
لهذه الغاية حتى يشيعا في الناس ويقبل عليهما الجاهل والعالم ، وسبب آخر في شيوع
الفاحشة بشعر بشار هو أنه هوّن أمر الحب على المحبين ، وأطعم الطالب فيما يحاول من
أمر النساء حين يقول :

لَا يُؤْبِسُنَّكَ مِنْ مُحَبَّاتٍ قَوْلُ تَعَلُّظِهِ وَإِنْ جَرَحَا
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ وَالصَّعْبُ يُمَكِّنُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

فانظر كيف كان لهذا القول من أثر في نفس فتى من الفتيان عشق فتاة فكلمها ، فلم
تلتفت إليه ، فهم يتركها ياساً ، فذكر قول بشار هذا ، فعاد إليها ولازمها حتى بلغ
حاجته ، خلف ليدفعن إلى صاحب الشعر مائتي دينار فجاء بها إلى بشار .
ثم انظر إلى قوله :

قَدْ لَامَنِي فِي خَلِيلَتِي عُمَرُ وَاللَّوْمُ فِي غَيْرِ كُنْهٍ صَرَّرُ
قَالَ أَفَقُ قُلْتُ لَا فَقَالَ بَلَى قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ مِنْكَ الْخَبَرُ
قُلْتُ وَإِذَا شَاعَ مَا اعْتَذَارُكَ مِمَّا لَيْسَ لِي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرُ

ماذا عليهم وما لهم (خَرَسُوا) لو أنهم في عيوبهم نظروا
 أعشَقُّ وحدي ويؤخِّذون به كالترك تغزو فتؤخذ الخزر^(١)
 يا عجباً للخلاف يا عجباً بنى الذى لام فى الهوى الحَجَرُ
 حسبي وحَسْبُ الذى كَلِفْتُ به منى ومنه الحديث والنظرُ
 أو قُبْلَةً فى خلال ذاك وما بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لى الأزرُ
 أو عَضَّةٌ فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عَضِّها أترُ
 أو لَمَسَةٌ دون مرطها بيدي والبابُ قد حال دونه الشترُ^(٢)
 والساق برَاقَةٌ مُخَلِّجُهَا أو مصُّ ريقٍ وقد علا البهرُ^(٣)
 واسترخت الكفُّ للعراكِ وقا لت إيه عنى والدمعُ ينحدر
 إنهمضْ فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغَالِزٌ أشرُ^(٤)
 قد غابت اليوم عنك حاضنتى واللهُ لى منك فيك يَنْتَصِرُ
 يا رَبِّ خُذْ لى فقد ترى ضرعى من فاسقٍ جاء ما به سكرُ
 أهوى إلى معضدى فرضته ذو قوَّةٍ ما يطاق مُقْتَدِرُ^(٥)
 ألصق بى لحية له خَشِنَتْ ذات سواد كأنها الإبرُ
 حتى علانى وأسرَّتى غيَّبَ ويلى عليهم لو أنهم حضروا^(٦)
 أقسم بالله لا نَجَوْتَ بهِــا فاذهب فانت المُساورُ الظفرُ
 كيف بأى إذا رأت شَفَتى أم كيف إن شاع منك ذا الخبر

(١) الخزر : قوم من الترك . والمعنى أن الترك يغزون فيؤخذ الخزر بذنبهم (كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع) .

(٢) المرط : كساء من صوف أو خز يؤتر به .

(٣) البهر (بالضم) : تابع النفس من الإعياء . وقد اتبعت هنا ضمة العين لضمة الفاء .

(٤) أشر : مرج .

(٥) العضد : دملج يلبس فى العضد ، والمراد هنا موضعه من العضد .

(٦) غيب (بالتحريك) : غائبون .

قد كنت أخشى الذى ابتليت به منك فماذا تقول يا عَبر^(١)
قلت لها عند ذاك يأسكنى لا بأس إني مجربٌ خَبرٌ
قولى لها بقّةٌ لها ظُفرٌ إن كان فى البقِّ ماله ظُفر^(٢)

فكيف ترى لومه للأemie وتخطئتهم فيما شغلوا به أنفسهم من أمر حبه . ثم إنه ينتقل إلى مايجرى بين الحبيبين من النظر والحديث ، ثم القبلّة ، ثم حلّ الإزار ، وهذا عنده لا بأس به ، ثم يصف سائر أنواع التجميش ، ثم يصف انتباهة الفتاة من سكر صبوتها ، وأنها حارت فى أمره ، واضطربت لما خطر لها من مفاجأة أهلها وهى على هذا الحال . ثم هى تحاوره فى أمر العضة ، وما بان من أثرها فى شفتها ، فيستهتر ويستهن بهذا الميسم الباقى ويمزح ، فيقول لها : قولى لأملك إن بقّة لها ظفر خدشتنى .

فتراه قد رسم فى هذه القصيدة سبيل الغواية من لدن شفيرها إلى مقرّ هاويتها . فماذا يكون شأن الفتاة أو الفتى إذا ترنما بهذا الشعر ، أو سمعاه من مغنية تتخنت فيه وترجع ألفاظه ، ألا يبقيان دائماً على ذكر من وسائل الفجور وأسبابه ؟ أو ليس فى ذلك أكبر ضرر على الأخلاق حين يعمد شاعر كبشار إلى الشعر ، وهو أحبّ شىء إلى نفس العربى والعربية ، فيرققه حتى يجعله ماء جارياً يسوغ مع الرقيق ، ثم يلهب العاطفة بمثل هذه المعانى الفاجرة . قاتله الله لقد كان شيطاناً مardاً سلط على الأخلاق فأفسدها ، لولا أن تدارك الله الناس بحزم الخليفة ، ففضى عليه وعلى ضالّاته .

ولم يكن بشار من صناع الغزل الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيبقى قولهم رسوماً على الأوراق وألفاظاً على الأفواه لا حرارة لها ، ولكنه عاشق غزل ، وفاتك جرىء ، يحبّ الغوانى وإن لم يرها ، ويفتح داره للنساء يومين فى كلّ أسبوع يجتمعن معه فيأخذن ما شئن من شعر يصنعه للغناء أو الرثاء ، وهو فى هذه المجالس مؤتنس بالحديث مستخلص لنفسه من يقع حبها فى قلبه فهى إمامطاوعة وإما كارهة ،

(١) العبر (مثلث الأول ساكن الثانى، أو تحرك الباء بحركة العين) : الجرىء .

(٢) البقة : البوضة .

- ٤٢٩ -

ووسائله كثيرة يجعل منها الهجاء للأبيّة حتى تسلس له ؟ وهكذا كان له من دينه المزيّق عون على إجابة نزعت الخبيثة .

وأشهر من أحبهنّ عبدة التي يقول فيها :

يُرْهِدُنِي فِي حُبِّ عَبْدَةٍ مَعْشُرُ	قُلُوبُهُمْ فِيهَا مُخَالَفَةُ قَلْبِي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى	فبالقلب لا بالعين يُبَصِّرُ ذَوَالِـحِب
فما تبصر العينان في موضع الهوى	ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كلُّ حسن دعا الصُّبَا	وألف بين العشق والعاشق الصَّبَّ

وقوله :

لَمْ يَطْلُ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أُنَمِّ	وَنَفَى عَنِ الْكُرَى طَيْفُ أَلَمِّ
وإذا قلت لها جُودِي لَنَا	خَرَجْتَ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمْ
رَفَّهِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَاعْلَمِي	أَنْتِي يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمِّ
إِنَّ فِي بُرْدَيَّ جَسْمًا نَاحِلًا	لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَانْهَدَمِ

الآراء في بشار

يكاد الأدباء ورواة الشعر وتقديته في زمن بشار ، وبعده يجمعون على فضله في الشعر من حيث رقي المعنى وحسن السبك والبلاغة . فيقول الأصمعي : بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . وكان يقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه متعذراً ، لا مكن يقول البيت ويحككه أياما ، ويقول أبو عبيدة : حكم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم برزوا في مثالا ، وقال الجاحظ : كان بشار شاعراً خطيباً ، صاحب منشور ومزدوج ، وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنين في الشعر القائنين في أكثر أجناسه

— ٤٣٠ —

وضرو به ، قال الشعر في حياة جرير ، فعرض له . وحكى عنه أنه قال : هجوت جريراً
فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس .

وقال علي بن المنجم : سمعت من لا أحصى كثرة من الرواة يقول : أحسن الناس
ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول :

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالَى وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي^(١)
وحيث يقول :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وفي الإسلام القطامي حيث يقول * إنا محيوك فاسلم أيها الطلل *
ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أَبَى طَلَلٌ بِالْجَزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَمَاذَا عَلَيْهِ لَوْ أَجَابَ مُتَمَيِّمًا
وَبِالْفُرْعِ آثَارُ بَقِيْنٍ وَبِاللَّوَى مَلَاعِبُ لَا يَعْرِفُنْ إِلَّا تَوَهُمًا^(٢)

ولم تخف على بشار منزلته ، بل كان يقول : لي اثنا عشر ألف قصيدة أما في كل
قصيدة منها بيت جيد ، وكان يقول أزرى بشعري الأذان (يريد أنه إسلامي ولو تقدم
به الزمن لكان من فحول الجاهليين) ، وقال له بعضهم : ليس لأحد من شعراء العرب
شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس في شعرك
ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين
شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نساءهم
فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتيني ؟ .

ولقي رجل أبا عمرو بن العلاء (وهو من تعرف زراية على الحديث ومقتاله) ،
فقال له : يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذي يقول :

(١) عم صباحا : تحية جاهلية كأنه محذوف من نعم ينعم (بكسر العين فيهما) . كما يقال كل من أكل
يأكل . العصر : (بصمتين) لغة في العصر (بالفتح) . الخالي : الماضي .
(٢) الفرع (بالفتح أو الضم) : بلدة بينها وبين المدينة ثمانية أميال .

- ٤٣١ -

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
 روّحى عنى قليلا واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم
 قال فمن أمدح الناس؟ قال الذى يقول :
 لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
 فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعدى
 قال فمن أهجى الناس؟ قال الذى يقول :
 رأيت الشَّهِيَّائِينَ استوى الجود فيهما على بعد ذا من ذاك فى حكم حاكم
 سهيل بن عثمانٍ يجود بماله كما جاد بالوجع سهيل بن سالم^(١)
 قال : وهذه الأبيات كلها لبشار .

ولقد كنا فى غنى عن هذه الشهادات لولا أننا لا نجد من شعر بشار مادة كثيرة
 نستطيع أن نحكم بهاعليه، لذلك احتجنا إلى أقوال هؤلاء الذين خالطوه ولا بسوه ، فقولهم
 فى بشار حجة لمن لا يرى فى آثاره ما يكفى للحكم عليه .

على أنه إذا استدللّ بالقليل على الكثير فإن شعر بشار مثال الرصانة والمتانة ، فهو
 بدوى لولا ما عليه من حلية الحضارة ، جاهلي لولا ما سرى فيه من روح الحكمة وثقافة
 التعليم ، ثم هو مخترع لكثير من المعانى مما جعله إمام المحدثين ومقدمهم وأسبقهم إلى
 طرق : أبواب المجون والخلاعة ، والغزل الرقيق الحضري ، والهجاء المقذع . ثم إنه أول من
 تعاطى البديع ، فجمع بين جزالة العرب ورقة المحدثين .

حياة أبي العتاهية

[نسبه] : هو إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسَان مولى عَنَزَة ، وكنيته
 أبو إسحق ، وأمه أم زَيْد بنت زياد الحارثي مولى بنى زُهْرَة .

(١) الوجع : مقصور الوجعاء ، وهى الدبر .

وقد ذكر محمد بن أبي العتاهية أن جدهم كَيْسَان كان من أهل عين التمر ، وهي بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة غزاها خالد بن الوليد أيام أبي بكر رضى الله عنه ، فجىء به صغيراً يتيماً إلى أبي بكر ، وكان بحضرته عَبَّاد بن رِفاعَةَ العَنَزِيّ ، فلما عرف أنه من عَنَزَة استوهبه من أبي بكر ، فوهبه له فأعتقه ، فصار ولاؤه فى عَنَزَة منذ ذلك الحين .

ومن ذلك يتضح أن أبا العتاهية من أصل عربى ليست آبأؤه أعلاجاً ، وقد حدث أن رجلاً من أهل الكوفة سبه يوماً بأنه نبطى ، فجرت بينهما مشاجرة سال فيها دم أبي العتاهية ، فأقبل على سيدى عَنَزَة إذ ذاك وهما مندل وأخوه حيان ، فشكا لهما ما يتهم به هذا الرجل ، وقال لهما : إن كنت نبطياً هربت على وجهى وإلا فخذنا لى بحقى ، فقام معه مندل وما تعلق نعله غضباً وقال : والله لو كان حقتك على عيسى ابن موسى (والى الكوفة إذ ذاك) لأخذته لك منه ومراً معه حتى أخذ حقه .

ولم تصحب أبا العتاهية هذه الكنية منذ نشأته ، ولكنها جدت له بعد أن قال الشعر وعرف شأنه . فقد ذكروا أن المهدي قال له يوماً : أنت إنسان متحذلق معته . فاستوى له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه ، ويقال للرجل المتحذلق : عتاهية . وذكر صاحب لسان العرب أنه إنما لقب بذلك لأن المهدي قال له : أراك متخططاً متعتها ، وكان قد تعتته بعُتْبَة جارية المهدي . وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً . وكان أبو العتاهية من أهل المذار ، وهي بلدة بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . وإن أباه انتقل به إلى الكوفة . وكانت صناعة أبيه عمل الجرار فنشأ فيها أبو العتاهية . وحديث اشتغاله بهذه الصناعة مضطرب مختلط ، فيقول بعضهم : إنه كان له ولأخيه زيد ، عبيد يعملون لهم الخزف فى أتون لهم ، فإذا اجتمع منه شيء ألقوه على أجير لهم يقال له أبو عباد ، فيبيعه على يديه ويردّ إليهم فضله ، وقيل : بل الذى كان يفعل ذلك أخوه زيد لاهو . وقد سئل عن ذلك أبو العتاهية ، فقال : أنا جزار القوافى ، وأخى جزار التجارة . ويحدث بعض أنه شاهد أبا العتاهية وهو جزار يأتيه الأحداث

والتأديبون فينشدهم أشعاره فيأخذون الخرف المتكسر ، ويكتبون فيه ما يسمعون منه .
ويحدث آخر فيقول : إن أبا العتاهية كان يجتاز أسواق الكوفة وعلى ظهره قفص فيه
فخار فيبيع منه ، وقد مرّ بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع
القفص عن ظهره وقال : يا فتیان أقول شعراً ولكم إن أجزتموه عشرة دراهم ، وإن لم
تفعلوا فعليكم مثلاً ، ثم قالوا : قل ولك شرطك ، فقال :

ساكني الأحداث أتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً فلم يفتح عليهم بشيء ، فتممه هو وقال :

. مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

والذي نقوله : انه لا طائل تحت هذا الخلاف ، فإن فضل الله يؤتیه من يشاء ، وليس
بعجيب أن ينشأ أبو العتاهية في عمل الجرار ، ويكون شاعراً يبيعها ، ويدور بها في
الأسواق ، ثم هو بعد ذو موهبة شعرية شاء الله أن تظهر ، وأرادت عناية الخلفاء بالشعر
واحتفالهم بشأنه أن يصبح أبو العتاهية جلسهم ونديمهم ، بل تصير له عليهم دالة فيشرب
بجارية المهدي ولا يغير عليه ، ويشدد به العناد فيخالف رغبة الرشيد ، ويمتنع عن
قول الشعر ، ويهتم لذلك الرشيد ، ويقلق ويحتال لأن يعود أبو العتاهية إلى سيرته في
قول الشعر فيأبى أولاً ، ثم يقول في الزهد لاغير ، وكانت رغبة الرشيد أن يعود إلى
الغزل فلم يفعل .

فليس بعجيب أن ينبغ أبو العتاهية في الشعر وليست له سابقة في التعليم ، خصوصاً
إذا علمنا أنه عربي لا يحتاج في اللغة إلى تعلم ولا معاناة دراسة . فأما موهبة الخيال ، فهي
سهلة المئونة ميسورة التحصيل .

ولم يروا لأبي العتاهية شيئاً من شعر الصغر كما فعلوا بأبي نواس وبشار وغيرهما ،
وهذا يرجح في نظرنا أنه لم يقل الشعر إلا وقد تقدم في السن . فعلى هذا يكون أحد

الشعراء الذين استحقوا لقب النبوغ في الشعر ، فيكون كالذياني والجمعدى

أوصافه ومعتقده

ذكروا من أوصافه الجسمية: أنه كان طويلاً، دقيق العظام، خفيف اللحم، أبيض اللون، أسود الشعر، له وفرة جعدة، وهيئة حسنة. وكان مما يرى عليه في حياته التقشف الزائد، حتى كان أكثر حياته يلبس الكرايس^(١) أو خشن الشعر والصوف، وربما غلا فلبس قوصرتين^(٢) يثقب إحداها فيخرج منها رأسه ويديه، ويقيم الأخرى مقام السراويل، ويجتري بخبز الشعير، ويأتمم بالخل، وإذا قرم اجتزأ بالرءوس، وهذا منه تقشف مخلوط بالبخل، لأن داعية التقشف هي الزهد في الدنيا، وترك مناعها، والصدوف عن محاسنها، ولكنه جمع إلى التقشف الغرام بالمال، وتعطيل الحقوق الواجبة فيه من زكاة وترفيه على الأهل والخدم.

وله في البخل نوادر: ذكروا أنه أنشد يوماً ثمامة بن أشرس قوله

إذا المرء لم يُعْتَقْ من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكا
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقال له: من أين قضيت بهذا؟ قال من قول رسول الله « إنما لك من مالك ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت » فقال له: أو تؤمن بأن هذا قول رسول الله؟ قال: نعم. قال: فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تزكى ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ قال: والله إن ماقلت هو الحق ولكن أخاف الفقر، فقال له: وهل تزيد جال من افتر على حالك وأنت دائم الحرص والجمع، شحيج على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فقال له:

(١) الكرايس: جمع كرابس، وهو ثوب من القطن الأبيض.

(٢) القوصرة: وعاء التمر.

والله لقد اشتريت يوم عاشوراء لحماً وتوابله بخمسة دراهم، قال ثمامة: فأضحكنى قوله حتى أذهلنى عن إجابته وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

وحدث ثمامة أيضاً الجاحظ ، فقال له : دخلت على أبى العتاهية يوماً ، فإذا هو يأكل خبزاً بلا شيء . فقال له : كأنك رأيته يأكل خبزاً وحده . قال : لا ، ولكنى رأيته يأتمد بلا شيء . رأيته قدأمه خبزاً يابساً وقدحا فيه لبن حليب ، فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها فى اللبن ثم يخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير .

وكان له جوار يلتقط النوى ، ضعيف سىء الحال ولكنه متجمل فى فقره ، فكان يمرّ بأبى العتاهية طرفى النهار فيقول أبو العتاهية : اللهم أعنه ، واصنع له ، وبارك فيه ، وبقي الرجل على ذلك نحواً من عشرين سنة إلى أن مات ، وما إن تصدق عليه أبو العتاهية بدرهم ولا دانق . فقال لأبى العتاهية بعض أصدقائه يوماً : إني أراك تكثر من الدعاء لهذا الشيخ وتزعم أنه مقلّ فلم لم تصدق عليه بشيء ؟ قال : أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء خيراً كثيراً .

ووقف عليه يوماً سائل من العيّارين^(١) الظرفاء ، وكان أبو العتاهية فى جماعة من جيرانه فسأله دونهم ، فقال له : صنع الله بك فأعاد عليه السؤال كثيراً ، وهو يردّ عليه بمثل ذلك ، فقال له السائل : ألسنت القائل :

كُلُّ حَيٍّ عِنْدَ مِيتَتِهِ حَظُّهُ مِنْ مَالِهِ الْكَفَنِ

ثم قال له : هل تريد أن تجعل مالك كله للكفن ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قدرت لكفنتك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهى إذا حظك من مالك ؟ قال : نعم . قال : فتصدق على من غير حظك بدرهم واحد . قال : لو تصدقت عليك لكان حظى . قال : فاعمل على أن ديناراً من الخمسة وضيعته^(٢) فيراط فادفع إلى قيراطاً واحداً . والإفواحدة أخرى . قال : وما هى ؟ قال : القبور تحفر بثلاثة دراهم فأعطى درهما وأقيم لك

(١) العيار : الكثير الصواف ، والنوى يتردد بلا عمل .

(٢) الوضيعة : الحطيطة .

كفيلاً بأنى أحفر لك قبرك متى متّ وترى درهمين فإن لم أحفر رددته على ورثتك ،
أوردّه وكيلي ، فنجّل أبو العتاهية وقال : اعزب لعنك الله وغضب عليك ، فضحك
جميع من حضر ومروا السائل يضحك . فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال : من أجل
هذا حرمت الصدقة ، فقالوا له : ومن حرمها ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى
ذلك قبلك !!

وقيل له : هل تزكى مالك ؟ قال : والله ما ألق على عيالي إلا من زكاة أموالى ،
فقيل له : سبحان الله ! إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال :
لو انقطعت عن عيالي زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم .



أما معتقده فأصدق ما يوصف به أبو العتاهية : أنه كان مضطرب المزاج ، مبطل
الخطأ ، لا يميل إلى رأى إلا ريشاً يتحوّل عنه إلى غيره ، وكان يعتقد المعتقد ، فإذا
سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده وأخذ بغيره ، ذكروا أنه كان يتشيع على مذهب الزيدية
البترية^(١) لا يتنقص أحداً ، ولا يرى الخروج على السلطان ، وكان مجبراً^(٢) مرة
ومعتزلياً أخرى .

وكان اضطرابه فى معتقده صورة من اضطرابه فى حياته ، وذلك نتيجة تركيب
خاصّ فى مزاجه ، فإن من غلبت عليه السوداء تنقل من أحواله بين الأضداد وبالغ فيما
يأتية أتمّ مبالغة ، فهو مثلاً : إما نشيط إلى درجة الجنون ، وإما كسلان إلى قريب من
الجمود أو الموت . وهكذا كان أبو العتاهية ، فقد كان ماجناً مفككاً حتى كان يحمل

(١) الزيدية : فرقة نسبت إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب تقصر الإمامة على أولاد فاطمة
ولا تميزها فى غيرهم . والبترية : طائفة منهم أصحاب (كثير النوى) الأبتري ، توقعوا فى أمر عثمان
أهو مؤمن أم كافر ، وفضلوا علياً على جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أجبرته : نسبته إلى الجبر ، وهو القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم .

زاملة^(١) الخنثين بالكوفة ويتبعهم ، ثم صار عاشقاً مدلها ، ثم انتهى إلى النسك الذى حرّم معه قول الشعر جملة ، ثم عاد منه إلى الزهد تاركاً الغزل والمجاء .

والذى يظهر أيضاً أن لجهل أبي العتاهية أثراً فى تردده بين المذاهب حتى كان أقل طعن فى المذهب الذى يدين به يدعو إلى هجرانه والبحث عن غيره ، وهذا شأن المقلد الذى لا يرجع إلى عقيدة راسخة ورأى يدعمه بالبرهان ، ويستخلصه بمحض فكرته .

هذا ومما يؤيد رأينا الذى قلناه من أنه نبغ فى الشعر بعد أن نشأ فى العامة ، ولقد عرف معاصروه عنه هذا الجهل ، فقد قال له أحد جيرانه مرة : لاتصل خلف فلان فإنه مشبه ، فقال : كلا ، إنه قرأ بنا البارحة : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . قال صاحبه : فعرفت أنه أجهل الناس حين ظن أن المشبه لا يقرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وكان أبو العتاهية كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس ، فقال له يوما بين يدي المأمون أسألك عن مسألة ، فقال له المأمون : عليك بشعرك ، فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى مساءلته ويأمره بإجابتي ، فقال : أجبه يا أشرس ، فقال أبو العتاهية ، (وهو فى هذا يعبر عن رأيه فى الجبر) : إن كل ما يفعله العباد من خير وشر فهو من الله وأنت تأبى ذلك ، فمن حرك يدي هذه وجعل يحرك يده ؟ فقال له ثمامة : حركها من أمه زانية . قال : شتمنى والله يا أمير المؤمنين ، فقال ثمامة ناقض قوله !! فضحك المأمون وقال : ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك .

علاقته بالخلفاء وغيرهم

نشأ أبو العتاهية بالكوفة كما علمت ، وما زال حتى اشتهر بالشعر فقصد بغداد ، وهى كهبة كل نابغ فى أى ناحية من نواحي النبوغ ، وفيها اتصل بالمهدى وزادت علاقته به ، حتى صار يخرج معه فى نزواته للصيد وغيره ، وبلغ من أنس المهدي أنه طالبه

(١) المزلة : جرة يرد فيها الماء ، ولعل الزاملة محرفة عنها ، أو هى عاميتها عند أهل الكوفة .

— ٢٣٨ —

بأن يهجوّه لأن غرامه بالصيد عرضه للهلاك مرّة ، وكان معه أبو العتاهية فأضافهما ملاح ، وكاد المهدي يموت برداً ، فامتنع أبو العتاهية حتى ألح عليه المهدي . فقال :
يَا لَأَبْسَ الْوَشْيِ عَلَى ثَوْبِهِ مَا أَقْبَحَ الْأَشْيَبَ فِي الرَّاحِ
فقال : زدني بحياتي ، فقال :

لَوْ شِئْتَ أَيْضاً جُلْتَ فِي خَامَةٍ وَفِي وَشَاحِينَ وَأَوْضَاحٍ^(١)

فقال : ويحك ! هذا معنى سوء يرويه عنك الناس . زدني ، فقال : أخاف أن تغضب
فقال : لا ، فقال :

كَمْ مِنْ عَظِيمِ الْقَدْرِ فِي نَفْسِهِ قَدْ نَامَ فِي جُبَّةٍ مَلَّاحٍ
وَبَلَغَ مِنْ مَنْزِلَتِهِ فِي بَيْتِ الْمَهْدِيِّ أَنَّ الْمَنْصُورَ بْنَ الْمَهْدِيِّ خُطِبَ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ الْمِسَاءُ «لِلَّهِ» ،
وَكَانَ لَهُ بَنْتَانِ هَذِهِ ، وَأُخْرَى اسْمُهَا «بِاللَّهِ» ، فَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَرْوِجَهُ وَقَالَ : إِنَّمَا طَلَبُهَا
لَأَنَّهَا بِنْتُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَكَانِي بِهَا قَدْ مَلَّهَا ، فَلَمْ يَكُنْ لِي إِلَى الْإِنْتِصَافِ مِنْهُ سَبِيلٌ ،
وَمَا كُنْتُ لِأَرْوِجَهَا إِلَّا بِائِعٍ جَرَّارٍ ، وَلَسَكُنِي اخْتَارُهُ لَهَا مُوسِراً .

كما بلغ من دالته على المهدي أن أحبّ عتبه جارية الخيزران ، وأكثر من ذكرها
في شعره ، فلما همّ المهدي باستنزال سيدتها عنها ليهبها له ، استغاثت السيدة والجارية
بالمهديّ فألهاه عنها بالمال ، ولسكنه لم يفتّر عن ذكرها .

وكان الهادي والرشيد يتنافسان في تقرّيبه أيام أبيهما ، وكان صغوا أبي العتاهية
مع الرشيد ، فكان الهادي عاتباً عليه ، فلما ولى الخلافة لم يكن أسرع من رضاه عنه
بعد أن مدحه بقوله :

يَضْطَرُّ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرَ
مَا أَبَيْنَ الْفَضْلُ فِي مَغِيبِ مَا أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ مَعْشَرٍ قَوْمٍ وَذَلَّ مِنْ مَعْشَرٍ
يُثِيرُ مِنْ مَسِّهِ الْقَضِيبُ وَلَوْ يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَّا أُمِرَ

(١) الخامة : ثوب من قطن لم يغسل . الأوضاح : حليّ من فضة ، أو الخلاخيل .

مَنْ مِثْلُ مُوسَى وَمِثْلُ وَالِدِهِ الْمَهْدَى أَوْ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ
ولما ولي الرشيد الخلافة كان له مع أبي العتاهية حديث طويل . فقد بلغ من ملازمته
له أنه لم يكن يفارقه في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يجري عليه كل سنة
خمسین ألف درهم سوى الجوائز والمعاون . وقد بلغ من إعجاب الرشيد به أن حرم جميع
الشعراء مرة ، ولم يعط إلا أبا العتاهية حين أنشده :

يَا مَنْ تُبَغَّى زَمَنًا صَالِحًا صَالِحَ هُرُونٍ صَالِحَ الزَّمَنِ
كُلُّ لِسَانٍ هُوَ فِي مَلِكِهِ بِالشُّكْرِ فِي إِحْسَانِهِ مُرْتَهَنٌ
وكان لهرُونَ ابن يسمى القاسم ، وكان من أتية الناس ، فرّ يومًا في موكب عظيم بأبي
العتاهية ، فقام له إعظامًا ، فلم يزل قائمًا حتى جاز ، فلما لم يلتفت إليه . قال
أبو العتاهية فيه :

يَتِيهِ ابْنُ آدَمَ مِنْ جِهْلِهِ كَأَنَّ رَحَى الْمَوْتِ لَا تَطْحَنُهُ
فلما بلغ ذلك القاسم أحضره وضربه مائة مفرقة وحبسه في داره ، فلما ضاق عليه الحبس
أرسل إلى زبيدة ، وكانت توجب له حقه ، هذه الأبيات :

حَتَّى مَتَى ذُو التَّيِّهِ فِي تَيْبِهِ أَصْلَحَهُ اللَّهُ وَعَافَاهُ
يَتِيهِ أَهْلُ التَّيِّهِ مِنْ جَهْلِهِمْ وَهُمْ يَمُوتُونَ وَإِنْ تَاهُوا
مَنْ طَلَبَ الْعِزَّ لِيَبْقَى بِهِ فَإِنْ عِزَّ الْمَرْءِ يَقْرَأْ
لَمْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ لَيْسَ يَرْجُوهُ وَيُحْشَاهُ
ووصف لها ضيق حبسه ، فرقت له وأخبرت الرشيد بأمره ، فأحضره وكساه ووصله ،
ولم يرض عن القاسم حتى برّاه واعتذر إليه .

وفي أيام الرشيد عرضت لأبي العتاهية حال تزهدها . وذلك أنه طلب من
مخارق المعنى أن ينقطع إليه يومًا ليغنيه في شعره ، فما زال يغنيه حتى صارت العتمة ،
ثم أمر أبو العتاهية ابنه وغلّامه ، فكسرا آنية الشراب وآلة الغناء ، ثم أمر بإخراج
ما عنده من النبيذ وصبه وصار يبكي حتى لم يبق من ذلك شيء ، ثم غسل ثيابه واغتسل

ولبس ثياباً من صوف أبيض وأعلن تنسكه ، وامتنع عن قول الشعر وحضور المنادمة ، فشق ذلك على الرشيد ، ولما لم يفلح في ردّه عن هذه الحال أمر بضربه ستين عصا وسجنه ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول الشعر في الغزل ، فلما رفعت المقارع عن أبي العتاهية قال : كلّ مملوك له حرّ ، وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكان الرشيد تحزن مما فعله ، فأمر أن يجلس في دار ويوسع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه فأقام السنة لا يحثّ في حلفته ، وكان أوّل كلامه بعدها قوله في امرأته :

من لقلبٍ مُتَمِّمٍ مشتاق شَفَّه شوقه وطولُ الفراق
طال شوقي إلى قعيدة بيتي ليت شعري فهل لنا من تلاقٍ
هيَ حَظِّي قد اقتصرت عليها من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلاً بكِ شملِي عن قريب وفكّني من وثاقٍ

فلما سمع الرشيد الشعر قال لمسرور الخادم : كم ضربنا أبا العتاهية ؟ قال : ستين عصا ، فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه . وكان في أيام حبسه لا يفتر عن ذكره ويشعر بالحاجة إليه في مقامات لا يغني فيها غيره ، فقد كان مرّة يسمع الغناء من جارية ومعه جعفر بن يحيى ، وكان الغناء في بيت واحد ، فقال الرشيد : ما أحوجه إلى ثان ليطول فيه الغناء فستمتع مدة ، فقال جعفر : قد أصبته . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبي العتاهية فيلحق لك به غيره لقد رتبه على الشعر ؛ فقال : هو أنكد من ذلك لا يجيبنا وهو محبوس ونحن في نعيم وطرب ، ثم كتب إليه بالقصة ، فكان ردّ أبي العتاهية :

ولقد كلفت أمراً عجيباً أسأل التفرّيج من بيت الحزن

فلما وصلت الرشيد قال : قد عرفت أنه لا يفعل ، فقال له جعفر : تخرجه حتى يفعل . قال : لا حتى يشعُر فقد حلقت ، ثم رضى أبو العتاهية بالعودة إلى قول الشعر تاركا الغزل والهجاء ، واستمرّ على حاله هذه مدّة الأمين وشطراً من أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ ، وكانت ولادته بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة ، ولكنه يقول في شعره إنه عاش تسعين حجة كما سيأتي .

- ٤٤١ -

وقد بلغ من شأن شاعر كَأبي العتاهية أعجب به الخلفاء وأعلوا منزلته أن يتنافس
الناس في الحرص على أن يكون لهم نصيب من شعره ، فمدح الفضل بن الربيع ، وكان
قبل ذلك قد مدح الرشيد فأمره بعشرين ألف درهم ، فلما مدح الفضل ثاني يوم بقوله :
إذا ما كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليلاً
يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطى من مَوَاهبه الجزيلاً
أراني حينما يَمُتُّ طَرْفِي وجدت على مكارمه دليلاً
فقال له : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلاً ، ولكن سأوصلها إليك في
دفعات ، وأعطاه في ذلك اليوم خمسة آلاف درهم .

وكان الفضل بن الربيع من أميل الناس إليه حتى سمعه يتحدث عن البرامكة فتغير
عليه ولم ير منه خيراً بعد ذلك . وكانت له منزلة عند عبد الله بن الحسن بن سهل ،
وكان يقول : لئن ضرتك عند ابن الربيع ذكر البرامكة لقد نفعت عندنا ، وأجرى له في
كل شهر ثلاثة آلاف درهم .

ومن مدحهم يزيد بن مَزَيْد ، ومما قال فيه :
كأنتك في صدري إذا جئت زائراً تُقَدَّرُ فيه حاجتي بابتدائك
وإن أمير المؤمنين وغـيـره ليعلم في الهيجاء فضل غنائك
كأنتك عند الكرم في الحرب إنما تَقَرُّ من السلم الذي من ورائك
فما آفة الأملاك غَيْرُكَ في الوغى ولا آفة الأموال غيرُ حَبائِكَ
فأعطاه عشرة آلاف درهم ودابة بسرجهما ولجامها .

واتصل بعمر بن العلاء بمدوح بشار . ومما قال فيه :
إن المطايا تشتكيك لأنها قطعتُ إليك سَبَابِياً ورمالا
فإذا وَرَدَنَ بنا وَرَدَنَ خفائفاً وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثغالا
وكان يزيد بن منصور خال المهدي يحبه ويقربه ويتعصب له ، فلما مات رثاه بقوله :
أَنْعَى يزيد بن منصور إلى البشر أَنْعَى يزيد لأهل البدو والحَصَرِ

يا ساكن الخفرة المهجور ساكنها
وجدتُ فقدك في مالي وفي نسيي
وجدتُ فقدك في شعري وفي نثري^(١)
فلستُ أدري جزاك الله صالحه
وكان منقطعاً إلى خالد المسكين ابن أبي جعفر المنصور قال : فاستفدت من ناحيته مائة ألف درهم ، وكان لي في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها أحد غيري .

وقد اتصل بعبد الله بن معن بن زائدة فمدحـه وذمه ، وكان سبب ذمه : أن أبا العتاهية كان يهوى امرأة نائحة لها حسن ودمائة ، وكان ممن يهواها أيضاً عبد الله ابن معن . ومما قاله أبو العتاهية في ذمه بعد أن ضربه عبد الله ومثل به عبيده قوله :

جَلَدْتَنِي بِكَفِّهَا بنتُ معن بن زائدة
جَلَدْتَنِي بِكَفِّهَا بأبي تلك جَالِدَة
وتراها مع الخصى ي على الباب قاعده
تَتَكَنَّى كُنَى الرجا ل لعمري مَكَايِدَة
جلدتنى وبالغت إنما أنت والده

وقال في هذا المعنى أيضاً :

قال ابن معن وَجَلَا نفسه
أنا فتاة الحى من وائل
ما في بنى شيبان أهل الحجا
ويلي ويالهفى على أمردي
صاحته يوما على خلوة
على من الجلوة يا أهلى
في الشرف الشامخ والنبل
جارية واحدة مثلى
يلصق منى القُرط بالحجل
فقال دع كفى وخذ رجلى

(١) النثب : المال الأصيل من الصامت والناطق . النثر : محرقة (للشعر) هو النثر (خلاف الشعر)

شعر أبي العتاهية

سنتناول من شعره أمرين : الأسلوب ، والأغراض .

فأما الأسلوب فهو ذلك السهل اللين الذى بلغ الغاية من اللين والسهولة ، حتى كادت ألفاظه تدقّ عن مخارج الحروف ، فلا تتحرك بها أعضاء الفم انسياغا وذلاقة ، وتلطف فى الأذن حتى كأنها لا وقع لها عليها .

ولم يأت ذلك الفضل من ناحية الخلو من الغريب ، وتوخى الكلمات الخفيفة فحسب ، ولكنه جاء كذلك من ناحية الملكة الصّناع الحاذقة فى إبراز المعنى فى أشفّ الألفاظ وأقرب الدلالات ، فالحكمة التى لا يستطيع غيره إبرازها إلا فى أسلوب يكاد له خاطره وخاطر السامع حتى يقرّ معناها فى نفسه ، ويوصل حقيقتها إلى وجدانه ، تراه قد عمد إليها من أيسر نواحيها ، واتمس لها أقرب طرق الأداء ، فاستغنى معناها العظيم بأقلّ لفظ وتراعى فى أسهل تعبير ، ويكاد ينهى إليك المعانى مستقلة بنفسها ، عارية عن ثوب اللفظ ، لو صحّ أن يتماسك ماء بلا إناء ، وإن شئت فقل : إن معناه يجتمع له الوضوح والنصوح ، ويتمّ للفظه الشفوف والصفاء ، فكأنما معنى ولا لفظ كما يرقّ الزجاج وتروق الخمر ، فكأنما خمر ولا قدح ، أو قدح ولا خمر .

وهذه السهولة من السحر الذى كان يرقى به أبو العتاهية جميع الناظرين فى شعره أو السامعين له ، قترهم وقد ملكهم من الحسن شيء لم يألفوا أن يكون له عليهم سلطان ، فإنما المألوف أن يكون السلطان للفظ الفخم فى الأداء ، البادى الرواء ، الذى عولج بأصباغ البديع ، فبدا عذبا فى الفم ، حلوا فى السمع ، فأما اللفظ العطل من الرواء ، المؤدّى بلا عناء ، فذلك ما لم تألف النفوس الإعجاب به قبل مذهب أبي العتاهية ، والتماسه الجمال فى البساطة ، والروعة فى السذاجة .

وإذا كان للانطباع على قول الشعر مقياس وجب أن يستولى أبو العتاهية على

غايته ، ويصل إلى نهايته على حين يقف أغلب الشعراء المطبوعين عند نصف الشوط ، لأن الانطباع في أبي العتاهية جعله بحيث يتحدث عن نفسه ، فيقول لمن سأله : كيف تقول الشعر ؟ ما أردته قطّ إلا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . ويقول في معرض آخر : لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت .

وإذا كان من السهولة سهولة متكلفة ، أو من الرقة رقة مصطنعة ، فإن سهولة أبي العتاهية ورقته هما ذلك النوع البريء الذي لا يتعلق به عيب ، ولا يوجه إليه نقد . وقد عابه قوم بهذا المذهب في القول (وهو أظهر فضائله) فاتهم رجل شعره بالضعف في مجلس ابن الأعرابي ، فقال له : الضعيف والله عقلك لاشعر أبي العتاهية ، ألابي العتاهية تقول هذا ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت ، منه . وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ، ثم أنشد له :

قطعت منك حبال الآمال	وحططت عن ظهر المطى رحالى
وجدت برد اليأس بين جوانحي	فأرحت من حلّ ومن ترحال
يأبى البطر الذى هو من غد	في قبره متمزق الأوصال
حذف المني عنه المسمّر في الهدى	وأرى منك طويلة الأذيال
حيل ابن آدم في الأمور كثيرة	والموت يقطع حيلة المحتال
قست السؤال فكان أعظم قيمة	من كل عارفة جرت بسؤال
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً	فابذله للمتكرم المفضال
وإذا خشيت تعذراً في بلدة	فاشدد يدك بعاجل الترحال
واصبر على غير الزمان فإنما	فرج الشدائد مثل حلّ عقل

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا القول ؟ فقال الرجل : إن الزهد مذهب أبي العتاهية وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد ، فقال : أو ليس هو الذى يقول في المديح ؟ :

وهارون ماء المزن يُشفي به الصّدي إذا ما الصّدي بالريق غصّت حناجره
وأوسط بيت في قریش لبيته وأول عزّ في قریش وآخره^(١)
وزخف له تحكى البروق سيوفه وتحكى الرعود القاصفات حوافره
إذا حميت شمس النهار تضاحكت إلى الشمس فيه بيضه ومغافره^(٢)
ومن ذاي فوت الموت والموت مُدرك كذا لم يفت هرون ضدّ ينافره
فلم يجد الرجل مخلصاً من ابن الأعرابي إلا أن يقول له: القول ما قلت، وما كنت سمعت
له مثل هذين الشعرين ولا كتبتهما عنه .

وقد اجتمع أبو العتاهية ومسلم بن الوليد في بعض المجالس ، فجرى بينهما كلام ،
فقال له مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك

* لبيك إن الملك لك *

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت واسكني أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجَلٌ يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجالُ به كالموت مُستعجلاً يأتي على مهل
يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويحمل الهام تيجان القنا الذُّبُل
لله من هاشم في أرضه جبلٌ وأنت وابنك رُكنا ذلك الجبل
فقال أبو العتاهية قل مثل قولي : « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك : « كأنه
أجل يسعى إلى أمل » .

وتذاكر الناس يوماً شعر أبي العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته

(١) أوسط . أرفع وأشرف .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهي الخوذة من الحديد تلبس على الرأس . المغافر : جمع مغفر . وهو زرد
ينسج من الدروع على قدر الرأس يجعل تحت الفلنسة .

- ٤٤٦ -

المزدوجة التي سماها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روايح الجنة في الشباب
فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال انظروا إلى قوله : « روايح الجنة في الشباب » ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل ، وإدامة الفكر . وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وكان مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، ف قيل له بما استحق عندك ذلك ؟ قال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ طوالٍ أيَّ آمالٍ
وأقبلت على الدنيا مُلِحًّا أيَّ إقبالٍ
أيا هذا تجهز لفراق الأهل والمال
فلا بُدَّ من الموت على حال من الحال

قال مصعب : فهذا كلام سهل حق لا حشوفيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقرُّ به الجاهل .

واستنشد بعضهم سألما الخاسر شيئاً من شعره ، فقال : لا ، ولكني أنشدك لأشعر الجن والإنس .
ثم أنشده :

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنٌ مَا هَذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ^(١)

(١) السكن : الأولى بمعنى المسكن والمنزل . والثانية بمعنى السكان ، وهي في الأصل السكن (بالفتح) وقد جركت هنا للشعر ، أو تكون بالتحريك على أصلها بمعنى تعمير الدار ويكون ذلك بسكانها : والمعنى لا يبقى لدار عمار بسكانها .

نحن في دار يُحْبَرُّنا بيلها ناطقٌ لَسِنُ
دار سَوءٍ لم يدم فَرَحُ لامرئٍ فيها ولا حَزَنُ
في سبيل الله أنفُسُنا كلُّنا بالموت مُرْتَهَنُ
كلُّ نفسٍ عند مِيتَتِها حظُّها من مالها الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرءِ ليس له منه إلا ذِكْرُهُ الحَسَنُ

أما الأغراض التي تناولها أبو العتاهية في شعره ، فهي جميع أغراض الشعر : من مدح ، وهجاء ، وثناء ، وغزل . وزهد . تجلّى فيها جميعاً طبعه السهل ومعناه القريب . ومدحه هو الذي أدرّ عليه ذلك الرزق الواسع والغنى العريض ، حتى كان له من وفره يوماً ما سبع وعشرون بدرّة ، والبدرّة : عشرة آلاف درهم ، ولم يصل إلينا خبر الثروة التي مات عنها ، ولا بدّ أن تكون عظيمة لما علمت من شحّه وكثرة ما يصل إليه من الخلفاء وغيرهم .

ومن مدحه الذي لم يمرّ بك قوله لما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة :
الأمين ، والمأمون ، والمؤتمن :

وراعٍ يُراعى الليل في حفظ أُمَّةٍ يدافع عنها الشرّ غير رَقُودٍ
بالوِيةِ جبريلُ يقدّم أهلها وراياتُ نصرٍ حوله وجُنُودُ
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليست بدار خُـلُودٍ
وشدّ عرى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثة أملاكٍ ولاةِ عُهُودٍ
هو خير أولادٍ لهم خير والدٍ له خير آباء مضت وجدودٍ
بنو المصطفى هرون حول سريرهِ فخـيرُ قيامٍ حوله وقعودٍ
تقلّبُ ألحاظُ المهابة بينهم عيونُ ظباء في قلوب أسـودٍ
جدود هو شمسٌ أتت في أهلةٍ تبدّت لراء في نجوم سُـودٍ

— ٤٤٨ —

فوصله الرشيد بصلة ماوصل مثلها شاعراً قط .

وولد للهادي ولد في أول يوم ولي الخلافة ، فدخل أبو العتاهية وأنشده :

أَكْثَرَ مُوسَى غَيْظَ حُسَّادِهِ وَزَيْنَ الْأَرْضِ بِأَوْلَادِهِ

وَجَاءَنَا مِنْ صِلْبِهِ سَيِّدٌ أَصِيدُ فِي تَقْطِيعِ أَجْدَادِهِ

فَاكْتَسَتِ الْأَرْضُ بِهِ بَهْجَةً وَاسْتَبَشَرَ الْمَلِكُ بِمِيلَادِهِ

وَابْتَسَمَ الْمَنْبَرُ عَنْ فَرْحَةٍ عَلَّتْ بِهِ ذِرْوَةُ أَعْوَادِهِ

كَأَنِّي بَعْدَ قَلِيلٍ بِهِ بَيْنَ مُوَالِيهِ وَقُوَادِهِ

فِي تَحْفِيلٍ تَحْقِيقُ رَايَاتِهِ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ

فأمر له موسى بألف دينار وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه .

أما هجاؤه ، فقد كان ممضاً يشتدّ معناه في لين ألفاظه ، فيكون آلم المهجّو وأسير على الألسنة . وقد مرّ بك هجاؤه لعبد الله بن معن ، فانظر كيف تراه قد جاءه من ناحية لم ينتبه إليها غيره في المهجاء ؟ وتلك هي ادعاء أنه أنثى ، ولا يليق بها إلا أن تجلى على البعل ، وقد استقصى هذا المعنى فكان أمضّ شيء وأوجهه .

ومما قال فيه في معنى قَصَرَ بَاعِه وقعوده عن المجد :

أَلَا قُلْ لِبْنِ مَعْنٍ ذَا اللَّيْذِي فِي الْوَدِّ قَدْ حَلَا

لَقَدْ بُلِّغْتُ مَا قَالَ فَمَا بَالَيْتُ مَا قَالَ^(١)

وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأُسْدِ لَمَا صَالَ وَلَا هَالَا

فَصُغْ مَا كُنْتَ حَلَّيْتَ بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَلَا

وَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَلَا

وَلَوْ مَدَّ إِلَى أَذْنِيهِ كَقَيْهِ لَمَا نَالَا

(١) تهديد عبد الله بن معن أبا العتاهية وخوفه ونهاه أن يتعرض لمولاته سعدى ، فهذا مايشير إليه أبو العتاهية بقوله : لقد بلغت ...

قصيرُ الطُّولِ والطَّيْلَةُ لاشبَّ ولا طالاً^(١)
أرى قومك أبطالا وقد أصبحتَ بَطالاً



وفى رثائه رنة الأسف ، وقد أجاد فيه لقربه من المذهب الذى اختصَّ به ، وكان فيه عالماً مرفوعاً ، ونازلاً مشبوبة ، وهو مذهب الزهد والزراية بشأن الدنيا ونعيمها . ومن رثائه ما قاله فى صديقه على بن ثابت فقد حضر وهو يجود بنفسه ، وما زال ملتزماً له حتى فاضت روحه ، فبكى طويلاً وقال :

أشربكى فى الخير قرَّبك الله فنعم الشريكُ فى الخير كنتنا
قد لعمرى حَكَيْتَ لى غُصَصِ المَوْتِ فخرَّكتنى لها وسكَّنتنا
ولما دفن وقف على قبره ، فبكى طويلاً ، ثم جعل يردّد هذه الأبيات :

ألا من لى بأنسك يا أخيّاً ومن لى أن أُنَبِّكَ مالدياً
طَوَّنَكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نشرٍ كذاكَ خطوبُهُ نشرًا وطيّاً
فلو نشرت قواكَ لى المنايا شكوتُ إليك ما صنعتُ إلّياً
بكيتُكَ يا علّى بدمع عيْنى فما أغنى البكاءُ عليك شيئاً
وكانت فى حياتكَ لى عِظَاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حيّاً

أما الغزل فى شعره فمجال واسع أعاد فيه وأبدى . وكان من خفة وقعه ، وحلاوة مذاقه ، وصفاء ديباجته أن كان المهدى يسمعه منه فى جاريته عتبة فيقبله ويحيزه عليه ، ولقد رثى لحاله فى عشقها حتى رجا سيدها فى النزول عنها ، فاستغاثت به السيدة والجارية ألا يفعل ، فترضاه عنها بالمال الكثير ولكنه استمرَّ ينسب بها .

(١) الطيلة : العمر .

ولما تنسك وكان من مقتضى نسكه أن يحرم على نفسه الغزل شق ذلك على الرشيد كل مشقة حتى ضربه وحبسه ، فلولا أن في غزل أبي العتاهية ناحية من الحسن وضربا من اللذة لم يجدها الرشيد في غزل غيره ماجزع كل هذا الجزع ، ولا ارتكب معه كل هذا العنف في حمله على تلك الخطئة .

ونستطيع أن ندل على سبب هذا التأثير العجيب في غزله بأن نقول : إن نشأة أبي العتاهية في الجون والتفكك ، وملازمة الخنثين وحمله زاملتهم في طرق الكوفة رقق من طبعه ، ونحى في غزله جزءا من رجولته ، فصار كزير النساء ، وهو أرق الناس خطابا لهم ، وأعرفهم بما يعلق بقلوبهم ويدور بخلدنهم ، كذلك ابن طبعه في القول وسهولة لفظه جملا لغزله رقة لم تكن لغيره ، وهي أول ما يراعى في الغزل حتى لنرى الشاعر إذا كان غايظ القول جاسيه ، أغنى في مقام الفخر ووصف الحروب ، وقصر في هذا الباب لما يحتاج إليه من بيان وإسجاح .

وسبب ثالث ، وهو ما عرفت من غلبة السوداء على أبي العتاهية ، فيكون شأنه المبالغة في كل ما يتناوله والإلحاح في جميع ما يعرض له ، لأن غلبة السوداء شعبة من الجنون ، والحب إذا خالطه شيء من هذا اشتعلت ناره ، واشتد أواره . وهكذا كان حب أبي العتاهية ليس فيه هواة ، ولا لمحوه ضابط ، وفي التعبير عن مثل هذا الحب حرارة لا تجدها في غزل منبعث عن نفس فاترة وغرام هادئ .

ومن قوله في عتبة :

أحمدُ قال لي ولم يدّر ما بي أُنحِبُّ الغداةَ عتبةَ حقا
فتنفّستُ ثم قلتُ نعم حُبًّا جرى في العروق عرقا فعرقا
لو تجسّسَ — يا عتبية قلبي لوجدتِ الفؤادَ قرّحا تفقا
قد لعمرى ملّ الطيب وملّ أهل منى ما أقاسى وألقى
ليتني متّ فاسترحت فإني أبدا ما حييت منها مُدقّ

ومن قوله فيها :

يا عْتَبَ سِدَّتِي أَمَّا لَكَ دِينٌ حَتَّى مَتَى قَلْبِي لَدَيْكَ رَهِينٌ
وَأَنَا الذَّلُولُ لِكُلِّ مَا حَمَلْتَنِي وَأَنَا الشَّقِيُّ الْبَائِسُ الْمُسْكِينُ
وَأَنَا الْغَدَاةَ لِكُلِّ بَاكِ مُسْعِدٌ وَلِكُلِّ صَبٍّ صَاحِبٌ وَخَدِينُ
لَا بَأْسَ إِنَّ لَذَاكَ عِنْدِي رَاحَةً لَلصَّبِّ أَنْ يَلْقَى الْحَزِينَ حَزِينُ
يَا عْتَبَ أَيْنَ أَفِرُّ مِنْكَ أَمِيرَتِي وَعَلَى حَصْنٍ مِنْ هَوَاكَ حَصِينُ

وكتب مرة إلى المهدي يعرض بطلبها منه :

نَفْسِي بَشْيءٍ مِنَ الدُّنْيَا مَعْلَقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا
إِنِّي لِأَيَّاسٍ مِنْهَا ثُمَّ يُطْمَعُنِي فِيهَا احْتِقَارُكَ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

ومن قوله فيها أيضاً :

أَلَا مَا لِسَيِّدَتِي مَا لَهَا أَدَلًّا فَأَحْمِلَ إِدْلَاهَا؟
وَالْأَفْقِيمُ تَجَنَّتْ وَمَا جَنَنْتُ سَقَى اللَّهُ أَطْلَاهَا
أَلَا إِنْ جَارِيَةً لِلْإِمَامِ مَـ قَدْ أُسْكِنَ الْحُبُّ سِرْبَاهَا
مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قَصَارِ الْخَطَا تُجَاذِبُ فِي الْمَشَى أَكْفَالَهَا
وَقَدْ أَتَعَبَ اللَّهُ نَفْسَ بَهَا وَأَتَعَبَ بِاللَّوْمِ عَذَّالَهَا

ومن قوله فيها :

عَيْنِي عَلَى عُتْبَةٍ مُنْهَلَةٍ بِدَمْعِهَا الْمُنْسَكَبِ السَّائِلِ
يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ
بَسَطْتُ كَفِّيْ نَحْوَكُمْ سَائِلًا مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَى السَّائِلِ
إِنْ لَمْ تَنْيَلُوهُ فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا جَمِيلًا بَدَلِ النَّائِلِ
أَوْ كُنْتُمْ الْعَامَ عَلَى عُسْرَةٍ مِنْهُ قَمْنُوهُ إِلَى قَابِلِ



وأما الزهد ، فقد كان المذهب الذى غلب على أبى العتاهية حتى عرف به وقصر عليه قوله فى آخر أيامه ، فكان يذم الدنيا ويزهد فى نعيمها ، ويعيب على من يغتره روتقها ، ويطنغيه زبرجها ، ويذكر الموت وهوله ، والقبر وبلى الأجسام فيه ، ويكثر من ذلك جداً حتى انتبه قوم إلى أنه إنما يذكر الموت والفناء دون النشور والبعث ، وإن ذلك يرجع منه إلى رأى فلسفى يعتقده ، وقد خاطبه فى ذلك بعض أصحابه ، فقال :
مادبنى إلا التوحيد ، ثم أنشد :

أَلَا إِنَّنَا كُلَّنَا بِأَدُّ وَأَيُّ بَنَى آدَمَ خَالِدُ
وَبَدَّوْهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلُّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدُ
فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَٰهَ أَمْ كَيْفَ يَجْعَلُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

ولعلَّ أبا العتاهية إنما كان يقصد بقوله فى الزهد حمل الناس على الخير ، ومنعهم من التكالب على الدنيا ، فكان لا يذكركم ولا يعظهم إلا بما قرب منهم وهو الموت والبلى كأنهم لغلظ قلوبهم صاروا لا يتأثرون إلا بما يقع تحت حسهم ، وما شئ يداخلهم ويروونه كل يوم ماثلاً أمامهم إلا الموت ، وصيرورة المرء إلى القبر وتعرضه فيه للبلى .
وقد تبع كلامه فى الزهد أن جرت على لسانه حكمة تضرب إلى هذه الناحية ، فهى حكمة التخذيل عن الدنيا والتحقير لشأنها ، وكذلك كانت أمثاله التى ضربها من هذا الوادى ، فيصح أن نقول : إن حكمته وأمثاله كلها كانت من لباب الزهد الذى أراد أن يكون فارس حلبته . وقد كان .

وأعظم مذكور له فى هذا الباب مزدوجته التى حوت أربعة آلاف مثل ، وقد مرَّ بك فى باب الشعر كثير منها . ومن غيرها قوله فى الموت :

- ٤٥٣ -

لِدُوا لِمَوْتٍ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ
أَلَا يَمُوتُ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَحِيفُ وَمَا تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبِي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى شِبَابِي
وقال له المأمون أنشدني أحسن ما قلت في الموت فأنشده :

أَنْسَاكَ مَحْيَاكَ الْمَمَاتَا فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا
أَوْثَقْتَ بِالْدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا عَزْمَا بَتَاتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبُويهِ فِيمَنْ قَدْ رَأَى كَانَا فَهَاتَا
هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ أَمْ قُلْتَ إِنَّ لَكَ انْقِلَابَاتَا
وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّغْلُتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَنَاتَا
كُلُّهُ تَصَبَّحَهُ الْمُنِيَّةُ أَوْ تَبَيَّنَتْهُ بَيَاتَا

وإذا كان عيب في شعر أبي العتاهية فهو ما كان يناقضه من حرصه على المال ،
وتجاوزه الحد في جمعه ، وقد عابه بذلك الجمار ، فقال :

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدِ مِنْ وَاعِظٍ يُزْهِدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ
لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقًا أَضْحَى وَأَمْسَى بَيْتَهُ الْمَسْجِدُ
يَخَافُ أَنْ تَنْفَدَ أَرْزَاقُهُ وَالرِّزْقُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنْفَدُ
وَالرِّزْقُ مَقْسُومٌ عَلَى مَنْ تَرَى يَنَالُهُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ

وكان آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وقد أدرك فيه خطاه في الحرص على الدنيا قوله :

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
فَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي لِعَفْوِكَ إِنَّ عَفْوَتَهُ وَحُسْنَ ظَنِّي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا وَأَنْتَ عَلَى ذُو فَضْلٍ وَمَنَّ
إِذَا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا عَصَصْتُ أَنَا مِلِّي وَقَرَعْتُ سِنِّي

أَجَنُّ بَزَهْرَةَ الدُّنْيَا جُنُونًا وَأَقْطَعُ طُولَ عُمُرِي بِالنَّمَى
ولو أنى صَدَقْتُ الزَّهْدَ عَنْهَا قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهَرَ الْمَجَنِّ
يُظَنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي
وأوصى بأن يكتب على قبره :

أُذِنَ حَيًّا تَسْمَعِي إِسْمَعِي ثُمَّ عَى وَعَى
أَنَا رَهْنٌ بِمُضْجَعِي فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي
عِشْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً فِي دِيَارِ التَّرْزَعِ
لَيْسَ زَادٌ سِوَى التَّقَى فَخَذَى مِنْهُ أَوْ دَعَى

ولسنا بحاجة أن نعقد فصلاً لبيان منزلة أبي العتاهية عند الأدباء وغيرهم ، فقد تفرق من ذلك في الترجمة كثير .

وقد مرّ بك في باب أوزان الشعر أنه كان أحد الذين كسروا قيود الأوزان القديمة ، فلما خطب في ذلك قال : أنا أكبر من العروض .

وديوان شعره في جزأين كبيرين : أولهما في الزهد ، والثاني في الأغراض الأخرى ، مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ هـ ، والذي يجب أن نعرفه أن ما في الديوان ليس كل شعره ، لأن أبا العتاهية كان أحد ثلاثة لم تمكن الإحاطة بشعرهم لكثرتهم ، وهم : بشار ، والسيد الحميري ، وأبو العتاهية ، ولا شك أنه في هذا أكثرهم .

حياة أبي تمام

[نسبه] : يختلف الرواة في نسب أبي تمام ، فبعضهم يجعله عربياً صحيحاً من طيء فيقولون : إنه حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس بن الأشجج بن يحيى بن مروان ابن مر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن الغوث بن طيء .

والذين يدعون أنه نصراني من أهل قرية جاسم من قرى الجيّدور من أعمال دمشق يقولون : إن أسم أبيه ليس أوساً ولكنه ندوس العطار فغير إلى أوس وأدخل في هذا النسب المفتعل ، وعلى هذا يقول شاعر يهجو أبا تمام :

لو أنّ عبد منّافٍ في أُرُومَتِهِمْ تَقَبَّلوكَ لما ضرّوا ولا نفَعوا
مِرْبَاع قومك ناقوس وشَمْعَلَةٌ فاذا كرّ رابعهم فيها إذا ارتبعوا
ولاشكّ أن أبا تمام كان يعجبه النسب الأول لأن الانتماء إلى العرب كان شرفاً كبيراً خصوصاً إلى قبيلة مشهورة كطيّ ، وهذا ما يرجح في نظرنا أن يكون في اصطناع هذا النسب يد لأبي تمام ، فقد كان يفاخر به ويسامى الرؤساء كما فعل في مدحه لأحمد ابن أبي دؤاد .

أضحتْ إِيّادُ في معدٍّ كلِّها وهم أيّادى بناها الممدود
تَنَمِّيكُ في قَلَلِ المكارمِ والعُلا زُهرٌ لزُهرٍ أبوةٌ وجدود
إن كنتم عادى ذاك النبع إن نسبوا وفلقة ذلك الجلود
وتركتموهم دوننا فلا تَم شركاؤنا من دونهم في الجود
كعبٌ وحاتم اللذان تقاسما خطّط العلامن طارف وتليد

نشأته وتصرفه

في تاريخ أبي تمام كثير من الغموض ، أول ما فيه من ذلك تاريخ ميلاده ، فإن المؤرخين لم يتفقوا على رأى في عام ولادته . فبعض يذكر أنه ولد سنة ١٨٠ هـ ، وآخر يقول سنة ١٨٨ هـ ، وثالث يروى سنة ١٩٢ هـ ، وبعض يروى عن أبي تمام نفسه أنه ولد سنة ١٩٠ هـ ، وكما اختلفوا في ولادته اختلفوا في وفاته ، فقليل سنة ٢٢٨ هـ ، وقليل سنة ٢٣١ هـ ، وقليل سنة ٢٣٢ هـ ، فيكون مات شاباً

في حدود الأربعين ، أو مجاوزاً لها بقليل . ودفن بالموصل ، ورفاته الآن في حديقة البلدية هناك في ضريح فخم .

ثم يذكرون أنه نشأ بالشام بالقرية التي ذكرناها ، وهي جاسم ؛ وصاحب الأغاني يذكر أنه نشأ بجنج أو في قرية من قراها . وغيره يزعم أنه نشأ في قرية من قرى دمشق ، ثم يذكرون أنه نشأ فقيراً ، وأنه انتقل إلى مصر ، ولكننا لا نظفر بمعرفة مقدار عمره حين انتقل إلى مصر ، ولا مقدار ما حصله من علم قبل ذلك بالشام . وقصيدته التي ذكر فيها مجيئه إلى مصر تدلّ على أنه قدمها وقد عقل ، وأنه حضرها وحده لا في حياطة أسرته ، كما تدلّ على أنه لم يظفر فيها بما أمل من سعة عيش ، ورفاهة حال قام فيها مدة في أنكد عيش يسقى الماء بالجرّة في جامع عمرو بالنسقاط ، فكان لا اختلاطه بالعلماء أثر في نفسه ومادة في علمه ، وتدلّ القصيدة أيضاً على أنه أقام بمصر خمس سنين ، ولكنه كان قد نضج في الشعر فقاله وعرف بالجوذة فيه ، وحسد فضله من شعراء مصر يوسف بن السراج ، فاتصل بينهما التهاجي . وكان من ذبوع فضله أنه سمع بخبره المعتصم فاستقدمه إليه ، وفي هذه القصيدة يقول :

بنفسى أرض الشام لا أئمنُ الحمى ولا أيسرُ الدهنا ولا أوسطُ الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطر في أن تمر ولا تحلي
أخمسة أعوام مضت لمغيه وشهران بل يومان تُكلّ على تُكل
نأيت فلا مالاً حوت ولم أقم فأمتع إذ فُجعت بالمال والأهل

ولعلّ هذه القصيدة لم تكن آخر عهده ، فيكون قد أقام بها أكثر من ذلك .

دخل بغداد فكان شأنه غير شأن سائر الشعراء ، لأن الواحد منهم كان إذا قدر الله له نجاحاً يكون الخليفة آخر من يسمع به ، ويكون قبل ذلك قد اتصل بمياسير الناس ورؤسائهم ، ثم حاشية الخليفة وأمرأ بيته ، ثم ينتهى به الشرف ، ويتسامى الخط ، فيذكر اسمه للخليفة ، فيأذن له بالإشاد بين يديه ، ولكن أبا تمام كان في شهرته كما

كان في نبوغه وثاباً ، فهو إنما قدم بغداد بدعوة من المعتصم ، فلما سمع منه ورضى عنه تسابق الأمراء والوزراء ، ورجال الدولة عامة من حاضر في بغداد وناء عنها ، في أن يشرفهم أبو تمام بمدحه ، ولذلك لا نراه قد قبع في بغداد كغيره من الشعراء الذين لا تتجاوز شهرتهم الأفق الذي يعيشون فيه . وما بغداد بالهينة الشأن ، أو الضيقة الرقعة لولم تتعداها شهرة أبي تمام ، ولكن نبوغه كان أكبر من أن تسعه بغداد ، فلذلك رأيناه يشترق ويغرب ، فصديق عليه قوله :

وَعَرَبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذَكَرَ مَشْرِقٍ وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبَا

وقد اتصل أبو تمام بالخليفة ، ووزيره محمد بن عبد الملك الزيّات ، ورجال الدولة : الحسن ابن وهب ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن حميد الطوسي ، والأفشين وأبي دلف العجلي ، وعبد الله بن طاهر ، وخالد بن يزيد بن يزيد وغيرهم من كبار الناس وأصحاب البيوتات في الدولة ، وقد كان له من هؤلاء جود واسع ، وكرم زائد ، وقد اعترف بعضهم بأن عطاءهم دون ما يستحقه شعره . ذكروا أنه لما مدح محمد بن عبد الملك الزيّات بالقصيدة التي فيها :

دِيمَةٌ سَمَحَتْهُ الْقِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَنْغِيثٌ بِهَا النَّزَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بَقْعَةٌ لِأَعْظَامٍ أُخْرَى لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ

قال له : يا أبا تمام ، إنك لتحلى شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معنك ما يزيد به حسناً على بهيّ الجواهر في جياذ الحسان ، وما يدخر لك شيء من جزيل العطاء إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة .

وهذه الثروة التي استفادها أبو تمام أنفقها في لذّاته ، وكان غرامه بالأسفار وولعه بالرحل هو الذي استنفد هذه الثروة الطائلة التي لو حرص عليها كما حرص غيره لرأينا له تراثاً لم يخلفه شاعر ، فإن المعروف أن أبا تمام أخمل في حياته كلّ شعراء زمانه ،

وقطع عنهم أرزاقهم ، فلما مات تنفسوا الصعداء ، وعادت عطاياه تقسم بينهم ،
فانتعشت حالهم .

حدث أحمد بن يزيد المهلبى قال : ما كان أحد من الشعراء يأخذ درهما بالشعر في
حياة أى تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه .

صفات أبى تمام ومزاياه

كان أسمر طويلا فصيحاً ، حلو الكلام مع تمتعة يسيرة فيه ، ولعل هذه الصفات
ليس منها ما يتعلق بموضوعنا ، وهو شاعرية أبى تمام ، اللهم إلا ما كان من فصاحة
منطقه وحلاوة كلامه . فأما الصفات التى يصح أن تكون ذات أثر في شعره ، أو في
حالات نفسه التى ينشأ عنها الشعر ، فذلك هى ما كان فيه من ميل إلى اللهو والبذخ في
المعيشة ، ومن مجون ، واستباحة للشراب ، وتهاون بأمر الدين ، فهذه صفات يتورط
فيها الشعراء إلا قليلا جرت بذلك سنتهم خصوصاً في عصور الترف والنعيم ، ولكن
الذى تساءل عنه ، لم لم تتجه الأنظار إلى أبى تمام في مسلكه كما اتجهت إلى بشار
وأبى نواس ؟ ولعل السبب أن زمن أبى تمام كان زمناً ألفت فيه هذه الأنواع من
الفجور ، وشاع الفسق ، وهدأت في نفوس الخلفاء نائفة الاتهام بالزندقة ، فلم يكن ما يأتيه
أبو تمام بدعاً ولا مستغرباً .

كان أبو تمام يشرب الخمر ، وفيها يقول :

أفيكم فتى حرٌّ فيُخبرني عني بما شربت مشروبة الراح من ذهني
غدَّتْ وهى أولى من فؤادى بعزمتي ورُحْتُ بما في الدنّ أولى من الدنّ
لقد تركتني كأسها وحقيقتي مجازٌ وصُبْحٌ من يقيني كالظنّ

وقد قصد خالد بن يزيد بن مزيد بأرمينية ، فمدحه فأعطاه عشرة آلاف ، فلما انصرف

من عنده طابت له الإقامة في أرباض مدينته ، فخرج خالد يوماً يصطاد ، فإذا أبو تمام
تحت شجرة يشرب ، وغلّامه يغنيه بالطنبور ، فقال له : ما فعل المال ؟ قال :
علمني جودك السّاحَ فما أَبْقَيْتُ شيئاً لَدَيَّ من صلتك
ما مرَّ شهرٌ حتى سَمَحْتُ به كأنَّ لي قُدْرَةً كمقدرك
تُنْفِقُ في اليوم بالهَبَاتِ وفي السَّـسَاعَةِ ما تَجْتَنِيهِ في سَنَتِكَ
فلمستُ أدري من أين تُنْفِقُ لو لا أَنَّ ربي يَمُدُّ في هبتك
فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

وكان له غلام خزريّ ، وللعحسن بن وهب غلام روميّ ، فراه أبو تمام يوماً يعبث
بغلّامه ، فقال له : لئن أعنقت إلى الروم لتركضنّ إلى الخزر . وذكروا أيضاً أنه كان
بفارس عند الحسن بن رجاء ، فمضى إليه خبر تركه الصلاة ، فعاتبه في ذلك ، فقال له :
« لم أنشط للشخص إلّيك من مدينة السلام ، وأتجشم هذه الطرقات الشاقة ،
وأكسل عن ركعات لا مئونة فيها علىّ . لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً وعلى من
تركها عقاباً » ، فتركه بعد هذا الكفر الصريح ، واتمس له العذر في قوله :
وأحقّ الأنام أن يقضى الدين امرؤ كان للإله غريماً

وكانت فيه فضائل إلى جانب ذلك منها عزّة نفسه ، ولعلها إنّما جاءت من طفوره إلى
الشهرة ، وسرعة اتصاله بالخلفاء . وقد ذكروا من حديث هذه العفة والعزّة أنه لما قدم
خراسان مادحا عبد الله بن طاهر بقصيدته التي يقول في مطلعها :

* هنّ عوادي يوسف وصواحيه *

بلغ من إعجاب عبد الله بن طاهر أن نثر عليه ألف دينار فلم يتحرك لها أبو تمام
والتقطها الغلمان ، فخذ عليه عبد الله حيناً ثم رضى عنه ، وأضعف له العطية .

أما ذكاؤه ، وتوقد قريحته ، وصدق حسه ، وسريع حفظه ، فقد كان في كلّ

— ٤٦٠ —

ذلك علماً مشهوراً . قالوا : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات .

ولما أنشد محمد بن عبد الملك الزيات قصيدته التي أولها :
 دِيمَةُ سَمْحَةِ الْقِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَفِثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
 لَوْ سَعَتْ بَقْعَةُ لِإِعْظَامٍ أُخْرَى لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ
 كان بحضرته فيلسوف ، فقال : إن هذا الفتى يموت شاباً ، فقيل له : ومن أين حكمت
 بذلك ؟ قال : رأيت فيه من الحدة والذكاء ، والفطنة مع لطافة الحس ، وجودة الخاطر
 ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده .

ولما أنشده أحمد بن المعتصم قصيدته التي أولها :
 مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْضِي حَقُوقَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ
 وانتهى إلى قوله فيها :

إِقْدَامِ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ
 قال له الفيلسوف أبو يوسف السكندی يعقوب بن الصباح وكان حاضراً : الأمير فوق
 من وصفت ، فأطرق أبو تمام قليلاً ، ثم رفع رأسه وقال :
 لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُّودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
 فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
 فلما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فدهشوا لسرعة خاطره ، فقال
 أبو يوسف هذا الفتى يموت قريباً :

ومن حضور جوابه وسرعة بديهته أنه لما أنشد أبا العميشل :

* هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ *

قال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ قال أبو تمام وأنت لم لا تفهم ما يقال ؟ فعدوا ذلك من
 بدائمه البليغة .



وقد وضع الرؤساء أبا تمام في منزلة عالية ، وجعلوا له بينهم قدراً معروفاً دونه أقدار الشعراء مهما أجادوا القول ، وبالعوا في الإطراء . وإنما ذلك لأن أبا تمام زاد على الشعراء بصفات النبوغ والكمال العقلي والنفسى ، وهذه إذا تمت في امرئ استحق التجلة والإكبار ، لأن الذكاء والخلق الفاضل محترمان ، وصاحبهما مرموق بعين الإعظام مهما انحط به الفقر ، أو تدنت به في الناس المنزلة ، ولقد انضم إلى ذلك كله في أبي تمام علم غزير ، وإطلاع واسع ، وإحاطة بأخبار العرب ، ووعى لكل ما عرف لهم من قول كذلك لا بد أن يكون قد تنقف بالثقافة الحديثة في عصره (ثقافة العلوم المترجمة التي كان رواجها ، واشتداد الطلب لها في أيام أبي تمام) ، فاجتمعت في نفسه ثقافة عربية إلى أخرى فارسية ويونانية وهندية إلى الذكاء الذي يحسن هضم كل هذا والانتفاع به .

لذلك نرى أبا تمام قد نظر إليه الرؤساء في زمانه نظرة إعجاب ، وسما في تقديرهم عن زملائه الشعراء الذين يكون منتهى أملهم ، وغاية مطعمهم عطاء يكثر أو يقل على حسب منزلتهم في الشعر . فأما أبو تمام فقد استحق من العطاء أوفره ، ثم كان ذلك دون قدره ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل . ولعله لو عمر لترقى في الولايات حتى انتهى إلى الوزارة ، فيكون أوّل شاعر أهل الشعر لأسمى مراتب الحكم بعد الخلافة .

نعم كان أكبرهم الشاعر عطاء يوازي مقدرته على الإطراء ، وبلاءه في رفعة قدر الممدوح ، فإذا سمت همته إلى أكثر من ذلك ، وكان له طبع ظريف ، وشمائل مستملحة استحق أن يكون ندياً لهؤلاء الممدوحين ، وهو في كل هذه المراتب لا يطعم في مساماتهم ، ولا يجرو على أن يخاطبهم خطاب الزملاء ، اللهم إلا شعراء أفذاذ أمثال أبي تمام ، والمتنبى ،

والشريف الرضى ، فهو لاء كان لهم إلى جانب الشعر نفوس عالية ، وأقدار كبيرة ترفعوا بها عن أقدار المداح والندماء .

ومما يدل على منزلة أبي تمام بين رؤساء زمانه أن مالك بن طوق كان قد غضب على قومه بنى تغلب لإفسادهم فى الأرض وقطعهم الطريق ، فلما خافوا سطوة غضبه لجئوا إلى أبي تمام ، فاستعطفه لهم بقوله :

وَمَضَتْ كهُولُهُمْ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ أَحْدَاثُهُمْ تَدِيرَ غَيْرِ صَوَابِ
لَا رِقَّةَ الْخَصْرِ اللَّطِيفِ غَدَّتْهُمْ وَتَبَاعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الْأَعْرَابِ
فَإِذَا كَشَفْتَهُمْ وَجَدْتَ لَدَيْهِمْ كَرَّمَ النُّفُوسِ وَقِلَّةَ الْأَدَابِ
لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أُسْوَةٍ وَأَجْلَهَا فِي سُنَّةٍ وَكِتَابِ
أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ الْقُلُوبِ رِضَاهُمْ كَرَّمَا وَرَدَّ أَخَانِدَ الْأَحْزَابِ

فوقعت القصيدة من مالك أجل وقع وقبل شفاعته أبى تمام .

وأبو تمام هو الذى اشتكى إليه البحترى ضيق الحال ، فحمله بطاقة إلى أهل معرفة النعمان ، فأغدقوا عليه الخير ، ورتبوا له أربعة آلاف درهم قال البحترى : كان ذلك أول مال أصبته

وانظر إلى أبى تمام يشفع للوائق عند أبيه فى ولاية العهد ، فيقول :

فَأَشْدُدْ بَهْرُونَ الْخِلَافَةَ إِنَّهُ سَكَنُ لَوْحَشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مَعْصَمٌ مَا كُنْتُ تَتْرَكُهُ بَدُونِ سَوَارِ

والفرق بين موقف أبى تمام من المعتصم وموقف مسكين الدارمى من معاوية فى تولية يزيد العهد ، فرق عظيم . فمعاوية كان يحتاج إلى أن يتكلم الشعراء فى ولاية ابنه للعهد لأنها كانت حدثا جديدا يريد معاوية أن يهيئ له أذهان الناس بمثل قول مسكين .

أما الحال أيام المعتصم فلم تكن بهذه المثابة إذ أن ولاية العهد كانت رسما من رسوم الدولة لا تكبر عليه ، ولا حاجة فيه إلى ألسنة الشعراء ، فوقف أبى تمام من المعتصم

موقف شفاعة حقّة ، ولكنّ مسكيننا مأجور على إذاعة رأى الخليفة فى شعره حتى يهيه*
النفوس لقبوله .

شعر أبى تمام

اجتمعت فى شعر أبى تمام صفات هى :

١ — المعانى الدقيقة ، والتصورات العميقة ، والخيال البعيد ، يحدوه إلى ذلك ذكاؤه
الحاد الذى عرفت شأنه . فقد كان من أجل هذا لا يقنع بتناول المعانى من أطرافها ،
وقد يكون من هذه المعانى ما لم يسبق إليه سابق ولا حام حوله حائم ، وهذا كثير
عند أبى تمام

٢ — التماس اللفظ الجزل يتزيد به على الناس ، ويدلّ به على واسع علمه باللغة وإحاطته
بكلام العرب .

٣ — القصد إلى تحسين الكلام بأنواع البديع ، ولم يكن أبى تمام صاحب هذا المذهب
بل سبقه مسلم بن الوليد وطبقته ، ثم أبى نواس وطبقته ، وهؤلاء لم يحدثوا هذا من
عدم ، ولكنهم أطالوا تعمده ، وأداموا انتحاء طريقتهم ، ولم يكن قبليهم من أبدى
هذا الغرام ولا التزمه هذا التزام ، بل كان يأتى من الشعراء والكتاب عفو الخاطر
بلا قصد ولا تعمّد ، وهو واقع فى القرآن ، وكلام الجاهليين والإسلاميين على
النحو الذى ذكرناه لك .

وفرق ما بين مسلم وطبقته ومن جاء بعده وبين أبى تمام ، أن هؤلاء لم يكلفوا بهذا
ذهب كلفه . ولا تعمّدوه تعمده ، فكان كلامهم حسنا لا عيب فيه وجالا لا يغضّ
به إلا كثار ، ولكنه عند أبى تمام يستولى على أسلوبه استيلاء ظاهراً ، ويكاد
حاول تحقيقه فى كل جملة ، ويظهره وإن أبى الظهور فى كل فقرة . لذلك كان من

- ٤٦٤ -

السابقين حسناً دائماً ، لأنه مع تعمده قريب إلى الطبع ما دام لا يلتزم التزاماً ، ولا يكره إكراها . فأما في كلام أبي تمام ، فقد كان فيه جانباً الحسن والقبح ، وسمتا الانطباع والتخلف ، وعلامتا اليسر والعسر .

هذه الصفات الثلاثة هي أعمدة القول في شعر أبي تمام ، وعليها يبنى الحكم له بالإجادة أو التقصير ، والسلامة أو العيب . فإذا اتفق له المعنى الشريف الذي لم يبتذله الشعراء والخيال البديع الغريب المنزع . واستقام له اللفظ الجزل الرنان الفخم الذي لم يُعْرِق في البداوة فيجسّو ويغلظ ، ولم تهلهله الحضارة فيفقد روحه ورسائنه ، ثم زخرف هذا القول بعد بالبديع الذي لا يغضّ منه ، فجاء حاكياً للطبع ، في حسن الوضع ، ودقة الصنع ، كان الكلام الجامع لهذه المزايا هو غاية كل أديب ، وأمنية كل قائل .

ولأبي تمام قصائد سلمت له فيها هذه المقاصد على ما وصفنا ، فكانت بروداً يمانية ، أو ديباجاً خُسرَوانياً ، فاستحقت التقدم على كل شعر عربي عرف بالجودة في قديم وحديث .

وقد ينعكس الحال في هذه المقاصد ، فإذا المعنى الذي يريده أبو تمام شريفاً مصوناً يأتي عويصاً ، أو مستحيلاً ، أو فكرة فيجة غير واضحة المرى ، ولا ظاهرة الغرض ، وإذا باللفظ الذي طلب له الجزالة والرصانة يخرج بدوياً متعجرفاً ، وإذا الزينة التي طلبها للجمال قد أكثر منها ، فغضت من الحسن وقضت بالاستهجان ، فانظر (وقال الله السوء) إذا اجتمعت هذه المقابح في كلام (وقد تجتمع في كلام أبي تمام) كيف يكون وقعها في السمع وبعدها عن الفصاحة ؟ !

ومن هنا رأيناهم يحكمون على أبي تمام حكماً يكاد يكون متناقضاً . قال صاحب الأغاني : « والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ، وأخرى رديئة رذلة جداً » .

وما ذكرناه لك سابقاً هو السبب في أن يكون له الجيد الذي لا يتعلق به أحد والمتوسط المقبول ، والردى الرذل البالغ الغاية في ذلك .

ونستطيع أن ندلك على مواضع من الحسن في كلامه بما نسوقه لك من أخبار في طيها شعر نال إعجاب جهابذة الكلام وتقاد المعاني والألفاظ .

ذكروا أن ابن الزيات كان يقول : أشعر الناس طراً الذي يقول :

وما أبالي وخير القول أصدقه حَقَنْتَ لى ماء وجهى أَوْحَقَنْتَ دَمِي

وكان إبراهيم بن العباس الصُّوليّ يقول : أشعر أهل زماننا الذي يقول :

مَطَرٌ أَبوكَ أَبُو أَهْلَةٍ وَأَثَلٌ مَلَأَ البَسِيطَةَ عُدَّةً وَعَدِيدَا

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدودا في العلى وجدودا^(١)

وقدم عُمارة بن عَقِيل بغداد ، فاجتمع الناس إليه ، وكتبوا شعره وشعر أبيه ، وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : إن هاهنا شاعراً يزعم بعض أنه أشعر الناس ، ويزعم آخرون غير ذلك ، فقال أنشدوني من قوله ، فأنشدوه :

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ وَعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرَّةٍ قَدِ^(٢)

وَأَقْذَهَا مِنْ نَعْمَةِ الْمَوْتِ أَنَّهُ صُدُودُ فِرَاقٍ لَا صُدُودُ تَعَمُّدٍ

فَأَجْرَى لَهَا الْإِشْفَاقُ دَمْعًا مُورَدًا مِنْ الدَّمِ يَجْرَى فَوْقَ خَيْدٍ مُورَدٍ

هِيَ الْبَدْرُ يُغْنِيهَا تَوَدُّدٌ وَجْهَهَا إِلَى كُلِّ مَنْ لَاقَتْ وَإِنْ لَمْ تَوَدِّدِ

ثم قطع المُنشد إنشاده ، فقال له عُمارة : زدني من هذا ، فوصل الإنشاد ، وقال :

(١) جدود الأولى : جمع جد ، وهو أب الأب . والثانية جمعه : بمعنى الحظ .

(٢) النوى : البعد ، وهو مؤنث . القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

ولكنني لم أخوِ جمعا مؤفرا ففُزْتُ به إلا بشملي مُبَدَّدٍ^(١)
ولم تُعْطِنِي الأيامُ نَوْماً مُسْكِناً أَلَدْتُ به إلا بنومٍ مُشَرَّدٍ

فقال عُمارة : لله درّه ، لقد تقدّم في هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى
لقد حُبب إلى الاعترا ب . هيهه ، فأنشده :

وطول مقامِ المرءِ في الحى مُخْلِقٌ لِدِيابِجَتِيهِ فاغترب تتجددٍ^(٢)
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ حُبَّةً إلى الناسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

فقال عُمارة : والله لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطراد المراد ، واتساق
الكلام ، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس .

وحدث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : لما قدم أبو تمام خراسان اجتمع
الشعراء إليه وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدني الأمير أن أنشده غداً وستسمعوني ،
فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عَوَادِي يَوْسُفٍ وصَوَاحِبُهُ فَعَزَّ مَا قَدِمَا أَدْرَكَ النَجِجَ طَائِبُهُ^(٣)
فلما بلغ إلى قوله :

وَقَلْبَلْ نَأْيُ مِنْ خُرَاسَانَ جَاشِهَا فَقُلْتُ اطْمَئِنِّي أَنْضَرُ الرُّؤُوسِ عَازِبُهُ^(٤)

(١) جمع : مجموع ، والمراد به المال المكتسب . موفر : كثير .

(٢) أخلق اللابس الثوب : أبلاه وذهب بجذته . الديابجتان : الحدان .

(٣) يروى البيت بلا همز فيكون قد دخله الحرم ، وهو عيب شعري كما يروى به فيخلو من العيب .
ولذلك آثرنا روايته بالهمز . عوادي : جمع عادية ، من عداه عن كذا : بمعنى صرفه .
والاستفهام في البيت للتقرير . والمعنى لا شك أن النساء هن اللاتي حاولن صرف يوسف عن
تقاه ، وإذا كان ذلك فاعزم عزما أكيدا على مخالفتهن حتى تدرك النجج فأنما سبيل لإدراك
النجاح هو تصميم العزم وإمضاء النية (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

(٤) و يروى نأى . الجأش : القلب أو الصدر . وقولهم فلان رابط الجأش من إضافة اسم الفاعل إلى
مفعوله : أى أن الشجاع لثباته كأنه يربط قلبه بمنعه من الطيران ، أو من إضافته إلى فاعله : أى أن
قلبه يربطه فتثبت قدمه فلا يفر (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وَرَكِبَ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَرَّسُوا عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَاهِبُهُ^(١)
لَأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ^(٢) وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُهُ^(٣)
صاح الشعراء ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزّه الله ، وقال شاعر منهم يعرف
بالرياحي : لى عند الأمير جائزة وعدنى بها ، وقد جعلتها لهذا الشاعر جزاء إحسانه ،
فقال له عبد الله : بل نضعفها لك ونقوم بما يجب علينا له ، فلما فرغ من الإنشاد نثر عليه
ألف دينار فتركها ، فالتقطها الغلمان .

وأنشد أبو تمام يوماً أبا دلف العجلي قصيدته :

على مِثْلِهَا من أَرْبَعٍ وَمَلَايِبِ أذِيَاتٍ مَصُونَاتٍ الدَّمُوعِ السَّوَاكِبِ^(٤)
فلما بلغ إلى قوله :

إذا افتخرت يوماً تَمِيمٌ بِقَوَسِهَا وزادت على ما وَطَّدَتْ من مناقِبِ^(٥)
فَاتِمٌ بَذَى قَارِ أَمَلَتْ سَيُوفُكُمْ عروش الذين اسْتُرْهُنُوا قوسَ حَاجِبِ^(٥)
مَحَاسِنُ من تَجَدُّ متى تَقَرُّنُوا بها مَحَاسِنَ أَقْوَامٍ تَكُنُ كَالْمَلَايِبِ

فقال أبو دلف : يامعشر ربيعة ، مامدحتم بمثل هذا الشعر فما عندكم لقائله ؟ فبادروه
بمطارفهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في
ثوابه ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هي بإزاء أسس تحقّاقك وقدرك

(١) التعريس: نزول آخر الليل ، شبه الراكبين بأطراف الأسنة في النفاذ ، والمضاء في العزم ، وشبه الإبل
بأطراف الأسنة في دقتها وقلق الراكب عليها وتأذيه بركوبها من نحوها وتأله بمباشرة عظامها .

(٢) يعتقدون صواب ما يرونه ولا يفكرون فيما تأتي به الأقدار .

(٣) أذال الشيء : امتننه وابتذله ولم يرع حقه .

(٤) يشير بهذا البيت إلى حادث حاجب بن زرارة مع كسرى حين قدم عليه في سنة جدبة وطلب إليه حمل
ألف بعير برا على أن يعيد إليه قيمتها إذا أسره ، فقال كسرى وما ترهني على ذلك ؟ قال قوس
هذه ، فاستعظم كسرى همته وقبل منه الرهن . ومات حاجب فأحضر بنوه المال إلى كسرى
وطلبوا قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك (كتاب هبة الأيام) .

(٥) يقول لبنى عجل قوم أبي دلف : لماذا كان تميم هذه المفخرة فان لكم الغلبة على كسرى في يوم ذي
قار . وهو من أعظم أيام العرب مع الفرس (كتاب هبة الأيام) .

فاعذرنا، فشكره وقام ليقبل يده لخلف ألا يفعل، ثم قال له : أنشدني قولك في رثاء محمد
ابن حميد الطوسي ، فأنشده :

وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه من الضَرْبِ واعتَلَّتْ عليه القَنَا السُّمُرُ^(١)
وقد كان قَوْتُ الموت سهلاً فردَّهُ إِلَيْهِ الحِفاظُ المُرُّ والخَلْقُ الوَعْرُ^(٢)
فأثبت في مُسْتَنْقَعِ الموت رِجْلَهُ وقال لها من تَحْتَ أَحْمَصِكَ الحَشْرُ^(٣)
غدا غُدُوَّةً والحمدُ نَسِجُ رِداءه فلم يَنْصَرِفْ إِلَّا وأَكفانه الأَجْرُ
كَأَنَّ بَنِي نَبْهَانَ يَوْمَ وَفاته نَجُومُ سماء خَرَّ من بَيْنِها البَدْرُ
يُعَزَّوْنَ عن ثَاوٍ تُعَزَّى به المُسَلَّا ويبكى عليه البأسُ والجودُ والشعرُ
وَأَنْ لَهم صَبْرٌ عَلَيْهِ وقد مضى إلى الموت اسْتُشْهِدَا هو والصبرُ
فَتَى كان عَذْبُ الرُّوحِ لَامنَ غَضاضَةٍ ولكنَّ كِبَرًا أن يُقالَ به كِبَرُ^(٤)
فَتَى سَلَبَتْهُ الخيلُ وهو حَمَى لها وبَرَّزَتْهُ نارُ الحَرْبِ وهو لها جَمْرُ

(١) استعار أوتنام موت حد السيف لاثلامه، والوجه فيها انعدام الأثر وبطلان العمل . أما اعتلال
القنا، فاما أن يكون معناه أنها تمتعت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى عصيانها والخلاف عليه
وما ذنبه عندها إلا كثرة تكليفها الطعن . ولما أن يكون معناه إصابتها بالعلّة (وعلتها تلم
نصالحها وتكسر كعوبها) فأصبحت لا تستطيع العمل معه . وهذا المعنى يناسب ما تقدم من موت
حد السيف (من تعلّقنا على كتاب هبة الأيام) .

(٢) الحِفاظ : حماية الحقيقة (ما يجب الدفاع عنه) ووصفه بالمرارة لأن في سبيله يتكلف المرء شدة في
مُتَابَعَةِ الطعم المر .

(٣) الأَحْمَصُ : ما لامسه الأرض من باطن الرجل .

(٤) الغضاضة : الدل . والمعنى أنه كان رقيق الشرائل لين الجانب، وليس ذلك منه هواناً وصغر شأن ،
ولكنه ترفع منه عن أن يتهم بالكبر . ويرى بعض الفسّاح للبيت أن لكنَّ نصبت كبرا على أنه
اسمها وخبرها محذوف ، والتقدير ولكن كبرا عن أن يقال إنه متكبر ، جعله عذب الروح .
وقيل إن اسم لكن محذوف والخبر جملة فعلية ناب عنها المصدر ، والتقدير ولكنه يتكبر كبرا
عن أن يقال به كبر . ورأى أن لكن أهملت مع عدم تخفيفها فهي عاطفة تليّز على تمييز كأنه
قال هو عذب الروح لامن جهة الغضاضة والمذلة ولكن من جهة الكبر عن التهمة بالكبر
(ملخص من تعلّقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وقد كانت البيضُ المائيرُ في الوغى بواترَ فهي الآن من بعده بتر^(١)
 أمِنْ بعد طيِّ الحادثات محمدًا يكون لأثوابِ الندى أبدأ نُشرُ
 إذا شجراتُ العُرفِ جذَّتْ أصولُها ففي أيِّ فرعٍ يُوجدُ الورقُ النُسرُ
 مضى طاهرُ الأثوابِ لم تبقِ روضةٌ غداة غداً إلا أشتتْ أنها قسبرُ
 ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمرُ صرَفَ الدهرِ نائله الغمرُ
 عليك سلامُ اللهِ وقفاً فإنني رأيتُ الكريمَ الحرَّ ليس له عُمرُ

فلما أتمَّ إنشادها قال أبو دلف : والله لوددت أنها في ، فقال أبو تمام : بل أفدى
 الأمير بنفسى وأهلى وأكون أنا المقدم دونه ، فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر
 أو مثله .

ولما قدم على الحسن بن رجا ، فأنشده قصيدته اللامية ، فوصل إلى قوله :
 لا تُنكرِ عَطَلَ الكَريمِ من الغنى فالسَّيلُ حَرْبٌ للمكان العالى^(٢)
 وتَنظُرِي خَبَبَ الرَّكَبِ يَنْصُهَا مُحِيَّ القَرِيضِ إلى مُمَيَّتِ المَالِ^(٣)
 قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه ،
 وأتمها بقوله :

لما بَلَّغْنَا سَاحَةَ الحَسَنِ انقضى عنا تَمَلُّكُ دَوَلَةِ الإِمَحَالِ
 بَسَطَ الرَّجَاءُ لَنَا بِرَغَمِ نَوَائِبِ كَثُرَتْ بَيْنَ مَصَارِعِ الآمالِ
 أَغْلَى عَذَارَى الشَّعْرِ أَنَّ مَهْوَرَهَا عِنْدَ الكِرَامِ وَإِنْ رَخِصْنَ غَوَالِ
 تَرُدُّ الظُّنُونُ بِنَا عَلَى تَصَدِيقِهَا وَيُحَكِّمُ الآمَالَ فِي الْأُمُوالِ

(١) يروى البواتر، وهي جمع باتر: بمعنى قاطع، والمباير: جمع مبتار، وهي صيغة مبالغة من البتر. والمائير: جمع مأثور، وهو السيف الذي شفرته حديد ذكر، أو الذي صانته الجن (وهذا من أوهام العرب) أو الذي توارثه الناس لنفاسته. بتر: جمع أبتَر، وهو في الأصل المقطوع الذنب، والمراد هنا قليل النفع.

(٢) العطل (بالتحريك) : التجرد من الحلى. الحرب : العدو وإن لم يكن محاربا، وهو وصف بالصدر يستوى فيه المجد والجمع والمذكر والمؤنث .

(٣) الحُب نوع من السير . نص دابته : حملها على بذل أقصى ما عندنا من السير .

أَضْحَى سَمِيَّ أَيْبِكَ فَيْكَ مُصَدَّقًا بِأَجَلٍ فَائِدَةٍ وَأُصْدَقٍ فَالٍ^(١)
 وَرَأَيْتَنِي فَسَأَلْتَ نَفْسَكَ سَبِيهَا لِي ثُمَّ جُدْتَ وَمَا انتَظَرْتَ سُوءًا لِي
 كَالْغَيْثِ لَيْسَ لَهُ أُرِيدَ نَوَالُهُ أَوْ لَمْ يُرَدَّ بُدٌّ مِنَ التَّهْطَالِ
 فتعانقا وجلسا ، وقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ، فقال : والله
 لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . قال محمد بن سعيد وأقام عند
 الحسن شهرين ، فأخذ على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على
 بخل كان في الحسن بن رجاء .

العيوب في شعر أبي تمام

لأبي تمام استعارات خرج بها عن الجادة والتمس فيها أوجه شبه يجتذبها اجتذاباً
 ويعقد بها صلة نافرة ، فمن ذلك قوله :
 جَذَبْتُ نَدَاهُ غَدُوَّةَ السَّبْتِ جَذْبَةً فخر صَرِيحاً بين أيدي القصائد
 وقوله :
 أَنْزَلَتْهُ الْأَيَّامُ عَنْ ظَهْرِهَا من بعد إثبات رَجُلِهِ فِي الرَّكْبِ
 وقوله :
 كُلُّوا الصَّبْرَ مُرّاً وَاشْرَبُوهُ فَإِنَّكُمْ أَنْزَلْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ وَالظُّلْمُ بَارِكُ
 وقوله :
 يَدُ الشَّكْوَى أَتَتْكَ عَلَى الْبَرِيدِ تَمَدُّ بِهَا الْقَصَائِدُ بِالنَّشِيدِ
 تُقَلِّبُ بَيْنَهَا أَمَلًا جَدِيدًا تَدْرَعُ حُلَّتِي طَمَعٍ جَدِيدِ
 شَكْوَتْ إِلَى الزَّمَانِ نُحُولَ حَالِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى عَبْدِ الْحَمِيدِ

فَجُئْتُكَ رَاكِبًا أَمَلَ الْقَوَافِي عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ
وقوله :

لَا تَسْلُقْنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنِّي صَبَّ قَدْ اسْتَعَذَبْتُ مَاءَ بَكَائِي^(١)
وقوله :

هَوًى كَانَ خَلْسًا إِنْ مِنْ أَحْسَنِ الْهَوَى هَوًى جُلَّتْ فِي أَفْنَائِهِ وَهُوَ خَامِلٌ^(٢)
وقوله :

اسْتَنْبَتَ الْقَلْبُ مِنْ لَوَاعَاتِهِ شَجَرًا مِنْ الْهُمُومِ فَأَجْنَتْهَا الْوَسَاوِيسَا
وقوله :

لَا يَأْسَفُونَ إِذَا هُمُ سَمِنَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ أَنْ تُهْزَلَ الْأَعْمَارُ
وقوله :

تَرَى حَبْلَهُ عُرْيَانًا مِنْ كُلِّ غَدَرَةٍ إِذَا نُصِبَتْ تَحْتَ الْحِبَالِ الْحَبَائِلُ
وأنت غنى عن أن تفسر لك وجه التكلف في هذه الاستعارات ، و بعضها إنمادفع إليه
حبه للجناس أو غيره من أنواع البديع ، ففي البيت الأخير لم يجعل الحبل عريان من
الغدر إلا ليتمم كلامه بالحبال التي تحتها حبال فيجتمع له الجناس الذي أراده .

(١) أورد صاحب كتاب الكشكول هذا البيت وقال إن السكاكي يستهجه لأن الاستعارة التخيلية منفكة
عن المكنية ، وصاحب الإيضاح يمنع الانفكاك مستندا إلى أنه يجوز أن يكون شبه الملام بظرف
شراب مكروه فيكون استعارة بالكناية وإضافة الماء تخيلية ، وأنه تشبيه من قبيل لجين الماء
قال ووجه الشبه أن اللوم يسكن حرارة الفرام كما أن الماء يسكن غليل الأوام ، ونقل ابن الأثير
أن بعض الظرفاء من أصحاب أبي تمام لما بلغه البيت المذكور أرسل إليه قارورة وقال ابعت
لنا شيئا من ماء الملام فأرسل إليه أبو تمام وقال إذا بعثت إلى ريشة من جناح الذل بعثت إليك .
قال العاملي إن البيت محلا آخر كنت أظن أني لم أسبق إليه حتى رأيته في التبيان وهو أن يكون
ماء الملام من قبيل المشاكلة ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع من المشاكلة فإنهم صرحوا
في قوله تعالى - فمنهم من يعشى على بطنه ومنهم من يعشى على رجلين - أن تسمية الزحف ، على
البطن مشيا لمشاكلة ما بعده اه ملخصا .

(٢) المجلس الاختلاس ، الأفياء : جمع فيء ، وهو كل ما كان شمسا فنسخه الظل . الحامل : الذي
لا شأن له . والمعنى كان هوى هذه الجميلات مختللا لا يدري أمره العذال والرقباء ، وإن أحسن
الهوى هو الذي لا ذكر له ولا شأن يشتهر به بين الناس .

وكذلك قبح من جناسه قوله :

قَرَّتْ بَقْرَانِ عَيْنُ الدَّهْرِ وَاشْتَرَّتْ بِالْأَشْتَرِينَ عِيُونَ الشَّرِّكِ فَاصْطَلَحَا

وقوله :

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّاحَةُ فَالتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ أُمُذْهَبٌ أَمْ مَذْهَبٌ

ومن قبيح طباقه :

إِنَّ الْمُلُوكَ هُمْ كَوَاكِبُنَا الَّتِي تَخْفَى وَتَطْلُعُ أَسْعَدًا وَنُحُوسًا
فانظر إلى الطباق في قوله تخفى وتطلع كيف جره إلى سوء الأدب في جعل الملوك تغور
وتختفي ثم وصفها بالنحس ، وهو لفظ تكنى بشاعته في مقام المدح .
وأما إغرابه وتعويله على الألفاظ الحوشية ، فقد كان غراماً منه واستظهاراً بعلمه
بلغات العرب .

وقصيدته التي يمدح بها عِيَّاشَ بْنَ لَهَيْعَةَ كلها تقريباً أمثلة لهذه الغرابة ، قال في مطلعها :
أَحْيَا حَشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَخْلُوسًا وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلًا كَانَ مَالُوسًا^(١)
ومنها :

قَدْ قَلَّتْ لِمَا أَطْلَحَمَ الْأُمُورَ وَانْبَعَثَتْ عَشَوَاءُ تَالِيَةِ غِبْسًا دَهَارِيسًا^(٢)
ومنها :

الْوَارِدِينَ حِيَاضِ الْمَوْتِ مُتَأَقَّةً ثُبَاتِيَا وَكَرَادِيْسًا كَرَادِيْسًا^(٣)
نَمُوكَ فَنِعَاسٍ دَهْرٍ حِينَ يَحْزُنُهُ أَمْرُهُ يُشَاكِهِ أَبَاءُ قَنَاعِيْسًا^(٤)
وبعد ، فإن عيوب أبي تمام كثيرة ، ومردول شعره شائع في ديوانه ، وما أشبه حسناته
بين إساءاته إلا بجواهر نفيسة قد انتشرت في أرض كأداء وعرة ، فإذا ما أعيا المرء

(١) الخلوس : السلوب . رم : أصلح . مألوس : مختلط .

(٢) اطلخم : أظلم . العشواء : ضعيفة البصر . الغبس : جمع غبساء ، وهي المظلمة . الدهاريس :
جمع دهرس (كجعفر) وهي الداهية .

(٣) متأقة : ممتلئة . ثبا : جماعات . كراديس : جمع كردوسة ، وهي القطعة العظيمة من الخيل .

(٤) نموك : نسوك . الفنعاس : شديد منيع من الإبل والرجال . يشاكه : يشاكل ويشابه .

وحفيت قدمه صادف ، وقد أشرف على اليأس جوهرة من تلك الجواهر ، فيعوضه
لقاؤها ما لاقى من عناء ، وعانى من لأواء . وقد يسعد القارئ الحظَّ فيجد القصيدة أو
أوالمقطوعة كلها قد سلمت من العيب ، فيرى نفسه حين يقرأها كأنه في سهل
قد نبت جانباه ، واضطرب بالماء ساحلاه ، وهذه سلوة المتتبع لشعر أبي تمام . ولقد
وجب على قارئ شعره أن يتمثل بقوله :

ولم تُعْطِنِي الْأَيَّامُ نَوْمًا مُسَكِّنًا أَلَدُّهُ إِلَّا بَنُومٌ مُشَرَّدٌ
أو قوله :

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرْهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسَرٍ مِنَ التَّعَبِ
وقبل أن نختم القول في مساوئ أبي تمام نروى لك بعضاً من كلامه الذي صفا لفظه ،
وراق معناه وقربت استعارته ، وحسن أثر البديع فيه ، وذلك قوله في وصف الروض :

إِنَّ الرَّيِّعَ أَثَرُ الزَّمَانِ	لَوْ كَانَ ذَا رُوحٍ وَذَا جُثْمَانِ
مُصَوِّرًا فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ	لَكَانَ بَسَاءً مِنَ الْفَتِيَانِ
بُورِكَتْ مِنْ وَقْتٍ وَمِنْ أَوَانِ	فَالْأَرْضُ نَشَوِي مِنْ ثَرَى نَشْوَانِ
تُخْتَالُ فِي مُقَوِّفِ الْأَلْوَانِ	فِي زَهَرٍ كَالْحَدَقِ الرَّوَانِ ^(١)
مَنْ فَاقَعَ وَنَاصَعَ وَقَانَ	عَجِبْتُ مِنْ ذِي فِكْرَةٍ يَقْطَانِ
رَأَى جُفُونِ زَهَرِ الْأَلْوَانِ	فَشَكَّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَانَ

الأغراض في شعره

تناول أبو تمام جميع أغراض الشعر من : مدح ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وحكمة ،
وهجاء ، وزهد ، وعتاب ، ولكنها لم تكن كلها بمثابة واحدة ، فالمديح والرتاء أعلى طبقات

(١) يقال برد مقوف (كمعظم) إذا كان رقيقاً أو فيه خطوط بيض .

شعره ، وربما كان أشهر الرثاء منه بالمديح ، وإن كان في المديح مجليا بدليل ما حاز من اللها . ونستطيع أن ندلك على حسنة من حسناته ، ومثال من أمثله إجادته للمدح لم يسبق عرضه عليك ، ذلك هو قصيدته التي يمدح بها المعتصم ، وقد فتح عمورية فإنه أعلى فيها من شأن الخليفة ، ونوّه بعمله في إخضاع الكفر وإذلال الشرك ، وقد تناولت القصيدة أغراضاً كثيرة من ذكر عمورية ، وما لها من مناعة ، ووصف لفعل النار بها وإظهار للتشفي بما أصابها ، ومدح للخليفة بحسن حياطته للدين ، ومنها قوله :

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ في الله مُرتهبٍ
لم يَغْزُ قوماً ولم يَنْهَضْ إلى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشُهُ مِنَ الرُّعْبِ
لوم يَقْدُ جَحْفَلاً يومَ الوَغَى لَغَدَاً من نفسه وَخَدَهَا في جَحْفَلٍ لِحَبِ
خليفةَ الله جَا زَى الله سَعِيكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فلم ترها تُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسَرٍ مِنَ التَّعَبِ

وأما رثاؤه فنستطيع أن ندلك على وجه إبداعه فيه وصيرورته أسمى أغراضه وأكثرها جودة ، ذلك أن الرثاء جد كله لا يحسن فيه التلاعب بالاستعارات ، ولا الإغماض في الإشارات ، ولا التماذي في التحسين ؛ إذ أن ذلك ينافي اشتغال القلب بالحزن وتأثره بالفجيعة ، وأبو تمام إذا سلم من هذه السقطات كان شعره في أرق المنازل ، فهذا في رأينا هو فرق ما بين مديحه ورثائه ، يبيح لنفسه في الأول أن يسرف وأن يشتغل بما يسميه تجويداً أو تمييقاً فيسلم له بعض ويشوه بعض .

وقد مرّت بك أبيات من رثائه لحمد بن حميد الطوسي ، وأوّل القصيدة :

كَذَا فَلْيَجِلْ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

وإدراك له فيه قصيدة يقول عنها صاحب العمدة : إن مطلعها خير مطلع في مرأى المولدين وهو :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَا وَأَصْبَحَ مَعْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلَقَمَا

ومنها :

فلم أرَ يوماً كان أشبه ساعةٍ بيومٍ من اليوم الذى فيه ودَّعَا
مَصِيفُ أَفَاضَ الحَزْنَ فيه جَدَاوِلَا من الدمع حتى خِلْتُهُ صارَ مَرَبَعَا
ووالله لا تَقْضِي العِيونُ الذى له عليها ولو صارت مَعَ الدَّمْعِ أَدْمَعَا
فَتَى كَانَ شَرِبَاً لِلْعَفَاةِ وَمَرَتَعَا فأصبح للهِندِيَّةِ البَيْضِ مَرَتَعَا
فَتَى كَمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفَرَاً غَدَاةَ المَازِقِ ارْتَادَ مَصْرَعَا
إِذَا سَاءَ يَوْمٌ فِي السَّكْرِيَّةِ مَنظَرَا تَصَلَاةً عِلْمَا أَنَّ سَيَحْسُنُ مَسْمَعَا
فَإِنْ تَرَمَّ عَنْ عُمرٍ تَدَانَى بِهِ اللَّدى فإنا نك حتى لم تَجِدْ فيه مَنَزَعَا
فَمَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفُ لَاقِي ضَرِيبةً فَتَقَطَّعَا ثُمَّ انْتَنَى فَتَقَطَّعَا

وأما الوصف فأظهر ما أطال في وصفه هو الربيع ، فله فيه قصائد أقام فيها وصفه مقام
النسيب ، ومنها قصيدته التى يمدح بها المعتصم بعد وصف طويل للربيع وأنواره ، وهى
التى مطلعها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرُّمُرُ وغدا الثرى فى حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ^(١)
نَزَلَتْ مُقَدِّمَةُ المَصِيفِ حَمِيدَةً وَيَدُ الشِّتَاءِ جَدِيدَةً لَا تُكْفَرُ^(٢)
لَوْ لَا الذى غَرَسَ الشِّتَاءَ بَكَفِهِ لَاقَى المَصِيفُ هَشَائِمًا لَا تُنْمِرُ^(٣)

ومنها قوله :

يَا صَاحِبِي تَقْصِّصَا نَظْرِيكَمَا تَرَيَا وَجوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فَكُنَّا هُوَ مُقْمَرُ^(٤)
دُنْيَا مَعَاشٍ لِلْفَتَى حَتَّى إِذَا حَلَّ الرِّبِيعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنظَرُ

(١) تمرمر يتممر : تموج يتموج . الثرى التراب . يتكسر : يتثنى ، والمراد بجلى الثرى نباته .

(٢) مقدمة المصيف : هى ما يسبقه ، وهو الربيع ، وحميد الشتاء لأنه ندى الأرض حتى نبت النبات .

(٣) الهشائم : جمع هشيمة ، وهى الشجرة اليابسة .

(٤) يريد أن خضرة النبات كسرت من ضوء الشمس حتى صار ضوءها هادئاً ضعيفاً كضوء القمر .

أَصَحَّتْ تَصَوُّغُ بَطُونُهَا لظهورها . نَوَّرًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوِّرُ

ومنها في التخلّص إلى المدح وقد أبدع ما شاء :

خُلِقَ أَطْلَ من الربيع كأنه خُلِقَ الإمام . وَهَدِيَهُ التَّنَشُّرُ
في الأرض من عدل الإمام وجوده . ومن النَّبَاتِ الْغَضِّ سُرُجٌ تَزْهَرُ^(١)



وأما الحكمة في شعره فقد كثرت حتى قيل في الموازنة بينه وبين البحترى
والمتنبي : أبو تمام والمتنبي حكيان ، والشاعر البحترى .

ولكن الذى ينبغى أن نعلمه أن الحكمة ليست بمثابة واحدة عند أبي تمام والمتنبي ،
فهى من ناحية الكم قليلة عند أبي تمام غزيرة عند المتنبي ، وهى من ناحية النوع قريبة
بسيطة عند الأول عميقة مركبة عند الثانى ، ومرجع ذلك أن مصدر الحكمة عندهما هو
العلوم المترجمة . وقد كانت أيام أبي تمام فى بدء حياتها عند العرب لم تكن فضجت
ولا شاعت بينهم ، أما فى أيام المتنبي ، فقد كان لطول العهد بها أثر فى تداولها وتأصلها
فى النفوس ، لذلك إذا رأيت أبا تمام يلمّ بها إلماماً ، ويتناولها من أطرافها تجدد المتنبي
يحكيها حكاية الدارس المثبت ، وينقلها نقل الحافظ الواعى حتى لقد قالوا : إنه عمل
على نقل حكم أرسطو كلها فى شعره ، فوزّعها فيه بالمناسبات التى صحت لها ، لكن حكمة
أبي تمام لم تكن قلا ، ولا جكاية لحكمة اليونان أو غيرهم ، وإنما كانت أثر الثقافة
العامة التى استفادها من الاطلاع على علوم هذه الأمم .

وناحية أخرى من الفرق بين حكمة هذين الشعارين أنك تجد المتنبي يأتى بها فى
الغالب مستقلة بنفسها غنية عما قبلها فى إفادة معناها تصلح للاستشهاد وتستقلّ بالإنشاد .
أما حكمة أبي تمام فهى فى الغالب إنما سيقّت مرتبطة بالمعنى الذى اتصلت به ووردت

(١) سرج (بالضم) مخفف سرج بضمّتين جمع سراج ، ترهر (كنع) تتلأأ .

— ٤٧٧ —

بمناسبتة ، ولم تمنح من ألفاظ العموم ما يجعلها تستقل بوجودها ، وذلك كله يمثل بساطتها في نفس قائلها كما يمثل ورودها على لسان الثاني أنها معنى متكامل اختير له لفظ مستقل ، وجملة القول أن حكمة أبي تمام في الغالب جزء من البيت ، أما حكمة المتنبي فبيت مستقل ، هذا إلى كون الأولى أقرب إلى الخصوص ، والثانية أظهر في العموم .
ومن أمثلة حكمه قوله :

مالت وقد أعلقت كفى كفها حلاً (وما كل الحلال يطيب)
وقوله :

المجد شيمته وفيه فكاكه سمح (ولا جد لمن لا يلعب)
وقوله :

تعب الخلائق والنوال (ولم يكن بالمستريح العرض من لم يتعب)
وقوله :

لو سرت لالتقت الضلوع على أسي كلف قليل السلم للأحشاء
ولجت نوار القريض (وقلما يلفى بقاء الغرس بعد الماء)
وقوله :

وضيفة فإذا أصابت فرصة قتلت (كذلك قدرة الصعفاء)
وقوله :

ذريني وأهوال الزمان أعانها (فأهواله العظمى تكلمها رغائبه)
وقوله :

لما أطال ارتجال العدل قلت له (العزم يثني خطوب الدهر لا الخطب)
وقليل في كلامه تلك الحكم المستقلة مثل قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وقوله :

إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وقوله :

ومن لم يُسَلِّمْ للنوائب أصبحت خلائقه طراً عليه نوائباً

وقوله :

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبلوى وإنَّ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللهُ بِمَعْصِرِ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ
أما الحكم في كلام المتنبي ، فهي كما وصفنا كثيرة الكم عميقة الفكرة غالبية الاستقلال
بعبارتها وأمثلتها كثيرة لانطيل بذكرها ، فهي منك برأى ومسمع في كل حين .

وأما الغزل في شعره فلا يدل على طبع ولا يعبر عن وجدان ، فهو في نظرنا غزل
صناعي يجيء به أبو تمام ليقم عمود القصيدة لا يعبر فيه عن لوعة ، ولا يذرف به
دمعة ، وظننا أنه لو كان أبو تمام عاشقاً مدحاً ومحباً مدناً ما استطاع بمذهبه الذي
اختاره لنفسه وأسلوبه الذي عكف عليه أن يأتي بحسن في هذا الباب ، لأن الرجل
عميق في معانيه ، غريب في مبانيه ، وليس شيء من ذلك صالحاً في باب الغزل ،
فالغزل يجيده شاعر كأبي نواس أو أبي العتاهية لما فيهما من سهولة وطبع مقارب
ومعان متداولة ، ألم تر إلى الفرزدق وقد كان فاسقاً فاتكاً لم يكن غزلاً لجساسة لفظه
ورجاجة معانيه ؛ فأما جرير وهو معاصره ومعاشره فقد دان له الغزل لما ملك من طبعه
وسهولة لفظه وقرب معانيه ما لم يملك الفرزدق ، فهكذا الشأن في أبي تمام والمتنبي شغلا
بالحكمة والمعنى الفائق ، واللفظ الجزل ، فلم يسلس لهما قياد الغزل لأنهما لا يملكان آلاته .

ومن غزله الحسن في صناعته قوله :

أَرَامَةً كُنْتُ مَأْلَفَ كُلِّ رِيَمٍ	لَوْ اسْتَمْتَعْتُ بِالْأَنْسِ الْمُقِيمِ
أَدَارَ الْبُؤْسِ حَسَنَكَ التَّصَايِي	إِلَى فَصِرْتِ جَنَاتِ النَّعِيمِ
لَئِنْ أَصْبَحْتَ مَيْدَانَ السَّوَايِ	أَقَدْ أَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الْهُمُومِ
وَمَا ضَرَمَ الْبُرْخَاءُ أُنًى	شَكَّوْتُ فَمَا شَكَّوْتُ إِلَى رَجِيمِ
أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدِّي سَيَبْقَى	رُسُومًا مِنْ بَكَائِي فِي الرُّسُومِ
وَلَيْلٍ بَتَّ أَكَلُوهُ كَأَنِّي	سَلِيمٌ أَوْ سَهَرْتُ عَلَى سَلِيمِ

وقوله :

مافى وقوفك ساعةً من باسٍ تقضى ذمامَ الأُزْبُعِ الأدراسِ
فلعلَّ عينك أن تُعِينَ بمائها والدمعُ منه خاذلٌ وموأسِ
لا يُسْعِدُ المشتاقَ وسنانُ الهوى يَبْسُ المدامعِ باردُ الأنفاسِ
إنَّ المنازلَ ساورتها فُرقةٌ أخلت من الآرام كلَّ كِناسِ

ومما سمج من غزله قوله :

يا شادناً صبيغَ من الشمسِ تَهْ بالملاحاتِ على الإنسِ
فى كلِّ يومٍ أنت فى صورةٍ غيرِ التى كُنتَ بها أُمسِ
تَرْدَادُ طيباً كلَّ يومٍ كما يزداد غُصْنُ البان فى العرسِ
واللهِ لولا الله لا غيره وخوفِ النار على نفسى
صايتُ خمساً لك من هيمة وزدت ثنتين على الخمسِ

فانظر إلى روحه الثقيلة فى الحلف بالله وتأكيد ذلك بقوله لاغيره ، ثم خوفه على نفسه من النار ، والمحبة فى سبيل حبه يستهين بكل شئ ، ثم انظر إلى مشاركته الكفر فى سبيل غزله حين نوى أن يصلى لمحبوبه خمساً أو سبعاً .

وانظر إلى أسلوبه الذى لم يعهد فى غزل قبله ، وهو قوله :

أَزَعَمْتَ أن الظَّبْيَ يَحْكِي طَرْفَهُ وَالْغُصْنَ حينَ يَجُولُ فِيهِ ماؤُهُ
اسْكُتْ فأين ضياؤُهُ وبهاؤُهُ وذكاؤُهُ ووفائُهُ وحياءُهُ

وفى لفظ اسكت ما فيه مما يجافى رقة الغزل وعذوبة ألفاظه ، ولين خطابه ، وفى وصف المحبوب بالوفاء مخالفة لما جرى عليه العشاق من اتهامه بالعدو والخلف .

وانظر إلى قوله فى قسوة محبوبه :

لَكِنِّمَّا أَشْكُو إلى حَجَرٍ تَنْبُو المعاولُ عنه أو أقسى

ويكفى من سوء الأدب فى الحب أن يجعل محبوبه حجراً أو أقسى من الحجر .

وبقية أغراض شعره لا نعلق عليها بقول ، إلا أنه فى الهجاء كان مُعَابِهاً ، وليس

انهزام الشاعر في هذا الباب إلا دليلاً على سلامة نفسه ، وبعد الهجر من لسانه ، وعدم تسلط الشر والغضب على طبعه ، لذلك يقول ابن رشيق في العمدة : إنه من المغلبين ، وقد هاجى ابن السراج وعُتِبَ فما أتى بشيء .

آثار أبي تمام

لعلّ أبا تمام أول شاعر تناول التأليف ، ولكن خصوصيته في تحصيل شعر العرب جاهلية وإسلاماً هي التي جعلته يخرج لنا ديوان الحماسة الذي رتبته على عشرة أبواب هي : الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات والسير ، والملح ، ومذمة النساء . وقد كثر شرحه ، فشرحه الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، وهو مطبوع أربعة أجزاء كبار ، وهو أكبر شروحه ، وله شروح أخرى للمرزوقي ، وأبي العلاء المعري ، وابن جنى ، ومنها نسخ خطية بدار الكتب الملكية .

وقد شرحه أخيراً الأستاذ اللغوي الشيخ سيد بن علي المرصفي في كتاب سماه : « أسرار الحماسة » ، وقد رأى أن يغير نظامه ، ويرتب أبوابه ترتيباً آخر . وقد ترجم ديوان الحماسة إلى الألمانية « فريدريك روكرت » . ولأبي تمام حماسة أخرى تسمى كتاب « الوَحْشِيَّات » ، وهي إحدى الكتب النادرة التي أحضرها أحمد زكي باشا لطبع بمصر ، ولم يطبع للآن .

وقد ذكروا أن السبب في تأليفه هذين الكتابين وثلاثة غيرها في الشعر أيضاً أنه نزل ضعيفاً على صاحب له بهمدان اسمه ابن سلمة ، فلما هم بالرحيل كان قد وقع ثلج قطع الطريق على السابلة ، فغمّ أبو تمام وفرح صديقه ، وقال له : « وطن نفسك على أن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » ، ثم شغلته بخزانة كتبه ، فألف في مدّة بقائه عنده هذه الكتب .

ومن آثاره ديوانه الذي جمعه أبو بكر الصّولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ورتبه على

حروف المعجم ثم جمعه على بن الأصهباني ورتبه على الأنواع ، وله شروح كثيرة ، منها : شرح الصولي ، وشرح التبريزي ، ومن كل منهما نسخة خطية بالمكتبة الملكية . وهو مطبوع بمصر والشام بشرح لا قيمة له وضبط غير صحيح في الغالب ، ويحتاج ديوان أبي تمام لخدمة حتى يسهل الانتفاع به .

حياة البحترى

[نسبه] : هو الوليد بن عبيد الله . ينتهى نسبه إلى بُحْتَر ، ثم إلى طيٍّ ، ثم إلى قحطان . وهو عربي صميم لأن أمه كما ذكر في شعره عربية كذلك ، قال :
 بنى ناهلٍ مهلاً فإن ابن أختكم له عزّمت هزل آرائها جدّ
 وقد كان البحترى يفخر بأبائه ، فمن ذلك قوله :

وإذا ما عددتُ يحيى وعمراً وأباناً وعامراً والوليداً
 وعبيداً ومُسهرّاً وجديّاً وتُدولاً وبُحْتَرّاً وعَتوداً
 لم أدع من مناقب الجدماء يُقنع من همّ أن يكون مجيداً
 ذهبت طيٌّ بسابقة الجدماء على العالمين بأساً وجوداً

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة مَنبِج سنة ٢٠٦ هـ ، وهى بين حلب والفرات ، وكان يضرب على شواطئ الفرات كثير من قبائل طيٍّ ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربي اللهجة كما هو عربي النسب .

ومنبج التى كانت منشأه ، وحلب التى كان يتردد عليها ، والصقع كله الذى كان

(١) وقد استطعنا أخيراً أن نخدم شعر أبي تمام بما أحدثناه من إحياء لكتاب « هبة الأيام » وتعليق عليه .

مستتراده ومذهبه ، ومراحه ومغذاه ، كل ذلك كان له في نفسه منزلة كبيرة فلم يفتر عن
ترديد ذكر هذه البلاد في شعره بعد أن صار إلى العراق ومدح الخلفاء ونادى بهم .
وإنك لتظفر بأسباب تعلقه بوطنه الأول مما رددته في شعره من الحنين إليه ،
ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب المساء ، وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من
هوى يجذبه إليه إذ عشق عُلوة بنت زُرعة الحَلْبِيَّة ، وعلما كانت الحبيب الأول ، فإنه
لم يفتر عن ذكرها ، والنسيب بها في قصائده التي مدح بها المتوكل وغيره ، ثم يظهر أنه
كان يعيش بمنبج في عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته ، وتلك أسباب لا يَعْدِلُ
الوطن معها شيء .

فأما فتنته بجمال بلاده ، فيدل عليها قوله :

حَنَنْتُ رَكَابِي بِالْعِرَاقِ وَشَاقَنِي فِي نَاجِرٍ بَرَدُ الشَّامِ وَرَيْفُهَا^(١)

وقوله :

ذَكَرْتُنَا بَرَدَ الشَّامِ وَعَيْشَنَا بَيْنَ الْقُبَابِ الْبَيْضِ وَالْهَضْبَاتِ

وأما ما يدل على أن الشام مسكن هواه ، فقوله :

وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ تَخِدَ الْمَطَايَا إِلَى حَيٍّ عَلَى حَلَبٍ حُلُولِ^(٢)

وَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ إِلَيْكَ عَزَمِي وَصَلْتُ النَّصَّ فِيهَا بِالذَّمِّيلِ^(٣)

وقوله :

جَهَوْتُ الشَّامَ مُرْتَبِعِي وَأُنْسِي وَعُلُوَّةُ جُلَّتِي وَهَوَى فُؤَادِي^(٤)

وأما كرم محنته وعراقة مجده ففي قوله :

جَدَى الَّذِي رَفَعَ الْأَذَانَ بِمَنْبَجٍ وَأَقَامَ فِيهَا قِبْلَةَ الصَّلَاةِ

(١) ناجر : رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف .

(٢) وخد البعير (كوعد) : أسرع .

(٣) النص : استخراج أقصى ما عند الدابة من السير . الذميل : السير اللين .

(٤) الخلّة : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع .

والحق أن للخيال الشعري والدعوى الكاذبة من الشعراء أثراً في بعض تلك الحقائق التي أحب البحترى أن يلزمنا الاعتراف بها ، فقد أَرانا أنه كان في بلاده في أرغد عيش وأكرم منزلة حتى لقد جعل ذلك مَضْرِبَ المثل في قوله لأبي نَهْشَلٍ مادحاً شاكرًا :

لا أَنْسَيْنَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وظلال عيش كان عندك سَجَسَجٌ^(١)
في نِعْمَةٍ أَوْطِنْتُهَا فَأَقَمْتُ فِي أَفْيَئِهَا فكأُتْنِي فِي مَنَبِجٍ
ويقول في قصيدته في وصف إيوان كسرى :

واشترأى العراق خُطَّةً غَبْنٍ بعد يبعي الشَّامَ بَيْعَةً وَكُسٍ^(٢)
وليس أحد يعقل أن البحترى كان في منبج في أرفه من عيشه بالعراق ، وقد اقتنى المال الكثير وصار يركب في جملة من عبيده ، واتخذ قهارة وكتابا ، وخلف لأبنائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحترى في منبج كما وصف ؟ وقد ذكر أنه كان يتنقل في أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبتل . فهب أن انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسمو المكانة كما يزعم كان جديرا أن يجعل موضوع شعره شيئا غير مدح الباعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع في شيء من دراهمهم أو مما يبيعونه غالبا ؟ .

وإذا قيس الغائب بالشاهد حكمنا بأن علوة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدع البحترى عشقها إلا ليصْبِغَ خياله بلون الحقيقة حتى يستطرفه سامعوه ، ولعل صبايته بها ، وتحرقه عليها كانا كصبايته بغلامه نسيم الذي باعه يوما فاشتراه إبراهيم بن الحسن ابن سهل ، فأكثر البحترى من الأسف عليه ، وإظهار الالهفة ، والحسرة على فقدته

(١) يوم سَجَسَج : لا حر ولا قر .

(٢) وكس الرجل في تجارته كأوكس (مبين للمجهول ، كوكس (كوعد) : لم يربح فيها .

حتى رده إليه إشفافاً عليه ، ثم باعه فأعاد السيرة وهكذا ، فجعل من كذب غرامه
بغلامه وسيلة للحصول على المال .



سمع البحتري بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أخل شعره عصره ، وحرّمهم العطاء
طول مدته ، ذلك هو أبو تمام الطائي ، وقد كان يحمص دخلها في جولة من جولاته
التي ذرع بها المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً ، فقصدته ليعرض عليه شعره في جملة
الشعراء الذين جعلوا من أبي تمام حكماً يرجعون إليه كما كان النابغة الذبياني بين أهل
الجاهلية ، فلما سمع أبو تمام من البحتري أقبل عليه من بين سائر من حضر ، فلما
تفرقوا عنه قال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخلة ،
فكتب إلى أهل معرة النعمان^(١) (يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبيد الطائي وهو
على بذاته^(٢) شاعر فأكرموه) ، وسلمه البطاقة ، وأمره أن يمدحهم ، فأكرموه
بهذه الوصية ، ووظفوا له أربعة آلاف درهم ، فكان ذلك أول مال أصابه البحتري
كما يقول :

وقد ذكر صاحب الأغاني راوى هذا الحديث حديثاً آخر في أول اجتماع كان بين
أبي تمام والبحتري . قال محدثاً عن لسان البحتري : أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت
على أبي سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أَأَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوًى فَأُفَيْقًا أَوْ خَانَ عَهْدًا أَوْ أَطَاعَ شَفِيقًا

فسر بها أبو سعيد ، وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركة

(١) معرة النعمان : بلد بين حلب وحماة . والنعمان الذي أضيفت إليه هو النعمان بن بشير اجتاز بها
فدفن بها ولدا فأضيفت إليه .

(٢) بذ (كعلم) بناداة وبنوذة : ساءت حاله .

أبي سعيد ، فقال يافتي أما تستحي مني ؟ هذا شعري ، وإنما تنتحلّه وتنشده بحضرتي قال أبو سعيد : أحقا ؟ قال : نعم ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككتني في نفسي ، فجعلت أحلف له بكل محرّجة من الأيمان أن الشعر لي ماسبقني إليه أحد ، ولا سمعته منه ، ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئا ، فأطرق أبو سعيد ، وفَطَعَ^(١) بي حتى نمّيت أني سُنخْتُ في الأرض ، فممت أجر رجلي فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج لغلمان فردوني ، فأقبل عليّ الرجل فقال : الشعر لك يابني ، والله ماقلته قط ، ولا سمعته إلا منك . قال : ثم دعاني (أبو تمام) ، وضمني إليه ، وعانقني ، وأقبل مرظني ، ولزمته بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديت به .

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى ، فإن كل ما أحاط بها يناسب حالة التلميذ مع أستاذه ، والناشي في الفن مع المنتهى فيه ، فأما أن يكون البحتري قد أنشد بضرة أبي تمام شعراً عالياً كقصيدته التي يمدح بها أبا سعيد حتى يبلغ من حسد أبي تمام له أن يدعى الشعر لنفسه ، ثم يقال بعد ذلك إن البحتري لزم أبا تمام ، أخذ عنه ، فذلك ما لا يقبله عقل ، ولا يليق بفهم .



لما نبه شأن البحتري في الشعر وهو بمنجى وما حولها تحركت همته لقصد العراق أن كل نابغ في فنه يقصد مقر الخلافة وموطن الأمراء ، والعظماء من الوزراء والقواد ، يث المال تقيض به الخزائن وتنثر منه البدر على المجيدين ، فدخل بغداد وسر من رأى مدح الكبراء ، فلما عرف بينهم طمع أن يكون له عند الخليفة جاه فالتمس الوسيلة إلى ك بمدح وزيره الفتح بن خاقان . قال فيه شعراً وطلب الإذن عليه فأقام شهراً يصل إليه حتى جلس مجلساً عاماً فأدخل البحتري عليه فسمع منه وجعل كما يقول

(يقال فطع (كفرح) بالأمر : ضاق به ذرعا ، والمراد هنا أن أبا سعيد ضاق بالبحتري وصار غير مطابق لما ظهر له من انتحال شعري أبي تمام .

البحترى يبتسم عند كل بيت جيد ، قال فعلمت أنه يعرف الشعر وكان ذلك أعجب من جميع ما وصلني به ، وكان أول ما اهتز له قولي :

وقد قلتُ للمُعَلِّي إلى المجد طَرَفُهُ دَعِ المجدَ فالفتحُ بِنُ خافانَ شاغلُهُ
صَفَتْ مثل ما تَصَفُّو المدامُ خِلالُهُ وَرَقَتْ كما رَقَّ النسيمُ شمائلُهُ

ثم إنه أمر له بخمسة آلاف درهم وقال له : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب فاعمل شعراً تنشده إياه إذا رجع . ففعل البحترى ما أمره به الفتح ثم دخل على المتوكل فأنشده :

أَبْرَ عَلَى الأنواءِ نائلُك الغَمَرُ^(١) وَبِنْتَ بِفَخْرٍ ما يُشَا كِلُهُ فَخْرُ^(١)
وَأَنْتَ (أَمِينَ اللَّهِ) فِي الموضعِ الَّذِي أَبَى اللَّهُ أَنْ يَسْمُوَ إِلَى قَدْرِهِ قَدْرُ^(٢)
تَحَسَّنْتَ الدنْيا بعدلكِ فاغْتَدْتَ وَأَافَقَهَا بَيْضٌ وَأَكْنافُها خُضْرُ^(٢)
ومنها في ذكر سيره إلى المصلى وخطبته :

وَسِرْتَ بِمُلْكٍ قَاهِرٍ وَجَلالَةٍ وَمالِكَ زَهُوٍ بَيْنَ ذَيْنِ وَلَا كِبَرٍ^(٣)
عَلَيْكَ ثِيابُ المصطَفَى وَوَقارُهُ وَأَنْتَ بِهِ أُولَى إِذا حَصَّصَ الأمرُ^(٣)
فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم .

وما زال البحترى مختصماً بالفتح حتى صار صاحب شفاعته ، وما زال الفتح يكرمه حتى صيره من جلساء المتوكل .

(١) أبر : زاد ، الأنواء : جمع نوء . وهو سقوط نجم وظهور آخر ، وكانوا يستدلون به على المطر فأطلق وأريد به المطر نفسه تيجوا . الغمر : الكثير . بنت : تميزت .

(٢) المراد ببياض الآفاق واخضرار الأكفاف كثرة الحصب . فإن الآفاق تبيض بالسحاب المتراكم والأكفاف تخضر بالزرع النابت .

(٣) حصص : بان وظهر .

منادمة البحتري للمتوكل

بمساعي الفتح صار البحتري نديماً للمتوكل يحضر مجالسه التي يتبدل فيها لخاصته ،
ولعل ما كان في البحتري من إعجاب بشعره وحركات شاذة في إنشاده ، كلها يثير
الضحك ويبعث على العبث به ، لعل ذلك من أسباب قبوله لمنادمة المتوكل إلى جانب
الشعر الذي يحتاج إليه هذه المجالس في إجازة بيت أو وصف كأس أو رواية خبر
أو غير ذلك :

ذكروا أن البحتري كان من أبغض الناس إنشاداً ، كان يتزاور في مشيته
ويهز رأسه ومنكبیه ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله ، ثم يقبل
على السامعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقوله .
وقد فعل شيئاً من ذلك وهو ينشد المتوكل قصيدته :

عَنْ أَيْ تَغْرِ تَبْتَسِمُ وَبَأَى طَرْفٍ تَحْتَسِمُ

حتى بلغ قوله :

قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم
المرتضى بن المجتبى والمنعم بن المنتقم

فأغرى به المتوكل أبا العنابس الصيمري وقال له : أما تسمع يا صيمري بحياتي إلا هجوته
على هذا الروي ، فقال تأمر حمدون أن يكتب ما أقول ثم حضرت بديهة الصيمري
فقال قصيدة منها :

وَاللَّهِ حِلْفَةٌ صَادِقٌ وَبَقَرٌ أَحْمَدُ وَالْحَرَمُ

وَبِحَقِّ جَعْفَرٍ الْإِمَامِ مَرْبِ بْنِ الْإِمَامِ الْمَعْتَصِمِ

لَأَصِيرَنَّكَ شُهْرَةً بَيْنَ الْمَسِيلِ إِلَى الْعَلَمِ

حَيْثُ الطَّلُولُ بَذَى سَلَامٌ حَيْثُ الْأَرَاكَةُ وَالْحَلِيمُ^(١)

(١) الحليم (بالتحريك) : موضع . الأراكه : موضع . وكذلك المسيل والعلم في البيت قبله .

يابن الثقيلة والتقىل على قلوب ذوى النعم

فغضب البحرى ، وخرج يعدو ، والمتوكل يضحك ويصفق .

وبلغ من ملاسبة البحرى للمتوكل أن أفضى إليه بما كان بينه وبين قبيحة جاريته ، من عتب وأمره أن يعمل شعراً على لسانه ، فقال :

تعالَّتِ عن وصل المُعَنَّى بك الصَّبِّ وآثرتِ دار البعدِ منك على القرب
وحَمَلْتِـنِي ذنب المشيبِ وإنه لَذَنْبُكَ إِن أنصفتِ فى الحكم لا ذَنْبِي
ووالله ما اخترتُ الشَّؤْوَ على الهوى ولا حُلْتُ عما تعهدين من الحُبِّ
ولا ازداد إلا جِدَّةً وتمكنا محَلِّكَ من نفسى وحَظُّكَ من قلبى
فلا تَجْمَعِ هَجْرًا وَعَتْبًا فلم أَعُدْ جَلِيدًا على هَجْرِ الأَحِبَّةِ والعَتَبِ
فلما بلغتْها الأبيات رضيت فوصله المتوكل .

وكان للمتوكل غلام اسمه «راح» ، وكان حسن الوجه ، وكان البحرى يحبه والمتوكل يدرك ذلك ، فأمر المتوكل راحاً أن يملأ قدح بلور شراباً ويناوله البحرى ، فلما ناوله بهت البحرى ينظر إليه ، فقال له المتوكل : قل فى راح شعراً ، ولا تصرح باسمه فقال :

حارَ بالودِّ فتى أُمسى رهينا بك مُدَنَّفٌ

اسم من أهواه فى شعـرى مقلوب مُصَحَّفٌ

ودخل البحرى على المتوكل ، وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يا بحرئى . قال البحرى : ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذات ارتجـازٍ بحنين الرِّعدِ مجرورةُ الذيلِ صدوقُ الوعدِ^(١)

مسفوحهُ الدمعِ لغير وَجدٍ لها نَسِيمٌ كنسيمِ الوَرْدِ

(١) الارتجـاز (هنا) : صوت الرعد . مجرورة الذيل : كناية عن كونها سحابة طويلة كأن لها ذيلاً تجره . والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلباً ، فهى إذا أبرقت أمطرت .

ورثةً مثلُ زئيرِ الأسدِ ولمعُ برقُ كسيوفِ الهندِ
جاءت بها ريحُ الصَّبَا من نجدِ فانتثرت مثل انتثارِ العقْدِ
فراحت الأرضُ بعيشِ رَغْدِ من وشى أنوارِ الرُّبَا في بُرْدِ
كأنما غُذِرَتْها في الوَهْدِ يَلْعَبْنَ من حَبَابِها بالزَّردِ^(١)

فقال المتوكل : انظروا ما ذا في الخزان من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى .
قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً وبعته بمال :



ويحدث التاريخ أن المتوكل قتل بأيدي الأتراك الذين أغرام ابنه المنتصر حين
رأى أباه بهمّ بخلمه من ولاية العهد ، ويغلظ له في القول ، وكان الفتح بمجلسه فتصدى
للدفاع عنه ، فكان نصيبه القتل ، وكان معهما البحترى فلم يقتل ، ولكنه وفى لسيديه
وفاءً عظيماً ، وبكاهما بكاء حاراً ، ووصف شناعة قتلها ، وغدر الغادرين بهما ، وصرح
بأن الدافع إلى القتل هو ولى العهد ، ودعا عليه ألا يتمتع بالملك الذى خاض إليه دم
أبيه ، فقال :

أكان ولىّ العهد أضمرَ غدره ومن حجب أن ولىّ العهد غادره
فلا مَلِكَ الباقى تراث الذى مضى ولا حَمَلَتْ ذاك الدعاء منابرُه

بل لقد حرص على القاتل فى قوله من هذه القصيدة :

حرامٌ علىّ الرّاحُ بعدك أو أرى دَمًا بدمٍ يجرى على الأرض حائرُه
وهل أرْتَجِي أن يطلب الدمَ واطر يدُ الدهرِ والموتورُ بالدمِ واطرُه

وهذا وفاء كثير ، وجراحة عظيمة من شاعر يواجهه بقوله خليفة بيده موته وحياته .

(١) الوهد : المكان المطمئن . الحباب : فقائيع الماء . النرد : تلك اللعبة الفارسية المشهورة
(الطاولة) . والمراد أن الحباب يتنقل على صفحة الماء كما تنقل قطع النرد على رقعته .

ويظهر لى من كثرة تناول الشعراء لذكر هذه الحادثة أن المنتصر أدرك سوء فعله
وشنيع خطته فأرعى للناس حبل القول حتى تنفذ زفرائهم فى الشعر فينسى الحادث ،
ولولا أنه فعل ذلك لأولع الناس برثاء المتوكل ووزيره وشاعت أقوالهم فيهما وربما
نهض من ينتقم لهما متأثرا بما يصور الشعراء من شناعة الحادث وفظاعته .

البحترى مع المنتصر

ومن بعده من الخلفاء

عاصر البحترى بعد المتوكل خمسة من الخلفاء ، وهم المنتصر ابنه ثم المستعين أخوه ثم
المعتز بن المتوكل ثم المهتدى بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل . ولكنه بعد موت
المتوكل عاد إلى منبج ، وكان يختلف إلى هؤلاء الخلفاء وغيرهم يمدحهم ، وقد استطاع أن
يرضيهم جميعاً وينال جوائزهم بما ركب فيه من طبع الملق ، وبما عرف من هوى كل
خليفة فكان يعمل على رضاه استدراراً لماله .

دخل على المنتصر من ناحية مدحه بالرعاية لشأن العلويين وقضاء حاجاتهم وكان
المنتصر يحب أن يشتهر بميله إليهم ورد مظالمهم فوقع البحترى على رضاه حين
قال فيه :

رَدَدْتَ المَظالمَ واسترجعتْ	يداك الحقوقَ لمن قد قهرَ
وَأَلُّ أَبى طالبٍ بعد ما	أُذيعَ بِسِرِّهِمْ فابْدَأْ ^(١)
وَصَلَّتْ شَـوَائِكَ أرحامِهِمْ	وقد أوشكَ الحبلُ أن يَنْبَتِرَ
فَقَرَّبْتَ من حَظِّهِمْ ما نأى	وصَفَّيْتَ من شَرِّهِمْ ما كَدُرَ

(١) أذيع بالشيء : ذهب به وانتهب . ابذر : تفرق .

وأما المستعين فلم يفتح له أذنه أو لاثم لما مدحه بعد قتله أُنَامِش^(١) وكتبه شجاعاً أعطاه . والمعز تقرب إليه بدم المستعين ودعوى أنه غصب الخلافة من أصحابها وكان المعز يعجبه أن يسمع ذلك في المستعين ولذلك لا تجد قصيدة في مدح المعز إلا وقد بناها على ثلب المستعين ، ونعته بسوء الأثر في الخلافة ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أما الخيالُ فإنه لم يَطْرُقِ إلا بعُقبِ تَشَوُّفٍ وَتَشَوُّقٍ

ومنها في مدحه وذم المستعين :

ولقد وليتَ فَكُنْتَ خَيْرَ مُجْمَعٍ	إذ كان من ناواك شرَّ مُفَرَّقٍ
ولقد رددتَ النائبات ذميمةً	وفسختَ من كَنَفِ الزمان الضيق
وعفوتَ عفواً عمَّ أمةٍ أحيدٍ	في الغرب من أوطانهم والمشرق
ولقد رددتَ على الأنام عقولهم	بهلاك سلطان الرَّاكِكِ الأحمق ^(٢)
والقوم خرقى ما تُطَلِّبُ رُشدُهم	وأديرَ أمرهم بعزْمَةِ أخرق ^(٣)
كيف اهتداء الركب في ظلماتهم	ودليلهم مُتَخَلِّفٌ لم يَلْحَقْ

وأما المهتدى فقد كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فعلم على رفع المظالم وأبطل الملامى وأقبل على النسك وصوم النهار وقيام الليل فمدحه البحتري بذلك فقال :

أرى حَوَزةَ الإسلامِ حينَ وليتَها تَحَرَّمَ باغيها وحِيَّطَ حَرِيْمُها
تدارك مَظْلُومَ الرعية حَقَّه وخَلَّى له وجه الطريق ظُلُومُها

وكذلك تقرب إلى المعتمد وإن كانت التقوى ليست من صفاته ولكن يظهر أنه كان يجب أن يذكر بها .

(١) أُنَامِش: من القواد الأتراك اختير لوزارة المستعين ، وهو لا يعرف الكتابة فكار يقوم بها عنه كاتبه شجاع . وقد استبد أُنَامِش بأمر الخلافة حتى ثار عليه القواد فقتل سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) يشير إلى قتل أُنَامِش .

(٣) خرقى : جمع أخرق وهو الأحمق . يريد أنه إذ كان الرئيس أخرق فالقوم مثله وما في قوله :

« ماتطلب » مصدرية ظرفية .

ونكتفى من ذكر صلاته بما كان منها بالخلفاء ، فأما من عداهم فهم كثيرون
نجد أسماءهم قد صدرت بها القصائد التي قيلت فيهم فارجع إلى ذلك في ديوانه .
وقد مات البحترى بداء السكتة بمنبج سنة ٢٨٤ هـ ، وقد خلف أبناء منهم أبو الغوث
الذى ذكره في شعره ، وكان من أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبد الله
وقد كانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتنبي .

شعر البحترى

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من أثر في النفس ، والبحترى له منهما أعظم معين
على الشاعرية والتبريز فيها ، فقد كانت بيئته كما تعلم منبج ، وهى من بلاد الشام وصفت
بالحسن ورقة الهواء وعذوبة الماء ، وإلى جانبها حلب ، وعواصم الشام تجلو مناظرها
العين ، وتشهد الذهن ، وتفسح الخيال ، والشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها
وأنها جعلتهم أعذب الشعراء ألقاظاً وأبدعهم خيالاً حتى لقد كان صاحب بن عباد
يعجب بأشعارهم ويحرص على حفظها ويستملئ الطائرئين عليه ما يحفظونه منها حتى ملأ
دفتره ضخماً فكان لا يفارقه فى مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ماضيه هذا
الدقتر على طرف لسانه وسمان قلمه يحاضر به فى مخاطباته ويورده فى مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحترى هذه البيئة إلى تحدره من أصلاب عربية يعم فيها ويخول
وتتم له مع ذلك الاختلاف إلى قبائل طيء الضارين على شواطئ الفرات إلى منبج
فكان له من كل هذه الأسباب شاعرية موروثية ومكتسبة تم بها طبعه ، واتسع ذرعه .
فبحق ما يقول عنه أبو الفرج الأصبهاني : « شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقي
الكلام مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يهتمون به الشعراء » .

ويعترف البحترى بأنه تلميذ أبى تمام وأنه يحدو مذهبه وينحو نحوه ويراه

إماما ويقدمه على نفسه ، وكان إذا سئل عن نفسه وأبى تمام قال : جيّد خير من
جيدى وردى خير من رديئه . وقال له يوماً أبو العباس المبرد . وقد أنشد شعراً كان
أبو تمام قال في مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر ، فقال : كلا
والله إن أباً تمام الرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك
يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفاً من جميع نواحيك . وقال بعضهم للبحترى : إن
الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام فقال والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر
أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع
له ، آخذٌ منه ، لأئذ به ، نسيماً يركد عند هوائه وأرضى تنخفض عند سمائه .
والذى يثبت لك أن البحترى تلمذ لأبى تمام تلك الوصية التى حفظها عنه فى
كيفية معالجة الشعر ، ومنها :

فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان
الصباية ، وتوَجّع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد
ذى أياذ فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن فعالة وشرف مقامه وتقاض^(١) المعانى واحذر
الجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ . وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
الأجسام . ثم يقول له : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين
فما استحسنه العلماء فأقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله .

و بعد فلننظر هل تأثر التلميذ أستاذه فى طريقته وهل تبعه فى مذهبه ؟ وإذا كان
ذلك حقاً فإلى أى غاية انتهى هذا التأثير والاتباع ؟
نعرف أن طريقة أبى تمام هى الدقة فى المعانى والإكثار من الاستعارات والإلحاح
فى أنواع البديع والخروج بالجزالة إلى الغرابة ومشاركة العنجهية .

(١) تقاض : طلب ، ومنه قول الفائل :

إذا ما تقاضى المرء يوم ولاية تقاضاه شىء لا يعلّ التفاضيا

فأما البحتري فقد اتبع أستاذه واسكن في حدود الطبع. وانتجى مذهبه ، ولكن من غير أن يخل بمقتضى السليقة . ومع أنه كان يحل أستاذه ، ويتمنى لو صار مثله ، فإن طبعه العربي السليم ، وسليقته الفطرية البريئة أبيا عليه أن يندفع في تيار أستاذه فيكون مثله في تعقيد المعاني ، وغرابة الألفاظ ، وشذوذ الاستعارات ، وكثرة التحسين ، بل كان منه إقبال على أنواع البديع السهلة المقبولة من الطباق والمقابلة ، وهما أكثر ما كان يستعمل من أنواعه ، وقد يأتي بالجناس سهلا ميسورا حسن الموقع .

ففي هذا وحده اتبع أستاذه ، فأما الاستعارات التي خرج بها أبو تمام عن مألف قول العرب ، وأما المعاني العويصة التي تجهد الذهن في استخراجها ، وأما الإصعاد في حزن الكلام ، والتنكب لسهله ، فذلك مالم يستطع البحتري مجاراة أستاذه فيه ، وما يدرينا لعله لا إعجابه بأستاذه كان يتكافى في بعض الأوقات أن يقول مثله فيقول ، ثم إذا عرض كلامه على ذوقه السليم ، وسمعه الناقد نفيا هذا الذي لا يوافق طبعه ، وكان البحتري معروفاً بأنه يلقي من شعره ما يرتاب فيه .

ونستطيع أن نجعلك تلمس شاعرية البحتري لمسا قويا ، وأن تملأ يديك من الحكم عليه والتقدير لمذهبه ، فنقول: إن البحتري وإن كان قد نشأ في عصر ازدهرت فيه العلوم ، وتعددت المعارف ، وتنافس الناس في تحصيلها ، وحضور مجالسها وخاضوا في الجدل فيها ، لقد كان البحتري بمعزل عن هذه الحركة العنيفة؛ فإنه من أهل الشام، وهذه الحركة كانت على أشدها في العراق ، وبقرى قصور الخلفاء الذين حرّضوا عليها ، وبعثوا في الناس الاهتمام بها ، فكان من المعقول أن تكون هذه الحركة هادئة لينة في غير بغداد ، وما داناها من الأمصار فهي لذلك كانت هادئة في منبج ، وفيما حولها من عرب يقيمون في خيامهم وفيهم كل صفات البداوة إلا عنجهيتها لأنهم محاطون بالريف المتحضر ، مقاربون للأمصاير المتمدينة

لذلك نشأ البحتري ، وكل ماله من ميزة هو سليقته العربية ، وطبيعته الشعرية .

فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقدها العلوم ، ولم تفسدها الفلسفة ، واتخذ من أقوال الشعراء الذين حفظ كلامهم مدد معانيه ، فلم يخرج فيها عما عرف للشعراء السابقين الذين قلّ نصيبهم من العلم فقربت معانيهم ، واستقامت طريقتهم . لذلك لا تراهم يعدون البحتري في أصحاب المعاني المختصرة ، ولكنهم يذكرونه بلطف الأخذ وحسن الاتباع ، ثم هو من ناحية اللفظ ، والأسلوب جمع بين فضيلتي البداوة والحضارة ، فأما فضيلة البداوة ، ففي صدق التعبير ، وحسن الأداء ، ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ، ففي رقة اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، وحسن وقع التحسين ، وهذا كل ما يقال في الوصف العام لشعر البحتري .

أغراض الشعر عند البحتري

شعر البحتري كثير ، وديوانه الذي بأيدينا ضخم لا يكاد يدانيه ديوان شاعر ممن سبقوه ، وقد تناول جميع أنواع الشعر ، ولكنه لم يكن فيها جميعها سواء ، ويستحيل أن تكون مقدرة شاعر واحدة في جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام للملكة يجيد في أكثر ما يقول ، وهكذا كان البحتري : أجاد في أكثر الأغراض جادة شهد له بها في كل غرض ، فخلّ من فحول النقاد . ونستطيع أن نقول : إنه أجاد في كل غرض ما عدا الهجاء .

فأما مدحه : فإنه فيه ساحر ينفي^(١) في العمد ، ويكفي أن نعلم أنه على رثاء لبسه ، وقبح إنشاده وخيالاته ، وتبهره بشعره كان الفتح بن خاقان يقول لمن ينقم عليه : ذلك والله لورمانا بالحجارة لكان ذلك مغفورا له في جنب ما يقوله .

وقد علمت من حيلة البحتري أنه كان يدرس طبع المدوح ، ويتعرف هواه

(١) النفث : كالنفث وهو أقل من النفث .

حتى يقع قوله بموضع من رضاه ، ويكفى في الدلالة على فضله في باب المدح أن يكون قد حوى هذه الثروة الطائلة التي بقيت في عقبه : ونالوا بها الرياسة والسيادة في قومهم .

ومن مديحه قوله في المتوكل :

خلق الله جعفرا قيّم الدنيا سدادا وقيّم الدين رُشدا
أكرم الناس شيمةً وأتم الناس خُلُقاً وأكثر الناس رِفداً
ملك حصّلت عزمته الملك فأضحت له مُعائناً ورداً^(١)
أظهر العدل فاستنارت به الأَرْض وعمّ البلاد غوراً ونجداً
وحكى القطر بل أبرّ على القطر بكفٍ على البرية تَنَدَى
هو بحر السّماح والجود فازدد منه قرباً تَزَدَد من الفقر بُعداً
بإثمال الدنيا عطاءً وبذلاً وجمال الدنيا سناءً ومجداً^(٢)
وشبيهه النبي خلُقاً وخلُقاً ونسب النبي جِداً وفجداً
بك نَسْتَعْتِبُ الليالي ونَسْتَعْدِي على دهرنا المَسِيء فَنُعْدِي
فابق عُمر الزمان حتّى نُؤدّي شكر إحسانك الذي لا يُؤدّي
وقال يمدحه ويذكر وفد الروم :

إنّ الرعية لم تزل في سيرة عُمريةٍ مُدّ ساسها المتوكّل
الله أثمر بالخلافة جعفراً وراه ناصره الذي لا يَخْذُلُ
هى أفضل الرّتب التي جعلت له دون البرية وهو منها أفضل

(١) المغاث : اسم مكان من أغاث . الرد : عماد الشيء . يريد أن عزمته صارت ملجأ للملك وكفاً يفيته ويحميه .

(٢) سناء وردت في الديوان بالثاء ، وهى غير مناسبة للمقام . والثناء : الشرف وهو المناسب .
الإثمال : الغيات .

مَلِكٌ إِذَا عَاذَ الْمَسِيءَ بِعَفْوِهِ
وَعَفَا كَمَا صَفَحَ السَّحَابُ وَرَعْدُهُ
يَتَقِيلُ الْعَمَلُ بِأَسَاسِ عَمِّ مُحَمَّدٍ
شَرَفٌ خُصِصَتْ بِهِ وَمَجْدٌ بَاذَخُ
لَا يَعْدُ مِنْكَ الْمَسْلُومُونَ فَإِنَّهُمْ
حَصَنَتْ بِيَضَّتِهِمْ وَخُطَّتْ حَرِيمُهُمْ
فَادَيْتَ بِالْأَسْرَى وَقَدْ غَلِقُوا فَلَا
وَرَأَيْتَ وَفَدَ الرُّومَ بَعْدَ عِنَادِهِمْ
لَحْظُوكَ أَوَّلَ لَحْظَةٍ فَاسْتَصْغَرُوا
أَحْضَرْتَهُمْ حُجَجًا لَوْ اجْتَلَيْتَ بِهَا
وَرَأَوْكَ وَضَاحَ الْجَبِينِ كَمَا يُرَى
نَظَرُوا إِلَيْكَ فَقَدَّسُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ
حَضَرُوا السَّمَاطَ فَكَلَّمُوا أَرَامُوا الْقَرَى

غَفَرَ الْإِسَاءَةَ قَادِرًا لَا يَعْجَلُ^(١)
قَصِيفٌ وَبَارِقُهُ حَرِيقٌ مُشْعَلُ^(٢)
وَوَصِيَّةٌ فِيمَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ^(٣)
مَتَمَكَّنٌ فَوْقَ النُّجُومِ مُؤَنَّلُ
فِي ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أُمِّلُوا
وَحَمَلَتْ مِنْ أَعْبَائِهِمْ مَا اسْتَشَقَّلُوا
مَنْ يَنْالُ وَلَا فِدَاءٌ يُقْبَلُ^(٤)
عَرَفُوا فَضَائِلَكَ الَّتِي لَا تُجْهَلُ
مَنْ كَانَ يَعْظُمُ فِيهِمْ وَيُبْجَلُ
عُصْمُ الْجِبَالِ لِأَقْبَلَتْ تَنْزِلُ^(٥)
قَرُّ السَّمَاءِ السَّعْدُ لَيْلَةً يَكْمَلُ
نَظَفُوا الْفَصِيحَ لِكِبْرُوهُمْ وَلَهْلَلُوا^(٦)
مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عَقُولُ ذُهَلُ^(٧)

- (١) عاذ به : لجأ إليه . ومعنى لا يعجل أى لا يعجل بالعقوبة .
(٢) صفح السحاب : سقى الناس مائه . قصف : شديد الصوت .
(٣) التقييل : التبع . يقال فلان يتقييل أياه : أى يسير على نهجه .
(٤) غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا لم يستطع الراهن دفع ماعليه وفك الرهن . المن : طلاق الأسير من غير فدية .
(٥) العصم : جمع أعصم ، وهو من الطير والوحش ما يلجأ إلى أعلى الجبال فلا ينال إلا بالحيلة القوية . فيضرب المثل بالقدرة على استنزاله من أماكنه ، فيقال فلان يستنزل العصم بكلامه : أى انه شديد التأثير .
(٦) التقديس : تنزيه الله وهو فى اصطلاح النصارى نوع من أنواع عبادتهم . التهليل : قول لا إله إلا الله .
(٧) السماط : المائدة . ذهل : جمع ذاهل بمعنى غافل .

تَهْوِي أَكْفُهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَحِيدُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَتَعْدِلُ
مُتَحَيِّرُونَ فَبَاهِتٌ مُتَعَجِّبٌ مِمَّا رَأَى أَوْ نَاطَرٌ مُتَأَمِّلٌ
وَيَوَدُّ قَوْمُهُمُ الْآلَى بَعَثُوا بِهِمْ لَوْ ضَمَّهُمْ بِالْأَمْسِ ذَاكَ الْمَحْفِلُ
قَدْ نَافَسَ الْغَيْبُ الْحُضُورَ عَلَى الَّذِي شَهِدُوا وَقَدْ حَسَدَ الرَّسُولَ الْمُرْسِلُ
عَجَلَتْ رِفْدَهُمْ فَأَفْضَلُ نَائِلٌ حُبِّي الْوَفُودُ بِهِ الْهَنِيءُ الْمُعْجَلُ^(١)
فَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ تُعَمَّرَ صَالِحًا فَدَوَامُ عَمْرِكَ خَيْرٌ شَيْءٌ يُسْأَلُ^(٢)



أما الغزل في شعره ، فهو أظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بغزل البحتري ، وعلنا إذا التمسنا وجه إبداعه في هذا الباب نجد ما نقوله من أنه نشأ نشأة بدوية صفت فيها السماء ، واتسع الأفق ، وسنحت الظباء ، وتراءت له فتيات الحى في خصورهن الهيف وقدودهن الميادة ، وعيونهن النجل كما رأى في الحضر الذى تنقل فيه علوة الحلبية ، وقد شعف فؤاده حبها ، فلم ينسها بعد بالعراق ، وهو في عاصمة تذهل مناظرها كل قلب ، وتسلب كل لب . وكان إلى جانب هذه النشأة ما عرفت له من طبع فياض وسهولة تكاد تسيل ، فكان من غزله ما قيد الأسماع ، وخالط النفوس فبكى الناس للوعته ، ورثوا لدائم عبرته ، ومتصاعد زفرته . أما هو فقد اشتاق والتاع ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لطيف الخيال ، وأنحى باللوم على العذال ، ووصف القدود ، وأسيل الحدود ، ليس له في المعنى من فضل ، إلا أنه قرب بعیده وذلل ريضه ، ثم صبه في قلبه السحري من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ما شاء في الصوغ ، محليا بما هداه إليه الطبع ، ويأبى طبعه إلا الإحسان ، والخلو من الشوائب .

(١) الرfid : العطاء . حباه : أعطاه .

(٢) يقال عمره الله (بتشديد الميم) : أى أطال عمره ، لذلك يقال للطويل العمر معمراً (بصيغة اسم المفعول) .

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه تراه قد أكثر منه والتزمه في بدء قصائده جريا على طريقة العرب في بناء القصيدة على الغزل .

ولرقة غزله ، وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخير أن يختار منه لأن الاختيار أثر المفاضلة ، وليس في غزله فاضل ولا مفضول ، بل كل قطعة منه دمية فنية غنية بحساسنها ، لا تزاحمها غيرها في جمالها ، ولا تبزها بداعتها ، فانظر إليه حضريا في شملة أعرابي يتغزل على طريقة السابقين ، فيذكر الآرام ، ورميل عاج ، والغور من تهامة في قوله :

شُغْلَانٍ مِنْ عَدَلٍ وَمِنْ تَقْنِيدٍ وَرَسِيسٍ حُبِّ طَارِفٍ وَتَلِيدٍ^(١)
وَأَمَّا وَآرَامُ الظَّبَاءِ لَقَدْ نَأَتْ يَهْوَاكَ آرَامُ الظَّبَاءِ الْغَيْدِ^(٢)
طَالَعَنَّ غَوْرًا مِنْ تِهَامَةٍ وَاعْتَلَى عَنْهُمْ رَمْلًا عَاجٍ وَزُرُودِ
لَمَّا مَشَيْنَ بِنْدَى الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ أُعْطَافُ قُضْبَانَ بِهِ وَقُدُودِ
فِي حُلَّتِي حَبِيرٍ وَرَوْضٍ فَالْتَقَى وَشَيَانٍ وَشَى رُبًّا وَوَشَى بُرُودِ^(٣)
وَسَفَرَنْ فَاِمْتَلَأَتْ عَيُونُ رَاقِهَا وَزِدَانٍ وَرَدُ جَنَى وَوَرْدُ خُدُودِ
وَضَحِكُنْ فَاَعْتَرَفَ الْأَفَاحِي مِنْ نَدَى غَضٍّ وَسَلْسَالِ الرُّضَابِ بَرُودِ^(٤)
تَرْجُو مَقَارِبَةَ الْحَبِيبِ وَدُونَهُ وَخَدُّ يُبْرِحُ بِالْمَهَارَى الْقُودِ^(٥)

- (١) الرسيس : الشيء الثابت . يريد أن له أمرين يشغلانه ، وهما اللوم على الحب ، والثاني تباريح ذلك الحب . وعلى هذا يكون عطف تفنيد على عدل من عطف الترادف فهما شيء واحد .
- (٢) الآرام : جمع رثم ، وهو الظبي الخالص البياض . الغيد : جمع . أغيد أو غيداء ، وهو المائل العنق الائن الأعطاف . يقسم بحق الظباء أن الجليات الشبهات بها قد هجرته بعد أن عاق هواهن بقلبه
- (٣) الحبر : جمع حبرة (كعنبه أو شجرة) وهو ضرب من برود الين . الوشى : زينة الثوب .
- (٤) الأفاحي : نبت تشبه به الأسنان . الرضاب : الرقيق . البرود : البارد . يقول لما ضحكنا ظهرت أسنانهم كالأقحوان وقد امتلأ من الندى فهو يجعل الأسنان كالأقحوان والرقيق كالندى
- (٥) الوخد : الإسراع . التبريح : الإيلا . المهاري : جمع مهريه ، وهي الناقة السكرية نسبت إلى بني مهرة وقد عرفوا بكرم لبلمهم . القود : جمع أقود أو قوداء ، وهو النول من الإبل .

ومنى يساعداً الوصالُ ودهرنا يومان يومٌ نَوَى ويومٌ صُدِّدُ
وانظر إليه وقد اختار الأوزان القصيرة التي توافق خفة الغزل ونشوة الحب ، ثم
هو يتلاعب بالمعاني ، فيطالب المحبوب بالرقعة وفاء لنذل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد
الهجر ، والقرب بعد البعد ، وهو لا شك عند الحب خير ما فى الدنيا ، فيقول :

لَمْ لَا تَرِقْ لِنُذْلِ عَبْدِكَ وَخُضُوعِهِ فَتَنِي بَوَعْدِكَ
إِنِّي لَأَسْأَلُكَ الْقَلِيلَ وَأَتَّقِي مِنْ سُوءِ رَدِّكَ
وَأَمَّا وَوَصْلِكَ بَعْدَ هَجْرِكَ واقترابك بَعْدَ بُعْدِكَ
لَا لَمْتُ نَفْسِي فِي هَوَاكَ وَلَا أُنْحَرَفْتُ لِطَوْلِ صَدِّكَ
وَلَئِنْ أَسَأْتُ كَمَا تُسِيءُ لِمَا وَدِدْتُكَ حَقَّ وَدِّكَ

وانظر إليه ولم يأت بجديد من معاني الغزل . ولكنه يكاد يلفظه الرشيقي وأسلوبه
الخلاب يريك كأنه يتغزل بما لم يقله أحد قبله ، وما فى شعره لو فتشته إلا تشبيه القاد
بالقضيبي والأسنان بالبرد ، وإلا كون المحبوب قد استولى على الحسن ، وتفرد بالدلال ،
وإن الذرع قد ضاق بالحب . فصار مخرجه من الحب عسيراً . قال :

مُخْلِفي في الذى وَعَدْتُ سَيْلَ وَضَلٍّ قَلَمٌ يَجِدُ^(١)
وَهُوَ بِالْحُسْنِ مُسْتَبِدٌّ وَبِالدَّلِّ مُنْفَرِدٌ
يَتَنَقَّى عَلَى قَضِيْبٍ وَيَفْتَرُّ عَنْ بَرْدِ
قَدْ تَطَلَّبْتُ نَحْرَ جَا مِنْ هَوَاهِ فَلَمْ أَجِدْ
ضَاقَ صَدْرِي بِمَا أَجْنَنَ وَقَلْبِي بِمَا وَجَدَ
وَتَغَصَّبَتْ أَنْ شَكُو تَجَوَّى الْحَبَّ وَالْكَمَدُ
وَاشْتَكَاى هَوَاكَ ذَنْبٌ فَإِنْ تَعَفُّ لَا أَعُدُّ

(١) سئل : فعل ماض مبنى للمجهول من سأل الذى سهل ، فقلت همزته ألفا فعمل معاملة الأجوف .

ومن غزله في علوة ، قوله من قصيدة يمدح بها المعتز بالله :

خيالٌ يَعْتَرِينِي فِي الْمَنَامِ لَسَكْرَى اللَّحْظِ فَاتِنَةُ الْقَوَامِ
لَعْلَوَةٌ إِنَّمَا شَجَرْنِي لِنَفْسِي وَبَلْبَالٌ لِقَلْبِي الْمُسْتَهَامِ
إِذَا سَفَرْتُ رَأَيْتَ الظَّرْفَ بَحْتًا وَنَارَ الْحُسْنِ سَاطِعَةَ الضَّرَامِ
تَطْنُ الْبَرْقَ مُعْتَرِضًا إِذَا مَا جَلَا عَنْ ثَغْرِهَا حُسْنُ ابْتِسَامِ
كَنُورِ الْأَقْجُونِ جَلَاةً طَلُّ وَسَمَطِ الدَّرِّ فُصِّلَ بِالنِّظَامِ^(١)
سَلَامُ اللَّهِ كُلَّ صَبَاحٍ يَوْمٍ عَلَيْكَ وَمَنْ يُبَلِّغُنِي سَلَامِي
لَقَدْ غَادَرْتُ فِي قَلْبِي سَقَامًا بِمَا فِي مُقَلَّتَيْكَ مِنَ السَّهَامِ
وَذَكَرْتُكَ حَسَنُ الْوَرْدِ لَمَّا أَتَى وَلَنِيذُ مَشْرُوبِ الْمُدَامِ
لَنْ قَلَّ التَّوَاصُلُ أَوْ تَمَادَى بِنَا الْهَجْرَانُ عَامًا بَعْدَ عَامِ
فَكَمْ مِنْ نَظَرَةٍ لِي مِنْ بَعِيدٍ إِلَيْكَ وَزُورَةٍ لَكَ فِي اكْتِسَامِ
أَأَتَّخِذُ الْعِرَاقَ هَوًى وَدَارًا وَمَنْ أَهْوَاهُ فِي أَرْضِ الشَّامِ

ومن قوله في غلامه نسيم :

أَنَسِيمٌ هَلْ لِلدَّهْرِ وَعْدٌ صَادِقٌ فَيَا يَوْمَ مَلَهُ الْمُحِبُّ الْوَامِقُ
مَالِي فَقَدْتُكَ فِي الْمَنَامِ وَلَمْ يَزَلْ عَوْنُ الْمَشُوقِ إِذَا جَفَاهُ الشَّائِقُ^(٢)
وَمُنِعْتَ أَنْتَ مِنَ الزِّيَارَةِ رِقْبَةً مِنْهُمْ فَهَلْ مُنِعَ الْخِيَالُ الطَّارِقُ
الْيَوْمَ جَازَى بَنَى الْهَوَى مَقْدَارَهُ فِي أَهْلِهِ وَعَلِمْتُ أَنَّي عَاشِقُ
فَلْيُهْنِنِي الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ أَنَّهُ يَلْقَى أَحِبَّتَهُ وَنَحْنُ فَارِقُ

ومن قوله فيه أيضاً :

(١) السمت : العقد . النظام : الحيط . ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه . التفصيل : نظم العقد والتفريق بين

حباته بأخرى .

(٢) المشوق : المحب . الشائق : المحبوب .

دَعَا عِبْرَتِي تَجْرِي عَلَى الْجَوْرِ وَالْقَصْدِ أَظُنُّ نَسِيماً قَارَفَ الْهَجَرَ مِنْ بَعْدِي ^(١)
 خَلَا نَظْرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ فَقْدَاً عَلَى فَقْدِ
 خَلِيلِي هَلْ مِنْ نَظَرَةٍ تُوصِلُ إِلَيْهَا إِلَى وَجَنَاتٍ يَنْتَسِبْنَ إِلَى الْوَرْدِ
 وَقَدْ يَكَادُ الْقَلْبُ يَنْقُذُ دُونَهُ إِذَا أُهْتَرَّ فِي قُرْبٍ مِنَ الْعَيْنِ أَوْ بُعِدَ
 كَفَى حَزْناً أَنَا عَلَى الْوَصْلِ نَلْتَمِي فُؤَادًا فَتَنَيْنَا الْعُيُونُ إِلَى الصَّدِّ ^(٢)
 فَلَوْ تُمَكِّنُ الشُّكْوَى لَخَبَّرَكَ الْبَكَ حَقِيقَةً مَا عِنْدِي وَإِنْ جَلَّ مَا عِنْدِي
 وَذَكَرَ صَاحِبُ الْأَغَانِي أَنَّ نَسِيماً هَذَا كَانَ غَلاماً رُومياً لَيْسَ بِمُحْسِنِ الْوَجْهِ ، وَكَانَ
 الْبَحْتَرَى قَدْ جَعَلَهُ أَبَا مِنْ أَبْوَابِ الْحَيْلِ عَلَى النَّاسِ ، فَكَانَ يَبِيعُهُ وَيَتَعَمَدُ أَنْ يَصِيرَهُ إِلَى
 مُلْكٍ بَعْضُ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ ، وَمَنْ يَنْفَقُ عِنْدَهُ الْأَدَبُ ، فَإِذَا حَصَلَ فِي مُلْكِهِ نَسَبٌ بِهِ
 وَتَشَوُّقُهُ ، وَمَدَحُ مَوْلَاهُ حَتَّى يَهْبَهُ لَهُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِهِ حَتَّى مَاتَ نَسِيمٌ فَكَفَى النَّاسَ أَمْرَهُ .



وَالْوَصْفُ فِي شِعْرِ الْبَحْتَرَى بَابُ بَارِعِ الْجَمَالِ دَقِيقِ الصَّنْعَةِ اشتهر به البحتري شهرته
 بِالْغَزْلِ وَالْمَدْحِ حَتَّى قَالَ فِيهِ ابْنُ الْمَعْتَزِ : لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْبَحْتَرَى إِلَّا قَصِيدَتُهُ فِي إِيوَانَ كَسْرَى
 (فَلَيْسَ لِلْعَرَبِ سِنِيَّةٌ مِثْلَهَا) وَقَصِيدَتُهُ فِي وَصْفِ بَرَكَةِ الْمُتَوَكَّلِ ، لَكَانَ أَشْعَرُ النَّاسِ .
 وَيَعْبُدُهُ صَاحِبُ الْعِمْدَةِ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ أَجَادُوا فِي جَمِيعِ الْأَوْصَافِ ، وَإِنْ غَلَبَتْ عَلَى
 أَحَدِهِمُ الْإِجَادَةُ فِي بَعْضِهَا كَأَمْرِ الْقَيْسِ ، وَأَبِي نَوَاسٍ ، وَالْبَحْتَرَى ، وَابْنِ الرُّومِيِّ ،
 وَابْنِ الْمَعْتَزِ ، وَكُشَاجِمٍ ، وَالَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الْبَحْتَرَى وَصْفُ الْقُصُورِ ، وَمَا يَحِيطُ بِهَا .

وَلَا شَكَّ أَنَّ قَصِيدَتَهُ فِي وَصْفِ إِيوَانَ كَسْرَى هِيَ عُرُوسُ شِعْرِهِ عَامَةٌ وَنُمُودَجٌ

(١) الجور: الظلم . القصد : الاعتدال . قارف : دانى وقارب . يقول لصاحبيه : اتركوا دموعي تجري
 بإسراف أو اعتدال فإن نسيماً قد جفاني .

(٢) الفواق : ما بين الحالتين من الوقت ، أو هو ما بين فتح يدك وقبضها عند الحلب ، وهذا المعنى
 الأخير يناسب المبالغة في قصر مدة التفائهما . والمراد بالعيون عيون الرقباء .

إجاداته فى الوصف خاصة، وليس العجيب عندى أنه وصف القصر ولكن العجب أنه اتجه اتجاها لم يتجه غيره من الشعراء فى العناية بدلائل العظمة للأمم السابقة والإشادة بما خلفوه من جهود تنطق بسمو مكاتهم وعلو كعبهم . وكثير من الشعراء قد عاشوا بمصر أو مروا بها فصارأيناهم ذكروا الأهرام ولا عاديات القدماء إلا ذكرالايديل على فضل تأثر بها وإعجاب بأصحابها .

أما البحترى فقد وفى للفرس أتم وفاء ، ورثى لمجدهم أحر رثاء . وعاتب الدهر على سوء أثره فيهم وقبح فعله بهم . وفى اعتقادنا أن البحترى فتح للشعراء بابا لم يستطيعوا ولوجه من بعده فظل مهجوراً حتى أشادت المدنية الحديثة بذكر الآثار وأنطقها بعظمة أصحابها ، فكان من الشعراء العظماء المرحومين : محمود سامى البارودى باشا ، وإسماعيل صبرى باشا ، وأحد شوقى بك ، أن اقتفوا أثر البحترى فى نهجه بعد ألف عام وتنهبوا إلى هذه المنقبة التى لم يخلق الشعر إلا مثلها ، ولم يشرف إلا بمثل موضوعها . وإذا قلت : إن وصف الديار وبكاء أهلها عادة عربية قديمة فاعلم أنه لم يتوسع أحد فيها توسع البحترى فيخرج بحديثها من الغزل ومجرد اللهو إلى جد الحقيقة والوفاء للتاريخ . والعجيب أن تنال سينية البحترى هذه الشهرة ثم لا يكون من الشعراء اتجاه إلى موضوعها وتقليد له فى منحها . ولكن الذى صدم عن ذلك أن موضوعها خالص للحقيقة ليس فيه زلفى لرئيس ولا وراءه مطمع فى عطاء . فهذا هو الذى أمات موضوعها فى نظر الشعراء فلم يجرؤا وراء البحترى فى شوطه الذى تفرد بالسبق فيه . ولقد صدق قول ابن المعتز (ليس للعرب سينية مثلها) وما كان أحراة أن يقول « ليس للعرب قصيدة مثلها » حتى لا يوهم قوله أن لنوع القافية أثراً فى التفرد بالحسن .

وليس يقل عن السينية فى تجدير العبرة ، ووصف النعيم الزائل والتفجع للجمال الحائل ، وصفه لقصر المتوكل بعد قتله وما أصابه من تهتيك الستور، وتشريد الأطلاء والجآذر .

أما أوصافه التي لاشجوا فيها ولا رثاء فنما وصفه لبركة المتوكل وقصر المعتز
وسنذ كر طرفا من كل ذلك .

فمن وصف الإيوان قوله :

لو تراه علمت أن الليالى جَعَلَتْ فيه مأتماً بَعْدَ عُرْسٍ
وهو يُنْبِيك عن عجائب قومٍ لا يُشَابُ البیانُ فيهِم بلبسٍ
فإذا ما رأيت صورةً أنطأ كِيَّةَ ارْتَمَتْ بين رُومٍ وفُرسٍ
والـمـنايا موائلٌ وأنو شُرٍ وَأَنْ يُزْجِيَ الصَّفوفَ تَحْتَ الدَّرَفِ
في أخضارٍ من اللباس على أصفر يختال في صَبِغَةٍ وَرْسٍ
وعِراكُ الرجالِ بَيْنَ يَدَيْهِ . في خُفُوتٍ مِنْهُمْ وإِغْمَاضِ جِرْسٍ
من مُشِيحٍ يُهْوَى بِعَاملِ رُوحٍ ومُليحٍ من السَّنانِ بِتُرسٍ
تَصِفُ العينُ أَنَهُمْ جِدُّ أَحْيَا ۝ لَهم بَيْنَهُمْ إِشارةُ خُرْسٍ
يَعْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيا بِي حَقِّي تَتَقَرَّرُهُمُ يَدَايَ بِلَبْسٍ

ومنها :

وكانَ الإيوانَ من حَجَبِ الصَّنِعةِ جَوْبُ في جَنْبِ أَرَعْنَ جَلَسٍ
يُتَطَّقَى من الكِتابَةِ إِنْ يَبْدُ لَعَيْنِي مُصْبِحٍ أَوْ مُمَسَّى
مُزْجِجًا بالفراقِ عَن أنسٍ إلفٍ عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيقِ عُرْسٍ
عَكَسَتْ حَظَّهُ الليالى وبات المُشْتَرَى فيه وهو كوكب نحسٍ
فهو يُبْدِي تَجَلُّدًا وَعَلِيهِهِ كَلْكَلٌ من كَلالِ الدَّهْرِ مُرْسِي
لم يَعْبَهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيباجِ واسْتُلَّ من سُتُورِ الدَّمَقْسِ
مُشْمَخِرٌ تَعَلُّو له شُرُفاتٌ رُفِعَتْ في رِجوسِ رَضْوَى وَقُدْسٍ
ليس يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنٍ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ

ومن قوله في وصف قصر المتوكل بعد قتله :

تَعَبَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأُنْسُهُ وَقُوَّضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ^(١)
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً فَعَادَتْ سِوَاءَ دُورِهِ وَمَقَابِرُهُ^(٢)
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ سَبِيحُ زَائِرُهُ^(٣)
وَلَمْ أَنْسَ وَخْشَ الْقَصْرِ إِذْ رِيحَ سِرْبِهِ وَإِذَا ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَادِرُهُ^(٤)
وَإِذَا صَبِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ هُتِّكَتْ عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَرَائِرُهُ^(٥)
وَوَحْشَتُهُ حَتَّى كَانَ لَمْ يُقَمِّ بِهِ أَنْيْسٌ وَلَمْ تَحْشُنْ لَعِينٍ مَنَاطِرُهُ
كَأَنَّ لَمْ تَبِتْ فِيهِ الْخِلَافَةُ طَلْقَةً بِشَاشَتِهَا وَالْمَلَكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهُ
وَلَمْ تَجْمَعْ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بَهَاءَهَا وَبَهَجَتِهَا وَالْعَيْشُ غَضٌّ مَكْسِرُهُ^(٦)
فَأَيْنَ الْحِجَابُ الصَّعْبُ حِينَ تَمْنَعَتْ بِهَيْبَتِهِ أَبْوَابُهُ وَمَقَاصِرُهُ
وَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ تَنْوُبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِينَا وَآوِرُهُ
ومن وصف بركة المتوكل قوله :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرَكَةَ الْحَسَنَاءَ رَوَّيْتُهَا وَالْأَنْسَاتِ إِذَا لَاحَتْ مَغَانِبُهَا^(٧)

(١) الجعفرى : قصر المتوكل . قوض : تهدم . والمراد بالبإدى والحاضر : جميع نواحيه كما يقال طاف فلان الدنيا باديته وحاضرتها : أى جميع نواحيها ، أو كأنه لانساعه كانت فيه نواح أهله وأخرى خالية ، فجعل الأهلة حاضرة والحالية بادية .

(٢) كان قصر المتوكل هذا بناحية كثر فيها بناء الناس حول قصر الخليفة فكان كمثل المدن له بجانبه مقابر فلما خرب القصر أخلت المدينة فاستوت دورها وقبورها في الخلو من الأحياء .

(٣) أجد : جد أو أحدث . الأسى : الحزن . بهج (تكجل) : فرح . و (كنع) : أفرح .

(٤) الأطلاء : جمع طلاء وهو ولد الظبية ساعة يولد . الجاذر : جمع جؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية .

ذعر : ريد وأخيف . السرب الجماعة من الإنسان أو الحيوان . والمراد بوحش القصر نسائه .

(٥) المراد بتهتيك الأستار : إزالة ما في القصر من فرش وستائر ، وبتهتيك السرائر : ظهور مخبآت القصر . والبيت يروى في كل مصادره « أستاره وستاره » ولا معنى للعطف لسكونيهما بمعنى واحد ، فلا بد أنه محرف عما ذكرنا .

(٦) الغض : الطرى . المكسر : جمع مكسر (كعجاس) وهو موضع الكسر . والمعنى في كون العيش غض المكسر أنه لين لاشدة فيه .

(٧) الأنسات . جمع أنسة بمعنى مؤنسة . المغاني : جمع مغنى وهو المنزل والمسكن .

بَحْسُهَا أَنَهَا مِنْ فَضْلِ رُبَّتَيْهَا تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْبَحْرُ ثَانِيهَا
 مَا بَالُ دِجْلَةٍ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا فِي الْحَسَنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تُبَاهِيهَا^(١)
 أَمَارَاتُ كَالِيَّ الْإِسْلَامِ يَكْلُوهَا مِنْ أَنْ تُعَابَ وَبَانِي الْمَجْدِ يَنْبِيهَا^(٢)
 كَأَنَّ جِنَّ سَلِيمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ إِبْدَاعُهَا فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا
 فَلَوْ تَمَرُّ بِهَا بِلَقَيْسٍ عَنْ عُرْضٍ قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلًا وَتَشْبِيهَا^(٣)
 تَنْصَبُّ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ كَالْحَلِيلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
 كَأَنَّمَا الْفَضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي تَجَارِيهَا
 إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبَّكَ مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْفُوقًا حَوَاشِيهَا^(٤)
 فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يَضَاحُكُهَا وَرَيْقُ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِهَا^(٥)
 إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِهَا لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءَ رُكْبَتٍ فِيهَا
 لَا يَبْلُغُ السَّمَاءُ الْمَحْصُورَ غَايَتَهَا لِبُعْدٍ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
 وَلَيْسَ إِلَى هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ يَنْتَهَى الْحَسَنُ فِي أَوْصَافِ الْبَحْتَرَى بَلْ إِنْ إِجَادَتَهُ فِي هَذَا
 الْبَابِ لَا يَشْبَعُ مِنْهَا إِلَّا مَرَاجَعَةُ دِيَوَانِهِ ، فَهُوَ الْكَفِيلُ بِذَلِكَ .

- (١) دجلة : النهر الذي تقع عليه بغداد وتستمد منه هذه البركة .
 (٢) كَلَاهُ (كَنَع) : صَاحَهُ وَرَمَاهُ . وَالْمُرَادُ بِكَالِيٍّ الْإِسْلَامِ الْخَلِيفَةُ الْمُتَوَكِّلُ الْمَدُوحُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ .
 (٣) بَلْقَيْسُ : مَلِكَةٌ سَبَأٌ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ . الصَّرْحُ : هُوَ فِي الْأَصْلِ الْبِنَاءُ الْعَالِيُّ وَالْمُرَادُ هُنَا الْقَصْرُ الَّذِي
 بَنَاهُ سَيِّدُنَا سَلِيمَانُ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِبَلْقَيْسَ وَكَانَ مَكْسُورًا بِالزَّجَاجِ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
 عَنْ سَاقِيهَا فَقَالَ لَهَا إِنَّهُ صَرَحَ مَرَدًّا مِنْ قَوَارِيرَ .
 (٤) الصَّبَا : الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ . الْحَبْكُ : جَمْعُ حَبَاكَ (كَسَكْتَاب) وَهُوَ التَّجَعُّدُ يَكُونُ فِي الرَّمْلِ أَوْ الشَّعْرِ
 أَوِ الْمَاءِ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ . الْجَوَاشِينُ : جَمْعُ جَوْشَنَ وَهُوَ الدَّرْعُ . الْحَوَاشِي : جَمْعُ حَاشِيَةٍ
 وَهِيَ طَرَفُ الثَّوبِ .
 (٥) حَاجِبُ الشَّمْسِ : ضَوْؤُهَا . رَيْقُ الْغَيْثِ : أَوَّلُهُ ، يَقُولُ : مَرَّةً تَعَكَّسَ أَشْعَةُ الشَّمْسِ انْسَاقَطَتْ عَلَيْهَا
 فَكَأَنَّمَا هِيَ يَضَاحُكُنْ تَبْدُو أَسْنَانُهَا الْبَيْضَاءُ . وَمَرَّةً يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَيَجْتَمِعُ مَآؤُهَا كَأَنَّمَا
 يَبْكِيَانِ مَعًا . وَيُصَحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّحْكُ وَالْبُكَاءُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ ، وَلَا يَكُونُ الْفَعْلَانِ « يَضَاحُكُ »
 وَ « يَبَاكِي » دَالِينَ عَلَى الْمَفَاعَلَةِ .



وليس إجمالنا للقول في بقية الأغراض بدليل على عدم فوقه فيها ، بل إننا نكتفى ببعض محاسن الرجل للدلالة على شاعريته المتفردة ، ولا يفوتنا أن نذكر تقصيره في الهجاء ، وسوء معانيه ، وقبح ألفاظه فيه ، ولعل هذا هو السبب في تقدمه إلى ابنه أبي الغوث في آخر أيام حياته أن يحرق شعره في الهجاء قائلاً له : « يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي ، وكأفأت به قبيحاً فعل بي ، وقد انتفضي أربي من ذلك ، وإن بقي روى ، وللناس أعتاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك ومعاشك ، ولا فائدة لك ولا لي فيه » ، وهذا قول ابنه أبي الغوث ، ولعله اعتذار منه عن تقصير أبيه في هذا الباب ، وإلا فقد بقي من هجاء البحتري كثير في ديوانه وكله ليس من شأكله كلام البحتري في لفظه ومعناه ، بل الإسفاف فيه كثير ، واللفظ الفاحش شائع ، ومن ذلك قوله يهجو على بن يحيى :

وأكثرُ غُشيانَ المقابرِ زائرًا علىَّ بنَ يحيى جارَ تلكَ المقابرِ
فإلاَّ يَكُنْ مَيِّتَ الحُشاشَةِ في الذي يُرى فَهُوَ مَيِّتُ الجُودِ مَيِّتُ المآثرِ
ولا فَضْلَ عِنْدَ الأَرَمَنِ يَعْذُهُ سوى أَنَّهُ تَوَرَّ سَمِينُ لُجَازِرِ
سَرَقَتْ سِهَامَ المسلمين ولم تَكُنْ لهم يومَ زَحْفِ المشركين بِجَاضِرِ

آثار البحتري وما قيل فيه

للبحتري ديوانه المشهور الذي جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم كما رتبه على بن حمزة الأصبهاني على الأنواع ، ويظهر أن الطبعة التي بأيدينا (طبعة الجوائب بالأسطوانة سنة ١٣٠٠ هـ) ليست جمع الصولي ولا الأصبهاني ؛ لأنها غير مرتبة على ترتيبهما ، ولا على ترتيب الزمن ولا جمع فيها كل ما قيل في شخص على حدة ، بل شعر البحتري فيها مهوش أيما تهو يش تصعب مراجعته جدًّا .

وقد شرحه محمد بن إسحاق الزوزنى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وقد ذكر ياقوت الحموى أنه شرح ملىء علماً وحشياً فهما (وهذا الشرح لم نره بين ثبوت دار الكتب الملكية ولا يعرف بإحدى المكاتب العامة) . ولأبى العلاء المعرى كتاب « عبث الوليد » ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية ، وليس شرحاً مستوفياً لجميع شعره ، بل إنه قد يذكر من القصيدة بيتاً أو بيتين ويعلق عليهما بتصويب أو تخطئة ، فهو أشبه بالنقد منه بالشرح .

وللبحتري غير الديوان ، حماسة كحماسة أبى تمام ولكنه أكثر فيها من الأبواب إذ جعلها أربعة وسبعين ومائة باب ، ولكنها أبواب جزئية كأن يقول « ما قيل فى حمل النفس على المكروه » و « ما قيل فى الفتك » و « ما قيل فى مجاملة الأعداء » وهكذا . أما حماسة أبى تمام فأبوابها عامة كما علمت . وقد طبعت حماسة البحتري فى مصر والشام .

وذكروا أن له كتاباً يسمى « معانى الشعر » وهو غير موجود ولا موصوف ما يحتويه . وكان البحتري أحد الشعراء الذين رزقوا السعادة فى شعرهم فقد ألقت الكتب فى نقده وأهمها كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحتري » للحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧١ هـ رجح فيه كفة البحتري ، وحمل على أبى تمام كثيراً .

سرقات البحتري

وقد عقد الآمدي باباً لسرقات البحتري من الشعراء عامة ومن أبى تمام خاصة وبلغت عدتها من أبى تمام ثلاثاً وستين ولكنك تعلم أن السرقة ليست عيباً إلا إذا أغار الشاعر على المعنى واللفظ فلم يكن له فى المعنى إضافة ولا عن اللفظ غنى ، وقد يكون أخذ المعنى أولى به من صاحبه إذا زاد فيه ومنحه من اللفظ ما جعل له جمالاً جديداً . وقد نظرت فوجدت أن أكثر سرقات البحتري جعلته أولى بالمعنى من صاحبه أفلا ترى البحتري أولى من الفرزدق فى قوله :

- ٥٠٩ -

أعطيتني حتى حسبتُ جزيلاً ما أعطيتنيه وديعة لم توهب
أخذه من قول الفرزدق :

أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ حَتَّى قُلْتُ يُودِعُنِي أَوْ قُلْتُ أُعْطِيتُ مَا لَأَقْدَرَاهُ لَنَا
كذلك هو أولى من أبي صخر الهذلي في قوله :

وَادِعٌ يَلْعَبُ بِالْذَّهْرِ إِذَا جَدَّ فِي أَكْرُومَةٍ قُلْتُ هَزَلٌ
أخذه من قول الهذلي .

أَغَرُّ أَسِيدِي تَرَاهُ كَأَنَّهُ إِذَا جَدَّ يُعْطَى مَالُهُ وَهُوَ لَاعِبٌ
وكذلك قوله :

وَكَأَنَّ فِي جِسْمِي الذِّي فِي نَاطِرِكَ مِنَ السَّقَمِ
هو من قول المنصور بن فرج :

حَلَّ فِي جِسْمِي مَا كَانَ بَعِينِيكَ مُتَقِيَا
ومن سرقاته من أبي تمام قوله :

وَإِذَا اجْتَدَاهُ الْمُجْتَدُونَ فَإِنَّهُ يَهَبُ الْعَلَا فِي سَيْبِهِ الْمَوْهوبُ
وهو من قول أبي تمام :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفَرَاوْهِي إِنْ شُهِرَتْ
وبيته خير من بيت أبي تمام ، وقوله :

وَلَنْ تَسْتَبِينَ الذَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
من قول أبي تمام :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ
وفضل أبي تمام في سبته في المعنى ، واختراعه له ، ولكن بيت البحتري حصن رصين

لَمْ يَكُنْ لِأَبِي تَمَامٍ فَضْلُ السَّبْقِ . وقوله :

وَلَوْ أَنَّ مَشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ النَّبْرُ

من قول أبي تمام :

تَكَادُ مَعَانِيهِ تَهْشُّ عِرَاصُهَا فَتَرَّ كَبُّ مِنْ شَوْقِي إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ
وحسن بيت البحتري ظاهر ظهور التكلف في استعارة الهشاشة والركوب للعراص .
في قول أبي تمام .

وهذا باب واسع لنقف منه عند هذا الحد .

النقد والموازنة

تناولنا هذا الموضوع في كلامنا عن العصر الأموي ، وذكرنا أن الشعر كان موضوع الحديث عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، فعقدوا له الأسواق في الجاهلية والجالس في الإسلام ، وكان الخلفاء لا يقربون إلا إذا قدم في الأدب وبصر به .
ولكن العصر الأموي قد انتهى ، ولم يكن البحث في الأدب ، ونقد الشعر إلا حديث مائدة ، وسمر مجلس يتناولون الشعر من أطرافه ، فيستحسنون ، أو يعييرون البيت مفردا ، ويتناولون معناه مستقلا ، وإذا عابوا اللفظ فأكثر ما يكون عيبهم له من ناحية وضعه النحوي ، وإذا وازنوا بين شاعرين أدخلوا في الموازنة ما ليس منها كقول الصلتان العبدى في الموازنة بين جرير والفرزدق :

أَرَى الْخَطَفَى بَرَّ الْفَرَزْدَقَ شِعْرُهُ وَلَكِنَّ خَيْرًا مِنْ كُلِّبٍ مُجَاشِعُ

فأنت تراهم قد جعلوا لشرف النسب ، وفضل القبيلة وجهاً في التفضيل ، وذلك لا دخل له في الحكم على الكلام جودة أو رداءة .

وقد عاب ابن الأثير على أبي عمرو بن العلاء حين سئل عن الأخطل ، فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . قال فهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار ، وفيه ما فيه !! ، وقال أيضاً : سئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال

الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، قليل : فمن ذاك ؟ قال الأعشى . قيل : ثم من ؟ قال طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .
فهذه المرويات دليل على أن النقد على أيام الأمويين لم يكن ناضجاً ، ولا صحيح المبني ، ولا عادلاً في الحكم في جميع أحواله .

أما في العصر العباسي : فقد استمرّ النقد حديث الموائد وسمر المجالس ، وقد أغرم العباسيون به كغرام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عرب يحنون إلى العربية ، ويرونها شرفهم الذى يفاخرون به ، ثم هم من ناحية أخرى قصدوا باحياء الآداب خدمة الدين ، فكانت عنايتهم أتم ، واحتفالهم أعظم .

وعلى نسبة اتساع الحضارة اتسع موضوع النقد فشمّل أموراً أدق مما تعرض له السابقون لأن حصافة العباسيين جعلت تقدمهم أبعد غوراً ، وأوسع مدخلاً ، وأعدل حكماً لم يدخلوا فيه العصبية ، ولا حكموا غير الاجادة ، فإذا كان الأمويون لم ينتقدوا المعنى إلا إذا كان محالاً لا يستقيم في الفهم ، فإن العباسيين انتقدوه حين رأوه مقصراً عن الغاية غير واف بما يقتضيه مقام المبالغة ، أو تناسب المعانى ، فانظر إلى قول أبي تمام في أحمد بن المعتصم :

إقدامُ عمرو في سماحة حاتمٍ في حلمٍ أحنفٍ في ذكاءٍ إياسٍ

كيف انتقده بعض حاضري مجلس الأمير بقوله : الأمير فوق من ذكرت .
وقد كان في التشبيه بالبدري الجمال وبالأسد في الشجاعة وبحاتم في الجود مقنع بأن قبل تتطلب المدنية معانى أرق وأمثلة أعلى .

وانظر إلى قول المتنبي :

وَقَفَّتْ وما في الموت شَكٌّ لواقفٍ كأنَّكَ في جَفَنِ الرَّدَى وهو نائمٌ

نَمَّرُ بك الأبطالُ كَلَمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وضَّاحٌ وَتَغْرُكُ باسمٌ

ثم انظر إلى سيف الدولة كيف يتنبه إلى أن تناسب المعاني يستلزم عكس الترتيب يجعل الشطر الثاني من البيت الأول في موضع نظيره من البيت الثاني مبرهنًا على ذلك بأنه إذا وقف والموت لاشك فيه فكان وضاح الجبين باسم الثغر دل بذلك على تناهي شجاعته إذ يضحك في مقام البكاء ويشرق جبينه على حين يشتد العبوس وتكفور الوجوه ، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان المدوح مصونًا كأنه في جفن أطبقه النوم كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .

ومما يروى في الاستدلال على إبعاد العصبية في الحكم أن البحتری سأل ابنه أبا الغوث عن الفرزدق وجريير أيهما أشعر ؟ فقال جريير : قال ، وبهم ذلك ، قال لأن حوكه شبيه بحوكك قال نكلك أمك وهل في الحكم عصبية ! !



وكان لا تساع الحضارة ، وضعف الملكات أثر في اتساع مجال النقد ، فكثير تعرض الشعراء للوقوع في الخطأ النحوي واللغوي ، وكذلك اضطربت أوزان الشعر العربي في أذهانهم ، فكثير منهم الخروج عليها ، فصار الناقد يتناول منهم بالنقد مالم يكن يتوقع حدوثه من الجاهلي أو الأموي .

ومن الناحية اللفظية لم نجد في القديم من عاب الشعر بفرابة اللفظ لأن الغريب كان في زمانهم مألوفاً ، فأما في العصر العباسي ، فقد أصبح من العيب أن يقول الشاعر مثل كلام امرئ القيس وطبقته بل الفرزدق والأخطل ، ومن على شاكتهما .

ولم يكن نظام القصيدة في القديم مجالا لنقد النقاد ، فإنهم كانوا راضين عما تواضع عليه الجاهليون من البدء بمخاطبة الرسوم . ووصف غفائها ، ثم وصف الناقاة والتشبيب بالحبوبة ، ولم نر منهم من ترك هذا النظام ، أو خرج عليه ناقضا له زاريا عليه ، أما في العصر العباسي عصر المدنية حين دخل في العرب عناصر جديدة لا يرون للعرب كبير

فضل ، ولا يعدون احتذاء طريقته منقبة يحرصون عليها ، بل يعدون من العار أن يخرج بهم التقليد إلى الكذب بوصف النوق وهم لم يركبوها ، ولا عالجوا أمورها ، وذكر عفاء الرسوم ، ولا رسوم عندهم . ولكن عندهم دور إذا خلت ممن يحبون عمرت بمن لا يحبون . فهذا وأشباهه هو الذي جعل أبا نواس يخرج على نظام القصيدة الذي كان حرماً لا يعتدى عليه ، وقد عرفت ما كان من أبي نواس في هذا المقام .

وقد اتجهت أنظارهم إلى ربط أجزاء القصيدة ، والخروج من بعض إلى بعض بمناسبات لطيفة ، واعتبارات دقيقة ، لما رأوا في طرفة التنقل بين الأغراض من مفاجأة لا يحسن وقعها في النفس ، فأكثروا من التلطف في ذلك ، وكانت لهم فيه آيات من الإبداع رأيت كثيراً من أمثلتها في موضوع (محاسن الشعراء المحدثين) ، وكان السابقون من جاهليين وأمويين لا يعنون بهذا الربط لمكانهم من السذاجة ، وعدم الإحكام ، ولم يكن من نقادهم من يتجه إلى هذا ، لأن طبع الناقد ، والقائل واحد .

ولما كان من المدنية مادة للخيال ومن علومها ثروة في المعاني جرى على أيدي المحدثين تجديد في كل ذلك فأتوا بما لم يسبقوا إليه . وتناولوا ما لم يخطر للسابقين على بال كما كان لهم في معاني المتقدمين تنويع وإضافات جعلتهم في كثير من الأحيان يستبدون بحسنها ويستولون على الفضل فيها . وكان موضوع المعاني المختصرة والمعاني القديمة أوسع موضوعات النقد ، وجرت المفاضلات بين الشعراء في هذا الباب ، فمن أتى بما لم يسبق إليه أشادوا بهذه الفضيلة فيه ، وكذلك من تناول المعاني القديمة فأضاف إليها وتمم نقصها ذكره بحميل فعله ، ومن كان وافي الذهن قصير الباع فأغار إغارة اللصوص ، وسرق معاني الشعراء بلا لطف ولا حيلة عابوه وهتفوا به . ولقد بلغ من عنايتهم ببحث هذه السرقات أن جعلوها موضوعاً متعدد المسائل في كتبهم التي ألفوها في النقد .

وهذا ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » جعل السرقة الشعرية أقساماً

منها : النسخ ، والمسح ، والسلخ . وجعل لكل فروغاً وضروباً نذكر لك بعضها على سبيل المثال . قال :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعاً أو أخذ المعنى مع أكثر اللفظ فهو ضربان الأول ، يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس :

وُقُوفًا بِهَا صَحِيٍّ عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلُ

وقول طرفة :

وُقُوفًا بِهَا صَحِيٍّ عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلُ

ومن الضرب الثاني قول بعض المتقدمين يمدح معبدا المعنى :

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالشَّرِيحِيُّ بَعْدَهُ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ

فأخذه أبو تمام وقال :

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمَغْنِينِ جَمَّةٌ « « « « «

ثم قسم السلخ اثني عشر قسماً جعل منها أخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وجعل منه قول عروة بن الورد :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أَوْ يَنَالَ رَغِيْبَةً وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ

أخذه أبو تمام فقال :

فَقَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

قال فعروة بن الورد جعل اجتهداه في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاس . وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية اجتهد المجتهد في لقاء الأعداء قائماً مقام النصر وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ يختلف .

هذا مثل من أمثلة توسع العباسيين في النقد . ولا نطق أن أحداً يعارض في قولنا : إن بعض علوم العربية لم يكن وضعه في أيام العباسيين إلا نتيجة لتسام ملكة النقد عندهم . فهذا علم العروض لم يدع الخليل إلى وضعه إلا ما رآه من خطأ في أوزان الشعر ندع عن

حرص الشعراء لضعف ملكاتهم ، أو تعمدوه تعمدًا خارجين به على منهاج العربية في أوزان شعرها الموروثة عن القدماء ، وكذلك علم البيان عرفت من تاريخ وضعه أنه كان نتيجة لمناقشة في معنى قوله تعالى «طلعها كأنه رءوس الشياطين» ، وهذه الأنواع البديعية التي أربت على المائة ألم تكن كلها في كلام القدماء والقرآن الكريم فظلت مستورة حتى كشفها البحث وترديد النظر في الكلام .

وما زال النقد ينمو حتى صار علما فصلت مسأله ونوعت طرائقه ووضعت له المصطلحات وألفت فيه الكتب ، ونحن ذاكرون لك كيف تدرج التأليف في هذا العلم فنقول :

أول من ألف في النقد محمد بن سلام الجحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، أخرج كتابه المسمى « طبقات الشعراء » قال في مقدمته : وللشعراء صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم . والصناعات منها ما تتقنه العين . ومنها ما تتقنه الأذن ، ومنها ما تتقنه اليد ، ومنها ما يتقنه اللسان . ثم جعل الشعراء قسمين جاهليين وإسلاميين ، وجعل كلا عشر طبقات واختار من كل طبقة أربعة من فحولها فجعل من الطبقة الأولى من الجاهليين : امرأ القيس ، والنابعة ، وزهيراً ، والأعشى ، وجعل من الطبقة الأولى من الإسلاميين : جريراً ، والفرزدق ، والراعي ، والأخطل . وتراه في كتابه يعتمد في أحكامه على آراء السابقين ، فيستحسن ما استحسنوا ، ويعيب ما عابوا ؛ ثم ارتقى النقد فلم يعد المؤلف يعتمد فيما يرى على أقوال القدماء بل يحص بنفسه ، ويستحسن ما يراه حسناً ، ويستنقب ما يراه قبيحاً ، لا يعرف فضلاً للمتقدم على متأخر إلا بالإجادة وحدها ، وذلك ما فعله ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « الشعر والشعراء » قال في مقدمته : لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد واستحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره .

كذلك ألف ابن قتيبة هذا ، كتاب « أدب الكاتب » فألقى في مقدمته على الكتاب باللوم وأبان عن جهلهم الفاضح ثم نصح لهم بأمور تحسن بهم ، فما قال : ويستحسن له (أى الكاتب) أن يزن ألفاظه في كتبه ، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضعيف الكلام ، فإن رأى الكاتب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخطوا فيه ، فليس يفرقون بين من يكتب إليه « فرأيتك في هذا » وبين من يكتب إليه « فإن رأيتك كذا » . و « رأيتك » إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين ، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت ، ولا يفرقون بين من يكتب إليه « أنا فعلت ذلك » ومن يكتب إليه « ونحن فعلنا ذلك » و « نحن » لا يكتب بها عن نفسه إلا أمراءنا لأنها كلام الملوك والعظماء . قال الله عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . وَإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب ، فقال تعالى حكاية عمن حضره الموت : « رَبِّ ارْجِعُونِ . . . » .

ولم يكن التأليف إلى هذا الحين تقدماً صريحاً بالمعنى الذى صار إليه فيما بعد حتى جاء قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ فألف كتابه « نقد الشعر » فبين فيه حدود الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى ولكن كتابه كان مختصراً شأن كل علم في مبدئه ، وعلى هذا المثال كتابه نقد النثر ، وكتاباه مطبوعان في مصر .

ثم جاء حسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ فألف كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وقد دل في كتابه على أن ملكة النقد كانت قد تمت عند أهل عصره فإنه حين تناول الشاعرين لم يترك شيئاً مما يقال في شعرها إلا أفاض فيه بأجلى بيان فقد بدأ بذكر آراء الناس في الشاعرين بأسلوب جدل ونقاش بين متعصب لأبى تمام ومتعصب للبحترى ثم قال بعد ذلك « وأنا أبتدىء بذكر مساوئ هذين

الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما فأذكر طرفاً من سرقات أبي تمام ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوئ البحترى فيما أخذه من معاني أبي تمام وغير ذلك من غلط في بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى؛ فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتنكشف . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد باباً لما وقع في شعريهما من التشبيه ، وباباً للأمثال أختم بهما الرسالة »

فأنت ترى من هذا الفهرس الذي ذكره لكتابه أن النقد في عصره قد اتسع موضوعه ، وشمل كل ما ينبغي أن يقال في الشاعر المنتقد . وقد أبلى الأمدى أحسن بلاء في حديثه عن الشاعرين حتى ليخيل إليك أنه لم يترك لأحدهما بيتاً من ديوانه إلا درسه وحلله وعرضه على محك نقده وأنصفه فيه فعابه حين استحق العيب ، وقرظه حين كان جديراً بالتقريض .

ولنضرب لك مثلاً من نقده لهما فقد عد من خطأ أبي تمام المعنوى قوله في على ابن الجهم وقد ودعه :

وَإِذَا فَقَدْتَ أَخَا فَلَمْ تَفْقِدْ لَهُ دَمْعًا وَلَا صَبْرًا نَلَسْتَ بِفَاقِدِ

قال : وقوله « فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً » من أخش الخطأ لأن الصابر لا يكون باكياً والباكى لا يكون صابراً ، فقد نسق بلفظة على لفظة وهما نمتان متضاربان ولا يجوز أن يكونا مجتمعين ، ومعناه أنك إذا فقدت أخاً فأدام البكاء عليك فلست بفاقد ودّه ولا أخوته وهو محصل لك غير مفقود وإن كان غائباً عنك ، وإلى هذا ذهب إلا أنه أفسده بذكر الصبر مع البكاء وذلك خطأ ظاهر ، ولو كان قال فلم تفقد له دمعاً ولا جزعاً أو دمعاً ولا شوقاً ولا قلقاً لكان المعنى مستقيماً . وظننته قال غير هذا ، وأن غلطاً وقع في كتابة البيت عند النقل حتى رجعت إلى أصل أبي سعيد السكري وغيره من الأصول القديمة فلم أجده إلا دمعاً ولا صبراً وذلك غفلة منه عجبية . وقد لاح لي معنى أظنه - والله

أعلم - إليه قصد وهو أن يكون أراد إذا فقدت أختاً ولم تفقد له دمعاً أى يواصل البكاء عليك فلست بفاقده على ما ذكرته أى فقد حصل لك وصار ذخراً من ذخرك وإن غاب عنك وغبت عنه ، وإن لم تفقد له صبراً أى وإن صبر عنك فلست أيضاً بفاقده لأنك لا تعتد به موجوداً ولا مفقوداً . ولكن ذهب على أبى تمام أن هذا غير جائز لأنه وصف رجلاً واحداً بالوصفين جميعاً وهما متضادان ، ولو كان جعلهما وصفين لرجلين فقال :

وإذا فقدت أختاً لفقدك باكياً أو صابراً جليداً فلست بفاقدة

أى فلست بفاقدة هذا لأنه محصل لك ولست بفاقدة هذا لأنه غير ناس مودتك ، لكان المعنى سائعاً حسناً واضحاً ، ولو جعله شخصاً واحداً وجعل له أحد الوصفين فقال :

وإذا فقدت أختاً فأسبل دمعهُ أو ظلَّ مضطرباً فلست بفاقدة

لكان أيضاً سائعاً على هذا المذهب أو كان استوى له فى ذلك اللفظ بعينه أن يقول: فلم تفقد له دمعاً أو صبراً حتى لا يجعل له إلا أحدهما لساغ ذلك لكنه نسق بالصبر على الدمع فجعلهما له ففسد المعنى

وعد من الخطأ المعنوى للبحترى قوله :

هَجَرْتَنِي يَقْظَى وَكَادَتْ عَلَى عَا دَاتِيَا فِي الضُّدُودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

وهذا عندى غلط لأن خيالها يمثّل له فى كل أحوالها يقظى كانت أو وسنى وإنما أخذ معنى بيته من قول قيس بن الخطيم :

مَا تَمْنَعِي يَقْظَى فَقَدْ تَوْتَيْنِي فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرِّدٍ مَحْسُوبِ

وما أظنّ أحداً سبق قيساً إلى هذا المعنى فى وصف الخيال وهو حسن جداً ، ولكن فيه أيضاً مقال لمعترض ، وذلك هو الذى أوقع البحتري فى الغلط لأن قيساً قال : ما تمنعنى فى اليقظة فقد توتيتنى فى النوم : أى ما تمنعني فى يقظتى ، فقد توتيتني فى حال نومي حتى يكون النوم واليقظة معاً منسوبين إليه إلا أنه يتسع من التأويل لقيس.

ما لا يتسع للبحترى ، لأن قيساً قال فقد تؤتينه في النوم ، نقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنى يقضى وأنا يقظان فقد تؤتينه في نومي ، ولا يسوغ مثل هذا في بيت البحترى لأن البحترى قال : وسنى ولم يقل في الوسن .

ومن قبيل كتاب الأمدى ما فعله عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ألفه ردّاً على صاحب بن عباد الذي ألف كتاباً في مساوى المتنبي ، وتحامل فيه عليه ضغينة لعدم مدح المتنبي له مع عرضه عليه أن يشاطره في ماله إذا فعل ، ولكن المتنبي بلغ من كبره ألا يمدح إلا الملوك

وقد صدر الجرجاني كتابه بمقدمة طويلة أبان فيها أن المتقدّمين من جاهليين وإسلاميين ليس لهم عصمة من الخطأ ، ولا سلامة من العيب كما يعتقد ذلك بعض الذين يرون أن الفضل بتقدّم الزمان ، ثم عدّ كثيراً من أغلاط الجاهليين النحوية والمعنوية . وانتهى إلى أن الشعر « علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والروية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو الحسن المبرز ، ويقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ... » وقد انتصف المتنبي من عائبيه في قوله :

بَلَيْتُ بَلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَوُقُوفَ شَجِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ
قال : قالوا أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره ، وكمنى هذا الشحيح بالغاً ما بلغ من الشح . وواقعاً حيث وقع من البخل أن يقف على طلب خاتمه ، والخاتم أيضاً ليس مما يخفى في التراب إذا طلب ، ولا يعسر وجوده إذا قنص ، وقد ذهب المحتجون عنه في الاعتذار له مذاهب لا أرضى أكثرها ، وأقرب ما يقال في الإنصاف ما أقوله إن شاء الله تعالى . أقول : إن التشبيه والتشليل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال والطريقة ، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه : إني أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد

لأقنن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، وخارجاً عن حد الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة في إخراجه ، وإنما هو كقول الشاعر :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شِقْ طَوَّلاً قَطَعَتْهُ فِي أَنْتِحَابِ

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى إلا عن أنفاس لا تحصى كائنة ما كانت في امتدادها وطولها ، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي كزيادة نفس العاشق على الأنفاس ، فهذا وجه لا أرى به بأساً في تصحيح المعنى ، وإن كنت أرى ألا يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية ما لم يأخذ نفسه بها ، ويتكلف التعامل لها ، فيؤخذ حينئذ بحكمه ، ويطالب بما جنى على نفسه .

ثم جاء الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، فأخرج فيما أخرج من كتبه النافعة الجليلة كتاب : « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ، وأتى فيه بأخبار شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقسم الكلام فيه إلى أبواب باعتبار الأقاليم ، فجعل باباً لشعراء الشام تناول فيه فيما تناول المتنبي ، وأباً فراس ، وما كان من أحوال سيف الدولة ، واهتمامه بالأدب ، وعمله على رفع شأنه بعمثائه الكثير ، وباباً آخر لشعراء مصر والمغرب ، وثالثاً لشعراء الموصل وهكذا ، وكل الكتاب بيان لتاريخ هؤلاء الشعراء ، أو الكتاب واختيار لمحاسن كلامهم ، وتعليق عليها بالعييب ، أو التقرير ولكنه لم يحتفل بأحد هؤلاء احتفاله بالمتنبي ، فقد استغرق فيه قدراً كبيراً من أوراق الجزء الأول وهو أضخم أجزاء الكتاب الأربعة .

وهو بوجه عام إذا تناول شاعراً أو كاتباً ذكر نشأته وأثرها في نبوغه وتبع حياته بتفصيل شاف وتناول قوله فيذكر من الشاعر ابتداء آتة وتخلصاته وسرقاته ، وتهكم بمعانيه ، وأقر بفضل محاسنه مما يجعل تعريف أهل هذا العصر بشاعر أو كاتب كاملاً شافياً للنفس .

وهذا فهرس ترجمة المتنبي في كتابه « يتيمة الدهر » وهو يدل على مقدار تعمقه
البحث قال :

« الباب الخامس في ذكر أبي الطيب المتنبي - ذكر ابتداء أمره - نبذ من
أخباره - أنموذج لسرقات الشعراء منه - صدر من سرقاته - بعض ما تكرر في شعره
من معانيه - ما ينسب على أبي الطيب من معاييب شعره ومقايجه - ومنها المطالع - ومنها إبعاد
الاستعارة والخروج بها عن حدها - ومنها تكرير اللفظ في البيت الواحد - ومنها
الإيضاح عن ضعف العقيدة - ومنها الغلط بوضع الكلام في غير موضعه - ومنها
امتنال ألفاظ المتصوفة والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة - ومنها
استكراه التخلص وقبح المقاطع ... ومثل ذلك وأكثر منه تفصيلاً ذكره في
أنواع محاسنه » .

ومن نماذج نقده له قوله : فمنها قبح المطالع ، وحقه الحسن والعدوبة لفظاً والبراعة
والجودة معنى لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا كانت حاله على الضد بحج
السمع ، وزجه القلب ، ونبت عنه النفس ، وجرى أمره على ما تقول العوام « أول الدنّ
دُرْدِيٌّ ^(١) » ولأبي الطيب ابتداء آت ليست لعمرى من أحرار الكلام وغرره بل هي
كما نعاها عليه العائبون مستشعنة مستبشعة لا يرفع السمع لها حجابها ، ولا يفتح القلب
بابه . كقوله :

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجَّتْ رَسِيْسًا ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَمَا شَفِيتِ نَسِيْسًا

فإنه لم يرض بحذف علامة النداء في هذى وهو غير جائز عند النحويين حتى
ذكر الرسيس والنسيس فأخذ بطرفي الثقل والبرد وكقوله (أوه بديل من قولتي واه)
وهو برقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك ، وكقوله وهو ما تكلف له
اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفي شرفه وغرابته بالتعب في استخراجها
ولا تقوم فائدة الانتفاع به إزاء التأذى باستماعه وهو :

(١) الدن : راقود الحُر . الدردى : ما يبقى في أسفل الإناء من يكر السائل .

وَفَاؤُكَ كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بَأْنُ تُسْعِدَا وَالذَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاحِمُهُ^(١)

وكقوله في افتتاح قصيدة في مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
وفي الابتداء بذكر الداء ، والمنايا ما فيه من الطيرة التي تنفر منها السوقة فضلا عن
الملوك . . . ، ومن قصائده التي تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب
ما يدرك بالارتباطيقى ، وبالأعداد الموضوعية الموسيقى :

أَحَادُ أُمِّ سُدَّاسٍ فِي أَحَادٍ لِيُمِيلَتْنَا الْمُمُوطَةُ بِالتَّنَادِي^(٢)

وهذا كلام الحُكْل^(٣) ، وورطانة الرُّطْط^(٤) ، وما ظنك بمدوح قد تشرع للسمع من
ما دحه فصكّ سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ، والمعاني المنبوذة ، فأى هزة تبقى هناك ، وأى
أريحية تثبت هنا ؟ وقد خطأه في اللفظ ، والمعنى كثير من أهل اللغة ، وأصحاب المعاني
حتى احتيج في الاعتذار له ، والنصح عنه إلى كلام لا يستأهله هذا البيت ، ولا يتسع
له هذا الباب .

وقد اتبع أبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ في النقد أسلوبا طريفاً لم يسبقه
إليه غيره إذ بنى نقده على خيال بارع ، وهو أن الشعراء والنحاة وغيرهم دخلوا الجنة

(١) وفاؤك : مبتدأ خبره كالربيع . وأشجاء : تفضيل من شجاء الأمر بمعنى أحزنه ، وطاسمه : دارسه
وساحمه : ساكبه . وجملة أشجاء طاسمه حال من الربيع ، وبأن تسعد متعلق بوفاء . وهذا من
الضرورات الفبيحة لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه . والمعنى : يقول لصاحبيه اللذين وعداه
بالمساعدة بالبكاء : إن وفاءك بالمساعدة كهذا الربيع فإن الربيع كلما زاد دروسه كان أدى إلى
الحزن وكذلك الوفاء كلما ضعف وقلت المساعدة بالبكاء كان أدى إلى شدة الحزن .

(٢) أحاد : أى أحاد ، خذف الهمزة ضرورة . وأحاد صيغة تدل على توارد المعدود على العدد المصوغ
منه وهو مسموع عن العرب إلى الأربعة ، وقاسه المولدون إلى العشرة . الليلة : تصغير ليلة للتعظيم
التناد : يوم القيامة . يقول : هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة تجمع ليالى الدهر كلها ، وكل ليلة من
تلك الليالى هل هى ليلة واحدة أو ست ليالى فى كل ليلة فتكون الليلة سبع ليالى أى أسبوعا .

(٣) الحُكْل : مالا يسمع صوته من الدواب .

(٤) جيل من المهنود يقيم الآن بالبنيانج .

أو النار بأقوالهم وآرائهم ، ثم جعل يصف نعيمهم وعذابهم من أجل ذلك . فمن قوله في مخاطبة المسار بالجنة لزهير بن أبي سلمى : بم غفر لك وقد كنت في زمن الفترة والناس همل ، لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول (زهير) كانت نفسى من الباطل نفوراً فصادت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء فمن تعلق به من سكان الأرض سلم فعلمت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بنى وقلت لهم عند الموت : « إن قام قائم بدعوتكم إلى عبادة الله فأطيعوه » ، ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين ، وقلت في الميمية والسفه ضارب بالجران :

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتُمَ اللَّهُ يُعْلَمَ
يُؤَخَّرُ فَيُؤْخَرُ فِي كِتَابٍ فَيَدَّخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجِّلُ فَيُنْقِمَ

ويقول عن بشار وهو يعذب في جهنم (. . . .) ورجل في أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار) وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين لينظر بهما بعد الكمه ، إلى ما نزل به من النكال . فيقول له « يا أبا معاذ لقد أحسنت في مقالك وأسأت في معتقدك ولقد كنت في الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظناً أن التوبة ستلحقك مثل قولك :

إِرْجِعْ إِلَى سَكَنِ تَعِيشُ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدٌ
تَرْجُو غَدًا وَغَدٌ كَحَامِلَةٍ فِي الْحَيِّ لَا يَدْرُونَ مَا تَلِدُ

وقولك :

الْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُكْحَفِ مِثْلُ الرَّدِّ

فيقول بشار (يا هذا دعنى من أباطيلك فإنى مشغول عنك) اه

وابن رشيق صاحب العمدة وإن لم يكن من أدباء المشرق كان معاصراً للدولة العباسية فقد توفى سنة ٤٥٦ هـ ، ويعد كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) من خير كتب النقد لأنه تناول الشعر من جميع نواحيه فقسم الشعراء إلى طبقات

وذكر حد الشعر، وما ينبغي عليه وتكلم في اللفظ والمعنى والصنعة والطبع، وذكر الأوزان الشعرية والقوافي وما خرج به الناس على القديم في هذين، ثم بحث المطالع والمقاطع وأورد أمثلة مختارة من ابتداء الشعراء وغيرها مردولة سقطت بها أشعارهم، ثم تناول علوم البلاغة فتكلم فيها على قدر ما انتهى إليه البحث في أيامه، ثم بحث في المعاني القديمة والحديثة، ثم ذكر ما يترخص به الشاعر، وتناول السرقات الشعرية فأفاض فيها، وقد سمي أنواعها أسماء كثيرة سبقه إليها عبدالعزيز الجرجاني في كتابه «الوساطة» وقد نقل عنه ابن رشيق معتدا برأيه فقال: قال الجرجاني وهو أصح مذهبا، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر في هذا الشأن، ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبة ومنازله وتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإنعام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه. والمبتذل الذي ليس أحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه واجتبه السابِق فاقطعته، وقد أتى بأمثلة لتلك الأقسام تراها في الجزء الثاني من كتابه.

ولابن رشيق أيضاً كتاب يسمى «قراضة الذهب» وهو في الحقيقة توسعة لبعض أبواب كتابه «العمدة» ولعله هو الذي أشار إليه حين تكلم في المعاني القديمة والحديثة فقد اشتمل الكتاب على شيء من ذلك مع توسع آخر في موضوع السرقات الشعرية واقتباس الشعراء بعضهم من بعض.

وآخر من ظهر في العصر العباسي ممن كتبوا في النقد هو ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وقد صدره بمقدمة في علم البيان ومقالتين أولاهما في الصناعة اللفظية من سجع وجناس وغيرها وثانيتهما في الصناعة المعنوية وقد تكلم فيها عن التشبيه والاستمارة، وعطف على أنواع البديع المعنوية وتناول موضوع المعاني القديمة والحديثة والسرقات وذكر من أقسامها ما سبق أن أوردنا لك

بعضه في صدر هذا المقال وعقد موازنات بين الشعراء ويحسن أن نذكر لك منها موازنة

عقدها بين أبي تمام والمنيني في رثاء من مات صغيراً قال :

فما جاء من ذلك قول أبي تمام في رثاء ولدين صغيرين :

مجدُّ تَأَوَّبَ طَارِقًا حَتَّى إِذَا قُلْنَا أَقَامَ الدَّهْرَ أَصْبَحَ رَاحِلًا^(١)
نَجْمَانِ شَاءَ اللَّهُ أَلَا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفِلَا
إِنْ الْفَجِيعَةُ بِالرِّيَاضِ نَوَاضِرًا لِأَجَلٍ مِنْهَا بِالرِّيَاضِ ذَوَابِلَا
لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشُّوَاهِدِ فِيهِمَا لَوْ أُخِّرْتُ حَتَّى تَكُونَ شِمَائِلًا^(٢)
إِنْ الْهَلَالُ إِذَا رَأَيْتَ مُنْمُوهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا
قُلْ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ لَقِيتَ مُوقَّرًا مِنْهُ بَرِيبِ الْحَادِثَاتِ حُلَاكِيلًا^(٣)
إِنْ تُرْزَ فِي طَرْفِي نَهَارٍ وَاحِدٍ رُزْأَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلًا^(٤)
فَالثَّقُلُ لَيْسَ مُضَاعَفًا لِمَطِيَّةٍ إِلَّا إِذَا مَا كَانَ وَهْمًا بَازِلًا^(٥)
لَا غُرُورَ إِنْ فَنَنَّا مِنْ عَيْدَانَةٍ لَقِيَا حِمَامًا لِلْبَرِيَةِ آسِلًا^(٦)
إِنْ الْأَشْيَاءُ إِذَا أَصَابَ مُشَدَّبٌ مِنْهُ أُنْهَمَلٌ ذُرًّا وَأُثَّ أُسَافِلًا^(٧)
شَمَخْتُ خِلَالِكَ أَنْ يُوَاسِيكَ أَمْرٌ أَوْ أَنْ تُذَكَّرَ نَاسِيًا أَوْ غَافِلًا
إِلَّا مَوَاعِظُ قَادَهَا لَكَ سَمَحَةٌ إِسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِعًا أَوْ قَائِلًا
هَلْ تَكْلُفُ الْأَيْدَى بِهِزَّ مُهِنْدٍ إِلَّا إِذَا كَانَ الْحَسَامَ الْقَاصِلَا

(١) تَأَوَّبَ : أتى ليلا .

(٢) راوية الديوان « أمهلت » بدل أخرت .

(٣) الحلال : السيد الشجاع .

(٤) ترز : أصلها ترزأ بمعنى تصاب . فلما سهلت الهمزة جزم الفعل بحذفها . البلايل : الوسوس .

(٥) الوهم : الجمل الذلول الضخم القوى . البازل : الجمل أو الناقة في سنتهما التاسعة ، وذلك أشد

ما يكونا من القوة . والمعنى أنه لا يزداد الجمل إلا للجمل الذي يقوى عليه .

(٦) العيدانة : النخلة أطول ما تكون .

(٧) الأشياء : صغار النخل : أنمهل : ارتفع . أث : كثر .

وقال أبو الطيب في مريثة طفل صغير :

فإنَّ تَكَ في قبرٍ فإنَّكَ في الحشَا وإنَّ تَكَ طفلاً فالأسى ليس بالطفَل
وَمِثْلُكَ لَا يُبْكِي على قدر سنه وَلَكِنْ على قَدْرِ المَخِيلَةِ والأَصْلِ^(١)
أَلَسْتَ من القومِ الذينِ رَمَاهُمُ نَدَاهُمُ ومن قَتَلَاهُمُ مُهْجَةً البُخْلِ^(٢)
بمولودهم صَمْتُ اللسانِ كغيره وَلَكِنَّ في أعطافه مَنْطِقَ الفضلِ
تُسَلِّمُهُمْ علياؤُهُمُ عن مُصَابِيهِمْ وَيَسْغَلُهُمْ كَسْبُ الثناء عن الشُّغْلِ^(٣)
عَزَاءَكَ سَيْفُ الدولةِ المُقْتَدَى به فإنَّكَ نَصْلُ والشَّدائدُ للنَّصْلِ
تَحُورُ المنايا عَهْدَهُ في سَلِيلِهِ وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الفَوَارِسِ والرَّجْلِ^(٤)
بِنَفْسِي وَلَيْدٌ عاد من بعد حَمَلِهِ إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لَا تَطْرُقُ بالحَمَلِ
بدا وله وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرَّوَى وَصَدَّ وَفِينَا غَلَّةُ البَلَدِ البَحْلِ^(٥)
وقد مَدَّتِ الخَيْلُ العِتَاقُ عُيُونَهَا إلى وقتِ تَبْدِيلِ الرَّكَّابِ مِنَ النُّعْلِ^(٦)
ورِيعَ له جَيْشُ العَدُوِّ وما مشى وَجَاسَتْ له الحَرْبُ الصَّرُوسُ وما تَغْلِي
فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران في هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل

- (١) الخيلة : ما يتخيل في الشخص ، والمراد أن المرء إنما يبكي عليه على قدر ما يتخيل فيه من عظمة في مستقبله
(٢) الألى : الذين . أراد أنهم من القوم الذين أفنوا البخل بمجودهم فاستعار للبخل مهجة وجعل جودهم بمنزلة رماح تطعن بها مهجة البخل . والاستفهام للتقرير أى أنت من هؤلاء القوم .
(٣) المصاب (بالضم) : مصدر بمعنى الإصابة . والمعنى أن معاليهم توجب لهم التسلي والصبر على ما يصيبهم أفنة من الجزع الذى هو شأن النفوس الصغيرة . واهتمامهم بكسب الثناء يشغلهم عن الاشتغال بغيره
(٤) الفوارس : الركبان . الرجل : المشاة .
(٥) الروى (بكسر ففتح) : مصدر روى من الماء . الغلة : العطش . يقول : ظهر هذا الوليد ومخايل كرمه وأمدة الخير كما يعد السحاب بالرى ثم أعرض عنا بموته قبل أن يدر كرمه فبني فينا مثل عطش الأرس المجذبة إذا أخطأها رى السحاب .
(٦) مد العيون : كناية عن الترقب والرغبة . الركاب : ما توضع فيه الرجل من السرج . أى مات قبل أن يركب الخيل وكانت متشوقة لذلك .

واحد منهما في واد مع اتفاقهما في بعض معانيه ، وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من الفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه ، فإن أبا تمام قال : لهنى على ... وأما أبو الطيب . فإنه قال بمولودهم . . . فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام : نجان ، وقال أبو الطيب : بداوله . . . فوافقه فى المعنى ، وزاد عليه بقوله : وصدوفينا غلة البلد المحل ، لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده ، وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب : أشعر فيه من أبى تمام وذلك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام ، وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب . فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول فيما اتفقا فيه من المعنى ، فأما الذى اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب قال : عزاءك سيف الدولة . . . ، وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : إن ترزنى طرفى . . . ، فإن قول أبى الطيب : والشدائد للنصل أكرم لفظا ، ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل إنما يضاعف للبارز من المطايا ، وقوله أيضاً نخون المنايا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما : لا غرو إن فننان وكذلك قال أبو الطيب البيهقي : ألسنت من القوم . . . ، وهذا خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : شمخت خلاك . . . وهذه موازنة أخرى عقدها أيضاً بين البحترى وأبى الطيب فى وصفهما للأسد قال « . . . ولسكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أوردها من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه فما جاء للبحترى من قصيدته :

وما تَنْقِمُ الحُسَّادُ إِلَّا أَصَالَهَ لَدَيْكَ وَعَزَمًا أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبًا^(١)
وقد جَرَّوْا بِالْأَمْسِ مِنْكَ عَزِيمَةً فَضَلَّتْ بِهَا السَّيْفُ الحُسَامَ الْمُجَرَّبَا

(١) الأريحي : الواسع الحلق ، والمراد بالعزم الأريحي العزم المتناول لشيئ الأمور .

عَدَاةٌ لَقِيَتْ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُحْدِثُ
إِذْ شَاءَ غَادَى عَانَةً أَوْ عَدَا عَلَى
شَهِدَتْ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِي
فَلَمْ أَرْ ضِرْعَايَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا
هَزَبَرًا مَشَى يَبْغِي هَزَبَرًا وَأَغْلَبَا
أَدَلَّ بِشَغْبٍ نَمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّرَ نَحْوَكَ مُقْبِلًا
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَاعَزَمُكَ انْتَهَى

يُحَدِّدُ نَابًا لِلْقَاءِ وَمُحَلَّبًا^(١)
عَقَائِلَ سِرْبٍ أَوْ تَقْنَصَ رَبْرَبًا^(٢)
لَهُ مُصْلِتًا عَضْبًا مِنَ الْبَيْضِ مُقْضِبًا
عِرَاكًا إِذَا الْهَيَابَةُ النَّكْسُ كَذَّبًا^(٣)
مِنْ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْقَوْمِ أَغْلَبَا
رَأَى لَهَا أَمْضَى جَسَنًا وَأَشْغَبًا^(٤)
وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا
وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنْكَبًا
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حُدَّهُ نَبَاً

ومما جاء لأبي الطيب في قصيدته :

أَمْعَمَرُ اللَّيْثِ الْهَزَبَرِ بِسَوْطِهِ
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبًا
مُتَخَضِّبٌ بَدَمَ الْفَوَارِسِ لَا بَسْ

لَمَنْ أَدْحَرَتْ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا^(٥)
وَرَدَ الْفُرَاتِ زَيْبَرُهُ وَالنَّيْلَا^(٦)
فِي غِيْلِهِ عَنْ لِمَدَّتِيهِ غِيْلَا^(٧)

(١) حدد السكين : مسحها بحجر أو مسن لتصير قاطعة ، ولعل المراد من تحديد الليث لئانه أنه يحكه بأسنانه استعدادا للفتك به .

(٢) غادى : صادف في وقت الغدوة (أول النهار) . العانة : جماعة الجرار الوحشية . الررب : القطيع من بقر الوحش .

(٣) الهيابة : الجبان . النكس : الضعيف . كذب : جن يقال حمل فسا كذب أى فسا كمن ولا جن .

(٤) الشغب (بالفتح وقيل يحرك وقيل لا) : تحريك الشر والهياج . يقول إن الأسد أعجبه من نفسه ما يأتى به من شغب ولكنه عاد فهاهه مارأى منك .

(٥) عفره : مرغه في التراب . يقول إنك صرعت الأسد بسوطك وهو أشد الحيوان خلقه وأهوله بأسا . فلن خبأت السيف .

(٦) الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة . والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية .

(٧) الغيل : الغابة . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد شبه لبدته بالغابة لكثافتها فقال انه إذا كان فى الغابة التى هى شجر ملتف فهو فى غابة أخرى من لبدته .

ما قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنُّنَا تحت الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولًا^(١)
 فِي وَدَّةِ الرَّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
 يَطَّأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلِيلاً^(٢)
 وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلًا^(٣)
 قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولًا^(٤)
 أَلْقَى فَرِيستَهُ وَزَجَرَ دُونَهَا وَقَرُبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلًا^(٥)
 فَتَشَابَهَ الْقُرْبَانِ فِي إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ الْمَاءِ كُولًا^(٦)
 أَسَدٌ يَرَى عُضْوِيَّهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا مَتْنًا أَزَلَ وَسَاءَ إِدَا مَقْتُولًا^(٧)
 مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولَا
 وَكَأَنَّمَا غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّتْ لَا يُبْصِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا
 أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّيْنِيَّةِ تَارِكُ فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلَا

- (١) الفريق : الجماعة . حلول : جمع حال ، وهو الذى ينزل بالمكان ويقيم فيه . يقول عيناه تحت ظلام الليل كأنهما نار قوم حاليين .
- (٢) هذا البيت من عيون الشعر العربى فى دقة التمثيل .
- (٣) العفرة : شعر الفقاء ، إذا غضب الأسد ردها إلى يافوخه فتنتصب كالإكليل .
- (٤) القصر (هنا) : ضد الطويل . المشكول : المفيد بالشكال ، يقول : إن الخوف منه أوقع الرعب فى قلوب المايل فتحيرت وذهلت عن الجرى ، حتى كأن الفارس يركبها مقبدة .
- (٥) يشير بالفريسة إلى البقرة التى ألقى إلى الأسد فهاجه عنها الممدوح . والتطفيل : التعرض اطعام الناس من غير دعوة يقول : إن الأسد ألقى فريسته ورأى غاضبا حين رآك تقرب منها متطفلا على طعامه .
- (٦) ويروى فتشابه الخلفان . يقول : إنك والأسد تشابهتما فى خلقكما فكلا كما مقدم ولكن يفرق بينكما أنك كريم باذل لما ملكك يدك ، وهو بخيل حريص على طعامه .
- (٧) العضوان : فسرهما فى البيت بالمتن والساعد ، والمتن جانب الصلب . الأزل : القليل اللحم . يريد أنه يشبه الأسد فى قوة هذين العضوين فكأن الأسد حين يراها فى الممدوح يرى عضوى نفسه .

والعارُ مَضَّضٌ وليس بخائفٍ من حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحَتْهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلَا^(١)

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذي يشهد به الحق وتتقيمه العصبية أذكره ، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عدداً وأسد مقصداً ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة المدوح في تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله :

أَمْعَرُ اللَّيْثِ الْهَزَبُ بِرِسْوَطِهِ لَمِنْ اذْخَرَتِ الصَّارِمَ الْمُصْقُولَا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه المدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسقاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بقاء المدوح ، وأخرج ذلك أحسن مخرج ، وأبرزه في أشرف معنى . وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ماأشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبي أفضل منه في الفوص على المعاني ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره بشر في أبياته الرائية لعلمه أن بشراً قد ملك رقاب تلك المعاني ، واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها . وللفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً اه .

ونعلم أنه يشير برائية بشر إلى قصيدة بشر بن عوانة المشهور التي أولها :

أَفَاطَمُ لَوْ شَهِدْتَ بَيْطُنَ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزَبُ أَخَاكَ بَشَرَا

وهي مشهورة فنكتفي بالإشارة إليها .

(١) الاستنصار : طلب النصرة . التجديل : الرمي على الجدالة (الأرض) . يقول : لم تساءده قوته على مكائلك فطلب النصرة عليك بأن استسلم لك ، وهو تهكم

هذه صورة ولعلها ضئيلة لما كان عند العرب من ميل إلى النقد وناذ فيه ، وفي ذلك أبلغ ردّ على من اتهمهم بالجهل في هذا الباب ، وعدم التعرّض لهذا الفنّ فيما تناولوه من فنونهم .

الرواية والرواة

تنقسم الرواية في تاريخ الأدب العربي قسمين : رواية الحديث ، ورواية الأدب من شعر ولغة وأخبار .

أما رواية الحديث فهي أهمّ القسمين ، وأحفظهما تاريخاً ، وأمدّها زمنًا ، وذلك أنها تعلقت بأصل من أصول الدين ، وهو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أجل هذا عظم شأنها حتى صارت علماً أطلق عليه اسم « رواية الحديث » ، ثم « مصطلح الحديث » .

ومنشأ هذا العلم كان بعد موت رسول الله حين وقعت الأحداث ، فالتسوا لها الحكم في القرآن وكلام النبي . وقد احتاطوا أن يقع الكذب على رسول الله ، فكان أبو بكر لا يقبل خبراً من أحد إلا إذا شهد آخر على سماعه من رسول الله ، وكان عمر شديداً على المسكرين من الرواية ، كما كان عثمان وعائشة يتصفحان الأحاديث ويردان كثيراً منها على أصحابها ، وكان عليّ إذا حدثه محدث استحلفه بالله فإن حلف له صدقه . وعرف كثير من الصحابة بقلّة الرواية : كأبي بكر ، والزبير ، وأبي عبيدة ، والعباس ، بل كان بعضهم لا يكاد يروى شيئاً كسعيد بن زيد . أما أكثر الصحابة رواية فهو أبو هريرة صحب رسول الله ثلاث سنين وعاش بعده نحو من خمسين سنة وكثيراً ما أنكر عليه عمر وعثمان وعليّ وعائشة . ويذكرون في سبب كثرة حديثه أنه كان لفقره يلزم رسول الله للخدمة لا يشتغل عنه بالصفق في الأسواق ، ولا السفر في التجارة ولا الانقطاع في الضياع .

وظل الحديث لا يكتب لخوف اختلاطه بالقرآن ، والناس حديثو عهد بهما ثم لمكان الثقة بالرواية والحرص على كلام رسول الله ، وبقي هذا حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز ، وقد كثرت الأحاديث ، واجترأ الناس بالكذب على رسول الله ومال القصاص إلى التهويل ، والزنادقة إلى الدس للإسلام ، وقل من أهل الحديث من يوثق بأيانهم ، فاستخار عمر ربه أربعين يوماً حتى خار له في تدوين الحديث فكان ذلك على يد ازهرى أو ابن صبيح أو ابن جريج .

ولكثرة من تقولوا على رسول الله من متعمد ومغتر احتاج أهل الحديث إلى تمحيص الرواية ، فاشتروا الإسناد وأوجبوا في الراوى شروطاً من العدالة والضبط وأن يكون معروف الذات ، فشقاً عن ذلك علم الرواية وكان من ألقاب الرواة ! ثقة أوضاعاً ، خير أو مأمون ، شيخ ، صالح الحديث - ويقولون في التجريح : لين الحديث ، متروك الحديث ، وضاع ، دجال .

وكان من رغبتهم في التحرى أن شاعت الرحلة من طلاب الحديث إلى جميع الأمصار لأن الصحابة والتابعين كانوا قد انساحوا في البلاد فكان منهم بالحجاز والكوفة والبصرة والشام ومصر ، ومن هنا أيضاً تعددت طرق الرواية . فكان النظر في هذه الأسانيد ومعرفة رجالها وطريقة أخذ بعضهم عن بعض هو ما سمي بعد علم « مصطلح الحديث » .

وقد انصرفت همه العلماء إلى تحصيل حديث رسول الله بأسانيده المختلفة كما درسوا رجال السند دراسة حفظوا فيها أسماءهم وتبينوا صفاتهم وتصفحوا أخلاقهم ، وكان من ذلك علم واسع وكان أغرب ما فيه أن ترى المحدث يحفظ الحديث بعدة روايات تختلف في أشخاص الرواة وفي نص الحديث بفروق دقيقة يؤدونها أتم أداء . وكان منهم العجب العجيب في هذا الباب . وإنما مرجعه إلى أمرين : أولهما امتازت به الأمة العربية من قوة ملكة الحفظ منذ جاهليتها ، وهى ميزة خصها بها الله وليست عامة

- ٥٣٣ -

في كل البدو . وثانيهما ما كان من رغبة أكيدة انطوت عليها قلوب أهل الورع من هذه الأمة وأعان عليها نيات صالحة امتاز بها أوائل الخلفاء من دولة بني العباس . فكان من مجموع ذلك للحديث: رواج ، وجمع ، وضبط ، وتحصيل ، وخدمة من كل النواحي تتفاصر عنها هم كثير من الأمم في أعز شيء لديها . وكان من أمثلة الضبط للأحاديث وحفظ أسانيدھا ومتونها ما جرى من امتحان الإمام البخاري في بغداد وقد مر بك حديث ذلك .

وقبله كان ابن عباس رضي الله عنه ، وقد كان صدره خزانة العرب ومرجعهم في التفسير والحديث ، ثم الشعبي الذي كان يقول ما كتبت سواداً في بياض ولا حدثني أحد بحديث قط إلا حفظته وهو الذي أدرك خمسمائة من الصحابة وسمع منهم . وكان الإمام أحمد بن حنبل بعد ذلك يحفظ ألف ألف حديث وأبو زرعة سبعمائة ألف وهو الذي سئل عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنت ؟ فأجاب : لا .

وقد مر بك من الكلام في علم الحديث ما يعد تيميا لهذا البحث .

رواية الأدب

من المعروف أن العرب منذ جاهليتها كانت تروى أشعارها وأخبارها وكان لكل شاعر منهم رواية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم . ولما جاء الإسلام واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية ، وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكري أيامهم السالفة والعباهة بأعمال آبائهم الأجداد ، ولا حتياجهم إلى الشعر في تفهم القرآن وحديث رسول الله ، نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعننة إذ لم يكن الأدب في أول أمره مجالاً للكذب لغلبة الورع على الناس ، ولأن

مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف . فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد . ثم لما جرى على الأدب فيما بعد ، مادعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد وذلك حين ضعفت اللغة في عرب الأمصار فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية ، ثم حين فسدت النظم فصار التقول سهلاً على مستطيعه ، فكثر الاصطناع في الشعر ونحله فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبي عمرو بن العلاء وحماد ، لذلك ترى سند الرواية في الأدب ينقطع إليهم وإلى أهل طبقتهم ولا ترى خبراً أو شعراً متصل السند إلى جاهلي إلا ما كان من حديث روبة بن المجاج الراجز ، فقد سئل عن معنى قول امرئ القيس .

نَطَعْتُهُمْ سُلُكِي وَخُلُوجَةً كَرَكْ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ^(١)

فقال حدثني أبي عن أبيه قال حدثني عمي وكانت من بني دارم قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب طلي مع علقمة بن عبدة مامعني قولك : كرك لأمين على نابل ؟ قال : مررت بنابل وصاحبه يناوله فما رأيت أسرع من ذلك . وحدث حماد قال كان للكميت المتوفى سنة ١٢٦ هـ جدتان أدركتا الجاهلية فكاتتا تصفان له البادية وأمورها وتخبيرانه بأخبار الناس فيها فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبيرانه عنه ، قال حماد فمن هنا كان علمه .

وكانت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادر العرب وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٧ هـ .

ثم جاء بعدهم طبقة النَّصْر بن شُمَيْل والكسائي وهو الذي ذكروا أنه أنفد خمس عشرة قنينة من الخبر في الكتابة عن العرب غير ما حفظ .

(١) السلكي (بالضم) : الطعنة المستقيمة . الخلوحة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال . الريش اللوام هو الملتئم الذي يجعل فيه بطن ريشة إلى ظهر الأخرى . فالأمان هنا ريشتان ملتئمتان . شبه سرعة الطعن بدفع الريش إلى البنتال ، ولما يحتاج إليها لأن الغراء الذي يلزق به الريش إذا برد لم يلزق فيستعمل حاراً .

وما زال العلماء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها .

وكما رحل أهل الأمصار إلى البادية ، كذلك كان يقدم منها أعراب فيتلقاهم الرواة ويتحملون عنهم وقد يأنس بعض هؤلاء بالحضر فيقيمون به طويلاً فيكون مجلسهم حلقة علم يقصد إليها كل راغب في معرفة اللغة ورواية الخبر والشعر ، كذلك كان يتحاضرون إليهم العلماء حين يقع بينهم الخلاف ، وكانوا يستدعون إلى قصور الخلفاء والأمراء من أجل ذلك .

وبعض هؤلاء الأعراب لما علم ما تجره الرواية على أصحابها من خير وثروة أبوا إلا أن يبيعوا علمهم للناس فكانت بدويتهم مورد كسب وباب غنى . وقد عرف من البدو الذين أقاموا في الحضر .

١ - ثور بن زيد ، كان يفد على آل سليمان بن علي ، وعنه أخذ ابن المقفع فصاحته

٢ - أبو مسعل ، حضر إلى بغداد وافداً على الحسن بن سهل .

٣ - أبو ضمّ الكلابي » » » » » »

٤ - أبو العميثل ، كان مؤدب ولد عبد الله بن طاهر ، وكان عبد الله لا يسمع من شاعر إلا بعد أن يجيز ذلك أبو العميثل .

٥ - أبو مشعل العقيلي ، وفد على الرشيد ، واتصل بالبرامكة .

٦ - أبو مهديّة ، كان صاحب غريب ، وروى عنه البصريون كثيراً .

٧ - القنصسي ، راوية بني أسد وصاحب مآثرها أدرك المنصور ، وقد أخذ عنه العلماء مآثر بني أسد وغير هؤلاء كثيرون لا يحصيه عد .

وسنكتفي من تراجم رواة الأدب بترجمة الأصمعي فإنه يمثلهم أصدق تمثيل .

حياة الأصمعي

اسمه عبد الملك بن قُريب . واسم قريب عاصم . وسمى الأصمعي نسبة إلى جده أصمعي . وهو من قيس نشأ في البصرة وقدم بغداد في أيام الرشيد ولما تولى المأمون كان الأصمعي قد عاد إلى البصرة فاستقدمه فاعتذر بالضعف والشيخوخة . فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه فيجيب عنها .

وقد امتاز الأصمعي بالحافظة النادرة، وحياته كلها برهان صادق على قوة هذه الحافظة فإنه ما سئل عن شيء إلا كان عارفاً به راوياً للشعر فيه . ولكننا نذكر حادثة واحدة لعلها أدل دليل على تمام هذه الملكة فيه .

ذكروا أن الحسن بن سهل لما قدم العراق أحب أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى والأصمعي ونصر بن علي الجهمي فابتدأ الحسن فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين ، ثم أمر فرفعت إلى الخازن ثم أفاضوا في ذكر الحفظ وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به فالتفت أبو عبيدة وقال ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وهاهنا من يقول إنه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود إليه ولا دخل قلبه شيء وخرج منه ؟ فالتفت الأصمعي وقال إنما يريدني بهذا القول ، والأمر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه . قد نظر الأمير في خمسين رقعة وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة . فأحضرت الرقاع فقال الأصمعي سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا ووقع له بكذا ثم مر في نيف وأربعين رقعة ، فالتفت إليه نصر الجهمي وقال : أيها الرجل أبق على نفسك من العين ، فكف الأصمعي .

وكان الأصمعي يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة ، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر .

كذلك امتاز الأصمعي بطلاوة الحديث وحلابة التعبير ، وهذا هو الذي جعله حبيباً إلى الخلفاء والأمراء حائراً لصلاتهم ، ولقد قال عنه الإمام الشافعي : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي ، وسئل أبو نواس عنه وعن أبي عبيدة فقال : أما أبو عبيدة ، فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فلبيل يطر بهم بنغماته .

كذلك كان صادقاً في حديثه مأمون الرواية لمكانه من خشية الله وتقاه ، وقد كان الإمام الشافعي يقول : ما رأيت بهذا العسكر أصدق من الأصمعي ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يثني عليه ويقول : إنه ثقة .

وكان الأصمعي : صاحب نحو ولغة ، وغريب وأخبار وملح ؛ لذلك فضل خلفاً في علم الشعر لامتياز به معرفة النحو ، والشعر يحتاج إلى ذلك ، وقد شارك الأصمعي في علومه كثيرون مثل أبي زيد الأنصاري ، فقد كان صاحب لغة وغريب ونحو ، بل كان في النحو أكثر من الأصمعي ، ومثل أبي عبيدة فقد كان أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام ، وكان للأصمعي في اللغة يدٌ غراء لا يعرف مثله فيها .

ولكنه مع كل هذا الفضل كان مقصراً في علم العروض ، شرع يتعلمه عن الخليل فلم يتقدم فيه ، فأراد الخليل أن يصرفه عنه ، فقال له يوماً : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر ؟ :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعي أن الخليل تأذى ببعده عن علم العروض ، فلم يعاوده فيه .

وقد أخذ الأصمعي عن عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن دريد ، والخليل بن أحمد ، وأخذ عن الأصمعي ابن أخيه عبد الرحمن ابن عبد الله ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو حاتم السجستاني . وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ، ونصر بن علي الجهضمي وغيرهم .

نوادير الأصمعي

هي كثيرة امتلأت بها الكتب ، واستفاضت الرواية ، حتى كان الأصمعي أشهر من عرف بذلك بين متعلم وأمّ ، لا يجهل اسمه أحد ، ولا ينفك الناس يروون عنه ماله ، وما ليس له ، وما ذلك إلا من كثرة نوادره ، وشيوع الرواية عنه ، ومن هذه النوادر ما مرّ بك في أبواب متفرقة ، وننقل لك هنا ما لم يسبق وروده .

قال له الرشيد يوما : يا عبد الملك ، أنا ضجر ، وأحب أن أسمع حديثاً أفرج به . فحدثني بشئ ، قال فقلت : لأى الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟ فقال : لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس ، وطرائف أخبارهم ، فقلت يا أمير المؤمنين : كان صاحب لنا من البدو كنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصبح الناس ذهناً ، وأجودهم أكلاً ، وأقواهم بدناً ، فغبرت عنه زماناً ، ثم قصدته فوجدته ناحل البدن ، كاسف البال متغير الحال ، فقلت له : ما شأنك ، أأصابك مصيبة ؟ قال : لا . قلت : فرض عراك ؟ قال : لا . قلت : فما سبب هذا الذى أراه بك ؟ فقال : قصدت بعض القرابة فألفت عندهم جارية قد لاثت رأسها ، وطأت بالورس ما بين قرننها إلى قدمها ، وعليها قميص ، وقناع مصبوغان ، وفي عنقها طبل توقع عليه وتنشد :

مَحَاسِنُهَا سِهَامٌ لِلْمَنَايَا مُرَيَّشَةٌ بِأَنْوَاعِ الْخُطُوبِ
تَرَى زَيْبَ الزَّمَانِ هُنَّ سَهْمٌ يَصِيبُ بِنْفَلِهِ مُهَبَّجَ الْقُلُوبِ

فأجبتها :

قَفِي شَفَقِي فِي مَوْضِعِ الطَّبْلِ نَرْتَعِي كَمَا قَدْ أَسَحَّتِ الطَّبْلُ فِي جِيدِكَ الْحَسَنُ
هَبِينِي عُودًا أَجُوفًا تَحْتَ سِنِّهِ تَمْتَعُ فِيمَا بَيْنَ نَحْرِكَ وَالذَّقْنِ
فلما سمعت الشعر منى نزع الطبل ، ورمت به في وجهي ، وبادرت إلى الخباء ، فلم

أزل واقفاً حتى حميت الشمس على مفرق رأسى لا تخرج ، ولا ترجع إلى جوابا . فقلت :
إنا لله ، أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال إقامتى على غير شىء يا سُلَيْمَى أراقبه

ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذى ترى من التغير من عشق لها . قال :
فضحك الرشيد حتى استلقى ! وقال : ويحك يا عبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعيش ؟
قلت قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

حكى أبو العباس المبرد قال : دخل الأصمى على الرشيد بعد غيبة كانت منه ،
فقال له يا أصمى : كيف كنت بعدنا ؟ فقال : مالاقتنى أرض بعدك ، فبتسم الرشيد ،
فلما خرج الناس قال : يا أصمى ، ما معنى قولك مالاقتنى أرض ؟ فقال : ما استقرت بى
أرض ، فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغي أن تسلمنى بين يدى الناس إلا بما
أفهمه ، فإذا خلوت فاعلمنى ؛ فإنه يقبح بالسلطان ألا يكون عالماً ، لأنه لا يخلو . إما أن
أسكت أو أجيب ، فإذا سكت يعلم الناس أنى لا أعلم إذا لم أجب ، وإذا أجبت بغير
الجواب يعلم من جوابى أنى لم أفهم ما قلت . . قال الأصمى فاعلمنى أكثر مما علمته .

وحكى أيضاً قال : مازح الرشيد أم جعفر فقال لها : كيف أصبحت يا أم نهر ؟ فاغتمت
لذلك ولم تفهم معناه ، فأنفذت إلى الأصمى تسأله ، فقال : الجعفر النهر الصغير ، وإنما
ذهب إلى هذا فطابت نفسها .

وقال الأصمى : دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع ، فقال : يا أصمى كم
كتابك فى الخيل ؟ فقلت : جلد واحد ، قال : فسأل أبو عبيدة ، فقال : خمسون جلدًا فأمر
ياحضار الكتائب وإحضار فرس ، فقال لأبى عبيدة : أقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك
على موضع موضع من الفرس ، فقال أبو عبيدة : لست بيطاراً وإنما هذا شىء أخذته
وسمعتة من العرب فقال لى قم يا أصمى فضع يدك على موضع موضع من الفرس فوثبت
فأخذت بأذنى الفرس ووضعت يدى على ناصيته فجعلت أقول هذا اسمه كذا حتى بلغت
حافره فأمر لى بالفرس فكنت إذا أردت أن أغيط أبا عبيدة ركبت الفرس وأتيته .

آثار الأصمعي

ذكر ابن النديم في الفهرست نيفاً وأربعين كتاباً ذهب معظمها وقد بقي منها اثنا عشر، وهي :

- ١ - الأصمعيات، وهي مجموع مختارات من الشعر طبعت في لبسك سنة ١٩٠٢ م .
- ٢ - رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب الملكية بمصر .
- ٣ - كتاب أسماء الوحوش وهو مطبوع .
- ٤ - كتاب الإبل مطبوع في بيروت .
- ٥ - كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع مع سابقه في مجموعة واحدة .
- ٦ - كتاب الخيل، وهو مطبوع بفيينا .
- ٧ - كتاب الشاء، مطبوع سنة ١٨٩٦ م .
- ٨ - كتاب الدارات مطبوع ببيروت في المجموعة السابقة .
- ٩ - كتاب الفرق مطبوع بفيينا .
- ١٠ - كتاب النبات والشجر مطبوع ببيروت في المجموعة السابقة .
- ١١ - كتاب النخل والكرم مطبوع ببيروت سنة ١٩٠٢ م .
- ١٢ - كتاب الغريب مخطوط في مكتبة الاسكوريال .



وكانت وفاة الأصمعي سنة ٢١٣ هـ، وقيل سنة ٢١٤ هـ، وقيل ٢١٧ هـ، ولما مات رثاه أبو الغتاهية بقوله :

أسفت لفقد الأصمعي لقد مضى حميداً له في كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم

الغناء والمغنون

عرفت في دراسة العصر الأموي كيف انتقل الغناء عند العرب من السذاجة إلى الإلتقان بسبب الفرس الذين قدموا مكة أيام الزير لتجديد بنائها ، وكان ماسمعه العرب قد نال إعجابهم فدفعت مسجحة مولى عبد الله بن جعفر إلى تعريبه إلى غير ذلك من حديث طويل .

فدل ذلك على ما عند العرب من ميل إلى الموسيقى وما في نفوسهم من خفة إلى السرور وارتياح إلى التوقيع ، وإن كان ذلك طبيعة في جميع الناس ولكمهم فيها يتفاوتون .

وما لبثوا أن صار الحجاز بقرتيه العظيمتين مكة والمدينة مهرجاناً دائماً الحركة ، بل دوحاً لا تفتقر بلابله عن الشدو والترجيع . وقد بلغ من كثرة المغنين به أن كانوا يحجون قوافل في أبهى زينة وأعظم مظهر . لقد كان هذا حال الغناء مع قرب العرب من البداوة وبعدهم عن مستمد هذه الثروة الغنائية ، وهو العراق بلاد الفرس القديمة المدنية المعروفة بعظيم عنايتها بالموسيقى ، فقد كان ملوكها يحتفلون بها ويعقدون لها المجالس ويشيرون الحبيدين للغناء . وهذا هو شأن كل أمة أصابت من المدينة حظاً كحظ الفرس في إبان دولتهم ، فما بالاك بالعرب وقد استقر ملكهم بالعراق واختاروا بغداد قاعدة لهم ومظهراً لمدينتهم ، والزمن قد ضمن لهم التحال من كثير من القيود ، فبعد أن كان الناس في الغناء فريقين : محالين ، ومحرمين ، وراضين ، ومنكرين ، وكان خلفاء الأمويين كذلك فيه بين مشبطين ومشجعين ومستهترين ومناوئين ، نجد أهل بغداد جميعاً يقبلون عليه والخلفاء لا يختلف رأيهم في تشجيعه والعناية به ، كان ذلك والمورد قريب والمدد ميسور والقرايح قد أطلقها من عقابها مافي المدنية من تجديد ونشاط واحتثات على العمل وعظيم مكافأة عليه . وعلى نسبة تقدم العرب في المدنية ازدادت

— ٥٤٣ —

عنايتهم بالغناء وحسن أثرهم فيه . ولقد ذكروا أنهم قبل العباسيين لم يكونوا يعلمونه إلا الصفرة والسود من الجوارى حتى علمه البرامكة للجوارى البيض الحسان ليزيد جملهن فى الغناء تأثيراً فى النفوس .

عناية الخلفاء بالغناء

على قدر عنايتهم بالشعر كانت عنايتهم بالغناء ، فقد أكرموا وفادة المغنين وأجزلوا لهم العطاء ، وعقدوا المجالس لسماعهم ، والمفاضلة بينهم ، واتخذوهم ندماءهم وسمارهم ، وما ذلك بغريب ، فإن مجلس السمر لا يحلو بغير غناء ، ولا يطيب بلا توقيع ، وإذا كان فى سماع الشعر أرتياح ولذة ، فإنه أقرب إلى الجدة ، وأدخل فى باب الوقار ، فأما الذى لا تتم لذة إلا به ، ولا يطيب مجلس إلا على أصوات أوتاره ، ونغمات شداته فذلك هو الغناء .

لذلك رأينا الخلفاء يتخذون من المغنين ندماءهم الذين لا يفارقونهم ، وإذا فارقوهم فعلى موعد قريب حتى إن المغنى إذا عظمت منزلته ، واختص به الخليفة ، ترى حياته قد صارت وقفاً على رغبات الخليفة يستدعيه متى شاء . ولقد كان المغنون مع وفير ما ينالون من عطاء يملون هذا الإلحاح عليهم من الخلفاء ، فيطلبون أياً ما يضمنون فيها حریتهم ، ويتصرفون فيها فى شؤونهم . ولقد تمنى إبراهيم الموصلى على الرشيد أن يهب له يوماً من أيام الأسبوع ينفرد فيه بجواريه وإخوانه فلا يفاجئه الخليفة بطلب فى ذلك اليوم ، فمنحه الرشيد يوم السبت ، وقال هو يوم أستثقله فألّه فيه بما شئت .

ولقد بلغ من غرام الخلفاء بالغناء والمغنين أن ساروا إليهم ، وقصدوهم فى منازلهم ، وذلك تسكريم ما سمعنا بمثله فى طبقة أخرى غير هؤلاء .

ذكروا أن أحمد بن المرزبان قال : حدثنى بعض كتاب السلطان أن هارون

الرشيد هبّ ليلة من نومه فدعا بحمار كان عنده يركبه في القصر ، فركبه وخرج في دراعة ومشى مثلما بعمامة متلحفاً بإزار ، ومشى بين يديه أر بعائة من الخدم ، وكان مسرور الفرغاني جريئاً عليه لمكانة كانت له عنده ، فلما خرج من باب القصر قال له : أين تريد يا أمير المؤمنين الساعة ؟ قال : أردت منزل إبراهيم الموصلي . قال مسرور : ففضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم ، فخرج فلقاه ، وقبل حافر حماره ، وقال يا أمير المؤمنين أفي مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال نعم شوق طرقت بي ، ثم نزل فجلس في طرف الإيوان ثم أكل من طعام إبراهيم ، وسمع جواريه حتى طرب وانصرف .

ولقد بلغ من غرامهم أيضاً أن أقبلوا على الغناء يحاولونه بأنفسهم ، ويتعلمه أولادهم حتى لقد عقد أبو الفرج الأصفهاني فصلاً في كتابه « الأغاني في بيان من غنى من الخلفاء وأبنائهم » ، ونسبت له أصوات . قال فيه : « فأولهم وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذكراً في الغناء إبراهيم بن المهدي ، فإنه كان يحقق فيه تحقيقاً شديداً ، ويبتذل نفسه ، ولا يستتر منه ، ولا يحاشي أحداً ، وكان في أول أمره لا يفعل ذلك إلا من وراء ستار وعلى حال تصون وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد في خلوة والأمين بعده ، فلما أئمنه المأمون تهتك بالغناء وشرب النبيذ بحضرته ، والخروج من عنده ثملاً ومع المغنين خوفاً منه وإظهاراً له أنه قد خلع ربة الخلافة من عنقه ، وهتك ستره فيها حتى لا يصلح لها ، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات ، وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً . وكذلك أخته عليّة بنت المهدي ، وأبو عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادي ، وعبد الله بن محمد الأمين ، وأبو عيسى بن المتوكل ، وعبد الله بن المعتز ، ومن الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين وأكثرهم في ذلك : الواثق ، والمتنصر ، والمعتز ، والمعتد ، والمتنشد » .

ولقد ذكر صاحب الأغاني في موضع آخر أن الواثق بالله صنع مائة صوت ما فيها صوت ساقط ، وأنه كان من صنعته :

هَلْ تَعْلَمِينَ وراءَ الحبِّ منزلةً تُذْنِي إِلَيْكَ فَإِنَّ الحبَّ أَقْصَانِي
هذا كتابُ فتى طالتْ بِلَيْمَتِهِ يقول يا مُشْتَكِي بَنِي وَأَحْزَانِي

وصنعتَه في قول أبي العتاهية :

أُخِضْتُ قُبُورَهُمْ مِنْ بَعْدِ عِزَّتِهِمْ تَسْفِي عَلَيْهَا الصَّبَا وَالْحَرْجَفُ الشَّمْلُ
لَا يَذْفَعُونَ هَوَامًا عَنْ وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَسْبٌ بِالْقَاعِ مُنْجَدِلُ
كما ذكروا من صنعة المعتمد ما أحدثه في قول الفرزدق :

لَيْسَ الشَّفِيعَ الذِي يَأْتِيكَ مُؤْتِرَا مِثْلَ الشَّفِيعِ الذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا
ومن صنعة المعتضد ما أحدثه في قول دريد بن الصمة :

يَالَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ

ذلك هو شأن خلفاء هذه الدولة وأبناء خلفائها: غرام بالغناء ونشأة فيه. اللهم إلا ما كان من أمر المنصور فإنه كان في شغل شاغل بتدعيم أسس الدولة فلم يكن منه إقبال على نوع من أنواع الملاهي حتى لقد كان يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، والمأمون مثلاً امتنع عن سماع الغناء ، وأمر بمنعه حين عاد من خراسان ، فبقى عشرين شهراً على ذلك حتى صفت له الدولة ، واتسقت الأمور فنزل هذا التشدد ، وصار لا يكفيه أن يسمر عنده إسحاق الموصلي ، وإبراهيم بن المهدي حتى يدعوهما إلى الصبوح ، ويقول لها بكراً على قد اشتقنا إلى الصبوح ، وأمر إسحاق أن يعمل له لحناً ، وكذلك أمر إبراهيم فغدوا عليه ، وقد سرق إسحق لحن إبراهيم في قصة عجيبة طويلة .

ولم يمنع الغناء من بابا إلا المهتدي العباسي ، فإنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت الملاهي قد انتشرت في الدولة أمر بمنع الغناء فظل الحال على ذلك مدة خلافته ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه قبل .

قديم الغناء وحديثه

في أوائل عهد الدولة العباسية حين نفخت الدولة من روح الغناء ، واتجهت إليه المهم ، نشأ فيه مذهبان : قديم ، وحديث ، وكان ينصر القديم : إسحاق الموصلي ، ونخارق وعلويه ، وعريب ، وبذل ، وسليم بن سلام ، ومحمد بن الرف ، وزير بن دحمان ، وأحمد بن يحيى ، ومحمد بن حمزة ، وهؤلاء هم الآخذون بمحاسن الغناء ، وطرائق الصناعة لا يتحللون من قيودها ، ولا يستبشرون التغيير فيها . أما المقصرون عن أداء الغناء القديم ، المغيرون له المتعصبون للجديد فهم : إبراهيم بن المهدي ، ومن انضم إليه من إسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء ، ويحيى المكي ، وعمر بن نابه ، وشارية ، ونزيق ، وبنو حمدون ، وحسين بن محرز ، وغيرهم .

وقد كان السبب في هذا الانقسام والنزاع أن إبراهيم بن المهدي غنى بلحن قديم فأضاع صناعته فرد عليه إسحاق وعاب عليه تغييره فقال : أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا على ذلك وانضم إليه كل من رضى طريقتيه وربما كان هذا التحيز إلى إبراهيم غير خالص للفن ، إذ كانوا يتقربون بكفالتهم إلى الرشيد فكان قوم إبراهيم أكثر عدداً قبل وزارة جعفر البرمكي ، فلما ولي وجهر البرامكة بتفضيل إسحاق رجع إلى غرضه كثير من المجيدين . ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتسكون بالقديم ويحملونه كما يسمعونهم فلم يكن من مفسد له إلا جماعة أولاد العباسيين مثل : إبراهيم ، وأخيه يعقوب ، وأختها عليية ، وعبد الله بن الهادي وغيرهم ممن يترفع عن أن يقيد غناؤه بالمسموع والمحفوظ من الأصوات وإن كانوا موضع جليل من هذه الصناعة .

ولكن هذا الانقسام لم يستمر طويلاً إلا ريثما ثبتت في الألحان قدم القوم

ورسخت ملكاتهم في النعم فكان لهم فيه طابع خاص اجتمع فيه محاسن الماضي والحاضر واختلط فيه القديم بالحديث واستمر للغناء شأن نحو قرنين من الزمان من ابتداء عمر هذه الدولة ثم ابتداء يضمحل تبعاً لاضمحلال أمر الدولة حتى يقول أبو الفرج (على أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى في عصرنا هذا) .

وحين كان الغناء منقسماً إلى جديد وقديم كان التعصب لأحدهما على الآخر بالغاً أشده ، وطالما عقدت لذلك المناظرات في مجالس الخلفاء يمتحن فيها المغنون كما يمتحن العلماء . ومن ذلك ما رووا أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى البرمكي : قد طال سماعنا هذه الفتة على اختلاط الأمر فيها فهل أفاقمك إياها وأحارك فاقسما المغنين على أن يجعلوا بإزاء كل رجل نظيره ، وكان ابن جامع في حيز الرشيد ، وإبراهيم الموصلي في حيز جعفر وحضر الندماء لمحنة المغنين وأمر الرشيد بن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان وطرب الرشيد غاية الطرب فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنى فقال لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه وظهر الانكسار فيه فقال الرشيد لجعفر هذا واحد ثم قال لابن جامع غنّ يا سماعيل فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول وأرضى في كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم هاته يا إبراهيم فقال ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال هذا ثان وانهى المجلس بانكسار إبراهيم وإجازة ابن جامع وانخلع عليه .

تعليم الجوّاري

اقتضت المدنية غنى واسعاً يتمتع به الخلفاء وأبناؤهم والوزراء وجميع رجال الدولة وكل هؤلاء يحرمون على لذتهم ويحبون إظهار نعمة الله عليهم . ها في أيامهم إلا اتخاذ السزاري والقيان .

وكانت القيان تعد لصناعة الغناء إعداداً تاماً ، فكان يتعلمن القراءة والكتابة ثم يروين الشعر مع ضبطه وفهم معناه وكل ذلك يحتاج إلى مقدمات من النحو والصرف وغيرهما من العلوم .

وكانت الرغبة في الجوارى المهبذات المتعلمات الجيدات للغناء قد جعلت لهن سوقاً نافقة ، وجعلت كل من في يده واحدة منهن يحرص على تثقيفها حتى يغلى بها الثمن ، فقد كانت الجارية الغفل تباع بمائتي دينار ، فإذا تثقت فرمما بيعت بعشرة آلاف . ومن أجل ذلك رأينا إبراهيم الموصلي يتجر بهذه الجوارى ، فيشتريهن غفلاً ، ويقوم بتثقيفهن وتعليمهن الغناء حتى يرجح فرق الثمن ، وهو عظيم جداً ، كذلك كان يفعل يزيد بن حوراء ، وقد عقد هو والموصلي شركة يتقاسمان ربحها .

وقد ذكروا أن الرشيد ابتاع جارية بمائة ألف دينار ، وأخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بستة وثلاثين ألفاً ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فأمر فأوقروا له قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك أكثر من ألف ألف دينار !! وهذا غريب ، وإن كان من الأمين ليس غريباً .

وعلى قدر اتساع الغنى ، وكثرة الوجد كانت الجوارى تكثر عند الرجل حتى لقد كان عند الرشيد منهن ألفان فيهن ثلاثمائة من المغنيات الضاربات على الآلات ، وقد زار البرامكة في دارهم ، فأخرجوا القيان إلى البستان ، فاصطففن صفيين أمامه مثل العساكر ، وغنين له وضربن بالعيدان ، وقرن على الدفوف حتى طلع إلى مقاصير القصر .

فكل هؤلاء وأولئك يحتجن إلى تعليم وتثقيف مما يدل على أن حركة تعليم البنات كانت قائمة على قدر لا يقل عن تعليم الذكور عناية واهتماماً ، لذلك نرى من أخبار هؤلاء من أديبات بارعات حاضرات الجواب رقيقات الشعر ، وكانت دورهن في استنady الشعراء يحضرون لتغذية خيالهم من جمال هؤلاء ويطالعن فيهن ويستمعن لهن ، ويروضون قرائهم بالقول فيهن .

مبلغ إجادة الغناء أيام العباسيين

لا يدلك على جودة الغناء إلا ما ترى من أثره في نفس رجل وقور ذي مهابة ومكانة سامية ، فإذا رأيت الغناء قد أذهله عن نفسه وأنساه مكانه ، فجعل يضرب الأرض برجليه ، أو يزحف إلى المغنى يفتديه بنفسه ، أو يكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فإذا ذاك تعلم موقع الغناء من التأثير ، وتدرك مقدار ما بلغ فيه المغنون من الإجادة ، وهكذا كان الحال في غناء هذه الدولة فأخباره حافلة بما كان يأتيه أرزن الخلفاء وأعقلهم ، وما كان يزدهف له من ثباتهم ، ويذال من مصون وقارهم . ذلك وهم بمحضر الناس ، وبرآى ومسمع منهم ، لأنهم كانوا قد أزاحوا الستور التي كان يضعها الأمويون بينهم وبين المغنين إذا جلسوا إليهم .

ولقد قالوا : إن إسحاق الموصلي وضع لحن التخنيث الذي لم يسبقه إليه أحد ، وصنع ألحاناً لا يقدر شعبان ممثلي ، ولا سقاء يحمل قرصة على الترنم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم ، وقد بلغ من إجادة إسحاق أن كان الواثق يقول عنه ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي .

كما نعلم من خبر الفارابي : أنه دخل على سيف الدولة ، ومجلسه حافل بالقوم ، فأخرج من خريطة معه عيوانا وركبها ، ثم ضرب بها فأضحك جميع الحاضرين ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ، وضرب بها فأبكاهم جميعاً ، فكها وركبها ثالثة ، وضرب بها ، فنام الجميع حتى البواب ، فتركهم وانصرف .

ونحن ننقل إليك خبر مجلس من مجالس الرشيد ، وفيه الغناء ، وما صدر من الرشيد من أعمال وأقوال دالة على الاستحسان لما سمع .

- ٥٤٩ -

وكان أول من غنى في هذا المجلس إبراهيم الموصلي أبو إسحاق ، فغنى :
 وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
 وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُتُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ
 فأجاد حتى كان كل من في المجلس يحببه ، ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، نظرب
 الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، ثم أشار مسرور الخادم إلى إسماعيل بن جامع ، وهو
 من المتعصبين على إسحاق ، فغنى بأبيات من قول عمر بن أبي ربيعة :
 كَأَنَّ أَحْوَرَ مِنْ غَزْلَانِ ذِي بَقَرٍ أَعَارَهَا شَبَهَ الْعَيْنَيْنِ وَالْجِيدَا
 أَجْرَى عَلَى مَوْعِدٍ مِنْهَا فَتَخَلْفَى فَمَا أَمَلٌ وَلَا تَوْفَى الْمَوَاعِيدَا
 كَأَنِّي حِينَ أَمْسَى لَا تُكَلِّمُنِي ذُو بَغِيَّةٍ يَبْتَغِي مَا لَيْسَ مَوْجُودَا
 فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب ممن يحب الخلاعة في الأصوات ، فهو يميل إلى
 ظرف الغناء الكثير النغم والعمل ، كما يميل إلى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملابس .
 ثم أشار إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فأثنى بعود له هندي ، فضرب عليه
 نغمات صاح لها القوم أجمعون ، ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لأبي صخر
 الهذلي ، وهي :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
 فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوْيَ كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَا سَاوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ
 وَإِنِّي لَتَعْرُوْنِي لَذَكَرَاكِ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْمُصْفُورُ بِلِلَّةِ الْقَطْرِ
 هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْهَوَى وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فطرب الرشيد وقال : زدنا يا أبا صفوان من غنائك (وأبو صفوان كنية يلقبه بها
 عند التعجب)

الآن

فرضا



ثم غنى في قول المنخل يشكرى :

ولقد دَخَلْتُ على الفتاة هِ الْخَدَرِ فى اليوم المَطِيرِ
فَدَفَعْتُهَا فَتَدَفَعَتْ مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ
فَلَمَّمْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَّسَ الظَّبْيُ الْبَهِيرِ

فأجاء فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد : وكاد يخرج من ثيابه طربا : « والله الغناء الذى يلين العريكة ، ويفسح فى الرأى والصدر ، ويحدث فى النفس طربا لا غناء هذا الرجل » .

ثم أوما الرشيد إلى المغنيين بأن يحلوا صفوفهم ، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم فى الصناعة ، فمن مصيب ألف دينار ، ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك .

وهذه الإجادة مرجعها إلى سببين أولهما : هذه العطايا الكثيرة التى سالت على أهل هذه الصناعة من كل عالم بقدرهم من خليفة ، وأمير ، ووزير ، وسرى كريم ، وأخبارها مستفيضة لا تطيل بذكرها ، وثانى السببين : أنفراد كل مغن بلحن من الألحان يفتن فيه ، ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يستبد بالحسن فيه كافرءاد معبء بالثقل ، وابن سُرَيْج بالرملى ، وحكم الوادى بالهزج ، وفليح بن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى بالمساخورى ، ويقال : إنه صنع هذا اللحن ، وكان يغنى به أول أمره فى المواخير .

وكان فيمن يتخلل المغنيين من أجادوا فيما كانوا بسببه حتى استحقوا شهرة لا تقل عن شهرة المغنيين كمنصور زَلْزَل الذى كان يضرب على عود من لبنان الشبايبط صنعها معارضة لعيدان الفرس ، وكان إذا ضرب عليه يزلزل المجلس بقعنه ، وكبَرُصُوم الزامر ، وهو من أحسن الناس زمرا بنأى كان إذا زمر فيه يحدث

يريده منع صحة المقاطع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمي ، وجعفر الطبال ، وكان يحسن التوقيع على الطبل .

التأليف في الغناء

كثر التأليف في الغناء منذ صار صناعة جليلة الشأن في العصر العباسي وقد كان كما قلنا معتبرا من الآداب الرفيعة ، والفلسفة ولذلك نرى كل عالم جليل قد تناوله بالتأليف كما فعل الخليل بن أحمد في إخراج كتاب النغم ، وكما فعل إسحاق الموصلي فإنه عمل كتابا جمع فيه أغانيه التي غنى بها ، وعمل آخر جمع فيه أخبارا للمغنين واحدا واحدا ، كذلك ألف جحظة الهرمكي في مثل هذا المعرض ، وكذلك ألف حسن ابن موسى النصيبي كتابا رتبته على حروف المعجم قيل إنه ألفه للعتوكل ، وألف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان من العلماء الأجلاء « كتاب الآداب الرفيعة » في الغناء والمناديات . ولكن كل هذه الكتب لم يبق منها إلا الخبر عنها ، وآخر ما عندنا من آثار القوم في الغناء هو كتاب أبي الفرج ، وقد جمعه من الكتب السابقة بعد أن حذف منها ما يتعلق بقواعد الفن إلا قليلا ، وقد عرفت فيما سبق كل ما يتعلق بهذا الكتاب

مصطلحات الأغاني

سنتكلم في هذه المصطلحات بما جهدنا أن نصل إليه منها ، ولا نعدى النفاذ في هذا المجال ، لأن الغناء علم من الآداب الرفيعة صعب المنال ، ولقد كانت الموسيقى ، وما تزال تعد فرعا من فروع الفلسفة ، فليست دراستها بالهين على مثلنا من لا يتلطف لها

ولا يكون قد أعد معداته لفهمها ، وهى من بعد المنال بحيث لا يتيسر عسيها إلا لمن جمع العزم للفهم ، وطَبَّ وَرَفَّقَ فى الاحتيال ، فأما من يريد لها لساعته ، ويحاول هتك سترها لقضاء لبائته وتوفية موضوع يبحثه ، فليس شأنه أن يحلو منها بظائل .

على أن أهل هذا الفن تجدهم ، وقد طلبوه للذتهم لا يحفلون بإرشاد من استنفعهم بعض مسائله ، أو كأنهم من العناء الذى نالوه فى تحصيله يضمنون على السائل حتى لا يرد إلا بعد التَّحْلِيءِ ، ولا يستصفي إلا بعد التَّكْدِيرِ ، فلا تكاد تصل إلى مطلوب إذا سألتهم ولا يكادون يفهمونك من أسرارهم شيئاً ، وإن أفاضوا فى بيانهم لأنهم يكررون رموزهم ويرجعون اصطلاحاتهم ، والناس أبعد ما يكونون عن ذلك ، وأصحابنا أرفع من أن يتكلموا بلغة الناس إذا تناولوا التفسير لمزاميرهم .

وقد طال بحث الناس عن المراد بما امتلأ به كتاب الأغاني من مثل قوله التَّحْقِيلِ الأول ، والتَّحْقِيلِ الثانى . وقوله مطلق ، وبالخنصر ، أو الوسطى إلى غير ذلك فلم يعرفوا ذلك لطول العهد بهذه المصطلحات حتى عثر على كتاب مخطوط اسمه « نيل السعود فى ترجمة الوزير أبى داود » كتب سنة ١٢٣٢ هـ ، وقد ورد فيه بحث بعنوان « العود ومصطلحاته » ، ومما ورد فيه تحت هذا العنوان ما يأتى بتصرف .

« اعلم أن الألفاظ الواردة فى كتاب الأغاني تتعلق كلها بالعود العربى ، فإذا علمت تركيب هذه الآلة هان عليك فهم ما أشكل من مصطلحاتها ، فهذه الآلة طولها مثل عرضها مرة ونصفاً ، وغورها كنصف عرضها ، وعنقها كنصف طولها ، وتمتد على وجهها أربعة أوتار أغظها البهم ، بحيث يكون غلظه مثل المثلث الذى يليه مرة وثلاثاً ، والمثلث إلى المثلث كذلك ، والمثلث إلى الزير كذلك ، وقد ضبطوها بطاقات الحرير ، فقالوا : يجب أن يكون البهم أربعاً وستين طاقة ، والمثلث : ثمانية وأربعين ، والمثلث : ستة وثلاثين ، والزير : سبعة وعشرين . وتجعل رءوسها فى مَلَاوٍ من جهة العنق ، ومن الأخرى تكون كمشط فتساوى ^(حسبها) ، وفى كلام طويل بعد ذلك يقسم كل وتر من جهة

العنق أقسامًا يكون كل قسم منها مجرى لأصبع من الأصابع : السبابة ، والوسطى ، والبنصر ، والخنصر .

ثم ذكر أن قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية (ولعله يريد بذلك نوع النغمة كما نقول نحن اليوم : سیکا ، وحجاز ، وبياتی . . .) وهذه الثمانية هي :

- ١ - الثقيل الأول .
- ٢ - الثقيل الثاني .
- ٣ - خفيف الثقيل الأول .
- ٤ - خفيف الثقيل الثاني .
- ٥ - الرمل (ويسمى ثقيل الرمل) .
- ٦ - خفيف الرمل .
- ٧ - خفيف الخفيف .
- ٨ - الهزج .

وكان المؤلف قد أسقط في هذه النوع الثالث ، وهو خفيف الثقيل الأول ، ولسكننا تمنا العدد بما ورد في الأغاني من أن لمبعد لحناً من خفيف الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى الوسطى في قول عمر بن أبي ربيعة :

وَدَّعْ لُبَانَةَ قَبْلَ أَنْ تَتَرَحَّلَا وَاسْأَلْ فِرْنَ قَلِيلَهُ أَنْ تَسْأَلَا

ثم قال : واللحن يسمى مطلقاً إذا لم يكن مقيداً بلفظ يدل على وصفه كأن يقال مثلاً ثانی ثقيل مطلق ، وقد يذكر بعد اللحن موقع الأصبع التي يبتدأ بها ، فيقال ثانی ثقيل بالوسطى ، أو الخنصر وهكذا .

وبقي أن نفهم المراد من كلمة لحن ، ونغمة ، وصوت فنقول : إن اللحن نغمات من نوع واحد كالثقل الأول : أو الثاني ، أو الرمل ، أو الهزج ، تؤلف تأليفاً مناسباً يقبله ذوق الموسيقى فيكون مجموع هذه النغمات لحناً . وأما النغمة فهي وحدة اللحن .

والصوت هو ما يوقع على اللحن ، من شعر « أو غيره » فيوفق المغنى ، بين نغمات اللحن ، وحروف الكلام الذي يراد الغناء به حتى يخرجها نخرج هذه الأنغام ، فإذا استقامت كذلك سميت صوتاً ، فالصوت صورة من صور اللحن . وقد يصاغ من اللحن ما شئت من الأصوات ، وعمل ذلك يسمى تلحيناً ، فإذا قلت : قال فلان هذه الآيات ثم لحنها فمعناه أجراها على نظام لحن من الألحان ، وطبعها على غرارها .

إسحاق الموصلي

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وإبراهيم بن ماهان بن ميمون وأصله من فارس .

وسبب تلقيب أبيه بالموصلي أنه لما نشأ بالكوفة في ولاء آل خزيمة بن خازم من بني تميم اشتغى الغناء ، وطلب أصحابه ، وصحب الفتيان ، فاستند ذلك على أخواله بني عبد الله بن دارم فأذوه ، وبلغوا منه فهرب منهم إلى الموصل فأقام سنة فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلي فغلب عليه .

نشأ إسحاق في حياطة أبيه ، وكان أبوه قد بلغ منزلة عظيمة بالغناء فأحسن تربيته ، وثقفه بأنواع العلوم ، وورث من أبيه صناعة الغناء فكان آية في كل فن حتى قال عنه أبو الفرج الأصفهاني .

« وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحله من الرواية ، وتقدمه في الشعر ، ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليها بوصف . فأما الغناء ، فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به » .

وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الغناء ، لوليت القضاة بحضرتي ، فإنه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة .

وقد سأل إسحاق المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة ، لامع المغنين ، فإذا أراد الغناء غناه ، فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد مدة طويلاً الإذن له في الدخول مع الفقهاء ، فأذن له ، قالوا : وكان يدخل ويده في يد قاضي القضاة يحيى ابن أكرم .

وقد قال عنه محمد بن عمران الجرجاني : كان والله إسحاق غرة في زمانه وواحداً في عصره ، علماً ، وفهماً وأدباً، ووقاراً ، وجوداً ورأى ، وصحة مودة ، وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، ويحير السامع إذا تحدث ، لا يمل جلوسه مجلسه ، ولا تملج الآذان حديثه ، ولا تنمو النفس عن مطاولته ، إن حدثك أهلك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك ، وما كانت خصلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق ، فيقدم أحد على مساجلته ، أو مناوآته فيه .

وكان إسحاق جيد الشعر . قال أبو الفرج : إنه كان يصنعه وينسبه إلى العرب ، وله شعر ينسبه إلى نفسه . قال الأصمعي : دخلت أنا وإسحاق الموصلي يوماً على الرشيد فرأيتاه لقس النفس ، فأنشده إسحاق :

وَأَمْرٍ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي	فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
أَرَى النَّاسَ خُلَّانَ الْكِرَامِ وَلَا أَرَى	بَخِيلًا لَهُ حَقِّي الْمَمَاتِ خَلِيلُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَخْلَ يُزْرَى بِأَهْلِهِ	فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَقْرِ لَوْ عَلِمْتُهُ	إِذَا نَالَ خَيْرًا أَنْ يَكُونَ يُنِيلُ
فِعَالِي فِعَالُ الْمُكْثَرِينَ تَجَمَّلًا	وَمَالِي كَمَا قَدْ تَعَلَّمِينَ قَلِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أَحْرَمُ الْفَنَى	وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلُ

قال الرشيد : لا تخف إن شاء الله ، لله در أبيات تأتينا بها ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له إسحاق : وصفك لشعري أحسن منه . فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها مائة ألف ، قال الأصمعي : فعلمت يومئذ أن إسحاق أصيد للدرهم مني .

نبوغه فى فنّه

العجيب من أمره أنه لم يكن حسن الصوت ، فكان يجتمع مع المغنين ، وكلهم أحسن منه صوتاً ، ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلطفه ، وحذقه ، ومعرفته حتى يغلبهم جميعاً ، ويفضلهم ويتقدم عليهم .

وبلغ من حذقه أنه كان يميز الخطأ فى الضرب من جارية بين عشرين يضرين جميعاً فيعين موضع الخطأ ، بما لا يقدر أحد أن يهتدى إليه غيره .

حدث أن المأمون دعاه ، وعنده إبراهيم بن المهدي ، وفى مجلسه عشرون جارية يضرين فأنكر إسحاق خطأ من واحدة منهن ، وبأن عليه الإنكار ، فقال له المأمون : أسمعت خطأ ، قال : نعم ، ثم قال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمع خطأ ؟ فقال : لا ، وتجادل هو وإبراهيم فى هذا الشأن ، فقال إسحاق المأمون : مر الجوارى اللاتى على اليمين أن يمسكن ، فأمرهن بالإمساك ، ثم ضربت الجوارى التى على اليسار وحدهن ومازال يسكت بعضاً ويأمر بعضاً حتى انتهى إلى موضع الخطأ فأمر الجارية الخطئة أن تضرب وحدها فظهر الخطأ جلياً لإبراهيم ، وكان يكابر فيه ، فقال له المأمون : لا تمار إسحاق بعدها ، فإن رجلاً عرف الخطأ بين ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجدير ألا تماريه . قال : صدقت .

وقد ذكر صاحب الأغاني فى بيان فضله أنه هو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده ، ولم يكن قديماً مميّزاً على هذا الجنس ، إنما كان يقال : الثقيل ، وثقيل الثقيل ، والخفيف ، وخفيف الخفيف ، وقد جعل إسحاق الثقيل الأول أصنافاً فبدأ بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ، ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ، ثم فعل هذا بما كان بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين ، ولم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلاً من أن يصنفه فى كتاب ، وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى

أتى على كل مارسمته الأوائل مثل أقليدس ، ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى وقد وافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا .

بعض نواتره وألحانه

حدث حماد ابنه أنه حدثه قال : غدوت يوما ، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجت ، وركبت بكرة ، وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرج ، فقلت لغلماني : إن جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه أنني بكرت في بعض مهماتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت ، ومضيت فطفت ما بدا لي ، ثم عدت ، وقد حى النهار فوقفت في الشارع المعروف بالحرم في فناء نخين الظل ، وجناح رحب لأستريح فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمرا فارها ، عليه جارية راكبة تحتها منديل ديبقى ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا فاترا ، وشمائل حسنة ، فحرصت عليها أنها مغنية ، فدخلت الدار التي كنت واقفا عليها ، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جميلان فاستأذنا ، فأذن لهما ، فزلا ونزلت معهما ، ودخلت فظننا أن صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار أنني معهما ، فجلسنا وأتى بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية ، وفي يدها عود فغنت وشربنا ، وقمت قومة ، وسأل صاحب الدار الرجلين عنى ، فأخبراه أنهما لا يعرفاني ، فقال : هذا طفيلي ولكنه ظريف فأجلوا عشرته ، وجئت فجلست ، وغنت الجارية في لحن لى :

ذكرك أن مرت بنا أم شادن أمام المطايا تشرب وتسبح

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في متنها يتوضح

فأدته أداء صالحا وشربت ثم غنت أصواتا شتى وغنت في أضعافها من صنعى :

الطُّلُوبُ الدَّوَارِسُ فارَقَتْهَا الْأَوَانِسُ

أَوْحَشَتْ بَعْدَ أَهْلِهَا فَهِيَ قَفْرٌ بَسَائِسُ

فكان أمرها فيه أحسن من الأول ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث وغنت في
أثنائها من صنعتي :

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَاتِيَا وَنَأَى عَنْكَ جَانِبَا
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِي أَرَدْتَ وَإِنْ كُنْتَ لَاعِبَا

فكان أصلح ما غنته فاستعدته منها لأصححه لها فأقبل على رجل من الرجلين وقال :
ما رأيت طفلياً أصفق وجهاً منك ، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل :
طفيلي مقترح . فأطرقت ولم أجبه وجعل صاحبه يكفه فلا يكف ، ثم قاموا للصلاة
وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقتة وأصلحته إصلاحاً محكماً وعدت
إلى موضعي فصليت وعادوا ثم أخذ ذلك الرجل في عربدته على وأنا صامت . ثم
أخذت الجارية العود فجسته وأنكرت حاله وقالت : من مسّ عودي ؟ قالوا ما مسه أحد
قالت : بلى والله لقد مسه صادق متقدم وشد طبقتة وأصلحه إصلاحاً متمكناً من صناعته
فقلت : لها : أنا أصلحته ، قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأً
صحيحاً ظريفاً عجيباً صعباً فيه نقرات محرّكة ، فما بقي أحد إلا وثب وجلس بين يدي ،
ثم قالوا : ياسيدنا ، أتغني ؟ فقلت : نعم ؛ وأعرفكم نفسي أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي
ووالله إني لأنبه على الخليفة إذا كلني ، وأتم تسمعونني ما أكره منذ اليوم لأنني تملحت
معكم ، فوالله لا نطق بحرف ، ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغث
فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطق بحرف
ولا جلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا ، فبدأت وغنيت الأصوات
التي غنتها الجارية من صنعتي ، فقال لي الرجل : هل لك في خصلة ؟ قلت : وما هي ؟
قال : تقيم عندي شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلي ؛ قلت : أفعل فأقمت
عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحد أين أنا والمأمون يطلبني في كل موضع فلا يعرف لي خيراً
فلما كان بعد ثلاثين يوماً أسلم إلى الجارية والحمار والخادم ، فجئت بذلك منزلي ،

وركبت إلى المأمون من وقتي ، فلما رآني قال إسحاق : ويحك !! أين تكون ؟ ،
فأخبرته بخبري ، فقال : على بالرجل الساعة . فدللتهم على بيته ، فأحضر فسأله المأمون
عن القصة فأخبر ، فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ، وأمر له
بمائة ألف درهم ، وقال : لاتعاشرن ذلك المعربد النذل البتة ، وأمر لي بخمسين
ألف درهم ، وقال : أحضرني الجارية فأحضرتها فغنته ، فقال لي : قد جعلت لك نوبة
في كل يوم ثلاثاء تغنين مع الجوارى من وراء الستار ، وأمر لها بخمسين ألف درهم .

وحدث حماد عن أبيه قال : خرجنا مع الرشيد يريد الرقة ، فلما صرنا بالموضع الذي
يقال له القائم : نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد في طلب الصيد ، ولاح لي دير
فقصدته وقد تعب ، فأشرف على صاحبه ، فقال : هل لك في النزول بنا اليوم ؟ فقلت :
إي والله ، وإني إلى ذلك محتاج ، فنزل ففتح لي وجلس يحدثني ، وكان شيخاً كبيراً ،
وقد أدرك دولة بني أمية ، فجعل يحدثني عن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم ،
وعرض على الطعام فأجبت ، فقدم إلى طعاما من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت
منه وأتاني بشراب وريحان طرى فشربت منه ، ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم أر
أحسن منها وجهاً ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت واتنبت عشاء ، فقلت :
في ذلك :

بَدِيرِ الْقَائِمِ الْأَفْصَى غَزَالُ شَادِنُ أُخْوَى
بَرَى حُبِّي لَهُ جَسَدِي وَلَا يَعْلَمُ مَا أَلْقَى
وَأَكْتُمُ حُبَّهُ جُهْدِي وَلَا وَاللَّهِ مَا يُخْنِي

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب فطلبني فلم أوجد وأخبرت بذلك
فغنيت في الأبيات ودخلت إليه فقال لي : أين كنت ويحك ؟ فأخبرته الخبر وغنيت
الصوت فطرب وشرب عليه وآخر الرحيل في غد ومضينا إلى الدير ونزل فرأى الشيخ
واستنطقه ، ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ،

ودعا بالشراب ، وأمر الجارية أن تتولى خدمته ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين .

سأل المتوكل عن إسحاق الموصلي فعرف أنه قد كف ، وأنه بمنزله ببغداد فكتب بإحضاره ، فلما دخل إليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة ، وقال له : بلغني أن المعتصم دفع إليك مخدة في أول ما جلست بين يديه وهو خليفة ، وأنه قال : ما يستجلب ما عند حر بمثل الكرامة ، ثم سأله هل أكل ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يسقى ، فلما شرب أقداحاً . قال : هاتوا لأبي محمد عوداً فحىء به فاندفع يغنى بصوت (الشعر فيه والغناء له) :

مَا عِلَّةَ الشَّيْخِ عَيْنَاهُ بِأَرْبَعَةٍ تَغْرُورِقَانِ بِدَمْعٍ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

فما بقى غلام من الغلمان الوقوف إلا رقص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى رقة بوصرا وكان يستطيعها لكثرة تغريد الأطيار بها فغنى إسحاق :

أَنَّ هَتَفَتْ وَرَقَاءَ فِي رَوْثِ الصُّحَى عَلَى غُصْنٍ غَضَّ الشَّبَابِ مِنَ الرَّثَدِ
بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْحَزِينُ صَبَابَةً وَشَوْقًا وَتَابَعْتُ الْحَنِينَ إِلَى نَجْدِ

فضحك المتوكل ، وقال له يا إسحاق : هذه أخت فعلتك بالوائق لما غنيتها بالصالحية :

طَرِبْتُ إِلَى أَصْيَبِيَّةٍ صِغَارٍ وَذَكَرَنِي الْهَوَى قَرِبَ الْمَزَارِ

فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف ؟ قال : مائة ألف ، فأمر له بمائة ألف درهم وأذن له بالانصراف إلى بغداد فكان هذا آخر العهد به لأن إسحاق توفى بعد ذلك بشهرين .

وفاته

توفى ببغداد في خلافة المتوكل ، وكان يسأل الله ألا يبتليه بالقولنج لما رأى من صعبته على أبيه ، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له : قد أجبت دعوتك ولست تموت بالقولنج ولكن بضده ، فأصابه ضرب في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ ، فكان يتصدق في كل يوم يمكنه أن يصومه بمائة درهم ثم ضعف عن الصوم فمات في نفس الشهر .

لما نعى إلى المتوكل ، وكان ذلك في وسط خلافته اغتمّ وحزن وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ثم نعى إليه بعده أحمد بن عيسى (وكان المتوكل يخشاه) فقال تكافأت الحالتان وقام الفتح ب وفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق ، فالحمد لله على ذلك .

ولما مات إسحاق رثاه كثير من الشعراء . ومما قاله فيه محمد بن عمرو الجرجاني :

على الجدث الشرقي عوجاً فسماً ببغداد لما ضنَّ عنه عوائدُ
وقولاً له لو كان الموت فديةً فذاك من الموت ، الطريف وتألده
إسحاق لا تبعد وإن كان قد رمى بك الموت ورذاً ليس يصدر وأردده
إذا هزل اخضرت فنون حديثه ورقّت حواشيه وطابت مشاهدُه
وإن جدّ كان القول جدّاً وأقسمت مخارجِه ألاّ تلين معاقده
فبكّ على ابن الموصلي بعبرة كما ارفض من نظم الجمّان فرائده

انتهى والحمد لله ما أردنا به خدمة العلم ، ونفع الطلبة ، خالصاً لوجه الله . ورجاؤنا إليه تعالى أن يكون الجزاء على جهلنا فيه ، النفع به وحسن التقدير من كل من اطلع عليه .

— ٥٦٢ —

وكان الفراغ من إعدادة في صبيحة يوم الخميس ٢٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٢ هـ
الموافق ١١ يناير سنة ١٩٣٤ م ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه
وسلم وعلى آله الأجداد .

محمود مصطفى

تمّ الجزء الثاني

ويليه : الجزء الثالث

وأوله

حياة اللغة في الأندلس

تفسيه

كثير من الخطأ الذي نصصححه هنا لا يحتاج إلى الدلالة عليه لوضوحه لكل قارئ ، ولكننا إمعاناً في الدقة نبهنا على كل ما وقع في الكتاب من مخالف للصواب ، ونكاد نكون موقنين أن القارئ إذا بدأ بإثبات الصواب في موضعه من الكتاب لا يعثر بخطأ بعد ذلك .

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠	١٧	خَوَارَزْمِيَّة	خَوَارَزْمِيَّة
١٢	٨	ولم يقتصروا	ولم يقتصروا
٢٤	٢٠	(وتكسر اللام الثانية)	(تفتح وتكسر ...)
٢٥	٩	والخولنجان والآزيون	والخولنجان والآزيون
٢٩	٣	فعبى	فعبا
٤٤	٥	والكرج	والكرج
٤٦	١٧	أحرف	أحرفا
٦١	٢	بهظها	بهظنا
٦٧	٧	لَتَسْأَلَنَّ	لَتَسْأَلَنَّ
٧٢	٦	والاستعانة كما	والاستعانة به كما
٧٣	١٣	ومثلت	ومثلت
٧٦	٩	تلك البلد	تلك البلدة
٨١	٤	اشترطوا	فاشترطوا
٨٩	١٧	ولا حالوا	ولا حاولوا
٩٨	٥	في ساق	في سياق

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠٤	٥	يَشْنُوكَ	يَشْنُوكَ
١٠٥	٩	وَأَنَّ بَذَل	وَأَنَّ بَذَل
١١٢	٤	وَاللَّحْمَةُ	وَالْحُمَةُ
١١٧	١٠	لَصْدَمُكَ	لَصْدَمُكَ
١١٩	٨	الْمُشَاقَّةُ	الْمُشَاقَّةُ
١٢٠	٨	وَتَسْتَكْمِلُ	وَتَسْتَكْمِلُ
١٢٤	١٦	يَنْتَجِزْهَا	يَنْتَجِزْهَا
١٣٩	٧	وَقَصْر	وَقَصْر
١٣٩	١٥	وَضَوْءُهُ	وَضَوْءُهُ
١٤٠	٢٠	وَالْقَوَانِينِ	وَالْقَوَانِينِ
١٤٦	٢١	(صَد)	(ضَد)
١٥٥	٧	تَهْدَام	تَهْدَام
١٧١	٤	وَاحْضَرَّ	وَاحْضَرَّ
١٧٢	١٣	أَظْفَنَّا	أَظْفَنَّا
١٨٧	١٨	الْفَضْلُ مِنَ الرَّبِّيعِ	الْفَضْلُ مِنَ الرَّبِّيعِ
١٩٤	١٢	يَلْعَبُونَ	يَلْعَبُونَ
١٩٥	٢١	وَقَعَا	وَقَعَا
١٩٦	٢٠	مَرَّبَ	مَرَّبَ
٢٠٣	١٧	كَكَثِيرِ لَبْنِي	كَكَثِيرِ عِزَّةِ وَقَيْسِ لَبْنِي
٢١٦	٩	مِنْ مَجْلَسٍ	مِنْ مَجْلَسٍ
٢٢١	١٦	عَقِبَهُ	عَقِبَهُ

- ٥٦٥ -

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٢٧٢	٢٤	ويقرأ	ويقرأ
٢٩٨	١٨	الغامرة	المغامرة
٣٠٤	١٣	أغنت	غنت
٣٠٩	٧	المرأة	المرءة
٣٢٢	٧	ومن	من
٣٢٥	٣	ثم ففرض	ثم فرض
٣٣٥	١٩	عيون	عيون
٣٣٦	١٨	أذريونة	آذريونة
٣٣٧	٦	عقودها	عقودها
٣٤٤	٢	خزانه	خزانه
٣٤٤	١٩	تكن	تكن
٣٥٩	١٢	أسودا	أسودا
٣٦٧	٣	في	بي
٣٦٧	٩	وبنيهم	وبنيهم
٣٧٢	٦	لا جزء	لا جزء
٣٩٥	٢	بها	بهما
٣٩٨	٤	والطحا	والطحا
٤٠٢	٢	النميري	النميري
٤٠٢	١٩	طبقة بن	طبقة ابن
٤٠٣	١٠	وصر دُر	وصر دُر
٤٠٨	٦	وكانا بشار	وكان بشار

— ٥٦٦ —

الصفحة	السطر	الخط أ	صوابه
٤١٣	١٣	زنديقا	زنديقا
٤١٣	١٥	كان	كان
٤٢١	١١	الأولى	الألى
٤٣٣	٦	الأحداث	الأجداث
٤٤٥	١٥	نفوس	نفوس
٤٤٧	١٥	ورايات . . . وجنود	ورايات . . . وجنود
٤٦٣	١٤	التزام	الالتزام
٤٦٨	١٣	تحت	تجنت

فهرس

صحيفة	الموضوع	صحيفة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الأولى والثانية	٥٠	الخطابة
٤	العصر العباسى	٥٦	خطباء العصر العباسى
	قيام الدولة العباسية	٥٨	نماذج من خطب الخلفاء والولاة
٧	سياسة الدولة العباسية	(١)	خطبة لأبى العباس السفاح
٩	نتائج مداخللة العرب للموالى	٦٠	(٢) » له أيضاً
١٥	أقسام العصر العباسى	٦٣	(٣) » » »
١٦	المدة الأولى	(٤)	» لسليمان بن على
١٧	المدة الثانية	٦٤	(٥) » لأبى جعفر المنصور
١٨	المدة الثالثة	٦٥	(٦) » المهدي
٢١	تأثير اللغة الفارسية فى اللغة العربية	٦٧	(٧) » الرشيد
٢٣	التعريب	٧٠	(٨) » المأمون
٢٧	معانى اللغة وأغراضها	٧١	(٩) » لطاهر بن الحسين
٢٨	(١) اتساع الخيال	(١٠)	» لعبد الله بن طاهر
٣٠	(٢) المبالغة الشديدة	٧٢	نموذج من خطب أئمة المساجد
٣٢	(٣) الإكثار من الحكمة والمثل الخ		خطبة لابن نباتة خطيب حلب
٣٨	لغة التخاطب	٧٤	نماذج من أقوال الوعاظ
٤٣	اختلاف العامية فى الأقاليم	٧٨	الكتابة
٤٨	ألفاظ من العامى والمولد	٧٩	كتابة الدواوين

صحيفة	الموضوع	صحيفة	الموضوع
٨٣	آثار العصر في الكتابة	١٠٥ (٧)	كتاب لابن الزيات
٨٩	اختلاف أساليب الرسائل	١٠٦ (٨)	» » »
	(١) في المدة الأولى	(٩)	» الحسن بن وهب
٩٠	(٢) » » الثانية		في الشكر
٩١	(٣) » » الثالثة	١٠٧ (١٠)	كتاب لجعفر بن محمد بن الأشعث
٩٣	التوقيعات	(١١)	» على بن هشام
٩٥	أمثلة التوقيعات	(١٢)	» للعتابي
٩٧	المقامات	١٠٨ (١٣)	» لطاهر بن الحسين
٩٩	الكتابة العلمية		إلى ابنه عبد الله حين ولى
١٠٢	نماذج من كتابة البلاغ في المدة الأولى من العصر العباسي		ديار ربيعة
	(١) كتاب المنصور إلى أبي مسلم	١١١ (١٤)	كتاب لطاهر بن الحسين
	وردّ أبي مسلم عليه	(١٥)	» لأحمد بن يوسف
١٠٣	(٢) كتاب ثان من المنصور إليه	١١٢ (١٦)	» » »
	(٣) كتاب ليحيى إلى الفضل	١١٣ (١٧)	» الهامون [توقيع]
	البرمكيين	(١٨)	» لأحمد بن يوسف
١٠٤	(٤) كتاب لطاهر بن الحسين	(١٩)	» » »
	إلى الفضل بن سهل	١١٤ (٢٠)	» » »
	(٥) وصف الصديق لابن المقفع	(٢١)	» لعمر بن مسعدة
١٠٥	(٦) لابن المقفع يطلب حاجة	١١٥ (٢٢)	» » »
		(٢٣)	» لإبراهيم بن العباس
			الصولى

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
كتاب للقاضى الفاضل في وصف حمام الرسائل	١٢٦ (٢)	كتاب لإبراهيم بن العباس الصولى	١١٦ (٢٤)
كتاب للقاضى الفاضل عن لسان صلاح الدين الأيوبى	(٣)	نماذج من كتابة البلغاء فى المدة الثانية من العصر العباسى	
قطعة من كلام عماد الدين الأصفهاني فى كتابه (الفتح القسى ، فى الفتح القدسى)	١٢٧ (٤)	كتاب لابن العميد إلى بلكا بن ونداد	١١٧ (١)
كتاب للقاضى الفاضل فى الشوق	١٢٨ (٥)	كتاب لابن العميد إلى صديق تزوجت أمه على رغبة	١١٩ (٢)
كتاب للقاضى الفاضل فى الشوق	١٢٩ (٦)	كتاب للصاحب بن عباد إلى ابن العميد	١٢١ (٣)
من المقامة الرابعة والعشرين للحريرى	١٣٠ (٧)	كتاب للصاحب بن عباد فى مصحف أهلى إليه	١٢٢ (٤)
من المقامة السادسة المراغية للحريرى	١٣١ (٨)	كتاب لأبى إسحاق الصابى فى الاستراحة	١٢٣ (٥)
من المقامة السادسة عشرة المغربية للحريرى	١٣٢ (٩)	كتاب لأبى إسحاق فى الاعتذار من تأخر الكتب	١٢٤ (٦)
من المقامة السابعة عشرة القهقرية للحريرى	(١٠)	كتاب رجل إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر فى الشكر	(٧)
مقالة فى ذم الحرص للزنجشرى	١٣٤ (١١)	نماذج من كلام البلغاء فى المدة الثالثة من العصر العباسى	١٢٥
		كتاب للقاضى الفاضل على لسان خطيب عيذاب	(١)

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
١٤٤ مؤهلات فضله		١٣٤ (١٢) مقالة في حفظ اللسان	
١٤٧ تصرفه وأحواله		للزخشرى	
١٤٩ بين الخوارزمى وبديع الزمان		١٣٥ (١٣) مقالة في الحث على الجد	
١٥٢ نثره وشعره		للزخشرى	
١٥٤ مختار قوله		نماذج من الكتابة العلمية في	
١٥٨ (٢) بديع الزمان الهمذاني		العصر العباسى	
نشأته وتصرفه		(١١) قطعة من كتاب الخراج	
١٦٠ نبوغه		لأبى يوسف	
١٦٣ مقاماته		١٣٦ (٢) قطعة من كتاب سيبويه	
١٦٤ أسلوبه		١٣٧ (٣) قطعة من كتاب الحيوان للحافظ	
١٦٥ مختار قوله من رسائله		بعنوان « القول في الحيات »	
١٧٠ المختار من مقاماته		١٣٨ (٤) قطعة من كتاب الموازنة بين	
١٧٣ » » شعره		أبى تمام والبحترى	
١٧٥ العلوم في العصر العباسى		١٣٩ (٥) قطعة من كتاب أسرار البلاغة	
١٧٧ أقسام العلوم - العلوم اللسانية -		بعنوان « في مواقع التمثيل »	
النحو		١٤٠ (٦) قطعة من كتاب إحياء	
١٨٠ الفروق بين مذهبي البصريين		علوم الدين للغزالي	
والكوفيين		(٧) قطعة من كتاب إحصاء	
١٨١ علم اللغة		العلوم للفارابى	
١٨٧ علوم البلاغة		١٤١ تراجم الكتاب	
١٩٢ علم العروض		(١) أبوبكر الخوارزمى - نشأته وتعلمه	

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
٢٤٥	تقلبه في عمله	١٩٣	هل للعروض أصل
٢٤٦	ديانته	١٩٤	علماء العروض
٢٤٩	أسباب قتله	١٩٦	مصطلحات العروض
٢٥١	أخلاقه	١٩٨	علم الأدب
٢٥٣	علمه وبلاغته	١٩٩	أولية الأدب العربي
٢٥٧	اثاره	٢٠٢	الأسماء والخرافات
٢٦٠	كلىة ودمنة	٢٠٤	القصص المترجمة
٢٦٣	مختار من كلامه فى الأدب الصغير	٢٠٦	العلوم الشرعية - التفسير
٢٦٤	» » » » » الكبير	٢٠٨	علم الحديث
٢٦٥	من كلىة ودمنة	٢١١	» الفقه
	من رسائله	٢١٤	» الكلام
٢٦٦	حياة الجاحظ - نسبه - نشأته	٢١٩	السير والتواريخ
٢٦٧	بيئته	٢٢٧	ترجمة العلوم فى العصر العباسى
٢٦٩	مؤهلاته		العلم فى الأمم المعاصرة للعرب
٢٧٠	نواده	٢٢٩	أدوار الترجمة
٢٧٣	معتقده	٢٣٣	نقل العلم لغير الخلفاء
٢٧٤	أسلوبه	٢٣٤	إحصاء الكتب المترجمة
٢٧٧	آثاره	٢٣٥	إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة
٢٧٨	مبلغ تحقيقه وبجته	٢٣٦	أثر الترجمة فى حضارة العرب
٢٧٩	تعريف ببعض كتبه - كتاب	٢٤٢	» » » اللغة العربية
	الحيوان	٢٤٣	حياة ابن المقفع
٢٨٤	كتاب « البيان والتبيين »	٢٤٤	نشأته
٢٨٨	مرض الجاحظ وموته		

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
٣٥٩ نماذج من بقية الأغراض		٢٩٠ مدى شهرة الجاحظ	
٣٦٩ لفظ الشعر وأسلوبه		٢٩٢ مختارات من كلامه	
٣٧٥ أوزان الشعر وقوافيه		٢٩٧ مجالس العلم والمناظرة	
٣٨٣ المولدون أو المحدثون		٣٠٠ أمثلة من المناظرات الأدبية	
٣٨٥ محاسن المولدين في الشعر		٣٠٦ المناظرات في العقائد	
٣٩٣ مساوئ » » »		٣٠٧ القول بخالق القرآن	
٣٩٩ أمثلة من ضبط العلوم بالنظم		٣١٠ المدارس في الدولة العباسية	
باب الشرط والجزاء من كتاب		٣١٦ الجامع الأزهر	
« ملححة الإعراب »		٣١٧ الشعر في الدولة العباسية	
٤٠٠ تعريف الحد (من أرجوزة		منزلة الشعر	
ابن سينا في المنطق)		٣٢٤ شأن الشاعر	
٤٠١ طبقات الشعراء العباسيين		٣٢٨ معاني الشعر	
٤٠٤ بشار بن برد		٣٢٩ المعاني القديمة	
٤٠٧ خلقه وخلقه		٣٣٤ » الجديدة	
٤١٢ آراؤه ومعتقداته		٣٤٠ أغراض الشعر	
٤١٣ شاعريته		٣٤٢ نماذج من أغراض الشعر	
٤١٩ الأغراض في شعره		المدح	
٤٢٩ الآراء في بشار		٣٤٨ الهجاء	
٤٣١ حياة أبي العتاهية - نسبه		٣٥٣ شعر السياسة	
٤٣٤ أوصافه ومعتقداته		٣٥٦ الغزل بالمدح	
٤٣٧ علاقته بالخلفاء وغيرهم			
٤٤٣ شعره			

- ٥٧٣ -

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
رواية الأدب	٥٣٣	٤٥٤ حياة أبي تمام - نسبه	
حياة الأصمعي	٥٣٦	٤٥٥ نشأته وتصرفه	
نوادير الأصمعي	٥٣٨	٤٥٨ صفاته ومزاياه	
آثار الأصمعي	٥٤٠	٤٦٣ شعره	
الغناء والمغنون	٥٤١	٤٧٠ العيوب في شعره	
عناية الخلفاء بالغناء	٥٤٢	٤٧٣ الأغراض في شعره	
قديم الغناء وحديثه	٥٤٥	٤٨٠ آثاره	
تعليم الجوارى	٥٤٦	٤٨١ حياة البحترى - نسبه - نشأته	
مبلغ إجادة الغناء	٥٤٨	٤٨٧ منادمته المتوكل	
أيام العباسيين		٤٩٠ البحترى مع المنتصر ومن بعده	
التأليف في الغناء	٥٥١	من الخلفاء	
مصطلحات الأغاني		٤٩٢ شعر البحترى	
إسحاق الموصلي	٥٥٤	٤٩٥ أغراض الشعر عنده	
نبوغه في فنه	٥٥٦	٥٠٧ آثار البحترى وما قيل فيه	
بعض نوادره وألحانه	٥٥٧	٥٠٨ سرقاته	
وفاته	٥٦١	٥١٠ النقد والموازنة في العصر العباسي	
		٥٣١ الرواية والرواة	

تعريف

الأدب العربي في بلاد المغرب

لـلـؤـلـف

يقع في حجم أخويه : الأول ، والثاني ، وتمثل فيه العناية التي
تمثلت فيهما ، من الضبط وتمام الشرح وتحقيق الرواية .

وهو يصف حياة العربية في الأندلس ، منذ فتحها إلى خروج
المسلمين منها ، كما يلمّ إلمامة مناسبة بحياتها في بلاد المغرب ، ويعلل نبوغ
الفايغين من رجاله .

ويتناول أكثر من نصف الكتاب كلام مفصل عن حياة اللغة
بالمشرق بعد انقضاء الخلافة ببغداد واستقرارها بمصر ، في تصوير
حسن لعصرى المماليك ، والأترار العثمانين .

أما العصر الحاضر ، فقد خصه من الكتاب قرابة مائتي صفحة ،
وحوى مادة لم يسبق لكتاب عربي أن حواها في الحكم على هذا العصر ،
ومناحي اللغة فيه .

